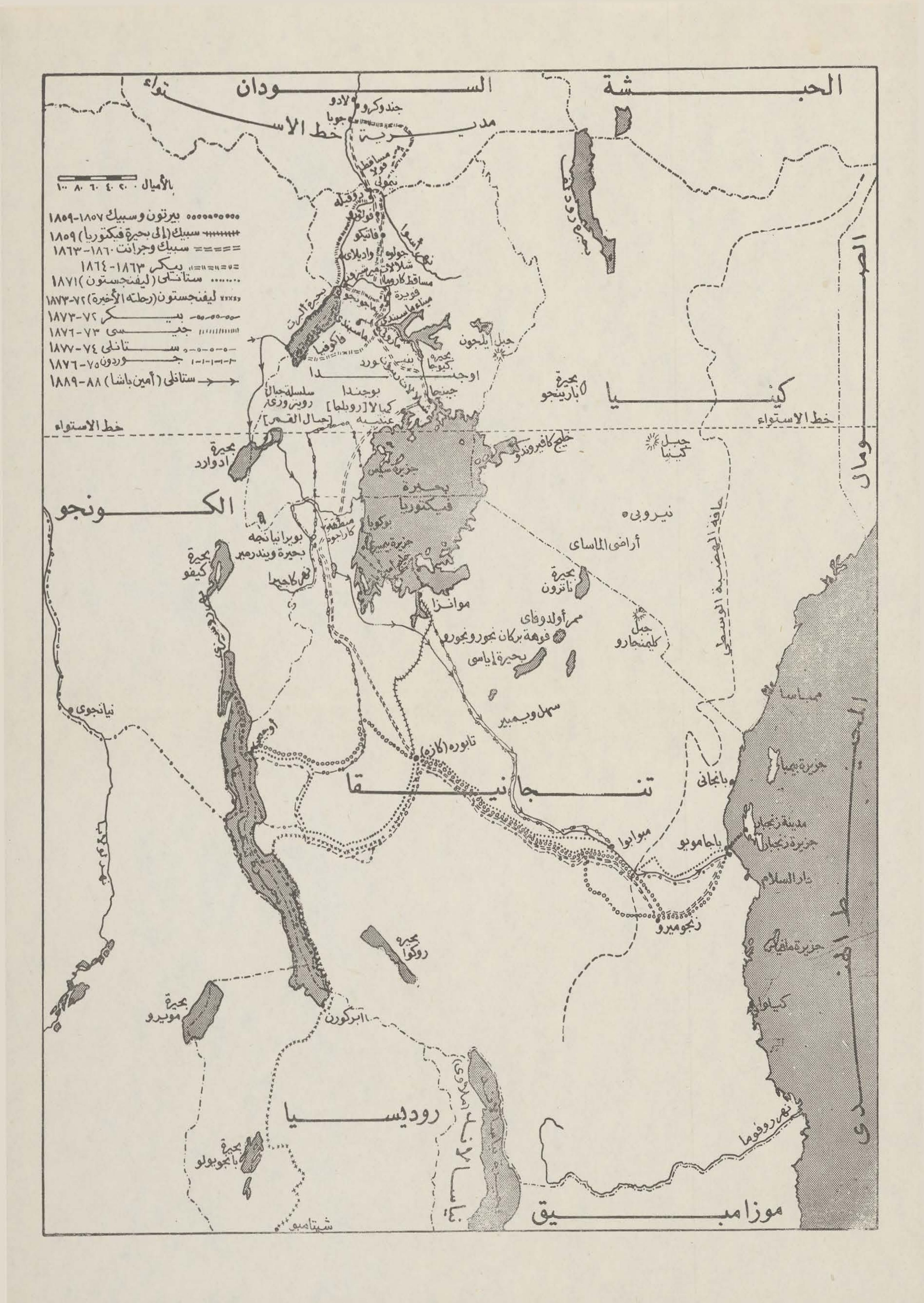


أشهر الكتب الجديدة فى العالم
النيل الأبيض
تأليف آلان مورهيد
ترجمة محمد بدر الدين خليل
دار المعارف بمصر
١٩٦٥
Dr. Binibrahim Archive



ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

النيل الأبيض



الحبشة
السودان
خط الاستواء
بالأميال ٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠
بيرتون وسبيك ١٨٥٧-١٨٥٩
سبيك (إلى بحيرة فيكتوريا) ١٨٥٩
سبيك وجرانت ١٨٦٠-١٨٦٣
بيكر ١٨٦٣-١٨٦٤
ستانلى (ليفنجستون) ١٨٧١
ليفنجستون (رحلته الأخيرة) ٧٢-١٨٧٣
بيكر ٧٢-١٨٧٣
جيسى ٧٣-١٨٧٦
ستانلى ٧٤-١٨٧٧
جوردون ٧٥-١٨٧٦
ستانلى (أمين باشا) ٨٨-١٨٨٩
خط الاستواء
جندوكرو
لادو
جوبا
مديرية خط الاستواء
فاتيكو
نمولى
بحيرة ألبرت
جبل إلجون
بحيرة كيوجا
أوجندا
بوجندا
جينجا
بحيرة باريجو
كينيا
خط الاستواء
بحيرة ادوارد
خليج كافيروندو
جبل كينيا
بحيرة فيكتوريا
الكونجو
نيروبى
أراضى الماساى
بحيرة ناترون
بحيرة كيفو
موانزا
جبل كليمنجارو
بحيرة إياسى
سهل ويمبير
نيانجوى
تابوره (كازه)
تنجانيقا
مومباسا
جزيرة بمبا
بانجانى
مبوابوا
باجامويو
مدينة زنجبار
جزيرة زنجبار
دار السلام
زنجوميرو
بحيرة روكوا
جزيرة مافيا
بحيرة مويرو
ابركورن
روديسيا
بحيرة بانجويولو
نهر روفوما
موزامبيق
شيتامبو

النيل الأبيض

اشهر الكتب الجديدة فى العالم

النيل الأبيض

تأليف

الان مورهيد

ترجمة

محمد بدر الدين خليل





دار المعارف بمصر

١٩٦٥



كلمة من المترجم

عند ما شرعت فى ترجمة هذا الكتاب ، وجدتنى أمام مشكلة طالما اعترضت كل مترجم ينظر إلى الترجمة كرسالة وفن ، ألا وهى : إلى أى مدى يجوز للمترجم أن يتحرر من الأصل الأجنبى ، دون إخلال بالأمانة . . . الأمانة نحو المؤلف الذى سكب تجاربه وآراءه وانفعالاته فى الكتاب بأسلوب معين ، والأمانة نحو القارئ الذى يبتغى من الترجمة نافذة يطل منها على المعرفة والثقافة ؟

ذلك لأن « ألان مورهيد » — مؤلف هذا الكتاب — وإن حرص على التزام حيدة المؤرخ ، أو تظاهر بالحرص لم يتمالك أن يظهر بين آن وآخر ، شيئاً مما عهدناه من العقلية الاستعمارية . . . فهو يصور العرب والإسلام فى أفريقيا بصورة يبدو خلالها الحقد ، ويحاول أن يلصق بهما كل نوائب التأخر الذى ران على أفريقيا زمناً . . . ثم يحاول فى عرضه لنهضات أفريقيا التحررية ، أن يصور الكفاح من أجل الحرية والكرامة بصورة حرب دينية بين الإسلام والمسيحية ، ويعرب عن اعتقاده بأن هذه الحرب لم تنته بعد ، برغم ما يراه العالم أجمع من تعايش الإسلام والمسيحية واليهودية المنزهة عن سموم الصهيونية ، والوثنية — فى سلام ، فى طول القارة وعرضها ..

وقد يكون لمورهيد العذر ، فإن معظم المراجع التى اعتمد عليها ، كانت من كتابات رحالين أو موظفين أو مبشرين — أغلبهم من البريطانيين — وجميعهم جاؤوا برسالة ظاهرها الأخذ بأيدى أهل القارة إلى المدنية ، وإلى معرفة الله . . . وباطنها توطئة القارة البكر لأطماع المستعمرين .

ولكن هذه اللمحات من التحامل ، أو الانسياق وراء تغرير المراجع ، لا تذهب بقيمة الكتاب كمصدر يعرف بأهم رافد من روافد نيلنا العظيم ، وبحقبة من تاريخ قارتنا ، كان لبلادنا فيها دور ليس بالهين ، فهل يُحرم القارئ العربى من الكتاب ، نفوراً من الشوائب ، التى شابته ؟ . . . أو تُرْفع من الترجمة هذه الشوائب ؟ . . . وهل إذا حُجِبت الشوائب عن القارئ العربى ، وتركت

لقراء اللغات الأخرى ، يكون المترجم قد أدى واجباً يرضى الشعور القومى ، ويرضى فنه كمترجم ؟ . . . أوليس الأفضل أن يطّلع عليها العرب ، عسى أن تحرك فيهم روح البحث وراء الحقائق ، فى مجال كانت صلتهم به وثيقة من أقدم العهود ، ولكن الاستعمار الغربى حرص على أن يقصيهم عنه ، وأن يقطع روابطهم به ؟ . . وأقصد المجال الأفريقى .

كل هذه الخواطر ساورتنى ، فدرست الكتاب دراسة دقيقة ، وسرعان ما تبينت أن المؤلف — بلمحات التحامل — إنما أحسن إلينا معشر العرب ، إذ قدم لنا رؤوس موضوعات يجدر بالمؤرخين وأهل الفكر أن يعنوا بها . . . فمن الغريب حقاً ، أن أحداً لم يعن عناية كاملة ، أو على نطاق واسع ، بدراسة علاقة العرب والإسلام بما كان يسمى « مجاهل أفريقيا » قبل أن تنفذ أضواء التحرر خلال حجب الجهل التى فرضها الاستعمار . . . أو قد يكون هناك من عنوا بذلك ، ولكن الظروف لم تهيئ لدراساتهم أن تظهر للنور ، أو أن تلقى رواجاً . . . وبوسعنا اليوم — وأهم دور النشر مؤسسات لخدمة الشعب ، قبل التماس الكسب — أن نعوض هذه الدراسات ما فاتها من انتشار .

وعندى أن علاقة العرب والإسلام بأفريقيا عامة ، وبالسودان وحوض النيل خاصة ، وعلاقة الجمهورية العربية المتحدة بالذات بالناحيتين ، ليست مما تكفى فى بحثها جهود فردية . . . وحبذا لو اهتم المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، والجامعات بالجمهورية ، ووزارتا الثقافة والإرشاد ، والمؤتمر الآسيوى الأفريقى ، ومنظمة الوحدة الأفريقية . . . حبذا لو اهتمت هذه الهيئات متكاتفة بتأليف لجان توفى هذا الميدان حقه .

من هذه الخواطر جميعاً ، انتهجت طريقى فى ترجمة هذا الكتاب . . .

كان الحذف أو التعديل ينأى بى عن الأمانة ، ولا يخدم غاية قومية . . .

وكان تصحيح الشوائب يخرج بالعمل عن نطاق الترجمة إلى العرض والتحليل .

والعرض والتحليل ليسا مقصودين بالذات ، من وراء نشر هذا الكتاب ، كما أنهما لن ينصفا الأصل ولا المؤلف ولا القارئ ولا الموضوع ، لا سيما أن الموضوع — كما ذكرت — أعظم من أن تتناوله جهود فردية . . .

كذلك كان نقل الكتاب بشوائبه ، سلبية لا تتفق واتجاهاتنا الحاضرة ؛ بعد أن تحررنا من القيود التى كانت مفروضة على ثقافتنا وتفكيرنا . . .

لذلك عمدت إلى النقل الأمين ما استطعت ، مع إضافة بعض « الهوامش » فى ذيل بعض الصفحات ، تعليقاً وتعقيباً فى المواضع التى لم أكن أملك السكوت عنها إلى أن تتألف اللجان التى أتمناها ، وبقدر ما أسعفتنى مواردى الفردية .

وكل أملى أن أكون قد وفقت إلى تقديم مادة نافعة للقارئ العادى ، وأبواباً للاجتهاد لأهل البحث والدراسات من المتخصصين . . .

والله ولى التوفيق .

محمد بدر الدين خليل

مقدمة المؤلف

لم يقدر لمنطقة من المناطق غير المستكشفة في عصرنا – بما في ذلك منطقة أعالي الهيملايا ، أو فيافي القطب الشمالي ، بل حتى الوجه المتواري من القمر) – أن تثير الخيال ، قدر ما أثاره لغز منابع النيل ! . . . فقد ظل هذا الموضوع يتردد على الألسن نحو ألفي عام – على الأقل – دون أن ينجلي . وكانت كل حملة توفد من مصر إلى أعالي النهر تعود خائبة ، حتى أصبحت المسألة – في أواسط القرن التاسع عشر – أعظم « معمية جغرافية » بعد كشف أمريكا ، على حد تعبير « هاري جونستون » !

ويقتصر المجال الزمني الذي يتناوله موضوع هذا الكتاب على الفترة بين عامي ١٨٥٦ و ١٩٠٠ . لذلك فلسنا نملك التعرض لما قبل ذلك من تاريخ النهر ، بغير الإيجاز الشديد :

يغلب على الظن أن « قدماء المصريين » عرفوا وادي النيل من البحر الأبيض المتوسط حتى موقع مدينة « الخرطوم » ، التي ينتهي إليها « النيل الأزرق» قادماً من جبال الحبشة . ومن المحتمل أنهم عرفوا كذلك شيئاً عن النيل الأزرق . أما المجرى الأصلي بعد الخرطوم جنوبياً – أي النيل الأبيض– فقد ظل موضوع تكهنات لا تنتهي ، ومثار اهتمام كل جغرافي في عصره .

وكان هذا أكثر من مجال عادي للارتياد والكشف . فقد كان النهر عصب الحياة في تلك الصحاري ، ولو أنه نضب – ولو لموسم واحد – لهلكت مصر كلها . ومن ثم كان عدم الدراية بمنبع النهر ، وعدم اليقين من استمراره ، معناهما عدم استقرار في العيش ، لا يطمئن البال إزاءه إلا إذا رد كل وهم إلى القضاء والقدر !

على أنه ليس ثمة ما ينبيء بأن النهر جف يوماً ما . فقد ظل الماء البني اللون يتدفق عارماً من جوف الصحراء ، دون أن يملك أحد تفسير سر ارتفاعه وتجاوزه مستوى ضفتيه في دلتا النيل ، في شهر سبتمبر – وهو أشد شهور السنة جفافاً وحراً في حوض البحر الأبيض المتوسط – ولا كيف أتيح للنهر أن يواصل جريانه ،

فى أدنى منسوباته ، لأكثر من ١٠٠٠ ميل – خلال أفظع صحراء عرفت – دون أن يستقبل فرعًا واحداً ، أو قطرة من المطر تقريبًا ؟

ولقد ارتاد « هيرودوت » أعالى النيل – حوالى سنة ٤٦٠ قبل الميلاد – حتى الشلال الأول ، عند أسوان ، ثم ارتد إذ تبين أن من المستحيل تمامًا أن يحصل على معلومات أكيدة عن منبع النهر. وكانت الفكرة المبهمة السائدة هى أنه كان ينبع من « عيون » فى مكان ما فى جوف أفريقيا ! ثم أرسل الإمبراطور « نيرون »[1] قائدين رومانيين على رأس حملة إلى بطاح « النوبة » – كما كان السودان يسمى – ولكنهما عادا دون أن يظفرا بشىء من التوفيق ، متذرعين بأن مستنقعًا لا سبيل إلى اجتيازه قد سد عليهما الطريق فى أقصاه ! . . . ولقد عرفت أوربا – فى القرون التالية لذلك – بلاد الصين ، واكتشفت أمريكا ، وأستراليا . . . وحدّدت مواقع كتل اليابسة والمحيطات على خريطة العالم ، فيما يقرب من أوضاعها الحالية . . . ومع ذلك ، فقد ظل وسط أفريقيا ولغزه الغامض – منبع النيل الأبيض – سرًّا خفيًّا فى سنة ١٨٥٦ ، كما كان فى عهد « هيرودوت » .

وكان « جيمس بروس » قد تعقب النيل الأزرق – فى السبعينات من القرن الثامن عشر – حتى الخرطوم ، ولكن أشد الرواد عزمًا على كشف « النيل الأبيض » لم يستطيعوا – حتى سنة ١٨٥٦ – أن يتجاوزوا المناطق المجاورة للموقع الحالى لمدينة « جوبا » ، على خط عرض ٥ شمالا ، أى أنهم لم يكونوا قد قاربوا منبع النهر فى شىء . . . ذلك أن الشلالات ، وغابات البردى الشاسعة ، والملاريا ، والحرارة الاستوائية الضاربة ، ومعارضة القبائل الوثنية . . . كل هذه اجتمعت على صدهم عن التوغل جنوبًا . وفى تلك الأثناء كان الخيال قد ملأ هذه المساحة المبهمة التى تعذر التغلغل فيها – فى وسط القارة – بآلاف من المخلوقات الخيالية ، منها : أقزام ، ومتوحشون مفترسون ذوو ذيول ، وحيوانات غريبة كتلك التى وردت فى الأساطير الخرافية ، وبحار داخلية شاسعة ، وجبال شاهقة تتحدى الطبيعة فتحمل على قممها – فى حرارة المنطقة الاستوائية – غلالة دائمة من الثلوج .

وكان هناك قدر من القرائن يدعم – برغم ضآلته – بعض هذه الأقاويل .

---

(١) بعد نحو خمسمائة عام من رحلة هيرودوت . (المترجم)

وتدور أكثر القصص تردداً عن منبع النيل ، حول رحلة لم تجر على النهر إطلاقاً ، وإنما جرت فى البر ، مبتدئة من الساحل الشرقى لأفريقيا ، عند نقطة تقع شمالى زنجبار بقليل . وتروى القصة أن تاجراً أفريقيـاً يدعى — « ديوجينس » زعم أنه — فى أواسط القرن الأول من الميلاد — كان عائداً إلى بلاده من زيارة الهند ، فهبط فى الأراضى الإفريقية ، فى مكان يدعى (رابتا) — يحتمل أن يكون الموقع الذى تقوم فيه حالياً مدينة (بانجانى) ، فى تنجانيقا . وقال « ديوجينس » إنه واصل سفره فى البر خمسة وعشرين يوماً ، فبلغ « مشارف بحيرتين كبيرتين ، وسلسلة من الجبال يكللها الثلج ، ويستمد النيل منها منبعيه » .

هذه — على كل حال — هى القصة كما سجلها ، فى ذلك الوقت ، الجغرافى السورى « مارينوس الصورى » . وعن سجلات « مارينوس » رسم « بطليموس » — — أعظم جغرافى وفلكى عصره — خريطته المشهورة ، فى أواسط القرن الثانى الميلادى . وهى تبين مجرى النيل ممتداً من البحر الأبيض المتوسط مباشرة ، إلى خط الاستواء ، وتظهره نابعاً من بحيرتين مستديرتين ، تستمدان الماء — بدورهما — من سلسلة من الجبال الشاهقة ، هى « جبال القمر » .

وقد ظلت خريطة بطليموس طوال ١٧٠٠ عام أعجوبة جغرافية لا يفرغ الجدل بشأنها ، ولكن ندر أن تعرضت لتشكيك أو انتقاص مطلق ، وفى عام ١٨٤٨ طلع « جوهان ريبمان » — أحد أعضاء الإرساليات التبشيرية الأولى فى شرق أفريقيا — بنبأ أثار ضجة ، إذ قال إنه قام برحلة بالبر من ساحل أفريقيا الشرقى ، كما فعل « ديوجينس » ، فرأى جبلا هائلا يدعى « كليمنجارو » تكلل الثلوج قمته . وإذ ذاك بادر شخص يدعى « ديسبورو كولى » — من أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية بلندن — إلى تسفيه القصة ، معترضاً بأنه من المستحيل ألاّ تنصهر الثلوج عند خط الاستواء ، وأن ما رآه « ريبمان » إنما هو انعكاس الشمس على صخر أبيض ، ولكن إرسالياً آخر ، هو « جوهان لودفيج كراف » ، ادعى فى العام التالى أنه رأى عن بعد قمة ثانية تكسوها الثلوج ، إلى الشمال من كليمنجارو ، هى قمة جبل (كينيا) . كذلك رسم إرسالى آخر يدعى « ج . ج . إرهارت » خريطة أظهرت بحيرة داخلية كبيرة أسماها (بحر يونياميزى) . ثم حدث — فى أوائل العقد الخامس من القرن الثامن عشر — ما أدى إلى تجدد

الاهتمام بخريطة بطليموس ، إذ راح تجار الرقيق والعاج يتحدثون — عند عودتهم من داخل القارة إلى زنجبار — عن بحيرتين كبيرتين ، إحداهما تدعى « أوجيجى » والأخرى « نيانزا » ، كما تواترت أنباء عن بحيرة ثالثة إلى الجنوب منهما تسمى « نياسا » .

وكان كل ذلك مبهماً ، داعياً للارتباك . أفكانت كل هذه البحيرات بحيرة واحدة فى واقعها ؟ .. وهل كان جبل « كليمنجارو » وجبل « كينيا » هما من جبال القمر التى تردد ذكرها ، أم أن هناك سلسلة أخرى موغلة داخل القارة ؟ . . وما وضع كل من البحيرات والجبال بالنسبة للشكل المفترض للنيل ؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة ، اتجه اثنان من المكتشفين — هما « ريتشارد فرانسيس بيرتون » و « جون هانينج سبيك » — إلى أفريقيا سنة ١٨٥٦ . وقد تنكبا طريق متابعة النيل من مصر إلى أعاليه ، وقررا أن يتجها — بدلا من ذلك — غرباً من زنجبار ، موغلين فى جوف القارة المظلم إلى حيث لم ينفذ البيض من قبل !

وبهذه الحملة بدأ العصر العظيم . . عصر كشف أواسط أفريقيا .

الجزء الأول

الاكتشاف

الفصل الأول

زنجبار سنة ١٨٥٦

كانت جزيرة «زنجبار» التى رآها «بيرتون» و «سبيك» — لأول مرة — فى نهاية سنة ١٨٥٦، أهم كثيراً مما هى الآن. والواقع أنها كانت المكان الوحيد تقريباً الجدير بأن يسمى مركزاً للتجارة الخارجية، على طول الساحل الإفريقى الشرقى. وكانت محاولات البرتغاليين لإنشاء إمبراطورية فى القارة — مقابلة للجزيرة — قد ذهبت بدداً من أمد طويل. كما أن كافة الأراضى الداخلية — وهى الأقاليم التى نعرفها الآن بأسماء: تنجانيقا، وكينيا، وأوجندا، وجنوب السودان، والكونجو — لم تكن فى معظمها قد حددت بعد على الخريطة!

وكان سلاطين زنجبار يطالبون — بطريقة عامة مبهمة — بجزء، على الأقل، من هذه المساحة الشاسعة، ولكن نفوذهم كان مقصوراً — بحكم الواقع — على منطقة الساحل . . . وحتى فى نطاق تلك المنطقة، لم تكن لنفوذهم ذاك فاعلية حقيقية. وكانت قوافل العبيد والعاج تشق طريقها — فى فصول الجفاف — إلى الفيافى المترامية وراء الساحل، فتغيب عاماً أو أكثر، وربما إلى الأبد! . . . وكان هذا كل ما سمع أو اعرف عن أفريقيا الوسطى. كانت فى انعزالها ووحشتها أشبه بالفضاء الخارجى فى أيامنا هذه!

ومع ذلك، فقد كانت جزيرة «زنجبار» مسموعة الاسم فى العالم، كميناء تسعى إليه السفن التى تمخر المحيط الهندى. وعلى واحدة من تلك السفن — وكانت سفينة بريطانية ذات شراع واحد — وفد «بيرتون» و «سبيك» مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية من «بومباى»، فى ١٩ ديسمبر سنة ١٨٥٦.

وما كان أول منظر طالعهما فى الجزيرة ليختلف كثيراً عن المنظر الذى يراه المرء هناك فى يومنا هذا. كانت تهب على المنطقة إذ ذاك — كما تهب الآن — نفحة من عبير القرنفل وبهارات المنطقة الاستوائية، لتحية المسافر عند الشاطئ. وعلى الشاطئ نفسه، كان البحر رقراقاً، ذا زرقة عجيبة، يعدو فى بطء على

ضفاف من مرجان أبيض . وكانت الأدغال – التى تبدأ من حافة الماء – خضراء خضرة كالحة . . . والجزيرة ترزح – طيلة العام – تحت قيظ يبعث الخمول والنوم ، مع أن الأمطار الدافقة والأعاصير كانت تجتاحها من آن لآخر .

وكان ميناء زنجبار يتراءى – من البحر – كصورة باهتة غير منتظمة ، لأكواخ من الطين ، وبنايات كبيرة مربعة من الصخر المرجانى الأشهب ، وهو الحجر الوحيد للبناء بالجزيرة ، وكان المرء يميز بسهولة قصر « السلطان » ، ومنازل القناصل والتجار ، ثم المآذن المنبثقة – فى المؤخرة – من مساجد المدينة . وإلى أحد هذه المنازل ، بقرب الشاطئ – هو منزل الليفتنانت كولونيل « إتكينز همرتون » ، المندوب البريطانى – كان بيرتون وسبيك قد اعتزما أن يُيمما .

وكان المرفأ القائم أمام المدينة شديد الازدحام . وقد أحصى « بيرتون » زهاء ستين مركباً عربياً – شبيهة بسفينته – حملتها الرياح الموسمية عبر المحيط الهندى ، وكانت تشبه المراكب التى تشاهد فى زنجبار حالياً : ماعون خشى صلب يتراوح وزنه بين ٥٠ و ٥٠٠ طن ، ذو شراع مثلث كبير ، ودقل ممتد حتى ليكاد يضاعف طول المركب . وفوق ذلك ، كانت فى المرسى ست سفن ذات أشرعة مربعة – أمريكية من « ساليم » ، وفرنسية ، وألمانية من « همبورج » – قدمت من أوربا حول رأس الرجاء الصالح . وقد جاءت جميعاً لتحمل شحنات من « الكوبال »[١] وجوز الهند ، والعاج ، والجلود ، ولحاء السلحفاة ، والشطة ، والعنبر ، وشمع العسل ، وأسنان فرس البحر ، وقرن الخرتيت ، وأصداف الكورى ، وأى شىء يمكن تَسَوُّقه . وعلى سطح الماء القريب من الشاطئ ، كانت الفضلات تطفو ، من كل نوع – ولم يكن غريباً أن ترى بينها جثة ميتة ! – وقد كتب « بيرتون » فيما بعد : « وهنا وهناك ، كانت إحدى أسماك القرش تندفع من الأعماق ، وتحملق فى الصياد بعين ساكنة ، جامدة ، لا لون لها ، فيجمد الدم فى عروقه » .

ووجد السائحان المستكشفان – حين هبطا إلى الشاطئ – ما هو أسوأ . كان سكان جزيرة زنجبار حوالى ١٠٠,٠٠٠ نسمة فى ذلك الحين ، يعيش معظمهم فى المدينة . وكانت الطرق المتعرجة القذرة – التى لا يكاد عرضها يتجاوز عشرين قدماً –

---

(١) نوع من القلفونية – أو الراتينج – لعمل الطلاء (الورنيش) . (المترجم)

تزخر بزنوج نصف عرايا ، وعرب ، وهنود ، وفرس ، وسواحليين ، وكثيرين غيرهم . . وكانت الماشية والحمير تشق طريقها بين الحشد ، كما كان التجار ينادون على سلعهم ، وقد تربعوا فى فجوات فى الجدران . . والمتسولون يمدون أيديهم للمارة . وفوق ذلك ، كانت رائحة « الكبرّة » الخانقة ، والسمك المنتن ، تثقل الهواء . وفى الأسواق ، كانت أكوام الفواكه والخضر مطروحة للبيع على حصر من الخوص .

وقصارى القول ، أنه كان منظراً من اللون الذى لا يزال مألوفاً فى الشرق ، فيما عدا فارقاً وحيداً — وإن كان من الكبر بحيث يوحى للمرء ، كأنه يتأمل عصراً آخر ، ودنيا أخرى — وهذا الفارق هو وجود « العبيد » فى زنجبار ، فى سنة ١٨٥٦ . . . وكانوا يطوفون بكل شارع ، رجالا ونساء وأطفالا ، سواء من استأنستهم سنوات الاستعباد ، ومن وصلوا لتوّهم من داخل القارة ، ومن كانوا أنصاف مجانين وأنصاف موتى ، بسبب الجوع وسوء التغذية . . . مخلوقات عارية ، مذهولة ، تعض بأسنانها ندباً ونتوءات فى أجسادها . . . مظهرها أقرب إلى الحيوان المتردِّى فى الشرك ، منه إلى المخلوقات البشرية العادية .

وقد وصف « توماس سمى » — قائد سفينة البحوث البريطانية « تيرنيت » ، التى زارت زنجبار سنة ١٨١١ — هذا المنظر أبلغ وصف ، بقوله :

> « يبدأ العرض حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، فينتظم العبيد فى صف يبدأ بالأصغر وينتهى بالأكبر حجماً وسناً ، فى خير مظهر ، وقد نُظِّفت بشرتهم ودُهِنت بزيت جوز الهند ، وطُلِيَت وجوههم بخطوط حمراء وبيضاء — تعتبر هنا من مظاهر الأناقة — وازدانت أيديهم وأنوفهم وآذانهم وأقدامهم بفيض من الأساور الذهبية والفضية ، والجواهر . وعلى رأس هذا الصف — المؤلف من الجنسين ، من كافة الأعمار بين السادسة والستين — يسير الشخص الذى يمتلكهم . وخلف الصف ، وإلى كل من جانبيه ، يسير اثنان أو ثلاثة من عبيده المستأنَسِين[1] مسلحين بسيوف وحراب ، للحراسة .

---

(١) العبيد المستأنسون ، هم الذين ولدوا فى زنجبار ، أو استبقوا فيها ، وروضت بداوتهم ، ودربوا على الخدمة فى البيوت . وكانوا أغلى ثمناً من سواهم . (المترجم)

« بهذا النظام يبدأ الموكب ، فيسير فى السوق والشوارع الرئيسية ، والمالك يعدد — متغنيًا — صفات العبيد ، والأسعار العالية التى عرضت عليه . . فإذا استهوى أحدهم متفرجًا ، وقف الصف فوراً ، وتبدأ عملية فحص لا مثيل لها — من حيث الدقة — فى أية سوق « للماشية » فى أوربا!

وإذ يتأكد راغب الشراء من أنه ليس ثمة ما يعيب العبد ، فى الكلام والسمع وغيرهما ، وأنه خال من المرض ، ولا يغط فى نومه — وهو عيب يعتبر كبيراً — يشرع فى فحص جسمه : فيتفقد أولاً فمه وأسنانه ، ثم كل جزء من جسمه تباعاً ، بما فى ذلك الأثداء وما إليها لدى الإناث . وقد رأيت كثيرات يتعرضن لأوقح فحص فى السوق العامة . وهناك ما يرجح الاعتقاد بأن تجار الرقيق — فى مجموعهم تقريباً — يغصبون البنات على الاستسلام لشهوتهم ، قبل بيعهن !

« ثم يؤمر العبد بأن يسير أو يجرى مسافة ، لتبين خلو قدميه من العيوب . ويجرد بعد ذلك من النفائس — إذا تم الاتفاق على الثمن — ويسلم لمولاه الجديد . وكثيراً ما أحصيت فى الصف الواحد — فى السوق — ما بين عشرين وثلاثين . وترى النسوة وعلى أثدائهن أطفال حديثو الولادة ، وعجائز لا يكدن يقوين على المشى ، وهن يُسْحَبْن على هذه الحال فى الشوارع . وقد لاحظت أن مظهرهن — بوجه عام — ينم عن خَوَر . وكانت البعض يتبدين مفتقرات إلى الغذاء ، حتى لتلوح عظامهن وشيكة أن تخرق جلودهن .

« ومثل هذه المناظر تجعل المرء يشيح عنها ، إشفاقًا واستنكاراً . . »

وكان الوعى العالمى قد حقق الكثير فى السنوات الخمس والأربعين التى فصلت بين تقرير الكابتن « سمى » ، ووصول « بيرتون » و « سبيك » إلى زنجبار ، فقد أُلْغِىَ الرق فى الإمبراطورية البريطانية فى ثلاثينات القرن التاسع عشر ، وأخذت هذه التجارة فى الاحتضار فعلا ، على الشاطئ الغربى لأفريقيا ، الذى كان المورد الأول للزنوج . وكان سلطان زنجبار قد أعلن — سنة ١٨٤٥ — تحريم تصدير العبيد ، (وإن ظل اقتناؤهم مشروعًا فى أراضيه) . وأخذت السفن

الحربية البريطانية والفرنسية تراقب الساحل بحثاً عن السفن العربية التى كانت تحضر الزنوج من داخل القارة . ولكن هذا لم يغير من الموقف شيئاً . فما من واحد من النخاسين العرب[1] على الساحل الشرقى ، كان يتصور — حتى ذلك الحين — أن يتخلى عن مهنته ، ووراءه ميراث ٢٠٠٠ سنة فى النخاسة !

لذلك ظلت قوافل العبيد تخترق جوف القارة ، والمراكب تخرق حصار السفن الحربية بنجاح — وقد حُشِرت شحناتها من العبيد وكدست تحت سطوحها — وسوق زنجبار مزدحمة بهم كعادتها . . . وكانت أسعارهم تتباين كثيراً ، تبعاً لعددهم ، ولفصول السنة . على أن أى تاجر زنجبارى كان — فى سنة ١٨٥٦ — مطمئناً إلى حصوله على أربعة جنيهات أو خمسة ، على الأقل ، مقابل العبد

(١) على ذكر النخاسين العرب ، أعتقد أن تاريخ النخاسة فى أفريقيا يحتاج إلى دراسات من متخصصين من العرب ، يلقون عليه أضواء تبدد المعلومات المغرضة التى حرص الكتاب الغربيون على أن يروجوها ، والتى توحى بأن العرب هم الذين كانوا يتولون جمع العبيد من أفريقيا وتصديرهم إلى أسواق العالم . ولعل اشتغال بعض أهل زنجبار بالرق ، وكانوا من العرب الذين نزحوا إليها من عمان والجنوب العربى ، واستوطنوها ، أعطى حجة يستند إليها الكتاب المغرضون فى وصف جميع من كانوا يتجرون بالرقيق بأنهم عرب . هذا ما دعانى إلى الاقتصار على لفظ « النخاسين » (دون وصفهم بأنهم عرب) ، فى معظم مرات ورود هذا اللفظ فى الكتاب . ولقد قام أخيراً كاتب أمريكى منصف ، هو « جون ر . سبيرز » بإصدار كتاب أطلق عليه « تجارة الرقيق الأمريكية » ، بين فيه أن تجار الرقيق الذين كانوا يستغلون أفريقيا كمورد لـ « سلعهم » كانوا من الأسبان ، ثم الإنجليز ، والفرنسيين ، والأمريكيين . . و إذا كان ثمة عرب اشتغلوا معهم ، فقد كانوا « وسطاء » أو مساعدين أو أدلاء ، لإرشادهم إلى قرى أواسط أفريقيا التى كانت مجهولة . ولسنا بحاجة إلى أن نذكر أن الرق من الوصمات التى لصقت بالإسلام فى بعض عهود رانت فيها الجهالة على العقول ، إما بتأثير الترف والانحلال ، وتسرب حضارات غريبة — كما حدث فى العهدين الأموى والعباسى — أو بتأثير الاستعمار العثمانى .

وللإمام الشيخ محمد عبده — وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا — أقوال كثيرة وفتاوى بأن « الرق خلاف مقصد الشرع وخلاف الأصل ، وهو مناف لمحاسن الإسلام وحكمه العالية » . ولم تكن الإباحة إلا لظروف خاصة على عهد الرسول — ومنها الحرب الدينية — ومع ذلك فإن الله خير ولى الأمر فى أسرى الحرب فى أكثر من موضع فى القرآن ، محبذّاً المن عليهم بإطلاقهم فضلا وإحساناً ، أو بقبول الفداء لتحريرهم . كما أوصى — فى أكثر من موضع — بحسن معاملتهم وبمساواتهم ببقية المؤمنين . وفى الجزء الخامس من « تفسير القرآن الكريم » للشيخ محمد رشيد رضا ، يقول ترديداً لما سمعه من الإمام الشيخ محمد عبده :

« ولا بد من التنبيه إلى مسألة يجهلها العوام ، وقد سكت عن بيان الحق فيها جماهير علماء الإسلام ، ومرت فى ذلك القرون لا الأعوام . وهى أن الاسترقاق الشائع المعروف فى هذا العصر أو العصور « "غير شرعى" ، سواء ما كان منه فى بلاد السودان ، وما كان فى بلاد البيض ، كبنات الشراكسة اللواتى كن يبعن فى الآستانة جهراً قبل الدستور . . ومع ذلك كنت ترى العلماء ساكتين عن بيعهن والاستمتاع بهن بغير عقد نكاح ، وذلك من أعظم المنكرات ، حتى لو سألت الفقيه عن حكم المسألة لأفتى بأن "هذا الاسترقاق محرم إجماعاً" ، و ربما قال لك بأن "مستحل ذلك يكفر" لأنه لا يعذر بالجهل . . »

أما ما أورده كتاب الغرب من سوء معاملة النخاسين — الذين يصرون على أنهم كانوا عرباً — فيكفى للرد عليه ، أن يقرأ المرء بعض ما صور به كتاب أمريكيون منصفون الأهوال التى كان يتعرض لها العبيد فى أمريكا . . منهم « هارييت بيتشر ستو » فى قصتها الخالدة « كوخ العم توم » . (المترجم)

الذكر البالغ ، وعلى أكثر من هذا للأنثى . وبقى عدد العبيد المستوردين بين ٢٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ فى العام ، يحتجز حوالى ثلثهم للعمل فى المزارع (حيث كان اقتناؤهم يعد مشروعًا) ، بينما يُعَدّ الباقون للتصدير – غير المشروع – إلى بلاد العرب وفارس ومصر وتركيا ، ولدول أبعد منها . ومع ذلك ، كان العبيد الذين يعيشون إلى نهاية الرحلة – من داخل القارة إلى الساحل – يتعرضون فيما بعد لنقص هائل : فكان حوالى ثلاثين فى المائة من الذكور يموتون فى زنجبار سنويًا ، سواء من المرض أو سوء التغذية ، بحيث يتعين إحضار عوض عنهم . . . فضلا عن أن محاولة القضاء على التصدير زادت من محن العبيد ، إذ راحت الأسعار ترتفع مما أغرى النخاسين بأن يزيدوا من تكديس الضحايا فى المراكب ، حتى إذا ما قُدّر لمركب واحد من كل أربعة أن يصل ، كانت كافياً لتحقيق الربح . ويقول بيرتون إن السفن صارت تصنع والمسافة بين سطحيها ١٨ بوصة ، ولا تحمل من الماء غير مقدار « بينت » (٠,١٢٥ من الجالون) لكل رأس ، فى اليوم . وبذلك صار يتسنى حشر خمسة من التعساء فى المكان الذى كان لا يتسع إلا لاثنين فقط » .

وكانت أسوأ الحيل تستخدم لاستمرار تدفق العبيد : فبزجاجة من الخمر ، أو فتاة ساقطة ، كان الأهالى يُستدرجون إلى المركب – فى مرفأ زنجبار – ثم يحبسون . وكان ثمن الطفل الذى يساوى جنيهاً أو اثنين فى زنجبار ، يصل إلى ٢٠ جنيهاً فى فارس . ولم يكن من العسير إخفاء العبيد فى كهوف يالأدغال ، إلى أن يتأهب المركب لحملهم تحت جنح الظلام . وكانت أغلى الأثمان تدفع عن الفتيات الحبشيات والشركسيات المجلوبات من الشمال . ولكن الأخيرات كن نادرات ، وغالباً ما كن يستبقين فى الجزيرة لخدمة حريم الحكام .

ويبدو من وصف « بيرتون » لسوق النخاسة – فى سنة ١٨٥٦ – ضآلة التحسين الذى اعتراها منذ أيام الكابتن « سمى » :

« كانت صفوف الزنوج تقف كالبهائم ، والدلال ينادى : " بازار خش " – أى ادخل (خُش) السوق – وكانت تعلو أقل الوجوه بشاعة ، وبعضها لا تكاد تبدو آدمية ، طاقية قومزية . وهم جميعًا

من النحول بدرجة فظيعة ، وضلوعهم تبرز كأطواق البرميل ، وقد أقعى – إعياءً – على الأرض عدد ليس بالقليل منهم ، وكان الصبية الصغار أطرفهم ، وهم يكشفون عن أسنانهم فى ابتسام ، وكأنما كان يطربهم الفحص المهين ، المستهجَن ، الذى كان الجنسان – من كل فئات العمر– يتعرضان له . ولقد كان معرض النساء زريًا بائسًا ، فلم تكن فيه من المقبولات الشكل سوى واحدة مزججة الحاجبين ، وقد بدت مستحيية ، ولعلها عرضت للبيع جزاء ذنب لا يغتفر فى حق الحشمة . والقاعدة أن أحداً لا يشترى العبيد الذين رُوّضوا على الخدمة فى البيوت – ذكوراً أو إناثـًا – لسبب واضح ، هو أن السادة لا يفرطون فيهم ما لم يتبينوا تعذّر تقويمهم . . . وكان النخاسون يبتسمون لنا وهم منشرحون » .
ثم كان هناك حى البغايا ، حيث كانت النسوة « ذوات وجوه كوجوه القردة المسلوخة ، وسيقان عجفاء لُفـَّت بأشرطة حريرية حمراء » .

وكان العبيد غير المستأنسين هم الذين يرتكبون أغلب الحوادث فى زنجبار ، برغم أنهم معروضون للبيع . فكانوا يجوسون الشوارع بحثـًا عن الطعام كأسراب من كلاب جائعة ، وهم على استعداد لكل عنف ، ولكل ألوان السرقة ، فلم يكن أحد يخرج فى المدينة ليلا بدون سلاح ، وكان كل باب ومصراع يوصد بالمزلاج ، لدرء المغيرين فى الشوارع المقفرة .

أما العبيد المستأنَسون – الذين ولدوا أو دربوا فى زنجبار واكتسبوا شيئـًا من التمدين – فكانت لهم مشكلات أخرى . كانوا أكسل الخدم وأقذرهم وأقلهم أمانة . ومع ذلك فإن سادتهم العرب لم يكونوا يتصورون الحياة بدونهم . وغالبـًا ما كانوا يُضمّون للعائلات ويعاملون بالحسنى . فإذا أنجبت جارية لمولاها طفلا ، أعتقها واعتبرت ابنة البيت . ومع ذلك فقد ظل شرب الخمر والسرقات الصغيرة متفشية بين العبيد المستأنَسين فى معظم البيوت . . . وكان العبيد والسادة – على السواء – يتبادلون عدم الثقة ، بل الكراهية .

وكان فى زنجبار – فى ذلك الحين – حوالى ٥٠٠٠ عربى ، يمتلك نفر منهم حوالى ٢٠٠٠ عبد ، إلى جانب مزارع كبيرة للقرنفل وجوز الهند ، ومنازل خشبية

ذات ثلاثة طوابق ، وأبواب خارجية مزركشة ، وخزانات للثياب مليئة بالعباءات الموشاة والعمائم . وكان العرب — مع التجار الهنود — يسيط ون على تجارة العاج ، ويملكون السفن التى تمخر المحيط ، ويقرضون المال بربا فاحش غير معقول ، ويموّلون الحملات إلى داخل القارة . ومع هذا ، فإن الحياة كانت راكدة خاملة ، تدور حول « روتين » رتيب محدود ، لا يكاد يتبدل من شهر لآخر : كان السيد العربى يستيقظ مع الفجر فيصلى ، ثم يسعى إلى السوق بعد فطور خفيف . ولا تحين الساعة الحادية عشرة حتى يكون فى بيته للغداء ، الذى تعقبه ساعة للصلاة فى المسجد ، ثم نوم يستيقظ منه فى الثالثة بعد الظهر ، فيتوضأ ويصلى . ثم خروج وزيارة ، فصلاة المغرب ، فالعشاء ، فرياضة فى الشوارع أو زيارة الحريم . ويأوى لفراشه أخيراً ، حوالى منتصف الليل . وهذا النهج الشرقى للحياة يستطرد راكداً ركود جو المنطقة الحارة ، اللهم إلا فى شهر رمضان من كل عام ، وفى المناسبات العائلية أو الرحلات .

وكان ثمة ميل طبيعى — بين كل المقيمين فى الجزيرة تقريبًا — إلى شرب وتعاطى المخدرات — الأفيون أو الحشيش — ونزوع طبيعى إلى الفسق . ويقرر « بيرتون » أن العرب كانوا يمتنعون عن استيراد عطور الياسمين إلى زنجبار بحجة أن رائحتها تضعف شهوة الرجال الجنسية ، وتقوى — على العكس — شهوة النساء .

ولقد كان بيرتون يميل للعرب ، فكان استياؤه ينصب بأكمله — كما سنرى فيما بعد — على الإفريقيين ، عبيداً كانوا أو أحراراً ، وعلى مواطنيه بين وقت وآخر . وكان يترفق بالسواحليين ، ذلك العنصر « الخلاسى » الملون بلون الشيكولاتة ، الذى نشأ عن امتزاج دم الساميين والزنوج فى الجزيرة . وكان عددهم — إذ ذاك — حوالى نصف المليون . ويذكر « بيرتون » أنهم أوتوا « وفرة من شيم الحيوانات » ، ورصيداً كبيراً من المرح ، وأنهم كانوا ينشئون روابط عائلية متينة . ولكنهم — كما كتب — ابتلوا بلعنة « شك أزلى لا يفتر » ، مع معارضة جاهلة عنيدة لكل تغيّر ، أى « روح محافظة جامحة » . ثم إنهم لم يكونوا أمناء البتة ، فهم « عندما يؤكدون ، يحتمل أن يكونوا كاذبين ، وحين يقسمون فهم يكذبون يقينًا » . وكان السواحليون

جميعاً مسلمين (١) .

وكان الشطر الأكبر من التجارة المشروعة لزنجبار عبر البحار – فى العقد الخامس من القرن التاسع عشر – فى أيدى الأمريكيين ، إذ كانوا أول أمة أجنبية أنشأت قنصلية فى زنجبار ، سنة ١٨٣٩ ، بينما كان قدر ضئيل من تلك التجارة فى أيدى البريطانيين ، والألمان من أبناء همبورج ، والفرنسيين . وكان التجار الأجانب يجلبون – فى مقابل العاج والمنتجات الأخرى التى يجمعونها – « المريكانى » ، وهو نسيج قطنى أمريكانى خشن ، كان مادة للمقايضة فى كافة أرجاء أفريقيا الشرقية ، ثم الأسلحة والذخائر ، والخرز المُلَوَّن المصنوع فى البندقية ، والخزف الصينى ، والغلال ، وأجهزة وآلات – كيفما اتفق – من العالم الغربى .

وإذا صدقت كلمة « بيرتون ، فإن الجالية البيضاء الضئيلة المقيمة فى زنجبار ، كانت تعيش حياة مزرية . كان الأوربيون لا يكفون عن التناحر فيما بينهم :

« رتابة شاملة مضنية : فلا مجتمع ، ولا سرور ، ولا إثارة ، وممارسة الرياضة ممنوعة بحكم الطقس المتقلب . . . فسرعان ما يفقد الأجانب عادة ركوب الخيل ورياضة المشى .

« وكل تاجر يرجو ويرتقب الرحيل عن زنجبار للأبد ، بمجرد أن يجمع قدراً من الثروة . وكل مندوب يعمل لحمل مخدومه على استدعائه .

« وكان ماء الشرب فى الجزيرة سامـًا – أو خطراً على الأقل – والأمراض التناسلية متوطنة ، وكل امرئ معرض باستمرار للإصابة بالكوليرا والملاريا ، والأطباء غير معروفين . وترتب على هذا أنه لم تكن تقيم فى زنجبار من النساء البيض سوى قلة ضئيلة ، إذ كان معظم السكان يقنعون بالجوارى الحبشيات أو الصوماليات » .

---

(١) بغض النظر عن نزعة التحامل الاستعمارى فى تعمد الكاتب أن يورد عبارة « كانوا جميعاً مسلمين » – بعد أن أورد نقائصهم – نحب أن نذكر القارئ بأن « السواحليين » كانوا جهلة أميين ، لم يتيسر لهم إدراك تعاليم الإسلام حق الإدراك ، ولم يجدوا من ينير عقولهم ويمحو ما رسب فى طبائعهم من آثار العادات البدائية . (المترجم)

ويمضى « بيرتون » فى أوج سخريته :

«إنى لأدهش لغباء ووحشية الأزواج المتمدينين (فى البلاد الأوربية) الذين يدسون السم لأنصافهم الحلوة ، أو يذبحونهن ، أو يحطمون رؤوسهن تلهفاً على أن يترملوا . فمن الممكن أن تتحقق لهم هذه الغاية ببراءة وهدوء وأمان واحترام، إذا أرسلوهن كى يقمن بضعة أشهر فى هواء أفريقيا ، فى زنجبار » .

ولم يكن فى قوله هذا مبالغاً البتة . فما كان لغير من أوتى إيماناً عميقاً بجبرية القضاء والقدر ، أو حباً بالغاً للمال والسلطان ، أن يقيم طواعية فى هذا المكان العجيب ! . . . حتى « همرتون » المندوب البريطانى ، وهو الأوربى الوحيد الذى طال بقاؤه فى الجزيرة أكثر من سواه ، بدأ ينهار فى النهاية . وكان — عند وصول بيرتون وسبيك — قد قضى خمس عشرة سنة فى زنجبار ، وأصبحت الحياة الاجتماعية والسياسية فى الجزيرة تدور حوله إلى حد كبير . ومن الغريب ، فى جو اتصف بالمنازعات والتزاحم فى العمل ، أن الذين انتقدوا دفء قلبه ، وطيبته الإيرلندية — من معاصريه — كانوا قلة ضئيلة . فقد كان صديقاً حميماً ومستشاراً للسلطان « السيد سعيد » الذى أنشأ هذه الدولة العربية الجديدة فى المحيط الهندى . وكان يخفف ويهدئ كل أزمة تتهدد الجزيرة ، ويكتب لرؤسائه — فى الهند ولندن — تقارير تتسم بالتعقل البالغ ، حتى أصبحت القنصلية البريطانية فى عهده ، ملتقى الجالية الأجنبية . وقد كتب سبيك أنه كان يُبقى المدينة كلها فى نشاط وانتعاش ، وإن حفاوته وبشاشته كانت مبسوطة لكل زائر للجزيرة .

ولقد أوشك « همرتون » — أكثر من مرة — أن يطلب استدعاءه إلى بلاده ، إذ هدت الملاريا والأمراض الأخرى صحته . وما كان التسليم بالقدرية ، ولا المال ، هما اللذين أبقياه قنصلا فى زنجبار ، وإنما أبقاه إدراك للواجب ، وربما إحساس — كذلك — بأن الجزيرة وأهلها أصبحوا قوام حياته ، وأنه قد فات أوان تغييرها . وكان « السيد سعيد » قد توفى قبل وصول بيرتون وسبيك بعام، وخلفه « مجيد»، ثالث أبنائه . لكن « همرتون » ظل فى وضعه ، وإن جعله المرض عاجزاً عن تحمل حر النهار ، فلم يكن يعيش إلا فى الليل . غير أن هذا لم يقعده عن حمل بيرتون

وسبيك على النزول فى داره ، ولا عن أن يسعى جهده – بأقصى تحمس – لتيسير حملتهما .

وكان الأمر يتطلب الكثير . فإن القوافل الساعية إلى داخل القارة – فى ذلك الحين – كانت تـُوَطـِّن نفسها على الغياب عامـًا ، بل اثنين . فكان لا بد من أن تحمل كافة لوازمها على رؤوس الحمالين . وكانت القافلة المؤلفة من مائة رجل ، عدا الحرس المسلح ، تعتبر قافلة صغيرة بسيطة بالنسبة لسواها ، وقد عوّل بيرتون على اصطحاب ١٧٠ رجلا ، فكان لا بد من جمع بعضهم من زنجبار ، والبعض الآخر من الساحل الإفريقى ، ثم وضعوا تحت رئيس ودليل من العرب المـُهـَجـَّنين يدعى « سعيد بن سالم » ، كان فى خدمة السلطان ولكنه أعير للحملة . وإلى جانبهم كان ثمة اثنان من حملة البنادق – « سيدى بومبى » و « معينى مبروك » – فى مرتبة « صف ضابط » تقريبـًا ، قـُدِّر لهما أن يلعبا دوراً فى ارتياد شرق أفريقيا . . وخادمان من « جـُوَا » لطهو طعام بيرتون وسبيك ، وحراس بعضهم من العبيد وبعضهم من « البالوشى » الذين كانوا فى خدمة السلطان . . . فكانوا حوالى عشرين فى مجموعهم .

وكانت القافلة تعتزم أن تعيش معظم رحلتها على ما تصيده من حيوانات برية ، أو ما تشتريه من القبائل من ماشية وماعز ولبن وحنطة . أما جميع اللوازم الأخرى – عدا الأجهزة العلمية ، والبنادق ، والأدوية ، وما إليها ، مما استجلب من إنجلترا أو الهند – فكان لا بد من ابتياعها من التجار الهنود والعرب فى زنجبار . وقد كانت القائمة كبيرة : فمما ذكره بيرتون من محتوياتها : ثلاث بنادق ، وأنبوبتان لتخفيف صوت الطلقات ، وطبنجة ، وثلاثة مسدسات ، وقطع غيار للجميع ، وثلاثة سيوف ، وذخيرة تكفى لعامين ، وعدد من « الكرونومترات » وبوصلات طيفية ، و « تيرمومترات » ، وساعة شمسية متنقلة ، وأجهزة لقياس الزوايا « سيكستانت » ، و « بارومترات » ، وتليسكوب ، وصندوق أجهزة حسابية ، وجهاز لقياس الخطوات بطريقة « ديكسى » يعين عدد الأميال التى يمشونها يوميـًا .

وزوّد الرائدان نفسيهما بما يكفيهما من أثاث للمعسكرات ، فكانا يمتلكان

خيمة ، وسريرى معسكر ، ومنضدة ومقعدين يسهل طيها ، وثلاث حصائر تستخدم كسجاجيد ، وملاءات ، وحشيات ، و « ناموسيات » ، ومنافخ هواء (لإذكاء النار) وسكاكين وشوكاً وأوانى للطهو . وكانت ملابسهما تتألف من سترات و « بنطلونات » وأحذية مما يستخدم فى الصيد ، فضلا عن عمائم وقلنسوات من اللباد السميك .

ويضيف « بيرتون » :

« حاشية : تركنا زنجبار دون ثياب عادية جديدة ، غير متوقعين أن تطول رحلتنا كثيراً . ومن ثم أصبحنا قبل نهايتها نرتدى الأسمال البالية ، فى جو تتولى فيه الثياب نصف المعركة ضد الموت . وقد اضطر زميلى لأن يرتدى « أوفرول » من القماش « الأمريكانى » القطنى ، واضطررت أنا لصنع سترات ودثارات من قماش الملاءات ... »

وكانت ثمة مكتبة صغيرة من الكتب العلمية ، وأدوات مكتبية من كل نوع ، وشمع للأختام ، ومداد ، وجدول لحركات النجوم ، وأدوات رسم وتلوين . ولكنهما لم يصطحبا آلات تصوير . وكانت معهما مجموعة من أدوات النجارة والحدادة والعُدَد ، كانا يرجوان استعمالها لصنع قارب صغير يحملانه معهما ليستعملاه فى البحيرات . وكان بين المؤن : « ١ دستة براندى (تبعتها ٤ أخرى) ، ١ صندوق سيجار ، ٥ علب شاى (كل منها ٦ ليبرة) ، قدر من البن ، زجاجتا بهارات (كارى) ، قرفة ، ملح خشن وناعم ، زجاجتا فلفل أحمر وأسود ، مخلل ، صابون ، توابل ، ٢٠ ليبرة من الخضر المضغوطة ، زجاجة خل ، زجاجتا زيت ، ٢٠ ليبرة من السكر ، (أما عسل النحل فكان ميسوراً) . . . »

وكان صندوق الأدوية يضم « مورفين » و « كينين » ، ولكن ما أقل ما كان يعرف عن « الملاريا » فى ذلك الحين . وقد كانت الملاريا عاملا مسيطراً فى هذه الرحلات جميعاً . فإن نجاح كل حملة كان فى الواقع يتوقف — إلى حد كبير — على مقاومة الرواد للحمى . وكان « الكينين » قد اكتشف قبل ذلك بأمد طويل ، ولكن مقدار الجرعة الصحيحة كان بعد غير محدد . فكان بيرتون يؤثر أن يعتمد على قطرات « واربورج » المركبة من « السلو » — وهو مادة نباتية — والكينين ، والأفيون . وقد أخطأ فى هذا التصرف .

وكان بين المتنوعات الأخرى فى متاعهما : مظلات ، و ٢٠٠٠ شص وخيط لصيد السمك ، ومصباحان مما يستخدمه الشرطة ، وعلبتا سعوط ، وعشر قداحات (قضيب فولاذى وقطعة صوان) ، وعلم بريطانى ، وشحنة كبيرة من القماش ، وسلك نحاسى ، وخرز لاستخدامه لدفع أجور الحمالين والمقايضة مع القبائل . وكانت كل هذه الأشياء إما معبأة فى صناديق ، أو ملفوفة بإحكام فى أكياس يسهل حملها على رؤوس الحمالين .

وثمة ناحية من نواحى البعثة قدر لها أن تؤدى دوراً حيوياً فى كل ما قابلها من عقبات كانت تجهلها . تلك هى شخصية المستكشفَيْن نفسيهما . ولا يزال « بيرتون » – برغم كثرة الكتب التى ألفها أو كتبت عنه – أبعد ما يكون عن نطاق التعريف العادى . كان – فوق كل شىء – ميالا للخيال ، ومستَعْرِباً . ومن المؤكد أنه كان ينتمى إلى ذلك النفر القليل من الرجال والنساء الإنجليز ، الذين يولدون – فى كافة العصور – وهم يعانون فى حياتهم نقصاً ، جوعاً ، حنيناً لا يهدأ إلا فى صحارى الشرق . ومهما يكن الباعث على ذلك – سواء كان نفوراً طبيعياً من الآفاق الضيقة ، ومن طقس إنجلترا الغائم ، أو من قوانين السلوك المتزمتة التى سادت إنجلترا فى العصر الفيكتورى – فإن رنين جرس الجمل ظل يجتذبه طوال حياته ، إلى يوم موته . ومع ذلك فقد ظل – بكل ماله من تركيز فكر وذكاء مدهشين – من هواة العالم الإسلامى ، ومن عشاق الفن ، وعربياً أكثر من العرب ، وإن لم يكن قط واحداً منهم . . . فهو يعود إلى الشرق مراراً وتكراراً ، ولا يشعر براحة نفس حين يكون بعيداً عنه ، ولكنه لا يملك قط أن يمكث طويلا دون أن يتردى فى ضجر طاغ . وفى حياته لحظات يبدو فيها ألاّ شىء فى الدنيا يقوى على تخفيف نهمه الجنونى إلى العمل ، وإلى كل ما يثير ، ويذكر « ويلفريد سكاوين بلنت » أنه قابل بيرتون يوماً فى « بونس إيرس » – فى نهاية إحدى جولاته غير الموفقة – فوجده يرتدى ثياباً رثة ، وعليه أبشع إمارات الشر . . . « إمارات سوداء ، قاسية ، غدّارة ، وعينان كعينى وحش ضار » . وكانت عيناه – « عينا الأسد الأمريكى الباحث عن صيد » – هما ما يردده كل من يتذكرونه . فنجد « سوينبرن » – الذى كان وثيق المعرفة به – يتحدث عن « نظرة عينيه المروعة التى

لا سبيل إلى وصفها ، والتى كانت تخلع عليه أحياناً منظراً لا يكاد يمت للأرض » . ويضيف الشاعر قائلا : « كان له جبين إله ، وفك شيطان » . وتقول زوجة بيرتون — التى لم تكن من الناقدين طبعاً — إنه كان يبلغ خمس أقدام وإحدى عشرة بوصة طولا ، مفتول العضلات ، أسود الشعر ، لوّح الجو بشرته بالسمرة ، وله شارب أسود ضخم ، وعينان كبيرتان ، سوداوان ، متألقتان ، وأهداب طويلة ، وأسارير تنم عن ضراوة وكبرياء ، وأسى كظيم .

على أن « بيرتون » كان — خلف هذه الأوصاف المسرحية — رجلا بالغ الشراسة ، عميق الدراسة . فما من أحد سجل رحلة خلال أفريقيا بمثل دقته وسعة علمه ، إذ لم يكن يفوته شيء : لغات القبائل وعاداتها ، جغرافية الأرض ونباتها ، وطبقات أرضها ، وطقسها . . . حتى إحصاءات الصادرات والواردات فى زنجبار لم تفته ! . . . وما أتيح قط لمستكشف آخر سعة الأسانيد التى كان يرجع إليها ، ولا اطلاعاته ، ولا مقدرته الكتابية . . . ومن المؤكد أن أحداً لم يوهب ما كان لديه من لمسة فكهة ساحرة . ولعل كتابه « مناطق البحيرات فى أفريقيا الوسطى » أحسن كتبه ، بل أفضل يوميات كتبها مستكشف فى مجال فذ للتأليف .

ولم يكن « بيرتون » — فى ذلك الحين — قد تجاوز السادسة والثلاثين من العمر. وليس يعنينا هنا النصف الثانى من حياته ، برحلاته الصاخبة ، ومشاداته ، والفيض الذى يفوق التصور من الكتب والترجمات التى قدر لها فى النهاية — بعد نشر ترجمته لكتاب « ألف ليلة وليلة » وغيره من كتب الشرق الجنسية المثيرة — أن تكسبه سمعة المضلِّل الفاسق .

على أنه — فى السادسة والثلاثين — كان قد أصبح مشهوراً ، وإن لم تكن شهرته شعبية ، فبعد أن تلقى العلم فى فرنسا وإيطاليا وأكسفورد ، خدم فى الجيش الهندى سبع سنوات ، وقام برحلته الشهيرة إلى « مكة » ، وبحملة لا تقل عنها خطورة إلى مدينة « هرر » الحبشية — المحرم دخولها على الأجانب ! — وألف كتابين عن هاتين المغامرتين . وما تصرّف يوماً — فى أية فترة من حياته فى الجيش الهندى — التصرفات العسكرية العادية ، وإنما كان ينتهج الأساليب المحلية ، والحيل ، والانحرافات التى لا حصر لها فى الحياة الشرقية . فكان دائماً يتنكر

فى ثياب شرقية ، ويصبغ وجهه ، ويديه ، ويرتاد الأسواق الوضيعة التى كانت بعيدة كل البعد عن ذوق أى ضابط بريطانى عادى . وبهذه الوسائل عرف عن الهنود وحياتهم الكثير ، مما يفوق ما كانت السلطات تحفل بمعرفته . ولم تكن دهشة السلطات لما رواه عن الرذيلة فى « كراتشى » بأكثر من دهشتها لتكهنه بأن الجيش الهندى كان على وشك التمرد . وكان — كضابط — ثائراً يضيق بالنظام ، شديد الانتقاد لزملائه . ومع ذلك ، فما كان من الممكن إقصاؤه ، كأى بريطانى مصاب بالشذوذ ، إذ كان مبرزاً فى استعمال السيف ، وكان شجاعاً لا يبارى ، ولم يكن يضاهيه فى تمكنه من اللغات واللهجات سوى نفر ضئيل . ولقد قيل إنه اكتشف طريقة تمكنه من تعلم أية لغة جديدة فى شهرين ! — والمعتقد أنه ، فى نهاية عمره ، كان يتقن مالا يقل عن تسع وعشرين لغة، كتابة وكلاماً ! — ولقد عاش ، فى إحدى الفترات ، مع ثلاثين قرداً ليدرس الأصوات الصادرة عنها ، ثم وفق إلى أن يؤلف معجماً موجزاً لألفاظ القردة !

ويكاد كل هذا أن يكون أكثر مما يجتمع لرجل واحد . ولو أنه كان ذا ميل للاستقرار ، لصارت حياته أيسر رخاء بلا ريب ، ولكن شيئاً فى فطرته — لعله ورثه عن أسلافه الإيرلنديين — كان يدفعه باستمرار نحو أقصى الأماكن ، وأشق المغامرات . ويشعر المرء أنه كان يعيش فى حال من الصراع النفسى المستمر : فرجل الفكر فيه كان فى حرب مع رجل العمل ، ورجل الدراسة المنهجية فى نضال مع الشاعر ورجل الخيال ، والمترف الأنيق الميال للاكتئاب يخوض معركة صغيرة خاسرة مع شقه الآخر المتحرر الميال للهوى ! . . . ولكنه كان لا يلبث أن يثوب عن جموحه ويكافح للعودة إلى مظهر الرجل المحترم . وفى إحدى هذه الارتدادات — قبيل بداية هذه المغامرة الإفريقية الجديدة — أقدم فى إنجلترا على خطبة الآنسة « إيزابل أرونديل » ، التى أوتيت صداقاً (دوطة) كبيراً ، وتربية ممتازة . وما إن خطبها حتى هجرها — وهو شىء كان مقدراً أن يفعله أكثر من مرة فى الحياة الزوجية الطويلة التى كانت ترتقبه — واندمج فى علاقة أكثر غرابة . وكان إقدام هذا المغامر النابه ، الجرىء ، الشديد ، على أن يصطفى رجلا على نقيضه تماماً — مثل « جون هانينج سبيك » — ليكون زميله المقرب إليه ، ظاهرة ساخرة كتلك

التى رسمها الأديب الإسبانى « سيرفانتس » بين شخصيتى « دون كيشوت » و « سانكوبانزا » .

وليس معنى هذا أن « سبيك » كان أدنى مرتبة ، أو موهبة ، من « بيرتون » . بل إنه كان النقيض منه تماماً ، فى الواقع . وكان الخطأ خطأ بيرتون فى النهاية . فإن بيرتون كان بحاجة إلى تلميذ ، فوقع اختياره على مزاحم ! . . . كان سبيك فى الثلاثين من عمره ، يصغر بيرتون بحوالى ست سنوات . وقد أشيع — ذات مرة — أنه كان إنجليزياً هندياً ، مختلط الدم ، ولكن هذا لم يكن صحيحاً . وكان طويلا ، ملتف العود ، تخلع عليه عيناه الزرقاوان وشعره الأشقر مظهر أهل اسكندناوة . ثم إنه كان يعنى بنفسه ، فيأكل كثيراً ، ولا يشرب الخمر إلا قليلا ، ولا يدخن بتاتاً . ولم يكن يميل لشىء من تراخى الشباب ومباذله ، فقد كان يحيا فى الهواء الطلق ، وكان مستعداً لتحمل كل شىء فى سبيل أن يهيئ نفسه لهذه الحياة . وقد عمد مرة — فى أفريقيا — إلى التخلى عن حذاءيه والمشى حافياً ، ليخشوشن . وكان يخطط للمستقبل ، ويعين لنفسه أهدافاً محددة ، ما إن يستقر عليها حتى يسعى إليها بحكمة وعزيمة بالغتين . فكان — بإيجاز — مثالا للنظرة الفيكتورية فيما ينبغى أن يكون عليه الشاب : رزينا ، متقشفاً ، منسقاً فى عاداته ، محترماً . على أنه لم يكن خلواً من الفكاهة ، وقد أوتى موهبة الصداقة . وكان تحت مظهره البارد ، العادى ، نوع من الفتنة . . . حتى بيرتون كان مستعداً لأن يقرّ بهذا ، بالرغم من أن ما كتبه عنه اشتمل على لذعة من العنف ، على مألوف ما كان يصدره من أحكام عن الناس . إذ كتب عنه :

> **« فإلى مظهر يمتاز بالهدوء والتواضع — تساعد عليه عينان زرقاوان وشعر أشقر — وإلى رقة فى السلوك ، وبساطة فى الطباع ، تكاد تشبه بساطة الأطفال . . إلى هذه الصفات التى تجتذب الانتباه لفورها ، أوتى رصيداً هائلاً من الاعتداد بالنفس ، وإن كان يواريه بعناية ، فلا يكاد يحدس وجوده سوى أقرب المقربين إليه » .**

وكان سبيك قد التحق بالجيش الهندى مثل بيرتون ، ولكن فى سن أصغر ، وكطالب عسكرى — لا كضابط — كما أنه قاتل فى « البنجاب » . كذلك كان ،

مثل بيرتون ، يهوى الرحلات الفردية فى الهند ، وإن كانت رحلاته من نوع آخر ، إذ كان يخرج للصيد فى « الهيمالايا » النائية . فقد كان مشغوفاً بالصيد ، حتى ليقول إنه لم تنج من بندقيته سوى أنواع قليلة من حيوانات الهند والتبت ! . . . وقد حملته رحلاته العديدة — فى العطلات التى كان يقضيها هناك — إلى أماكن جد نائية ، يحتمل ألا يكون قد سبقه إليها أوربى . وكان هذا جزءاً من عملية التخشن . ولم يكن سبيك غافلا عن ميزته فى هذا الصدد . فقد كتب فيما بعد يقول ، فى مواراة ، إنه لم يكن كزملائه « ينفق وقته فى خمول ، أو يغرق فى الديون » بل كان ينطلق إلى الجبال ، يجمع العينات ، ويرتاد المناطق غير المستكشفة ، فى ظل رضا السلطات .

ولقد تطلع سبيك — وهو فى الهند ، قبل أن يلتقى ببيرتون بزمن طويل — إلى هدف عظيم : قرر أن يقوم برحلة فى الجزء غير المكتشف من أفريقيا ، بمجرد أن تحين عطلته ، فينطلق من الساحل الشرقى إلى بداية مياه النيل ، ثم يبحر على مجرى النهر إلى مصر ، جامعاً فى طريقه عينات من الطيور والحيوانات النادرة ، بغية أن ينشئ متحفاً للتاريخ الطبيعى فى بيت أبيه فى ريف إنجلترا . وكان يعتزم أن ينفق عامين — من ثلاثة أعوام ، هى إجازته من الجيش — فى الرحلة ، أما العام الثالث فيقضيه مستجماً فى إنجلترا . وقد ادخر المال ، ورسم الخطط ، ليبحر إلى عدن — بمجرد انتهاء سنوات خدمته العشر فى الهند ، فى سنة ١٨٥٤ — ومعه ما قيمته ٣٩٠ جنيهاً من الخرز وسلع المقايضة الأخرى ، ليستغلها فى استخدام الأهالى لمعاونته على عبور جوف القارة الإفريقية .

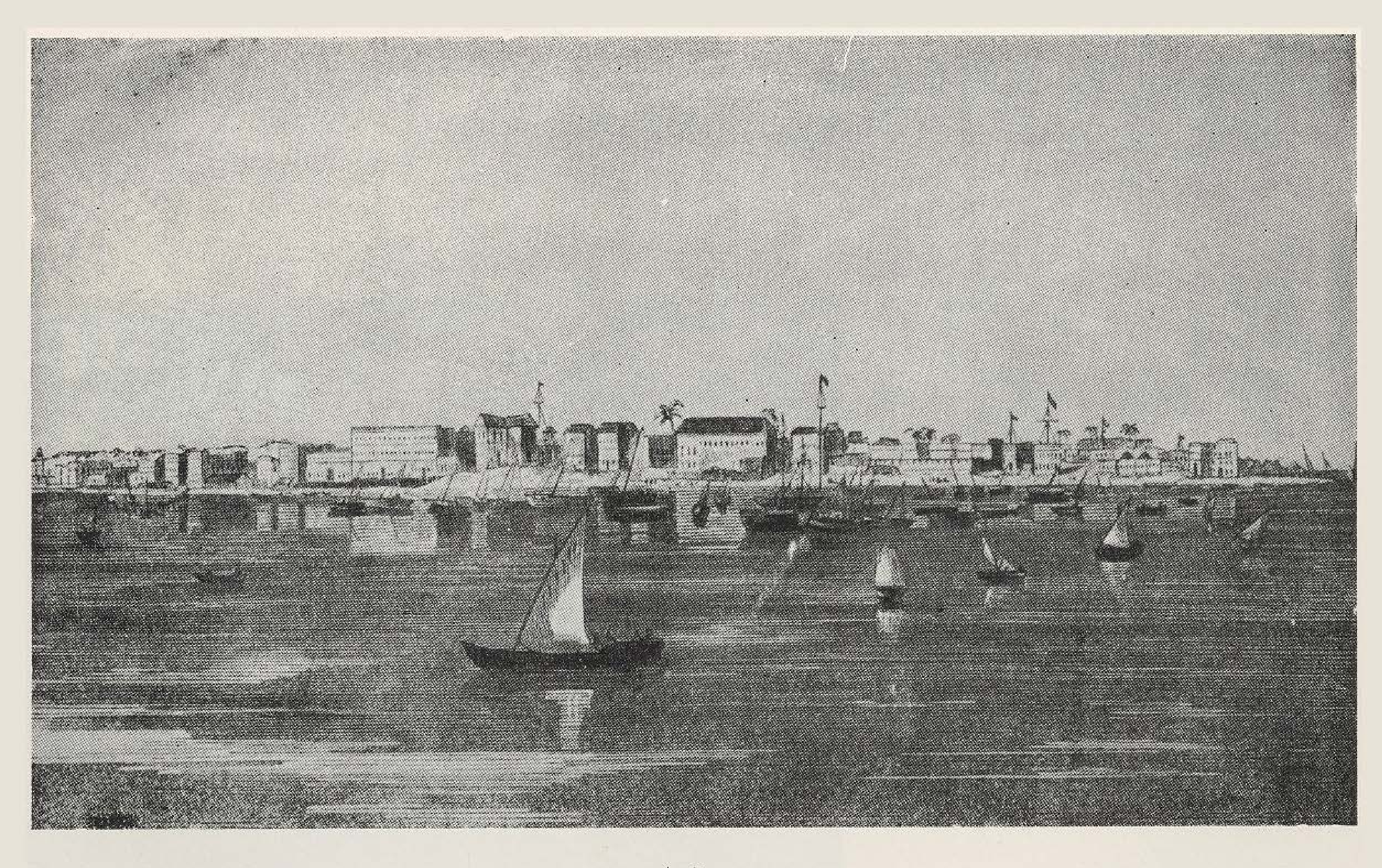
وعند هذه الفترة — قبل شروعه فى الرحلة بحوالى عامين — التقى المكتشفان ، للمرة الأولى . فلم يكن سبيك قد قضى بعد غير أيام معدودة فى عدن ، حين وصل بيرتون مع عدد من الضباط الشبان ، فى بداية حملته إلى الحبشة . وسرعان ما اتخذت التدابير ليعدل سبيك خططه وينضم إليهم .

وكانت هذه المغامرة الإفريقية الأولى ، نجاحاً شخصياً باهراً لبيرتون ، من وجهة نظره . فقد استطاع بكثير من المناورات ، وكانت من النوع الغامض الخطر الذى يحبه ، أن يدخل « هرر » — معقل غلاة المسلمين المتعصبين — ويخرج

منها . وقد واعد الآخرين على اللقاء على الساحل الصومالى . أما بالنسبة لسبيك ، فكانت الحملة نكبة لا مثيل لها ، إذ أنها — من ناحية — لم تحقق شيئًا عمليًّا . وما إن انضم بيرتون إلى زملائه فى « بربرة » — فى أبريل سنة ١٨٥٥ — حتى شنت القبائل الصومالية على المعسكر هجومًا منسقًا ، فى منتصف الليل ، فلقى أحد الإنجليز مصرعه — فى القتال المستميت — وجرح بيرتون فى فكه ، وأخذ سبيك أسيراً بعد أن طعن مرات فى ساقيه وذراعيه . وكان ثمة شقاق حاد قد دب بين بيرتون وسبيك فى عنفوان الهرج . وقال سبيك — فيما بعد — إنه كان قد هرع عائداً إلى الخيمة ، ريثما يستبين المهاجمين بجلاء ، فأساء بيرتون فهم عمله وناداه صائحًا : « لا ترتد وإلا ظنوا أننا نتراجع » . وغاظ هذا سبيك ، فاندفع خارجًا نحو المهاجمين ، فأصابته الحراب ، وارتبك ، فأوثقوه وحملوه ، وكان مثخنًا بالجراح ، موقنًا من أنه مقضى عليه ، ولكنه استطاع الفرار برغم ذلك ولحق ببيرتون والضباط الآخرين الذى لاذوا بسفينة عربية صديقة . وما لبثوا أن هربوا إلى عدن ، ومنها إلى إنجلترا ، حيث كانت فى انتظار سبيك صدمة أخرى ، أثناء علاج جراحه : فإن بيرتون استباح لنفسه الحق — بوصفه قائداً للحملة — فى استغلال المذكرات التى كتبها معاونوه . فلما نشر كتابه « خطوات أولى فى أفريقيا الشرقية » ، وجد سبيك أن موجزاً ليومياته هو قد دُسّ فى نهايته ، دون ذكر لصاحبه الحقيقى ! .

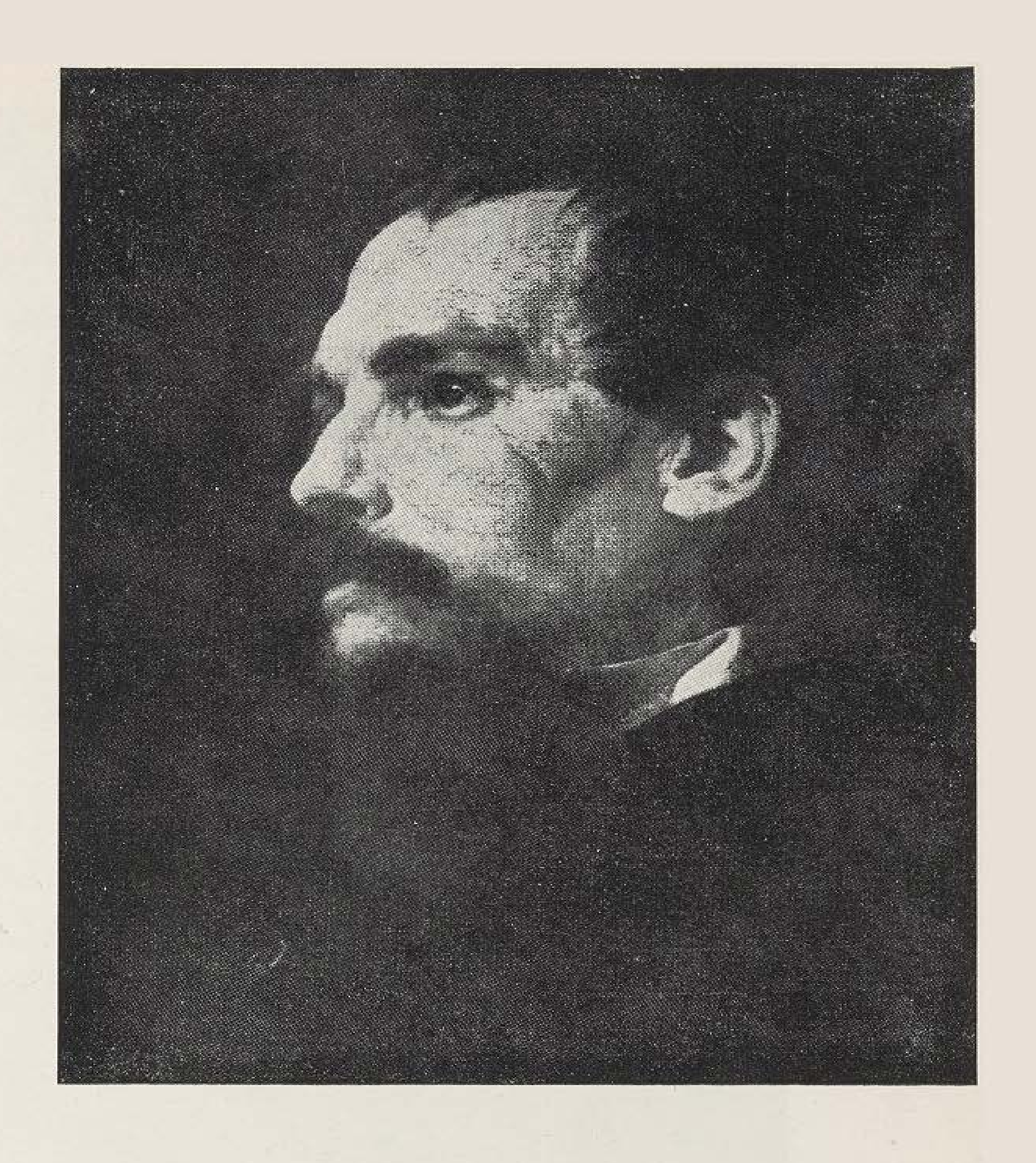
ولقد كتب بيرتون عن حالة سبيك العقلية — خلال تلك الأيام الأولى لتعارفهما — ملحوظة يتردد المرء فى تصديقها ، لأنها لا تكاد تتمشى مع ما نعرفه عن وضوح ، وسعة أفق ، هذا الرجل. إذ قال : « وقبل أن ننطلق ، أعلن " سبيك " أنه كان قد سئم الحياة ، فجاء ليلقى مصرعه فى أفريقيا » . وقد لا يكون هذا — فى واقعه — أكثر من تعبير على طريقة الشاعر « بايرون » . ومع ذلك ، ففيه لمحة من أحلام الشاب الذى كان يرتاد جبال التبت وحيداً . فلعله كان يطوى صدره على رغبة محددة ، دافعة ، فى أن يصبح بطلا ! .

ومع ذلك ، فلم يكن بين الرجلين — حتى سنة ١٨٥٥ — ضغينة ما ، ولا كان أيهما يفتقد الشجاعة . فبعد مغامرتهما الصومالية ، تطوعا لحملة القرم ، حتى إذا



زنجبار

كما كانت تبدو فى الخمسينات من القرن التاسع عشر .



سير ريتشارد فرانسيس بيرتون
لم يدخر وسعاً فى التحامل على سبيك
ليجحده توفيقه فى اكتشافه

انتهت الحرب التقيا ثانية فى لندن . وكان « بيرتون » قد أعد الخطة لرحلة من نفس نوع ما كان سبيك يشتهى . . حملة إلى منابع النيل . وقد بادر سبيك إلى الموافقة على الانضمام إليه حين دعاه .

وهكذا وجد الرجلان نفسيهما — فى نهاية سنة ١٨٥٦ — فى بيت « همرتون » بزنجبار ، يتأهبان لمغامرتهما الثانية فى مجاهل أفريقيا . ولما كان « بيرتون » قد ظفر بمنحة من وزارة الخارجية البريطانية مقدارها ألف جنيه ، وبرعاية الجمعية الجغرافية الملكية ، فإنه صار القائد الرسمى للحملة . وتقبل « سبيك » — بقدر ما تجلى يومئذ — هذا الوضع بسماحة تامة ، وقد استهوته المغامرة السانحة . كذلك كان « بيرتون » بدوره شديد الاطمئنان ، وقد كتب من زنجبار إلى سكرتير الجمعية الملكية فى لندن ، يقول : « إن القوم هنا يروون قصصاً رهيبة عن أخطار صعوبة الرحلة (إلى جوف القارة) ، لكنى لا أصدق منها حرفاً » .

ولم يكن المستكشفان فى عجلة لمبارحة زنجبار ، فراحا يتناقشان طويلا مع همرتون فى خططهما ، ويزوران السلطان الشاب « مجيد » ، ويتقايضان فى السوق ليحرزا مزيداً من الرجال واللوازم . ثم شرعا فى رحلة مبدئية — غير ذات غاية — على الساحل ، ليهيئا نفسيهما للرحلة الكبرى . وغابا شهرين ، زارا فيهما جزيرة (بيمبا) المجاورة — التى كان يُظَن أن كابتن « كيد » قد دفن كنزه فيها — وقطعا مسافة قصيرة فى داخل القارة ، عبر الأرض الممتدة جنوب ما يعرف الآن بحدود كينيا وتنجانيقا . وقد أعجب بيرتون بأطلال إمبراطوريتى البرتغال وفارس البائدتين فى « ممباسا » ، وبالقواقع على جذور الأشجار البحرية فى الجداول الساحلية ، وراقب التماسيح « وهى تنساب فى الماء وبراثنها البشعة تغوص فى الضفة ، ثم تنبطح فى الماء كجذوع أشجار صفراء بنية ، وتتأملنا بعيون خضراء صغيرة تغوص تحت جباه ضيقة ، وتوحى بالخبث » .

وكان المبشر « يوهان ريبمان » هو الأبيض الوحيد الذى يعيش على أرض القارة — إذ ذاك — فزاراه فى إرساليته خارج « ممباسا » أملا فى أن يضماه إلى الحملة ، ولكنه أبى . ولعل مرد ذلك أن « بيرتون » اتفق مع السلطان على ألا يحاول تحويل الإفريقيين إلى المسيحية . وبعد مغامرات عديدة ، عاد المستكشفان إلى مركبهما —

بقرب « بانجانى » — وقد اشتدت عليهما وطأة الملاريا ، حتى لقد حمل « بيرتون » حملا إلى سطح المركب . واستنفد شفاؤهما عدة أسابيع فى زنجبار . ومع ذلك فقد صرح « بيرتون » بأنه رحب بهذه التجربة الأولى للحمى ، إذ كان يعتقد أنها تحصنهما من المرض بعد ذلك . وفى هذا — أيضًا — كان على خطأ .

وأخيراً ، أقلع المستكشفان — فى ١٦ يونيو سنة ١٨٦٧ — إلى داخل القارة ، على ظهر « أرتميز » ، يخت السلطان .

الفصل الثانى

الإلهام

لا يكاد يفصل زنجبار عن القارة الإفريقية عشرون ميلا ، فمن الممكن رؤية الجزيرة من الساحل بوضوح فى الأيام الصحوة . ويجتاز اليخت — ذو المحرك — المضيق الفاصل بينهما فى ساعة أو اثنتين ، بينما تقطعه الطائرة فى عشر أو خمس عشرة دقيقة . ومع ذلك ، فالفارق كبير بين الجزيرة وشاطئ القارة . فنى زنجبار كل شىء ناعم ، يستهوى النفس ، ويغرى بالاسترخاء ، كالحمام التركى . وليس فى الجزيرة تلال أو مرتفعات وعرة ، ولا سيول ، بينما تمتد المزارع وراء دروب الغابة ناضرة وفيرة . . . وفى كل مكان شعور براحة غامرة ، وخمول يغرى بالنعاس .

وليست القارة أخف حرارة من الجزيرة ، ويؤخذ الرحالة — بمجرد أن يهبط إلى الشاطئ — بوحشة أفريقيا الوسطى وإقفارها ، كما يُبهر بالمساحات البدائية الشاسعة ، فيشعر بشىء من التّهيب ، لا سيما إذ يرى نباتات خشنة تمتد مسافات بعيدة ، وأكواخ الأهالى كحظائر الدجاج لا تسر الناظر ، فهى كالصناديق المستطيلة ، ذات سقوف مسطحة ، وتصنع من أعمدة خشبية غير مصقولة ، وطين معجون . ولا يستهوى العين حقًّا — فى هذا المنظر — سوى أشجار البوباب (العُمار) التى تنمو عادة فى تُلَل على السهل . فلها منظر يوحى بما ترويه الخرافات عن الأقزام الذين يسكنون جوف الأرض ، إذ هى أشبه بقصعة مستديرة من الخشب ، تنبثق منها فروع كقرون الوعل ، ولها لون جلد الفيل .

وتمتد الأراضى على هذا النحو إلى الداخل تسعين ميلا ، حتى يجتاز المرء السهل الساحلى ، وتتبدى له الجبال ، فينتقل سريعاً إلى الهضبة الوسطى الكبيرة التى تمتد مئات الأميال فى جوف أفريقيا . وهنا يتبين المرء فجأة كيف كان هواء الساحل المشبع بالرطوبة يثقل رئتيه . وعلى ارتفاع ٣٠٠٠ قدم — وهو متوسط منسوب الهضبة — تبدأ السهول الفسيحة تتخللها هنا وهناك صخور وعرة ناتئة ، ولا تمر لحظة لا يلم فيها الطرف بجبل عن بعد . تلك هى الآفاق الحقيقية لأفريقيا

الوسطى . وليس من البعيد — مع ذلك — أن ترى هنا سرباً من النعام بين الأعشاب الطويلة ، أو قطيعاً من الظباء يمرح . فإذا أوغلت فى المسير ، أطبق على الأدغال سكون عميق . وإذا صادف أن ظهر أفريقى ، فإنه يقف لحظة ساكناً وهو يتأملك بحذر الحيوان ويقظته ، ثم يستجيب لك بحركة من ذراعه ، ويحييك أحياناً .

ويبدأ طريق قوافل العبيد من الساحل ، ماراً — فى أغلبه — بمواقع الماء . وقد كانت جميع القوافل تقريباً تيمم شطر « كازه » — وتدعى الآن « تابوره » — فى تنجانيقا الوسطى ، على بعد حوالى ٥٠٠ ميل من الساحل . ومنها كانت طرق القوافل تتشعب فى كل اتجاه : أحدها يتجه إلى الشمال مباشرة نحو الشاطئ الجنوبى لبحيرة فيكتوريا ، وآخر يدور حول الجانب الغربى للبحيرة متجهاً إلى البلاد المعروفة باسم « كاراجوه » ، وثالث نحو الغرب إلى « أوجيجى » على بحيرة تنجانيقا ، وطريق آخر إلى الجنوب نحو بحيرة « نياسا » . وكان السفر فى غاية البطء ، ولا يتيسر إلا فى الجو الجاف .

على أن المسافرين يحظون عادة بفترة تمهل فى بداية هذه الرحلات الطويلة ، عند ما ينتقلون من زنجبار إلى الساحل عند « باجامويو » ، التى يعنى اسمها : « اطرح هموم قلبك » . وهى مكان جميل يحف بشاطئه صف من نخيل جوز الهند ذى الأغصان الوارفة ، يتجلى خلفها — فى فصل الازدهار — منظر من أجمل مناظر أفريقيا : الأشجار الموشاة تنتشر كأشجار الكستناء ، متوهجة بأبهى درجات الألوان : القرمزى والنارى والبرتقالى .

ويبدو المحيط الهادئ هنا فى شكل الحساء الشديد الملوحة ، وفى دفئه — وكثافته دون شك — ويغشى سطحه ألف جسم وجسم من الأجسام الرفيعة ، من لوز الأعشاب البحرية ، إلى السمك الهُلامىّ الداكن ، إلى غلاف جوز الهند الخاوى . ولا مرفأ هناك ، وإنما يكسر حدة الأمواج حاجز مرجانى يتدرج بعده الساحل وئيداً إلى الداخل . وعندما ينحسر المد ، يتراجع البحر ربع ميل أو أكثر ، وتبقى الفضلات متناثرة على سهل أغبر مبتلّ . وكان من عادة مراكب زنجبار — فى الماضى — أن تمضى مع المد إلى أقصى ما تستطيع ويُنقل الركاب على محفات يرفعها حمالون من الأهالى . وعند الجزر ، كان المركب يسند — من الجانبين —

بأعمدة من جذوع « المانجو » ، ويخوض الماء الضحل إليها صفوف من العبيد يفرغون حمولاتها .

وتقوم فى « كاؤل » — على مسافة قصيرة جنوب « باجامويو » — أطلال مسجد من صخور المرجان ، وقبور ومساكن ترجع إلى القرن الثالث عشر . وهى آثار لا يصدق المرء وجودها فى هذا الجو الذى يبدو فيه أن كل شىء من صنع الإنسان مسوق إلى أن تدمره الطبيعة ويغدو منسيًّا . وفى « باجامويو » لوحة مرفوعة ، تعلن أن بيرتون وسبيك انطلقا منها فى رحلتهما إلى الداخل سنة ١٨٥٧ .

ولقد اقترنت البداية بالعقبات المعتادة : فبعد أن غادرا اليخت فى « كاؤل » إلى الشاطئ ، تبينا أنه لا سبيل للحصول على أكثر من شطر من الحمالين الذين كانا يريدانهم ، فبات لزامًا أن يشتريا حميراً تغنى عنهم . وبعد مساومات شديدة فى السوق ، جمعا ستة وثلاثين رجلا ، وانتهيا إلى وجوب ترك الزورق وأمتعة ثقيلة أخرى . وكان « همرتون » قد صحب الرحالتين من زنجبار ليودعهما ويساعدهما على الانطلاق، فكان هذا وفاء فذًّا منه ، إذ أنه كان يحتضر . كان يدرك كل الإدراك أن قواه قد نضبت أخيراً ، واعترف لبيرتون أنه يتوقع الموت ويرحب به ، ويرجو أن يدفن فى البحر . وقد أبحر عائداً إلى زنجبار فى ٢٦ يوليو سنة ١٨٥٧ ، ولم يعش بعد بلوغه إياها إلا أيامًا قلائل . وقدر لبيرتون وسبيك أن لا يسمعا بموته إلا بعد أحد عشر شهراً ، وفى أعماق أفريقيا .

وتقدم سبيك مع بعض الرجال فى ٢٥ يونيو ، فى أولى مراحل الحملة ، ثم تبعه بيرتون فى ٢٧ يونيو ، ممتطيًا جملا . وساروا — بادئ الأمر — فى اتجاه الجنوب الغربى ، ليتفاديا أرض قبيلة « ماساى » المشاكسة . ثم توقفوا عند مكان يدعى « زونجوميرو » — اختفى من الخريطة بعد ذلك — ريثما يلتئم شملهم ، وهناك تسنى لهم الحصول على مزيد من الحمالين ، فبلغ مجموع أفراد القافلة ١٣٢ . وطالعهم يوم أول أغسطس وهم يتسلقون وئيداً سفح الهضبة الوسطى .

وهكذا بدأت الحملة أخيراً .

ولم تكن تكتنف الطريق عقبة معينة ، فقد سلكوا دروبًا مطروقة ، من قرية إلى أخرى ، وكانوا يصادفون — بين الحين والحين — قوافل أخرى عائدة

إلى الساحل ، مزودة بالعبيد والعاج . غير أن تقدمهم كان بطيئاً ، ملتوياً ، متخبطاً ، حتى ليدهش المرء أنهم استطاعوا المضى فى رحلتهم . وكان اليوم يبدأ عادة مع صياح الديكة — فى الرابعة صباحاً — قبل أن ينقشع الظلام أو تخف حدة البرد . فكان بيرتون وسبيك يحتسيان القهوة أو الشاى، وربما تناولا طبقاً من العصيدة ، بينما كان الحراس العرب يولون وجوههم شطر الشرق للصلاة . ولا تحين الساعة الخامسة حتى تكون القافلة كلها تموج بالحركة حول نيران المعسكر . وتتبع ذلك فترة انتظار طويلة ريثما يتم جمع المواشى والماعز ، ويشتد العراك بين الحمالين من أجل الأحمال ، إذ كانت أثقل الأعباء تترك عادة لأضعف الرجال ! . وكان آخر عمل قبل الرحيل ، هو إشعال النار فى الأخصاص التى أقيمت من الأعشاب فى الليلة السالفة .

وعندما ينطلق الركب الطويل فى النهاية ، كان يسوده نظام بدائى ، فيسير الدليل فى المقدمة ، مرتدياً قلنسوة ذات طابع رسمى ، وحاملا راية سلطان زنجبار ، ووراءه قارع الطبل ، ثم حاملو القماش والخرز وعلى رؤوسهم أحمالهم — المحزومة بشكل حشيات — ثم حاملو معدات المعسكر ، ونساؤهم ، وأطفالهم ، والماشية . وكان الحراس المسلحون ينتشرون على طول الصف ، وقد حمل كل منهم غدارة ذات فوهة طويلة محشوة ، وسيفاً من سيوف الفرسان الألمان ، وصندوقاً جلدياً صغيراً يشد إلى وسطه ، وقرناً ضخماً من قرون البقر مليئاً بالذخيرة . وكانت القاعدة أن يسير بيرتون وسبيك فى المؤخرة ، إما على جمل أو بغلين ، أو محمولين على محفتين إن كانا مريضين . وكان كل ذكر من أعضاء القافلة — تقريباً — يحمل سلاحاً من نوع ما ، ومجموعة من الأوانى الفخارية والمعدنية ، ومقعداً خشبياً ذا ثلاث سيقان وبدون مسند . وكان المشى يقترن بصخب شديد مستمر ، من الغناء ، والترنم ، والصفير ، والصياح ، إذ كان الظن أن من المهم إثارة أقصى ما يمكن من الضجيج للتأثير على القبائل المحلية . وإذا تصادف وعبر أرنب برى الطريق ، كانت الأحمال تلقى فوراً لمطاردة الحيوان الذى كان يؤكل نيئاً .

وكانت القافلة تتوقف عن سيرها اليومى حوالى الساعة الثامنة صباحاً أو بعدها . ولكن، ضراوة قيظ الظهيرة كانت تبدأ عادة حوالى الساعة الحادية عشرة ، وتكون

القافلة قد قطعت حوالى عشرة أميال . فإذا صادف أن كان التوقف فى قرية ، حدث تدافع لاحتلال أحسن الأكواخ. وبينما تضرب خيمة لبيرتون وسبيك ، كانت القافلة بأسرها تتجمع فى حظيرة من فروع الشجر والنباتات الشوكية ، وكان المستكشفان يجلسان فى الظل — خلال الظهيرة — يدوّنان الملاحظات العلمية ، ويكتبان يومياتهما ، ويرسمان ، ويدبران الخطة العامة للسير . وكان بعض القماش يدفع إلى الحمالين — فى كل محطة يتوقفون عندها — ليشتروا به غلالا من السكان المحليين. وفى الرابعة مساء ، كان الطاهيان يقدمان العشاء الذى كان يتألف عادة من الأرز ولحم الماعز ، ما لم يكن « سبيك » قد خرج واصطاد طائراً من طيور الحجل أو غزالاً — وهى تسلية لم يكن بيرتون يشجعها — وقد كتب سبيك فيما بعد : « إنه كان يأبى التوقف للصيد ، لأنه رجل غير رياضى » .

وفى المساء، كان الرقص يدور —لاسيما إذا كان القمر مشرقاً — فتشترك النساء فى حلقة ، والرجال فى أخرى . وقد كتب بيرتون : « إنهم حاذقون فى التوقيت ، بحيث كنت ترى مائة زوج من الكعوب تتحرك معاً، وإذا ما حَمِيَ الرقص ، لا يلبث الهرج أن يدب ، وتملأ المعسكر جلبة الجرى والصراخ ، إلى أن يتهالك الراقصون أخيراً حول نيران المعسكر — حوالى الساعة الثامنة — ويسود السكون .

هكذا كان ينقضى اليوم العادى فى سير القافلة ، ولكن ما من يوم تقريباً كان عاديًّا ، وكان رؤساء العشائر فى كل مرحلة يطلبون «الهونجو » — وهى ضريبة تتألف من ياردات من القماش ، وعدد من أكياس الخرز — قبل أن يسمحوا للأغراب باجتياز أراضيهم ! . . وقد تنقضى ساعات ، بل أيام أحياناً ، قبل أن تنتهى المساومة . وأخيراً يدق طبل فى قرية الرئيس معلناً أن للقافلة أن تمضى . وأخذ كثيرمن الحمالين يهجرونهم ، كلما ازدادوا بعداً عن الساحل، فكان لابد من إحلال حمالين جدد محلهم . كما ماتت الحمير واحداً بعد آخر ، وأخذت الأمراض تظهر فى المعسكر ، وكثيراً ما كان الجوع يوشك أن يوردهم الهلاك ، كما أن الرجلين الأبيضين كانا دائماً مريضين ، بل إن صحة « سبيك » كانت — فيما يبدو — فى انهيار مستمر طيلة الطريق إلى « كازه » . كذلك كانت الأمطار كثيراً ما تداهم القافلة فى غير موسمها . . . ولكنهم احتملوا وناضلوا ، مواصلين تقدمهم .

ومن المحتمل أن قبائل تنجانيقا لم تكن – فى الخمسينات من القرن التاسع عشر – من الاضطراب والضراوة كما أصبحت فيما بعد ، عندما استشرت تجارة الرقيق . فكان الرحالة يستقبل بودّ نسبى . ومع أن « بيرتون » و « سبيك » مرا بقوافل ضخمة للعبيد – بعضها كان يصل إلى ألف فرد – ورأيا الجانب المحزن فى تقدمهم ، ممثلا فى الماضى من الرجال والنساء والأولاد الذين كانوا يموتون على جانب الطريق .. مع ذلك أبدى كل منهما أن مشاق الرحلة لم تكن بالسوء الذى توقعاه ، فكتب بيرتون : « الإنصاف يدعو إلى الاعتراف بأن بشاعات سوْق العبيد نادراً ما صادفتنا فى أفريقيا الشرقية » . فنادراً ما كان العبيد يكبلون بالسلاسل أثناء سيرهم ، أو تساء تغذيتهم ، أو يلقون إرهاقاً . بل إن الحمالين – وهم أحرار يقومون بالرحلة الطويلة إلى الساحل مقابل أجور زهيدة – كانوا يعانون أسوأ ما فى الرحلة ، وفى زنجبار والمدن الساحلية كان العبد يلقى حياة أفضل بكثير من التى خلفها وراءه فى قريته القذرة الموبوءة .

ومع ما عرف عن « بيرتون » ومن تعمق فى دراسة الأجناس الملونة ، ومن نهم إلى ارتياد ديارهم ، نجده يكشف طيلة يومياته عن ازدراء غريب لابن أفريقيا ، يناقض ذلك ، فهو يقول : « إنه يبدو منتمياً إلى أحد هذه الأجناس الناشئة التى لا تصل إلى وضع الإنسان ، وإنما تهوى كحلقات بالية من سلسلة التطور الطبيعى العظيمة » ويقول : إن ديانة الإفريقى ليست سوى « خشوع مبهم لا اسم له » ... وإن كل همه هو معاقرة الشراب [1] . ويقول « بيرتون » إن شرب « البومبه » – وهى البيرة المحلية – يبدأ مع الفجر فى كل مكان من القرى ، ويستمر طوال النهار . . . وإنه ليس لهؤلاء الجهلة ، السكيرين ، المترددين ، قوانين خلقية ، « فالزواج – الذى يعتبر حدثاً فذاً لدى المسيحيين ، وحدثاً هاماً لدى المسلمين – مجرد طارئ ، كثير التكرر ، لدى هؤلاء الناس ، فليس من حد لتعدد الزوجات ، ويتفاخر الزعماء بعدد زوجاتهم ، الذى يتراوح بين اثنتى عشرة وثلاثمائة » !

---

(١) قد يكون فيما يذكره الكاتب من أن الإفريقيين كانوا يعكفون ليلهم ونهارهم على شرب الجعة الوطنية ، كثير من الإغراق والمبالغة . . فكيف كان بوسع قوم هذه حالهم أن يرقوا بأنفسهم وحياتهم وينشئوا لأنفسهم حضارة لا بأس بها ، برغم انعزالهم التام عن العالم . . وهى حقيقة لم يملك المؤلف أن ينكرها فى عدة مواقع من الكتاب . (المترجم)

ومما يؤسف له ، أن الحملة مرت فى رحلتها مروراً «عابراً» بأماكن تتوفر فيها الشواهد على عراقة الحياة الإفريقية ، مثل ممر « أولدوفاى » فى سهول « سيرينجيتى » . كما أن « بيرتون » لم يعرف شيئاً عن الصخور المعلقة فى « كوندوا » حيث ترى رسوم للصيد تمثل أشكالا كأعواد الثقاب تنقض على الزراف ، ورسوم مبهمة تبدو كهياكل السمك ، ودوامات وانتشارات كالنجوم الهاوية ، ودوائر للسحر تملؤها نقط ، كما أن آبار تنجانيقا ذات الدرجات المنحوتة المفضية إلى الماء لم تكن قد اكتشفت . و « بيرتون » من الرحالة القلائل الذين كان ينبغى أن تثير هذه المخلفات اهتمامهم ، ولكن الذى حدث أنه كان ضيق الصدر بما كان يبدو من إجداب ماضى البلاد ، فكتب يقول :

« إن أفريقيا الشرقية والوسطى، الاستوائية، تفتقر إلى ما يهم عالم الآثار . فما أقل ما فيها من مأثورات ، وليس فيها نقوش تاريخية ، ولا أطلال ، ولا البقايا العتيقة لمجد تليد ، مما يشوق الرحالة وقارئ كتب الرحلات ، فهى لا تضم أى عمل فنى أو زخرفى نافع . وقد كانت أية قناة أو خزان — ولا تزال — أبعد من نطاق مدنيتها الضيق . بل إنها لتنقصها مناظر الأبهة البربرية والعظمة الوحشية التى يألفها من يدرس أفريقيا الشرقية ، على أن الدراسة الوصفية لأجناسها تنطوى على طرائف ، فهى تكشف عن طباع وعادات غريبة . . بل إن طقوس السحر فى حد ذاتها أعجوبة ، كما أن تجارتها جديرة بالانتباه ، وحالتها الاجتماعية مفعمة بما يثير الاهتمام الحزين » .

وما كان « بيرتون » ليترفق بالإفريقيين حتى وهو يتظرف . فهو يكتب فى لوم :

« أخيراً مكنتنى تجربتى فى ” الحملقة “ ، من تقسيم اتجاهاتها كما يلى : فأولا ، هناك الحملقة المسترقة ، عندما يحدق الناظر خلسة من تحت الخيمة ، وعكسها الحملقة الصريحة ، وثالثاً الحملقة الفضولية أو الذكية ، التى كان يصحبها عادة ضحك من منظرنا . . ورابعاً الحملقة الغبية التى كانت تصدر من الهمجى الخمول الذهن . والحملقة الرزينة هى حملقة السلاطين والعظماء ، أما غير الرزينة فتصدر عن النساء والأطفال ، فى مواسم غير عادية . وسادساً حملقة الإطراء وهذه كانت نادرة للغاية ، وكذلك

كانت الحملقة المزدرية ، وثامناً الحملقة الجشعة ، وكانت تكشفها العيون التى تتنقل دون استقرار من شىء لآخر دون أن تكل أو تشبع . وتاسعاً الحملقة الحازمة العنيدة ، وتصدر عن المسنين المشاكسين بوجه خاص . وختاماً الحملقة الثملة ، والحملقة الضارية أو الشرسة ، وأخيراً حملقة آكل اللحوم ، التى كانت تتأملنا باعتبارنا " مواد غذائية " ! »

وهكذا يمضى هجاء « بيرتون » للأفريقيين ، مضحكاً أحياناً ، ونكداً أخرى ، بينما لو توقف لحظة لتبين أن النخاسين الأجانب — فى تلك البلاد — هم الذين كانوا يغدرون ويحطون من شأن هؤلاء القوم ، بجانب « البومبه » وتعدد الزوجات . . . ومن ناحية أخرى ، كان « بيرتون » يرى أن الإفريقيين أنفسهم هم المسئولون عن ضراوتهم ، فهو يعاملهم — من البداية للنهاية — كأطفال « منحرفين » ، ذوى ميول إجرامية ملحوظة . أما « سبيك » ، الذى عانى المضايقة مثله ، فلم يشعر بنفس الشعور ، ولا شعر به المستكشفون الآخرون مثل « لفينجستون » . . . والواقع أن مسلك « بيرتون » يبدو متهوساً فعلا — تهوس الكراهية العنصرية فى عالمنا اليوم — إذا قورن بكرم لفينجستون ، ورقته ، وعطفه نحو الأفريقيين . . .

ولكن من الإنصاف القول إن « بيرتون » لم يكن قاتلا سفاكاً للإفريقيين ، ومن المحتمل أن شعوره كان اشمئزازاً أكثر منه كراهية . وفى هذه البطاح البدائية الخالية من كل ما يرضى مطالب عقل متأنق مغرور ، مال « بيرتون » إلى العرب ، دون الإفريقيين . . .

وعندما شقت الحملة طريقها إلى « كازه » ، فى ٧ نوفمبر سنة ١٨٥٧ — بعد حوالى خمسة أشهر من الترحال — سعى « بيرتون » لمقابلة التجار العرب باغتباط ، وهو يصيح : « كان الفارق مذهلا بالفعل بين ما لهذا العنصر النبيل من حفاوة مغداقة ، وطيبة قلبية ، وما للإفريقى الهمجى الأنانى من شح خسيس » . وعاد إلى أصحابه العرب الكرام ، الوقورين ، المضيافين ، ذوى اللحى والعمائم والثياب البيضاء الطويلة . وهم رجال مهذبون ، ذوو طباع رقيقة . ولم يضايقه لحظة أن شُغْل حياتهم الأول هو سوْق الرجال والنساء والأطفال إلى الساحل ، وبيع من يبقى منهم حيًّا فى أسواق الرقيق بمدينتى « ممباسا » و « زنجبار » .

كان فى «كازه» — إذ ذاك — حوالى خمسة وعشرين تاجراً عربياً ، عملوا على الاحتفاظ بقشور من الحضارة ، فمنازلهم مبنية من الطين ، ولكنها كانت رحبة تتوسطها أفنية ، وفيها أجنحة خاصة للعبيد والحريم . وكانت الفواكه والخضر تزرع ، كما كانت تعرض فى السوق معظم المواد اللازمة لتجارة شرق أفريقيا ، ولكن بخمسة أمثال أسعارها فى زنجبار تقريباً . وكان من عادة العرب أن يأكلوا عند شروق الشمس ، ثم فى الظهر ، ولكنهم كانوا يقتصرون على الأغذية الخفيفة جداً ، لذلك ندر أن كان المرء منهم موفور الصحة لشهرين متواصلين ، ومع أن الحياة كانت محتملة إلا أنها نادراً ما كانت أكثر من حلقة جافة من المساومة التافهة والانتظار المتواصل . لذلك سرهم أن رأوا الرجلين الأبيضين ، وكانوا على استعداد لمساعدتهما بكل الطرق. وهكذا انقضى شهر فى «كازه» و «بيرتون» — على الأقل — مستمتع بحياته ، إذ تسنى له الاندماج مع مضيفيه فى أحاديث طويلة مفيدة حول البطاح المجهولة الممتدة إلى الغرب . أما «سبيك» فكان — لمرضه وعدم تمكنه من اللغة العربية — مهملا بعض الشىء — فيما يبدو .

على أنهما واصلا الرحيل فى أوائل ديسمبر ، فوصلا — فى ١٣ فبراير سنة ١٨٥٨ — إلى بحيرة تنجانيقا ، بجوار «أوجيجى» ، مركز الرقيق والعاج . وكانت تلك لحظة فوز كبير واكتشاف عظيم ، ولكن المرض كان قد عاد يستبد بالرجلين . . . فإذا «سبيك» — الذى كان يعانى الرمد منذ طفولته — شبه أعمى لا يكاد يرى البحيرة . . . بينما لم يعد «بيرتون» يتناول سوى السوائل ، لتقيح فكه . ومع ذلك فقد حققت الحملة أولى غاياتها العظيمة على الأقل . وما إن استعاد «سبيك» إبصاره حتى انطلق بحثاً عن قارب يمكنهما من ارتياد المنطقة بأسرها ، ومع أنه عاد خالى اليد ، فإنهما عثرا أخيراً على زورقين من زوارق الأهالى ، أقلعا فيهما نحو الشمال ، وقد راودت «بيرتون» فكرة أنهما قد يعثران هناك على نهر يتدفق شمالا ، فيحتمل أن يكون منبع النيل . ولكن رجاءه خاب ، لأن نهر «روسيزى» يتدفق فى اتجاه الجنوب ليصب فى بحيرة تنجانيقا ، التى لا يتجاوز ارتفاعها ٢٥٣٥ قدماً فوق مستوى البحر ، فهى أشد انخفاضاً من أن تكون المورد الأصلى للنيل . ومن ثم رجعا إلى «أوجيجى» حيث وافاهما حظ لا بأس به ، إذ وصلت مؤخرة حملتهما من الساحل بالامدادات ، وتسلما — لأول مرة بعد عام تقريباً — رسائل حملت لهما أنباء العالم الخارجى .

وفى يونيو سنة ١٨٥٨ ، عادا إلى « كازه » ، وهناك صادفا — بطريقة شبه عرضية — سلسلة من الأحداث قدر لها أن تميز هذه الرحلة عن كل ما عداها فى أفريقيا الوسطى ، وتفضى خلال محن ومآس لا حصر لها ، إلى حل لغز النيل : كان « بيرتون » تواقاً إلى إطالة البقاء بين أصدقائه العرب فى « كازه » ، ليعيد تنظيم القافلة ويجمع مذكراته عن الاكتشافات التى توصل إليها . أما « سبيك » فرغب فى الرحيل وتحرى الأقوال التى سمعاها من العرب عن بحيرة أكبر من تنجانيقا هى « نيانزا » ، التى قيل إنها تقع على مسيرة ثلاثة أسابيع إلى الشمال من « كازه » . فتركه « بيرتون » يرحل ، عن طيب خاطر . وهكذا انطلق « سبيك » مع « بومبى » وفئة قليلة من الحمالين والحرس « البالوشيين » ، يوم ٩ يوليو سنة ١٨٥٨ .

وتتراءى المنطقة بين « كازه » و « بحيرة فكتوريا » للمسافر فى أيامنا — لأول وهلة — خالية من المناظر ، فإن الأعشاب البرية تتكاثف حولها ، ميلا بعد ميل ، مكررة ذاتها فى رتابة . أما القرى والبقاع الفسيحة فيها — على قلتها — فيغلب عليها الفقر . وعندما يحرق السكان الأعشاب الذابلة — فى فصل الجفاف — لا يرى المرء سوى مناظر أرض مسودة ، وأشجار لوحها الحريق ، وغبار محترق متطاير . ولكن المرء لا يلبث أن ينتقل تدريجاً إلى أراض مختلفة ، إذ تتناقص الأعشاب وتتباعد ، فتتبدى السهول الفسيحة مترامية . وهنا وهناك ، تنبثق من الأرض صخور جرانيتية هائلة شامخة ، لعل الثلوج المنصهرة جرفتها فى عصر جليدى سابق ، وكثيراً ما تلوح — على البعد — كالمدن المحاطة بأسوار ، على قمم التلال فى جنوب إيطاليا . وما إن تهبط الأمطار على هذه الأراضى ، حتى تنبت فيها الأعشاب ، وتحط أسراب البجع والطيور الأخرى على مستنقعاتها وحفرها المائية ، ويتبدى فى هوائها تغير واضح ، ويراودك شعور — وأنت تجتازها — بأنك تقترب من حدود تجربة جديدة . ويزداد هذا الشعور إلحاحاً ، وأنت تقترب من البحيرة ، إذ تزداد الأرض اخضراراً ، والهواء رطوبة ، ولا تلبث أن تحيط بك النخيل الوارفة ، وأشجار المانجو الزمردية الخضرة ، وزهور « الجهنمية » . وأخيراً ، تتجلى البحيرة للبصر بقرب « موانزا » ، فإذا هى أقرب إلى أن تكون بحراً استوائيـًّا تحف به سواحل رملية صفراء ، وسفوح تكسوها الغابات وتنحدر إلى الشاطئ . وغير بعيد ، تتراءى جزر وأجمات بحرية تطوف بها زوارق شراعية . أما إلى الشمال فلا تبدو نهاية للمساحة المائية الشاسعة .

وقد يصادف أن تقض هدوء البحيرة عواصف هائلة تجللها غيوم . أما فى الأيام العادية فتهب نسمات خفيفة ، وتخوض الخيل ماء الشاطئ عابثة ؛ وتتلون البحيرة بلون السماء ، فهى زرقاء فى وضح الشمس ، وسمراء فى الأيام الغائمة ، وتكاد تكون سوداء فى العاصفة . وفى أثناء غروب الشمس — وهو منظر باهر أحياناً — تتألق السماء والبحيرة بفيض من الأضواء الجميلة .

وكثيراً ما يسمع المرء عند الشاطئ فرقعة متواصلة — لا سيما حيث ينمو البردى — من جراء ارتطام الأمواج بأعواد البوص ، وأصوات ما لا حصر له من الحشرات واليراعات وصراصير الليل ، وصرخات طائر « أبى منجل » . وتنشق صفحة النهر عن « الرامى » — وهو طير مائى — فيلوح عنقه الطويل المتلوى أشبه بثعبان خارج من الماء !

وتبدو هذه المناظر بالغة الجمال ، ومع ذلك فقد كان ثمة جو غامض يحوم حول البحيرة ويثير الاضطراب ، إذ يساور المرء إحساس قوى ببداوة أفريقيا ، و يضاعف خلوها ، ووحشتها ، وخمولها ، من الشعور بضخامتها . فعند الغسق يصبح الماء ساكناً ، معتماً ، صامتاً ، ويشيع فى الهواء الدافئ خواء وفراغ ممض ، ولكنه يوقظ أوهاماً بوجود سحر وشعوذة متواريين تحت الماء ، كما يوحى بالتآمر ، وبكمائن ! . . . ويضاعف من كل هذا عدم وجود موضوع محدد لخوف المرء . والإفريقيون المقيمون على ضفاف البحيرة مسرفون فى شرب « البومبه » ، فإذا ما جرف الشراب وطأة الضجر والخمول الجاثمين على حياتهم ، استسلموا لانطلاقات طفلية لشهواتهم وتهوسهم ، فتشيع فى دقات طبولهم وأقدامهم — وهم يرقصون — غلاظة ، وضراوة ، وحركات تنذر بالشر !

كل هذه الأشياء — السهول المحيطة ، وأهالى ضفاف البحيرة ، والتأثيرات الغامضة الهائلة للبحيرة ذاتها — كانت بطبيعتها فوق نطاق المعرفة المتحضرة ، لذلك فلا مجال للعجب من أن نجد « سبيك » يقع تحت وطأة انفعال شديد ، عند ما وقف على الشاطئ القريب من « موانزا » — فى بكور ٣ أغسطس سنة ١٨٥٨ — ورأى المساحة المائية الشاسعة للمرة الأولى ، واستولى عليه إلهام ، فكتب — فيما بعد — يقول :

« لم يعد لدىّ أى شك فى أن البحيرة المترامية عند قدمى هى أم ذلك النهر الطريف . . . هى المنبع الذى كان موضوع تكهنات كثيرة ، وهدف الكثيرين من المستكشفين . وصحت رواية العرب بحذافيرها ، فهذه البحيرة أوسع رقعة من "تنجانيقا" بكثير ، حتى إن بصرك لا يأتى على حدودها المقابلة ، كما أنها من الطول بحيث لا يدرى أحد مداها » .

وكان الاستنتاج الذى قفز إليه متسرعاً ، ومذهلا ، يستحيل عليه أن يؤيده بأى دليل علمى . ومع ذلك فإنه يبدو صادق الاقتناع – بعد هذه النظرة القصيرة لقطاع ضئيل من الشاطئ الجنوبى ، ولما يكن قد قضى ثلاثة أيام عند البحيرة – بأنه قد اكتشف منبع النيل ! . . . وليته حظى بزميل غير « بيرتون » يشاطره تحمسه. ومهما يكن ، فقد بادر بالعودة ، فدخل « كازه » بعد ستة أسابيع فقط من رحيله عنها . واستقبل ورجاله استقبالاً حاراً ، حتى إن « بومبى ، والبالوشيين ، كادوا لا يبينون وسط الأحضان الحارة والقبلات الملتهبة من المعجبات » ، على حد تعبير « سبيك » ، الذى أخبر بيرتون لفوره باكتشافه . وليس من العسير أن نتصور المنظر على ضوء ما كتبه بيرتون :

« لم نكد نفرغ من فطورنا حتى أعلننى بالنبأ المذهل ، بأنه اكتشف منابع النيل الأبيض . ولعله كان إلهاماً واتاه حين أبصر " نيانزا " . . . وكان يقين المكتشف المحظوظ قوياً ، وتعليلاته ضعيفة . . . وبعد أيام قلائل ، اتضح لى أنه لا سبيل للتفوه بأى قول فى موضوع البحيرة ، والنيل واكتشافه عامة ، دون جرح شعوره . لذلك تفادينا الموضوع باتفاق ضمنى . وما كنت لأرجع عن ذلك لو لم يجعل زميلى نتائج الحملة مثاراً للسخرية ، إذ طلع علينا بزعم لا يملك أى جغرافى أن يقره ، كما أنه – فى الوقت نفسه – زعم ضعيف ، ركيك ، حتى إن واحداً من الجغرافيين لم يتجشم حتى الآن عناء معارضته ! »

أما « سبيك » فكتب ما يلى :

« حيّانى الكابتن "بيرتون" عند وصولى إلى البيت القديم . . . و . . . أعربت عن أسفى لأنه لم يصحبنى ، فقد كنت موقناً – فى رأيى – من أننى

اكتشفت منبع النيل . وكان من الطبيعي أن يعترض هو ، حتى بعد سماع كل الأسباب التى استندت إليها . ومن ثم ضربنا صفحاً عن الموضوع . على أن الكابتن تقبل كل ملاحظاتى الجغرافية عن المنطقة الممتدة من "كازه" إلى البحيرة ، ودونها فى دفتره . . . ولم يجر أى تعديل إلا فى تقديرى للمسافات ، قائلا إنه يرى فيه مغالاة ، كما عنى — طبعاً — بأن يفصل بحيرتى عن النيل بجبال القمر » .

وكانا قد اختلفا بصدد « جبال القمر » ، إذ أرادها بيرتون فى مكان من الخريطة ، وأرادها سبيك فى مكان آخر . وكانت هذه نقطة جوهرية ، لأن الغالب أن الجبال الثلاثة — أينما كان موقعها — كانت أول مورد للنيل . لذلك سد « بيرتون » المنافذ بمهارة — كلاعب الشطرنج الحاذق حين يحصر « ملك » غريمه — بأن وضع الجبال فى نقطة من الخريطة تقف فيها سداً منيعاً بين النهر والبحيرة !

وكانت تراود « بيرتون » — فى ذلك الوقت — فكرة بأن المنبع الحقيقى للنيل يقع إلى الشرق ، فى جوار جبلى « كينيا » و « كليمنجارو » . ولم يكن مطمئناً — فى الوقت نفسه — إلى استبعاد بحيرة تنجانيقا . . . فكان أقصى ما سمح به لبحيرة « سبيك » (التى سميت « فيكتوريا » تكريماً للملكة) أن أعتبر أنها ربما كانت مغذية لأعالى النيل ، كما قام احتمال بألا تكون بحيرة واحدة ، وإنما سلسلة من البحيرات .

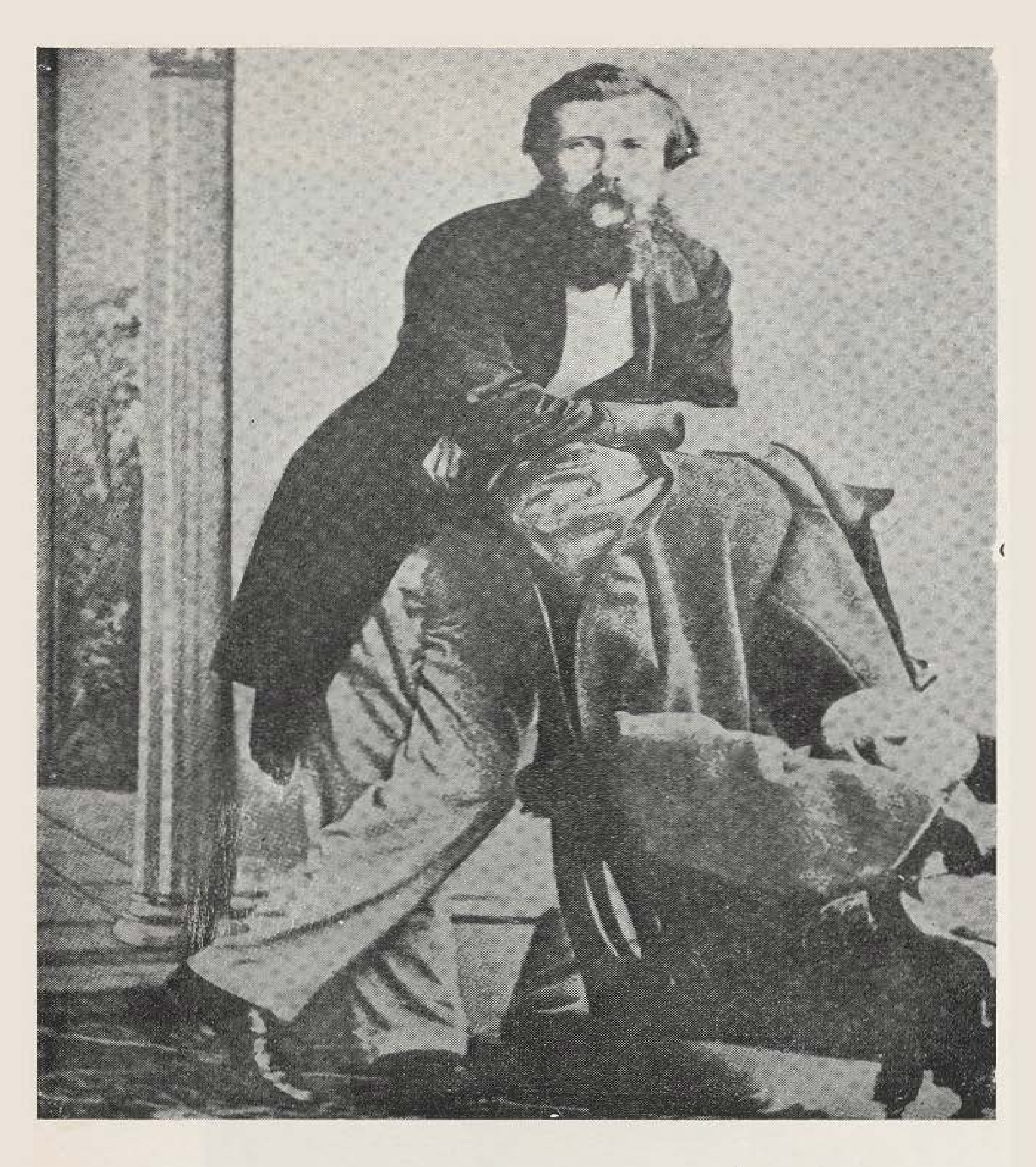
ولكن « بيرتون » لم يكن متعنتاً فى شىء من هذا ، وإنما كان يبتغى إيضاح أن "سبيك" لم يؤت أية أسس لتأكيداته الجامحة ، وإنما كانت كلها تخمينات . لذلك كان رأيه أن من الأفضل أن يلتزما فى تقريرهما إلى الجمعية الجغرافية الملكية بالأراضى التى تحققا منها معاً ، وبالأحرى منطقة تنجانيقا ، ، وأن يتمسكا بالأقوال التى سمعاها من الموثوق بهم من العرب . والواقع أن بيرتون جمع من التجار فى « كازه » — أثناء غياب « سبيك » — طائفة من المعلومات الوثيقة عن منطقة « كاراجوه » ، غربى بحيرة فيكتوريا ، وعن « بوجندا » و « بنيورو » الواقعتين إلى الشمال منها على الخريطة .

وهكذا نجد بيرتون — من ذلك الحين ، فصاعداً — يزداد تركيزاً على بحيرة تنجانيقا ، وسبيك على بحيرة فيكتوريا . وقد احتضن كل منهما بحيرته وصمم على

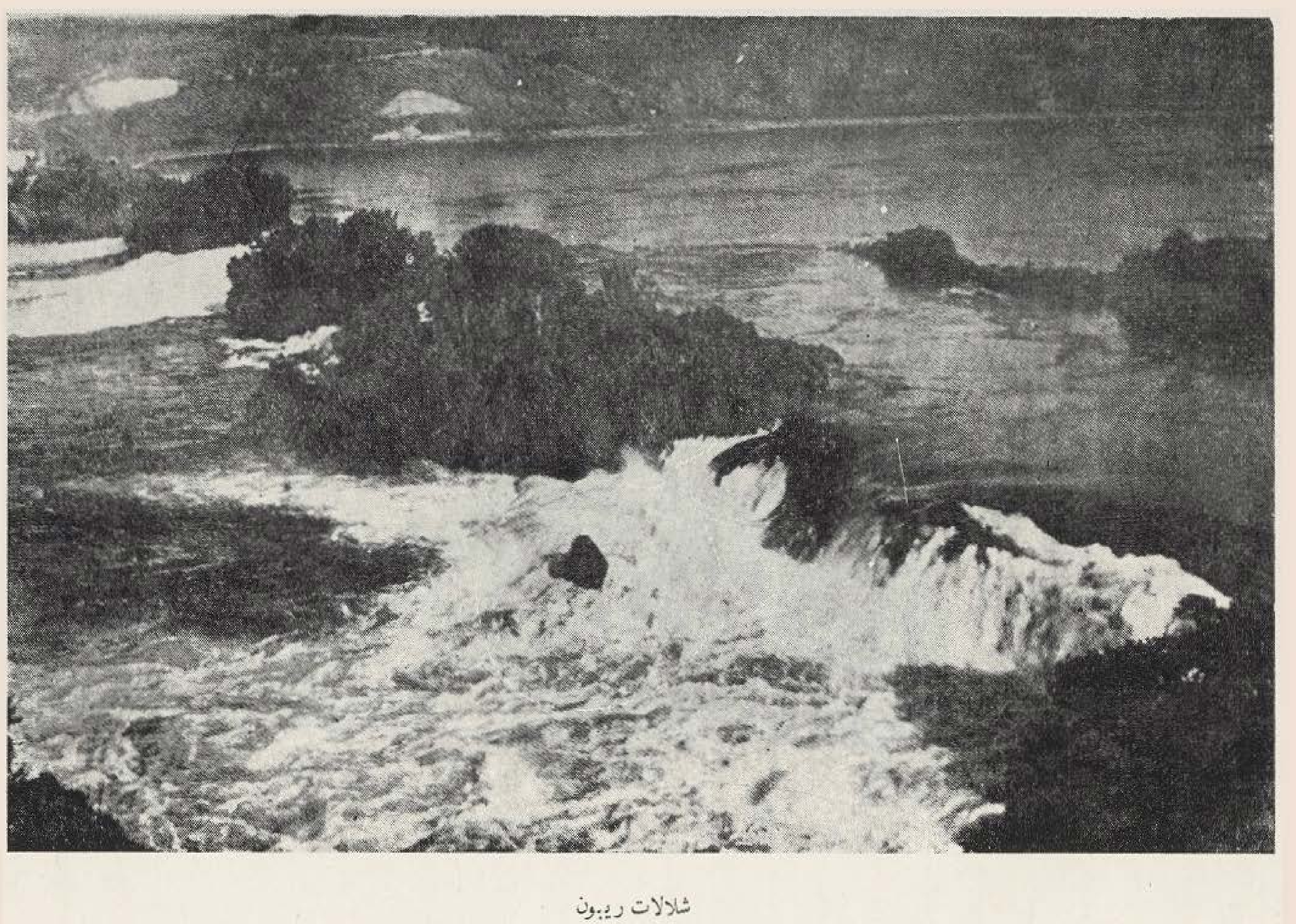
أن يؤيدها ضد كافة الحجج ، وقد يبدو خلافهما عقيما ، ولكن على المرء أن يتذكر أن الرجلين كانا متلازمين فى أشد الظروف خطورة ، لأكثر من عام ، وقد بدأ كل منهما يضيق بالآخر ، منذ زمن . ثم إن هذا الموضوع كان كل دنياهما فى تلك الفترة ، وقدبدا فى نظرهما من أهم المسائل . وقد كتب « سبيك » — فيما بعد — إلى سكرتير الجمعية الجغرافية الملكية ، عن بيرتون ، يقول :

« لقد اعتاد أن يسفهنى بطريقة جارحة عند الكلام عن أى شىء ، حتى إننى كثيراً ما أصبحت أحتفظ برأيى . إنه من أولئك الذين لا يطيقون قط أن يتصوروا أنهم يخطئون ، ولن يعترف أبد بخطأ ما . ومن ثم فإذا اجتمع رجلان معا دون ثالث ، فإن الحديث يصبح مصدراً للضيق كثر منه للمتعة ! »

وما كان من الممكن للقافلة التى انطلقت فى نهاية سبتمبر سنة ١٨٥٨ — عائدة إلى الساحل — أن تكون صحبة لطيفة . كانت قد أصبحت مؤلفة من ١٥٢ شخصاً ، بينهم عبيد ، ونساء ، وأطفال ، وقد أصاب الإعياء كثيرين منهم ، إذ ساروا ١٥٠٠ ميل — أو أكثر — منذ غادروا " باجامويو" . ولقد انهار بيرتون وسبيك معًا ، وحملهما الرجال ، ويبدو أن سبيك كان يعانى من التهاب صدرى فى « البلورا » ، فضلا عن التهاب رئوى ، وما لبث أن تعذرت عليه مواصلة السير . . . فراح فى عنفوان المرض يهذى ويصرخ فى بيرتون ، متذكراً كل ضغينة تافهة مكبوتة ، (حتى حادث الاشتباك الذى جرى فى الصومال ، عندما اتهمه بيرتون — كما اعتقد — بالجبن) . وما لبثت النوبات أن انتهت ، وواصلت الحملة سيرها البطىء نحو الشمال ، يعرقلها المرض ، وانسحاب بعض أفرادها . وانقضت أربعة أشهر قبل أن تقع أبصارهم على المحيط الهندى ، إلى الشمال قليلا من موقع مدينة « دار السلام » الحالية . وكان ذلك فى فبراير سنة ١٨٥٩ ، وقد انقضى على غيابهم واحد وعشرون شهراً . ولكن بيرتون كان قد ارتبط بزيارة « كيلوا » — إلى الجنوب ، على الساحل — وصمم فى عناد لا يبدو له مبرر على الوفاء بوعده . فبعث برسالة مع إحدى السفن إلى زنجبار ، يرجو القنصل البريطانى أن يمده بقارب ، حتى إذا وصل ، أقلع المتخاصمان اللذان هدهما الإعياء ، متجهين صوب « كيلوا » . وهناك



جون هانينج سبيك
أثبت ستانلى صدق اكتشافه لمنابع النيل



شلالات ريبون

أطلق عليها اسم اللورد ريبون رئيس الجمعية الجغرافية الملكية بلندن .

لم يحققا شيئاً ، إذ كان وباء الكوليرا يجتاح ساحل أفريقيا الشرقى ، وقد انقض بقسوة خاصة على مستعمرة العبيد فى كيلوا . وارتد بيرتون وسبيك على الفور ، فبلغا زنجبار فى ٤ مارس سنة ١٨٥٩ .

وهناك ، كان كل شىء يغلى . . . كان قد مات حوالى ١٠,٠٠٠ مريض فى المدينة بالكوليرا ، وكان السلطان يتأهب لصد غزو تأهب أخوه فى « عُمان » لشنه على الجزيرة . وكان القنصل البريطانى الجديد الكابتن « كريستوفر ريجبى » — مزاحما قديماً لبيرتون ، إذ كان كل منهما لغويًّا ممتازاً ، وقد تنافسا فى امتحانات المترجمين فى الهند ، فسرعان ما ناصبه بيرتون الشقاق . ويبدو أن موضوع الاحتكاك الرئيسى بينهما ، كان امتناع بيرتون عن أن يدفع للحمالين كل ما كانوا يتوقعون من أجر . فلما اشتكوا للقنصلية ، أيدهم « ريجبى » و « سبيك » ، مما أثار حنق بيرتون . وهناك شىء آخر آثار سخيمته ضد ريجبى ، فقد اعتقد أنه — أو شخص آخر متصل بالقنصلية — تعمد العبث بأصول كتابه عن زنجبار ، إذ اشتمل على انتقادات للبيض المقيمين هناك .

على أن بيرتون كان قد بلغ نهاية الضعف . ويصفه الذين شاهدوه — إذ ذاك — بأنه كان زائغ العينين ، شديد الهزال والضمور ، حتى إن لحمه كان متهدلا على خديه الغائرين ، ويقول هو عن نفسه إن « انفعالات الرحلة أعقبها انحطاط تام فى الذهن والجسد » . فأخذ يقرأ الروايات الفرنسية ، ويتحاشى مقابلة الناس فى زنجبار ، ويرعى بغضه لريجبى . ولم تكتمل ثلاثة أسابيع حتى استقل مع سبيك السفينة « دراجون أوف ساليم » — أى (تنين مدينة ساليم) — فوصلا إلى عدن بعد خمسة وعشرين يوماً .

ولم تكن ثمة قطيعة بين الرجلين ، حتى ذلك الحين . ولكن « سبيك » — أصغر الاثنين — أخذ يسترد عافيته بسرعة ، ويتلهف على السفر إلى إنجلترا . فاتفقا على أن يرحل ، بينما يواصل بيرتون نقاهته فى عدن لفترة أطول . وفى منتصف أبريل ، أبحر سبيك على البارجة "فيوريوس" — (الغاضب) — وكان آخر ما قاله قبل صعوده الى السفينة — وفقاً لما رواه بيرتون — وعداً بأن ينتظر وصول زميله إلى لندن قبل أن يكشف نتائج الحملة . على هذا افترقا . . . وكان فراقهما ، إلى الأبد ! . . . فعندما وصل بيرتون إلى إنجلترا — فى ٢١ مايو — كان سبيك قد قضى

فيها اثنى عشر يوماً ، استغل خلالها وقته خير استغلال ! . .. ولا تفسير لمسلكه إلا بتذكر ما يقوله البروفيسور « إنجهام » — الأستاذ بكلية ماكريرى فى « أوجندا » — من أن « الاستقامة، كما عرفها جيله »، حملته على أن يُقَدِّمَ « الإنصاف » على الشهامة » . فقد كان مفعماً باليقين بأنه قد فضّ سر النيل العظيم . وكان بيرتون قد سخر من نظريته ، ونفض يديه منها، لذلك كان لسبيك كل الحق فى أن يعتبر الإلهام الذى واتاه ، والاكتشاف الذى توصل إليه ، من الأمور الشخصية المنفصلة عن الحملة الرسمية !

ولا يعرف أحد ما إذا كان سبيك قد استخدم هذا التبرير أو لم يستخدمه ، إنما الذى حدث هو أنه بمجرد هبوطه من السفينة قصد إلى سير « رودريك ميرشيزون » — رئيس الجمعية الجغرافية الملكية — وأطلعه على قصة الحملة ، وعلى اقتناعه البالغ حد اليقين بصدد منبع النيل. وكان من الطبيعى أن يصدقه « ميرشيزون » فدعى إلى إلقاء خطاب فى أعضاء الجمعية، حيث فرض آراءه مرة أخرى . ولم ينقض أسبوع على وصوله حتى شاع فى لندن أن هذا الشاب الجرىء ، المتواضع ، قد حقق كشفاً ذا أهمية فائقة ، ودعته الجمعية للذهاب إلى أفريقيا ثانية على رأس حملة جديدة ، سرعان ما اعتُمد ٢٥٠٠ جنيه لتمويلها. وانهمك سبيك فى وضع خططه فاقترح التوغل فى القارة على نفس الطريق السابق ، على أن يتخذ سبيله بعد ذلك على الجانب الغربى من البحر الداخلى الجديد الذى اكتشفه ، على أمل أن يجد — على ساحله الشمالى — المنفذ الذى يُكَوِّنُ منبع النيل، ثم يتبع مجراه شمالا أينما اتجه حتى يصل — فى النهاية — إلى مصر.

وشهدت لندن تحمساً بالغاً للحملة الجديدة ، ولا سيما أن سبيك اقترح فعلا أن يخترق المنطقة الخالية على الخريطة — فى أفريقيا الوسطى — ويجلو مرة واحدة المسائل التى ما تزال غامضة منذ القدم بشأن: البحيرات الداخلية وجبال القمر ، ومنابع النيل.

وفى تلك الأثناء ، كان بيرتون قد وصل إلى إنجلترا مهزولا شاحباً ، ليجد أنه يكاد يكون منسياً، ولم يبد الرأى العام سوى اهتمام معتدل بتقريره العلمى الدقيق عن بحيرة تنجانيقا . ولم توجه إليه دعوة للاشتراك فى الحملة الجديدة ، إذ عين مكانه ضابط آخر من الجيش الهندى هو الكابتن « جيمس أوجسطس جرانت ».

وكان مقدراً أن تنقضى خمس سنوات ، قبل أن يظفر بثأره ، كاملاً ، رهيباً !

الفصل الثالث

وديان الجنة

لا توجد أية سجلات مكتوبة عن « أوجندا » — التى اعتزم سبيك أن يدخلها — قبل أواسط القرن التاسع عشر. ويصف سير « جون جراى » تاريخها بأنه « جريمة لم يقم عليها شاهد عيان ! » . على أنه من المؤكد — فيما يبدو — أن عنصراً راقياً من ملاك الماشية انحدر من مرتفعات الحبشة إلى الجنوب ، فى فترة من الماضى غير المكتوب ، وأقاموا أنفسهم كطبقة أرستقراطية حاكمة ، بين الزنوج المقيمين على الضفاف الشمالية والغربية لبحيرة فيكتوريا . وكانت ثمة ثلاث ممالك قائمة على الساحل الغربى للبحيرة حوالى سنة ١٨٦٠ ، هى : « بنيورو » فى الشمال ، و « بوجندا » فى الوسط ، و « كاراجوه » فى الجنوب ، كما كانت هناك مجموعات قبائلية أخرى . ولكن هذه الدويلات الثلاث كانت على شىء من الترابط وسط قفر تسوده الهمجية التامة ، اذ كانت تؤلف — فى واقعها — حويصلة لشبه مدنية فى وسط القارة ، لم يكن العالم الخارجى يعرف عنها شيئاً تقريباً .

وفى الأربعينات من القرن التاسع عشر ، كان تاجر واحد من العرب — يدعى « أحمد بن إبراهيم » — هو الذى نفذ إلى « يوجندا » ، كما وصل نفر قليل إلى « كاراجوه » ، ولكن أحداً من الأوربيين لم يقدر له الوصول إلى هناك ، ومن ثم لم يكن يخطر ببال أهالى تلك البلاد من الإفريقيين أن ثمة عوالم أخرى ، وألواناً أخرى للحياة . ولو أنهم كانوا يعيشون على سطح القمر لما كانوا أشد عزلة مما كانوا فيه آنئذ !

وكان مصير مثل هؤلاء القوم عادة — فى وسط أفريقيا — أن يبقوا فى حال من « جمود التطور » . إذ كانت أنوار الطموح البشرى مطفأة بطريقة غامضة ، فظلوا فى القرى مشدودين بأغلال إلى العصر الحجرى ، والحياة تدور — من قرن إلى قرن — فى دائرة بطيئة من العادات والتقاليد البدائية. ولم يكن ثمة فضول يدفع إلى الارتياد ، ولا رغبة فى تغير أو تحسن ، بل كان كل جيل ينصاع لتقبل الأمور

القائمة ، فى قدرية « سلبية » ، وكانت العادات والخرافات تخنق العقل .

على أن الأمر لم يكن كذلك فى هذه الدويلات الثلاث ، فكانت تتقدم بدرجة تدعو للإعجاب . وبدون أية سابقات تسترشد بها ، أو معونة من الخارج ، استطاعت — فى أواسط القرن التاسع عشر — أن تحقق . . ثقافة محلية أكثر تقدماً مما فى أى جزء آخر جنوب الصحراء الكبرى. ولكن أغرب ما فى الأمر أن تقدمهم كان « غير منتظم » ، فكانوا يصيبون فى ناحية ، ويخفقون تماماً فى أخرى ، فخلفوا وراءهم ثغرات هائلة . وظلت أكثر العادات همجية باقية وسط هذا الرقى الثقافى العجيب ، الذى كان من أمثلته أن بيوتهم لم تكن تشبه فى شىء بيوت تنجانيقا الكئيبة الشبيهة بالتوابيت ، وإنما كانت رحبة ، جميلة ، مخروطية الشكل ، من أعواد البوص والخيزران المحبوكة النسيج ، ترتفع أحياناً إلى خمسين قدماً فى الهواء . وكانت جافة مريحة فى مواسم المطر ، ورطبة فى مواسم الحر ، كما كانت أبدع للغاية من أى بناء أقيم فى « أوجندا » فى القرن العشرين ، وكانت الأدوات الموسيقية لديهم — طبولهم وقيثاراتهم وأبواقهم — عجيبة هى الأخرى . كما كانوا يسافرون على البحيرة فى زوارق يبلغ طول بعضها سبعين قدماً !

وكانت السلال التى يصنعونها دقيقة النسيج والحباك ، بحيث لا يتسرب الماء خلالها . وقد توصلوا إلى فن صنع قماش طرى ومتين من لحاء الأشجار . فما كان لإنسان أن يمثل أمام ملكه دون كساء ، بل إن هذا كان يعتبر جرماً فى « بوجندا » . فكان الشخص يغيب قدميه فى نعلين ، ويكسو جسده تماماً بوشاح سابغ جميل ، وتتوج رأسه — أحياناً — قلنسوة من جلد الغزال حيكت أجزاؤها ببراعة أية حائكة باريسية !

ولم يكونوا — رجالا ونساء — يشوهون أجسامهم بالندب والوشم ، كغيرهم من قبائل أفريقيا الوسطى . . . وكانوا إذا جلسوا للأكل ، غسلوا أيديهم ، إما باعتصار منشفة مبتلة ، أو بسكب الماء عليها من إبريق ويتولى عبيد البيت تقديم الطعام ، الذى كان حضرياً بدرجة واضحة : نوع من العصيد من الموز البرى الغليظ ، و « يخنى » السمك واللحم والدجاج ، والبطاطا ، والذرة ، وقصب السكر البرى . وكانت حبات البن تمضغ كمهضم ، كما كانوا يستخلصون جعة من الموز ، ويمارسون

التدخين ، رجالا ونساء .

وكانت سلطة الملك مطلقة ، لا سيما فى « بوجندا » — أغنى الدويلات الثلاث وأكثرها تقدماً — ولكنه كان يستعين بمستشارين يؤلفون شبه « مجلس وزراء » ، يضطلع فيه كل منهم بواجب خاص . فكان منهم الوزير « أى رئيس الوزراء » ، وأمين الخزانة ، والقائد العام للجيش ، وأمير أسطول قوارب الحرب فى البحيرة ، وكبير منفذى الأحكام ، وآخرون ذوو ألقاب أكثر فخامة ، ككبير مُحَضّرى الجعة ، وأمين الطبول . . الخ . وكان هؤلاء الرجال يؤلفون ، مع الزعماء الإقليميين ، طبقة من « النبلاء » ، ويضطرون إلى ملازمة الملك فى مجلسه باستمرار . وكانت تقاليد السلوك فى البلاط دقيقة : فليس لأحد أن يجلس فى حضرة الملك ، أو أن يظهر فى غير الزى الواجب ، أو أن يتكلم بغير إذن . وكان المعتاد أن ينبطح رجال البلاط على الأرض أمام الملك كلما ظهر ، إذ كان يعتبر ذا قداسة شبه إلهية ، أو الرمز الذى تتجسد فيه روح عنصرهم !

ومع كل هذه الأبهة والرقى ، لم يكن للقوم أسلوب للكتابة أو العدّ ، ولا وسائل لقياس مرور الوقت بالأسابيع أو الشهور أو الأعوام ، ولا أبسط أنواع الأدوات الآلية كالمحراث والساقية ، ولا ديانة ترقى إلى أكثر من الخرافة والسحر البدائيين . وكانوا يسرفون فى شهواتهم وعواطفهم ، كالأطفال المدللين والمنحرفين ، كما كانوا قساة لدرجة لا يصدقها عقل . ومن وقت لآخر ، كانوا يلوحون وكأنما استولى عليهم تهوس وحشى جنونى ، كما كان من الشائع أن يسرف الرجال والنساء فى الشراب حتى يغيبوا عن وعيهم .

وكانت بين الممالك الثلاث فوارق كبيرة ، لعل الطبيعة الجغرافية للبلاد فرضتها . إذ كانت « بنيورو » — فى الشمال — أشد جفافاً ووعورة من الأراضى المحيطة بشواطئ بحيرة فيكتوريا . وكان المطر ينقطع شهوراً — فى بعض الأحيان — فيقطع المسافر أميالا فى أرض ذات أعشاب جافة خشنة ، لا تختلف عن أواسط تنجانيقا . ويشتهر أهل هذه المنطقة بالصلابة والجلد ، وهم أقل تنوّراً من سكان ضفاف البحيرة ، ولكنهم أكثر عدواناً وضراوة فى الحرب . وقد انعكست هذه الصفات على ملكهم « كامرازى » ، فقد جمع بين الخشونة والشك ، فكان زعيماً

له غرائز « قرصان » ، وكان الحقد الذى يشبع حياته موجهاً إلى « بوجندا» فى الجنوب ، وإلى شقيق متحرر له يدعى « ريونجا » ، يعيش فى جزيرة وسط النيل .

أما « كاراجوه » — على الشاطئ الغربى للبحيرة — فكانت أكثر سهولا ، يرتفع معظمها ٥٠٠٠ قدم فوق مستوى البحر ، وفى جوها طلاقة وصفاء ملحوظان . ومنذ قرن ، كانت قطعان كبيرة من الماشية ترعى السهول الكثيفة الأعشاب . وعلى شطآن البحيرة مناظر تذكر المرء بالأجزاء المنخفضة فى جنوب إنجلترا ، حيث تهبط سفوح التلال العالية بانحدار شبه رأسى إلى الماء . . . ولولا الحرارة الشديدة ، وخواء الأرض ، والجزر الاستوائية الحاذية ، لحسب المرء تلك المنطقة « دوفر» أو « فولكستون» بإنجلترا . وكانت هذه البلاد يوماً مثاباً للحيوانات البرية : فكانت آلاف الفيلة ، والزرافات ، والجاموس ، والغزلان ، والخرتيت ، تهيم فيها . . . ولا يزال فى وسع المرء اليوم أن يشاهد أفراس البحر إذ تخرج من البحيرة ليلا إلى البر لترعى الكلأ ، كأنها أشباح أشجار معتمة ضخمة على حافة الماء .

وفى مكان من هذه المملكة يدعى « بويرانيانجه » أقام « رومانيكا » — ملك «كاراجوه » — بلاطه الريفى . وكان رجلا ضخماً ، ودوداً ، اشتهر بكرم الضيافة للأغراب. وإذ كان أضعف الملوك الثلاثة — فى بعض النواحى — فقد حرص على العلاقات الطيبة مع عاهلى « بنيورو» و « بوجندا » ، وكان يرسل إليهما الهدايا بين وقت وآخر ، بل إنه ذهب إلى اعتبار نفسه تابعاً لبوجندا. ومع ذلك فقد كانت لرومانيكا نزواته الشاذة، فكان يحتفظ بزوجات عديدات ، بدينات إلى درجة العجز عن أن يقفن منتصبات ، فكن يحبون على أرض أكواخهن ككلاب البحر ! وكن يتغذّين على سيل لا ينقطع من اللبن ، يمتصصنه من قربة بواسطة أعواد من البوص ، فإذا أبت البنات الصغيرات هذا ، أجبرن على الغذاء بالسوط !

ولم تكن « بوجندا » — على الساحل الشمالى للبحيرة — فى جفاف « بنيورو » ، أو انفساح آفاق « كاراجوه » ، فهى منطقة أدغال وتلال متباعدة ، فى خصوبة زنجبار ووفرة نباتاتها . والمناخ فيها حار ، متقلب ، رطب ، وكل شىء يتصاعد من الأرض فى توهج غريب . بل كانت الأرض نفسها حمراء ، وشجيرات الموز

تتخللها دروب مفعمة بضوء دافئ، تختلط فيه الخضرة بالصفرة ،على حين كانت الأدغال المحيطة مأوى فسيحاً للطيور الاستوائية والأشجار المزدهرة . وتخلق هذه الأحوال شعوراً بالائتناس، والسرعة ، والنشاط ، وبالانفعال المترف ، وهذه هى طبيعة بوجندا .

وفى سنة ١٨٦٠ ، كان « موتيسا » ، ملك بوجندا الشاب ، قريب العهد باعتلاء العرش ، وقد أنشأ عاصمته على بضعة أميال من البحيرة — إلى الداخل — على قمة تل غير بعيد من مدينة « كمبالا » الحديثة . وكان المسافر يفد على المدينة خلال طريق عريض شق بين الأدغال، فيرى أكواخاً مستديرة بديعة التناسق ، مبعثرة على سفوح التل ، وجموع الناس تتحرك بينها . وكانت معظم النساء عاريات أو يتمنطقن بقطعة قصيرة من القماش ، أما الرجال فكانت أوشحتهم — كما يقول « هارى جونستون »[١] — تذكر المرء بالصور الكنسية القديمة ، التى تمثل القديسين وهم يسيرون فى وديان الجنة .

وكان بلاط الملك « موتيسا» مؤلفاً من أكواخ رحبة ممتازة ، فى وسط المدينة ، حيث كان يعقد « تشريفاته » اليومية ، وهوجالس على رصفة معشوشبة كُسيت بغطاء أحمر ، وقد أحاط به نبلاؤه، ووصفاؤه ، وزوجاته اللائى كن يبلغن حوالى المائتين عدداً ! . . . وكان — فى ذلك الحين — شاباً رشيقاً ، متناسق القوام ، فى أوائل العقد الثالث من عمره ، ذا أسنان جميلة ، وعينين زائغتين ولكنهما خلابتان وشعر مقصوص ومنسق على شكل عرف الديك . وكان وشاحه معقوداً على أحد كتفيه بعناية ، وقد أحاط ذراعيه وساقيه بأساور عريضة من الخرز الملون . وعند قدميه ، كانت توضع رموز الملك : حربة ، ودرع ، وكلب أبيض . وكان إذا تمشى للرياضة ، تبعته الحاشية بأسرها، فيفتعل خطوة عجيبة ، إذ يصلّب ساقيه متخطراً وكأنه يقلد الأسد فى خيلائه . فإذا راق له الكلام ، أصغت الحاشية فى صمت خاشع واحترام ، ثم ينبطحون دفعة واحدة على الأرض مطلقين صيحة غريبة

---

(١) كان كتاب « هارى جونستون » — (تحقيق عن النيل) — الصادر فى سنة ١٩٠٣ ، من أوائل المحاولات لكتابة تاريخ متصل الأطراف لنهر النيل ، ولا يزال — فى الغالب — خير مقدمة عامة للموضوع . (المؤلف)

– تبدو شبيهة بلفظ «نيانزيج» – ويروحون يرددونها، كدليل على العرفان والخضوع العميق . ولم يكن يتلفت حوله إذا أراد الجلوس ، شأن الملكة فيكتوريا، بل كان ثمة مقعد يعد له تلقائيـًا.. وكان هذا المقعد وصيفاً يركع معتمداً على يديه وركبتيه ! . .
وبإيجاز، كان « موتيسا » عظيم التأثير ، حتى فى هذه المرحلة المبكرة من عهده الطويل، ولعله كان قميناً بأن يحاط بمهابة ووقار، لولا أنه كان أبعد ما يكون عن قديسى وديان الجنة .

فقد كان وحشاً متعطشاً للدماء ، لا يكاد يمر يوم دون إعدام ضحية من ضحاياه ، بأمر يصدره دون اكتراث ، وكأنه يمارس تسلية ! . . فقد تنتهك فتاة آداب السلوك – كأن تتكلم بصوت مرتفع – أو يهمل خادم إغلاق باب أو فتحه ، فإذا بهما يساقان بإشارة من « موتيسا» وهما يصرخان ، ليقطع رأساهما ، بينما تعطى على صرخاتهما دقات الطبول متواصلة ! . . وكان تعذيب الضحايا بالحرق وهم أحياء ، والتشويه ببتر الأيدى والأقدام والآذان ، ودفن الزوجات وهن على قيد الحياة مع أزواجهن الموتى . .كل هذه كانت أموراً مألوفة لديه . . أموراً تذكر بما ابتدعه بعد ذلك خيال مؤلف قصة « الميكادو» ، أو ما كانت ترتكبه « الملكة الحمراء » فى قصة « أليس فى بلاد العجائب » !)

وكان ذلك عند الملك « موتيسا» أكثر من مجرد تعطش للدم . . . كان يسحق الحياة كما يدوس الطفل حشرة ، دون أن يفكر لحظة فى العواقب ، أو يشعر بشفقة للآلام التى يثيرها . كان – وكل أفراد حاشيته – يوحون بأنهم يلعبون بالحياة ، ويعيشون وفى حياتهم لون من الجنون .

وإقراراً للحق ، لم يكن « موتيسا » هو الذى ابتكر هذه الأمور ، فقد كان جميع أسلافه (وقد عرف أن سلالة من الملوك سبقته ، لا يقل عددها عن عشرين) يمارسون عين التصرفات ، كما كانت تسيطر على كافة المجتمعات القبائلية الصغرى شريعة غاب مماثلة . ولم يكن العاهل يمكث على عرشه طويلا ما لم يحط نفسه بجو من الفظاعة والرهبة الخرافية. فما إن تولى « موتيسا » الملك حتى أعدم لفوره حوالى ستين من إخوته ، بأن أحرقهم أحياء ، واعتبر هذا احتياطاً عاديـًا جدًا ضد التمرد ! .

وكانت له سجايا أخرى بجانب التعطش الموروث للدماء . فكان بعيداً كل البعد عن الغباء ، إذ لم يكد يتولى السلطان حتى تعلم بسرعة بالغة فنون إيغار رجل ضد آخر عن طريق التفرقة الماكرة فى خلع الهدايا . وكان محيطاً بقيمة ترك أصحاب الشكايات ينتظرون ، كما يبدو أنه كان على حذق فى تدبير المقابلات السياسية . . . فلم يكن مجرد ملك على قبيلة ، تحيط به طبوله ، ونساؤه العاريات ومحاربوه السود . . وإنما كان له — فى ذلك العالم الهمجى — مظهر «الملوك» ، إلى جانب إلمام «غريزى» بالأمور السياسية . فكانت سياسته الخارجية ، مثلا ، تدار بدهاء بدائى ، إذ ترك زميله «رومانيكا» ملك «كاراجوه» وشأنه ، فى مملكته . . . بينما شن الحرب على «كامرازى» ملك «بنيورو» . ولم تكن حرباً خطيرة بطبيعة الحال ، إذ لم تكن هناك أسلحة نارية ، ولم يكن النخاسون قد نفذوا إلى تلك الأصقاع يوقعون بين العشائر ، وإنما كانت الحرب أداة نافعة للظفر بالنساء والماشية ، والتضييق على على الملك «كامرازى» .

هكذا كان نصيب تلك الجزيرة الصغيرة من الحضارة المحلية ، التى تُركت لترسم بنفسها قدَرَها فى قلب أفريقيا الوسطى ، منذ مائة سنة . ولا مجال للظن بوجود أى قدر من نور المعرفة الحقيقية هناك ، فإن الدويلات الثلاث كانت بعد مشدودة إلى لون بدائى من ألوان الحياة ، وكان الخوف هو العامل المسيطر على عقل كل إنسان . ومن ناحية أخرى ، كان القوم لا يزالون بمعزل عن مساوئ المدنية ، فلم يعرفوا أمراض «الزهرى» و «الجدرى» ، ولم يكن الطاعون البقرى يفتك بقطعانهم .

ولم يمس بطش «موتيسا» سير الحياة العادية للناس ، فكان الطعام والشراب متوفرين ، ولا يبدو من المستحيل أنهم كانوا يرون أنفسهم سعداء ، أو — على الأقل — أعضاء فى وجود أزلى لا مهرب منه ، ولا هم يريدون له تغييراً . ولم تكن تترامى إليهم سوى أتفه أصداء العالم الخارجى ، يحملها إليهم النخاسون القادمون فى النيل من مصر ، وقوافل العرب الوافدة من زنجبار . ولعلها كانت نوعاً من الفردوس ، وحشيًّا ، ولكن أهله راضون بما قدر لهم . وهكذا كانت «كاراجوه» حين دخلها «سبيك» وزميله الجديد «جرانت» ، فى نهاية سنة ١٨٦١ .

وبدخولهما قدر للحويصلة أن تنفجر أخيراً !.

ولقد استغرق المستشكفان أكثر من عام للانطلاق من زنجبار إلى جوف القارة . وقد تكررت معظم أحداث الحملة السابقة بحذافيرها : فهجرهما رجالهما جميعاً عدا قلة من أمثال « بومبى » و « مبروك» ، وراح زعماء العشائر — فى طريقهما — يغالون مغالاة جشعة فى المطالبة بالضرائب ، وسرقت عنزاتهما وماشيتهما وعدت « الملاريا » على« جرانت» . ولم يكونا قد وفقا بعد إلى أن يلمحا بحيرة فيكتوريا . ولا بد أن يكون « بيرتون » قد ابتسم لهذه الأنباء ، وهو يقود حملة مستقلة فى « الكاميرون » ، فى الجانب الآخر من أفريقيا . على أن « سبيك » و « جرانت» لم يلبثا أخيرا — فى نوفمبر سنة ١٨٦١ — أن انسلا من الحروب القبائلية فى شمال « تابوره » ، وسارا إلى أرض كاراجوه التى لم تكن معروفة .

ولقد وجد سبيك فى « جرانت» زميلا مثاليـًا . وكان الاثنان فى سن واحدة ، وقد تصاحبا فى الهند ، وكثيراً ما خرجا فى رحلات الصيد هناك . ولكن « جرانت » أوتى خلة أخرى ، إذ كان مساعداً مثاليـًا . ومن المؤكد أنه من أكثر الرجال الذين خاضوا خضم الاستكشاف الأفريقى تواضعاً وتوارياً ، فما وضع نفسه فى المقدمة قط ، ولا اشتكى يوماً ، ولا ناقش أوامر قائده إطلاقاً . وكان خليقاً ببيرتون أن يعتبره لقية فريدة . على أن إخلاص جرانت كان مقتصراً بأكمله على « سبيك » ، وكان أشبه بوفاء الكلب . فهو يقول : « لم يقدر قط لظل من الغيرة أو عدم الثقة أو سوء الطباع أن يسرى بيننا » . وهو يصف سبيك بأنه : « فوق كل صغيرة » . ولقد كان من رأى الجنرال « جوردون» — الذى كان فى العادة طائشاً متسرعاً فى أحكامه على الناس — أن « جرانت» نفسه كان شخصية تبعث على الضجر ، (كما عبر عن ذلك فى خطابه إلى بيرتون ، فى ١٩ أكتوبر ١٨٧٧) .. « ولعل من الجائز أن « جرانت » كان مملا بعض الشىء فى الحديث ، فإن هذه الصفة هى آخر ما نسمعه عادة عن المشهورين فى الماضى . ومع ذلك ، فمن الخرق أن نعتبر « جرانت » « إمعة تافهاً » ، فقد كان رجلا هادئاً ، بالغ الرزانة ، وجنديـًا ورياضيـًا فوق المستوى العادى . وكان — فى تواضع ، وبغير إعلان عن نفسه — فناناً مبرزاً ، صادق الهواية لعلم النبات . وقد حارب فى عدد من الاشتباكات التى سبقت العصيان

فى الهند ، وساهم فى نجدة حامية « لكنو » حيث منح « ميدالية » ووساماً لبسالته .

ولقد اغتبط « رومانيكا » بلقاء الرجلين ، وكانا أول من رأى من البيض ، فصافحهما بحرارة ، وخاطبهما بطلاقة باللغة « السواحلية » ، وأنزلهما فى أحسن أكواخه ، وأفاض عليهما المؤن . فقضى « سبيك » شهراً ممتعاً فى « بويرانيانجه » ، وتبادل الهدايا مع « رومانيكا » ، وشرب « البومبه » معه وحقق أبعاد أجساد زوجاته البدينات بشريط القياس . . . كما أبدى براعة فى صيد الحرتيت ببندقيته وسجل ملاحظات عن حيوانات أضخم من الحرتيت ، قال إنها تسكن الأدغال المترامية إلى الغرب ، وهى « مخلوقات مهولة تأبى الاتصال بالرجال ، ولا تكشف عن نفسها قط إلا إذا رأت النساء ما رّات بها ، فتنقض عليهن فى هياج شبِق وتحتضنهن حتى تعتصر الحياة منهن ! » . . . وإذا كانت « الغوريلا » هى المقصودة ، فالوصف غير دقيق ، لأنها من أرق الحيوانات وأجبنها . على أن كل ما كان الرحالتان يريانه ويسمعانه فى هذه البلاد الجديدة ، يكاد يتجاوز المعقول . ومن ذلك أن « رومانيكا » حذر سبيك من السير إلى بوجندا ما لم يرسل « موتيسا » فى استدعائه ، وأخبره بأن من المستحيل عليه أن يظهر فى بلاط « موتيسا » وهو يرتدى « ما لا يليق ذكره » — وقد استعمل «سبيك» هذا المصطلح الفيكتورى لكلمة « البنطلون » — بل لا بد له من عباءة . . . وهكذا أرسل المبعوثون لينذروا « موتيسا » باقتراب الحملة . . . وفى انتظار الرد ، انقضى شهر ديسمبر . . .

وفى تلك الأثناء ، كان « جرانت » يجتاز فترة عصيبة ، إذ منى بقرحة فظيعة فى ساقه ، وسرعان ما اشتدت به تباريح الألم فأقعدته عن مبارحة كوخه ، حتى إنه لم يكن قادراً على المشى — ولا على الانتقال محمولا — عندما وصل فريق من الرسل ، فى ٨ يناير سنة ١٨٦٢ ، موفدين من « موتيسا » لدعوة الحملة إلى التقدم . لهذا تقرر أن يبقى فى رعاية الملك « رومانيكا » ، بينما ذهب « سبيك » بمفرده . وهكذا ظل « جرانت » — طيلة الأشهر الثلاثة التالية — سجين كوخه ، عاجزاً عن الخروج متوجعاً ، محروماً من أية أنباء .

واستغرق سبيك ستة أسابيع فى السير إلى بلاط « موتيسا » ، وقدر له – خلال الطريق – أن يبصر بحيرة فيكتوريا أخيراً ، من الناحية المقابلة لجزر « سيس » . وأصبح أكثر شعوراً من ذى قبل بأن حدسه الأصلى كان صحيحاً : كانت البحيرة بحراً داخلياً شاسعاً ، ولا بد أن يعثر فى مكان ما من شاطئها الشمالى على منفذ يكون بداية النيل . على أنه كان مضطراً لأن يرجئ عمله الجغرافى مؤقتاً ، ويعد نفسه للقاء « موتيسا » .

ويقول سبيك ، إنه عند وصوله أخرج أحسن ثيابه ، وألبس رجاله « بطاطين » حمراء ، وتأهب بمجموعة من الهدايا الجميلة للظهور فى البلاط ، ولكن الأمطار هطلت ، فأرجئ الاستقبال إلى اليوم التالى . وفى ٢٠ فبراير سنة ١٨٦٢ ، سار – يحف به حرسه المتاحف بالبطاطين الحمراء ، ويتقدمه العلم البريطانى – ليفاجأ بوجود وفد آخر ظفر بالأسبقية . وقيل لسبيك أن ينتظر خارج القصر تحت الشمس الحامية ، فوقف خمس دقائق ، ثم انصرف مغضباً وعاد إلى كوخه ، على مسافة ميل . وشاهد رجال الملك رجوعه فى حيرة وجزع ، فما حدث مثل هذا من قبل . وسرعان ما جاءوه مهرعين ، ذاكرين أن ما حدث كان خطأ ، وأن الملك يود مقابلته فوراً ، ويأذن له فى اصطحاب مقعده ليجلس عليه ، وهو امتياز لم يسمح به لأحد من قبل .

وعندما عاد سبيك إلى القصر ، كان كل شىء معداً لاستقباله . فرافقته فرقة موسيقية – تعزف على قيثارات خماسية الأوتار ، وأبواق – خلال الأفنية الخارجية ، حيث كان صغار الوصفاء يهرولون وهم يلمون عباءاتهم حولهم لكى لا يكشفوا عن سيقانهم . ومثل أخيراً أمام العاهل نفسه ، فوضع مقعده أمام العرش ، وثبت مظلته ، ومكث يرتقب . . . لكن جديداً لم يجد .

فقد ظل كل من الرجلين يحملق فى الآخر ، نحو ساعة ، وموتيسا يلتفت – من آن لآخر – نحو حاشيته ، مبدياً ملاحظة عن المظلة ، أو الحرس ، أو سبيك نفسه . وبين وقت وآخر ، كانت تقدم إليه رشفة من الجعة ، وسبيك لا يملك سوى الجلوس والانتظار . وفى النهاية اقترب رجل يسأله : هل « رأى » الملك ؟ فأجاب سبيك : « أجل . . طوال ساعة كاملة ! » . فلما ترجم قوله لموتيسا ،

نهض هذا وسار إلى داخل قصره على أطراف قدميه ، بمشيته التى يقلد بها الأسد . وأعقب ذلك انتظار طويل ، ريثما تناول الملك غداءه . وقيل لسبيلك إن « موتيسا » أمسك عن الأكل حتى تم اللقاء ، حفاوة وإكراماً . وأخيراً ، عند ما التقيا ثانية على ضوء المشاعل — فى نهاية اليوم — قدم « سبيلك » هداياه :

عدة بنادق ومسدسات ، مع ذخيرتها ، وساعة ذهبية ، ومنظار مقرب ، ومقعد حديدى ، وخرز ، وأقمشة حريرية ، وسكاكين وملاعق وشوك للطعام . وأرسل إليه « موتيسا » هدايا مقابلة : ماشية وماعزاً ، وسمكاً ، وطيوراً داجنة ، وقنافذ ، وفئراناً برية ، وكلها كانت تعتبر مواد غذائية مناسبة .

وفى لقاء آخر ، وقع حادث الرماية المنكر : فقد دعى « سبيك » لعرض « سحر » طبنجاته ، بالتصويب على أربع بقرات وقتلها بأربع طلقات ، وهو عمل أداه بشىء من التردد ، وقد هاجمته بقرة منها ، فاستدعى الإجهاز عليها طلقة ثانية . ويقول سبيلك :

« . . . ثم حشا الملك بيديه إحدى الطبنجات التى أهديته إياها ، وأعطاها — معدة للانطلاق — إلى وصيف أمره بأن يخرج ويرمى رجلا فى الفناء الخارجى . فما إن أتم الفتى ذلك حتى عاد معلناً نجاحه ، وعليه من الغبطة ما يرى على وجه غلام سرق عش طائر ، أو صاد سمكة ، أو قام بأية حيلة صبيانية أخرى . فسأله الملك : « وهل أجدت الأداء ؟ » ، فأجاب : « كل الإجادة » . وكان صادقاً بلا شك ، لأنه ما كان ليجرؤ على خداع الملك . ولكن المسألة لم تثر أى اهتمام . وما سمعت قط ، ولا بدا على أحد أى اكتراث بمعرفة من كان الإنسان الذى حرمه الفتى حياته ! » .

وما كان الشىء — بعد ذلك — أن يصرف « موتيسا » عن لعبته الجديدة . فكان يطوف بعاصمته فى الأيام اللطيفة الجو ، وبندقيته فى يده ، وزوجاته وخدمه وحاشيته يتبعونه ، والموسيقى تعزف . فإذا أسعفه الحظ بإصابة نسر على شجرة ، بهت لطاقاته السحرية ، وجرى صوب الضحية صائحاً : « وه ، وه ، وه ! » بانفعال صبيانى . فترتمى الحاشية على الأرض حوله زاحفين ، مرددين : « نيانزيج » . والظاهر أن النساء اللائى كانت جحافلهن تتبع « موتيسا » أينما ذهب ، كن

يشغلن مركزاً ممتازاً ، ولكن الأمر — مهما كان — يعتبر لوناً من الاستعباد . وقد كتب سبيك يقول : « عذارى عاريات تماماً ، ملطخات بالشحم ، ولكنهن — إكراماً للحياء — يحملن قطعة مربعة صغيرة من لحاء الشجر ينشرنها باليدين أمامهن . . . يقدمهن آباؤهن تكفيراً عن بعض الذنوب ، ليملأن الحريم ! » . . . ومن وقت لآخر ، كان سبيك يتلقى واحدة منهن ، هدية ، فيزوجها لأحد أتباعه .

على أن الملكة الأم — التى وصفها سبيك بأنها كانت « جميلة ، بدينة ، فى الخامسة والأربعين » — كانت ذات نفوذ فى الدولة ، وكان لها بلاط خاص على مسافة بسيطة من قصر « موتيسا » . وكانت أغلب وقتها ثملة ، فإن الشرب والتدخين والرقص على موسيقى فرقتها الخاصة ، كانت الشغل العادى لمن فى كوخ الملكة الأم . ولم يكن من العجيب أن تشكو لسبيك من أنها كانت تعانى أحلاماً مزعجة ، ومرضاً فى المعدة ، فكان يعطيها جرعات من صندوق أدويته ، وينصحها بالإقلاع عن الجعة .

ولكن الملكة لم تكن مريضة مطيعة . وإذ عادها سبيك يوماً فى كوخها ، ألفى نفسه مُقْحَماً فى حفلة ماجنة انتهت بأن راحت الملكة الأم وجلساؤها يعبون من « جرن » ملىء بالجعة ، وهم على أربع ، كالخنازير !

وبعد أن مكث « سبيك » ثلاثة أشهر فى هذا الوسط الغريب ، وصل « جرانت » وهو لا يزال يحجل من آثار قرحة ساقه ، وإن كان قد استرد عافيته ، فتاق الرجلان إلى الانطلاق إلى غايتهما . وكانا فى رحلتيهما المنفصلتين من « كاراجوه » قد عبر نهراً كبيراً هو « كاجيرا » ، ولكنهما استبعدا احتمال أن يكون منبت النيل ، لأنه كان يصب فى بحيرة فيكتوريا وليس نابعاً منها . على أنهما سمعا — فى بلاط « موتيسا » — أنباء مؤكدة عن مجرى آخر ينبعث من البحيرة ، على مسافة قصيرة إلى الشرق . وقيل إن البحيرة كانت تسكب ماءها فى مسقط واسع فى اتجاه الشمال . فقرر عزم « سبيك » — الذى لم يسمح له موتيسا قط بمغادرة عاصمته طيلة الأشهر الثلاثة — على الاتجاه إلى تلك البقعة وركوب النهر إلى أى مكان يفضى إليه .

وكان موتيسا شديد المعارضة لرحيلهما ، فقد راق له أن يكون الرجلان الأبيضان

فى بلاطه ، ولم يكن متأكداً تماماً من أنه استخلص منهما كل هدية ممكنة . ثم إنهما كانا مسوقين إلى دخول أرض « كامرازى » — ملك « بنيورو » — عندما يرحلان ، وهو قد كان فى حرب مع « كامرازى » . فظل ستة أسابيع أخرى يسوِّف ويرجئ ، وأخيراً تركهما يرحلان ، فى ٧ يوليو سنة ١٨٦٢ ، فانطلق المستشكفان إلى الشرق مع قافلتهما و « بومبى » وحرس من « بوجندا » . وكانا مقبلين على ذروة رحلتهما العظيمة .

وفى هذه الفترة وقع حادث من أغرب ما صادفهما فى مغامرتهما : فإن دليلهما مضى بهما إلى الشمال قليلا من البحيرة ، فكان لزاماً على القافلة أن تنحرف انحرافاً شديداً نحو الجنوب ، لتصل إلى النيل وتتبعه إلى منبعه . وعقد اجتماع تقرر فيه أن تنقسم الحملة إلى فريقين ، فيمضى سبيك وحده إلى المنبع ، بينما يتجه جرانت شمالا ويسعى إلى بلاط « كامرازى » فى « بنيورو » . ولا يملك المرء سوى أن يتقبل ما قاله الرجلان من أنهما كانا متفقين تماماً على هذا الإجراء . فلم تبلغنا من جرانت أية لمحة من لوم أو استياء . كان قد جازف بحياته لبلوغ هذا الهدف ، وها هو ذا يتحول — عنه فى اللحظة الأخيرة — وقد بات الهدف فى متناوله — إرضاء لزميله ، وكل ما يقوله إن سبيك دعاه إلى مصاحبته فى سير متعجل إلى المنبع ، فاضطر إلى العزوف لأن ساقه الموجوعة كانت تحول دون أن يقطع عشرين ميلا فى اليوم . ويمضى قائلا إن هذا لم يكن الموضوع الأهم — على أية حال — فلقد شاهدا البحيرة وعرفا أن النيل يخرج منها . أما السر فى أن سبيك حتم الانطلاق بسرعة عشرين ميلا فى اليوم ، فلا تفسير له . على أن بين الرجلين أموراً كثيرة لا يفهمها المرء إلا إذا ظل يتذكر باستمرار وفاء جرانت لقائده ، وكما هو الحال فى الزواج ، يسقط نقاب غير شفاف بين هذه الزمالة وبين العالم الخارجى ، بحيث لا يملك أحد أن يزعم معرفة دخائل العلاقة بين المستكشفين . . . ولاسيما أنهما كانا يريان التصرف — الذى قد يلوح لنا غبناً وجحوداً — أمراً طبيعيًّا . فقد كان سبيك يسعى وراء فكرة ثابتة ، وكان كل كيانه مركزاً على إثبات صحة نظريته عن النيل ، ولا مراء فى أنه كان قد أصبح شديد التلهف لتحقيق غرضه ، لا يطيق أن يضطر للتلكؤ ليلحق به جرانت ، فى فترة كان فيها أى حادث طارئ أو مقصود كفيل بهدم

الحملة .. والأرجح أن جرانت كان شديد الشعور بهذا ، فسلم به فى انصياع يكاد يشبه انصياع الإناث ، مفضلاً أن ينزوى فى وهج مجد سبياك ، على أن يعرض صداقتهما لتوتر شديد !

وعلى أية حال ، فإن سبياك انطلق مع مرافقيه بسرعة ، فبلغ النيل فى ٢١ يوليو سنة ١٨٦٢ ، عند بقعة تسمى « أوروند وجانى » على حوالى أربعين ميلا من البحيرة : « هنا وقفت أخيراً عند طرف النيل . وما كان أجمل المنظر ، فلا شىء يفوقه ! . . . كان عين الكمال المنشود فى أرقى متنزه عام : ففيه مجرى فخم ، تتراوح سعته بين ٦٠٠ و ٧٠٠ ياردة ، مزركش بالجزر الصغيرة والصخور . . . » وهناك التماسيح ، والضفاف العالية المعشوشبة ، وأفراس البحر ، وقطعان البقر الوحشى . . . كل ما كان يخطر بالخيال ، حتى لقد قال سبيك لرجاله فى نشوته إنه « يجدر بهم أن يحلقوا رؤوسهم ويغتسلوا فى النهر المقدس ، مهد موسى . . » . فأجاب « بومبى » فى تقوى بأن المسلمين « لا ينظرون إلى هذه الأشياء بالخيال الذى تنظر به أنت إليها » .

على أن النشاط دب فيهم حين تتبعوا المجرى المائى ووقع بصرهم أخيراً — فى ٢٨ يوليو — على هدفهم ، فقد نسى الجميع تعبهم واندفعوا قدماً محاذين لضفة النهر . وحجب تلٌ منظر البحيرة عنهم . ولكن المجرى العظيم كان يتدفق عند أقدامهم على مسقط مائى ، كموجة السيل العارم . ويقول سبياك : « كان منظراً يشد إليه المرء ساعات . . . خرير المياه ، وآلاف الأسماك العابرة وهى تقفز فى الشلال بكل قواها ، وصيادو قبيلتى « واسوجا » و « واجندا » يسعون فى القوارب ويستقرون على الصخور جميعاً ليصطادوا بالقصب والشص ، وأفراس البحر والتماسيح تستلقى على الماء بخمول . . . »

وأطلق على المكان اسم « شلالات ريبون » ، « تكريماً للنبيل الذى كان يرأس الجمعية الجغرافية الملكية عندما تقررت حملتى » .

بقى على المستكشفين أن يحتفظا بحياتهما إلى أن يعودا إلى المدنية ويرويا قصتهما . ومع ذلك فلم يكن ثمة ما يقطع بأنهما نجحا . ومر شهر قبل أن ينضم سبيك وجرانت (وقد تقلصت حملتهما إلى لحوالى سبعين رجلا وأربع نساء) ، وسارا

معاً إلى « بنيورو » ، حيث استقبلهما الملك كامرازى بشىء من الغلظة ، واستولى على ساعة التوقيت « الكرونومتر » الذهبية — وقيمتها خمسون جنيهاً — من سبيك ، قبل أن يسمح للحملة بمواصلة السير .

وسمع المستكشفان — أثناء وجودهما فى « بونيورو » — أنباء عن بحيرة كبيرة أخرى ، على مسافة قصيرة إلى الغرب ، هى « لوتا نزيجه » ، فبدا من الجائز أن تكون منبعاً ثانياً للنيل . ولكن هذا كان فى نوفمبر سنة ١٨٦٢ ، وقد هدهما التعب وجردا من كل مقتنياتهما تقريباً ، فكان قيامهما بجولة أخرى خليقاً بأن يقضى على آخر فرصة لهما للبقاء على قيد الحياة ، لذلك اندفعا شمالا فى بطء ، وقد بقى أمل براق واحد يحدوهما . إذ كان سبيك قد دبر مع الجمعية الجغرافية الملكية — قبل مبارحته لندن — حملة توفد إلى الجنوب من « جوندوكرو » بالسودان ، لتلاقيهما بمؤن وحمالين . وهذا بطبيعته تدبير مائع ، إذ كان من المستحيل تحديد مكان للقاء فى بلاد لا تحمل تفصيلاتها خريطة ، وكان سبيك وجرانت قد تأخرا عن الموعد عاماً كاملا . ولكن « جون بثريك » — نائب القنصل البريطانى بالخرطوم ، وقائد هذه النجدة — كان رجلا مجرباً وكفئاً ، وقد أمدته الجمعية بألف جنيه ليشترى قوارب وإمدادات ترسل من الخرطوم على النهر وتودع فى « جوندوكرو » ، أو مكان آخر ملائم ، فى انتظار وصول سبيك وجرانت . وعلى أمل الالتقاء ببثرياك ، يمم الرحالتان شطر الشمال .

وكانت الرحلة مطردة الإرهاق . وعادا إلى الالتقاء بالنيل فى جوار قرية « ماسيندى » ، ولم يكونا قد شاهداه منذ تركاه على مسافة خمسين ميلا من منبعه ، واستطاعا أن ينطلقا فى زوارق على سطحه ، لمسافة قصيرة ، ولكنهما سرعان ما اضطرا للعودة إلى البر . وبلغا — فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٢ — مساقط « كاروما » فى وسط أوجندا . ووافتهما نهاية الشهر وهما لا يزالان يكافحان ببطء خلال منطقة موحشة وعرة . وتبينا — وهما يتقدمان شمالا — أن القبائل كانت تزداد بداوة وتأخراً باطراد ، وأنهما أصبحا فى منطقة عراة يطلون وجوههم بالألوان ، ويحملون أقواساً ونشاباً ، ولا يعرفون شيئاً عن فنون وحرف أهل بوجندا .

وكان وقت الغروب من يوم ٣ ديسمبر ، هو موعد انتعاش الأمل ، إذ سمعا

طلقات بنادق ترحب بهما . وما لبثت أن سعت للقائهما ثلة من الجنود المصريين والنوبيين فى زى عسكرى تركى . وأخذت موسيقى الطبل والمزمار تعزف ، والأعلام الحمراء تخفق ، فكانت أول مظاهر المدنية التى رآها سبيك وجرانت مذ غادرا « باجامويو » — على ساحل زنجبار — قبل عامين .

وكانت هذه الحامية — وتسمى « فالورو » — هى أقصى مركز تجارى على النيل للمصريين فى الجنوب ، وقد خف قائدها الزنجى « محمد واد المك » لعناق الرحالتين ، معلناً أنه وكيل عن « بثريك » ، وتاجر مالطى يدعى « دى بونو » ، وأن لديه أوامر بأن يبعث بهما إلى معقل المصريين فى « جوندوكرو » . وما لبثا أن جلسا إلى وجبة من الخبز ، وعسل النحل ، ولحم الضأن ، فى أطباق من الفخار . وناما — فى تلك الليلة — على سريرين حقيقيين ، ولكنهما وجدا أن « الصابون » كان أعظم مظاهر الترف التى أتيحت لهما ، على الإطلاق !

على أنهما لم يكونا قد غادرا إقليم الغابات بعد . ولم يقدر لموكبهما أن ينطلق قبل ١٠ يناير سنة ١٨٦٣ ، وقد امتطى قادته البقر والحمير ، وحمل الحمالون أنياب الفيلة ، وتبعتهم قافلة من العبيد ، والنساء ، والأطفال ، والماعز ، والماشية . وحين دخلوا إقليم « بارى » ، كانوا قد بلغوا من القوة مثل ما لقافلة من ألف نسمة ! . . . فلم يملك أهل ذلك الإقليم أكثر من أن ينظموا ضدهم بضع مظاهرات عدائية ، ولا أكثر !

وفى ١٣ فبراير — بعد حوالى عامين وخمسة أشهر من بدء رحلتهما — دخل سبيك وجرانت « جوندوكرو » . ولم يكن ثمة أثر لبثرياك ، ولكنهما رأيا بيت الإرسالية النمسوية — المشيد من الطوب الأحمر — ومظلاتها ، وعدداً من المراكب على النهر . ثم خف للقائهما شخص لم يكونا يتوقعانه إطلاقاً . وهنا يقول سبيك : « رأينا رجلا إنجليزياً يهرع إلينا — هو صديقى القديم بيكر[1] — وكان صبى من أتباعه قد أخبره بوصولنا ، فخف من فوره للترحيب بنا . وليس بوسعى أن أصف مدى اغتباطى . وكان لفرط ما أخذ بالتقائنا ثانية ، يعجز عن الانطلاق فى الكلام » .

---

(١) كان « سبيك » قد التقى ببيكر لأول مرة على ظهر سفينة ، وهو مسافر من الهند إلى عدن فى سنة ١٨٥٤ . (المؤلف)

وكان « صمويل بيكر » — الرياضى الصياد — وزوجته قد جاءا إلى أعالى النيل لانتظار المستكشفين ، كما وصل إلى « جوندوكرو » للغرض ذاته ، بعض البيض ، فسرعان ما وفد ثلاثة من القساوسة النمسويين . وآن للمستكشفين أن يرتاحا . وهنا يقول بيكر : «كان سبيك يبدو أكثر الاثنين إعياء ، فكان مفرط النحول ، ولكنه — فى الواقع — كان فى حال جيدة . وقد مشى على قدميه طيلة المسافة من زنجبار ، دون أن يركب مرة خلال هذا المسير المرهق . وكان جرانت فى أسمال مُشرَّفة ، وقد برزت ركبتاه عاريتين ، من بقايا « بنطلون » كان شاهداً على صنعة فجة فى الحياكة . وكان يبدو منهكاً ، محموماً . ولكن عيون الرجلين كانت تتألق وتنم عن الروح التى كانت تحدوهما طيلة الرحلة » .

وكانت هناك أنباء كثيرة يجهلها المستكشفان : وفاة زوج الملكة فيكتوريا فى إنجلترا ، واندلاع الحرب الأهلية فى أمريكا . . . ولكن « بثريك » كان الشغل الشاغل لسبيك وجرانت فى تلك اللحظة . ترى أين كان ؟ ولماذا لم يأت لملاقاتهما ؟ . . . لقد أكد لهما « بيكر » أنه لم يذهب بعيداً ، بل كان مسافراً فى منطقة غرب النيل . وفعلا وصل بثريك وزوجته بعد أيام قلائل . وأبدت لهما الجالية البيضاء الصغيرة أبلغ الود ، واجتمعت بهما على مأدبة عشاء . ولكن سبيك كان ساخطاً على بثريك . كان يساوره ذلك اللون من التشبث بالتوافه ، الذى يستولى على الإنسان المكدود ، فلم يقو شىء على تحويله عن الاعتقاد بأن « بثريك » ، وقد أخذ ألف جنيه من الجمعية الجغرافية الملكية ، نسى الحملة وانطلق فى اتجاه آخر ليتجر فى العاج . والواقع أن بثريك وزوجته كانا قد قضيا عاماً رهيباً يجاهدان للوصول إلى « جوندوكرو » ، وكادا أن يلقيا حتفهما . ولكن شيئاً لم يهدئ من ثورة سبيك ، فلما وصلت مسز بثريك وزوجته أن يتقبل السلع والقارب الذى أحضراه إلى « جوندوكرو » لأجله ، أجاب فى لهجة لاذعة بأنه لم يكن راغباً فى أن يعترف بـ « النجدة الملفقة » ، وأن صديقه الحميم « بيكر » قد أمدّه بكل احتياجاته ، وأنه كان يفضل الذهاب إلى الخرطوم بمركب بيكر . وعندما أقلع سبيك وجرانت من « جوندوكرو » — فى نهاية فبراير — كان من الواضح أنهما اعتزما أن يجاهرا بما فى رأسيهما عن بثريك ، عند وصولهما إلى إنجلترا . وفعلا ،

هاجماه بقسوة فى تقاريرهما للجمعية الجغرافية الملكية . وفى الكتب التى ألفاها ، فأقْصِيَ بثريك عن منصب نائب القنصل البريطانى فى الخرطوم ، وقضى عليه تماماً — اللهم إلا من الناحية المالية — عندما اتهم بالاتصال بتجارة العبيد . ومرت أعوام قبل أن ينصت أحد لدفاعه ، ولعل سمعته لم تستعد مكانتها الأولى بعد ذلك .

على أن سبيك كان أكثر كرماً بالنسبة لرجاله . وكان أحد أعضاء الحملة الأصليين قد مات ، و ١٤٣ حمالا قد انفضوا عنها ، مما لا يكاد يعتبر خسائر تذكر بالنسبة للظروف . ولقد أقيم معسكر فى متنزه عام بالقاهرة — حيث نزل سبيك وجرانت فى فندق شبرد — لمن بقى من حملتهما ، وكانوا اثنين وعشرين ، منهم أربع من النساء ، بينما أقيمت حفلات العرض والموسيقى العامة . ومنح كل رجل أجر ثلاث سنوات ، كما دبر لهم السفر جميعاً إلى زنجبار ، حيث كانت فى انتظارهم منحة أخرى .

وكان سبيك وهو يعتلى النيل إلى الشمال قد أبرق إلى لندن : « أنبئوا سير "رودريك ميرشيزون" بأن كل شىء على ما يرام ، وأننا على النيل ، عند خط عرض ١٤,٣٠° ، وقد جلونا كل شىء عن النيل » . وقد منح سبيك « ميدالية » مؤسس الجمعية الجغرافية الملكية ، وحق للرجلين أن يتوقعا استقبالا حاراً عند وصولهما إلى لندن .

ولكن أمر النيل لم يكن قد استقر ، إذ كان سبيك قد خلف من المنافسين والأعداء — فى هذا المجال — ما يحول دون أى استقرار .

الفصل الرابع

المنابع المتوارية

« لست أبغى أن يكون لى أى اتصال شخصى أو غير مباشر بـ " سبيك " ، بعد اليوم »

بيرتون (من رسالة إلى سكرتير الجمعية الجغرافية الملكية)

كان لكتب المستكشفين — فى العهد الفيكتورى — سلطان عجيب على عقول الناس ، إذ كانت توفر « الدراما » والتسلية اللتين أصبحتا من ميزات الأفلام التسجيلية السينمائية والتليفزيونية إلى حد كبير . . . ومن هذه المؤلفات ما استحوذ على خيال الناس ، أو أثر على الاتجاهات السياسية ، كمؤلفات الرحالة «لفينجستون» الثلاثة عن أفريقيا الجنوبية والوسطى ، أو ما رواه الرحالة « ستانلى » عن أسفاره فى الكونجو ، أو يوميات « جوردون » التى ركزت اهتمام إنجلترا بأسرها على الخرطوم والسودان حقبة من الزمن .

وتمتاز هذه الكتب بطابع شخصى قوى ، وبأنها نوع من الدعاية . إذ كان المؤلف يدعو لقضيته الخاصة — بشىء من قوة الإقناع الدينى والعاطفى فى كثير من الأحيان — وينفذ إلى عقل قارئه ، فيناقشه فى بعض المسائل ، كتجارة الرقيق ، ويثير عطفه واستنكاره . ولما كانت هذه النداءات تُوَشَّى عادة بموضوعات عن البسالة والمغامرة الخطرة ، فإنها كانت تلقى استجابة هائلة . وكان من المحتمل دائماً أن يموت الرحالة أو يضل سبيله فى الفيافى ، أو يتأهب — كمصارع الثيران — ليتحدى حتفه مرة أخرى ، قبل أن يصدر كتابه . فكان هذا يضفى على مؤلفه جواً من الواقعية ، فيعيش القارئ ويتألم معه ، ويقفز للدفاع عنه إذا هاجمه مزاحمون تدفعهم الغيرة ، وما كان أكثر الغيرة فى ميدان الكشف الأفريقى ، المتسم بالتضارب وكثرة الإقبال . وأى امرئ أوتى إلماماً عملياً ببعثات التنقيب الأثرية فى أيامنا الراهنة ، يدرك هذا الجو لفوره . كان أشبه بجو الحرب ، يتميز بالغيرة الوطنية والانحياز .

ولقد بدأ تدفق سيل المؤلفات عن أفريقيا فى الستينات من القرن التاسع عشر .

إذ ظهر كتاب بيرتون « مناطق البحيرات فى أفريقيا الوسطى » فى سنة ١٨٦٠ ، و « يوميات كشف منبع النيل » لسبيك فى سنة ١٨٦٣ ، وأعقبه بعد قليل كتابه الآخر : « ما الذى أفضى إلى كشف منبع النيل » . وفى سنة ١٨٦٤ نشر جرانت كتابه « رياضة عبر أفريقيا » (وهو عنوان أوحته إليه إشارة من السياسى « بالمرستون » قال له فيها : « لقد قمت برياضة طويلة على الأقدام يا كابتن جرانت ») . كما اشترك بيرتون مع الجغرافى « جيمس مكوين » فى كتاب « حوض النيل » . ثم أصدر بثريك « أسفار فى أفريقيا الوسطى » ، وأصدر بيكر « ألبرت نيانزا » ، وبيرتون « زنجبار » .

ولقد يخيل للمرء أن فى هذا ما يكفى لاطلاع أشد الناس شغفاً بدراسة الرحلات الأفريقية ، ولتشويش فكره ، ثم أخيراً لإتخامه بالمعلومات . ومع ذلك فإن الرأى العام لم يكتف بكل ذلك . ولعل هذا كان أمراً طبيعياً ، لأن كل هذه الكتب — فى مجموعها — اعتبرت حلقات فى قصة طويلة مسلسلة ، فظل الجميع يجهلون ما قد تكون عليه النهاية .

ولقد قال بيرتون فى سنوات لاحقة — وهو الذى كان أول من نزل الميدان بكتابه « مناطق البحيرات » (عن رحلته مع سبيك إلى بحيرة تنجانيقا) — أنه ندم على بعض أمور كتبها ، ولكنه كان قد استثير بمقالين نشرهما « سبيك » فى مجلة « بلاكوودز » عند عودته إلى إنجلترا سنة ١٨٥٩ ، وعرض فيهما — لأول مرة — رأيه فى أن بحيرة فيكتوريا هى منبع النيل ، فرأى بيرتون أن هذا يبدد قيمة الحملة كلها . ومن ثم عمد فى مستهل كتابه « مناطق البحيرات » إلى تصحيح الأمور بطريقته الجافة ، فكتب : « لقد جاهرت بمشاعرى إزاء الكابتن سبيك ، زميلى فى الحملة موضوع هذه الصفحات . ويتلخص تاريخ زمالتنا فيما يلى : لما كان سبيك قد شاركنى — بماله وشخصه — تضحياتى فى "بربرة" سنة ١٨٥٥ ، فقد رأيت من الإنصاف أن أعرض عليه فرصة جديدة لمحاولة التغلغل فى أفريقيا . ولم يكن لى أى دافع آخر ، فما كنت أتوقع الكثير من معاونته ، إذ لم يكن ملماً باللغات — فكان يجهل العربية والفرنسية على السواء — فضلا عن أنه لم يكن عالماً ،

ولا راصداً فلكيـاً دقيقاً . وقد رفض مجلس المديرين (لشركة الهند الشرقية) رسميـاً أن يمنحه إجازة طويلة ، فحصلت له عليها بأن لجأت للسلطات المحلية فى "بومباى" وكان خلال الحملة يتصرف فى حدود اختصاص « المساعد » ، ومن الممكن تصور عدم صلاحيته لأكثر من أن يكون مساعداً ، وسط جماعة من العرب والبلوشيين والأفريقيين كان يجهل لغاتهم . فهل كنت أملك إذن أن أشعر بغير الاستنكار عند ما أتبين – بعد أن سبقنى فى العودة من عدن إلى إنجلترا ، مع تطوعه الصريح بألا يظهر أمام الجمعية التى دبرت الحملة حتى أعود – أنه لم يضيع وقتاً فى اتخاذ التدابير ليظفر لنفسه بحق العمل فى الميدان الذى فتحته أنا ! . . وأنه منذ ذلك اليوم وضع نفسه بجلاء كمحرك أول لحملة وقع اتفاق اشتراكه فيها باعتباره « موكلا بأعمال المساحة » . . . ؟ »

ثم يوضح « بيرتون » أن « سبياك » قد أساء تماماً تصوير الصفة الحقيقية للحملة . فهما لم يكونا يبحثان إطلاقاً عن « المنابع المتوارية » للنيل . وكانت تعليمات الجمعية الجغرافية الملكية مقصورة على تكليفهما بتحقيق ما يقال عن « بحيرة أوجيجى » ، وتحرى جغرافية المنطقة وأصول السلالات البشرية فيها بوجه عام . وإلى جانب هذا طلب إليهما زيارة محطة الرقيق القديمة فى « كيلوا » ، على الساحل الأفريقى جنوب زنجبار . وقد أدت الحملة كل هذه الأمور ، وهى كل ما كلفت به . أما هذيان « سبياك » عن « فيكتوريا نيانزا » فكان أمراً يخصه ولا ينبغى أن يخلط بما أنجزته الحملة عمليـاً[1] .

كانت هذه هى البداية . وعندما صدر الكتاب سنة ١٨٦٠ ، كان بيرتون يتميز غيظاً – بطبيعة الحال – لما أحاطت به الجمعية « سبياك » من تهليل ، ولما أبدته من فتور نسبى نحوه هو . وها قد عاد « سبياك » – سنة ١٨٦٣ – من حملته الجديدة مع « جرانت » ، وغمرته الأضواء أكثر من ذى قبل . فعندما هبط المستكشفان ميناء « ساوثهامبتن » – فى شهر يونيو – استقبلتهما سلطات المدينة ،

---

(١) جانب « بيرتون » الصراحة إلى درجة كبيرة فى هذا القول ، فقد كانت منابع النيل تشغل باله كثيراً ، وقد أقر بهذا (ولعله فعل ، دون أن يفطن) عند ما ذكر فى كتابه « زنجبار » – الذى نشر بعد ذلك بسنوات – أنه عاد مشوقاً إلى أفريقيا الوسطى ، ما بين مدارى السرطان الجدى ، و « قررت فى ١٩ أبريل عام ١٨٥٦ أن أجدد تصميمى الأصلى على الوصول إلى المناطق المجهولة ، وبلوغ منابع النيل عن طريق الساحل الشرقى » . (المؤلف)

مع فريق من الأنصار والأصدقاء المتحمسين ، بينهم غريم بيرتون القديم ، « ريجبي » ، القنصل البريطاني في زنجبار . وفي ٢٢ يونيو ١٨٦٣ ، رحبت الجمعية الجغرافية الملكية بسبيك في اجتماع خاص ، وكان الحشد الذي حضر لسماع محاضرة المستكشف كبيراً — في الواقع — حتى لقد تهشم عدد من نوافذ المبنى ، من شدة الزحام ! . . . وماذا كان لدى سبيك ليقوله . . . ؟ « إن أمر النيل قد استقر » .

وكان هذا في نظر بيرتون — الذي كان قد عاد إلى إنجلترا من أفريقيا الغربية حوالي ذلك الوقت — نفس العبث القديم ، ونفس التخمين المتهور . فما الذي كان سبيك قد فعله في الواقع ؟ . . كان قد لمح رقعة واسعة من الماء عندما زار « موانزا » في حملة تنجانيقا سنة ١٨٥٨ ، ثم لمح رقعة مائية كبيرة أخرى — على مسافة ٢٠٠ ميل إلى الشمال — عندما زار الملك « موتيسا » مع « جرانت » سنة ١٨٦٢ ، فقفز لفوره إلى استنتاج أن المنطقة الشاسعة بين هذين الموقعين — وتبلغ مساحتها حوالي ٣٠,٠٠٠ ميل مربع ، أي تكاد تعادل إنجلترا — بحيرة كبيرة . فهل طاف بهذه البحيرة المزعومة ؟ . . أبداً ، بل إنه لم يحفل بزيارة شاطئها الغربي عندما كان يقيم لدى الملك « رومانيكا » . وكان عاجزاً كل العجز عن أن يذكر أي الأنهار ينبع منها ، أو يصب فيها !

وصحيح أنه كان قد وجد مخرجاً — حين زار مسقط مياه (يطلق عليه شلالات ريبون) — ومجرى آخر متدفقاً نحو الشمال ، إلى الشرق من قصر الملك « موتيسا » . ولكن أي مبرر محتمل جعله يعلن ، بهذا الجزم ، أن ما رآه هو النيل ؟ وهل أبحر في النهر من البحيرة إلى « جوندوكرو » ؟ . . . أبداً . بل إنه سار براً معظم المسافة إلى جوندوكرو ، وعندما قدر له ، مصادفة ، أن يرى نهراً في طريقه — أي نهر — استنتج بتهور نزق أنه كان نفس المجرى الذي رآه خارجاً من البحيرة . وكان من المحتمل جداً أن ما رآه لم يكن مجرى واحداً وإنما عدة مجار ، ولا بحيرة واحدة وإنما حواف سلسلة ومن البحيرات . والأنهار — على أية حال — لا تنبع من البحيرات وإنما من المرتفعات . لقد استغل « سبيك » حوض النيل « بطائفة من الخرافات ترجع إلى أيام بطليموس » . وقد احتوى كتاباه « اكتشاف

منبع النيل » و « ما الذى أفضى إلى كشف منبع النيل » — الذى اعتمد فى معظمه على المقالين اللذين نشرهما فى مجلة « بلاكوودز » — « جغرافية مفككة للغاية » .

وكان فى هذا من المنطق ما يقنع جغرافيين آخرين — بجانب بيرتون — بأن « سبيك » قد ترك أسئلة كثيرة جداًّ بدون جواب ، وأن الأمر جدير بمزيد كبير من الكشف العلمى ، قبل أن تسوى مسألة النيل . وسرعان ما شرع عدد من أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية يجرحون استنتاجات « سبيك » فى الاجتماعات ، فما لبث التجريح أن سرى إلى الصحافة . وكانت مجلة « بلاكوودز » تؤيد « سبيك » تأييداً مطلقاً ، ولكن الصحف اليومية لم تكن تشاركها اطمئنانها .

وأصبح جلياًّ أن ثمة معسكرين أخذا يتكونان : كان جرانت صامداً فى صف قائده — بطبيعة الحال — وكذلك كان آخرون مثل « ريجبى » ، فأذكى تأييدهم تحمس الشاب وإصراره .على أنه كان ثمة آخرون انصرفوا عن « سبيك » ، أواعتبروا أنفسهم غرماء ، فانضموا إلى « بيرتون » — لأسباب شخصية وعلمية— وكان الشقاق مع « بثريك » مستمراًّ . وكان « جرانت » قد لاح لبثريك — فى جوندوكرو — ودوداً ، « سيداً مهذباً تماماً » . ولكن جرانت طعن هو الآخر — عند عودته لإنجلترا — فى « النجدة الملفقة » ، وأخبر الجمعية بأن « بثريك » خذل الحملة أسوأ خذلان ، وقال إن « سبيك » نفسه لم يسمع إلا من « بيكر » — فى جوندوكرو — بأن « بثريك » أخذ ١٠٠٠ جنيه ليمدهما بالسلع ، فلما ذهبا إلى متجر « بثريك » قيل لهما إن عليهما أن يبتاعا ما يريدان ، كأى شخص آخر . ومن الطبيعى أن جرانت كان ساخطاً ، ولكن « سبيك » تمادى خطوة فى خطاب ألقاه فى « تونتون » ، فأوعز بأن « بثريك » كان — بجانب تخليه عن الوفاء بوعده — متصلا بتجارة الرقيق ، وبهذا اتخذ المستكشفان من « بثريك » عدواًّ لم يكن يقل عن « بيرتون » صلابة وإقذاعاً .

وما لبث أن ظهر معارض أشد صلابة بكثير ، هو الدكتور « لفينجستون » العظيم . إذ كان — مثل بيرتون — موقناً بأن الجلاء الصحيح لأصل النيل إنما يوجد جنوب بحيرة فيكتوريا وخط الاستواء . وقد كتب : « لقد أولى سبيك المسكين منابع النيل الحقيقية ظهره . . . وما كان النهر — الذى اكتشفه عند

شلالات ريبون – من الاتساع بحيث يكفى لإمداد النيل » .

وكان « لفينجستون » – كعهده دائماً – حازماً ولكنه مؤدب . بيد أن أعضاء آخرين فى الجمعية الجغرافية الملكية شعروا شعوراً قوياً بأن سبيك قد جمح فى اعتقاده . وكانوا موطدين العزم على القضاء عليه . فشن « جيمس مكوين » حملة شعواء فى صحيفة « مورنيج أدفرتايزر » ، فى سلسلة من المقالات حلل فيها « اكتشاف منبع النيل » . وقد اغتبط بيرتون وأعاد طبع المقالات فى كتابه « حوض النيل » ، فقد رأى أنه لم يقدر لمكوين يوماً ، فى الخمسين عاماً التى توفر فيها على جغرافية أفريقيا ، أن يبدى « فطنة أعظم ، ولا روحاً أعلى مما أبداه – فضلا عما كان لأسلوبه من خشونة لا تبارى – فى هذه المقالات التى طلع بها فى وقت كان العالم الإنجليزى ينحنى فيه أمام آخر أصنامه » .

وقد يتراءى لنا اليوم ما اعتبره بيرتون « خشونة أسلوب » قذفاً بذيئاً وتشهيراً. وكان « مكوين » – كزميله فى الجمعية « ديسبورو كولى » ، الذى كان قد سفه فكرة وجود جليد عند خط الاستواء – جغرافياً موهوباً ومتبحراً . ولكن لعل من سوء الحظ أنه كان يمارس علمه فى إنجلترا ،فلم تكن لديه فكرة واقعية عن الترحال فى أفريقيا . وكان القفز إلى النتائج وهو فى لندن ، سهلا كما هو على ضفاف بحيرة فيكتوريا – وهو الشيء الذى عابه على سبيك – وقد بدأ حملته باستنكار قسوة « سبيك » وعدم إنصافه لبتريك ، ثم استطرد إلى هدم أخلاق سبيك ، وقد أهاجه – بوجه خاص – ما رواه « سبيك » عن اتصالاته بزوجة الزعيم « رومانيكا » البدينة :

« كان مقدراً لسبيك أن يملى بصره منها عارية ، ثم يقيس أبعادها ، على شريطة أن يمكنها من أن تفعل المثل به . فبعد أن حملها على أن تتزحزح وتتلوى إلى وسط الكوخ ، يقول : « فعلت ما وعدتها به » . . . وشرع – وهو عارى الساقين ، وقد شمر كميه – فى القياس ، وقد أسماه « عملية هندسية » ! . . . ثم يستطرد : « وإلى جانبها جلست ابنتها ، صبية فى السادسة عشرة ، عارية تماماً ، ترضع من أبريق به لبن . وكان أبوها يضطرها إلى الاستمرار ، بأن يمسك بعصا بين يديه . . . وأخذت

أتقرب إلى الآنسة ، وأغريتها على النهوض ، وعلى مصافحتى ، وكانت قسماتها جميلة ، ولكن جسمها كان مستديراً كالكرة » . . .

« وما نحسب أحداً من قرائنا قد التقى يوماً أو سمع بمثل هذه العملية « الهندسية » ، بل نذهب إلى القول بأننا لا نتمنى قط أن نلتقى بعملية مثلها » .

ويمضى « مكوين » قائلا إن سبيك كتب عن « موتيسا » وحاشيته بإعجاب . فماذا كان يجرى هنالك ؟ :

« كان كل يوم يشهد أنثى أو اثنتين أو ثلاثاً تجر من الحريم لتعدم بقسوة ! . . . وذات يوم ، لم يقل عدد اللاتى جررن هكذا عن أربع فى وقت واحد . . . وفى صفحة ٣٥٧ (من كتاب : كشف منبع النيل) . يقول سبيك ما يلى بحذافيره ، كدليل على حشمتهم : " هؤلاء العذارى العشرون بنات (واكونجو) ، سرن أمامنا صفاً ، وهن ملطخات بشحم سال على أجسادهن ، وأمسكت كل منهن مربعاً صغيراً من القماش بمثابة ورقة التين ، ليكن دفعة جديدة تضم للحريم . وبعد هذا نهضت سيدة رزينة من الحشد الجالس القرفصاء ، وأمرت العذارى بالنكوص ، وبالسير ثانية ، فكشفت عن إعجازهن العارية " ! . . »

أما عن شكوى سبيك من وحدته أثناء مقامه فى قصر « موتيسا» ، فكذب صريح . إذ كان يتقبل باستمرار هدايا من النساء ، فكان يرفضهن ، ما عدا الجميلات ، وكن يشغلنه حتى إنه لم يجد وقتاً للذهاب ورؤية بحيرته المشهورة !

« وقد ورد ذكر الكابتن سبيك دوماً على أنه كان يتسلى ، ويشترك فى شرب "البومبه" ، ويتقرب للملكة الأم ، ويرمى البقر بالرصاص ، ويروض محظياته المتمردات . . . ولا يكاد أحد يصدق أن أى رجل جاء ألف ميل ليرى مكان مبدأ النيل ، وهو يفترض وجوده فى تلك البقعة ، يبقى خمسة أشهر على مسافة ثمانية أميال منه ، دون أن يسمع أو يرى شيئاً بصفة قاطعة عن الهدف الأعظم لبحثه ، أو يبحث عن وسيلة لرؤيته ! . . كان من الممكن أن يمسك بذراع الحسناء « كاريانا »

– زوجة رجل الحاشية "دومبا" ، التى اعتاد أن يتأبط ذراعها ليعلمها كيف تسير كما تسير معه السيدات فى "هايد بارك" – وأن يحلق لحيته ، ويرتدى "المبوجو" – إزار عفته أو عفتها – وبدلا من أن يجلس خاملا أو حزيناً ، ينطلق فى نزهته الصباحية مع "كاريانا" ، فيصل إلى البحيرة أو النهر ، وبهذا يرى – فى ضحى يوم واحد – ما كان يبغى ، وبالتالى يريحنا والعالم كله من ألمنا وخيبة رجائنا » .

وفى الوقت نفسه ، شاء الناقد أن يحتج على ما اعتاده سبيك من تسمية الأماكن التى اكتشفها بأسماء عظماء بلاده :

« وتعوزنا – لفرط الاشمئزاز – الكلمات الصالحة للتعبير ، إذ نجد الأسماء الرفيعة فى أوربا تنتهك – لا سيما اسم عاهلتنا العظيمة الجليلة الذى أهين وحقر – فتطلق على أماكن فى هذه البلاد ، وهى من أكثر البلاد همجية وانحطاطاً . وإنا لنرجو صادقين ألا تقر الجميعة الجغرافية الملكية – بأقصى صرامة – إجراءات مشابهة فى المستقبل ، من أحد الذين ترعاهم وتستخدمهم » .

وتحول « مكوين » – بعد ذلك – إلى « جغرافية » رحلة سبيك ، مردداً أكثرية حجج بيرتون ، ومجتهداً – بشىء من الدهاء ، وباستخدام عين الأرقام التى أوردها سبيك – أن يثبت أن المستكشف جعل النيل يتدفق فى اتجاه عكسى من مناطق منخفضة إلى أخرى مرتفعة ! . . . فماذا كسب سبيك وجلب فى الواقع ؟ . . . جلب « تضحية وتدمير شركاء متحمسين ، هم شعلة من الذكاء – إذا صح هذا التعبير – تورطوا وتخبطوا فى كل شىء إلى درجة تجعلنا نعتقد بحق أنه هو نفسه لا يملك أن يجد لنفسه مخرجاً وسط هذا التيه الذى تركوه فيه » .

وكان سبيك – منذ عودته إلى إنجلترا – قد أدلى بخطاب أعلن فيه أنه اعتزم أن يفتح أبواب أفريقيا الوسطى ، بالرجوع إليها ، واختراق القارة من الشرق إلى الغرب ، على طول خط الاستواء . وقال إن غايته « تجديد شباب أفريقيا ، ولا أقل » . ويمضى مكوين قائلا : « إن سبيك هو آخر من يجوز إيفاده ثانية إلى أفريقيا ، وجدير برئيس وزراء ملك بوجندا أن يصيح ، حين يسمع بالمشروع :

” وه ، وه ، وه . ما الذى سيحدث بعد ذلك ؟ “ . ولعل جرانت أحق منه بالذهاب ، فهو – على الأقل – سيد مهذب ، وقد كان محتشماً « فما وجدناه مرة منغمساً فى تعاطى شراب ” البومبه “ ، أو فى مغازلة النساء ، أو جمع عدد منهن لتكوين ” حريم “ ! » .

ويختم « مكوين » هجوه بالإشارة إلى خطاب من « بيكر » ، اقترح فيه – مازحا – إقامة فندق على خط الاستواء لإيواء المسافرين ، قائلا فى خطابه ، فى هذا الصدد :

« . . . ولنجمع على تسمية الفندق هكذا :

فندق شلالات ريبون

لصاحبيه : « سبيك و « موتيسا »

خمر « البومبه » و إزار العفة – « المبوجو » – متوفرة دائماً

« ولو أن منشأة كهذه أقيمت بمرسوم ملكى – وهو ما لن ترفضه الحكومة – فسنراهن ببنس إنجليزى جديد ، مقابل ” إزار عفة ملكى “ على أن رأس المال المنشود سيتسنى تحصيله من جموع أبناء هذا البلد الذين أوتوا رؤوساً أكثر ليناً من قلوبهم . ولا شك أن وجود فندق ، وبلاط ملكى يسوده الغزل ، والدس ، وشرب ” البومبه “ ، كفيل باجتذاب فيض من علية الزائرين بحيث لن يلبث أن يمد خط للسكة الحديدية »[١] .

وكان من الطبيعى أن تجتذب مقالات « مكوين » انتباهاً كبيراً . كانت على النمط « الفيكتورى » تماماً ، مليئة باللؤم ، مليئة بالنفاق . ولعل أحداً ما كان ليحفل بها لو لم يكن محورها موضوعاً خطيراً . والواقع أن المعركة كلها كانت خليقة بأن تعتبر تافهة سخيفة ، لولا أنها كانت أساسية بالنسبة لتاريخ النيل ، وقد قدر

---

(١) وقد مد الخط الحديدى بالفعل ، ويقوم اليوم فى ذلك الموقع « فندق شلالات ريبون »
(المؤلف)

لأصدائها أن تتردد فى السنوات التالية بإصرار يدعو للعجب .

ولو أن كل شىء سار على هوى « سبيك » ، لكان الأمر عجيباً حقاً . فقد كانت لدى « سبيك » قصة خيالية يرويها ، وكان فى تقديمه إياها متسرعاً وفارضاً آراءه بعض الشىء . فإن مشكلة النيل كانت تشغل أنبه العقول منذ آلاف السنين ، ولم يكن من المحتمل أن يكشف حقيقتها ضابط شاب من الجيش الهندى لم يؤت مؤهلات ممتازة ، بينما أخفق كل من سبقوه . وفوق ذلك ، كان يسود إنجلترا ميل موروث للتشكك . فقبل ذلك بقرن تقريباً ، عاد « جيمس بروس » من أفريقيا بقصة عن زيارة قام بها لمنبع النيل الأزرق ، وقال إنه تتبع النهر إلى ملتقاه بالنيل الأبيض فى الخرطوم ، فقوبل بأقصى تشكك ، واستهجنت قصصه التى كتبها عن قبائل كانت تأكل اللحم نيئاً بعد اقتطاعه من ماشية حية . . . بل لقد سفهه الدكتور « صمويل جونسون » ، وكان حجة فى هذا المضمار . وإزاء هذا اعتكف « بروس » فى بيته باسكتلندا ، وقبع ستة عشر عاماً قبل أن ينشر كتابه « أسفار لاكتشاف منبع النيل ، من عام ١٧٦٨ إلى ١٧٧٣ » . أما سبيك ، فقد بادر إلى النشر ، فأثار معارضة عامة . ومن الواضح أنه ما كان ليمضى وقت طويل حتى يجمع المسئولون الغريمين الرئيسيين ، وجهاً لوجه ، لكشف حقيقة الأمر .

والواقع أنه ، فى سبتمبر سنة ١٨٦٤ — أى بعد نحو عام من عودة سبيك وجرانت — تمّ تدبير اجتماع للجمعية البريطانية لتقدم العلم فى « باث » . ووعد كل من بيرتون وسبيك بحضوره . وحدد يوم ١٦ سبتمبر لتقابلهما على المنصة ، أمام بضع مئات من الجغرافيين والعلماء ، ليقدما وجهات نظريهما المتعارضة . كذلك تقرر حضور الدكتور لفينجستون (الذى صادف أنه كان يحترم سبيك ولكنه لم يحفل كثيراً ببيرتون) .

ولا يعرف أحد شيئاً يذكر عن حال « سبيك » قبيل الاجتماع ، فقد كان يكتم أموره عادة ، ولم يكن يبرز أو يتفوق فى المناظرات العامة . ولا بد أنه كان يدرك أن « بيرتون » خصم قوى ، متمكن من اللغة ، وعلى إلمام بالمنطق ، وهى أمور لم يؤتها هو . كان « بيرتون » من رجال الفكر ، ولم يكن « سبيك » منهم ، وقد كانت فى « يوميات » سبيك أخطاء تحرجه للغاية ، ولم يكن قد حاول أن يفسرها .

بل إنه لم يكن قد رفع دعوى القذف ضد « مكوين » وصحيفة « المورنينج أدفرتايزر » برغم أن بعض تصريحات مكوين تضمنت قذفاً مؤكداً فى حقه . كما أن مكوين كان — فى بعض نقاط معارضته — قد اتهم سبيك فعلا بالتساهل فى أمر تجارة الرقيق . وهو أمر كان من المحتمل أن يقال عن « بيرتون » ، أما « سبيك » فصفحته فى هذا الصدد واضحة ، إذ كان شديد العطف على الأفريقيين . وكم من مرة كتب بأنه كان يعتقد أنهم إذا أوتوا حكومة صالحة ، فلن يلبثوا أن يخرجوا من همجيتهم ويتخذوا مكانهم بين الأقوام المتحضرة . . . وهذا يفرق بكثير جداً ما كان « بيرتون » — وغيره من رواد أفريقيا منذ ذلك الحين حتى الآن — على استعداد لقوله . ولكنه ترك كل هذا ، كما ترك أشنع سخريات بيرتون ، دون أن يرد عليها ليدحضها . ومع ذلك فقد كان سبيك أبياً معتداً بنفسه ، ولم يكن من طبعه — بقدر ما نعرف — أن ينهزم دون كفاح . ومن الواضح أنه جاء إلى اجتماع « باث » معتزماً الدفاع عن نفسه ، ونزل مع خاله « جون فوللر » فى فندق « نيستون بارك » بقرب « بوكس » ، بمقاطعة « ويلتشاير » .

ولكننا نعرف عن اتجاه « بيرتون » إزاء الاجتماع قدراً أكبر ، خلال ما رأته منه زوجته المحبة « إيزابيل » — من ناحية — وخلال ما كتبه هو فيما بعد ، من ناحية أخرى . فقد أعد مذكراته بعناية ، كعادته ، ولم يكن متهيئاً لمحو نظرية سبيك فحسب ، بل كان يتأهب لعرض نظرية جديدة من عنده . وكانت — فى الواقع — ارتداداً عنيفاً إلى رأيه الأول بأن بحيرة تنجانيقا والمجارى المائية التى تغذيها هى المنابع الحقيقية للنيل . وقد أعد خريطة تخطيطية بينت نهر « روسيزى » متدفقاً من بحيرة تنجانيقا نحو الشمال ليصب فى « لوتا نزيجى » ، وهى البحيرة الكبيرة الأخرى — غربى بحيرة فيكتوريا — التى سمع بها سبيك وجرانت عندما كانا يسعيان شمالا ، خلال أراضى كامرازى ، نحو « جوندوكرو » . وكانت « لوتا نزيجى » بدورها — وفقاً لخريطة بيرتون — تزود مجرى ينساب إلى جوندوكرو ، وهذا هو النيل الحقيقى كما خيل لبيرتون . أما بحيرة فيكتوريا — التى كشفها سبيك — فقد استبعدها بيرتون تقريباً عن خريطته ، ووصفها بأنها « الموقع المفترض » لبحيرة ما .

وكان بيرتون وسبيك قد وصلا معاً — سنة ١٨٥٨ — إلى الطرف الشمالى لبحيرة

تنجانيقا ، كما نعلم . ومع أنهما لم يريا نهر « روسيزى » فعلا ، فإنهما قنعا بأقوال الأهالى الأفريقيين بأنه يجرى « إلى داخل » البحيرة ، ومن ثم فلا يمكن أن يكون هو النيل . ولقد شعر « بيرتون » — إذ ذاك — بما آلمه نفسياً . أما الآن . فقد زايله الألم بعد إمعان تفكير — وببساطة هى عكس قراره السابق — وجعل نهر « روسيزى » يجرى فى الاتجاه الآخر ، متعللا بأن الأفريقيين قد ضللوهما بمعلومات خاطئة عن النهر . وقال إنه وسبيك لم يكونا — على أية حال — فى ظروف تمكنهما من التحقق من الأمر ، وهما عند البحيرة سنة ١٨٥٨ ، إذ « كان سبيك أصم وشبه أعمى ، وكنت مشلول الحراك ، فكنا معاً عاجزين » .

وكان لدى بيرتون موضوع آخر أدعى للدهشة . كان مستعداً لأن يعلن أن للنيل — بجانب بحيرة تنجانيقا — منبعاً ثانياً ، بعيداً إلى الشرق ، هو نهر « أسوا » ، الذى كان يستمد الماء من بحيرة ثالثة هى « بارينجو » ، وهى بحيرة يقوم إلى الشرق منها جبلا كينيا وكليمنجارو المكللان بالثلوج . . . وقد زعم بيرتون أنهما « جبال القمر » ، وبهذا تحققت كل أوصاف خريطة « بطليموس » — التى ترجع للقرن الثانى الميلادى — بدرجة مدهشة .

ولقد حاولت « إيزابيل بيرتون » أن توفق بين الرجلين قبل انعقاد الاجتماع ، فلم تفلح . وكتبت (سنة ١٨٩٢) تقول : « ومن الطريف — الآن — أن نلاحظ كيف أخذا يهبطان فى رسائلهما من " عزيزى جاك " و " عزيزى ديك " إلى " عزيزى بيرتون " و " عزيزى سبيك " ، حتى انتهى الأمر إلى أن أصبح كل منهما يكتب للآخر : "سيدى" . . . » ثم تذكر زوجة بيرتون أن صديقاً « نقل إلى ريتشارد (قبل الاجتماع) أن سبيك قال إنه كفيل بأن يركل بيرتون إذا ظهر على المنصة فى "باث" (التى كانت — فى الواقع — مسقط رأس سبيك) . وأذكر أن ريتشارد قال ، رداً على هذه العبارة : " حسناً ، هذا فصل الخطاب . . لعمرى ، لسوف يركلنى " . . . وفى ظل هذه الظروف ، ذهبنا إلى " باث " » .

ومع ذلك فقد كان بيرتون مضطرباً — بقدر ما كان متحفزاً — إزاء اللقاء المقبل مع غريمه ، وكان تواقاً إلى الانتهاء منه . فذهب إلى « باث » مع إيزابيل وهى فى أفخم ثياب ، وكانت المرأة الوحيدة تقريباً فى الاجتماع . وحرصاً على

حضور جلسة تحضيرية فى القسم المخصص للجغرافيا وعلم الأجناس الوصفى ، فى صباح ١٥ سبتمبر (اليوم السابق على المساجلة الكبرى) .. وهناك رأيا سبيك ، فقاطع كل من الرجلين الآخر تماماً . ولاح لبيرتون أن غريمه كان يبدو مريضاً ، وأن بصره وسمعه عادا يضايقانه . وما لبث بيرتون أن رأى شخصاً يشير إلى سبيك من نهاية القاعة ، يستدعيه ، حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، فبادر سبيك إلى النهوض ، وقال مازحاً : « لم أعد أطيق هذا » ، وخرج .

وفى الصباح التالى — ١٦ سبتمبر — اجتمع بيرتون ، وإيزابيل ، وسير رودريك ميرشيزون ، وبضع مئات من السادة ، فى القاعة مرة أخرى . . . لافتتاح المساجلة . وتقول إيزابيل : « وكان جميع المبرزين من القوم مع المجلس (مجلس الجمعية الجغرافية) ، ما عدا ريتشارد وحده ، إذ وقفنا على المنصة — وحدنا — وهو ممسك بمذكراته » .

ولعل المرء يدرك ما حدث بعد ذلك — بشكل أوضح — مما كتبه بيرتون بصدده :

« فى ساعة مبكرة من الضحى المحدد لما أسمته الألسن الغبية " مبارزة النيل " ، وجدت اجتماعاً كبيراً فى قسم الجغرافيا . وأديرت على الحضور ورقة، فى صمت . وما لبث صديقى مستر " فيندلاى " أن أنهى فحواها إلىّ : كان الكابتن سبيك قد فقد حياته فى الرابعة من مساء اليوم السابق بينما كان يصطاد فى أراضى بن خاله . فقد افتقد فى المكان ، ثم وجده قريبه مستلقياً على الأرض ، وقد اخترقت جسده طلقة قريبة من القلب . ولم يعش سوى دقائق قليلة ، وكانت آخر كلماته رجاء بألا يحركه أحد » .

ويقول سير « سيتون ديردون » — فى كتاب عن بيرتون — إن « بيرتون ترنح بشكل واضح على المنصة ، ثم تهالك فى مقعده ، ووجهه يختلج ، وهتف : والله لقد قتل نفسه ! . . . وعندما عاد إلى مسكنه ذرف دموعاً مريرة ، مردداً المرة تلو الأخرى اسم : " جاك " . كذلك سجلت إيزابيل أنه « بكى طويلا ، وبمرارة ، حين عدنا للمسكن ، وقضيت أياماً أحاول أن أسرى عنه » .

على أن بيرتون تمكن من تمالك نفسه فى الاجتماع ، وبعد أن ألقى سير « رودريك ميرشيزون » خطاباً مؤثراً ، تعزية لأقارب سبيك ، ملأ بيرتون فراغ اجتماع الصباح ، بقراءة بحث فى « أصول الأجناس فى داهومى » .

وكان الذى وقع فعلا ، فى اليوم السابق ، أن سبيك انطلق إلى « نيستون بارك » — على ستة أو سبعة أميال من « باث » — بمجرد مبارحته القاعة ، فبلغها فى منتصف الساعة الثالثة ، وأقبل على صيد الحجول مع ابن خاله « جورج فوللر » ، وحارس للصيد يدعى « دانيل ديفز » . وسمعه هذان — خلال الساعة التالية — وهو يطلق النار من ماسورتى بندقيته ، وكانت من طراز غير مجهز بصمام أمان . وحوالى الساعة الرابعة مساء ، سمع فوللر — الذى كان على ستين ياردة منه — طلقاً ثالثاً ، عالياً جداً ، من بندقية « سبيك » . وتطلع فإذا « سبيك » واقف على جدار حجرى عرضه قدمان ، ثم سقط منه إلى الأرض ! . . . واندفع إليه فوللر فألفاه مستلقياً على الأرض وفى صدره جرح فظيع . وكانت إحدى ماسورتى بندقيته قد خلت من طلقتها ، بينما كانت طلقة الماسورة الثانية متأهبة ، وبدا أن سبيك جرّ بندقيته وراءه وهو يعتلى الجدار ، فانطلقت وهو ممسك بها ، وفوهتها جد قريبة من صدره .

وكان سبيك ما يزال محتفظاً بوعيه ، ولكن دمه كان ينزف بغزارة ، فبات من المستحيل تحريكه من مكانه . . . وقال بصوت واهن : « لا تحركنى ! » . . . وترك فوللر زميله حارس الصيد ، كى يعنى بالجريح ، وهرع ينشد إسعافاً ، ولكنه حين عاد مصطحباً مستر « سنو » ، أحد جراحى « بوكس » . . . كان سبيك قد مات !

ونقل الجثمان إلى بيت شقيق سبيك فى « كورشام » ، حيث أجرى تحقيق فى يوم ١٦ سبتمبر ، أمام محلفين « من وجهاء المكان » — علية أهل الريف الغربى بإنجلترا — وبعد أن أدلى فوللر وديفز والجراح بشهاداتهم ، وذكر الجراح أن فوهة البندقية كانت ولا بد جد قريبة من جسم المتوفى ، ألقى قاضى التحقيق خطاباً موجزاً بين فيه للمحلفين ما كان يرى أن يقضوا به . ثم أصدر المحلفون قراراً بالإجماع : أن المتوفى مات بطلقة عفوية من بندقيته .

وأفردت « التايمز » لسبيك – يوم الاثنين ١٩ سبتمبر ١٨٦٤ – مقالاً افتتاحياً نحت فيه إلى أن سبيك نجح فعلا فى كشف منبع النيل ، ولكنها – فى الوقت نفسه – لم تره كشفاً يعادل الاكتشافات التى كان المكتشفون « ستوارت » و « بيرك » و « ويلز » قد قاموا بها – قبل عهد قريب – فى أستراليا . . . وقالت فى هذا الصدد : لن نزعم لسبيك سبقاً على عبقرية « ستوارت » أو « بيرك » أو « ويلز » ، ولكنه كان كشفا لامعاً ، وكنا لذلك فخورين بالمغامر الجرىء . وقد ظفر بالمجد الذى ظل يكافح للاستحواذ عليه ، ضد زملاء آخرين لم يكن بوسعهم انتزاعه منه .

ثم أبدت « التايمز » آراء محددة عن كيفية وقوع الحادث : « وجدت بندقيته وإحدى ماسورتيها مفرغة ، وزناد الأخرى وشيك الانطلاق . لذلك فمن الواضح أنه ترك بندقيته متأهبة بينما اعتلى الجدار . ثم أمسك بماسورتيها وسحبها إليه وفوهتاها مصوبتان إلى جسمه . ولا بد أن أحد الزنادين ارتطم بحجر ، أو اشتبك بفرع شجرة ، فارتفع ثم هوى على سن الطلقة ! » . .

واختتمت الصحيفة مقالها بهذه العبارة : « وسينهى هذا الحادث التعس الجدل الذى كان كفيلا بأن يروق للجغرافيين فى " باث " » !

وتم الدفن فى كنيسة « دوليش ديلك » ، بقرب دار أسرة سبيك . وحضره ميرشيزون ، ولفينجستون ، وجرانت . وأقيمت نافذة ونصب تذكارى فى الكنيسة لتخليد ذكراه ، كما أقيمت فيما بعد – بحدائق « كنسينجتون » بلندن – مسلة من الجرانيت ، كتبت عليها هذه العبارة البسيطة : « لذكرى سبيك ، وفيكتوريا ، ونيانزا ، والنيل – سنة ١٨٦٤ » .

ولم يكن سبيك متزوجاً عندما توفى ، وهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين . ويحوط ذكراه إغفال غريب ، يلح على الذهن . ففى الوقت الذى يوقر فيه مكتشفون أقل منه شأناً ، نجده مهملا . وبينما تبدو شخصياتهم وانتصاراتهم بشكل واقعى جداً ، نجد أن ذكرى سبيك لا تكاد تزيد على مجرد اسم ، بل اسم لا يقترن فور ذكره بالنيل اقتراناً لا ينمحى ، كاقتران اسم « بيرتون » ببلاد العرب ، « ولفينجستون » بأفريقيا . ولبيرتون ولفينجستون من يعنون بكتابة سيرتيهما فى كل جيل تقريباً ، ولكن ما من كتاب ذى قيمة وُضع عن سبيك . كما لم تشبته فى

ذهن الرأى العام عبارة قالها — ولا حتى عبارة « استقر أمر النيل » — ولا شذوذ فى أخلاقه ، ولا غرابة فى سلوكه . فهو يظل مثالا للفضيلة ، رجلا مهتماً بشئون نفسه ، دؤوباً مثابراً ، حفيظاً على خير تقاليد الإقدام الإنجليزى . . . ومع ذلك فالمرء يؤثر عليه بيرتون .

ولا تزال حقيقة موت سبيك غامضة ، إذ أن هناك كثيرين يرون أنه آثر الانتحار على مواجهة بيرتون ، وإن لم تقم قرينة تؤيد ذلك . والواقع أن كل ما نعرفه عنه يحملنا على أن نرى أنه إذا كان قد فكر فى الانتحار لحظة ، فإنه ما كان ليقدم عليه إلا بعد صراعه مع غريمه ، وليس قبله . ومع ذلك ، فالشك باق . وكانت ثمة عودة غريبة للأمر فى سنة ١٩٢١ ، إذ كتب ابن خاله « جورج فوللر » إلى صحيفة « التايمز » يقول :

يحتوى مقالكم الطريف المنشور فى ١٩ الجارى عن « ريتشارد بيرتون » على فقرة كان بيرتون قد كتبها للمرحوم « و . فرانك ويلسون » جاء فيها :

« لن يعرف شىء قاطع عن موت سبيك : فقد رأيته فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، ولم تحن الرابعة حتى كان ميتاً . ويقول ذوو النوايا الطيبة إنه انتحر ، أما أصحاب النوايا الخبيثة فيقولون إنى قتلته » . . .

وهذه عينة من كثير من الأقوال التى صدرت عن ريتشارد بيرتون لتصوير بطولته ، والتى تمثل جموح خياله . وإنصافاً لصحيفة « التايمز » ولقرائكم ، اسمحوا لى بأن أصحح هذه النقاط المضللة التى أوردها كاتب الخطاب :

« إن سبب وفاة سبيك معروف تمام المعرفة فى التاريخ ، كما أثبت التحقيق الذى عقد فى هذا البيت بعد الوفاة ، إذ صدر الحكم بأنه "موت حدث قضاء وقدراً نتيجة انطلاق البندقية " . ولما كنت الشاهد العيان الحى لهذا الحادث المحزن ، فإنى أشهد بأن بيرتون لا يمكن أن يكون قد رأى سبيك فى ذلك اليوم ، وأن الوفاة حدثت قبل الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر !

٢٠ مارس سنة ١٩٢١ المخلص : ج ب . فوللر

نيستون بارك — كورشام — ويلتشاير

وهذا أمر بالغ الغرابة ، فقد أثبت فوللر نفسه – فى التحقيق – بأن الوفاة حدثت فى الساعة الرابعة ، ولا سبيل لشك يذكر فى أن بيرتون رأى سبيك فعلا حوالى الساعة الواحدة والنصف ، فى الاجتماع التمهيدى فى « باث » ، يوم ١٥ سبتمبر ١٨٦٤ . ولا يستنتج المرء من هذا سوى أن فوللر تأثر جداً لما نشر ، وأنه – فى سنة ١٩٢١ – كان قد طعن فى السن ، فخانته ذاكرته .

ولم تثر وفاة سبيك حسرة كبيرة فى إنجلترا ، بقدر ما أثارت شعوراً من الحيرة . على أن « التايمز » كانت مخطئة إذ قالت إن الجدل انتهى ، إذ أن معارضى سبيك اكتسبوا من موته قوة ، ولم يضيعوا وقتاً فى سبيل الإمعان فى تقليل أهمية رحلته العظيمة الأخيرة . أما جرانت فقد عاش حتى سنة ١٨٩٢ ، وأنعم عليه بزمالة فرسان « باث » [١] ، لا تقديراً على النيل ، وإنما لخدمة غير معروفة ، أداها فى الحبشة . ولقد أنعم على سبيك بميدالية الجمعية ، ولكن فترة من الزمن انقضت قبل أن تفطن الملكة فيكتوريا إلى أنه مات « قبل أن يتلقى أى تعبير عن رضانا الملكى » . وتقرر إصلاح ذلك ، فأشير على والد سبيك بأن يضيف تمساحاً وفرس بحر إلى شعاره الرسمى . وأقيمت على شلالات ريبون – فيما بعد – لوحة كتب عليها :

سبيك
اكتشف هذا المنبع للنيل
فى ٢٨ يوليو ١٨٦٢

ويلاحظ المرء أن العبارة كتب فيها « هذا المنبع » (بمعنى منبع واحد من منابع النيل) وليس « منبع النيل » أى المنبع الأوحد له . ولكن ، لم تعد للأمر أهمية تذكر الآن ، فلقد انغمرت شلالات ريبون تحت طيات سد لتوليد الكهرباء . . . وفى مكان ما من أعماق النهر العظيم ، اختفى إلى الأبد المكان الذى كان يحمل لوحة تخليد ذكرى سبيك !

---

(١) فرسان « باث » ، وسام يعزى إلى الملك هنرى الرابع ، الذى خلعه يوم تتويجه على ٤٦ فارساً . وفى عهد « جورج الأول » قصر عدد من يحملونه على ٣٧ فاساً زميلا . (المترجم)

الفصل الخامس

« بيكر » مرتاد النيل

من الواضح أن مسألة منابع النيل لم يكن مقدراً لها أن تنجلى بتكهن العلماء فى لندن ، فلا سبيل للجواب إلا فى أفريقيا نفسها . لذلك استقرت الآمال الكبرى للجغرافيين على « صمويل بيكر » وزوجته ، اللذين كانا قد رحلا من « جوندوكرو » متجهين نحو الجنوب ، فى مارس ١٩٦٣ ، عقب التقائهما بسبيك وجرانت . والمعروف أن سبيك كان قد صارحهما بالموقع العام لبحيرة « لوتا نزيجى » — التى كان من المحتمل أن تكون منبعاً ثانياً للنيل — فقررا البحث عنها .

ويعتبر « بيكر » نقطة ارتكاز فى ارتياد أفريقيا . فهو يقف فى الوسط من كافة النظريات ، والمشاعر ، والتصرفات الخلقية ، لا ينحرف كثيراً فى اتجاه دون آخر . وهو رجل عملى ، واقعى (دون أن يكون جامد العقل إطلاقاً) ، فهو يعرف تماماً ما الذى يريده ، وأين يتسنى له أن يجده . ولا يسع المرء إلا أن يشاركه شعوره بأن الأقدار تخوض معه حرباً لا تكافؤ فيها ، وأن كل الأمور لا بد أن تهدأ فى النهاية — مهما تقسو العوامل ضده — فيعود كل امرئ إلى التفكير الرصين المعقول . وهو — من بعض النواحى — يكاد يكون صورة كاريكاتورية لأصحاب المهن الحرة فى العصر « الفيكتورى » . . . فهو عضو النادى ، الحازم ، ذو السوالف الطويلة ، الثابت ثباتاً مطلقاً فى عاداته وعواطفه ، ولكنه صادق العزم — كذلك — على إرضاء نفسه . ومع هذا ، فهو رجل من الصعب تحديد نوعه : فقد يجوز لك أن تصفه بأنه نموذج بديع لحكام الأقاليم الهندية الإنجليز — فى أوج الاستعمار — الذين كانوا يولعون بالصيد والقنص ، ومع ذلك فهو يؤلف كتباً غاية فى الجودة ، كما أنه لغوى ضليع . . . وتجده عضواً مثرياً فى الطبقة الوسطى المؤلفة من التجار ، ومع ذلك فهو لا يشترك فى تجارة ما ، وإنما يسافر — فى الخارج — فى أكثر الرحلات مجازفة وجرأة . . . وهو ينشئ أسرة فيكتورية عديدة الأفراد ، فإذا ما ماتت زوجته تزوج من شقراء مجرية جميلة تصغره بخمسة عشر عاماً . . . وهو مزهو ،

محافظ ، عاطفى ، عنيد . . . ولكنك لا تجد فيه هذه الخصال فى أوقات أخرى . . . وفى غمرة هذا التناقض كله ، تجده غير متقلب ، فهو ثابت رزين ، مثل ربان الباخرة . ويقول ستانلى عنه إنه « رجل جليل وعاقل » ، كما يتحدث « جرانت » عن « كلامه الملىء بالحيوية » .

ولقد ولد بيكر فى سنة ١٨٢١ (أى فى نفس العام الذى ولد فيه بيرتون) ، من سلالة ربابنة بحريين ، وأصحاب مزارع فى المستعمرات . وكان والده غنيًّا ، يمتلك سفناً ويدير مصرفاً وشركة للسكك الحديدية . ولقد نشأ الابن أشقر الشعر ، أزرق العينين ، مشغوفاً بالصيد وارتياد المناطق الخلوية . فلما كبر أصبح عريض المنكبين ، متوسط الطول ، صلب العود ، متين العزم ، ذا لحية كثة . وقد أتم تعليمه فى ألمانيا ، ثم تزوج من ابنة قس إنجليزى ، وانطلق إلى أقصى بلدان العالم ، فلم يقدر له أن يعود إلى إنجلترا لفترات طويلة ، حتى نهاية عمره . وقد أنشأ مجلة زراعية فى « سيلان » ذات مرة ، وعمل مديراً للإنشاءات فى شركة للسكك الحديدية بحوض الدانوب مرة أخرى ، ولكن الشغف بصيد الوحوش هو الذى كان يحدوه فى تنقلاته ، فاصطاد الفيلة فى سيلان ، والدببة فى البلقان . وفى أوائل الستينات من القرن التاسع عشر ، ذهب إلى أفريقيا مع زوجته الثانية ، الشابة الحسناء (بعد أن ترك أولاده الأربعة من زواجه الأول ، مع أقرباء له فى إنجلترا) كى يتبين ما فى أحراش السودان من حيوانات تغرى بالصيد . كما كان لديه غرض آخر ، إذ فكر فى أن يضيف إلى الصيد شيئاً من الاستكشاف . فلماذا لا يقوم برحلة فى مجرى النيل ، بل بحملة تفضى به إلى منبع النهر بالذات ؟

وتأهب للرحلة بدقة شاملة بالغة ، كعادته فى كل رحلاته . وقرر أن يقضى — بادئ الأمر — عاماً فى السودان ، متتبعاً روافد النيل إلى الحدود الحبشية ، ومتعلماً اللغة العربية أثناء ذلك . ثم نراه يؤلف حملته فى الخرطوم ، ويرتاد النيل الأبيض بمفرده . وقد أنصف نفسه فى تزوده بالأطعمة الطريفة ، وببطارية من المدافع صنعها أكبر صناع المدافع بلندن طبقاً لمواصفاته الخاصة ، وبخير معدات المعسكرات والأدوات العلمية . فكان نوعاً جديداً من الرحالة ، نظراً لثرائه ، ولأنه كان غير مرتبط بالحكومة ، ولا الكنيسة ، ولا الجمعيات العلمية ،

فلم يتلق تعليمات من أحد ، بل كان يسافر إرضاء لنفسه . ومع ذلك فلم يطأ أرض أفريقيا مرتاد يفوقه دقة . وقد نفذ الجزء الأول من برنامجه بحذافيره ، فبعد أكثر من عام بقليل ، منذ قيامه من القاهرة ، وصل إلى الخرطوم وقد أتقن العربية إلى درجة طيبة جداً ، واصطاد عدداً كبيراً من الوحوش عند أعالى نهر عطبرة ، وكان يراسل « بثريلك » ، وبدعوة من هذا ، نزل مع زوجته بمبنى القنصلية البريطانية الخالى ، بالخرطوم .

وفى الستينات من القرن التاسع عشر ، كان قد مضى على نشأة مدينة الخرطوم أكثر من أربعين عاماً ، فأخذت تنمو — كزنجبار — بطريقة غريبة وجامحة . والواقع أن هاتين المدينتين استأثرتا فيما بينهما بالقسط الأكبر من تجارة الرقيق والعاج فى أفريقيا الشرقية ، فكانت كافة قوافل الجنوب تضرب فى الجنوب الشرقى إلى المحيط الهندى ، وقوافل الشمال تنحدر مع النيل إلى الخرطوم . وكان المصريون يحكمون السودان من الخرطوم بطريقة طابعها الفوضى والتخبط [1] . فكان كل موظف — من الحاكم العام « موسى باشا » إلى أدنى موظف — على صلة ما بتجارة الرقيق . وكانت الحامية المؤلفة من ١٥,٠٠٠ جندى مصرى ونوبى تعيش كما يعيش جيش احتلال ، بل تفوق جيش الاحتلال استهتاراً وفوضى . فكانت مهمتها الأساسية تحصيل الضرائب التى كانت تجبى « عينية » من الأهالى ، إما باستخدام السوط ، أو بالإغارات المسلحة على الماشية ومخازن الغلال فى القرى .

ولقد كره بيكر وزوجته الخرطوم لأول وهلة ، فكتب بيكر يصفها : « لا يكاد المرء يتصور مكاناً أتعس ، ولا أزرى ، ولا أكثر إساءة للصحة منها ! » . ولم يكن وراء النهر سوى صحراء قاحلة ، بينما كان يقيم فى المدينة حوالى ٣٠,٠٠٠ نسمة ، متزاحمين فى أكواخ من الطوب المحروق ، يعدو عليها الفيضان أحياناً . وكانت

---

(١) عجيب أن يصر المؤلفون الأجانب — لاسيما الإنجليز — على أن الذى كان يرتكب هذه الفظائع فى السودان حكم « مصرى » ، مع أن مصر نفسها كانت إذ ذاك تعانى الأهوال نفسها من الحكم العثمانى ، وحكم أسرة محمد على بالذات . ومع ذلك ، فإن استهتار وفوضى ما يسميه المؤلف « جيش الاحتلال » ، لا يختلف كثيراً عن أحداث لا تزال حية فى التاريخ ، برغم أنها ارتكبت بعد حوالى قرن من الزمن ، و باسم « تحضير » الدول ، منها السخرة التى فرضها الإنجليز فى مصر — خلال الحرب العالمية الأولى — حين كانوا يسوقون المصريين قسراً للعمل فى الحملة الفلسطينية . . ثم مفاسد الانتداب والاستعمار الفرنسيين فى سوريا والجزائر ، وما لا تزال آثاره باقية إلى اليوم فى الكونجو من مساوىء الاستعمار البلجيكى . . إلخ

(المترجم)

الحيوانات النافقة ملقاة فى الشوارع ، الخالية من المجارى ، ولا مورد للشرب إلا الماء الملوث بالطين يرفع من النهر بالسواقى الفارسية التى تعلق فيها الجرار ، وتديرها الثيران . وكانت ثمة ضريبة مفروضة على كل ساقية ، ولا سبيل لإنجاز شيء فى المدينة إلا بالرشوة . . . كما كان التعذيب والجلد من الإجراءات العادية فى السجون . أما موسى باشا نفسه ، فكان يجمع بين « أبشع النقائص الشرقية ، وضراوة الوحش » وكان الحر — فى معظم العام — خانقاً ، فإذا هبت رياح « الهبوب » ، ملأت الرمال السماء فأظلمت كالليل !

ومع ذلك ، فقد كانت الخرطوم — فى ذلك الوقت — فاتنة ... « كان الهواء مليئاً بالعجب » . إذ أنها كانت آخر نقاط المدنية —تقريباً — على حافة برية شاسعة لم تكن قد بدأت بعد تكشف عما تحتوى من كنوز وأهوال لا حد لها . فكانت كل قافلة تنطلق منها ، بمثابة استكشاف ، وكل مركب يعود على النيل يحمل معه شيئاً من الظواهر الغريبة التى تتمثل فى حيوانات وطيور — لم تكن أنواعها قد حددت بعد — ورجال قبائل وحشيين تتدلى من شفاههم وآذانهم وأنوفهم حلى عجيبة ، ونباتات وزهور أنتجت عقاقير وعطوراً جديدة ، وأحجار كان من المحتمل أن تحتوى على فضة . وكانت تجارة العاج وحدها تصل إلى ٤٠,٠٠٠ جنيه سنوياً .

وكان سكان الخرطوم — عدا الأفريقيين — يتألفون فى الأغلب من سوريين ، ويونانيين ، وأرمن ، وأتراك ، وعرب ، ومصريين [١] . وكان كثير من ، هؤلاء قد اتخذوا لأنفسهم زوجات ومحظيات من فتيات « الجالا » الحبشيات ، حسان تلك البلاد . كذلك كان يعيش فى المدينة حوالى ثلاثين أوربياً . ولم تكن الحياة أقسى مما يحتملون ، فقد كانت لهم بيوت أفضل وألطف جواً من المستوى العادى ، وكانت الإبل تحمل لهم بريداً شهرياً يربطهم بالعالم الخارجى ، كما كانت كثير من المرفهات كالخمور ، والبيرة ، والبسكويت الفرنسى ، والصابون ، والعطور ، تجتلب لهم عبر الصحراء . وكان كبار الأتراك والمصريين المحليين يحبون إقامة ولائم كبيرة فخمة ، تنتهى عادة برقص تقدمه فتيات أفريقيات .

---

(١) يلاحظ أن المصريين كانوا أقل الطوائف استغلالا ، إذ أوردهم الكاتب متأخرين عن سواهم . (المترجم)

على أن تجارة الرقيق كانت مصدر عيش للخرطوم . كان بوسع أى مغامر معدم أن يصبح نخاساً إذا كان على استعداد لأن يقترض المال اللازم بفائدة تصل إلى ثمانين فى المائة ! . . فكان مثل هذا التاجر يبرح الخرطوم فى حملة عادية إلى الجنوب — فى شهر ديسمبر — مصطحباً ٢٠٠ أو ٣٠٠ رجل مسلح ، فيحط فى مكان مناسب ، ويعقد تحالفاً مع زعيم محلى ، فلا يلبث أبناء قبيلة الزعيم أن ينقضوا مع البعثة الوافدة من الخرطوم على إحدى القرى المجاورة ، تحت جنح الظلام ، فيشعلون النار فى الأكواخ قبيل الفجر ، ويطلقون الرصاص خلال اللهب . وكانت النسوة هن البغية الأولى للنخاسين ، ثم يشمل النهب كل ما فى القرية من ماشية وعاج وغلال . بل إن الحلى الخام كانت تنزع عن رؤوس الموتى من الضحايا . ثم يساق الموكب إلى النهر ، انتظاراً لشحنه إلى الخرطوم . وكان النخاسون يبتاعون العاج مع الماشية المسروقة ، وقد يقبلون العاج أحياناً فدية لعتق أحد العبيد . كذلك كان النخاس ينقلب أحياناً على حليفه وينهبه كما فعل بغيره ، ولكن الأغلب أن هذه الأحلاف كانت تصان عاماً بعد عام ، فيجمع زعيم القبيلة ذخيرة جديدة من الرقيق والعاج ، بينما يكون النخاس منهمكاً فى تصريف الشحنة السابقة فى الخرطوم . وكان لكل نخاس منطقة ، فقد اقتسم النخاسون — باتفاق مشترك — البلاد من الخرطوم حتى جوند وكرو وما بعدها .

وكان للنخاس الصغير أن يطمئن إلى الحصول على ٢,٠٠٠ رطل من العاج ، تساوى فى الخرطوم ٤٠٠٠ جنيه ، بجانب ٤٠٠ أو ٥٠٠ عبد ، قيمة الواحد منهم خمسة جنيهات أو ستة ، فيخرج بمجموع قد يبلغ ٦٥٠٠ جنيه . وبهذا المبلغ يدفع ديونه ، ويعد حملة جديدة ، ويوسع تجارته عاماً بعد عام !

ولم تكن النخاسة مشروعة رسمياً ، ولكن الأثر الوحيد لهذا هو أن الرقيق لم يكن يباع فى الخرطوم علناً ، بل كان يصرف فى نقاط محددة للقاء فى الصحراء ، خارج المدينة ، ثم يساق على طرق القوافل إلى البحر الأحمر ، ليشحن إلى جزيرة العرب أو فارس ، أو ليرسل على النيل مباشرة إلى القاهرة .

ولعل التاريخ لم يشهد أبشع ولا أقسى من هذه التجارة المهرَّبة ، إذ كانت أرقى تنظيماً من النخاسة فى تنجانيقا . ويسجل « بيكر » الحقائق الفظيعة بهدوء تقريرى

مؤثر ، ولكنه — على غرار بيرتون ، وعلى نقيض سبيك — لم يكن يميل للأفريقيين ، ولم يكن ذا إيمان أعمى بالتحرير العاجل للرقيق . وقد كتب فى ذلك : « مهما يكن استنكارنا لنظام الاسترقاق الرهيب ، فإن نتائج التحرير أثبتت أن الزنجى لا يقدر نعمة الحرية ، ولا يبدى أتفه مشاعر الحمد لليد التى تحطم أقفال أغلاله » . وكان « بيكر » يرى أن الأفريقيين لم يكونوا ، ولا يملكون أن يكونوا ، مساوين للبيض . وأقصى ما سلم به هو أن الزنجى « قد يكون فى طفولته متفوقاً — فى سرعة النمو الذهنى — على الطفل الأبيض الذى يماثله سناً ، ولكن العقل لا يمضى فى نموه . . . فهو يبشر بالازدهار ، ولكنه لا ينضج .. » وفيما عدا هذا ، فإنه يهاجم الأفريقيين لهمجيتهم ، ووحشيتهم ، وعاداتهم القبائلية . . . ولاسيما حين عرض أحد زعماء « نوير » زوجته وقد ملأت الجراح ظهرها وذراعيها ، فخوراً بأنه قد أنشب فيها أظافره كالوحوش ! ويستطرد قائلا : « . . . وتعدد الزوجات هو التقليد العام طبعاً ، فعدد زوجات الرجل يتوقف على ثروته . . . تماماً كما يتوقف عدد الخيل على ثروة المقتنى فى إنجلترا . فليس فى هذه البلاد شىء يسمى " الحب " . . . وتقدر النساء كما تقدر الحيوانات الثمينة . . »

ولقد تعرض « بيكر » — فيما بعد — لانتقاد شديد فى إنجلترا ، من جراء هذه الآراء ، ولقسوة معاملته للعشائر . ولكن هذا لا يعدو أن يكون مثالا آخر للاتزان الرصين ، ففى عين الوقت الذى تعرض فيه للانتقاد ، كان — على الأرجح — يعمل لتحطيم تجارة العبيد بطريقة عملية ، أكثر مما عمل أى رجل آخر فى أفريقيا . على أن هذا حدث فى تاريخ لاحق ، أما فى اللحظة التى نكتب عنها ، فقد كان لتجارة الرقيق لديه أهمية شخصية ، إذ أنها أهاجت القبائل — جنوب الخرطوم — وأثارت ضغائنها ، حتى إن البلاد كلها كانت مهتاجة ، مما جعل من الخطر لأى رحالة غير رسمى أن يتوغل دون حراسة مسلحة كبيرة . وكانت هناك عقبة أخطر ، فإن المسئولين المصريين فى الخرطوم ، لم يكونوا تواقين إطلاقاً لرؤية رجل أبيض يحوم حول مناطق الرقيق وهى مصدر ربح لهم . وما كانوا يريدون أى متطفل يطلع العالم الخارجى على نشاطهم . لهذا بذل « موسى باشا » قصارى جهده ليمنع « بيكر » من التوغل ، ومنع عنه القوارب وسعى للحيلولة دون استئجار حراس للحملة ، وراح يبتسم ويسوّف . ولكن صد « بيكر » عن غايته كان يتطلب عزماً يفوق

ما كان لموسى باشا بمراحل . وما إن وصلت الحملة إلى الخرطوم – فى يونيو ١٨٦٢ – حتى تبينت أن ثمة سبباً جديداً وعاجلا لكى تواصل توغلها ، إذ ورد نبأ بأن « بثريك » وزوجته – وكانا قد اتجها جنوباً قبل أشهر – قد توفيا ، فسألت الجمعية الجغرافية الملكية بيكر أن يحل محل « بثريك » فى البحث عن سبيك وجرانت اللذين كانا مفقودين منذ أكثر من عام . وتقبل بيكر المهمة لفوره ، وقرر – فى نفسه – أن يمضى لاكتشاف منبع النيل ، إذا كان الرحالتان قد هلكا – هما الآخران – أو أخفقا .

وبعد جهد دائب فى الخرطوم – استغرق ستة أشهر – حصل على ثلاث سفن شراعية ، وستة وتسعين رجلا ، بعضهم مسلحون وفى زى رسمى ، ومؤن لأربعة أشهر ، واثنين وعشرين حماراً ، وأربعة جمال ، وأربعة جياد ، كما انضم إليه رحالة ألمانى – يدعى « يوهان شميت » – صادفه فى السودان . وأقلعت الحملة فى ١٨ ديسمبر ١٨٦٢ إلى جوندوكرو .

والنيل نهر معقد فى جنوب الخرطوم . فهو يجرى ٥٠٠ ميل خلال الصحراء فى مجرى واسع ومنتظم تقريباً ، تحف به بين حين وآخر أشجار وتلال منخفضة جرداء . ولكن النهر ينحرف غرباً عند نقطة التقائه بالسوباط القادم من جبال الحبشة – شمال مدينة « ملاكال » الحالية بقليل – ويزداد الهواء رطوبة ، والضفاف خضرة ، وهذا أول إنذار بعقبة « السدود » الكبرى . فليس فى الدنيا مستنقعات أشد استعصاء من « السدود » . إذ يتوه النيل فى بحر واسع من نبات البردى والخضر الضارة . وفى هذه الحرارة المساعدة على النضوج ، توجد أصول أحياء لم تكن تملك أن تتطور تطوراً يذكر منذ بداية الدنيا ، فهى فى بداوة الإنسان الأول وروحه العدوانية . فالتماسيح وأفراس البحر تخوض فى الماء الموحل ، والبعوض والحشرات الأخرى تثقل الهواء ، وطيور الماء الغريبة الخلقة تحرس الشطآن . . . وإن لم تكن ثمة شطآن عادية فى بعض الأماكن ، وإنما مجرد برك عارضة فى غابة من البوص الأخضر تمتد ككتلة من الريش المنفوش إلى الأفق . وليست هذه المنطقة براً ، ولا هى ماء ، والتيار يحمل إليها – عاماً بعد عام – مزيداً من النباتات الطافية ، فيراكمها فى كتل متماسكة قد يصل سمكها إلى عشرين قدماً ، ويبلغ من متانتها أن يسير فوقها الفيل . على أن هذه الركامات تنفصل إلى جزر فى أماكن أخرى ،

ويتكرر هذا — باستمرار لاينتهى — فى آلاف الأشكال التى لايسهل تمييزها .

ويلاحظ « بيكر » أنه لا توجد فى أعالى النيل أطلال أو مخلفات لحضارات ماضية . « فلا تواريخ قديمة تفتن الحاضر بذكريات الماضى ، بل كل شىء همجى وحشى قاس ، بلا شعور . . . » ، وكان هذا يسبب قلقاً فطرياً فى نفوس البيض الذين نفذوا إلى السودان الجنوبى ، وشعوراً بأنهم فى بطاح لم تتقدم فيها الحياة قط ، وإنما هى تدور حول نفسها فى حلقة لا زمن لها ولا غاية (مثلما كانت أستراليا فى بداية القرن التاسع عشر ، بل ربما أكثر منها عداء للدخيل !) . ولقد تضاعفت هذه التأثيرات عند « السدود » . فهنا تلاشى حتى الحاضر ، فضلا عن الماضى . فما من بشر ، ولو من أشد الناس وحشية ، عاشوا — أو كانوا يملكون أن يعيشوا — يوماً فى هذه المفازات الموحشة من البوص الطافى المتراكم ، والرشح ، اللهم إلا فى جزر متباعدة من الأرض الصلبة . وفى هذه المنطقة تزدهر أدنى أشكال الأحياء بكثرة زاخرة ، ولكن « السدود » لا تأوى — للسود والبيض على السواء — سوى الجوع ، والمرض ، والموت . وهى تشمل ، فى فصل الأمطار ، مساحة تعادل مساحة إنجلترا .

وكانت تتخلل « السدود » ثلاثة مسالك مائية رئيسية ، قد تسد كلها أو أى منها فى أى وقت . فبعد حوالى ستين ميلا من « ملاكال » ينفصل « بحر الزراف » متجها إلى الجنوب . ثم — وبعد خمسين ميلا أخرى — تمتد صفحة من الماء لا بأس بحجمها ، تعرف باسم « بحيرة نو » . وهنا ينشطر المجرى ، فيتجه شطر فى اتجاه جنوبى غربى ، وهو « بحر الغزال » ، بينما يستمر الآخر (بحر الجبل) متجهاً إلى الجنوب مباشرة . وقد كان بحر الجبل هو المجرى الوحيد الذى يستخدمه التجار ، فيخلصون من « السدود » على بعد حوالى ٥٠٠ ميل جنوب بحيرة « نو » ، ويصلون إلى « جوندوكرو » . وكانوا إذا أسعفهم الحظ — ممثلا فى الريح المواتية ، والقدرة على شق طريقهم خلال النباتات المتشابكة — يتمون رحلتهم من الخرطوم فى حوالى شهر ونصف الشهر .

ولقد كانوا يعجزون عن مواصلة السفر على الماء بعد « جوندوكرو » ، إذ تعترض النيل جنادل تستمر بلا انقطاع زهاء ثمانية أميال ، ولهذا أصبحت

جوندوكرو المستودع الرئيسى فى الداخل ، بالرغم من أنها لم تكن أكثر من مجموعة من الأكواخ تمتد على الضفة الشرقية ، على ارتفاع خمس وعشرين قدماً من مستوى النهر . وكان قد انقضى على قيامها حوالى عشرين عاماً — فى الستينات من القرن التاسع عشر — وأنشئت فيها إرسالية رومانية كاثوليكية نمسوية منذ سنة ١٨٥١ ، على أن الأمور انتهت فيها نهاية محزنة ، فمن بين عشرين مبشراً أوفدوا ، كان ١٥ يموتون ، دون أن تفلح الإرسالية فى تنصير فرد واحد .

ولم يوفق إلى التوغل بعد جوندوكرو ، من تجار الرقيق والعاج ، سوى نفر ضئيل ، لأنهم كانوا ينهبون ما يقع على خط سيرهم ، فأثاروا القبائل ضدهم . واستطاع قلة — مثل « أندريا دى بونو » المالطى ، وعميله « محمد ود الماك » ، الذى التقى بسبيك وجرانت — أن يمضوا قليلا بعد حدود « أوجندا » الحالية ، عند « نيمولى » . وقد عمد أحد المرتادين الأوائل — وهو « جيوفانى ميانى » الإيطالى — إلى حفر الحرفين الأولين من اسمه على شجرة تمر هندى هناك قبل عودته . ولكن المنطقة التى تلى نيمولى ، والجزء الأقصى من مجرى النهر ، لم تكن — بوجه عام — معروفة . وقد قرر بيكر أن ينفذ إليها ، بحثاً عن سبيك وجرانت .

وكانت منطقة السدود — فى ذلك العام — صافية ، فقطع أسطول بيكر الصغير الأميال الألف — من الخرطوم إلى جوندوكرو — فى أربعين يوماً . ومات « يوهان شميت» فى الطريق ، وسقط غيره مرضى ، وعانت الحملة كلها — آدميوها وحيواناتها على السواء — أشد العناء من البعوض . ويقول بيكر أن جوندوكرو كانت « جحيماً حقيقيًّا » ، فكأنها معسكر للباحثين عن الذهب ، ضم ٦٠٠ من التجار ورجالهم ، لا يكفون عن السكر ، والشجار ، وإطلاق بنادقهم فى الهواء تهوساً . ومع ذلك ، فإنها كانت استراحة لفترة وجيزة. ولم يكن بيكر وزوجته قد قضيا فيها أسبوعين ، عندما وصل سبيك وجرانت من (بنيورو) . ويخفى بيكر ببراعة — فى روايته لذلك اللقاء — استياءه عندما سمع بأنهما وصلا إلى منبع النيل : « اعتبرت — فى فرحة اللقاء الأولى — أن حملتى انتهت . . . ولكن سبيك وجرانت أعطيانى فى طيبة وكرم ممتازين ، خريطة لطريقهما ، تبين أنهما لم يستطيعا إتمام الكشف الواقعى للنيل ، وأن جزءاً عظيم الأهمية بقى غير محدد . . . وهو بحيرة كبيرة تدعى : لوتا نزيجى » .

وسرعان ما انطلق بيكر ورجاله إلى البحيرة ، عقب اتجاه سبيك وجرانت إلى الخرطوم . وكتاب « ألبرت نيانزا : حوض النيل الكبير » — الذى يروى فيه بيكر طوافه فى العامين التاليين — هو أكثر كتب المكتشفين رواجاً . فهو يتضمن بحق ، عناصر كل قصص المغامرات الأفريقية التى كتبت منذ ذلك العهد ، تقريباً (لا سيما قصص البطل الرحالة « ألان كوارتزمين » ، بقبعته ذات الحافة العريضة ، وهو يخترق الأدغال ، وفى ذراعه فتاة حسناء ، وهما يواجهان كل عقبة بعزيمة هائلة !) . وقياساً على تلك القصص ، عندما كانت تهجم الوحوش الضارية ، كان « بيكر » يوقفها برمايته التى لا تخيب . وهو فى بداية الرحلة يخمد تمرداً بين رجاله بأن يضرب زعيم المتمردين بقبضته . ثم تموت دوابهم — أثناء تقدمهم — فيضطرون لركوب الثيران ، وتنضب مؤنهم فينحدرون إلى أكل الأعشاب وتصرعهم الحمى أياماً وأسابيع ، ويضللهم الأدلاء الغشاشون ، وتقلب أفراس البحر سفنهم ، ويمكر بهم النخاسون ، وتهاجمهم القبائل بسهام مسمومة ، ولايغيب عن أعينهم وآذانهم قط قرع الطبول والرقص الوحشى . ولم تجفل مسز بيكر قط من كل هذا ، فحين تسمع خطى تقترب مسترقة من كوخها فى الليل ، تمس كم زوجها برفق ، فيبادر إلى مسدسه لمقابلة المتسلل . وعندما يبلل الطل الكثيف ثيابها الفيكتورية ، أو تنزلق فتقع أرضاً ، لا تحجم عن ارتداء ثياب الرجال ! . . إلخ .

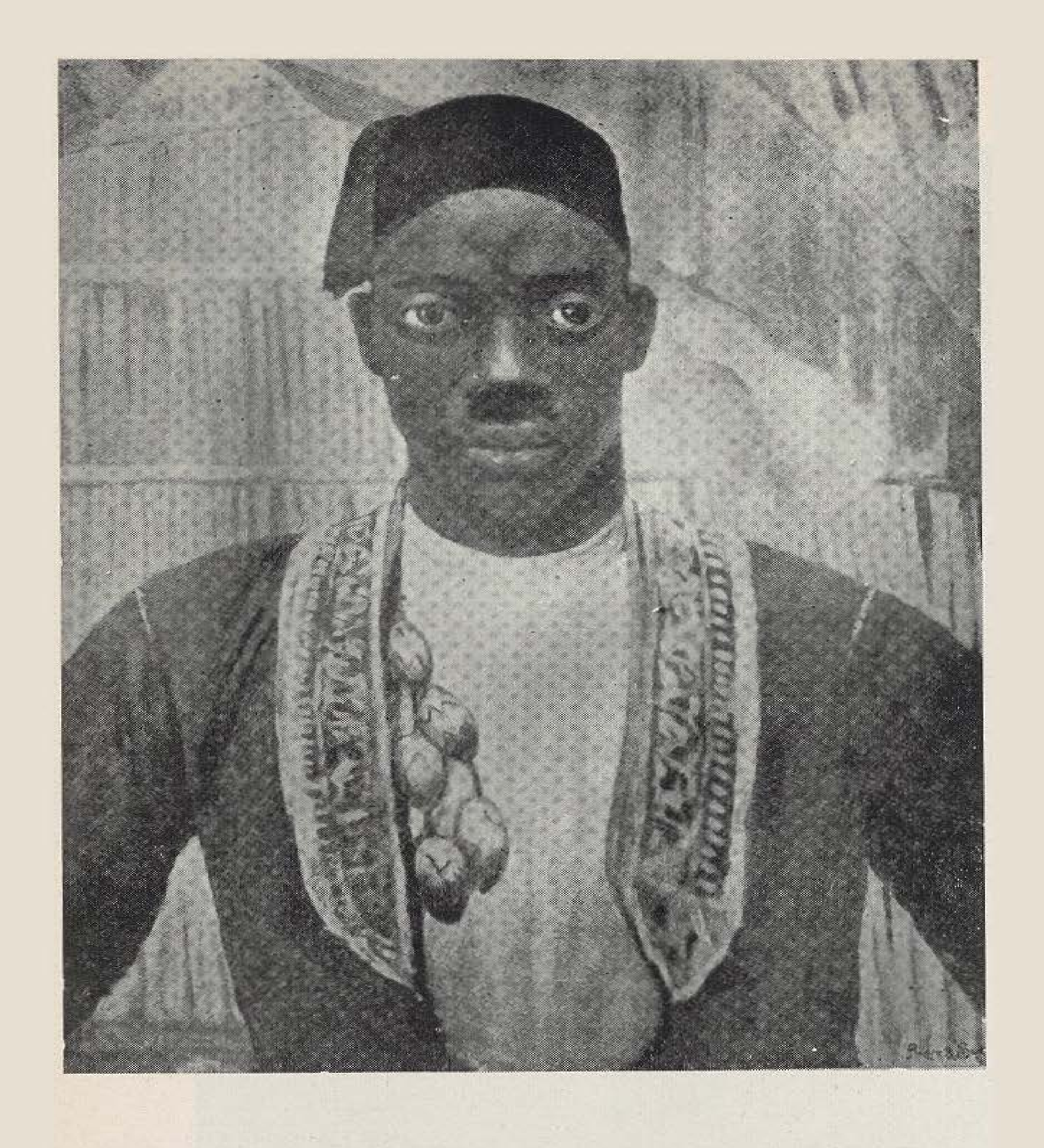
وظلوا تسعة أشهر يهيمون على غير هدى ، أو يتعطلون فى قرى الأهالى — إلى الجنوب الشرقى من جوندوكرو — عاجزين عن التقدم ، لنقص حماليهم . وكانت غايتهم الأولى أن يبلغوا مقر « كامرازى » ملك « بنيورو » الذى التقى به سبيك وجرانت وهما يسعيان إلى الشمال . ولكن « كامرازى » كان بعد فى حرب مع أخيه « ريونجا » ، فأخذ يقعدهم عن التقدم . وظلوا طيلة الوقت فى البرية ، على مرحلة من « لوتا نزيجى » لا تكاد تستغرق أسبوعين ، دون أن يتمكنوا من أن يتحركوا مقتربين منها . ولقد أدهش الأفريقيين إصرارهم على الرغبة فى بلوغ البحيرة. فقال لهم « كومورو » — أحد صغار الزعماء الذين نزلت عندهم بعثة بيكر — يوماً : « هب أنكم بلغتم البحيرة ، فماذا تفعلون بذلك ؟ ما جدواه ؟ وماذا بعد أن تجدوا ذلك النهر الكبير الذى ينساب منها ؟ »

ويبدو أن « كومورو » كان حلو المعشر ، وكانت له آراء تقوم على سخرية بالحياة ، وإيمان بالجبرية . وقد قال لبيكر : « معظم الناس أشرار . . . فهم إذا كانوا أقوياء أخذوا من الضعيف ! . . . وكل الخيرين ضعفاء ، فهم أهل خير لأنهم لا يقوون على أن يكونوا أشراراً » !

وكانت الحياة قد أصبحت تبدو لبيكر وزوجته — فى تلك الأثناء — بغيضة إلى أبعد حد . فقد كانا يعانيان أسوأ معاناة من الملاريا ، حتى إن مسز بيكر كانت تُحمل على محفة فى بعض الأيام . وأخيراً ، وصلا إلى النيل — فى ٢٢ يناير عام ١٨٦٤ — فى صحبة نخاس يدعى « إبراهيم » ، وكان وصولهم فى نقطة تقع على مقربة من مساقط كاروما ، حيث ينحرف النهر غرباً ، وأصبحوا على حدود بنيورو ، فرحب بهم أتباع « كامرازى » من ضفة النهر المقابلة ، وزعم لهم مترجم بيكر أنه « أخ سبياك » ، وقد أقبل بهدايا ثمينة لكامرازى . ولكن رجال القبائل خشرا أن تكون هذه حملة لاقتناص العبيد ، ومع أنهم اقتربوا بقاربهم من الشاطئ ، فإنهم رفضوا الهبوط إلى البر . ويصف بيكر المنظر :

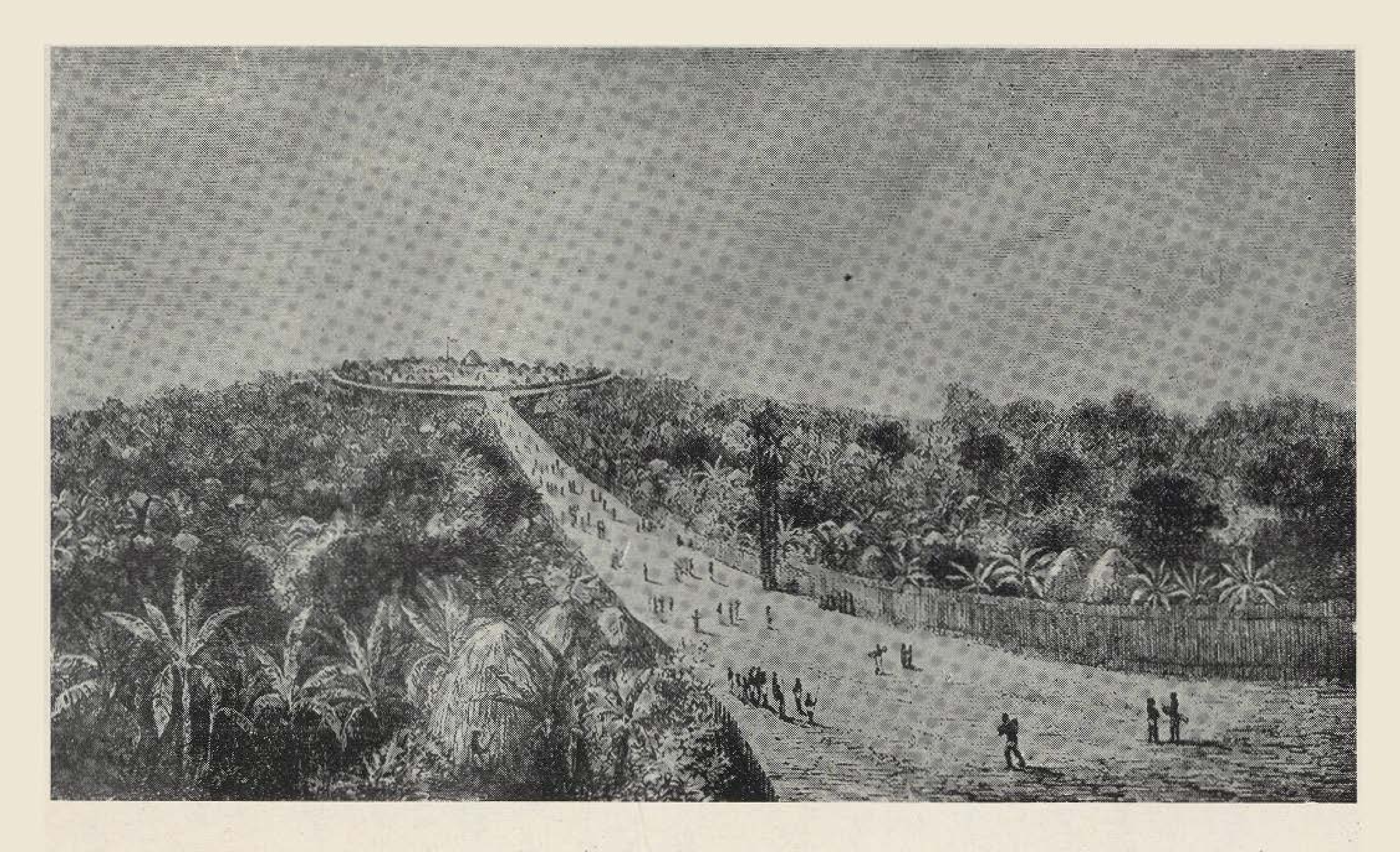
صاح رئيس من كانوا بالقارب : « دعونا نتأمله » . وكنت قد تأهبت للمقابلة ، فاستبدلت ثيابى فى دغل من شجر الموز ، وارتديت حلة من الصوف تشبه تلك التى كان « سبيك » يرتديها . وارتقيت صخرة عالية شبه عمودية ، أشبه بشرفة طبيعية على وجه التل ، ولوحت بقلنسوتى للقوم الذين على الضفة المقابلة ، مما أكسبنى وقع تمثال « نيلسون » فى ميدان « ترافلجار » بلندن . . . وإذ هبطت خلال أعراد البوص العالية ، أدركوا لفورهم تشابه لحيتى وملامحى عامة بلحية « سبياك » وملامحه ، فتمثل ترحيبهم على الفور فى أحمى رقص ، وتلويح بالرماح والدروع ، وكأنهم يهمون بالهجوم ، مندفعين نحوى وسنان رماحهم تقترب من وجهى ، صائحين ومنشدين فى انفعال عظيم .

وأخيراً ، أتيح لجماعة بيكر — وكانوا ١١٠ أفراد — عبور النهر. وأثارت مسز بيكر المشاعر ، إذ اختارت هذه اللحظة بالذات لتغسل شعرها ، فاجتمع رجال القبيلة وعائلاتهم مأخوذين بمرأى الجدائل الذهبية الطويلة التى تبلغ



« موتيسا » — ملك بوجندا

عن رسم بريشة مسز ستانلي ، نقلا عن
صورة التقطها ستانلي .



« روباجا » — عاصمة موتيسا

عن كتاب « فى القارة المظلمة » لستانلى — سنة ١٨٧٨ .

خاصرتها ؟ . . . وأعقبت ذلك محادثات مملة قبل أن يوافق الزعماء على أن يقودوا الجماعة إلى مقر « كامرازى » ، على مسيرة عشرة أيام إلى الجنوب ، عند « مرولى» ، على رأس بحيرة كيوجا . وما إن بلغوا غايتهم حتى كان المرض والضعف قد برحا ببيكر ، فمثل أمام الملك محمولا على محفة وضعت عند قدميه ، كأن بيكر صيد ! . . . وكان كامرازى محوطاً بأعوانه من الزعماء ، وقد جلس على مقعد نحاسى — بدون مسند — على بساط من جلد النمر ، فراح يتفحص ضيفه العاجز برزانة ، ثم قال إنه خشى كل الخشية أن يكون بيكر حليفاً لعدوه « ريونجا » وقد جاء ليغدر ببلده . وها قد تبين أنه شقيق سبيك . . . مجرد رحالة آخر نضبت موارده ، ولا يملك — من فرط ضعفه — أن يسىء . وإذ اطمأن الملك ، شرع فى عملية طلب الهدايا كالعادة : بنادق صيد ، وخرز ، وأبسطة ، وأقمشة ، وكل ما يستطيع أن ينال ، كما أصر على أن يصلح بيكر « الكرونومتر » الذهبى الذى أعطاه سبيك إياه سنة ١٨٦٢ ، والذى توقف بعد أن عبث فى تروسه بإبرة ، ليتبين مصدر الدقات !

وكانت فترة عصيبة لجماعة بيكر . فالمطر يتدفق ، وبيكر يتعرض يومياً لنوبة عنيفة من نوبات الملاريا ، وقد استنفد كل ما حمل من عقار الـ « كينين » ، فراح يسأل « كامرازى » — المرة تلو الأخرى — أن يمده بحمالين ودليل ، ليسعى إلى البحيرة الغامضة فى الغرب ، ولكنه كان يقابَل دائماً بطلب مزيد من الهدايا . وقد كتب فى يومياته : « سنظل مشدودين إلى هذا المكان الذى لا يطاق عاماً آخر ، ونحن مرضى ، مفتقرون إلى الأدوية والثياب والمؤن » !

وحانت الأزمة فى فبراير سنة ١٨٦٤ ، فقد أعلن كامرازى أن لبيكر أن يذهب للبحيرة ، على أن تبقى زوجته الحسناء مسز بيكر ، فهو مستعد لأن يمد بيكر بعذراء مليحة من « بنيورو » ، فى مقابلها ! وإذ ذاك أشهر بيكر مسدسه مصوباً إياه نحو صدر « كامرازى » ، قائلا إنه سيرديه ! . . وفى الوقت ذاته نهضت مسز بيكر من فراش المرض ، فانقضت على الملك وانهالت عليه بغضب مهتاج ، فنزل كامرازى عن موقفه . وفى اليوم التالى حصل بيكر على حمالين ودليل ، وانطلقوا نحو غاية مغامرتهم الكبرى . ولكنهم لم يمضوا بعيداً حتى عاقتهم المستنقعات والنباتات

المتشابكة عند نهر « كافو » ، إلى الجنوب الغربى من « مورلى » . وقد كتب بيكر ، فيما بعد :

« كذلك كان من المستحيل أن يركب المرء أو ينتقل محمولا على سطح الماء الغادر . لهذا تقدمت ، وسألت مسز بيكر أن تتبعنى على الأقدام بأسرع ما تستطيع ، ملتزمة خط سيرى . وكان اتساع النهر حوالى ثمانين ياردة . وإذ أوشكت أن أتم ربع المسافة ، التفت خلفى لأتبين ما إذا كانت زوجتى تتبعنى ، وإذا بى أجزع إذ رأيتها واقفة فى بقعة ، وقد راحت تغوص تدريجاً خلال البوص ، بينما اختلج وجهها واحتقن تماماً . وما إن لمحتها حتى هوت ، كأنما أردتها رصاصة . وفى لحظة كنت بجوارها وبمساعدة ثمانية أو عشرة من رجالى ، كانوا لحسن الحظ على مقربة ، جررتها — كأنها جثة — خلال النباتات اللينة ، ورحنا نخوض إلى الجانب الآخر والمياه تغمرنا حتى وسطنا ، ونحن بالكاد نحتفظ برأسها فوق الماء . وكان من المستحيل أن نحملها ، خشية أن نغوص معها فى البوص . وأرقدتها تحت شجرة ، وغسلت رأسها ووجهها بالماء ، إذ ظننت أنها فى إغماءة ، ولكنها ظلت فاقدة الرشد تماماً ، كأنها ميتة ، وقبضتاها منطبقتان بشدة ، وعيناها مفتوحتان ولكن نظرتهما جامدة . . . كانت قد أصابتها ضربة شمس ! »

ولما لم يكن ثمة غذاء متيسر على النهر ، فقد ناضل بيكر ليمضى فى تقدمه يومين آخرين ، وزوجته محمولة على محفة . وفى الصباح الثالث استيقظت الزوجة وهى مسلوبة العقل . وكان بيكر يجلس بجوارها طيلة النهار والليل ، وهى تهذى وتهرف . واستطاع الحصول على قليل من عسل النحل البرى ، وعلى دجاجة برية أو اثنتين ، ولكن الجماعة كانت تعانى جوعاً مبرحاً ، والمطر متواصل الانصباب . وفى نهاية أسبوع ، انهار بيكر نفسه . ولكنه حين أفاق بعد ساعات عديدة ، ألفى زوجته قد استردت صفاء عقلها واستطاعت معرفته . وبعد يومين آخرين من إبلالها ، استأنفوا السير متتبعين الاتجاه العام لنهر « كافو » نحو الجنوب الغربى . وفى ١٣ مارس ، كانوا قد بلغوا خط الطول ٣١ ، على حوالى ٢٥ ميلا شمال خط الاستواء . وأعلن الدليل أنهم لن يلبثوا أن يروا البحيرة فى اليوم التالى . ويقول

بيكر فى وصف هذه المرحلة :

لم أكد أنم فى تلك الليلة . لقد كافحت سنوات لأصل إلى « منابع النيل » ، وكنت أرى الفشل دائماً فى أحلام نومى خلال هذه الرحلة المضنية . ولكن الكأس بلغت شفتى بعد كثير من الجهد والدأب ، وآن أن أعب من النبع الغامض قبل مغرب شمس يوم آخر ، عند خزان الطبيعة العظيم الذى استعصى على كل كشف منذ الخليقة .

١٤ مارس — لم تكن الشمس قد أشرقت حين أخذت أستحث ثورى خلف الدليل الذى سرى إليه الحماس ، إذ وعدته بحفنة خرز مضاعفة عند بلوغ البحيرة . وطلع النهار جميلا صافياً ، واجتزنا وادياً عميقاً بين التلال ، وأخذنا نجاهد صاعدين تلا مقابلا . وأسرعت إلى القمة . فتكشف لى فجأة بهاء فوزنا . وإذا مساحة مائية شاسعة تمتد تحتنا كبحر من الزئبق . . . بحر لا حدود له إلى الجنوب والجنوب الغربى ، يتألق تحت شمس الظهيرة . . . وإلى الغرب — على مسافة خمسين ميلا أو ستين — تقوم جبال زرقاء تنبثق من صدر البحيرة إلى حوالى ٧٠٠٠ قدم فوق مستواها .

وكان بيكر قد اعتزم منذ زمن أن يهتف ثلاثاً إذا بلغ غايته ، ولكن جيشان عواطفه غلبه . وترجل وزوجته عن ثوريهما ، وشرعا — فى انفعال محموم — يجران نفسيهما هابطين نحو حافة الماء . وسعيا إلى قرية صغيرة لصيادى السمك تسمى « فاكوفيا » يحتمل أن تكون قرية « بهوكا » الحالية .

« وتقدمت ممسكاً بقصبة ضخمة ، وراحت زوجتى تترنح هابطة فى ضعف متناه ، معتمدة على كتفى ، وهى تتوقف كل عشرين خطوة لتستريح . وبعد هبوط مضن استغرق ساعتين ، بلغنا السهل الممتد تحت التل ، وقد أضعفتنا السنون والحمى ، ولكن النجاح بث فينا قوة طارئة . وأفضى بنا المسير ، بعد حوالى الميل ، إلى حافة الماء ، خلال مروج رملية مستوية ، على شاطئ من العشب الرفيع تتخلله أشجار . وكانت الأمواج تترامى على ضفة من الحصى الأبيض . واندفعت إلى البحيرة ، وقد أثارت ظمئى الحرارة والتعب ، بينما أترع الحمد والعرفان فؤادى . ورحت أعب من منابع النيل » .

ويمضى قائلا إنه كان من المحتمل ألا تكون البحيرة منبع النيل ، ولكنها كانت – على أية حال – منبعاً ، وكانت فى تلك اللحظة رائعة . وفى إجلال أطلق بيكر عليها « بحيرة ألبرت » تكريماً لزوج الملكة فيكتوريا ، الذى كان قد مات من عهد قريب .

« وبانفعال بالغ رحت أستمتع بالمنظر الجليل . ووقفت زوجتى – التى تبعتنى بوفاء – إلى جوارى ، شاحبة منهوكة القوى . . . حطامان على شطآن بحيرة ألبرت العظيمة التى طال كفاحنا لبلوغها ، والتى ما قدر لأوربى من قبل أن يطأ رمالها ، ولا تأملت مياهها الشاسعة عين رجل أبيض قبلنا . كنا أول من بلغ البحيرة . . . مفتاح السر العظيم الذى تاق يوليوس قيصر نفسه لأن يميط اللثام عنه ، دون جدوى ! . . . هاهنا حوض النيل العظيم ، الذى يستقبل كل قطرة ماء ، من الرذاذ العابر إلى السيول الجبلية الهادرة ، المنسابة من أفريقيا الوسطى نحو الشمال . كان هذا مستودع النيل الكبير » .

وعند هذا ، واجهوا المشكلة التى لا مناص للرحالين من مواجهتها . . . كيف السبيل إلى العودة ؟ . . . واستطاعوا الحصول من صيادى البحيرة على قوارب خشنة صنعت من جذوع الشجر المجوفة ، وراحوا يجدفون صوب الشمال طوال أسبوعين خلال عواصف رهيبة ، حتى بلغوا النقطة التى يتصل فيها النيل بأعلى ركن من البحيرة . وهنا كانت فى استقبالهم مكافأة أخرى ، إذ أنهم لم يمضوا فى النهر من الشرق طويلا – خلال ما أصبح متنزهاً قومياً للوحوش – حتى بلغوا مسقطاً مائياً بديع المنظر . وشلالات « ميرشيزون » (كما سماها بيكر تكريماً لرئيس الجمعية الجغرافية الملكية) لا تتجاوز فى العرض ٢٠ قدماً ، وفى الطول ١٣٠ قدماً ، ولكن مستر « رينى بير » – مدير المتنزهات العامة بأوجندا – أحسن وصفها بأنها « أهم حادث مفرد مثير للمشاعر فى رحلة النيل الطويلة إلى البحر » . . . والنهر بكل عنفوانه الحبيس ينطلق من أخدود ، فهو – فى الواقع – أقرب إلى أن يكون انفجاراً مائياً منه إلى مسقط أو شلال . ومن الممكن أن يحدث تأثيراً غريباً على الذهن – كالتنويم المغناطيسى – إذا وقف المرء وأخذ يشاهده فترة . ويتكرر هدير الماء دون انقطاع ، ومع ذلك فلا يلتزم وقعاً واحداً لمدة ثانيتين .

ولم يكن لدى بيكر وزوجته وقت طويل للاستمتاع بكشفهما... فهنا هاجمهما فرس بحر ذكر ورفع قاربهما إلى منتصفه من النهر (ولا يزال مسرح الحادث مكاناً مفضلا للتماسيح !) . ولكن الحظ أسعد الزوجين ، فجرفتهما دوامات الماء إلى الضفة . وهناك هجرا قاربهما ولاذا بجزيرة « باتوان » — فوق الجنادل — ثم تهالكا مرة أخرى إعياء . وكانت الحرب مستعرة فى « بنيورو » ، فانقضى شهران قبل أن يقدر لجماعة بيكر أن تعود إلى مقر « كامرازى » ، وهى توشك أن تموت جوعاً . وهناك تكشف لبيكر أن الرجل الذى قابلوه قبل الاتجاه إلى البحيرة لم يكن الملك ، وإنما كان أخاً أصغر له يدعى « مجامبى » ، شاءت حكمة كامرازى أن يرسله فى مكانه خشية أن تكون حملة بيكر خطرة . وما كان الزوجان اللاجئان ليأبها بأن يكون الذى استقبلهما «مجامبى » أو كامرازى ، ولكن بيكر رأى من الكياسة أن يتهيأ للقائه مع الملك الحقيقى ، فأخرج من حقيبته الزى القومى للاسكتلنديين ، وارتداه فى ذهابه إلى القصر . وبلغ من تأثر كامرازى باللقاء أن قدم الطعام لضيوفه ، ثم شرع — على مألوف عادته — يجردهم من آخر مقتنياتهم بجشع فظ .

وانقضت ستة أشهر دون أن يحدث شىء . إذ كانت الملاريا تهزم بيكر بعد ظهر كل يوم ، فلم يقو عليها — بعض الشىء — إلا بعد أن ابتكر وسيلة لتقطير الكحول من البطاطا . ولم تكن للحروب نهاية ، إذ كان « موتيسا » — فى تلك الأثناء — يهاجم « بنيورو » بجيش من الجنوب . فكانت الاشتباكات تجعل من المستحيل على الرحالة وزوجته أن يتنقلا دون حراسة . وعندما اضطر « كامرازى » إلى الفرار شمالا أمام الجيش الغازى ، لم يملك بيكر وجماعته سوى أن يرافقاه . وكانا — فى سبتمبر سنة ١٨٦٤ — قد راضا نفسيهما على الموت فى أفريقيا الوسطى ، عندما أقبلت قافلة للرقيق من جوندوكرو ، وقد حملت إليهما بريداً وإمدادات . فتسلما من سبيك (الذى كان قد مات فى ويلتشاير قبل ذلك بأيام) نسخة من مجلة « لندن نيوز » المصورة — وفيها صورته وصورة جرانت — ونسخة من مجلة « بنش » وفيها رسم كاريكاتورى عن كشف منبع النيل .

وأصبح لدى بيكر وجماعته أقمشة يحصلون بها على الطعام والحمالين ، فانضموا إلى القافلة فى عودتها إلى الشمال ، وكانت تعطلهم — بين كل خطوة وأخرى

ـ الغارات على القرى لاقتناص الماشية والعبيد . ولكنهم بلغوا جوندوكرو أخيراً ، فى فبراير سنة ١٨٦٥ ، بعد غياب عامين . فدخلوها فى موكب ، وقد امتطى بيكر وزوجته ثورين ، وزفتهما طلقات البنادق ، ورفرف فوقهما العلم البريطانى . وإذا بصدمة مريرة فى انتظارهما ، إذ لم يكن فى استقبالهما أوربى واحد . والأنكى من هذا أنهما لم يجدا بريداً فى انتظارهما ، إذ احتسبا من الأموات منذ وقت طويل !

وقدر للأسى والشقاء أن يتبعاهما للنهاية . فقد تمكن بيكر من استئجار مركب إلى الخرطوم مقابل أربعين جنيهاً ، ولكن « السدود » احتجزته لأسابيع عديدة . وأثناء انتظار الريح المواتية ، دب الطاعون فى الحملة ، فاختبل عدد من الرجال ثم ماتوا !

ونعموا بلقاء حار من الجالية الأوربية حين بلغوا الخرطوم (حيث سمعوا لأول مرة بوفاة سبيك) . ومع أن الطريق النهرى إلى القاهرة خال من الأحداث عادة ، فقد عاقهم مركبهم وكاد يتحطم عند الشلالات ، وأنهم تعرضوا لمناوشات من العرب . وأخيراً بلغوا السويس فى أكتوبر سنة ١٨٦٥ ، بعد زهاء خمسة أعوام من نزولهم بأفريقيا . وهناك استمتع بيكر بلذة ظلت تراود ذهنه طويلا : بقدح من البيرة المثلوجة . وتم العثور لريشارن ـ آخر من تبقى حيًّا من مرافقيه ـ على منصب فى فندق « شبرد » بالقاهرة ، ثم أبحر الزوجان إلى وطنهما ، وبيكر يسائل نفسه :

« هل كنت عائداً من منابع النيل حقًّا ؟ كان الأمر حلماً . ولكن شاهداً كان يجلس أمامى ممثلاً فى وجه لا يزال شابًّا ، لوحته بلون بشرة البدو سنواتٌ من التعرض لشمس حامية ،وأرهقه وجعّده النصب والمرض ، وظللته هموم أصبحت فى عداد الماضى . .وجه الزميلة الوفية فى رحلتى ، التى أدين لها بنجاحى وحياتى . . زوجتى » .

وكان فى هذا الأسلوب ما يكفى لسيناريوات ستة أفلام ، وقد شغف به الرأى العام البريطانى . فإن سبيك وجرانت كانا فى رواية رحلاتهما غريبى الأطوار ، مضطربى الاسترسال ، مرتجلين . وكانت مقالات بيرتون تمتاز بحذق أكثر مما ينبغى وبإفراط فى الإبهام ، اللهم إلا بالنسبة لقلة من المتبحرين . . . وكان

الدكتور لفينجستون ينتمي إلى مستوى عال يغلق على الشخص العادى أحياناً .
أما كتاب بيكر « ألبرت نيانزا » فكان كما ينبغى تماماً ، إذ كانت له ولزوجته استجابات وارتكاسات يستسيغها كل امرئ ويفهمها ، فيعانى ويعيش بخياله مع هذين الزوجين فى الأدغال الأفريقية الفظيعة ، كما يعيش مع شخصيات رواية ما . لكم كانت الزوجة شجاعة ، ولكم كان الزوج شهماً وصادق العَزم ، فهما فى الواقع أهل لنجاحهما .

وكانت لبيكر ميزة أخرى أحبها أولئك القوم ، فهو لم يكن نافدَ الصبر متعجلا لبلوغ نهاية الرحلة — مثل سبيك — بل كان يتخذ أفريقيا وطناً ومقاماً أثناء وجوده بها . وكلما تعذر عليه المضى ، تقبل الواقع مؤقتاً ، وشرع يُعِد لراحته فى البرية على غرار « روبنسن كروزو » . فكان يزرع خضراً ، ويرتاد البقاع المجاورة بحثاً عن صيد ، ويصمم مأواه ويبنيه ، ويتبادل الحديث مع الزعماء المحليين مثل « كومورو » . ولما كان رجلا عمليًّا للغاية ، فإنه كان — بنفس السهولة — يبنى قارباً ، أو يقطر الكحول ، أو يصنع حلة من جلود الحيوان . ولقد جمع وزوجته فئة من أتباعهما حولهما ، فعلماهم الطهو ، وتقديم الأطعمة على المائدة ، وتسوية الفراش ، على شاكلة خدم البيوت . واقتنيا قروداً وطيوراً استأنساها واصطحباها فى أسفارهما . . . حتى الثيران التى كانا يركبانها استؤنست وروضت . وتمتلئ مشاهدات بيكر عن حياة الأهالى بالطرافة : فهو يلاحظ « أن لون النيل الأبيض — بالقرب من الخرطوم — فى لون البرك التى تغتسل فيها الخيل فى إنجلترا » ، وأن طبول القبائل تصنع أحياناً من آذان الفيلة ، وأن السلع التى يحملها الأهالى إلى السوق تلف عادة فى أوراق البوص الخضراء ، وأن جرار البيرة المحلية مغطاة وتمتص محتوياتها بأعواد مجوفة من القش . وهو يصف — بدقة — تطرية لحاء الشجر ليصبح قماشاً ، وكيف كان القبليون يصنعون الإبر ويخيطون من قطع جلد الماعز مآزر « بمهارة صانعى القفازات الفرنسيين » ، كما يغدق التفصيلات عن أسماك النيل . . . إلخ .

وهكذا نَعِمَ بيكر بألفة بهيجة لما كان يجد فى أفريقيا ، فإذا وصفها كتب كما كان يحتمل أن يكتب « ديفو »[1] .

---

(١) دانيل ديفو (١٦٦٠ — ١٧٣١) : صحفى وروائى وكاتب إنجليزى . من مؤلفاته القصة المشهورة « روبنسن كروزو » (المترجم)

وقبل أن يبلغ إنجلترا ، كان قد ظفر بالميدالية الذهبية للجمعية الجغرافية الملكية ، ولم يلبث أن ظفر بعدها بوسام الفروسية[١] . واحتفلت الصحافة — وكذلك المجتمع اللندنى — بسير صمويل وليدى بيكر (وقد أصبحا يرتديان أرقى الأزياء ، ولم يعودا حطامين بشريين) . وسرعان ما نعما برؤية ثلاث طبعات تصدر من كتاب « ألبرت نيانزا » ، الذى قدر له أن يطبع مراراً فى السنوات التالية . وما لبث كتابه « روافد النيل » — الذى روى فيه رحلته الأولى إلى السودان ، حيث قضى عاماً فى الصيد ، أن صدر وأحرز نجاحاً مماثلا . وفى سنة ١٨٦٨ حاول « بيكر » أن يخوض ميدان التأليف القصصى ، فراقت للناس قصة المغامرات التى كتبها بعنوان « طرح البحر » . على أن النيل هو الذى اقترن باسمه فى ذهن الرأى العام . وأصبح يدعى منذ ذلك الحين : « بيكر مرتاد النيل » .

ومن الإجحاف — بل من الغفلة — أن ندع بيكر وشهرته عند هذا الحد . فإن كتبه كانت أكثر من مجرد قصص مغامرات ، كما كانت لرحلاته أهمية تجاوزت الاهتمام الشعبى . فلقد أدخل على أفريقيا الوسطى شيئاً جديداً ، إذ جلاها للأذهان ، ومد جسراً بين الأساطير والخرافات القديمة والواقع الذى يوجد فعلا هناك . فلم تعد أواسط أفريقيا خيالا ، أو فراغاً على الخريطة ، وإنما منطقة متأخرة ، من الممكن تعميرها ، يقيم فيها أناس مكتملو الخلق ، ويستغلها « المسلمون » أضرى استغلال وحشى . وهكذا أصبح النيل أكثر من موضوع جغرافى يثير الاهتمام . . . أصبحت له أهمية سياسية وإنسانية وتجارية . وقد أظهر بيكر أنه ما لم تتدخل إنجلترا ، فإن تجار الرقيق خليقون بأن يفسدوا هذه البطاح نهائيًّا ، فتضيع على المسيحية إلى الأبد[٢] .

ومن الطبيعى أن كتب « بيكر » وحدها لم تحفز على سياسة جديدة نحو

---

(١) وسام بريطانى يمنح جزاء الجدارة أو تقديراً لخدمات تؤدى للتاج أو للدولة . ولصاحبه الحق فى حمل لقب « سير » (المترجم)

(٢) الاستغلال الإسلامى : فرية أخرى يحاول الكتاب الإنجليز أن يروجوها ولو على حساب المعلومات العلمية والتاريخية . وعبارة المؤلف « . . فتضيع (هذه البطاح) على المسيحية إلى الأبد » ، تكشف عن مخالب الاستعمار المتوارية خلف ستار الدين . وجدير بنا أن نتساءل هنا : ماذا فعل الاستعمار حين نفذ إلى هذه البطاح باسم المسيحية ؟ . إن فظائع الاستغلال البريطانى فى السودان (لا سيما الجنوب) والبلجيكى فى الكونجو (إليزابيثفيل) ، والفرنسى فى الكونجو (برازافيل) ، والبرتغالى فى أفريقيا الشرقية أقوى من أى حديث . (المترجم)

أفريقيا ، ولكن المؤكد أنها ساعدت على هذا ، إذ استفزت الأفكار والمشاعر التى كانت موجودة من قبل ، وأرشدت إلى طريق كان رجال السياسة والكنيسة والتجار تواقين لسلوكه ، لولا أن المادة الجغرافية ظلت ناقصة ، إذ كان من الصعب معرفة السبيل للعمل ، ما لم يتم جلاء التركيب الطبيعى للمنطقة ونهرها العظيم . وبرغم البيانات العلمية الدقيقة التى عاد بها « بيكر » ، فإنه فى الواقع لم يكشف الكثير عن أعالى النيل ، إذ أن تجواله — إذا قيس برحلات الرواد الآخرين — لم يمض به بعيداً ، (فمن السهل فى الوقت الحاضر أن يجتاز المرء الطريق الذى سلكه من جوندوكرو — بأكمله — فى يومين ، بالسيارة) . كما أن كشفه لبحيرة ألبرت لم يفض لغز النيل ، بل سرعان ما تجلى أنه زاد الموضوع إبهاماً . فهو — مثل سبيك — قد رأى مساحة مائية كبيرة ، فاستنتج أنها تجرى إلى الجنوب على رسلها ، وربما لمئات الأميال . ولكنه لم يؤت ما يثبت ذلك ، إذ لم يطف بحدود البحيرة . وكل ما استطاع تأكيده فعلا هو أن المجرى المائى الذى رآه سبيك يتدفق غرباً عند شلالات « كاروما » ، فى أوجندا الوسطى ، إنما كان يصب فعلا فى بحيرة « ألبرت » التى اكتشفها ، ثم يخرج منها متجهاً إلى الشمال . ولكنه لم يقطع بما إذا كان هذا النهر هو النيل أو لم يكن ، لأنه لم يتتبع المجرى شمالا من بحيرة ألبرت إلى جوندوكرو .

وبقيت مسألة أخرى ، حيوية القيمة : إذا كان هذا هو النيل ، فأية بحيرة كانت منبعه الحقيقى : أهى « فيكتوريا » بحيرة سبيك ، أم « ألبرت » بحيرة بيكر ؟ . . . إن كانت (ألبرت) تمتد جنوباً بقدر ما تصور بيكر ، فإن كفتها تصبح الراجحة . ولكن بيكر ترك الأمر مبهماً ، إذ قال إنها كانت — على الأقل — المنبع الغربى للنهر ، وكانت مستودعاً مهمًّا ، إن لم يكن رئيسيًّا ، له . وزعم أن النيل الحقيقى لا يبدأ إلا حين يخرج المجرى منها . وقد رأى الجغرافيون فى لندن رأيه ، ولكنهم لم يجزموا به .

ولم يضيع الخصوم المفترون وقتًا لاستغلال احتمالات بحيرة ألبرت ، فقالوا إن من الممكن الجدل فى أن هذه البحيرة ربما كانت تستمد الماء من نهر آخر إلى الجنوب ، وإذا صح هذا فإن مزاعم « سبيك » عن بحيرة فيكتوريا (إن كان لها وجود) هراء فارغ . وشعر سير رودريك ميرشيزون ، حتى قبل وصول بيكر إلى إنجلترا ،

بأنه مضطر للاعتراف بقوة هذه الحجة . وقد ألقى — فى ٢٢ مايو سنة ١٨٦٥ — رثاء لسبيك فى الجمعية الجغرافية الملكية ، ولكنه اختتم خطابه بأن أعلن اعتزامه إيفاد « لفينجستون » إلى أفريقيا مرة أخرى ، ليحاول أن يبت بتًّا قاطعاً فى كل مسألة المساحات المائية فى أفريقيا الوسطى ، على أن يؤثر المنطقة التى تلى بحيرة تنجانيقا جنوباً ، بعناية خاصة . وكان « لفينجستون » — كما عرف كل المقربين إليه — يعتقد أنه قد يعثر فى هذه المنطقة على المنبع الحقيقى . كذلك عهد إليه بالسعى إلى بحيرة تنجانيقا نفسها ، ليقرر ما إذا كان نهر « روسيزى » — الذى اكتشفه « بيرتون » — يصب فيها أو ينبع منها . وكان الحافز على ذلك هو أن الأفكار التى راودت « بيرتون » عن « روسيزى » — فى المرة الثانية — قد تكون صحيحة ، إذ كان من المتوقع أن يتبين أن النهر يتجه شمالا ليتصل ببحيرة ألبرت ، وبذلك تستبعد بحيرة فيكتوريا من رسم النيل . وهكذا كان « سبيك » — كما قال البروفيسور انجهام — لا يزال « تحت المحاكمة » !

الفصل السادس

شهرة وبركة

عندما نفكر فى « لفينجستون » ، نتصوره شيخاً مسناً . ولكن الواقع أنه كان فى الثانية والخمسين فقط حين شرع فى رحلته الأخيرة ، سنة ١٨٦٥ ، وقد أصبح أكثر اتصافاً من ذى قبل بما يسميه العرب « بركة » ، فقد كان — فى أبعد الظروف عن الاحتمال — قادراً على أن يرفع من شأن الحياة ويبديها أفضل مما كانت ! . . . ويلوح أن مجرد وجوده كان يضفى على كل من صادفه « بركة » شعر بها الجميع ، حتى النخاسون ، فساعدوه كلما سنح لهم ذلك .

ومن الصحيح أن حملته على نهر « زمبيزى »[1] كانت نكبة على زملائه ، حتى الذين قدر لهم البقاء على قيد الحياة ، إذ حمّلهم ما يفوق حدود المعقول ، وكثيراً ما وجدوه شديد العزم ، لا يصبر على ضعف أو وهن . وما كان « لفينجستون » يوماً فى خير حالاته حين يصطحب فى أسفاره رجالا آخرين من البيض ، فقد كان يفرض عليهم مستوياته ومعاييره الرفيعة ، إلى درجة تفوق التصور . ولكنه — فى سنة ١٨٦٥ — كان قد استرد روحه المعنوية ، ولم يكبد أحداً عناء ، اللهم إلا نفسه . فضلا عن أن الاهتمام غير العادى بأفريقيا لم يكن قد نقص لديه ألبتة . فقد كان من المحتمل أن يفقد الذين ذهبوا إليها إيمانهم ، وإن يختلفوا فيما بينهم . أما هو فلم يحذُ حذوهم إطلاقاً . كانت أفريقيا قد أصبحت جزءاً من حياته لا غنى عنه ، فكان يعيش لأجلها . وبدون إدراك هذا ، لن يقدر لامرئ أن يجد غاية لجولاته التى كانت تبدو بلا هدف . . . ولا « للإصرار المنبعث عن إلهام مُتسامٍ » ، الذى كان يحدوه لمواصلة السير ، فى وقت لم يكن يبدو فيه أى مبرر للاستمرار . ولقد كان الرحالون الآخرون يسلكون فى رحلاتهم الأفريقية خطاً مستقيماً ، وينطلقون وراء غرض معين ، وغاية محددة فى أذهانهم ، فإذا

---

(١) كان « لفينجستون » قد ارتاد نهر « زمبيزى » إلى شلالات فيكتوريا ، بين سنتى ١٨٥٨ و ١٨٦٤ ، وكشف بحيرة « نياسا » . (المؤلف)

أتموا مهامهم ، لم تعد لديهم رغبة سوى العودة للوطن ، أما مهمة « لفينجستون » فتبدأ أو تنتهى فى أفريقيا ، فهو يسافر فى شبه حلقة مفرغة ، ويقسم مع الأفريقيين ، ويأكل أكلهم ، وينام فى أكواخهم ، ويعيش حياتهم — دون أن يفقد شخصيته الخاصة ! — فما بزه أحد فى فهم زنوج أفريقيا والمحن الرهيبة التى كانوا معرضين لها . وما كان بوسع غيره أن يكتب : « يبدو أن أغرب داء رأيته فى هذه البلاد هو "انكسار القلب" ، وهو يصيب الأحرار الذين يُؤسرُون ويُستَرَقُّون » ، فبهذه الكلمات القلائل بلغ جذور المسألة ، وقد يكون لهذا الوصف المؤثر من المفعول ما لكل الفظائع وكل الحملات التى كان يشنها ذوو النزعة الإنسانية من فوق منبر مجلس العموم أو منبر جمعية مكافحة الرق فى إنجلترا .

وقد يجد المرء بعض التشابه بين هذه الحياة وعمل الدكتور « شفايتزر » حالياً[1] فى « لامبارينى » ، لولا أن لفينجستون كان رحالة ومتنقلا لا يستقر . . . وما أوضح ما يتمثل المرء ذلك الشخص الوادع ، المجعد الوجه ، تعلو رأسه قلنسوة ذات حافة بارزة ، وقد أمسك بعصاه ، وراح يضرب فى الأحراش ، لأنه لا يطيق أن يرى تلا دون أن يستجلى سفحه الآخر . وجدير بالمرء أن يتذكر كذلك مدى رسوخ واتزان معتقدات الناس فى العهد الفيكتورى ، فإن الشكوك والهواجس التى اكتنفت الحياة فى القرن العشرين — بفضل حربين عالميتين ، وفيض زاخر من المستحدثات السياسية والعلمية — لم تكن لتخطر بالبال إذ ذاك . فكان إيمان لفينجستون بالله مطلقاً . ولما كان يشعر بأن تقربه الحقيقى إلى الله يتسنى فى أفريقيا ، فمن المحتمل أنه كان أكثر سروراً وشعوراً بالرضاء الروحى وهو يتوقع ملاقاة الموت هناك ، عنه فى أى مكان آخر !

ومن ثم فمن العسير أن نرى أنه كان جاداً حين قال — سنة ١٨٦٥ — إنه لم يكن راغباً فى العودة إلى أفريقيا ، وإنه كان يؤثر البقاء فى وطنه . بل إن الأعوام الاثنين والعشرين التى قضاها فى أفريقيا كانت خليقة بأن تجره للعودة ولو لم يسأله « ميرشيزون » بذل مجهود جديد لاستجلاء مسألة النيل ، بل ولو لم يكن لتجارة الرقيق وجود . فقد كان ثمة مجال لعمل كثير . ذلك أن جوف القارة كان — حين

---

(١) الدكتور ألبرت شفايتزر ، الذى ظفر بجائزة نوبل للسلام ، للخدمات التى أوداها للأفريقيين . وقد توفى سنة ١٩٦٥ . (المترجم)

هبط أفريقيا لأول مرة ، فى الأربعينات من القرن التاسع عشر — مساحة شاسعة مجهولة تمتد من صحراء « كلهارى » شمالا إلى « تمبكتو » تقريباً . ولقد بذل هو ما بذله أى إنسان آخر — وربما أكثر — لارتياد هذه المساحة المبهمة ، ومع ذلك بقيت ألف مسألة ومسألة بدون حل ، بينها أعظم وأقدم المسائل : سر النيل ! . . . ولقد تطور لفينجستون باطراد — خلال رحلاته — من الطبيب المبشر إلى الرحالة ، وأصبح يعتقد أن عمله فى أفريقيا ليس فى إنقاذ أرواح الأفراد من الجهالة ، بقدر ما هو فى قمع تجارة الرقيق وفتح أبواب البلاد للمسيحية والمدنية لتصلا فى أعقابه .

ولم تكن ثمة واجبات ملحة تستبقيه فى بريطانيا ، سنة ١٨٦٥ . فلم يكن له بيت ولا أبرشية ، وكان قد ترك « جمعية لندن التبشيرية » ، وإن بقى على علاقات طيبة معها . . . كذلك كانت زوجته قد توفيت فى أفريقيا قبل ذلك بثلاث سنوات ، كما مات ابنه الأكبر « روبرت » ، على أثر إصابته بجراح فى الحرب الأهلية الأمريكية ، فلفظ أنفاسه فى معسكر الأسرى ، وهو لم يجاوز الثامنة عشرة . . أما أولاده الآخرون فكانوا فى رعاية أوصياء بإنجلترا .

وكانت كتب « لفينجستون » قد جعلته أشهر مرتادى أفريقيا جميعاً ، ولكنه لم يكن يحفل بالشهرة ولا بحياة المشهورين . وقد درت عليه حقوق التأليف من المال مايكفل له استقلالا ليمارس العيش على هواه على طريقة نبلاء أسبرطة . ثم واتته الدعوة الحافزة من الجمعية الجغرافية الملكية ، وكانت تتيح له السفر فى أفضل ظروف ، وأن يوجه ضربة أخرى لتجارة الرقيق ، ويفض نهائيًّا اللغز الأكبر : مغالق شبكة الأنهار والبحيرات فى وسط القارة . وكان قد بدأ يرى ، على شاكلة بيرتون ، أن الحل الحقيقى هو ما اقترحه « هيرودوت » والجغرافيون القدامى — إن لم تكن التوراة بالذات — فقد استهواه وصف هيرودوت للنيل بأنه ينبثق من عيون لا غور لها ، أسفل جبال عالية ، فى مكان ما من وسط أفريقيا ، والواقع أن هذه الرحلة الأخيرة للفينجستون كانت محاولة شبه تصوفية لإعادة كشف هذه العيون . . . لإيجاد وحدة مع الماضى . . . لإسباغ صبغة دينية على جغرافية النهر . وكان مقدراً أن يكون هذا آخر انتصار فى حياته ، فكان لزاماً أن يذهب .

ويبدو أنه كان قويًّا ، من الناحية البدنية ، قادراً على الاضطلاع بالرحلة ،

فلم تكن صحته قد تأثرت بدرجة خطيرة من جهوده السابقة فى أفريقيا ،كما أنه كان قد استراح لمدة عام فى إنجترا . أما كتفه — التى كان قد هشمها أسد قبل عشرين سنة ، ولم تجبر كما ينبغى — فلم تكن معوقة له ، وإن ظلت تؤلمه من وقت لآخر . . . وفى سنة ١٨٦٥ ، لم يكن يخيم أى ظل على السنوات المقبلة ، فكل شىء كان يبعث ثقة وأملا فى الرحلة التى كان على وشك القيام بها ، وكان الجميع يتمنون له الخير . ومع أن حملته الشعواء على البرتغال — لسماحها باستمرار جمع العبيد فى أراضيها الأفريقية — قد أحرجت الحكومة البريطانية ، إلا أنها لم تمنع رئيس الوزراء من أن يسأله مرءوسيه عما إذا كانت ثمة سبيل ليؤدى للفينجستون خدمة . كما كتب ميرشيزون إليه خطاباً جاء فيه : « أما بشأن مستقبلك ، فإنى تواق لمعرفة رغبتك الخاصة بالنسبة لتجديد اكتشاف أفريقيا » . . . ترى هل كان يبغى الانطلاق عن طريق نهر « روفوما » ، فيدور حول الطرف الجنوبى لبحيرة تنجانيقا ، وقد يبلغ منابع النيل الأبيض ؟ مثل هذه الرحلة كانت قمينة بأن تمكنه من حسم « كافة الخلافات الكبرى المعلقة » . على أنه لم يكن ثمة ما يلزم لفينجستون بالذهاب فهل يعين غيره لقيادة الحملة ، مثل « جون كيرك » الذى كان معه فى « زمبيزى » ؟

وكان رد لفينجستون أنه كان يفكر فى حملة جديدة من نوع ما اقترح ميرشيزون تماماً . . . « فلو حصلت على نفر من المرافقين المتحمسين ، فسأستمتع بها ، وأشعر بأنى أؤدى واجبى وسأبدأ الرحلة بمجرد صدور كتابى « قصة حملة إلى زمبيزى » .

ودعا كيرك لمصاحبته ، ولكن كيرك كان يتأهب للزواج ، ويشعر — ولا شك — بأنه قد نال كفايته من صرامة نظام لفينجستون القاسى فى حملاته . ولم يغضب لفينجستون منه ألبتة ، بل شغل بالحصول لكيرك على منصب كان يشتهيه : جراح ونائب قنصل بالوكالة البريطانية فى زنجبار . وهكذا قدر للفينجستون أن يذهب وحيداً .

وتقدمت وزارة الخارجية لمعاونة الحملة بمنحة ليست بالغة الكرم ، قدرها ٥٠٠ جنيه (وإن كانت قد أضافت إليها فيما بعد ١٠٠٠ جنيه أخرى) . كما قدمت الجمعية الجغرافية بدورها ٥٠٠ جنيه ، ودبر لفينجستون وأصدقاؤه الباقى . وعُين الرحالة « قنصلا لدى أواسط أفريقيا » بدون مرتب . وقد أبحر من « فولكستون » فى

أغسطس ١٨٦٥ ، فعرج على باريس (حيث أسلم ابنته « آجنز » للمدرسة) ، ومنها إلى القاهرة ، فبومباى ، حتى بلغ زنجبار فى نهاية يناير ١٨٦٦ .

ولم تكن قد طرأت على زنجبار أحداث كبيرة منذ عهد بيرتون . فقد نجا السلطان « السيد مجيد بن سعيد » من ثورة قادها أخوه « برغش » ، واستُدرجت الجزيرة إلى شباك التجارة والسياسة الغربية ، وأصبح فيها حوالى ست من القنصليات الأجنبية تطل على البحر ، وأثرى كثير من تجار العرب والهنود ثراء كبيراً . ولم يعد حدثاً كبيراً أن يدوى طبل المدينة معلناً اقتراب إحدى ماخرات المحيط (دقة واحدة للسفينة المقبلة من الشمال ، واثنتين للقادمة من الجنوب) ، فقد كانت السفن التجارية والحربية — التابعة لكل الدول الأوربية تقريباً — تتردد على الجزيرة باستمرار ولم تردد تجارة العبيد إلا نمواً ، فأصبح يجتلب من داخل القارة سنوياً ما بين ثمانين ألفاً ، ومائة ألف عبد . ومع أنه لم يكن لأحد منهم أن يغادر أراضى السلطان ، فإن السفن الشراعية التى كانت تبحر إلى بلاد العرب والشرق فى شهر يونيو — عندما تبدأ الرياح التجارية الجنوبية الغربية فى الهبوب — لم تكن تتعرض لتفتيش حقيقى . وقد كتب لفينجستون يصف تلك الأيام :

« إنه أسلوب الحياة الممعن فى القدم : أكل وشرب ونوم ، ونوم وشرب وأكل ، ومراكب للنخاسة مقبلة ، ومراكب للنخاسة مدبرة ، وروائح كريهة . . . حتى ليصح أن تسمى "ستينكيبار" ، بدلا من زنجبار[1] ... وفى زيارة لسوق العبيد ، رأيت حوالى ٣٠٠ منهم معروضين ، وكان الكبار منهم يبدون استحياء من النداء بهم للبيع . وتفحص الأسنان وترفع الثياب لفحص الأطراف السفلى ، وترمى عصا ليحضرها العبد ، فيعرض بذلك خطواته . ويسحب بعضهم من أيديهم بين الحشد ، والبائع يردد الثمن دون انقطاع . وكان معظم المشترين من العرب الشماليين والفرس » .

على أن السلطان كان ودوداً خدوماً حين زاره لفينجستون ، فأعطاه « فرماناً » إلى الشيوخ فى داخل القارة ، وأعاره بيتاً كبيراً لا يزال قائماً عند حاجز البحر ، فى

---

(١) Stinkibar ، أى « الماخور العفن » ! (المترجم)

مشارف المدينة . وكان فى موقع مناسب لإنزال الإمدادات مباشرة إلى السفن الراسية تحت جدرانه . كذلك كان « كيرك » قد وصل لتسلم منصبه الجديد ، وأبدى كل استعداد للمعاونة فى تنظيم الحملة .

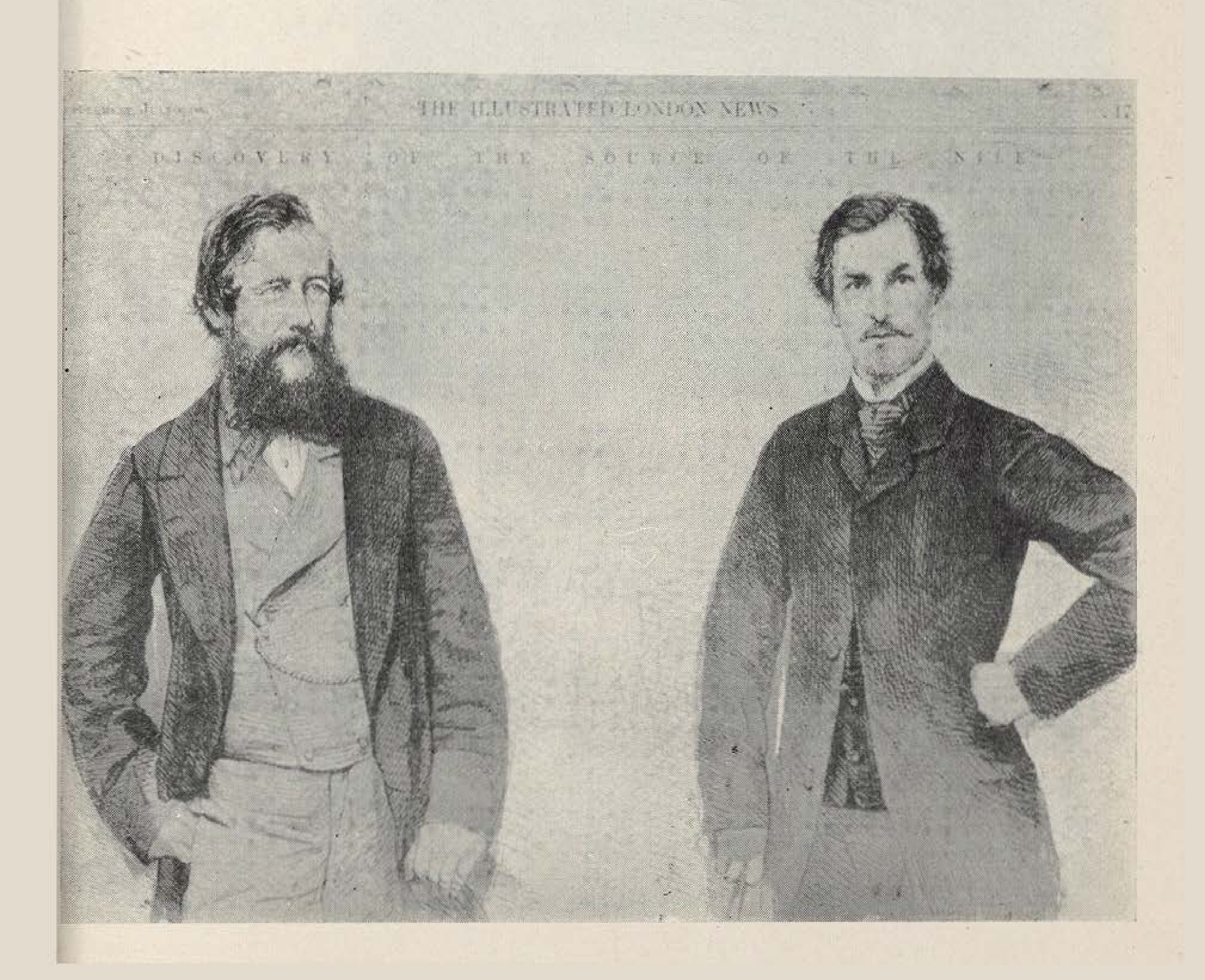
كانت بين الرجلين علاقة قوية ، فبالرغم من أن كيرك كان يصغر لفينجستون كثيراً ، إلا أن نشأتيهما كانتا متشابهتين ، إذ جاء كيرك — هو الآخر — من أسرة متدينة فى اسكتلندا ، وتخرج فى كلية الطب ، ورحل إلى الخارج إرضاء لشغفه بالمغامرة ، فذهب إلى « القرم » ثم إلى أفريقيا . وقد ضمه لفينجستون إلى حملة « الزمبيزى » — سنة ١٨٥٨ — كطبيب وعالم طبيعى ، فنشأ بينهما ود شبيه بذلك الذى لا يتأتى إلا خلال رحلة خطرة ، وسلسلة طويلة من التجارب المشتركة . ولقد عاد كيرك إلى وطنه للنقاهة ، ولكن بعد أن قضيا معاً خمس سنوات فى أفريقيا ، وكان الشاب بجوار لفينجستون حين اكتشف بحيرة « نياسا » . وقد أبدى كيرك استعداداً فذاً كعالم طبيعى ، فعاد بمجموعة ثمينة من النباتات الأفريقية ، كان بعضها جديداً كل الجدة على العلم . وكان رائعاً كزميل فى الضائقات ، بل لعله كان أبرع من أى شخص آخر ، إذ أوتى تلك الصفات التى جعلت منه « رئيس أعوان» مثالياً : ذكاء حاداً ، وإدراكاً سليماً ، كثيراً ما كانا يعوزا لفينجستون نفسه فى معاملة الآخرين . وكانت بينهما اختلافات بطبيعة الحال . ففى أثناء ارتيادهما نهر « الزمبيزى » ، مرت فترات ظن فيها كيرك أن قائده فقد عقله ، بل لقد شعر بجرح عميق لكرامته — فيما بعد — عندما اعتقد (ولعله كان مخطئاً) إن لفينجستون غبنه فى تقاريره إلى وزارة الخارجية . ولقد كان كيرك شديد الاتصال بلفينجستون إلى درجة لا تجعله يقدس بطولته تقديساً أعمى . فكتب إلى صديق يقول : « لا بد أنه ادخر قدراً كبيراً من المال ، وإن كنت لا أراه يقيم كثير وزن لهذا . بل إنه قد يجود بكل ما يملك مقابل وسام الصليب ، أو وسام الفروسية ، وستسعى بعض الدوائر إلى ذلك » . وهذا قول ينافى الصداقة ، ولو أن من المحتمل أنه كان صحيحاً (ومع ذلك فإن لفينجستون لم يظفر — فى النهاية — بتكريم من الحكومة) . وكانت ثمة مثالب أخرى ، فإن تبرؤ لفينجستون من أخيه الشقيق ، على نهر « الزمبيزى » — مثلا — لم يكن مسلكاً بطولياً فى شىء ، وقد كتب عنه كيرك بإقذاع لاذع فى حينه !



سير صمويل هوايت بيكر

عن كتابه « سير صمويل بيكر » بقلم « موراي » وهوايت » — سنة ١٨٩٥ .

« سبيك » و« جرانت » . . . كماظهرا
فى صحيفة « ايللستريتد لندن نيوز » فى
النسخة التى رآها « بيكر» فى أواسط
أفريقيا فى العام التالى لنشرها .


THE ILLUSTRATED LONDON NEWS

DISCOVERY OF THE SOURCE OF THE NILE

ولكن هذا كله مضى وانتهى ، ولم يقم أى شك فى أن وفاء كيرك العميق لقائده القديم لم يتزعزع ، وقد اجتمعا لبضعة أسابيع فى زنجبار ، بينما كان لفينجستون يؤلف قافلته ، فاتفقا على أن يكون كيرك بمثابة مندوب للبعثة فى الجزيرة ، كما تولى — فيما بعد — إرسال حمالين وإمدادات لتنتظر لفينجستون فى (أوجيجى) على بحيرة تنجانيقا .

وكانت البعثة متواضعة ، إذا قيست بما كان مألوفاً ، ولكن لفينجستون رأى فيها إسرافاً ، إذ كان قد أحضر معه — من بومباى — عدداً من المرتزقة ، ثم جمع غيرهم فى زنجبار ، وبينهم ثلاثة كانوا قد رافقوا سبيك وجرانت ، فبلغ عدد القافلة ستين فرداً . يضاف إلى هذا حشد صغير من الإبل والجاموس والبغال ، وحمير لحمل الأمتعة .

وكانت خطة لفينجستون أن ينحرف إلى الجنوب من طرق القوافل العادية ، ويوغل رأساً فى البقاع المجهولة ، جنوب بحيرة تنجانيقا ، وبهذا العزم هبط — فى مارس ١٨٦٦ — عند مصب نهر (روفوما) ، الذى يفصل تنجانيقا الآن عن أفريقيا الشرقية البرتغالية . ومن هناك بدأت سلسلة من مغامرات التجوال لا يصدقها عقل ، قدر لها أن تمتد سبع سنوات ، وتنتهى بفشل كان — فى الوقت ذاته — نصراً لفكر رجل لا يقهر !

ولن يقدر لرحلة أن تبنى على افتراضات خاطئة كتلك الرحلة . كانت بحثاً عن منابع نهر فى منطقة لا وجود له فيها ، وكانت حملة ضد الرق ، لم تؤت سلطة للقضاء عليه ! ... بل كانت فى الحقيقة عملية زحف رجل اعتقد أن بوسعه — وحيداً ، وغير مسلح ولا مؤيد — أن يجتاز قلب أفريقيا ، وهو أمر مستحيل تقريباً . ولكن شيئاً من هذا لم يؤثر فى الحملة ، فبعد سلسلة من المتناقضات ، أفلحت فى النهاية . . . واستمر السير ، لا لشىء إلا لأن النخاسين العرب اعتنوا بالرجل العليل ، الوحيد وسط التيه غير المطروق . ولقد تلقى الرق على يديه ضربة لم يفق منها قط ، لا لأن لفينجستون استطاع أن يبطش به ، وإنما لأنه كان الشاهد العيان لمذبحة رهيبة ! . . الشاهد « العاجز » فى الوقت نفسه ، الذى لا يملك حولا ولا طولا ! . . وحتى لغز النيل قد أمكن حله ، ولكن لفينجستون نفسه لم يكن مكتشفه ، وإنما كان صاحب الفضل فى أنه ألهم رجلا آخر أن يتخذ اتجاهاً آخر ! . . . ولا شك أن هذا كله كان — فى نظر لفينجستون — « إرادة الله » .

والذى يدعو إلى الدهشة أن العمر قد امتد به ، فلم يمت قبل الموعد الذى مات فيه . ذلك أنه كان قد فقد كل رجاله وحيواناته تقريباً فى مرحلة مبكرة من مغامرته . وأنكى من ذلك أنه فقد صندوق أدويته . واستطاع بعد عام كامل من النضال ، أن يصل إلى الطرف الجنوبى لبحيرة تنجانيقا[1] ، حيث اعتنى به النخاسون وإن جعلوا من المستحيل عليه — تقريباً — أن يواصل السير . إذ كانوا قد أثاروا حقد القبائل ، كما فعلوا فى السودان ، فعز عليه الحصول على حمالين . ومع ذلك فقد تمكن من المضى ، وراح يضرب غرباً إلى نهر (لوالابا) ، ثم جنوباً إلى بحيرة (بانجويولو) — التى لم يكن قد رآها رجل أبيض من قبل — ثم شمالا إلى بحيرة تنجانيقا مرة أخرى . وفى مارس ١٨٦٩ — بعد ثلاث سنوات من مغادرته الساحل — بلغ (أوجيجى) وقد فقد أسنانه تقريباً، وأوشك على الموت من الملاريا ، ومن علل أخرى، فكان أشبه بـ « كومة عظام » ! . . . وهناك وجد أن الإمدادات التى أرسلها « كيرك » قد نهبت فى الطريق، ولم يجد عقار الـ « كينين » الذى يخفف من حدة الملاريا. وأسوأ من هذا أنه لم يجد « رسائل » البتة ! . . . ويبدو أن انقطاع الأنباء من العالم الخارجى أقسى على الرحالين من أية محنة ، فهم قد يناهضون أمراضهم ويواصلون السير أسابيع ، بل شهوراً برمتها ، على أمل العثور على « بريد » فى أحد المراكز الأمامية . وكان الحرمان من البريد — فى حالة لفينجستون — شديد الوطأة عليه بالذات ، لأن التجار العرب رفضوا حمل رسائله إلى الساحل . وكان قد كتب اثنتين وأربعين رسالة ، وعلم العرب — عن يقين — أنه ضمنها وصفاً كاملا لكل الفظائع التى كانوا يرتكبونها فى الداخل[1] .

ولم يبق أمامه سوى مواصلة السعى دون أدوية ولا إمدادات . فاتجه — مرة أخرى — غرباً إلى نهر (لوالابا)، إذ بدأ يعتقد أنه النيل . والواقع أنه لا علاقة له بالنيل ، فهو المجرى الأعلى لنهر الكونجو ، الذى يجرى شمالا فى قوس كبير يتجه غرباً إلى المحيط الأطلسى . ولكن لفينجستون لم يؤت وسيلة لكشف ذلك ،

---

(١) أورد المؤلف فقرات من الوصف الذى كتبه « ليفنجستون » فى هذا الصدد ، وقد آثرنا إعفاء القارئ العربى منها ، لما فيها من مبالغات فاقت « المعقول » . . ومن سخريات القدر أن «ستانلى» — الذى تولى إتمام مهمة لفينجستون بعد موته — ارتكب عند بحيرة (فيكتوريا) مذبحة أشنع من هذه ، وردت فى الفصل السابع .. كما ارتكب بيكر فظائع أشنع ، ردت فى الفصل الثامن . ولا يفوتنا أن ما كتبه ليفنجستون كان من الحجج التى ارتكز إليها الاستعمار ليبرر توغله فى أفريقيا باسم الإنسانية والدين ، وهما بريئان منه . (المترجم)

لأن رحلته انتهت إلى توقف عند (نيانجوى) ذات صباح ، حين رأى النخاسين العرب يصبون قذائف بنادقهم عن قرب ، على أهالى القرية ، فى مذبحة رهيبة .

وكان لفينجستون قد أحب هذا المكان ، وأولع بمشاهدة القوم — وكانوا حوالى ٣٠٠٠ — يتوافدون على السوق للمقايضة على دجاجهم وفواكههم ، والنهر الواسع وهو يجرى إلى داخل الغابات . ويكشف وصفه لما حدث فى صباح ١٥ يوليو سنة ١٨٧١ — كما لم يصف شيئاً آخر — أعماق المأساة التى حاقت بزنوج أواسط أفريقيا منذ نفذ إليهم العالم الخارجى قبل مدة لم تتجاوز ثلاثة أجيال . . .

وبعد هذا (المذبحة ، وما اكتنفها ، ونتائجها) — لم يعد للفينجستون أمل فى الحصول على قوارب أو رجال للمضى فى مجرى النهر . . وإذ أسقمه ما رأى ، وازدادت صحته انهياراً ، راح يكافح عائداً إلى (أوجيجى) ، وقد عجز — إلى حين — عن إنجاز مزيد من مهمته ، ولم يبق ما يدفعه إلى المضى سوى إيمانه . وكان قد قرأ التوراة أربع مرات فى هذه الرحلة الثانية إلى (لوالابا) . ولكنه فى طريق عودته إلى (أوجيجى) — بعد غياب عامين — كان قد انحدر إلى درجة التسول من العرب ليقيم أوده. وعلى هذه الحال وجده ستانلى، عندما دخل أوجيجى فى ١٠ نوفمبر ١٨٧١ . وقد كتب لفينجستون عن هذه المناسبة :

« . . . وعندما بلغت روحى المعنوية أقصى نضوبها ، كان « السامرى[1] الصالح » على مقربة منى ، لنجدتى . ففى ذات صباح أقبل » « سوسى » مهرعاً بأسرع ما فى طوقه ، وهتف : « إنجليزى ! لقد رأيته ! » . ثم اندفع ليلقى القادم . وكشف العلم الأمريكى على رأس القافلة القادمة عن جنسية الغريب . وجعلتنى طرود السلع ، وأحواض الاستحمام المصنوعة من الصفيح ، والغلايات وأوعية الطهى الهائلة ، والخيم . . . إلخ . جعلتنى أقول لنفسى : لا بد أنه مسافر مترف ، وليس رحالة أوشك أن يفقد وعيه مثلى » !

أما وصف ستانلى — الذى ذاع — لهذا اللقاء ، فكان أكثر طلاوة :

« قال لى سلم : « إننى أرى الدكتور يا سيدى . ياله من طاعن فى

---

(١) « السامرى الصالح » — نسبة إلى مدينة (السامرة) بفلسطين — وهى إشارة من الكاتب هنا إلى القصة التى أوردها الإنجيل عن سامرى التق فى طريقه بمسافر جريح اعتدى عليه قاطعو الطريق وتركوه بين حى وميت ، فأسعفه وضمد جراحه . . (المترجم)

السن ، فله لحية بيضاء ! » أما أنا . . . فما كنت لأضن بشيء لأحظى ببقعة منعزلة مطمئنة ، أستطيع فيها أن أفضفض فرحي — بعيداً عن الأنظار — ببعض النزعات المتهوسة ، كأن أعض يدى بغباء ، أو أقفز فى فى الهواء ، أو أنهال على شجرة أمزقها ، لكى أهدئ المشاعر الجياشة التى جمحت عن سيطرتى . إن قلبى ليدق بسرعة ، ولكنى مضطر إلى ألا أدع وجهى يشى بانفعالاتى ، وإلا انتقصت من كرامة مظهر رجل أبيض فى ظروف غير عادية كهذه !

« لذلك فعلت ما ظننته أنسب للكرامة . فأزحت الحشد ، وسرت فى طريق انتصب على جانبيه الناس ، حتى أصبحت أمام نصف دائرة من العرب ، يقف أمامهم « الرجل الأبيض ذو اللحية الشيباء » . وإذ تقدمت منه متئداً ، لاحظت أنه شاب شاحب اللون ، بادى الإعياء ، وقد شاب فوداه وشارباه ، وعلى رأسه قلنسوة زرقاء يحيط بها شريط ذهبى حائل اللون ، وسترة قصيرة ذات كمين أحمرين ، وسروال « بنطلون » من الصوف الرمادى . وكنت خليقاً بأن أجرى إليه — لولا أننى جبان فى حضور مثل هؤلاء الغوغاء — وبأن أحتضنه ، لولا أننى لم أكن أدرى كيف كان يستقبلنى . لذلك فعلت ما أوحى لى الجبن الأدبى ، والكبرياء الزائفة ، بأنه خير ما يفعل . . . سرت إليه مباشرة ، وخلعت قبعتى قائلا : « أحسبك الدكتور لفينجستون » . فقال بابتسامة رقيقة ، وهو يرفع قلنسوته قليلا : « نعم » . فأعدت قبعتى إلى رأسى ، وأعاد قلنسوته ، ثم تصافحنا . وقلت بصوت مرتفع : « الحمد لله أن قيض لى رؤيتك يا دكتور » . فأجاب : « وأحمد له أننى هنا لأرحب بك » . . »

هذه قصة الحادث الذى تردد أكثر من أى حدث آخر فى تاريخ كشف أفريقيا . ومع ذلك ، يبقى ثمة شيء فى الصورة غير واقعى ، فإن المرء لا يملك سوى أن يتساءل : لماذا تأخر وصول المعونة كل هذا الوقت ؟ كانت أنباء لفينجستون حتى ذاك اللقاء غامضة . ففى فترة — ترجع إلى سنة ١٨٦٨ — ساد الظن بأنه قد مات ، إذ أعلن الحمالون الذين هجروه ، عند عودتهم إلى الساحل ، إنه قتل

على ساحل بحيرة نياسا (وكانت هذه قصة مناسبة لتبرير فرارهم !) . . . فنشر « ميرشيزون » النبأ فى رسالة إلى صحيفة « التايمز » . ولكن ميرشيزون نفسه لم يصدق النبأ تماماً ، فأوفدت الجمعية الجغرافية الملكية حملة لاستجلاء الحقيقة . ولم تكد الحملة تبدأ ، حتى وصل النبأ إلى الساحل بأن الرحالة كان على قيد الحياة ، وسرعان ما وصلت إلى زنجبار رسائل منه شخصياً . ومن ثم عادت الحملة أدراجها . ويبدو أن ركوداً عجيباً ران — بعد ذلك — على أنباء الرحالة ، فى الدوائر الرسمية والشعبية على السواء . وبين وقت وآخر كانت تجرى تحريات شكلية ، ويرسل « كيرك » إمداداته من زنجبار — دون تأكد حقيقى من أنها ستصل إلى غايتها يوماً — ويتطلع « بيكر » من (بنيورو) فى الشمال ، والمناقشات المتكهنة تدور فى الجمعية الجغرافية الملكية عن الاتجاه الذى يحتمل أن يكون الرحالة قد اتخذه فى الاثنى عشر شهراً الأخيرة . ولكن أحداً لم يقدم قط — لفترة طويلة — على حركة ما ، لإغاثة الرجل التائه . كما أبدى بيرتون — الذى لم يكن معجباً برجال البعثات التبشيرية — عدم اكتراث متعمد !

ولقد غير « الراديو » و « الطائرة » طبيعة الارتياد تماماً فى القرن العشرين ، فلا بد من جهد بسيط لنتذكر أنه منذ خمسين عاماً فقط ، لم يكن من غير المألوف أن تغيب عن الأبصار سفينة أو مسافر — فى الأراضى البعيدة — شهوراً عديدة متوالية . ومع ذلك فلا يزال من الغريب أن صمت لفينجستون أستقبل بكثير من الفتور . وأغرب من هذا أن يكون الذى خف لنجدته رجل مثل « ستانلى » . . وحتى ستانلى لم يخف إلى (أوجيجى) خصيصاً لأجله . فإن مخدومه « جيمس جوردون بنيت » — صاحب صحيفة « النيويورك هيرالد » — كان قد استدعاه إلى مقابلته فى « جراند أوتيل » بباريس ، قبل ذلك بوقت طويل — فى سنة ١٨٦٩ — وقال له :

« أريدك أن تحضر افتتاح قناة السويس ، ثم تقلع فى النيل إلى أعاليه وتوافينا بوصف تفصيلى لكل ما يحتمل أن يروق للسياح الأمريكيين . ثم اذهب إلى القدس ، فالقسطنطينية ، فالقرم ، فبحر قزوين ، ماراً بفارس ، حتى الهند . وتستطيع — بعد ذلك — أن تشرع فى البحث

عن « لفينجستون » . فإذا كان قد مات ، فاحضر كل دليل ممكن على موته » .

وأتم ستانلى – أعظم المراسلين الأجانب مثابرة وأدباً – برنامجه فى أربعة عشر شهراً . . . وصل بعدها إلى (أوجيجى) !

ولكن . . . من كان « ستانلى » ؟

كان رجلا أفعمت حياته بالمفاجآت . ولم يكن اسمه الحقيقى « ستانلى » ، بل « رولاندز » ، من أصل أيرلندى وجنسية أمريكية. وكان جنديًّا وملاحاً ، ثم أصبح صحفيًّا يقود حملة موفقة إلى وسط أفريقيا. وكان مقدراً أن تعرف الدنيا – بعد قليل – عن نشأته الكفاحية : عن طفولته فى مصنع فى (ويلز) الشبيهة بما وصفه « ديكنز » فى قصصه ! – ووصوله ، كخادم على سفينة ، إلى (نيواورليانز) ، حيث اتخذ اسم وجنسية أمريكى كريم تبناه . . . وخوضه الحرب الأهلية ، مع الجنوبيين أولا ، ثم مع الشماليين . . . ونبذ أمه النكدة إياه عند عودته إلى إنجلترا . . ومغامراته فى الأسطول الأمريكى ، وفى حملة الجنرال « هانكوك » ضد الهنود الحمر . . . ثم – أخيراً – عن أعماله كصحفى فى الحملة البريطانية ضد امبراطور الحبشة . تلك كانت أعمال رجل ذى عزيمة من حديد ، مغامر كان من الصلابة والاستهتار مثل الدنيا التى كان يعيش فيها . ويقول عنه البروفيسور « كوبلاند » بلهجة لاذعة : « ما من رجل مشهور فى زمنه ارتفع مثل ارتفاعه ، من بداية فى حضيض بدايته . ولا ينسى هذا أحد ممن يفهمونه ، ولا نسيه هو نفسه » . بينما كتب عنه « جايتانو كاساتى » ، الرحالة الإيطالى الذى عرفه معرفة وثيقة فيما بعد :

« إن ستانلى ممتاز فى قوة شخصيته ، وعزمه ، وحضور فكره ، وإرادته الحديدية . وفى غيرته على نفوذه ، لا يطيق أية مؤثرات خارجية ولا يسأل نصحاً . لا تصده الصعاب ، ولا تثنيه المصائب . فهو يبتكر الوسائل – بحضور ذهن – وينتزع نفسه من أية ضائقة . وفى حرصه وإخلاصه لأداء واجبه ، لا يلتزم الحكمة دائماً ، ولا يخلو من التهور أو الخطأ فى أحكامه . يثيره التذبذب أو التردد ، إذ يقض ذلك اتزانه المعهود . أساريره جادة عادة ، فهو متحفظ ، مقتضب لا يسرف فى الألفة ، ولا يثير العطف ، ولكنه – عند توثق المعرفة – يكون مقبولا

جداً ، لصراحة طبعه ، ورواء حديثه ، ودماثته » .

هكذا كان ستانلى حين وطد مركزه فى المجال العالمى . أما فى (أوجيجى) ، فلم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره ، وكان بعد على أعتاب نجاحه . كانت الصلابة ، والسرعة ، والمقدرة على التركز هى الغالبة عليه . وكان — بكل وضوح — تعوزه « البركة » . فما كان فى الدنيا رجلان يختلف كل منهما عن الآخر قدر اختلاف لفينجستون وستانلى ، ولا كان من الممكن لأى رجلين أن ينجذب كل منهما إلى الآخر مثلهما إذ ذاك . كان لفينجستون محتاجاً للدواء ، والإمدادات ، وأخبار العالم الخارجى ، وهذه كلها كان الشاب يمتلكها جميعاً. وكان ستانلى يحتاج إلى « مجد » العثور على الرجل الذائع الصيت ، وقد حصل — فى الواقع — على ما يفوق ذلك بكثير . وكانت صحبته القصيرة للفينجستون — كما يقول « كوبلاند » — « أسمى تجربة فى حياته ، فقد اقترب من العظمة الأدبية ، فأذهلته ، وأسرته ، واستعبدته » .

وكان لفينجستون فى نظر ستانلى — فى بداية رحلته — « مهمة » أخرى : أو « خبراً » آخر يساعده فى مهنته الصحفية إذا وفق فى روايته . فكانت تصرفاته فى زنجبار أقرب إلى تصرفات الصحفى الباحث عن موضوع ! . . . وأدرك من فوره معارضة الرسميين الأوربيين — لا سيما الجالية الإنجليزية التى اعتبرها جامدة عاجزة ، وعلى رأسها « كيرك » — للمتخصصين فى الشئون الأفريقية . لذلك نزل لدى القنصل الأمريكى ، وتكتم خططه عن كيرك ، فلم يبح بأكثر من أنه جاء أفريقيا لارتياد بعض مناطق الأنهار الساحلية ، بغية العثور على مادة قيّمة لصحيفته . ولعل كيرك قد ألفاه متعجرفاً ، وقد كان كيرك فى نظر ستانلى مجرد موظف يخشى الصحافة ، ولهذا يكرهها . وعندما سأله ستانلى عرضاً — ذات يوم — عما إذا كان يظن أن لفينجستون يرضى بلقائه إذا صادفه يوماً فى جوف القارة ، أجاب كيرك باقتضاب أن لفينجستون — فى رأيه — لن يقبل ، لأنه ينفر من الدعاية . ولعل هذا يفسر تحفظ ستانلى حين قابل لفينجستون — لأول مرة — فى (أوجيجى) . ولكن الأمر لم يثنه — وهو فى زنجبار — فاستأجر « بومبى » ليكون وكيله المفوض . وإذ كان المال لديه موفوراً ، فقد ابتاع خير المعدات ، واستأجر خيرة الحمالين . وكانت رحلته من الساحل إلى أوجيجى ، فى مدة ثمانية أشهر ، مجهوداً لا بأس به . .

لا سيما أنه أصيب فى طريقه بحمى الملاريا ، وصادف حرباً بين النخاسين والعشائر الأفريقية فى (تابوره) ، بل إنه اشترك فى القتال ، ومات اثنان من أعوانه البيض . ثم حظى ، فى نهاية الرحلة ، بذلك اللقاء الذى ارتاحت له نفسه ، مع « لفينجستون» . . . اللقاء الذى كشف له عن نفس خيِّرة وذهن خلاب. وخلال الحديث الطويل الذى دار بينهما ، اشتكى لفينجستون من أن كيرك لم يوفد إليه سوى أسوأ الحمالين ، ممن كانوا عبيداً ولصوصاً ! . . . فادخر ستانلى هذه الشكوى للمستقبل ، كما اكتنز كل ذرة من الحكمة والمعرفة باح بها لفينجستون . وبينما أخذت صحة لفينجستون تتحسن بسرعة ، راحت تربط بين الرجلين رابطة القائد والتابع ، برضاهما معاً . وسرعان ما بدا لهما رائعاً أن يقوما معاً برحلة . وماذا كان أفضل من أن يسعيا إلى رأس بحيرة تنجانيقا ، ويحسما مسألة نهر (روسيزى) ؟ واستغرقت الرحلة ثلاثة أسابيع ، فلما اكتشف لفينجستون أن « بيرتون » كان مخطئاً ، وأن نهر « روسيزى » كان يصب فى البحيرة ولم يكن ينبع منها ، عاد أشد مما كان تمسكاً بنظريته فى أن (لوالابا) هو النيل . على أن الارتداد إلى (لوالابا) كان يحتاج إلى مزيد من المعدات والحمالين ، واعتقد لفينجستون أنه لا سبيل لذلك إلا فى (تابوره) ، على ثلاثمائة ميل تقريباً . فسار إليها الرجلان ، مغادرين أوجيجى فى نهاية عام ١٨٧١ .

على أنهما لم يجدا فى (تابوره) سوى قليل من المؤن ، ولم يجدا حمالين على الإطلاق . وكانت هذه نقطة أخرى ضد كيرك . فوعد ستانلى قائده بأن يعوِّض النقص . ويلوح إنه لم يخطر ببال لفينجستون إطلاقاً أن يعود إلى زنجبار والعمران — فقد قال إنه يأبى العودة حتى يتم عمله — لذلك اتجه ستانلى إلى الساحل ، بعد نحو شهر ، وترك وراءه كل ما كان يملك النزول عنه من إمداداته . واتفقا على أن يبقى لفينجستون فى تابوره حتى يوافيه ستانلى بزمرة من الحمالين من الساحل . ووصل ستانلى إلى زنجبار بسرعة ملحوظة — فى أربعة وخمسين يوماً — حاملا معه كنزاً يفوق فى قيمته أية كمية من العاج ، أو عدد من العبيد ، قدر لنخاس أن يظفر بها من أفريقيا ! . . . عاد بكل « يوميات » لفينجستون ، ومذكراته ، التى أثمرت — بعد قليل — حصيلة من رسائل ستانلى إلى صحيفة «النيويورك هيرالد» ، وكتابه الأول عن أفريقيا : « كيف عثرت على لفينجستون » ! . . . وفوق كل هذا ،

تمخضت عن رسالة كتبها لفينجستون خصيصاً للصحيفة التى يراسلها ستانلى ، سجل فيها بإسهاب تفصيلات مذبحة (نيانجوى) ، قائلا : « إذا قدر لما كشفته عن بشاعة الرق فى أوجيجى أن يؤدى إلى القضاء على تجارة الرقيق فى الساحل الشرقى ، فسأعتبر هذا أعظم بكثير من كشف كافة منابع النيل ! » . . . وقد قدر لهذه الأمنية — على الأقل — أن تتحقق .

وكانت رحلة ستانلى فى موعد ملائم ، إذ صادف فى طريقه إلى (باجامويبو) بعثة جديدة أوفدتها الجمعية الجغرافية الملكية من إنجلترا — أخيراً — لتسقّط أنباء الرجل المفقود . فطمأن أعضاءها إلى أن معونتهم لم تعد لازمة . وهكذا انفرد ستانلى — فى مايو سنة ١٨٧٢ — بإثارة ضجة فى العالم بأسره ، بوصفه . اللّقاء الذى حدث فى أوجيجى ، وكل ما أعقبه . وحظى فى إنجلترا باستقبال هائل . فتلقى من الملكة رسالة تقدير ، وعلبة سعوط مرصعة بالماس ، ومن الجمعية الجغرافية الملكية « ميدالية » ، وأقيمت له طائفة من المآدب والاجتماعات العامة . وكان كل هذا — فى ظاهره — مظهراً للعرفان . ولكنه سرعان ما تبين أن البريطانيين لم يكونوا مسرورين للفخر الذى عاد على ستانلى . فما راق لهم أن تتم نجدة أعظم رحاليهم بفضل ما أسموه « بهلوانية صحفية »[1] ، ولا راق لهم أن ستانلى كان مواطناً « أمريكيا » . فما كانوا يقيمون لستانلى نفسه وزناً . ومهما يكن من أمر ، فهكذا قدر ستانلى الموقف ، فأحنقه وغاظه . وكان له كل الحق فى أن يشكو ، فى الواقع . فإن بعض الصحف المنافسة لم تكن تصف رحلته إلا بأنها « تهويش » ! . . . وكان خليقاً بالنقد أن يتبخر وتهدأ ثائرته دون ريب ، لو لم يعمد ستانلى إلى التحامل على « كيرك » فى نزق ، وبلا مبرر . فأعلن أن كيرك « تخلى عن لفينجستون » ، إذ لم يستحث نفسه على موافاته بالإمدادات من الساحل كما وعد . وكرر ستانلى اتهاماته أكثر من مرة ، وخلال خطب عامة ، بل وفى الإقليم الذى ينتمى إليه كيرك من إنجلترا ! ولم يكن بوسع كيرك — بحكم مركزه الرسمى — أن يرد أو يدافع عن نفسه ، ولكنه أوتى أصدقاء كانوا على أتم استعداد للدفاع عنه ضد الصحفى الدخيل . وإذا لم

(١) وقد كتبت رائدة التمريض الإنجليزية المشهورة « فلورنس نايتنجيل » فى وصف كتاب ستانلى المسمى (كيف عثرت على ليفنجستون) بأنه : « أردأ كتاب ممكن أن يكتب ، فى أروع موضوع يمكن أن يكتب عنه ! » (المؤلف)

يكن قد قدر لكيرك أن يخلص اسمه من رشاش الموضوع ، فإن ستانلى أصيب — هو الآخر — بضير . فقد خلق لنفسه أعداء عرفوا كيف يجددون المعركة حين سنحت لهم الفرصة فيما بعد . وكان تأثر كيرك مقصوراً على سخط مكبوت ، فكتب إلى أصدقائه موضحاً الأمور من وجهة نظره ، وقال لأوزويل لفينجستون — ابن الرحالة الذى كان قد وفد مع بعثة الجمعية الجغرافية الملكية — « إن ستانلى سيجمع ثروته من استغلال اسم أبيك ! » . وعندما قدر للفينجستون أن يسمع هذا ، قال : « هنيئاً له — أى لـ (ستانلى) — فإن ما سيجمعه من مال يفوق بكثير ما أملك أنا جمعه من استغلال اسمى » . . . ثم بادر بالكتابة إلى « كيرك » ، فسرعان ما تبدد سوء الفهم بينهما ، ونسيه كل منهما ، فى العلاقة بينهما على الأقل ، إن لم يكن علناً أمام الملأ .

وفى تلك الأثناء ، كان لفينجستون يقضى شهوره وحيداً فى (تابوره) . كان مالديه من الإمدادت — إلى جانب ما تركه له ستانلى — يكفيه أربعة أعوام . ولكن لم يبق فى خدمته من أتباعه سوى « سوسى » و « تشوما » ، وفتى أو اثنان تبعاه من البداية ، ولم يكونوا كافين لحمل الأمتعة فى رحلة طويلة ، فكان لزاماً أن ينتظروا الرجال الذين وعد ستانلى بإيفادهم من الساحل . وطال انتظار لفينجستون خمسة أشهر ، لم يكد يبلغ سمعه خلالها أى صدى للضجيج الذى بدأ يحيط باسمه فى العالم الخارجى . وكان يعقد حلقات تحت أشجار المانجو لتدريس التوراة ، ويقرأ كتاب بيكر (البرت نيانزا) ، ويصلى ، ويتريض ، ويكتب يومياته ، ويفكر ، وينتظر . وكان مقره فى بقعة منعزلة فى أطراف محلة سكنى العرب ، منخفضة بين الأعشاب إلى درجة لا تتيح رؤية ما يحيط بها . ولا يزال يحف بالمكان شعور من الوحدة والتنسك . وكان البيت من البيوت العادية للتجار العرب : سقف مسطح من التراب لا يصد المطر ، و « حجرة استقبال » ، وحجرة للنوم والأكل ، وفناء داخلى تأوى إليه الماشية والدواجن بالليل ، وغرف للأفريقيين . وكانت أرض الغرف من التراب الذى تدكه أقدام خدم البيت وهم يروحون ويغدون ، حفاة من أى خف أو حذاء . . .

وكانت تلك آخر مظاهر للعمران عرفها لفينجستون ، وقد بلغ التاسعة والخمسين .

ومع أنه تعافى نوعاً ما فى صحبة ستانلى ، فإن صحته كانت قد تجاوزت الآن فى انهيارها كل أمل . ومع ذلك ، فلئن كان لفينجستون قد شعر باقتراب منيته ، فإن يومياته لم تنم عن شيء ، إذ كان مفعماً بالأمل فى تحقيق نظريته الخاصة بالنيل . ولعل النهر كان قد بدأ يكتسب عنده — فى وحدته — معنى دينيا ، فإذا هذا المجهود الأخير أكثر من مجرد رحلة إلى المنابع المجهولة . كان إلهاماً يحقق ويبرر كل ما عاش وصلى من أجله . . . برهاناً على صدق نفسه وإيمانه الخاشع بالله . ولم يكن ثمة خور فى ثباته الذهنى الفائق ، برغم أن الحمى كانت قد هزت كيانه حتى إنه كان — ولا بد — يروح فى بحرانها أياماً ، لا يقوى على مغادرة فراشه . فإن الرسائل التى كان يبعث بها إلى الساحل ، من وقت لآخر ، كتبت بيد ثابتة ، وتفكير مسترسل ، وكثيراً ما تناولت أدق التفصيلات . وكان يوقعها : « ديفيد لفينجستون — قنصل صاحبة الجلالة فى أفريقيا الداخلية » .

على أنه ظل — فى الوقت ذاته — يحلم بيوم عودته إلى وطنه . فقد كتب إلى أحد أصدقائه كى يبحث له عن مسكن يطل على (ريجنت بارك) بلندن ، ليقيم فيه مع ابنته « آجنز » .

ووصل الحمالون السبعة والخمسون الذين أرسلهم ستانلى ، فى أغسطس ١٨٧٢ . . . وإن هى إلا أيام حتى قاد لفينجستون قافلته إلى الأحواش ، وهو على بيِّنة من وجهته ، إذ كان رأيه قد استقر على أن منبع النيل خليق بأن يكون جدولا يصب فى بحيرة (بانجويولو) ، التى كان قد اكتشفها قبل أربعة أعوام . ومن ثم اتجه غرباً ، بانحراف بسيط نحو الجنوب ، فلما بلغ شواطىء بحيرة تنجانيقا ، انحرف — بقرب وسطها — إلى الجنوب تماماً . وحانت نهاية أبريل ١٨٧٣ — بعد ثمانية أشهر من مغادرته (تابوره) — وهو يدور حول جنوب بحيرة (بانجويولو) ، متذرعاً بأمل العثور على مجرى يغذى البحيرة ويخرج منها فى نهر (لوالابا) ، وقد يتصل ببحيرة بيكر (ألبرت نيانزا) فى الشمال الأقصى ، فى « أوجندا » . وكانت تراوده بعض هواجس بصدد احتمال أن يتكشف (لوالابا) عن أنه نهر الكونجو ، وليس النيل ، ولكنه كان يكره هذه الفكرة ويشيح عنها ، إذ كان قلبه قد تعلق بالنيل ؛

وكانت بلاداً فظيعة ، إذ راحت القافلة الصغيرة تخوض مستنقعاً لا نهاية له ، وعلى مقربة من قرية يحكمها زعيم يدعى « تشيتامبو » ، اشتد الضعف بلفينجستون وبات لزاماً أن يحمل فى محفة . وفى الساعات الأولى من يوم أول مايو عام ١٨٧٣ ، دخل خادماه كوخه ، فألفياه ميتاً . . . وقد لفظ آخر أنفاسه وهو راكع فى فراشه يصلى .

ومهما تردد القصة التى تروى عن رحلة « سوسى » و « تشوما » حاملين جثة لفينجستون إلى الساحل ، فإنها تظل بعيدة عن المعقول ، إلا إذا اعتبرناها معجزة من نوع ما ، فإن من العسير أن يوحى أى شعور عادى بمثل هذا الوفاء بين البدائيين وغير المتعلمين : إذ قيل إنهما أخرجا القلب والأحشاء ، وجففا الجثة فى الشمس أسبوعين ، ثم لفاها فى قماش من القطن ، وأودعاها أسطوانة من لحاء الشجر المخيط إلى رقعة من أشرعة المراكب ، ثبتت إلى صار كى يتسنى لرجلين أن يحملاها . وفى منتصف مايو ، انطلق إلى زنجبار « سوسى » و « تشوما » ، وستون رجلا ظلوا أوفياء للنهاية . وكان بينهم وبين المحيط الهندى أكثر من ألف ميل ! . . . ولم يكن من السهل نقل هذا الحمل الغريب عبر هذه المسافة فى جوف أفريقيا ، حيث كانت كثير من القبائل متحفزة لنهب كل مسافر يمر بها . ومع ذلك فإن الرحلة تمت فى أحد عشر شهراً .

وكانت بعثتان أخريان قد غادرتا إنجلترا — فى تلك الأثناء — بحثا عن لفينجستون وقد اعتزمت إحداهما أن تنفذ من الساحل الغربى إلى داخل أفريقيا ، والثانية من الساحل الشرقى . والتقى « سوسى » و « تشوما » ببعثة الساحل الشرقى — بقيادة ضابط بحرى يدعى « لوفيت كاميرون » — عند (تابوره) ، فى أكتوبر ١٨٧٣ . ثم واصل كاميرون سيره إلى (أوجيجى) ، حيث أنقذ طائفة من أوراق ومذكرات لفينجستون . ثم برز إلى ساحل المحيط الأطلسى بعد عامين . أما « سوسى » و « تشومبا » فسعيا إلى ساحل المحيط الهندى . وعندما دخلا (باجامويو) — فى ١٥ فبراير ١٨٧٤ — كانت البارجة « فلتشر » فى الانتظار ، لنقل الجثة إلى زنجبار . وهناك أودعت بيت « همرتون » القديم ، عند حافة البحر — وكان مقراً لقنصلية بريطانيا — ارتقاباً لنقلها إلى إنجلترا . ولم يكن ثمة شك فى شخصية المتوفى ، فعندما

وفد جراح لفتح التابوت المبتكر ، بدت آثار جرح الأسد ــ الذى هاجم لفينجستون يوماً ــ واضحة على الكتف بجلاء . . .

وأرسل قطار خاص إلى مينا (سوتهامبتن) ، لنقل لفينجستون فى رحلته الأخيرة إلى دير (ويبستمشستر) ــ مقبرة العظماء ــ فى ١٨ أبريل ١٨٧٤ ، وأعلنت إنجلترا بأسرها الحداد عليه .

وبقى الجثمان ــ عند وصوله إلى لندن ــ ليلة فى « قاعة الخرائط » بمبنى الجمعية الجغرافية الملكية فى (سافيل رو) . وعندما بدأت الجنازة فى الصباح التالى ، كانت الجموع تصطف صامتة على جوانب الطرق . وكان « ستانلى » و« جرانت » و « كيرك » بين حاملى بساط الرحمة ، الذين شيعوا الجثمان إلى القبر .

والذى يدخل مقبرة العظماء اليوم من بابها الرئيسى ، ويواصل سيره فى البهو ، يصل أولا إلى قبر الجندى المجهول ، ثم يصادف ــ وراءه بقليل ــ قبر لفينجستون ، وقد كتب عليه بحروف من نحاس ، على حجر رمادى :

« هنا مثوى ديفيد لفينجستون ــ إرسالى ، ورحالة ، ومحب للإنسانية ــ وقد أحضرته أيد مخلصة عبر البر والبحر . ولد فى ١٩ مارس ١٨١٣ ، فى (بلانتير) بلانكشاير ، ومات فى أول مايو ١٨٧٣ ، بقرية (تشيتامبو) ، بأولالا » .

لقد أنفق لفينجستون ثلاثين عاماً من عمره فى جهد لا يكل ، لتنصير العناصر المحلية ، واستجلاء الأسرار التى لم تكتشف ، ومحو تجارة الرقيق المخزية ، فى أواسط أفريقيا ، حيث كتب آخر كلماته : « كل ما أملك أن أضيفه من الأمانى فى وحدتى ، أن تغدق بركات السماء الوافرة على كل إنسان ــ أمريكيًّا كان أو إنجليزيًّا أو تركيًّا ــ يساعد على إبراء هذا الجرح المتقيح المفتوح فى جسد العالم » .

ولقد سرى سلطان لفينجستون العظيم على عقول البشر ــ حتى قبل أن يكتب هذه الكلمات ــ من أواسط أفريقيا . . . لقد استهوته منابع النيل فى النهاية ، ولكن وصفه لمذبحة (نيانجوى) أثار عاصفة من الاستنكار ، أجبرت سلطان زنجبار على أن يغلق سوق الرقيق بالجزيرة . . . إلى الأبد !

الفصل السابع

محطم العقبات ؟

كان مزيج عجيب من الكراهية والحب يجتذب المستكشفين ، ويردهم ، إلى أفريقيا ! . . . كانوا أشبه برجال البحر ، ما إن يخوضوا أهواله ومخاطره مرة ، حتى يجدوا أنفسهم مشدودين للعودة إليه . وكذلك كان مستكشفو أفريقيا ، لا يفتأون يعودون إليها ، ولو قضت عليهم ! . . . وكان معظمهم يسخطون على البلاد وأهلها — بين وقت وآخر — واصفين إياهم بالبشاعة ، والوحشية ، والمكر ، والتردى ، وبأن لا أمل فيهم . ومن الغريب أن نلاحظ — فيما كتبوا عن رحلاتهم — ندرة تأثرهم بجمال طبيعة البلاد وبهائها . . . وامتداد سهول الهضبة الوسطى ، تحف بها الجبال الزرقاء ، وقطعان الحيوانات البرية الهائمة فيها . . . فالبلاد كلها — فى نظر المستكشفين — معادية ، ناقصة « الصورة » لا يمكن تأملها من الناحية الجمالية ما لم يتم إصلاحها وتهذيبها ، بالمدنية والدين .

ويقول الدكتور « شوا ينفورث » ، وهو من أكثر مستكشفى « أعالى النيل » اتزاناً ، واعتماداً على النفس :

« أن أول نظرة تقع على جمع من الهمجيين — يظهرون فجأة وهم عراة تماماً — تخلق انطباعاً غريباً لا يمحوه أى قدر من التعوّد والألفة ، وتتسلط على الذاكرة ، وتحمل الرحالة على أن يتذكر المدنية التى خلفها وراءه » .

وكان « شواينفورث » قد عاد إلى أوربا فراراً من وحشية أفريقيا ، لكنه تبين أنه لا يقوى على البقاء فيها ، فلم يمض عام أو اثنان حتى نادته أفريقيا من جديد ! وكذلك كانت حال الآخرين جميعاً ، مبشرين كانوا — كلفينجستون — أو أهل درس كبيرتون ، أو جنوداً مثل سبيك ، أو هواة صيد مثل بيكر . فكلهم يزعمون فى كتبهم أنهم إنما يذهبون لأفريقيا أداء لرسالة ، ورغبة فى حل المشكلات

الجغرافية ، وإصلاح البلاد ، وتحويل الأرض البكر إلى مزارع نافعة ، وفتح الأسواق للتجارة ، ورفع مستوى الأهالى — من تعبدهم للأرواح والطبيعة ، ومن همجيتهم — إلى حياة أرقى . . . ومع ذلك لا يملك المرء سوى أن يشعر بأن هناك سبباً آخر لرحلاتهم : تقلقل متغلغل فى نفوسهم ، وفضول طاغ نحو كل غريب وجديد . وهم — فى سبيل أشباع هذا الفضول — على استعداد لخوض كل شىء ، والتعرض لأشد الأخطار ، حتى للموت ذاته !

وكان « جوزيف طومسون » — الرحالة الأسكتلندى الشاب الذى كان أول من عبر كينيا إلى البحيرات — صريحاً فى هذا الصدد ، إذ كتب قبل موته : « مقضى على بأن أكون جواب آفاق . لست من بناة الإمبراطورية ، ولست مبشراً ، ولا من العلماء الحقيقيين ، وإنما أريد العودة لأفريقيا لأواصل تجوالى » . ومن المحتمل أن الآخرين ما كانوا يقرّونه على كل هذا ، ولكن المؤكد أن حب التجوال كان جزءاً من طبيعة نفوسهم ، وربما كان عاملا مسيطراً فى حياتهم .

ولكن ستانلى لم يكن يليق لهذا الإطار . فهو نوع جديد من رواد أفريقيا : رجل حديث أوتى — فى الوقت ذاته — كثيراً من صفات قادة الجنود المرتزقة فى إيطاليا ، فى عهد النهضة . ولك أن تسميه « رجل أعمال — رحالة » ، لا لأنه كان راغباً فى الاتجار فى أفريقيا ، ولكن لكفاءته المنطقية والعقلية المتناهية فى علاج مشكلة تدبير الحملة والبلوغ بها نهاية الرحلة . ولعله كان يتهور أحياناً ، ولكنه كان خبيراً ، ويجب ألا يغفل المرء أنه كان ماضى العزم ، كثير الشجاعة ، وربما كان أشبه بسبيك من سواه ، ولكن سبيك لم يبلغ مقدرته على تركيز جهوده ، فلم يأت ستانلى إلى أفريقيا ليصلح الناس ، ولا لينشىء أمبراطورية ، ولم يكن يحفزه أى اهتمام حقيقى بمسائل مثل علم أصول البشر ، أو النبات ، أو طبقات الأرض ، وإنما كان يسعى — بصراحة — ليبنى لنفسه مجداً . ومن سخرية العوامل ذات الكلمة العليا فى ارتياد أفريقيا — ولا ريب — أن تنتهى إلى أن يكون ستانلى بالذات هو أعظم الجميع فى بناء أمبراطورية ، وفى الكشف ، وأن يكون أقدر ممن سبقوه على فتح الميدان للمبشرين وللعلماء . وقد أصدر أخيراً « جان جاك لوفير » دراسة عن الرحالة ، أسماها : « ستانلى ، محطم الصعاب » .

ومن الطبيعى أن هذا الاقتحام المتهور لأفريقيا – من دخيل لم يؤت المؤهلات الكافية – لم يكن مما يرضى عنه الرأى العام المتعلم فى إنجلترا ، الذى كان يتتبع مغامرات رحالتيه المحبوبين ، لسنوات مضت . وزاد الشعور سوءاً ، ما انطوت عليه فطرة ستانلى من صفات المغامر المرتزق . فقد بدا أنه رجل يقدم على أية مغامرة لمجرد الشهرة ، وتحت رعاية أى ممول ... متطفل بدل جنسيته مرة ، وقد يبدلها مرة أخرى (وهذا ما عمد إليه ستانلى بالفعل ، إذ تحول فيما بعد عائداً إلى جنسيته البريطانية). ولقد خدم كل من بيكر وجوردون حكاماً أجانب – كخديو مصر ، وأمبراطور الصين – ولكن أمرهما يختلف ، إذ كان المعتقد أنهما ، برغم كل شىء ، باقيان على ولائهما الأصلى لبريطانيا . أما ستانلى ، فما كنت تدرى له ولاء ، فبينما يعمل لحساب مستر « جوردون بنيت » – صاحب صحيفة « النيويورك هيرالد » – لم يكن يتورع عن أن ينتقل إلى سواه ، كملك بلجيكا مثلا ، ويبدل ولاءه من أجل مصالحه المهنية !

وهو فى هذا كله كان بعيداً عن توخى الإنصاف . والواقع أن ستانلى كان يجتلب على نفسه التحامل ، بنفس القوة التى كان لفينجستون يجتذب بها الحب . وكان منهجه الأوحد أن يفحم أعداءه بانتصاراته ، وهذا ما شرع يفعله ، بعزم . ولم يكن بحاجة ، لحسن الحظ ، إلى أصدقاء يتولون عنه قضيته ، فقد كان أكثر المؤلفين قراء ، وكان لكتبه من السلاسة والإثارة مالا تكفى لإخماده العبارات النارية ، والتفاخر العابر . ولم تكن الحقائق التى يسوقها مما يسهل نقضه ، لأنها كانت تعتمد على مشاهداته الخاصة التى اكتسبها بجهده .

وهكذا شرع ، فى سنة ١٨٧٤ ، يعد التدابير لرحلته الجديدة ، التى كانت – من عدة نواح – أعظم رحلاته ، متذرعاً بهمة وبعد نظر لا يكادان يصدران عن رحالة غيره . . . حتى بيكر نفسه ! . . . ويروى أنه – بعد وفاة لفينجستون – قرر العودة إلى أفريقيا واستكمال عمله لحل لغز منابع النيل ، بطريقة ما . ويلاحظ أنه اقتصر على متابعة عمل « لفينجستون » ، وكانت قد انقضت اثنتا عشرة سنة مذ عاد سبيك من أفريقيا ، ولكن شهرة سبيك لم تتألق مع الزمن ، بل كانت قد خبت تقريباً . ففى كتاب الدكتور شواينفورث (قلب أفريقيا) – الذى صدر سنة ١٨٧٣

— محيت بحيرة سبيك الكبيرة (فيكتوريا نيانزا) عن الخريطة ، وحلت محلها خمس بحيرات صغيرة — مما أرضى « بيرتون » ولا شك ! .

وحدد ستانلى لنفسه ثلاثة أهداف : أن يطوف ببحيرة فيكتوريا ، للتأكد مما إذا كانت بحيرة كبيرة واحدة ، وما إذا كان المجرى المنبثق عن شلالات (ريبون) هو المخرج الوحيد لها . وكان يعتزم — بعد ذلك — أن يضع نظريات « بيرتون » موضع اختبار نهائى ، فيطوف ببحيرة تنجانيقا كذلك . وكان يبغى — أخيراً — أن يستأنف ما لم يتمه لفينجستون فى نهر (لوالابا) ، بأن يستقل قارباً على النهر ويسير معه ، إينما يقوده ، حتى مصبه . . وموجز القول أنه كان يتأهب لتسوية نهائية ، لا للغز النيل وحده ، وإنما لكل البحيرات والأنهار فى أفريقيا الوسطى .

واستطاع — كخطوة أولى نحو غايته الجريئة الخارقة — أن يحمل صحيفتى « الهيرالد نيويورك » و « الديلى تايجراف » على الاشتراك فى تمويله ، ثم عكف — فى إنجلترا — على قراءة كل ما وسعه العثور عليه من معلومات عن أفريقيا الشرقية والوسطى ، (ويقول إنه اشترى لهذا الغرض ١٣٠ كتاباً !) . وكان الرفاق الذين اختارهم للرحلة من طراز غير عادى . والواقع أنهم لم يكونوا رفاقاً البتة ، بل مساعدين مأجورين من أسراب عاملة ، ولا يعرفون شيئاً قط عن أفريقيا : فهناك ابنان شابان لصائد أسماك فى (كنت) — هما فرانسيس وادوارد جون بوكوك — وموظف كتابى يدعى « فردريك باركر » اجتذب نظر ستانلى فى فندق « لانجهام » بلندن . وكان ثلاثتهم يصغرون ستانلى كثيراً ، ويبدو أنهم اختيروا لصلابة أعوادهم والتزامهم النظام ، مما يتطلب فى « العريف » الصالح فى الجيش . وما كان بينهم من يستطيع — إذا ما عاد للوطن — أن يكتب عن مغامراته ، أو يناجز آراء ستانلى فى الجمعية الجغرافية الملكية . وبعد ابتياع خمسة كلاب ، اكتمل الفريق . فأبحر إلى أفريقيا الشرقية فى أغسطس ١٨٧٤ .

وكانت الحملة التى غادرت زنجبار فى أوائل نوفمبر التالى ، أكبر حملات المستكشفين التى رأتها أفريقيا الشرقية وأحسنها تجهيزاً . كان معها قارب خشبى طوله أربعون قدماً ، أطلق عليه اسم « ليدى أليس » — وقد صنع مفككاً

ليسهل حمله – وأربعون طناً من المؤن والمعدات ، و ٣٥٦ رجلا . وكانت الحملة تؤلف صفاً يمتد نصف ميل فى دروب الغابات. وما إن بلغت ضفاف بحيرة (فيكتوريا) – بعد ثلاثة أشهر ونصف الشهر – حتى كان ادوار بوكوك قد مات بالتيفوس ، وضاع مائة رجل نتيجة الهرب والمرض والاشتباكات مع القبائل . . فقد كان طابع تحركات ستانلى التقدم السريع ، وإطلاق النار على أية قبائل أفريقية تعترض سيره . والخسائر الكبيرة فى أرواح رجاله ، ثم بلوغ أهدافه فى النهاية . ذلك لأن مرافقى ستانلى فى أية حملة بأفريقيا ، كانوا أشبه بصفوة فدائية فى قوات قائد موفق ، شعارها : « الانتصار أو الموت » .

وبلغوا الشاطئ الجنوبى لبحيرة فيكتوريا ، عند قرية عربية إلى الغرب قليلا من (موانزا) ، حيث كان « سبيك » قد رأى لأول مرة – قبل ست عشرة سنة – المساحة المائية الشاسعة ، فأسرع إلى الحدس بأنها منبع النيل ! . . . ولكن ستانلى لم يكن يأخذ بالحدس ، فما جاء إلا ليكشف الحقائق . لذلك بادر إلى تجميع أجزاء السفينة (الليدى أليس) ، وترك معاونيه الإنجليزيين الباقيين على قيد الحياة ، ومعظم حملته ، ثم أقلع – فى ٧ مارس ١٨٧٥ – مع أحد عشر أفريقيا اصطفاهم . . . فمضوا شمالا مع الشاطئ الشرقى ، حتى وصلوا ، بعد ثلاثة أسابيع من السعى الدائب ، إلى شلالات ريبون . . . وإذا بزعيم فى ثوب أحمر يتقدم لاستقبالهم ، ومعه هدايا بينها عجول سمينة . وفى ٥ أبريل ١٨٧٥ ، أقتيد ستانلى إلى حضرة الملك « موتيسا » !

وكانت (بوجندا) قد تعرضت لتغييرات كبيرة منذ أيام سبيك ، فبلغ تعداد سكانها حوالى ثلاثة ملايين ، وامتدت المملكة الصغيرة زهاء ١٥٠ ميلا على الساحل الشمالى الغربى للبحيرة . وبلغ « موتيسا » أوائل العقد الخامس من عمره . ويصفه ستانلى بأنه « نحيل » ، طويل ، حليق ، واسع العينين ، عصبى المزاج » ، يرتدى طربوشاً ، وعباءة سوداء ، وقميصاً أبيض تمنطق عليه بحزام ذهبى . وبدا مغتبطاً تماماً ، فصافح زائره بحرارة ، وخاطبه بلغة « سواحيلية » طلقة ، ودعاه للجلوس على مقعد حديدى بدون مسند . وكانت العاصمة قد انتقلت إلى موقع يدعى (روباجا) ، قريب من العاصمة السابقة ، ومناسب ، بحكم إشرافه

ـ لعدة أميال ـ على التلال المحيطة ، وقد أقيمت فيه أكواخ بديعة للقوافل الزائرة .

وكانت البنادق قد شاعت فى يوجندا ، وأصبح بوسع « موتيسا » أن يستنفر للقتال ١٥٠,٠٠٠ محارب ، إلى جانب أسطول من قوارب الحرب فى البحيرة . كذلك أتسعت حاشيته عن ذى قبل . وقد قدر ستانلى عدد زوجاته بمائتين أو أكثر ! . . وكانت كافة أنواع السلع المصنوعة تشاهد فى القصر : بالات من الأقمشة القطنية ، ومقاعد خشبية ، وسكاكين فولاذية ، وأدوات أخرى ، وزبنات من الخرز البندق . ولم يعد ثمة ما ينم عن حدوث قتل وفظاعات فى البلاط .

وذهل ستانلى . وقد ذكر ـ فيما بعد ـ أنه كان من المستحيل مطابقة وصف سبيك لموتيسا وفظائعه الوحشية على هذا الرجل النابه الوديع . وكان موتيسا قد اتجه للإسلام ، فاعتزم ستانلى أن يحوّله عنه لفوره ، وأعلن أن الملك يجب أن يعتنق المسيحية ، وشرع فعلا فى عقد سلسلة من الاجتماعات لقراءة التوراة فى البلاط ، فكان موتيسا يصغى بإقبال .

والواقع أنه لم يكن قد اعترى فطرة موتيسا تغير جذرى ، ولكن سنوات ملكه التسع عشرة فعلت الكثير لصقل مواهبه الطبيعية كسياسى . إذ كان قد تبين منذ زمن أنه توجد دول أخرى قوية خارج عالمه الصغير فى أفريقيا الوسطى ، وأن الخير كل الخير فى مصادقتها ، لأنها تستطيع أن تمده بالأسلحة النارية والذخائر ليحارب « كامرازى » فى (بنيورو) ، ويقهر أعداءه الآخرين . كان بوسع اختراعات أولئك القوم وآرائهم أن تفيد (بوجندا) كثيراً . وكان قد تلقى ـ فى سنة ١٨٦٩ ـ قافلة قدمت إليه ثمانية عجول مهداة من سلطان زنجبار ، فأرسل مقابلها هدية من ١٥٠ ناب فيل مع فيل صغير . ومنذ ذلك الحين ، وصلت من زنجبار هدية أخرى ، قوامها كمية من البارود ، وبنادق ، وصابون ، و « براندى » و « جين » . ولقد استقبل « موتيسا » ـ خلال العام السابق على وصول ستانلى ـ زائراً آخر من الشمال : كان رجلا أبيض يدعى « شاييه لون » ، جاء على جواد من السودان ، معلناً أنه رسول من قبل شخص يدعى « جوردوم باشا »[1] حل مكان

---

(١) واضح أن صحة الاسم « جوردون » ، ولكن موتيسا حرفه عند ما روى الخبر . (المترجم)

« بيكر » هناك . وقد رحب به « موتيسا » ، وذبح ثلاثين آدمياً لتكريمه (وهو شيء هدته حكمته إلى عدم ذكره لستانلى) . وكان – عند وصول ستانلى – يرتقب رسولا آخر من « جوردوم باشا » !

وهكذا كان السلام والصداقة يسودان البلاط إذ ذاك . وأصبح الملك والرحالة يجتمعان يومياً فى جو من الود المتزايد ، وما لبث مبعوث الكولونيل « جوردون » أن وصل . وكان شاباً فرنسيا شجاعاً ، حلو المعشر ، يدعى « لينان دى بيلفون » ، يعمل – كالأمريكى « شاييه لون » – تحت إمرة « جوردون » – فى خدمة خديو مصر ، ويرتاد البلاد الممتدة جنوب السودان ، بغية ضمها فى المستقبل . وقد وفد من « جوندوكرو » رأساً ، واستطاع أن يكرم ستانلى بأطعمة شهية منها : أكباد البط « بات دى فواجرا » – و « السجق » البولونى ، والسردين ، وبعض المأكولات الطريفة التى يبدو أن أى فرنسى راق لا يستغنى عنها فى أفريقيا الوسطى . ولما كان « دى بيلفون » بروتستانتى المذهب ، فقد تحمس المشروع ستانلى لتنصير إقليم « بوجندا » ، وعرض أن يحمل فى عودته رسالة من ستانلى إلى صحيفة « الديلى تليجراف » اللندنية ، يحث فيها على إيفاد مبشرين من إنجلترا إلى هناك . وعلى هذا افترق الرجلان ، ليعود « بيلفون » إلى جوردون فى (جوندوكرو) « ستانلى » رحلته المائية مطوفاً بالبحيرة .

ورجع ستانلى إلى نقطة انطلاقه – عند (موانزا) – فى ٦ مايو ١٨٧٥ ، وقد قطع ١٠٠٠ ميل فى سبعة وخمسين يوماً ، وأتم أول أهدافه الكبرى ، فتبين – بما لا يرقى إليه شك – أن (فيكتوريا نيانزا) كانت بحيرة واحدة ، وأن « سبيك » كان على صواب ، و « شاييه » على خطأ تام ، كذلك أثبتت هذه الرحلة أنه لا يخرج من البحيرة سوى مجرى كبير واحد ، ولا يدخلها مجرى كبير سوى نهر (كاجيرا) ، عند شاطئها الغربى ، شمال (كاراجوه) . وكتب ستانلى يقول :

« . . أصبح لسبيك كل المجد فى كشف أكبر بحر داخلى فى قارة أفريقيا ، ومورد مائه ، والنهر النابع منه . كذلك ينبغى أن أعترف له بأنه كان أحسن فهما لجغرافية البلاد التى جسنا خلالها ، من أولئك الذين دأبوا على معارضة نظريته . . . »

ويلاحظ أن ستانلى لم يكن مستعداً بعد للتسليم بأن نيل « ستانلى » هو النيل

الحقيقى ، فكان عليه أن يشرع فى تحقيق هذا . وكان أمامه الهدف الثانى : ارتياد بحيرة تنجانيقا بأسرها ، ليكشف أية صلة لها — إن وجدت — ببحيرة « بيكر » (البرت نيانزا) وبأية بحيرة أخرى فى البطاح غير المستكشفة عند خط الاستواء . وفى يوليو ١٨٧٥ اصطحب كل حملته فى قوارب على بحيرة فيكتوريا ، وأبحر — والسفينة « ليدى اليس » فى المقدمة — إلى بوجندا فى الشمال . وكانت حملته قد نقصت كثيراً ، إذ مات « فردريك باركر » فى (موانزا) ، وهجرها آخرون أو أقعدهم المرض . ولكن « موتيسا » كان قد وعده بأن يمده بتعزيزات جديدة .

على أن ثمة حساباً كان عليه أن يسويه أولا مع أهالى جزيرة (بسبيرى) ، الواقعة بقرب الساحل الغربى للبحيرة — جنوب بلدة (بوكوبا) الحالية بقليل — فقد أساءوا معاملته فى رحلته من بوجندا جنوباً على السفينة « ليدى أليس » ، فما إن تراءت له الجزيرة ثانية حتى انتقم منها . وساعده الحظ فلحق به — فى تلك اللحظة — أسطول من زوارق موتيسا الحربية ، التى وفدت جنوباً للبحث عنه . ولقد عرض ما بين ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ رجل من حملة الحراب أنفسهم على الشاطىء فى غباء ، حتى صف « ستانلى » أسطوله من الزوارق فى وضع مكنه من تصويب البنادق إليهم مباشرة . ولاذ الذين لم يقتلوا أو يجرحوا منهم بالفرار .

وواصل « ستانلى » اتجاهه نحو الشمال ، فالتقى بموتيسا نفسه عند شلالات (ريبون) ، حيث دارت معركة جديدة ضد جزيرة متمردة أخرى . ولقد كان فى معاملات « ستانلى » مع « موتيسا » شىء من السذاجة ، فلا يملك المرء سوى أن يتساءل : كيف زج بنفسه إلى هذا الحد مع رجل كان يوماً شرساً بالغ الوحشية والقسوة ؟ ولعله كان مضطراً لكسب تحالف «موتيسا» فى سبيل إتمام طوافه بالبحيرة وكان بحاجة إلى حرس من بوجندا لمرحلته التالية . ولكن هجومه على (بسبيرى) كان نزقا وحماقة انتقامية ، وكانت مكافأة ستانلى على تدخله فى حروب (بوجندا) جوفاء مثل تظاهر « موتيسا » بالميل إلى المسيحية ، فإن الرجال الذين وعد بهم نكصوا عند أول فرصة ، وتركوا الرحالة يواصل سيره بدونهم !

وجدير بالمرء أن يتذكر أن ستانلى لم يكن قد تجاوز وقتئذ الرابعة والثلاثين من عمره ، وأن نوبة تأثير « لفينجستون » الوجيزة عليه ، ارتطمت بكل تجارب سنواته

السابقة ، حين تبين أن الدنيا مكان وعر لا يرحم . ومع ذلك فإنه حين شرع يكتب عن مذبحة (بمبيرى) — وكانت قد سنحت له فسحة كافية من الوقت للتفكير — روى القصة فى شراسة ، وبلهجة تكاد تكون تحدياً للقارئ . ومما كتبه : « . . . إن الهمجى لا يحترم سوى القوة ، والجرأة ، والحزم . . . »

وما كان أحد ليجادل فى أن الحياة قاسية فى أفريقيا الوسطى ، وأن الرحالة كثيراً ما كان يحتاج لأساليب العنف إذا شاء أن يعيش ، ولكن إظهاره ذلك بمظهر الفضيلة لم يكن من الحكمة . وقد كانت معظم أقوال ستانلى عن واجبات الرجل الأبيض فى أفريقيا والحاجة إلى نفوذ المسيحية ذات رنين أجوف . فقد لاح لمعظم الناس فى إنجلترا أن العلاقة بينه وبين موتيسا شبيهة بالعلاقة التى كان يمكن أن يقيمها أى نخاس عربى مع هذا الملك ، وأن حادث (بمبيرى) كان شديد الشبه بالمذبحة التى شهدها « لفينجستون » فى (نيانجوى) . وكان ثمة ذنب آخر ، هو أن ستانلى اندمج فى تلك الاشتباكات وهو يحمل العلم البريطانى ، الأمر الذى كان كفيلا بأن يسبب فى إنجلترا سخطاً ما كان ليجهله سوى أبعد الناس عن التعقل . ولكن عدم التعقل كان جزءاً من مقدرة ستانلى ، فما كان ليحفل بشىء . بيد أنه كان ممتازاً فى عمله الكشفى . ولقد تقبل فى عدم اكتراث فقدان الحرس الذين أمده بهم « موتيسا » ، وإن أدى هذا إلى عجزه عن أن يحدد نطاق بحيرة بيكر (ألبرت نيانزا) ، وبحيرة (ادوارد) التى تقع جنوب خط الاستواء مباشرة . فتحول جنوباً إلى (كاراجوه) ، حيث قضى شهراً مع « رومانيكا » فى (بويرانيانجه) . وكان رومانيكا قد طعن فى السن ، فقدر لستانلى أن يكون آخر رجل أبيض رآه حيًّا ، إذ مات بعد ذلك بقليل . والواقع أن عقله كان قد اختبل لوفاة ابن أثير لديه ، وللبؤس الذى حل به لفقده إبصار إحدى عينيه ، فأقدم على الانتحار . . .

ويمرق « رومانيكا » فى قصة أفريقيا الوسطى كشبح طيب ولكنه غير جوهرى . ويخيل للمرء أنه يعرفه وثيق المعرفة . فقد كان رفيقاً بسبيك وجرانت ، وها هو ذا يستقبل ستانلى بكل حفاوة ، فيريه — بشىء من الفخر — البندقية التى أهداه إياها « سبيك » قبل سنوات عديدة . وليس من المتعذر تمثله وهو واقف والبندقية فى يده ، عملاقاً — يتجاوز طوله ست أقدام — متشحاً ببطانية حمراء تجعل

منظره مثيراً للرثاء . فما كان من السهل أن يثب من العصر الحجرى إلى القرن التاسع عشر ! . . . ولقد كان « رومانيكا » بالغ القسوة فى صدر شبابه ، وهو يمحق المطالبين الآخرين بالعرش ، ولكنه كان أقل خبثاً ووحشية من « موتيسا » ، وكان له وقار لم يعتمد على مجرد تخطره فى حركات يقلد بها الأسد !

وإذ استجم ستانلى شهراً فى تلك المنطقة ، اتجه جنوباً إلى بحيرة تنجانيقا فغره أن وجد عند وصوله إلى (أوجيجى) ، أن مستوى الماء قد ارتفع ، فإذا النخلات الثلاث التى كانت فى ساحة السوق — عند ماكان هناك فى سنة ١٨٧١ — قد أصبحت تحت الماء . . وإذا الشاطىء الرملى الذى كان يسير عليه مع لفينجستون قد أصبح على ٢٠٠ قدم من الماء . وبدا هذا برهاناً على أنه لم يكن ينساب من البحيرة نهر ذو حجم يذكر . فاستقل السفينة « ليدى أليس » ، فى يونيو ١٨٧٦ ، وقبل انقضاء شهرين ، كان قد رجع ومعه قرينة على أنه لم يكن ثمة مجرى يخرج من البحيرة ويحتمل أن يوصف بأنه مصدر النيل . وبهذا انهارت نظريات « بيرتون » نهائيًّا ، وأصبح لسبيك — أخيراً — القدح المعلى .

بقيت المسألة الثالثة والأخيرة التى كان عليه أن يجلوها : ما هو نهر (لوالابا) ، ومن أين ينبع ؟ وإذا لم يكن هو النيل ، فما وضعه بين أنهار أفريقيا الوسطى ؟ . . وفى أغسطس ١٨٧٦ ، انطلق فى آخر مغامراته وأعظمها جميعاً ، وقد انخفضت حملته إلى نصف حجمها الأصلى .

وقصة رحلة ستانلى على السفينة « ليدى أليس » فى نهرى (لوالابا) و (الكونجو) إلى المحيط الأطلسى ، من أعظم المغامرات الأفريقية . فقد ظل أشهراً عديدة وليست لديه أية فكرة عن أين يفضى به النهر . . . كان من المحتمل أن يحمله شمالا إلى مصر ، أو إلى أى مكان من المناطق غير المستكشفة إلى الجنوب . ولكنه لم يجد بدًّا من المضى ، بعد أن انطلق . وتأخذ روايته للرحلة فى كتاب : « خلال القارة المظلمة » طابع قصص الغزاة الأوائل فى أمريكا الجنوبية ، إذ داهمته كل نكبة ممكنة ، من تحطم السفينة ، إلى الجوع ، واعتداءات القبائل التى على ضفاف النهر ، وفقده كل إمداداته ، ثم غرق آخر من بقى حيًّا من رفاقه البيض ، وهو

« فرانك بوكوك » . وبعد تسعمائة وتسعة وتسعين يوماً من مبارحتهم زنجبار ، برز الذين بقوا على قيد الحياة من الأدغال عند مصب الكونجو ، كاليغلان ، فأعادتهم جالية صغيرة من التجار الأوربيين إلى الحياة ثانية . ولم يكن باقياً من أتباع ستانلى الأصليين (٣٥٦) سوى ١١٤ ، بينهم ١٣ امرأة وأطفالهن ، فنقلوا بحراً إلى زنجبار .

وكان أعوان جوردون قد رسموا مجرى النيل — من شلالات ريبون إلى حدود السودان الراهنة — قبل رحلة ستانلى ، فسار « شاييه — لون » من المنبع حتى شلالات (كاروما) فى أوجندا الوسطى ، واكتشف بحيرة (كيوجا) فى طريقه . كما طاف « رومولو جيسى » الإيطالى ببحيرة البرت ، وتبع المجرى الخارج منها متجهاً للشمال حتى (دوفيله) .

ولكن عمل « ستانلى » كان أعظم هذه الأعمال ، فقد اتضحت إجابات كافة الأسئلة الضرورية : فإذا نهر « لوالابا » يتصل بالكونجو ويجرى عبر أفريقيا إلى المحيط الأطلسى ، والنيل ينبع من بحيرة فيكتوريا وينساب شمالا إلى مصر فالبحر الأبيض المتوسط . ولم تعد المساحة الخالية على الخريطة خالية . ولقد ظل من الممكن القول بأن المنبع الأول للنيل يقع ولا بد عند مصدر مياه المجرى الرئيسى الذى يغذى بحيرة فيكتوريا ، وهو نهر (كاجيرا) . والواقع أن ثمة قدر ملموس من الماء يندفع من مصب (كاجيرا) — عبر الركن الشمالى الغربى للبحيرة — إلى شلالات ريبون (أو ما كانت تعرف بشلالات ريبون ، قبل الخزان الذى أنشىء هناك فى الخمسينات من القرن العشرين لتوليد الكهرباء) . ولو أننا تتبعنا (كاجيرا) وروافده بضع مئات من الأميال نحو منبعه ، لوجدنا أقصى بدايته عند جبال يتجاوز ارتفاعها ٦٠٠٠ قدم إلى الشمال من بحيرة تنجانيقا . وهكذا كان « بيرتون » جد قريب من الصواب حين قال أن المنبع الحقيقى للنهر يوجد فى هذه المناطق . ولكن فى هذا إغراقاً ، فلو إن الجدل مضى إلى نهايته المنطقية ، لوجب القول كذلك بأن النهر يبتدىء فى أمطار السماء ذاتها ، وأن « هوميروس » كان مصيباً حين تحدث عن « النيل الهابط من السماء » . وقد يبدو من الأحجى — للأغراض العادية — تقبل موقع شلالات ريبون على أنه المنبع ، لأن النهر الجبار

لا يتخذ لنفسه مجرى محدداً إلا هناك ، فيتجه — أولا — نحو الجنوب خلال بحيرة (كيوجا) ، إلى (أوجندا الوسطى) ، ثم يتجه غرباً مجتازاً شلالات (كاروما) و (مرشيزون) إلى بحيرة البرت ، ثم شمالا — بوجه عام — خلال الجنادل الاستوائية ، ومستنقعات « السدود » ، وصحارى السودان الجنوبى ، إلى أن يلتقى بالنيل الأزرق فى الخرطوم ، ثم يمتد آلاف الأميال ، خلال فيافى رملية شاسعة ، حتى يصل إلى الأهرام ودلتا مصر اليانعة .

وبعودة ستانلى إلى زنجبار سنة ١٨٧٧ ، يمكن القول بأن ارتياد النيل الأبيض قد انتهى فعلا . وبقى أن نرى ما كان مقدراً للقوى السياسية والدينية فى العالم أن تفعل بمنطقة الكنوز الجديدة التى وضعت بين يديها !

الجزء الثانى

الاستغلال

الفصل الثامن

متسول على صهوة جواد !

كان خديو مصر « إسماعيل » قد بلغ — فى أواخر الستينات من القرن التاسع عشر — ذروة عهده . . . وهو يطل علينا من الصور التى التقطت له إذ ذاك وفى أساريره دهاء وتظاهر بالرضى ، ككلب البحر الماكر ، البراق الجلد ، وعليه سترة « فراك » سوداء — من طراز خاص كان يعرف فى الشرق الأوسط باسم « الاسطمبولية » — وطربوشه منحرف قليلا على رأسه ، وسوالفه بلون الرمل الأحمر ، تنسجم فى تناسق بديع مع الأوسمة التى تعلو صدره المكتنز . . . وهو يجلس على « الديوان » فى شىء من الاتكاء ، وقد عقد ساقيه . وخلفه باب حفرت عليه زخارف مفرَغَة ، يفضى — ولا شك — إلى قاعات القصر الداخلية ، ويوحى بجو « الحريم » والمآدب الشرقية . ولكنه ليس مغرقاً فى شرقيته ، بل بوسعك أن تصفه بأنه طراز جديد فى الحكام ، فهو عاهل « غربى شرقى » . وكان قد بلغ التاسعة والثلاثين — فى سنة ١٨٦٩ — وأصبح بعد ست سنوات فى الحكم ، حاكماً مطلقاً على مصر . كان من الناحية الرسمية « والياً » لسلطان القسطنطينية — إذ كانت مصر جزءاً من الدولة العثمانية — ولكنه فى الواقع كان ذا سلطان لانزاع فيه على دلتا النيل .

وكان يشعر بأنه غنى ، فينفق قروشه المقترضة بالبلايين . وكان خليقاً بأن يهتف على نسق البابا « ليو العاشر » : « ما دام الله قد منحنا الولاية ، فلنستمتع بها » ! ومن المحتمل أن سير « إفلين بارينج » ألفاه : « غير متعلم البتة » ، و « شديد الذكاء ، ولكنه سطحى ساخر » (ولعله كان يعنى أن إسماعيل لم يكن « غشيما » فى سخريته ، وإنما كان سطحياً بطبيعته ، وساخراً . على أن سير « إفلين » كان مسوقاً إلى موافقة كل شخص آخر ممن عرفوا الخديو على أنه كان ذا سحر فذ وطاقة فى معالجة شؤونه ، وهما أمران كانا فذين فى الشرق ومذهلين بالنسبة لشخص تربى كطفل مدلل فى باريس .

ولقد أحبه معظم الأوربيين الذين خدموه وأعجبوا به — ولو فى المراحل الأولى من عهده على الأقل — فوثق فيه بيكر والجنرال ج ردون ، عتقدا أنه كان صادقاً حين أبدى اعتزامه إلغاء تجارة الرقيق . ومن المسلم به أن بيكر وجوردون كانا ساذجين فى السياسة ، ولم يعرف أحدهما إسماعيل كما عرفه « بارينج » ، ولكنه أذكى شرارة من التحمس فى نفسيهما ، على الأقل . وكان يحسن معاملتهما جداً ، فقد كانا أداتين رائعتين للخطة العظيمة التى كان يدبرها ، وهى : صبغ مصر بالصبغة الغربية وخلق إمبراطورية مصرية فى شرق أفريقيا .

وكانت ولاية مصر — عندما خلف إسماعيل عمه « محمد سعيد » ، سنة ١٨٦٣ — متينة مالياً ، بل موفورة الرخاء . فإن الحرب الأهلية الأمريكية أحدثت ارتفاعاً سريعاً فى سعر القطن ، فزادت قيمة المحصول المصرى من خمسة ملايين إلى ٢٥ مليوناً من الجنيهات .

ولقد حول إسماعيل ديونه الخاصة على الدولة ، ورفع الضرائب ، وبدأ يعمل ، فراح ينفق المال بتبذير يتضاءل بجانبه أى تصرف لشيوخ البترول فى الشرق الأوسط فى القرن العشرين . ولم ينجذب إلى خدمته الأمناء — كبيكر وجوردون — فحسب ، بل هبط على مصر وباء من المغامرين كذلك ، وعكفوا بسهولة على إنفاق أموال إسماعيل بأسرع مما كان يقترضها . . . وتقول الأرقام إن الدين القومى المصرى كان ثلاثة ملايين من الجنيهات حين تولى إسماعيل الحكم ، فاستطاع بعد قليل أن يحوله إلى عجز بلغ مائة مليون من الجنيهات ، فى وقت كان الجنيه يساوى ضعف أو ثلاثة أمثال قيمته اليوم . وبإيجاز ، أفلست مصر ، وعرف إسماعيل الأفخم ، بـ « المليونير المعدم » .

على أنه فى سنة ١٨٦٩ — قبل حلول النكبة ببضع سنوات — كان قد فعل الكثير ليُظهر ثراءه . فإن صبغ مصر بالصبغة الغربية انطوى على أنواع من الإصلاح الداخلى : من قنوات جديدة ومنشآت للرى ، إلى إعادة تنظيم الجهازين الجمركى والبريدى ، إلى خلق احتكار جديد للسكر ، وعدد من المشروعات التجارية الأخرى . ولقد أنشأ جيشاً جديداً مطرد الزيادة ، وأعيد تجديد بعض أرجاء القاهرة ذاتها . وبدلا من الشوارع غير الممهدة والبيوت الخشبية المتداعية ،

نشأ حول قصر عابدين – وكان أحد القصور الجديدة التى أنشأها إسماعيل لمقامه الخاص – حى تجارى وسكنى جديد، مشيد بالحجر. وظهر مسرح ودار للأوبرا، وحظى البدو بمنظر بديع تمثل فى قطار يرسل دخانه عبر الصحراء. وكان إسماعيل مسرفاً فى إنفاقه الخاص كذلك، فبهدية تألفت من يخت بخارى، و « طاقم » للمائدة مرصع بالماس، ومبلغ كبير من المال، حصل على « فرمان » من السلطان فى القسطنطينية أصبح بمقتضاه خديوا – أو نائباً للسلطان – وذا استقلال حقيقى. وكانت هناك رحلاته البذخة إلى الخارج، واحتشاد بيوته بالنساء والعبيد، وجواهره، وتحفه، وأثاثاته المستوردة من فرنسا.

وفى سنة ١٨٦٩، كان متهيئاً لأكبر عرض لمظهره. إذ انتهت قناة السويس، فصمم على افتتاحها بسلسلة من الحفلات التى تعزز سمعة مصر كدولة جديدة وهامة فى العالم. ولم تكن القناة مشروعاً مصرياً فى الواقع، ولكن الخديو كان منغمساً فيه إلى حد كبير. فلقد ألف « فرديناند دى ليسبس » شركة السويس العالمية للملاحة البحرية سنة ١٨٥٤، وحصل من محمد سعيد على امتياز لمدة تسع وتسعين سنة من تاريخ الافتتاح (تصبح بعدها القناة ملكاً لمصر). ولقد تورط « دى ليسبس » منذ البداية من كل جانب، إذ كان المعتقد أن المشروع ذاته مستحيل، برغم أن أكثر من قناة شقت فى الموقع، فى الأزمان الغابرة. وكان نابليون قد أمر – إبان غزوه مصر سنة ١٧٨٩ – بمسح المنطقة، فقدر مهندسه أن ثمة فارقاً يبلغ ثلاثاً وثلاثين قدماً بين مستوى البحر الأبيض المتوسط ومستوى البحر الأحمر، مما يحول تماماً دون إنشاء قناة بينهما (والواقع أنه لا فارق يذكر بين المستويين). وجاءت نفقات المشروع – وقد بلغت فى النهاية ٢٨٧ مليوناً من الفرنكات الذهبية – أعلى من التقدير الأصلى، كما استغرق إتمام العمل عشر سنوات بدلا من ست. ولقد رفض الممولون البريطانيون الاشتراك فى المشروع، فجمعت معظم الأموال اللازمة من مصادر فرنسية وتركية، وحازت مصر أربعة أعشار الأسهم.

كذلك كانت ثمة معارضة متكتلة ضد القناة، لأسباب سياسية، لا سيما من بريطانيا. كان « بالمرستون » يكره التدخل الفرنسى فى الشرق الأدنى، ويعتقد

أن مصالح الملاحة البريطانية قد تتأثر . بل إن الجدل دار فى فرنسا ذاتها ، فقيل إن القناة ليست ضرورية ، لأن الأسلوب المتبع فى عبور البرزخ المصرى كان مناسباً ، إذ كان المسافرون الوافدون من البحر الأبيض المتوسط ينزلون بالإسكندرية ، ويستقلون السكة الحديدية الجديدة إلى السويس ، حيث يستقلون سفينة أخرى فى البحر الأحمر ، وتتبع الإجراءات ذاتها فى الاتجاه العكسى . كذلك قيل إن القناة إذا أنشئت ، فسرعان ما ستصبح هدفاً سياسياً وميدان قتال . وهى نقطة شاءت الظروف أن تظهر بأجلى صورها فى الخمسين عاماً الأخيرة .

ولكن إصرار « دى ليسبس » لم يكن يحده شىء . فقد حصل على النقود ، ورسم مشروعه (قناة طولها مائة ميل ، وعمقها ثمانية أمتار ، وعرض قاعها عشرون متراً . وبجوارها قناة عذبة مستمدة من النيل) . وأمده الخديو بجيش من العمال المسخرين ، ولقد ظهرت — أثناء العمل — عقبات فنية كثيرة ، لم يكن بد من تذليلها . . . مثال ذلك أنه تبين أن كسح الرمال وهى مبتلة كان أفضل من كسحها وهى جافة . وعطّل تفشى الكوليرا العمل ، كما أن عدد الوفيات كان فظيعاً بسبب مشاق الحياة فى صحراء مصر الشرقية ، وهى من أسوأ صحارى العالم . على أن الكيان الرئيسى للقناة تم فى نهاية سنة ١٨٦٩ ، فأفحم معظم الناقدين . **واتضح أنه ما من أمة بحرية تستطيع أن تتجاهل — أو تقاطع — المشروع ، لا سيما بريطانيا . إذ نقصت الرحلة من أوربا الغربية إلى الهند والشرق الأقصى إلى النصف وقتاً ومسافة ! . . وكان ذلك اقتصاداً حيويا ، إذ كانت السفن البخارية — التى تستخدم الفحم وقوداً — قد بدأت تحل محل السفن الشراعية . وكان اختصار الرحلة حول رأس الرجاء الصالح يعنى أن نظام دفاع الإمبراطورية البريطانية بأسرها قد تغير ، لأن انتقال الجنود والسفن من المحيط الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندى أصبح سريعاً !**

كذلك كان من الجلى أن عرض القناة وعمقها كفيلان بالتأثير على تصميم السفن ، وإن كافة أنواع الأقاليم المهملة من الممكن أن تتفتح للحضارة الغربية . وقد علقت صحيفة « النيويورك هيرالد » — صحيفة « ستانلى » — فى افتتاحيتها : « إن قناة السويس تقرب اكتشافات سبيك ، وجرنت ، وبيكر ، وبيرتون ،

ولفينجستون الأخيرة — حول المنابع الاستوائية للنيل — إلى متناول الاستعمار الإنجليزى » .

وكانت ثمة نقطة أخرى ، هى أن القناة كانت جزءاً من سعى فرنسا لفرض نفوذها على مصر ، ولتحقيق حملتها العامة لزحزحة البريطانيين من المركز الذى أتاح لهم نفوذاً متزايداً فى أفريقيا الشرقية ، والشرق الأدنى . فلقد أنشأ القناة فرنسى ، ومولتها أموال فرنسية ، فاعتزم الفرنسيون استغلال امتيازهم كل الاستغلال . وأصبح بوسعهم أن يدعوا أن لهم مصلحة حيوية فى مصر ، وحقا راسخاً فى التدخل فى الشؤون السياسية المصرية .

واتسمت تدابير إسماعيل لافتتاح القناة — وقد حدد لذلك يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ — ببذخ هارون الرشيد . فتقرر أن تستمر المهرجانات والحفلات أربعة أيام فى القاهرة وعلى القناة ذاتها . وفى القاهرة أنشأ إسماعيل دار الأوبرا ، وعهد إلى « فيردى » بوضع أوبرا « عايدة » لحفلة الافتتاح (وإن كانت الأوبرا لم تعرض بمصر إلا فيما بعد ، فى الواقع) . وبيعت قطع من الأرض فى وسط المدينة لتدبير المال ، وسلطت أنوار « المغنيزيوم » على الأهرام . وأقيمت فى بور سعيد ثلاثة سرادقات : واحد لأرقى الضيوف ، والثانى للعلماء المسلمين ، والثالث للمسيحيين . وأعدت ذخيرة من الصواريخ النارية لتحية الافتتاح ، واستدعى من فرنسا وإيطاليا ٥٠٠ طباخ و ١٠٠٠ خادم لتقديم الطعام لستة آلاف ضيف ، ووفرت أحسن الخمور وأغلى الأطعمة دون حساب بطبيعة الحال .

وفى الإسماعيلية — النقطة الوسطى على بحيرة التمساح — أنشئت مدينة جديدة بها قصر وفنادق وأكواخ أنيقة ، إذ تقرر أن يلتقى عندها الأسطول المقل لكبار الضيوف من بورسعيد ، بأسطول من السفن الصغيرة القادمة شمالا من السويس ، وبهذا يتصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر لأول مرة .

وما كان ينتظر أن تمر كل هذه الاستعدادات البذخة دون مُعكِّرات ، ففى بورسعيد انفجر مخزن للصواريخ النارية وكاد يقضى على المدينة . وفى اللحظة الأخيرة احتكت سفينة بالقاع وسدت القناة ، فهرع دى ليسبس إلى مكانها على صهوة جواد وأمر بنسفها .

على أن صباح ١٧ نوفمبر طلع وكل شيء مهيأ للبدء ، وقد تجمع عدد كبير من السفن عند بورسعيد . وازدانت المدينة والسفن بالأعلام . وبارك القناة رجال الدين المسلمون والأرثوذكس اليونان والأقباط والكاثوليك الرومان ، وأطلق كل ماتيسر من مدافع وبنادق ، وعزفت عشرون فرقة موسيقية عسكرية . وخلال دخان البارود افتتحت الأمبراطورة الفرنسية « أوجيني » — على سطح اليخت الإمبراطورى « إيجل » — القناة . وتبعها إسماعيل على « المحروسة » ، وسيفه الملكى يتألق بالجواهر ، وإمبراطور النمسا (فى سترة عسكرية بيضاء و « بنطلون » قرمزى ، وقبعة تعلوها ريشة خضراء) . وعدد من أعضاء العائلات الملكية والرسميين على سطح مدرعتين نمسويتين وخمس مدرعات بريطانية وسفينة حربية روسية ، وعدد كبير من السفن بعضها بخارية والبعض شراعية ، بلغ مجموعها حوالى سبعين سفينة .

وتم اللقاء مع الأسطول الصغير — القادم من السويس — فى الإسماعيلية ، عند الغروب . ووسط حفل هائل نودى بأن أفريقيا أصبحت جزيرة . وهبط الضيوف إلى البر لحضور مأدبة وعرض للصواريخ النارية وحفل راقص أضاءه ١٠,٠٠٠ مصباح . ونعمت الإمبراطورة أوجيني — أثناء مكثها بالإسماعيلية — بركوب الجمل بينما راح العشائر البدوية يطلقون بنادقهم ، ثم مخر الأسطول عباب البحر الأحمر .

وكانت الأسرة المالكة البريطانية غائبة عن هذه الأفراح ، ولكنها فى الواقع استبقتها ، إذ جاء أمير ويلز وأميرتها (اللذان قدر لهما بعد ثلاثين سنة أن يصبحا الملك إدوارد السابع والملكة ألكسندرا) فى زيارة رسمية إلى مصر قبل ذلك بأشهر . وكانا حاضرين عندما شقت الفتحات فى البحيرات المرة نحو الطرف الجنوبى للقناة . . . (وقد كانت فرصة ذهبية للأمير ذى الميول المتصلة بعلوم الطبيعة والبحار) . وبعد انتهاء تلك المتعة البحرية ، قام الأميران برحلة نيلية إلى الأقصر .

وكانت هذه الزيارة هى التى أرجعت صمويل بيكر وزوجته إلى أفريقيا . فقد دُعى بيكر — لمعرفته باللغة العربية وبمصر — ليصحب الزائرين كمترجم . وفى حفلة رقص تنكرية أقامها « دى ليسبس » ، انتحى إسماعيل بالرحالة جانباً ،

وعرض عليه مشروعاً خطيراً ، إذ قال إنه قرر إيفاد حملة عسكرية لضم أعالى النيل لمصر ، والقضاء على تجارة الرقيق هنالك . أفيقبل بيكر قيادتها ؟

وكانت الشروط سخية ، فوق ما عرف عن سخاء إسماعيل ، فقد كانت تتيح لبيكر أن يصبح باشا ، و « ميجر جنرال » ، وأن يختار أركان حربه ، ويتقاضى ٤٠,٠٠٠ جنيه عن السنوات الأربع التى يشغل فيها المنصب . أما القوة التى يقودها ، فكانت تتألف من حوالى ١٧٠٠ رجل ، وكان مطلق اليد فى شراء العتاد لهم .

ولو أن رجلا غير بيكر ، يفوقه فى الفكر السياسى ، صادف هذا العرض ، لكان المحتمل أن ينظر لهذه الشروط بشىء من التوجس . **فمثلا ، كان ثمة شك كبير فى صدق رغبة إسماعيل فى إلغاء تجارة الرقيق ، إذ كان هو نفسه من كبار مقتنى العبيد ، وكان الفلاحون المستخدمون فى ضياعه الشاسعة ، وجحافل الخدم فى قصوره أحراراً فى الظاهر ، ولكنهم — فى الواقع — مشدودون إلى أعمالهم كرقيق الأرض فى روسيا ، وكان إسماعيل يتحكم فى حياتهم وموتهم . أما بالنسبة لتجارة الرقيق فى السودان ، فإن إسماعيل كان يدرك تماماً أن جميع موظفيه هناك موغلون فيها ، بل إنه منح بعض النخاسين عقوداً رسمية تخولهم استغلال أعالى النيل !**

ولكن إلغاء النخاسة كان قد أصبح صيحة سياسية كبيرة فى أوربا وأمريكا ، وتبين لإسماعيل أنه جدير بأن يبدى — ولو ظاهريا — انضمامه للحملة ضد الرقيق ، إذا أراد أن يستمر فى تلقى تأييد العالم الغربى ، فما كان له عن هذا التأييد غنى ، إذ كان بحاجة إلى مزيد من المال من أوربا ، وإلى تعضيد سياسى لأغراض أعظم كان يتطلع إليها ، هى بسط سلطانه على السودان الجنوبى وأفريقيا الشرقية والحبشة . وكان لزاماً أن يتم هذا باسم المدنية ، فتحمل مصر الجديدة بركات العالم الحديث إلى تلك الأصقاع الهمجية فى الجنوب .

وهل كان ثمة من يستطيع المعارضة فى إعداد هذه الحملة ؟ . . . الواقع أنه ما من دولة أخرى كانت تعتزم ترويض وتحضير تلك الأصقاع ، وكان إسماعيل يقيناً هو الحاكم الجدير بهذا العمل — بحكم المنطق — لشدة قربه منها ، ولعقليته

الغربية . وكان من المعقول الأخذ بحسن نيته إلى أن تثبت غير ذلك . هكذا — على أية حال — تراءى لصمويل بيكر ، ولأمير ويلز وللحكومة البريطانية بلا شك . وقبل بيكر ما عرضه الخديو ، وعكف على التدبير بهمة ودقة ، وبدون اكتراث للنفقات . كانت رحلته الأولى فى النيل قد حولته من صائد وحوش إلى مكتشف ، فقدر للمكتشف أن يتطور إلى جندى وإدارى !

وكان أعوانه الأوربيون عشرة : ابن أخيه — الملازم جوليان بيكر — وقد استخدم بمرتب قدره ٥٠٠ جنيه فى العام ، كمساعد شخصى للقائد ، ثم الدكتور جوزيف جيدج كطبيب ، ومهندسان — هما « هِدْجينبوثام » و « مَكْويلْيم » — و « ماركو بولو » أمين المخزن والمترجم ، و « جارفيس » صانع السفن وأربعة مساعدين له . وكانت « ليدى بيكر » المرأة البيضاء الوحيدة التى سُمِح لها بمرافقة الحملة .

وبعد ذلك ، كان لا بد من تنظيم القوة بأسرها على أساس عسكرى صحيح ، فيكون ثمة لواءان ، أحدهما من الجنود السودانيين ، والآخر من المصريين (الذين ظهر أن أغلبهم من المجرمين اختيروا من سجون القاهرة) . ومن هؤلاء انتقى بيكر — فيما بعد — حرساً خاصا تألف من ثمانية وأربعين من أمهر الرماة . وقد ألبسهم طرابيش ، وزِيًّا قانياً ، وأطلق عليهم اسم « الأربعين حرامى » ! ! والى جانب هؤلاء كانت ثمة سرية من ٢٠٠ فارس ، وبطاريتان من المدفعية .

وتلت ذلك المهمات ، وكان لزاماً أن تكون من أحسن الأصناف . فأمر بيكر بصنع أسطول صغير فى إنجلترا ، من سفن يمكن تفكيكها ليتسنى جرها أو حملها على الإبل عبر الصحراء ، ثم تجميعها وإنزالها إلى النيل بعد الشلالات ! وكان طول كُبرى السفن مائة قدم ، ولها دولاب يدوى قوة عشرين حصانا ، وزنتها ٢٥١ طنا . وإلى جانبها سفينتان بخاريتان صغيرتان (١٠٨ أطنان و ٣٨ طنا) ، وقاربا إنقاذ زنة كل منهما ١٠ أطنان .

ومن إنجلترا كذلك اشتُرِيَت مهمات ومعدات بتسعة آلاف جنيه ، لتكفى مدة أربع سنوات ، وقد تضمنت « كل شىء ، من الإبرة إلى العتلة ، أو من المنديل إلى شراع السفينة » . . . وأخيراً ، كانت هناك لعب ، وطبول ، وعلب

موسيقية ، وبطاريات مغناطيسية ، لبهر أنظار الأهالى وإدخال السرور عليهم . . ومن بين تلك المهمات خمسون ألف مشط من الذخائر ، ومائتان من صواريخ « هيل » ، وأدوات من كل نوع لإقامة المعسكرات ، وأدوية ، وسترات من أزياء الجنود والضباط ، وأربع مظلات حديدية كبيرة طول كل منها ثمانون قدماً . . إلخ .

وكان على الجزء الرئيسى من الحملة أن يذهب على دفعات بطريق النيل ، بينما سبقهم بيكر وزوجته إلى الخرطوم عن طريق البحر الأحمر (ومعنى ذلك كان الانتقال إلى النيل عند سواكن) . وكانت تدابير النقل محكمة ، فاستخدمت مئات الإبل . وفى النهاية استدعى نقل الجنود ومهماتهم من القاهرة أسطولاً من تسع بواخر وخمسة وخمسين مركباً شراعياً . كانت حملة لم ير أو يحلم بمثلها أحد فى أفريقيا الوسطى .

وكانت ثمة معوقات بطبيعة الحال ، فبخلاف التوانى الذى يسود كل عمل فى مصر ، كانت ثمة رغبة شديدة بين أصحاب المصالح فى استمرار الرق ، لعرقلة الحملة ، إن لم يكن منعها . . . كما أن احتفالات قناة السويس جعلت من العسير على بيكر الحصول على المراكب . لذلك كانت أعجوبة أن استطاع فى فبراير سنة ١٨٧٠ — ولما يكد ينقضى عام على تعيينه — أن يجمع قوته فى الخرطوم ، ويتأهب للذهاب إلى (جوندوكرو) التى رؤى أن تكون القاعدة الرئيسية لعملياته . وما إن وصل إلى الخرطوم حتى تبين أن الحاجة كانت ماسة لوجوده ، فإن تجارة الرقيق أصبحت عشرة أضعاف ما كانت عليه من سوء أيام حملته السابقة ، وإذا البلاد بأسرها خراب ، حتى الخرطوم ذاتها نقص أهلها (وكانوا ٣٠,٠٠٠) إلى النصف ، تحت وطأة الضرائب التى فرضها الموظفون المصريون[١] وتحت نهبهم . وكفَّ الأفريقيون — فى القرى المحيطة — عن الحرث ، إذ كانت محصولاتهم تنتزع منهم . فأصبح الإقفار مستشرياً على طول النهر ، ولا شىء سوى السواقى العاطلة ، والحقول التى عادت صحراء قفراء .

وبات المستجلب من العبيد — من أعالى النيل — حوالى ٥٠,٠٠٠ سنوياً ، وارتفع عدد العرب العاملين فى النخاسة إلى ١٥,٠٠٠ على الأقل ، صار بعضهم

---

(١) لسنا بحاجة إلى تكرار أن من الظلم اعتبار الحكم الذى كان قائماً فى السودان مصرياً ، فالواقع أن المظالم التى يذكرها المؤلف كانت تجرى فى مصر كذلك تحت أسرة محمد على ! (المترجم)

مستقلا قوى النفوذ ككبار الإقطاعيين اللصوص فى العصور الوسطى ، فكان منهم — مثلا — شخص يدعى « العقاد » ، أحرز عقداً حكوميا يتيح له حقوق الاتجار فى منطقة مساحتها ٩٠,٠٠٠ ميل مربع ، وكان له جيش خاص صغير. ولقد تطلع كل هؤلاء إلى بيكر كعدو لهم ، ولم يكن يملك أن يفعل ما يمسهم فى منطقة الخرطوم ، إذ أن منصبه لم يكن يخوله سلطاناً هناك . على أنه كان يسعى إلى أعالى النيل ، المورد الرئيسى للعبيد ، وقد منحه الخديو سلطة مطلقة هناك ، فبوسعه أن يوقف أى مركب تحمل عبيداً فى النيل ، فيحرر الضحايا المخبئين بداخلها ، ويقبض على النخاسين ، غير حافل بما إذا كانوا ذوى صفة رسمية ، أو يعقد محاكمات قصيرة ويقضى بأية عقوبة حتى الأعدام !

وأبحر فى ٨ فبراير ١٨٧٠ إلى الجنوب ، مصطحباً أكثر من ١٠٠٠ رجل مسلح ، كانوا من القوة بحيث يكفونه أية معارضة فى النهر . ولكن النهر نفسه ناصبه العداء ، إذ لم يكن أى جهد قد بذل — خلال السنوات الخمس التى انقضت منذ زيارته السابقة لأعالى النيل — لشق قناة خلال « السدود » ، فإذا المجرى — فى سنة ١٨٧٠ — يتوارى تحت كتلة إسفنجية من النباتات المتشابكة ، فى أماكن كثيرة . فقضى جنود بيكر شهرين فظيعين يشقون قناة ، ولكنهم لم يوفقوا للوصول إلى أكثر من بضعة أميال . وكانت جزر من الركامات لا تكف عن الأطباق حول السفن . وفى تلك الأثناء ، كان مستوى النهر ينخفض بسرعة وهو متوار تحت البوص . فقرر بيكر — فى أوائل أبريل — أن يتقهقر ويقيم معسكراً على اليابسة بقرب موقع مدينة (ملاكال) الحالية ، ثم ينتظر الفيضان السنوى التالى ، فى أواخر العام .

ولم تنقض الأشهر السبعة التالية سدى ، فقد أخذ يتصيد سفن العبيد على النهر — شمال ملاكال — ويعيد تهيئة حملته . ولم تحن أوائل ديسمبر ١٨٧٠ ، حتى كان بيكر متأهبا ليكرر المحاولة . وكان الماء قد ارتفع فى النهر ، وثمة نسيم شديد يهب من الشمال . فانطلقت إلى المستنقعات البغيضة تسع وخمسون مركبا تحمل ١٦٠٠ رجل وامرأة ، تصحبهم « ليدى بيكر » . ومر شهران وهم يزحفون ياردة إثر ياردة فى « بحر الجبل » ، يحيط بهم منظر متكرر يوميا فى رتابة ، والجنود يخوضون الوحل كارهين ، وبعضهم يعملون بأسلحة معقوفة فى سدود البوص

المتشابك ، بينما يشد آخرون المراكب بحبال لتمر خلال الثغرات ، ويكنسُ غيرهم الوحل المتراكم بالمجارف . وكان الحر خانقاً ، فانهار كثيرون ، إما بالحمى أو بضربة الشمس . وأخذت المراكب تغرق أو تعجز عن المضى فى الوحل تباعاً ، ولم يكن من مهرب من البعوض أثناء الليل ما لم يهبط الرجال ليناموا محوطين بدخان النيران . ولكنهم لم يكونوا يملكون هبوطاً فى أغلب الطريق ، إذ لم تكن ثمة يابسة ، وإنما مسافات لا نهاية لها ، من نبات البردى المتشابك ، والمستنقعات تحته . وتشق اليوم بحر الجبل قناة ، فلا يستغرق « الرفاص » النيلى — فى عبور هذا الجزء من السدود — ثلاثة أيام ، ومع ذلك فلا تزال الرحلة مضنية مرهقة . ولا بد أن التخبط ، أشهراً بأكملها ، فى ذلك هذا السجن النباتى الرهيب — دون ما يقين من إمكان مبارحته — كان تجربة قاسية على عقل أى إنسان عادى ، حتى إن أعصاب بيكر نفسه بدأت تتداعى حوالى مارس ١٨٧١ ، فكتب فى يومياته : « من المستحيل أن نعيِّن أين نحن » ، وأخذ يردد أنه لم يكن ثمة أمل ظاهر . . . ولم يعد الجنود المصريون يعبأون بحياة أو موت . بل لقد مات منهم كثيرون .

وكان « جيدج » الطبيب قد انهار قبل مدة ، وأرسل للخرطوم ، فلم يعد هناك من يعالج المئات الذين كانون يسقطون صرعى الملاريا والديسنطاريا . ولاح أن بيكر وزوجته هما الوحيدان اللذان استطاعا الاحتفاظ بصحتهما ، بمعجزة ما . وفى أوائل مارس بدأ النيل يهبط بمعدل يثير الفزع . وكتب بيكر — فى ٩ مارس — أن الأسطول بأسره قد عجز عن التقدم . ولكنه — فى اليوم التالى — اندفع فى قارب استطلاع خفيف ، فبلغ المياه الصافية ، عند التقاء « بحر الجبل » و « بحر الزراف » . وكانت لحظة هائلة ، فدعا رجاله المكدودين إلى بذل مجهود أخير . ويقول فى هذا :

« قررت لفورى عمل سدّ خلف السفن لأغلق الموقع الذى كنا فيه على شكل خزان . فقد أكد لى إدراكى أن هذا سينجح ولا بد فى رفع مستوى الماء ، لو أننا استطعنا إنشاء سد متين يتحمل ضغط الماء . وكانت لدى كمية كبيرة من خشب الشربين على شكل ألواح وأرماث لأغراض البناء . لهذا وجهت مستر هيلجينبوثام لإعداد صفين من الأعمدة تدق بعرض النهر » .

وعمل ١٥٠٠ رجل طيلة اليومين التاليين لملء أكياس بالرمال والطين ، ولربط حزم كبيرة من العصى أو أعواد البوص . وأُعِدّ لكل هذا ليُرَصّ حول الأعمدة فيكون حاجزاً مستمراً بعرض النهر . ولم يحن يوم ١٣ مارس ، حتى كان كل شيء معداً . ويقول « بيكر » :

« ووقفت على إحدى المراكب الغائصة فى الوحل ، على بضع ياردات من صف الأعمدة . ووقف نافخو الأبواق وقارعو الطبول على مركب آخر ليصدروا الإشارة . وعند أول بوق حمل كل اثنين كيسين من الرمال والطين . وما لبثت الأبواق والطبول أن دوت مرة واحدة ، فألقى ٥٠٠ كيس ثقيل إلى صف الأعمدة ، وراح الرجال يدكونها بأقدامهم بشدة . . . وأخذ الجنود يعملون بنشاط عارم . . . وبينما كانوا يدكون ، أخذوا يرقصون بتهوس على الكتل ، والكل يصرخون ويصيحون بانفعال شديد ، والأبواق والطبول تبعث ضجيجاً لا ينقطع . وألف صف مزدوج من الرجال سلاحاً للنقل ، وأخذوا يتناقلون حزم العصى والبوص لإيصالها للعمال الذين وقفوا فى الماء يحبكون كتل الرمال والطين . وفى الساعة الثانية والربع مساء ، كان النهر قد أغلق تماماً ، وراح الرجال يعملون بنشاط مضاعف فى إنشاء الجزء الأعلى من الخزان ، الذى ارتفع كقنطرة تمتد مائة وعشر ياردات من شاطئ إلى شاطئ . وفى الساعة الثالثة والنصف ، كان الماء قد ارتفع لدرجة اضطرت الرجال إلى أن يسبحوا فى بعض الأماكن . وإذا الباخرة — التى كانت غائصة بشكل لا حيلة إزاءه — والأسطول كله ، تطفو فى البِرْكة » .

وهكذا انتهت متاعبهم أخيراً . وانتقلت المراكب واحدة بعد أخرى إلى المياه الصافية ، وبعد شهر كانت ترسو تحت أطلال بيت البعثة التبشيرية النمسوية فى (جوندوكرو) . وكان المكان فى أسوأ حال ، ولكن بيكر شرع فى نقل مهماته وبناء حصن هناك ، وكان الخروج من منطقة « السدود » كافياً لإنعاش الأمل ، فلم تحن نهاية مايو ، حتى أقيم صف منظم من الأكواخ تحيط به حدائق للخضر وحقول بذرت بالأذرة . وفى ٢٦ مايو ، انهمك بيكر فى حفل كان خليقاً بأن

يثير الرثاء لو تولاه شخص آخر . فقد نظم عرضاً لألف ومائتين من رجاله فى أزياء عسكرية نظيفة ، ورفع العلم العثمانى على صار ارتفاعه ثمانون قدماً ، وأعلن بصوت مهيب ضم البلاد التى حوله إلى مصر ، فأصبحت تعرف باسم (مديرية خط الاستواء) ، وأطلق على (جوندوكرو) — العاصمة الصغيرة — اسم « الإسماعيلية » تكريماً للخديو إسماعيل . ولم يكن هناك من يسجل المنظر للعالم الخارجى ، ولا من يشاهده ، سوى رجال قبيلة « بارى » العرايا ، الذين لم يفهموا شيئاً مما كان يجرى ، وأخذوا يشنون غارات ليلية على المعسكر ، ولكن بيكر وأصدقاءه كانوا مطمئنين بعد الحركة الرسمية التى اتخذوها ، فتناولوا تلك الليلة عشاء من شواء البقر ، وعصيدة دسمة ، وخمراً من « الروم » .

وبقى عامان على انتهاء مدة عقد بيكر ، وقصة هذين العامين فى معظمها قصة حرب استعمارية ، فقد تحولت البعثة إلى حملة عسكرية لـ « تهدئة » وحشية البلاد .

وكانت « التهدئة » ذات مفهوم مشئوم ، فقد أدرك الكثيرون — فى السبعينات من القرن التاسع عشر — إنها تورية مقصودة لتغطية الحقائق البشعة العمليات الحربية ضد الأقوام البدائيين شبه العزل . ولقد ثارت مشاعر نبيلة وإنسانية قوية — فى إنجلترا — عند ما عرفت تفصيلات حملة بيكر . ومع ذلك فمن العسير أن نرى كيف كان بوسعه أن يتصرف تصرفاً آخر بعد أن بدأ المغامرة . فلقد تورط فى نظام للتوسع دُمِغَ منذ ذلك الحين بكلمة « استعمار » . . . أى استغلال القوى للضعيف . . . وهو مظهر من مظاهر السلوك الإنسانى حسب صديق بيكر المدعو « كومورو » أنه فهمه حق الفهم حين قال : « إن الضعفاء وحدهم هم الطيبون ، وهم طيبون لأنهم أضعف من أن يستطيعوا أن يكونوا أشراراً ! »

ولكن من عدم الانصاف ، ومن الانسياق للعاطفة ، أن ننظر للاستعمار على هذا الضوء ، لا سيما فى أواسط أفريقيا[1] . فقد كانت ثمة منطقة شاسعة تركت دون أن تمس عبر القرون . ولعله كان من الخير أن تترك كذلك ، فإن القبائل المحلية كانت صالحة برغم ما فيها من وحشية وآلام وعدم طمأنينة . ولكنها فى الواقع لم تترك وشأنها ، بل إن التجار العرب نفذوا إليها دون ما غرض سوى الكسب

---

(١) لا يستغرب هذا القول من مؤلف بريطانى ! (المترجم)

الشخصى ، وانتزعوا من أفريقيا الحيوان والإنسان على السواء ، كما ينتزع مستغل المناجم الصخر من الأرض . فلم تحن سنة ١٨٧٠ ، حتى كانت هذه « الجنة » البدائية قد شُوهت ولُطخت وأصبحت مباءة . ولاح لبيكر ومن على شاكلته ، أن من الواجب الأدبى على الحكومات المتمدينة أن يستتب النظام ثانية ، وأن يُطْرد النخاسون الأجانب المستهترون ، وأن يلقن الأهالى كيف يعيشون بسلام ، وعلى مستوى أرفع مما كانوا عليه . ومن الطبيعى أن الأمور اختلطت على الأهالى ، فبدا لهم أن بيكر ليس سوى نوع آخر من النخاسين والغزاة ، فشنوا عليه الحرب ، وكانوا كلما عنفوا فيها ازداد بيكر شعوراً بضرورة إخضاعهم من أجل خيرهم . وما لبث أن وجد ألاّ بد من احتلال الأرض ، وفرض القوانين الصالحة بالقوة . وهكذا قام — على غير رغبة منه — استعمار جديد [1].

وكان الكثير يتوقف على الوسائل التى استخدمت لتحقيق هذه الغايات الجليلة. فكان من الجلى أن بوسع قائد حكيم ، قوى ، صبور أن يعالج فترة الانتقال الشاقة بشدة أقل وحشية مما يعالجها جندى صارم من بناة الإمبراطورية ، يسعى إلى اكتساب مجد لنفسه . ولا مراء فى أن بيكر كان — فى دخيلته — حكيماً ، قوياً ، صبوراً . وكل ما هنالك أن حظه العاثر ساقه إلى عملية الاستعمار فى أفريقيا الوسطى ، تحت رعاية الخديو الذى كانت تحيط بأغراضه الشبهات ، وفى أقسى وأوعر لحظاتها . فكان على حملته أن تقاتل دفاعاً عن حياتها ، ولو لم يستخدم أساليب الشدة لما فشل فقط ، بل لمات .

لذلك فإنه صدّ عشائر « البارى » بالبنادق ، حين هاجمته بالسهام المسمومة عند (جوندوكرو) . وعندما رفضت أن تبيعه ماشية وغلالا ، عمد إلى الإغارات للاستيلاء على القوت اللازم لرجاله . ولم يكن كل هذا بسيطاً أو سهلا ، فإن العرب

---

(١) يبدو أن الكاتب الأجنبى — مهما يحاول التزام الحيدة التى يتطلبها البحث العلمى — لا يلبث أن ينساق للنعرة . وإذا كنا قد تسامحنا إزاء ما بثه فى سطوره من محاولة الإساءة إلى الإسلام والعرب ، فى أحاديثه عن النخاسة ، استناداً إلى ما نؤمن به من استنكار للرق . . وإذا كنا قد تسامحنا إزاء مطاعنه فى المصريين ، إيماناً منا بأنه إنما يقصد عهد الأتراك الذى ران على مصر إلى أن قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وطردت آخر ممثل له ، إلا أننا لا نستطيع أن نغضى عن محاولته هنا تبرير الاستعمار ، لمجرد أن القائم بحملته إنجليزى ! . . فإن تصرفات مرتادى أفريقيا من الإنجليز ، بل العبارات التى نقلها المؤلف من كتاباتهم فى فصول سابقة — وفصول لاحقة — تتضح كلها برائحة نوايا الاستعمار المسمومة ! (المترجم)

— لا سيما تاجر منهم يدعى « أبو السعود » — انضموا إلى عشائر « البارى » ضده ، وسرعان ما تمكنوا من إثارة العصيان فى حامية (جوندوكرو) ذاتها ، إذ أن خريجى السجون المصريين — فى جيش بيكر الصغير — لم يكونوا ذوى مبادئ خلقية عالية . وعاد بيكر من إحدى إغاراته يوماً ، ليجد أن ١١٠٠ منهم قد فروا ، بعد أن استولوا على ثلاثين مركباً شراعية ، وانطلقوا فى النهر إلى الخرطوم . وتركته هذه النكبة وليس معه سوى ٥٠٠ رجل ! . . . ومع ذلك فقد قرر أن يتقدم إلى (بنيورو) مملكة الملك « كامرازى » . وكان « الأربعون حرامى » قد أصبحوا حرساً بارعاً ، كما كان الجنود السودانيون على ولائهم ، وقد جمعوا — فى هذه الأثناء — من الغلال والماشية والأغنام ما يكفى للقوت خلال الرحلة ، فتركت حامية صغيرة فى (جوندوكرو) ، تحت إمرة ضابط مصرى يدعى « رؤوف بك » ، أُمِر بأن يترقب الدكتور لفينجستون ، وأن يعنى به إذا وصل فى غياب بيكر . وكان لفينجستون إذ ذاك ما يزال على بعد مئات الأميال فى الجنوب ، عند بحيرة تنجانيقا . ولكن بيكر لم يكن قد تلقى أنباء منه أو من سواه منذ عام .

وكان تقدمهم مطرداً ومنظماً . وقد بدأوه فى ٢٢ يناير ١٨٧٢ ، وعلى رأسهم بيكر وزوجته وابن أخيه « جوليان » على الجياد ، حتى إذا تجاوزوا سلسلة الجنادل — جنوب جوندوكرو — وصلوا إلى حدود (بنيورو) فى أواسط مارس . وكانت تجارة العبيد قد خلفت خراباً على طول الطريق ، بينما اتسعت « فاتيكو » — المركز الذى زاره بيكر سنة ١٨٦٤ — وأصبحت مجمعاً للعبيد يشغل ثلاثين فداناً على الأقل . وكانت الفتاة السليمة تُقوَّم بـ « ناب فيل من أحسن الأنواع » (يتراوح ثمنه فى إنجلترا بين ٢٠ و ٣٠ جنيهاً ، ولكنه كان فى بنيورو أرخص ثمناً) . كذلك كان من الممكن شراؤها بقميص جديد ، أو ثلاث عشرة أبرة خياطة إنجليزية ، وقد كانت هذه الأشياء مرغوبة إلى درجة تحمل الأهل على بيع أبنائهم .

ولم يحاول بيكر أن يتحرى امتدادات النيل التى لم تستكشف ، بل واصل تقدمه جنوباً ، ولم تعد به حاجة — ومعه جيشه الصغير — إلى أن يستأذن الملك لدخول (بنيورو) . فوصل إلى العاصمة فى ٢٥ أبريل ١٨٧٢ ، ورأى « عدة آلاف من أكواخ القش المشيدة على شكل خلايا النحل » ، فى الموقع الذى

تشغله حاليا مدينة (ماسيندى) . وكان كامرازى قد توفى ، فلم يحفل بيكر بخليفته ، الذى يقول عنه : « كان « كاباريجا » ، نجل كامرازى — والملك السادس عشر لبنيورو من سلالة غزاة « جالا » — مفسوداً أخرق ، سمجاً ، غير ذى هيبة ، فى العشرين من عمره ، ويحسب نفسه ملكاً عظيماً . وكان جباناً ، ماكراً ، غداراً إلى أبعد مدى » .

وتقدم الملك الشاب من معسكر بيكر ، وهو يسير كالزرافة ، على رأس حوالى ٢٠٠٠ من أتباعه ، فلم يرتح بيكر لمظهره . وهو يقول إن « كاباريجا » كان يعاقر الخمر طيلة يومه عدا ساعتين — فى الضحى — يمارس فيهما أعماله ، وإن العاصمة كانت ماخورا يشيع فيه — طيلة الليل — الرقص والصياح والنفخ فى الأبواق والسكر . ولكاباريجا أهمية فى قصة أفريقيا الوسطى ، لذلك لا ينبغى أن نأخذ حكم بيكر عليه قاطعاً . إذ يبدو أن بيكر توقع — من البداية — أن يجد فى الملك الشاب صفات كانت تعتبر غير مألوفة فى الزعماء الأفريقيين فى ذلك العهد . وما من شك فى أن تصرف بيكر نفسه كان مهيأ لأن يخلق أزمة فى (بنيورو) ، إذ لم يحاول إخفاء كل ما وفد لأجله : أى السيطرة على الملك كاباريجا بالطرق الودية أولا ، وإلا فبالقوة !

ولقد أقام بيكر خيمته تحت شجرة تين هائلة ، ثم شرع يبنى بقربها « داراً للحكومة ، ومسكناً خاصًّا له ، ملحقاً بها » . ولم تبق اليوم — فى ما سيندى — من هذين المبنيين سوى آثار تافهة بين المروج الخضر والأشجار . ولكن لدينا وصف بيكر لهما ، فى زهو يعذر عليه : « كانت دار الحكومة من حجرة واحدة ، طولها ثمانى عشرة قدماً وعرضها أربع عشرة ، وارتفاع سقفها عشرون . وقد صنعت جدرانها من أعواد الغاب ، وأسدلت عليها « بطاطين » حمراء . وعلى هذه الجدران عرضت طائفة عجيبة من الصور لتبهر أبصار الأفريقيين . . . صور الملكة فيكتوريا ، وأميرة ويلز ، وأطباق ملونة تحمل صور « نساء بالغات الجمال ، فى أفخم الثياب » ، وعدد من صور الصيد [1] . ووضع فيها الصندوق الموسيقى ،

---

(١) هذه المجموعة من الصور وحدها ، تكشف عن دخيلة بيكر : لم تكن فيها صورة العاهل الذى استخدمه وأرسله (الخديو إسماعيل) ، ولا صورة رجل . . وإنما صورة ملكة إنجلترا — كأنما هى التى أوفدته — وصور مجموعة من الحسان ! (المترجم)

وبسطت على أرضها السجاجيد . ووسط هذه المظاهر ، تهيأ بيكر باشا — نائب الخديو الجديد — للاستقبالات الرسمية . وقد أنشىء فيما بعد — بجوار دار الحكومة — حصن دائرى من الكتل الخشبية المشرعة الأطراف ، ذو سقف من التراب ، ويحيط به خندق . وزرعت حدائق بالخيار والبطيخ والقرع وبذرة القطن . وإذا كان « كاباريجا » قد ظل — إذ ذاك — فى شك من بواعث أولئك الغرباء ، فإن الموقف لم يلبث أن أوضح له بجلاء يوم ١٤ مايو ١٨٧٢ ، إذ أعلن بيكر ضم مملكة (بنيورو) إلى أملاك الخديو !

ولقد كان « كاباريجا » — برغم حداثة عهده بالحكم — أكثر بكثير من مجرد رجل خليع سكير . فلقد اضطر إلى أن يقاتل من أجل عرشه عند موت أبيه — قبل عامين — وأبدى بوادر تلك الصفات التى جعلت منه ، فيما بعد ، قائداً واسع الحيلة لحرب العصابات فى أفريقيا الوسطى . وكان — فى تلك المرحلة — قليل الخبرة ، شديد الحاجة إلى المشورة الطيبة ، ولكن المرء لا يملك أن يلومه لإبائه اقتحام بيكر مملكته . وكان حسناً من بيكر أن يزعم أنه إنما جاء باسم الصداقة ، ولكن ما من رجل قوى — فى ذلك العالم الوحشى — اعتاد أن يذهب إلى أى مكان باسم الصداقة المجردة ، وإنما كان يهزم البلاد التى يغزوها ويحول أهلها إلى أتباع . وهذا ما أقبل بيكر لعمله بالتأكيد . ولا بد أن كاباريجا رأى ذلك بوضوح ، فتبدى له ألا بد من الخلاص من بيكر إذا شاء أن يبقى ملكاً على (بنيورو) . ولما كان متهوراً وشرساً ، فقد قرر أن يشرع فى ذلك فوراً . وما كانت الطبول والأبواق التى راح بيكر يسمعها فى الليل ، بل ولا نوبات السكر ، سوى خدعة وحشية ، فهى الوسيلة البدائية لإذكاء روح الحرب . وقد كانت طريقة صبيانية وهمجية ، بل ومثيرة للسخرية بعض الشىء ، ولكنها كانت التعبير الواقعى عن مشاعر رجال القبائل ، وكان كل محاربى الملك كاباريجا وصغار الزعماء يقفون وراءه فى تلك المحنة ، والكثيرون منهم مسلحين بالبنادق ، وعلى استعداد لأن يتبعوه أينما يذهب . كانت بهم رغبة جامحة إلى الحرب ، ولم يكن بيكر أول — ولا آخر — إنجليزى يخفق فى أن يبصر بين بذور الشعب الفجة معالم انتفاضة شعبية صادقة !

وازدادت تهديدات كاباريجا فى الأيام الأخيرة من مايو ، بينما كان بيكر

ماضياً فى بناء حصنه . وفى ٨ يونيو ، بدأت معركة ما سيندى ، وقد سبقتها حيلة حربية صغيرة من كاباريجا ، تميزه مباشرة عن النمط العادى للزعماء الأفريقيين — ولعلها كانت تقابل باستحسان عند قدماء الإغريق — إذ أرسل هدية من عصير التفاح المسموم إلى جنود بيكر ، فلما بدأ القتال كان كثيرون منهم فى حالة يرثى لها !

ولم تستمر معركة (ماسيندى) سوى ساعة وربع الساعة ، ويصفها بيكر أبلغ وصف بقوله :

« فجأة ، أفزعتنا صيحات وحشية من حوالى ألف حنجرة ، انطلقت دون توقع منا . . ولحسن الحظ ، أصدرت إلى نافخ البوق القائم بجوارى الأمر باستنفار الجنود ، دون توان . ولم يتسع الوقت لـ « حرامية » الحصن (هكذا كان يسمى جنود حملته !) إلا ليختطفوا بنادقهم ، ويطلقوا النار « فى المليان » على حشد الأفريقيين المهاجمين ، خلال ستار الأعشاب الطويلة . »

ولعل فرصة النجاح سنحت لكاباريجا لبضع دقائق ، ولكنها تلاشت بمجرد أن أطلق بيكر « الأضواء الزرقاء » — صواريخ « هيل » — فلم يطل الوقت حتى استطاع أن يقود رجاله إلى معسكر العدو ويشعل النار فى الأبنية المصنوعة من القش .

« وفى بضع دقائق أصبح الحريق رهيباً ، وبلغ ارتفاع اللهب — فى بلاط كاباريجا الكبير — ٧٠ أو ٨٠ قدماً ، ودفعته الريح فى شعاب متواثبة إلى البيوت المجاورة . ورحنا نتعقب العدو فى المدينة ، وحُدِّد للرماة — بتدبير معقول — أقصى مدى يقفون عنده . واستمرت الصواريخ فى عملها الانتقامى ، واختلط زئير اللهب والدخان الكثيف مع قرقعة البنادق المستمرة ، وصراخ الأهالى الوحشى ، والهواء يحملها فى طريقه ، فغدت عاصمة (بنيورو) قطعة من جهنم !

« ولم يبق منزل من المدينة التى كانت مزدحمة ! . . . إذ لم تلبث أن أصبحت خلاء يسوده الدخان والهشيم الأسود ، وألسنة النار تحتضر فى

مواقع البنايات التى أتت عليها ، وتنطلق متشعبة عريضة فى الأماكن التى لم تأت عليها تماماً . وهرب العدو ، وقد صمتت طبوله وأبواقه التى كانت تنطلق صاخبة » .

وكان من المستحيل إحصاء خسائر « كاباريجا » ، لكثرة ما كان بين الأعشاب الكثيفة من الموتى والجرحى الإفريقيين ، ولكن بيكر سمع أنباء بأن تسعة زعماء قتلوا وعدداً كبيراً من العامة . أما هو فلم يفقد سوى أربعة رجال . وحطت مئات الطيور الجارحة على أنقاض المدينة .

ولكن هذه لم تكن سوى الجولة الأولى فى عملية أخذت تزداد خطورة باستمرار ، بالنسبة للحملة الصغيرة . إذ أن « البانيورو » — أفراد عشائر « بنيورو » ظلوا يناوشون خطوط بيكر من وراء الأعشاب الكثيفة ، فلم يلبث أن تبين أن من المستحيل أن يبقى حيث كان ، إذ توالت الخسائر يوميا دون ما أمل فى تعزيزات ، وبدأت الأطعمة تقل . وباختصار ، كسب الغزاة المعركة ولكنهم خسروا الحرب .

وفى ١٣ يونيو ، قرر بيكر ألا حيلة سوى التراجع إلى (فويرا) (Foweira) — إحدى محطات التجار على النيل ، على بعد حوالى ستين ميلا إلى الشمال الشرقى — ليجمع صفوفه عسى أن يعود لمحاربة كاباريجا فى يوم آخر . ومن الطبيعى أن الحمالين المحليين لم يعودوا متوفرين ، فأحرق شطراً كبيراً من الأشياء التى اجتلبت من القاهرة عبر ما يزيد على ٣٠٠٠ ميل . وبدأ التراجع تحت رذاذ المطر ، فى ١٤ يونيو . ولا تقاس أهوال الأيام العشرة التالية ، إلا بما عاناه نابليون فى تراجعه عن موسكو . . . مع التجاوز عن الحرارة الاستوائية ، وعما فى المقارنة من سخرية !

وكان حملة الرماح يطاردون رجال بيكر التعساء يوماً بعد يوم ، وفى كل مستنقع بعد آخر . وعند كل منعطف فى الطريق ، كان ثمة كمين . ولم تكف طبول الحرب عن الدوى بالليل . وكانت ليدى بيكر عظيمة طيلة هذه النكبة ، ولكن زوجات الجنود كن مُعَوِّقات فظيعة للسير ، إذ لم يكن مصير من تتأخر منهن عن الركب سوى الموت ! . . . وما لبثت الخيل والحمير أن نفقت عن آخرها ، وبات لزاماً أن يحمل الجرحى على محفات . وما لبثت الضرورة أن دعت إلى التخلى عن الماشية وكمية أخرى من المهمات ، وقُدر لكل جندى أربعون مشطاً من الذخيرة .

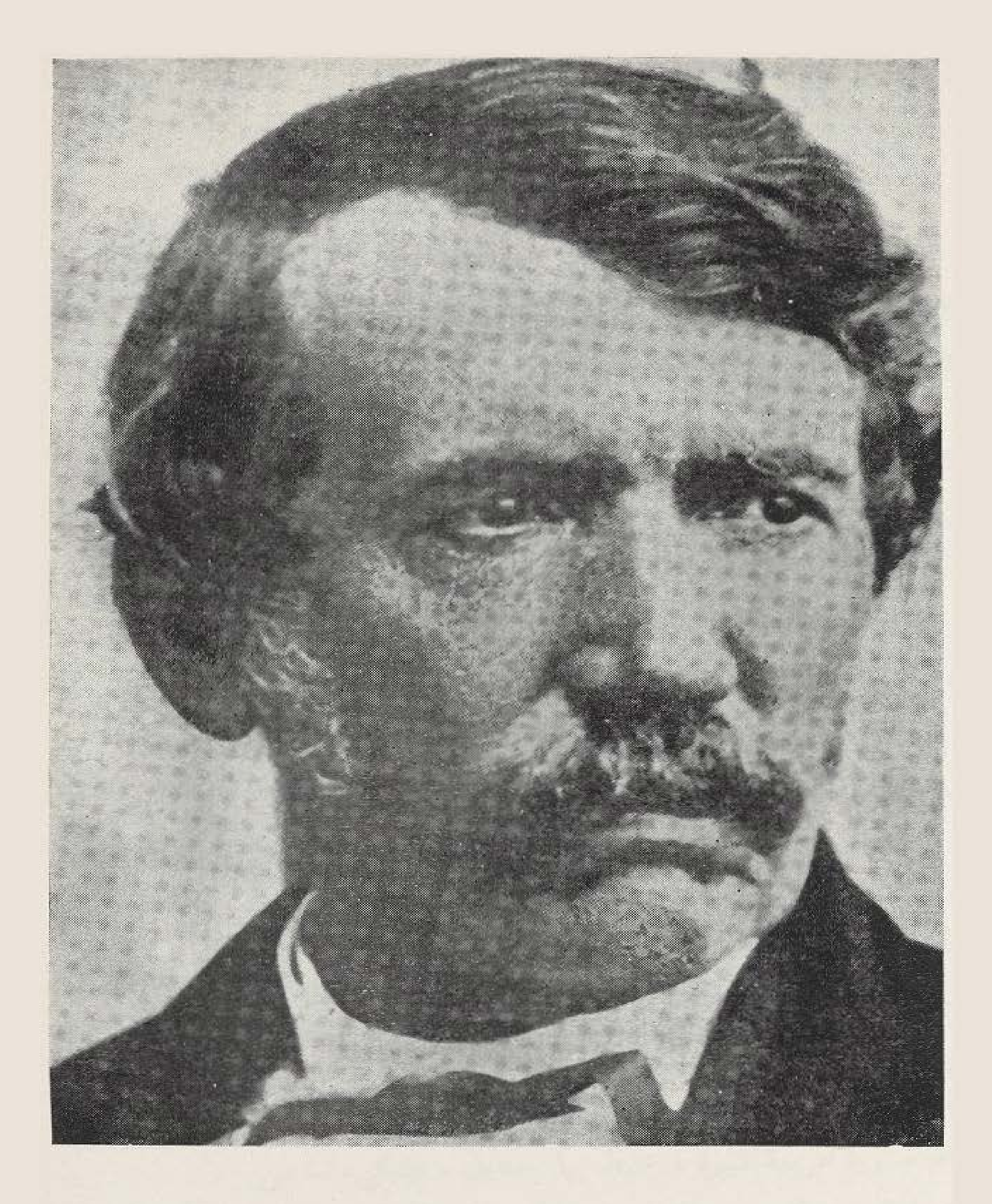
وكان الهم الأكبر لبيكر أن يمنع جنوده من إطلاق الرصاص عند أول بادرة للخطر فى الأحراش المحيطة . وكان عملا ممتازاً — من كل النواحى — أن استطاع أن يدخل (فويرا) ، يوم ٢٤ يونيو ، بفلوله المرهقة المحطمة . وبلغت الخسائر أثناء التراجع عشرة أموات وأحد عشر جريحاً . ومن المائتين الأشداء — الذين كانوا يؤلفون الحرس الأمامى عند الذهاب إلى (ماسيندى) — لم يبق سوى ثلاثة من الأوربيين ، وسبعة وتسعون رجلا . . . كما بقيت واحدة وخمسون امرأة وخادماً !

ولم تكن (فويرا) بالملاذ المنيع ، إذ كان الحصن قد أحرق ، ومزارع الموز قد هجرت . ولكن رجال الحملة نجوا فيها من محاربى كاباريجا ، على الأقل . وسرعان ما تمكن بيكر من عقد تحالف مع « ريونجا » ، العدو التقليدى لملوك (بنيورو) . وطلع أغسطس سنة ١٨٧٢ على بيكر وقد عاد إلى (فاتيكو) — بعد مزيد من القتال — وقرر أن يجعلها مركز قيادته .

وكان موفقاً فى اختيار المكان ، وما إن استقر به ، حتى بدأ الحظ يواتيه . وقبل انقضاء عام ، كان قد تقوى بدرجة مكّنته من مهاجمة كاباريجا من الشمال ، فاضطره إلى الفرار . ويبدو أن هذا كان بشيراً بانهيار عام لمعارضة القبائل جنوب جندوكرو . واستطاع بيكر خلال الأشهر الستة الأخيرة لبقائه فى منصبه ، أن يتفرغ لبناء حصنه فى (فاتيكو) ، وأن يحكم — بقوة وجوده ، ووفقاً للظروف — المملكة الصغيرة التى فتحها . وكان نصفها (ويشمل وادى النيل ذاته) ، لم يستكشف بعد ، ولا يزيد عن كونه مناطق متوحشة ، ولكنها بقيت على الأقل « مهادنة » طيلة مدة بقاء بيكر .

وعندما آن لبيكر ولزوجته وابن أخيه أن يرحلوا آخر الأمر ، فى مارس ١٨٧٣ ، كان بوسعه أن يكتب :

« وأخيراً انهزمت كل معارضة ، وانصاعت الكراهية والتمرد للنظام وبسطت حكومة راعية حمايتها على الأراضى التى كانت من قبل ميداناً للفوضى وتجارة الرقيق . . . فقد طُهر النيل الأبيض — مسافة ١٦٠٠ ميل من الخرطوم إلى أفريقيا الوسطى — من التجارة المنكرة التى كانت تلوث مياهه قبل اليوم . وانجاب كل غيم ، وانقضت مدة بعثتى فى



دكتور ديفيد لفينجستون
هل كان مكتشفاً أو مبشراً أو معززاً
لنفوذ الإنجليز فى أفريقيا ؟

Unyanyembe. 7 Fby. 1872.

Received the loan of one
Pocket Chronometer No
from Captain
of H. M. S.
for Government
service, and I hereby engage
to account for the same to
Captain Richards R. N.
H. M. Hydrographer = Admiralty
London.

David Livingstone
H. M. Consul
Inner Africa

N. B. If a chronometer can be lent
without detriment to the service
it will be of very signal benefit
in my exploration

David Livingstone

نموذج من خط يد « لفينجستون » محفوظ فى متحف زنجبار . عبارة عن إيصال باستلامه « كرونومتر » على سبيل الاستعارة .

سلام وإشراق . وبهذه النتيجة نشدت متواضعاً بركة الرب » .

وخلف « بيكر » وراءه حامية من الجنود تحت إمرة ضابط مصرى ، وغادر (فاتيكو) مع زوجته وابن أخيه ، فبلغ القاهرة فى أغسطس ١٨٧٣ . ولم تحن نهاية العام حتى كان الزوجان فى إنجلترا ، وفى انتظارهما — فى المصرف — ٤٠,٠٠٠ جنيه لم تمس .

وكانت (فاتيكو) الأثر الأكبر الذى خلفه بيكر فى أفريقيا ، ولا يزال المكان إلى اليوم يحمل طابع شخصيته المتسمة بالجلد والعزم ، فهو رمز رائع لانجلترا العهد الفيكتورى فى قلب أفريقيا . ولا يقيم هناك الآن سوى قلة من أيام بيكر تقريباً . ويصل المرء إلى الموقع بطريق فرعية على بعد حوالى سبعين ميلا شمال مدينة (جولو) الحالية ، ويمكن تمييزه — من مسافة طويلة — بنتوء صخرى حاد يرتفع مئات من الأقدام فوق مستوى السهل . ومن هنا تمتد الأحراش الأفريقية بصمتها الأزلى . وإلى الغرب ، تتراءى للعين المدربة خضرة وادى النيل ، وإلى الشمال طريق جوندوكرو وإلى الجنوب والشرق السهل الفسيح الذى يصعد الهوينا إلى البحيرات الكبرى وجبال الحبشة . لقد أحب بيكر هذه البلاد ، وكان يحلم بإنشاء حضارة عظيمة فيها . ولكن أحوالها لم تتغير كثيراً فى التسعين العام التى انقضت ، وإن خففت من ضراوة المنطقة — وأبعدت معظم الوحوش — بضعة حقول زرعت قطناً ، وبضع قرى وطرق . وفيما عدا ذلك ، لا تزال المنطقة حافلة بأكواخ القش ، والصمت ، والشعور العام بالمساحة الشاسعة والخلاء الهائل .

أما الحصن فمساحة مسوّرة مربعة كبيرة ، يحيط بها خندق ، وتتكىء — من ناحية النيل — على ركام هائل من الصخور المستديرة ، التى شيد بيكر عليها مخازن من الحجر ، مستخدماً الأتربة المتراكمة بدلا من الأسمنت . ويجد الزائر اليوم لوحة كتب عليها :

(فاتيكو) ٨٨ — ١٨٧٢ .

أسسها سير صمويل بيكر .

احتلها « جوردون « و « أمين » .

وسنلتقى — فيما بعد — بشخصية « أمين » الغريبة المائعة . أما اسم جوردون

— هنا وفى كل مكان بأواسط أفريقيا — فيثير شعوراً مبادراً بالشهامة والمغامرة .
ويطيب لنا أن نعرف أنه خلف بيكر فى هذا المكان ، وأن كلا منهما كثير ما أطل
— ولا شك — على النيل من أبراج الحصن ، وأصغيا — كما يصغى المرء اليوم —
لحفيف أشجار النخيل المجاورة ، ورأيا — عند الغروب — نفس أشجار السنط
المسلحة القمم ، التى لا تزال تنتشر فى السهل وتتيح ملاذاً ناعماً للطيور الرحالة
حين تحط لتقضى ليلها .

الفصل التاسع

يمضى فى سلام

لم يكن لأفريقيا الوسطى نصيب فى الهجرات الكبرى التى تدفقت من أوربا خلال أواسط القرن التاسع عشر . فإن المجاعة الناشئة عن نقص محصول البطاطس ، وجاذبية الذهب ، حملت مئات الألوف إلى أستراليا ، وكاليفورنيا ، وأصقاع أخرى من الدنيا . وكان معظم هؤلاء الناس يولون أوربا ظهورهم إلى الأبد ، بمجرد وصولهم إلى أوطانهم الجديدة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث فى أفريقيا الوسطى حتى نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر . بل ظلت مقصد الرواد وحدهم ، باستثناء المبشرين الذين كانوا يمهدون السبيل لأنفسهم ، ويحلمون بإقامة دائمة هناك . وكان الظن أن فتح قناة السويس قد يؤدى إلى توسع كبير فى الاتجار مع الساحل الشرقى للقارة ، ولكن ذلك لم يحدث ، بل كانت معظم السفن تواصل إبحارها إلى الهند والشرق الأقصى وأستراليا ونيوزيلندا ، وبقيت الدولتان الوحيدتان اللتان كان لهما وزن فى القارة — وهما مصر وزنجبار — تناضلان لامتلاك جوف القارة الشاسع . ولم يكن مقدراً للنضال أن يستمر طويلاً ، إذ كانت الدول الأوربية تتهيأ لدخول الميدان والسيطرة عليه . . ولكن بضع سنوات أخرى من الاستقلال كانت بعدُ باقية لخديو مصر وسلطان زنجبار فى السبعينات من ذلك القرن ، فظلت أفريقيا الوسطى مجالا للسياسات الأفريقية المحضة .

وكانت زنجبار أضعف الدولتين ، وقد منى سكانها القليلون — نصف مليون — بتفشى الكوليرا سنة ١٨٦٩ للمرة الثانية ، ثم بإعصار أتى على المدينة والميناء سنة ١٨٧٢ . ومع ذلك ظل السلطان سيداً بلا منازع على الجزر الثلاث — زنجبار ، وبيمبا ، ومافيا — وحوالى ألف ميل من ساحل القارة . وكانت تجارة الرقيق قد بدأت تتأثر بضغط الحصار الدولى ، ولكن بعض الصادرات الأخرى — كالمطاط — أثبتت أنها أكثر ربحاً . وكان معظم محصول القرنفل يرسل إلى جاوه (حيث لا يزال

يستخدم لإضفاء نكهة على السجاير) فيعود بدخل متزايد . وأخذت أماكن مثل دار السلام ، وممباسا ، ولامو — فى القارة — تنمو وتصبح مدناً .

وفى سنة ١٨٧٠ ، كان سلطان زنجبار « مجيد » قد توفى ، وخلفه « برغش » ، الذى كان قد قام بثورة قبل سنوات ، بمساعدة الموالين لفرنسا . وكان تولى « برغش » خطوة موفقة ، إذ كان شديد المراس ، قادراً . وتبينه الصور الموجودة حاليًّا فى متحف زنجبار الصغير ، ربعة ، بادى الطيبة ، فى ثياب الشرق الفخمة . ولم يكن ناعماً ليناً كغريمه القوى فى الشمال . فبينما كان الخديو حضريًّا ، كان برغش ذا مهابة أكثر بساطة ، يحف به جو الصخور والفيافى العُمانية [1] . وعندما سئل « برغش » يوماً عن أهم عوامل البت فى خلافة العرش فى زنجبار ، أجاب بشىء من الصدق : « طول سيف المرء » . ومع ذلك ، فقد كان برغش أكثر بكثير من مجرد مغامر ومحارب مزهو بسلاحه . كان مفاوضاً أريباً بارعاً ، يلتزم بكلمته . ولقد كرهه البريطانيون — فى البداية — ولم يطمئنوا إليه . والواقع أن « هـ . ا . تشيرشل » — المعتمد البريطانى فى ذلك الوقت — كاد يجن من جراء عداوته ومراوغاته . ولكن « تشيرشل » ما لبث أن رحل لتولى منصب آخر ، وبقى « كيرك » متولياً أعمال الوكالة برتبة « قائم بأعمال القنصل » . وكان كيرك قد أثبت أنه أقدر مندوب بريطانى فى الجزيرة منذ وفاة « همرتون » . وقد أحب « برغش » ، إذ تبين أن المتمرد التائب كالحصان الجامح ، إذا ما رُوِّض كان خير زميل فى الرحلة الطويلة . فبادر إلى توثيق العلاقات بين الوكالة والقصر . ومن ثم قامت أواصر ود بين الرجلين قدر لها أن تستمر طيلة السنوات الست عشرة التالية ، وترسى أسس السلطان البريطانى فى أفريقيا الشرقية والوسطى .

ولكنها لم تكن بالعلاقة السهلة ، لأن الرجلين كانا — بحكم طبيعة الأمور — مضطرين إلى أن يتعارضا . فكان « برغش » راغباً فى أن يحكم إمبراطوريته الصغيرة كما يتراءى له ، مما يشمل استمرار تجارة الرقيق ، بينما كان البريطانيون مصرين على إلغاء الرق . وبلغ الموضوع ذروته حين كشف « لفينجستون » الفظائع التى كان النخاسون يرتكبونها فى داخل القارة . وكان علاج كيرك للموقف فائق البراعة .

---

(١) كان سلاطين زنجبار أصلا من عمان . (المترجم)

وكان سير « بارتل فرير » هو الذى قام بالمفاوضات — فى الظاهر — ولكن ما من شك فى أن كيرك كان المسئول عن نجاحها . فقد جاء « فرير » على رأس بعثة بريطانية رسمية فى سنة ١٨٧٣ . ومع أنه كان دبلوماسياً متمرساً ، إلا أنه لم يكن يملك لبرغش إغراء ولا إرهاباً ، إذ كان موقف برغش بسيطاً واضحاً : « إذا قتلتم الرق قتلتمونى والدولة بأسرها ! » . وأخذ فرير يعرض عليه — المرة تلو المرة — شروط معاهدة جديدة تغلق بمقتضاها سوق العبيد فى زنجبار ، ويُمنع شحن العبيد من أى مكان داخل أملاك السلطان . ولكن « برغش » راح يتملص ، وأبى توقيع المعاهدة ، ولم يثنه التهديد بحصار بحرى . وبارح فرير الجزيرة وقد تعقدت الأمور تعقداً لا يبشر بخير . وكان « كيرك » هو الذى حوّل « برغش » عن موقفه ، إذ عمد بالحيلة والحزم — واضعاً التهديد والحصار وراء محاولاته — إلى إقناع « برغش » بأنه غير مخيَّر ، حتى لانَ برغش ووقع الوثيقة البغيضة لديه .

والواقع أن المعاهدة الجديدة لم تنفذ على الفور : فقد أغلقت سوق الرقيق فى زنجبار فى يونيو ١٨٧٣ ، وأقيمت على موقعها كنيسة مسيحية . ولكن الاسترقاق ظل على ما كان عليه فى القارة ، واستمر تهريب العبيد عبر المحيط الهندى دون هوادة . على أن المعاهدة كانت إعلانا هاماً ورسميا ضد فكرة الاسترقاق ، مما مكن البريطانيين — فيما بعد — من القيام بعمل أكثر حسما .

وكان من المعقول أن يتوقع « برغش » — الذى هزمه هذا الأمر وحط من شأنه — شيئاً من المساندة مقابل ذلك . وكان ما تلقاه هو تصميم « كيرك » على أن يبقى له إمبراطوريته الصغيرة دون مساس . فمنذ ذلك الحين ، أخذ القنصل الجديد (إذ ثبت كيرك فى هذا المنصب عقب رحيل فرير) يوجه كل قوى عقله المنطقى الصبور ، للعمل على إقناع وزارة الخارجية البريطانية بوجوب مساندة « برغش » ضد كل توسع خارجى ، لا سيما من جانب مصر . وكان كيرك على استعداد للمضى إلى أبعد مدى فى سبيل ذلك . كان راغباً — وإنْ جانبَ المنطق — فى تأييد النخاسين فى أفريقيا الوسطى ، لأنهم كانوا وكلاء للسلطان ، إلى حد ما ، وكان بوسعهم أن يخدموا الغرض الرامى إلى كبح جماح المصريين . وقد أولى صداقته أكبر التجار بالذات — وهو « محمد بن سيد » — وإن لم يجاهر بذلك . وكان « محمد بن سيد »

معروفاً باسم (تيبو تيب » . (كناية إلى عيب فى عينيه كان يضطره إلى أن يهز أجفانه باستمرار) . ولم يكن بالشخصية التى يمكن فهمها بالمعايير الغربية ، إذ كان مجرماً من أشد الأشقياء ضراوة ، ولكنه أوتى مع ذلك كل مناقب السيد المهذب الممتاز المتضلع . وكان طويلا ، أسمر ، ذا لحية سوداء وشكل مليح جداً ، ومظهر يوحى بالسلطان . . أنيق الملبس ، ذكياً ، ترتاح للحديث إليه . . كان قرصاناً أوتى كثيراً من السحر والرقة . وكان هذا الشقى المهذب ـ وسنلتقى بمثيل له فى السودان فيما بعد ـ رجلا واسع الثراء ، تنتهى إلى بيته البديع فى وسط زنجبار (ولا يزال قائماً) شبكة من طرق القوافل التى كانت تصل إلى حدود الكونجو ، وما وراءها . ومع ذلك ، فإنه لم يكن يستقر فى زنجبار عادة ، بل كثيراً ما كان يوجد على ضفاف بحيرة تنجانيقا ونهر (لوالابا) ، حيث كان يتصرف كأحد كبار زعماء العصابات . فقد كان فى الماضى من كبار النخاسين الذين أنقذوا لينجستون من الهلاك فى جوف القارة ، وقد أمد ستانلى بالحمالين فى مسيره من شرق القارة إلى غربها . وقد أصبح على استعداد لأن يضع موارده تحت إمرة « برغش » و « كيرك » فى نضالهما ضد مصر ، ما دام جيبه متخماً !

ولابد أن مجتمع الجزيرة الصغيرة ـ فى ذلك الوقت ـ كان عجيباً ، فهو متآلف ومتعاد فى آن واحد . كان الأسقف ستير (التابع لبعثة الجامعات البريطانية لأفريقيا الوسطى) ، منهمكاً فى تصميم وبناء كاتدرائيته الجديدة فى موقع سوق الرقيق القديمة ، لتصبح مبنى ممتازاً ، ذا سقف من المرجان المجروش والأسمنت ، قدر له البقاء إلى الآن . وقد صنع الصليب القائم على عمود إلى يسار الهيكل ، من خشب الشجرة التى عينت مكان وفاة لفينجستون ، جنوب بحيرة (بانجويولو) بأفريقيا الوسطى . ولا بد أن مسلمى زنجبار كرهوا قلعة الكفار هذه ، ولكن أحداً لم يتعرض للأسقف فى عمله[١] . وكانت لكيرك كنيسته الصغيره وداره ، على أكمة بحرية خارج المدينة مباشرة ، حيث توفر على زراعة الأشجار ذات الزهور الغريبة . . وهى تشرئب الآن فى رشاقة وسط صمت المدينة المعبق : الياسمين الهندى بزهرته الشمعية التى تتخذ شكل النجمة ، و « الجاكاراندا » القرمزية ، و « الجهنمية » ، والشجرة آكلة

---

(١) لا يستطيع المؤلف ـ البريطانى ! ـ أن يتخلى عن أسلوب الاستعمار فى اتباع سياسة « فرق تسد » لاختلاق تلك الكراهية المزعومة بين المسلمين والمسيحيين فى زنجبار ، ولو أنه اضطر للاعتراف بأن أحداً لم يتعرض للأسقف فى عمله ! (المترجم)

اللحوم التى تمتص زهراتها — الوردية والصفراء الشاحبة — الحشرات ، والتى قد تصلح رمزاً للجزيرة بوحشيتها وجمالها ، كما كانت منذ حوالى القرن . .

وكانت هناك قصور « برغش » وأكواخه العديدة ، وحاشيته من الزوجات والأقارب والعبيد والمتطفلين ، والشوارع الضيقة الممتدة إلى الميناء . . ثم الميناء وسفن (ساليم) الأمريكية ذات الشراعين ، والمراكب العربية ، وسفن الهند التجارية ، والسفن البخارية الجديدة ذات « الرفاص » والمداخن الرأسية الرفيعة .

ولقد ازدادت المدينة حركة ورخاء — فى السنوات الحديثة — برغم هجمات الكوليرا ، والقيود التى كبلت النخاسة . فقد قامت خلف القصر مجموعة من حوانيت الحدادين ، والصائغين ، وتجار العاج . وكان المرابون — الذين يقرضون بفوائد فاحشة — هم أغنى القوم جميعاً . ولم تكن العملة موحدة ، فكانت هناك الروبيات الهندية ، والجنيهات الإنجليزية ، والدولارات الأمريكية ، والفرنكات الفرنسية ، والقروش المصرية . . ولكن ريالات « ماريا تريزا » النمسوية — وتعادل خمسة شلنات — كانت العملة الرئيسية . وكانت القوافل الكبيرة المتجهة إلى داخل القارة تحدث حركة دائبة عند حافة الماء ، ويظل الحمالون الزنوج يرددون أغنية رتيبة وهم يجرون بأحمالهم بين المراكب ومخازن الميناء . وكان كل عربى ذى ميسرة يمتطى حماره ، يتقدمه عبد يجرى ليفسح له طريقاً بين الجموع المتكاثفة المتشاجرة . وكانت للعقاقير والمخدرات تجارة رائجة ، وأى فضاء كان يتخذ مدرسة يجلس فيها أبناء العرب فى حلقة ، ويرددون كلمات القرآن فى طنين .

كانت خلية نحل صغيرة ، تجمع طائفة كبيرة التباين من الأخلاق والديانات والآراء السياسية ، ويصارع فيها الشرق الغرب ، والإسلام المسيحية ، ويعيش فيها الفقر المدقع تحت أقصى إمارات الرفاهية ، وكانت فى مجموعها من الوهن والفوضى بحيث لا يرتجى لها بقاء . ومع ذلك فإن زنجبار كانت — فى السبعينات من القرن التاسع عشر — قادرة على أن تبذل مجهوداً آخر لتحتفظ باستقلالها ، وكان « برغش » و « كيرك » يؤلفان معاً نِدّاً لخديو مصر !

وكانت القاهرة خلال هذه السنوات تزداد عظمة ، وقد ولّت — أو كانت تولى بسرعة — الأيام التى كان بوسع السائحين فيها — أمثال « كنجليك » — أن يتكلموا

عن أسواق الجوارى ، والشوارع غير المرصوفة ، وعدم وجود أية بنايات جميلة اللهم إلا المساجد . . ثم عن الأسود المربوطة كالكلاب فى القلعة . . كل ذلك قد ولت أيامه أو كادت ، فقد أدى فتح القناة إلى تدفق الآراء الغربية بغزارة على العاصمة ولدينا وصف كتبه « وينوود ريد » ، حوالى سنة ١٨٧٣ ، جاء فيه :

« تعيش القاهرة — مثل روما وفلورنسا — على السياح ، فهم موضع حفاوة ، ولو لم يكونوا محبوبين . وتضاء المدينة بغاز الاستصباح ، وفيها حدائق عامة تعزف فيها فرقة موسيقية عسكرية عصر كل يوم ، ومسرح بديع نظم له « فيردى » أوبرا « عايدة » . وتقوم على جوانب الشوارع منازل جديدة على النمط الباريسى ، تؤجر بمبالغ غالية ، بمجرد اكتمال بنائها . وما من سيد يرتدى عمامة . . . وهناك اتصال برقى بين القاهرة والخرطوم ، وسكة حديدية توشك أن تبدأ . أما السودان ، فقد كان موزّعاً — من قبل — بين عدد من الزعماء الهمجيين الذين يشتبكون فى حروب لا تكاد تنقطع . وقد أُخْضِع الآن وساده الأمن ، ونادراً ما تتعرض التجارة للقلاقل . . وقد ألغيت تجارة الرقيق » .

ويمضى الكاتب فيصف الخديو — وقد غدا فى أوائل العقد الخامس من عمره — بأنه ذو « ذكاء وطاقة مدهشين » .

ولعل القاهرة كانت تبدو كذلك للسائح العابر ، فى السبعينات من القرن التاسع عشر ، وما من داع البتة للارتياب فى وصف « ريد » لمعالم المدينة ومظهرها ، ولكن هذا الوصف يبدو تافهاً لمن عرف الحقائق الصحيحة عن الخديو والسودان . فإن الأمن لم يكن يسيطر على السودان ، وكانت تجارته مشرفة على الإفلاس ، فيما عدا ناحية واحدة منها ، هى تجارة الرقيق التى كانت تزدهر أكثر من ذى قبل .

وكان الخديو — فى القاهرة — يستخدم كل ذكائه وطاقته المدهشين فى التهالك على جمع المال . فرفع ضريبة الأرض إلى أربعة أمثالها ، وجمع فى يده خمس الأراضى الزراعية فى مصر ، وراح يجبى المال من الفلاحين بالسياط . ولكن هذا لم يكن كافياً للتمشى مع إسرافه ، ولا لإرضاء دائنيه . وبانتهاء الحرب الأهلية الأمريكية ، هبط سعر القطن ، مما زاد من ضائقته . وفوق هذا ، كان موظفو

إسماعيل يعيثون اختلاساً فى كل مشروع ، ومع أنه كان يبث الآلات والابتكارات الغربية الحديثة فى كل مكان ، فإن ما كان يجبيه من الأرض أخذ يطرد فى النقصان عما كان عليه فى بداية حكمه . كانت مصر مشرفة على الإفلاس ، فانساق — سنة ١٨٧٥ — إلى الحيلة التى دُبرت لبيع ما كان لديه من أسهم قناة السويس لبريطانيا بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات . وكانت القناة قد أصابت نجاحاً عظيماً . ففى أول عام لافتتاحها ، اجتازتها ٥٠٠ سفينة ، ولكن مصر أصبحت لا تصيب منها سوى فائدة مالية ضئيلة .

ومع ذلك فإن شيئاً من هذه الصعاب لم يرد إسماعيل عن مشروعاته لغزو وادى النيل . وقد كتب ستانلى فى هذا الصدد : « « إن الجرأة المتبدية فى كل هذه المشروعات — لإنشاء إمبراطورية — مدهشة تماماً ، رائعة روعة انعدام الإدراك السليم بأكمله » . ولكن الإدراك السليم لم يكن يوماً باعثاً معترفاً به فى (سراى عابدين) . كان إسماعيل يسعى إلى الحياة الفنية الزاخرة ، وإذا كان طريقه قد انحدر به ، فإنه ظل مصراً على المضى مسرعاً . فلما عاد بيكر لأوربا ، أخذ يبحث عن أوربى آخر يتولى حملته إلى مديرية خط الاستواء والمناطق المحيطة بمنابع النيل ؛ فوقع اختياره على الكولونيل « تشارلز جورج جوردن » ؛ من سلاح المهندسين البريطانى .

كان « جوردون » فى الحادية والأربعين ، اكتسب شهرة لبلائه العظيم فى حرب القرم ، وقاد « الجيش المظفر دائماً » خلال مغامرات خطيرة فى الصين . وما كانت السنوات الست التى قضاها مغموراً فى خدمة الحامية — عند مصب نهر التيمز بإنجلترا — قد نالت من سمعته كمغامر عجيب الأطوار ، وواحد من جنود التوراة ، من قائمة طويلة من المتصوفين العسكريين البريطانيين امتدت فشملت قادة من أمثال « أورد وينجيت » فى الحرب العالمية الثانية . لذلك ينبغى أن نتمثله هنا كما كان فى السنوات العشر الأخيرة من حياته ، وليس كما كان فى معاركه الأولى .

ومن أغرب نواحى « جوردون » تغيّر طبيعة الشهرة التى لاحقته منذ وفاته . فهو قد مات كبطل قومى لم يحظ أحد فى العهد الفيكتورى بما حظى به من حب وعطف . ونادراً ما يتاح لكتاب أن يلقى — فى أى وقت — من الرواج ما لقيته « يوميات الخرطوم » التى كتبها قبل موته ، فقد كانت معروفة لدى كل ملم

بالقراءة فى إنجلترا ، وقد عززت أسطورة بدت لمعاصريه فى مثل سمو وبطولة القديس جورج (مارجرجس) الكلاسيكية . ثم ، وبعيداً عن كل توقع ، أقدم مفكر ذو شذوذ جنسى ، على تجديد قصة « جوردون » ، بعد موته بربع قرن ، فإذا جوردون يكتسب فجأة سمعة جديدة ، فى رسالة « لايتون ستراتشى » التهكمية ، واللامنحازة ، التى أطلق عليها عنوان : « مشاهير فيكتوريون » . . فهنا نرى « جوردون » فى صورة سكير تقى ، يفطر على البراندى والصودا ، ثم يتناول مزيداً من البراندى والصودا حين يعتكف — لأيام بأكملها أحياناً — فى خيمته ، فى نوبة من الاكتئاب السوداوى » . وهذا الـ « جوردون » شجاع أيضاً ، ومقاتل متصوف كذلك ، وخيالى فى شهامته وكرمه ، وقديس من طراز شارد ، ولكنه كان مجنوناً بعض الشىء ، بالتأكيد !

على أن هذا النيل من البطل — على ما فيه من بريق — لن يتقبله جيل من الأجيال القادمة . وقد قيل لنا أن « ستراتشى » كان مخطئاً كل الخطأ بصدد « البراندى والصودا » ، وأن القصص التى أوردها عن « نوبات الشراب ، والاكتئاب السوداوى » لم تكن سوى تشهيرات أشاعها « شاييه لون» الذى لم يكن شخصاً يعتد به ، والذى كان جوردون يزدريه يقيناً . والشخصية التى تبرز الآن لجوردون هى شخصية رجل له سمعة كتلك التى كان خليقاً بالفيلد مارشال مونتجمرى أن يكتسبها لو أنه كان قد مات فى أوج معاركه . . شخصية جندى عالى الكفاءة ، وقف حياته على الجندية ، ورجل عظيم الرحمة والبساطة يطرح كل مغريات الحياة ورفاهيتها ليخدم إخوته فى البشرية . وتتسم شخصيته بشىء من صفات الكشاف ، يتمثل فى حياته « الأسبرطية » ، واهتمامه العميق بخير رجاله ، وكفاءته فى ممارسة الألعاب ، واهتمامه بالواجب . فإذا كان مسرفاً — بعض الشىء — فى الغرور ، وفى الولع بالدعاية ، فليس هذا سوى جزء من نزعته القيادية ، وإيمانه الحقيقى الجرىء بنفسه . على أن المقارنة لا تصمد للفحص الدقيق ، لأن مونتجمرى قد تزوج وجوردون لم يتزوج . وكان جوردون مسرفاً فى التدخين ، وعرف أنه كان يعاقر الخمر من وقت لآخر — على الأقل — فى حين أن مونتجمرى يعاف التدخين والشراب تماماً . وهناك فوارق هامة أخرى غير هذه . على أن هناك من أوجه الشبه فى حياة الرجلين

ما يقيم رابطة بينهما ، ولعل هذه الصورة الثالثة والأخيرة لجوردون ، أقرب إلى الحقيقة من الأُخْرَيَيْن .

ومع ذلك ، فمن الذى يقدر له فهم الجنرال جوردون ؟ . . مهما تكن القرائن التى تتجمع — عنه وضده على السواء — فإن ثمة صفة وهمية تبقى عالقة بصورته ، ومن الغريب أنه — وإن لم يكن كغيره من الرجال — يحرك وتراً من الإدراك فى أذهاننا ، فنضحك معه لتهكماته المستهترة ، ونشعر بأننا ندرك شيئاً من نضاله التصوفى . فنحن دائماً إلى جواره ، دون تحكيم للعقل ، عندما يكون منغمساً فى أصعب وأقسى التصرفات التى يتطلبها منصبه . فهو يفعل ما نشعر بأننا كنا خليقين بفعله لو أوتينا ما أوتى من شجاعة وفردية يشبهان ما كان لأعداء الجمود الكنسى . وبوسعه أن يحوِّل ولاءه فى عشرين اتجاهاً مختلفاً ، ثم يبدو لنا — مع ذلك — مطلق الولاء لمقومات طبيعته الأساسية ، وللجنس البشرى . وهو لا يتعبد فى كنيسة ، ولكنه مع ذلك متدين للغاية . ولا عجب فى أن كل من عملوا تحت إمرته ، دون ما استثناء ، كانوا يحبونه . فقد كان رجلا شديد التأثير ، يستطيع أن يفتن الطيور فى أكنانها ، بعينيه الزرقاوين المتألقين فى وجهه الأسمر ، وطابعه الصبيانى (برغم لمسة الشيب فى شعره) وصدق مشاعره المطلق . وما كان ثمة داع لأن يتعلل بأنه يفقد هدوءه أحياناً ، وأنه يستسلم أحياناً لنوبات « الاكتئاب » . . ولا داعى لأن يقول : « أيتكلمون عن طبيعتين فى شخص واحد ؟ . . إن لى مائة طبيعة ، لكل منها تفكير خاص ، وكل منها تريد أن تسيطر » . . ثم « ما من رجل فى الدنيا أكثر تغيراً منى » . فنحن نعرفه معرفة تامة (والمعرفة غير الفهم) ، فهو رجل منكر لذاته تماماً ، يهتم دائماً بنا بغض النظر عمن تكون ، ويود دائماً أن يقدم يد المساعدة . ففيه مائة بركة !

ولقد كان جوردون فى القسطنطينية — سنة ١٨٧٢ — عند ما التقى به نوبار باشا رئيس الوزارة المصرية ، فى السفارة البريطانية ، وسأله عمن يرشحه ليخلف بيكر كمحافظ لمديرية خط الإستواء . وأجاب جوردون بأنه كان على استعداد لقبول المنصب لو أستطاع أن يحصل على إذن من الحكومة البريطانية ، وقد سويت المسألة نهائيًّا عند عودته لإنجلترا فى العام التالى . وفى ٢٨ يناير ١٨٧٤ — نفس اليوم

الذى تناهى فيه نبأ موت لفينجستون إلى إنجلترا – رحل جوردون ليتسلم منصبه ، فوصل إلى القاهرة بعد عشرة أيام .

وأحب جوردون « الخديو » فى لقائهما الأول ، كما اغتبط الخديو إذ ألفى جوردون مقرًّا تماماً لمشروعاته لتوسيع الدولة المصرية إلى البحيرات الكبرى فى وسط القارة . وسرعان ما اتفقا على تفصيلات المنصب ، فكان على جوردون أن ينشىء سلسلة من المحطات العسكرية على النيل الأبيض من (جوندوكرو) حتى منبع النهر فى (بوجندا) ، وأن يضم بوجندا ذاتها ، ثم يطلق بواخر بيكر فى بحيرتى ألبرت وفيكتوريا . وأضيف البند المألوف بشأن إلغاء تجارة الرقيق إلى التعليمات ، على أن يتقيد جوردون بالاعتراف ، بشكل عام ، بسلطة « إسماعيل باشا أيوب » ، الحاكم العام للسودان ، الذى كان مقره بالخرطوم .

ولابد أن جوردون بدا نوعاً نادراً فى دنيا موظفى القاهرة الاستغلاليين ، وكان من العسير أن يحبذوا تعيينه . فلقد رفض مرتب بيكر الذى بلغ ١٠,٠٠٠ جنيه فى العام ، وقال إن كل ما يلزمه ٢٠٠٠ جنيه ! . وكان فى طريقة تدبيره للأمور شىء من الحدة والروح الآمرة . ولم يكن فى انتقاء أعوانه عناء يذكر ، فإن الشباب المغامر من كل أرجاء العالم كان يسعى – فى ذلك العهد – إلى مصر ، أملاً فى العمل لدى الخديو ، أو الالتحاق بإحدى البعثات التى كانت توفد إلى الداخل . فكان هناك أمريكيون – مثل شاييه لون ، والكولونيل براوت ، وميجر كامبل ، والليفتنانت كولونيل ميسون – لم تُشْبِع الحرب الأهلية الأمريكية حميتهم للعمل . وكان هناك شبان إنجليز ، مثل الملازم « تشيبنديل » ، « وويلى آنسون » ، ابن أخت جوردون ، الذى كان قد استرعى انتباهه فى الماضى ، والذى تقبل بشغف دعوته للانضمام للحملة . وكان هناك فرنسيان – أوجيست وأرنيست لينان دى بيلفون – وإيطالى يدعى « رومولو جيسى » ، وقد ألفوا جميعاً مصر والشرق الأوسط . وهناك عدد غيرهم من علماء الطبيعة والنبات وأصول الأجناس وطبقات الأرض ، استهوتهم أفريقيا أملاً فى إنجاز اكتشافات تفتح للعلم آفاقاً جديدة .

وفضلا عن هؤلاء ، كان ثمة محليون من أتراك ومصريين وسودانيين ، تألف منهم ضباط ورجال الحملة ، وتبعوا قادة أوربيين وأمريكيين إلى الجنوب ، لا عن

حب للمغامرة ، وإنما لأن الخديو أمرهم بالذهاب . وكان جوردون سريعاً ومعتداً برأيه فى اختيار الرجال . وقد لاحظ بيكر باستنكار — وهو فى إنجلترا — أن أحد المناصب الرئيسية وُكِلَ إلى النخاس البشع الذكر «أبى السعود» . ولكن جوردون لم يكن يحفل ، إذ كان يرى أن بوسعه أن يستخدم أى رجل يؤمن بأن بوسعه أن يصلحه ، وقد رأى أن أبا السعود أوتى معرفة ثمينة بالأحوال المحلية ، ويستطيع أن يساعده فى أمر النخاسين العرب فى النيل .

وكان بعض هؤلاء الرجال موجوداً فى السودان بالفعل ، وبعضهم رؤى أن يلحق بجوردون فيما بعد . وتقرر — فى البداية — شطر الحملة قسمين : فيبقى « جيسى » الإيطالى وشخص آخر أو اثنان لتدبير المهمات ونقلها بالنيل إلى الخرطوم ، بينما يتقدم جوردون « وشاييه لون » بطريق البحر الأحمر ، ليتصلا بالحاميات التى خلفها بيكر فى مديرية خط الاستواء . وقد استغرق جوردون أسبوعين فقط فى إتمام الإجراءات ، ثم انطلق بسرعة هائلة اتسمت بها كل رحلاته فى أفريقيا . فسافر بالبحر من السويس إلى (سواكن) ، ثم بالإبل — ولأول مرة فى حياته — عبر الصحراء النوبية ، فوصل إلى الخرطوم فى فترة قياسية : ٢١ يوماً . ويصف ستراتشى استقباله ، بهذه العبارات :

« استقبله فى الخرطوم الحاكم العام المصرى للسودان — رئيسه المباشر — استقبالاً رسميا ، انتهى بمأدبة طويلة ، أعقبها حفل راقص اختلط فيه الجنود بشابات عاريات تماماً ، كن يرقصن فى حلقة ، ويحفظن الإيقاع بأقدامهن ، ويحدثن قرقعة غريبة مع حركاتهن . وأخيراً استبدت النشوة بالقنصل النمسوى فألقى بنفسه بين الراقصين فى حمية مهتاجة . ولاح كأن الحاكم العام يوشك أن يتبعه ، وهو يصيح طرباً ، وإذا بجوردون يغادر القاعة فجأة ، فانفض الحفل بارتباك . . »

ولم يتأخر جوردون بالخرطوم سوى تسعة أيام ، ثم اتجه بالباخرة (بوردين) إلى (جوندوكرو) — عاصمته — على ١٠٠٠ ميل جنوباً . ووجد ، لحسن الحظ ، قناة سالكة خلال « السدود » ، فلم ينقض خمسة وعشرون يوماً حتى بلغت (بوردين) مقصده . وكان قد انقضى على رحيل بيكر عام ، ودب الخراب فى مديرية خط

الاستواء . كانت حامية جوندوكرو قد فقدت كل نظام ، وأصبح الجنود يتقاضون مرتباتهم خموراً أو جوارى ترسل لهم بطريق النهر من الخرطوم ، وسادهم جميعاً الفساد القديم . واستطاع جوردون — فى خمسة أيام — أن يتخذ سلسلة من القرارات الصارمة : ففصل كل موظف تبين اتجاره بالرقيق ، وأوفد « شاييه لون » إلى (بوجندا) ليتصل بموتيسا . ثم رحل هو إلى الخرطوم ، وهناك طلب إلى الحاكم العام اعتبار مديرية خط الاستواء منفصلة عن السودان ، ومعاملتها كدولة مستقلة . وعندما رفض « إسماعيل باشا أيوب » ذلك، اتصل جوردون بالقاهرة برقياً وحصل على موافقة الخديو . ثم شحن مركباً بالريالات النمسوية (ليدفع بها مرتبات جنوده ، بدلا من الخمور والجوارى) ، وأبحر شمالاً إلى (بربر) حيث قابل « جيسى » وبقية رجاله القادمين بالنهر . ولم تحل نهاية مايو حتى كان قد لمّ شمل رجاله ، وأبحر جنوباً إلى جوندوكرو ، مصطحباً إياهم فى أربع بواخر و « الصنادل » الملحقة بها .

وكان جوردون قد بدأ يدرك ، متأخراً ، أنه اندمج فى مشروع أخطر للغاية من أى مشروع تولاه فى الصين . فلم يكن قد قدر لأحد أن يبحر فى النهر — بعد (جوندوكرو) جنوباً — أو يرسمه على خريطة . وكان شطر كبير من الأرض التى اعتزم غزوها لم يكتشف بعد . كما أن جنوده المصريين كانوا قد استثاروا — بالنهب والاستهتار — عداء القبائل المحيطة بهم لمسافة أميال ، فلم يعد بوسع المسافر أن يتحرك ، فى أى اتجاه ، بدون حرس مسلح . وكان الطقس لا يطاق ، ولا بد — لتفادى البعوض — من ملازمة الفراش قبل الساعة السابعة مساء ! .. وأخذ الأوربيون يتهاوَوْن تباعاً تحت وطأة الملاريا والحر الفظيع ، فمات منهم ثلاثة قبل انتهاء العام ، بينما كان غيرهم مرضى ، وأرسل آخرون إلى مصر للاستشفاء . وكان جوردون — بمعجزة ما — هو الوحيد الذى لم يمس بسوء ، ولعل ذلك لأنه لم يكن يركن للخمول لحظة .

وفى هذه الظروف الفظيعة — ولا نبالغ إذا قلنا إن أى مسافر فى أفريقيا فى هذه الأيام يستطيع تصور مبلغ ما كانت عليه من سوء — بدأت حقيقة طبيعة زملاء جوردون ومقدرتهم تتجلى . فسقط « شاييه لون » أثناء عودته من بوجندا صريع الحمى ، وأرسل للخرطوم . وما كان جوردون ليأسف على ذهابه ، إذ كان قد

أثبت أنه متذمر كثير الشكوى . وعاد « أبو السعود » — بفطرته — إلى النخاسة والغدر ، بمجرد أن بلغ جوندوكرو ، إذ لم يكن يعرف طريقاً آخر فى الحياة ، فاضطر جوردون إلى التخلص منه . وما لبث « أرنست لينان دى بيلفون » أن رحل . وكان أخوه قد مات بعد أن خلف « شاييه لون » فى عاصمة موتيسا — ببوجندا — والتى بستانلى ، كما رأينا من قبل . ثم عاد إلى مديرية خط الاستواء ، وسرعان ما طُعِن بحربة أثناء التحام مع قبيلة « البارى » . وفى ذلك الالتحام محيت تماماً حامية بيكر — « الأربعين حرامى » ، صفوة جيش بيكر الصغير — وكان « جيسى » وحده ، دون ضباط جوردون ، الذى بدا قادراً على مغالبة الضائقات المضنية التى كانت ترهقهم وتودى بأعصابهم جميعاً ، بين وقت وآخر .

ومن الغريب أن « رومولو جيسى » لم يُعرف معرفة أوسع ، سواء فى أفريقيا أو فى بلاده . (ففيما عدا شارع باسمه فى (رافينا) ، لا يكاد يوجد شىء آخر يحيى ذكره فى إيطاليا !) ، مع أنه من أعظم الرواد الإيطاليين الأوائل فى النيل . وكان أصلب أعوان جوردون ، وأكثرهم مرحاً ، وأشدهم عزماً ، وأحسنهم . وقد وصفه جوردون بقوله :

« هو إيطالى الجنسية ، عمره ٤٩ (فى سنة ١٨٨١) ، قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، هادئ ، شديد العزم . نبغ بفطرته فى الابتكار العملى فى الآليات . كان حرّيا بأن يولد سنة ١٥٦٠ وليس سنة ١٨٣٢ . له طباع فرانسيس دريك[١] . استخدم فى كثير من المسائل السياسية الصغيرة . كان مترجماً لقوات صاحبة الجلالة فى القرم ، وملحقاً بقيادة المدفعية الملكية » .

وكان « جيسى » من أب إيطالى وأم أرمنية ، ولد فى القسطنطينية ، وكان يناهز جوردون فى العمر ، ويكاد الرجلان يتشابهان . فبينما كان جوردون يقود « الجيش

---

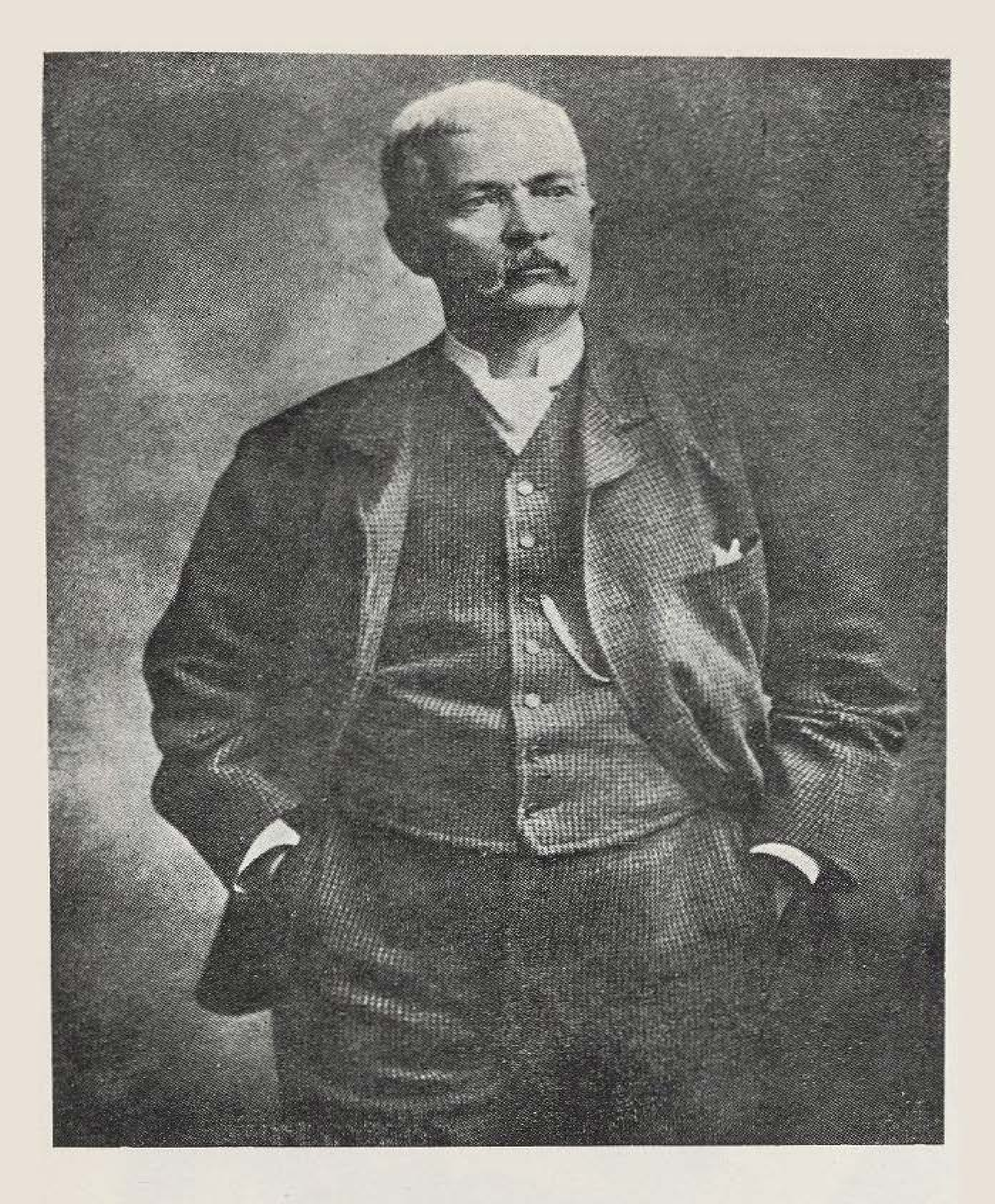
(١) سير « فرانسيس دريك » (١٥٤٥ — ١٥٩٦) : ملاح وجواب بحار . قام بين سنتى ١٥٧٠ و ١٥٧٣ بثلاث رحلات إلى جزر الهند الغربية ، وأعمل النهب ، فجمع ثروة كبيرة . وكان أول إنجليزى دار حول الأرض بسفينته ، فمنحته الملكة اليزابيث الأولى لقب « سير » . وقام سنة ١٥٨٥ بعدة اعتداءات وحشية على مدن الساحل الإسبانى ، كما قام بدور قيادى فى هزيمة الأسطول الإسبانى (الارمادا) عند ما حاول الإسبان مهاجمة إنجلترا سنة ١٥٨٨ وكسب السيادة البحرية لإنجلترا . يدعوه النقاد بـ « القرصان الرخيص » ، ويسميه المعجبون « بطلا بروتستانتياً » . (المترجم)

المظفر دائماً » فى الصين ، كان « جيسى » يحارب مع « جاريبالدى » لتحرير إيطاليا ، ثم عملا معاً فى القرم ، وأبليا خير البلاء فى حرب العصابات غير النظامية ، إذ كانا بطبيعتيهما يظلان هادئين ثابتين فى أشد الظروف غرابة وخطورة ، ولم يؤت أى منهما فرصة لممارسة حياة الجندى النظامى فى وقت السلم ، باستعراضاتها ، وأزيائها ، وترقياتها . وبإيجاز ، كانا من طراز « الفدائيين » ، وكان كل منهما يكمل الآخر فى تناسق . فبينما كان جوردون مرهف الحساسية ، محبًّا للوحدة ، زاهداً . كان « جيسى » دافئ القلب ، محباً للاختلاط . وكان كل منهما شجاعاً مقداماً ، ومعرضاً لفورات غضب عنيفة . ولعل هذا كان رابطاً بينهما ، إذ كانا يفضّان خلافاتهما بما يشبه العاصفة المفاجئة ، ويظلان دائماً على وفاء فى أوقات الشدة .

ومع ذلك ، فقد شعر جوردون ــ وسط المحن والنكسات التى لازمت بداية بعثته ــ بضرورة إرسال هذا الرجل (الذى كان يعتمد عليه أكثر من اعتماده على سواه) ، إلى الخرطوم ليتعجل إرسال بواخره فى النهر . وبهذا بقى وحيداً ــ تقريباً ــ مع جنوده ، ليشقوا الطريق إلى الجنوب . وقد كتب جوردون لأحد أصدقائه ، فى أواخر سنة ١٨٧٤ ، يقول : « لقد برح بى الإنهاك ، وأخشى أن يكون طبعى قد ساء إلى أقصى حد ، ولكن القوم متعبون ، ولا جدوى ما لم يكن المرء مرهوباً بينهم ! »

وفى خلال تلك الأيام الأولى ، بدأ جوردون يستسلم لنوبات الاكتئاب ، فكان أحياناً ــ كما يروى « ستراتشى » نقلاً عن « شايبه لون » ــ يجلس فى خيمته ، وعلى بابها بلطة وعلم ، إشارة إلى أنه لا يريد إزعاجاً لأى سبب من الأسباب . . إلى أن تنجاب الغيوم أخيراً ، فترفع الأشارة ، ويظهر الحاكم نشيطاً ، مشرقاً » . ويقول « شايبه لون » إنه فى إحدى هذه الأزمات ، تجاسر على دخول الخيمة ، فوجد جوردون يجلس صامتاً ، ومعه توراة مفتوحة ، وزجاجة ويسكى !

وسواء صدقت هذه القصص أو لم تصدق (والمؤكد كذب ما تضمنته عن أن جوردون كان سكيراً) فإنها لا تنال من أن جوردون قد أنجز فى تلك السنوات الأولى فى أعالى النيل ، أكثر ــ بكثير ــ مما فعل فى موقفه الأخير المشئوم



هنري مورتون ستانلي

صحفي استغل بعثته للبحث عن لفينجستون
ليسجل اسمه بين مكتشفي أفريقيا .



رسم كاريكاتورى نشرته صحيفة «سير يو كوميك» اللندنية فى ٩ يوليو ١٨٧٣ ، للتعليق على حملة « بيكر » ، قد ظهر شبح « ويلبر » يشكره . . « لكفاحه فى سبيل الحرية » !

بالخرطوم ، بعد ثمانى سنوات . وكان يستهل يومه بقراءة صفحات من التوراة ، ثم يخرج وقد استمد إلهاماً يرفع من روحه ، فيناضل مشكلات اليوم . وهو لم يتقدم على غرار بيكر ، فلم يكن فتاكاً بالإفريقيين ، ولم يكن يغير على العشائر إلا بحكم أقسى الضرورات . وكان يعجب بمقاومتهم لهذا الاقتحام العنيف من العالم الخارجى ، ولرفضهم — فى البداية — أن يتعاملوا معه . . وكان يتلطف مع الزعماء الإفريقيين ويستميلهم ، ويبث فى رجاله تأجج طاقته ، وكان صلباً ، لا يرتضى تقبل الهزيمة .

ومن أول أعماله عند وصوله إلى مديرية خط الاستواء ، أنه نقل مقره من (جوندوكرو) إلى مكان أصح طقساً ، على بعد بضعة أميال جنوباً ، عند (لادو) . ثم عالج مشكلة النهر ذاته ، فقد كانت تعترضه شلالات ، جنوب جوندوكر بقليل ، يسير بعدها هادئاً رفيقاً ، مسافة ثلاثين ميلا ، ثم تعترضه شلالات أخرى متلاحقة ، خلال أرض منحدرة ، كثيفة الغابات ، تمتد وراءها مناطق لم تكن معروفة بعد . ولا تحاول باخرة إلى اليوم ، أن تمر خلال هذا الجزء الخطر الصاخب من النهر — وهو يمتد حوالى مائة ميل من مدينة (جوبا) الحالية إلى (دوفيله) على حدود أوجندا — ولكن جوردون اعتقد فى سنة ١٨٧٤ أن بوسعه أن يجتاز ذلك الجزء الخطر . وكانت لديه ثلاث بواخر : الباخرة (الاسماعيلية) — ٢٥١ طناً — التى خلفها بيكر فى الخرطوم مفككة وتولى جيسى تركيبها .. و (الخديو) — ١٠٨ أطنان — وسفينة أصغر ، حمولتها ٣٨ طناً ، هى « (نيانزا) » ، ثم قاربان من الصلب . وقد أرسل السفن على النهر ، تحف بها « دعواته » . وتطلب هذا قدراً خيالياً من العمل الذهنى والبدنى . وسبقها هو ليرسم — بعناية — خريطة المجرى ، وليقيم مراكز عسكرية على مسافات متساوية على الضفتين . وكانت (الخديو) أول سفينة لحقت به ، قاطعة جزءاً من رحلتها بقوة بخارها ، وجزءاً آخر بقوة الأهالى الذين كانوا يشدونها بحبال يجرونها على الضفة . وحتى سبتمبر ١٨٧٥ لم تكن قد قطعت أكثر من نصف المسافة إلى (دوفيله) ، ثم أفلتت من مرساها ذات يوم ، وانحشرت بين الصخور . وكانت نذر نكبة أسوأ من ذلك فى الانتظار ، فإن جوردون تقدم فى النيل حتى لمح — لأول مرة — مساقط (فولا) ، وهى آخر وأقسى عقبة فى النيل قبل بلوغ (دوفيله) . وكتب يقول : « انتهى كل شىء . خلت لفترة أننى سمعت صوتاً كهزيم الرعد ، يتزايد كلما مضينا فى النهر . وأخيراً وقفنا فوق ضفة صخرية تغطيها النباتات ،

وتهبط بانحدار شديد إلى المجرى ، حيث كان منظر مهول لدرجة لا تجعل المرء يقوى على تأمله ، بله التفكير فى إرسال شيء عبره ، اللهم إلا ممزقاً إرباً . . كان الماء يغور ، ويتلوى فى دوامات شتى ، بينما تحول الضفتان الشديدتا الانحدار والعمق ، دون رؤية جزء كبير من المنظر الذى يستمر ميلين » .

وقرر أن يترك السفينة (الخديو) مؤقتاً ، ويرسل إلى « جيسى » ليحضر السفينة الصغرى (نيانزا) والقاربين الفولاذيين ، إلى أقصى ما تستطيع السفينة السير بقوة محركاتها ، على أن تفكك — قبيل مساقط (فولا) — ثم يحملها ١٠٠٠ رجل بالبر إلى دوفيله ، حيث يعاد تركيبها . وفى تلك الأثناء ، يكون جوردون قد تقدم سيراً على الأقدام لإنشاء مزيد من المحطات فى الجنوب ، وليتم فتح (بوجندا) . وقد تقدم أولاً بسرعة ستة عشر ميلا فى اليوم — فى الحر القائظ — إلى مركز بيكر فى (فاتيكو) و (فويرا) . وكان بيكر قد أطنب فى الانتشاء بجمال هذه الأصقاع ، ولكن جوردون وصفها بأنها « مجموعة من المستنقعات البغيضة المملة ، تفوق كل ما تستطيع تصوره ! . . والبلاد خالية تماماً من السكان . . برية شاسعة تموج بأعشاب الأدغال والأشجار الجافة . وكل ما يمت لهذه البلاد وُصِف بمبالغة كبيرة » .

وإذ ترك جنوداً فى (فاتيكو) و (فويرا) ، واصل جوردون سعيه نحو الجنوب ، فبلغ (مرولى) ، بعد سير شاق طيلة الثلاثين ميلا الأخيرة . وتقع (مرولى) على بعد حوالى عشرة أميال شرق ميناء (ماسيندى) الحديث ، على بحيرة (كيوجا) ، فأقام مركزاً أمامياً آخر . ولقد وقعت اشتباكات عابرة مع الأهالى على طول الطريق ، ولكن الملك « كاباريجا » كان قد هرب قبل زحف جوردون . وأصبحت البعثة أخيراً على مقربة من بحيرة فيكتوريا ومنبع النيل ، فأوفد « نُوير أغا » — من خيرة ضباط جوردون المحليين — مع ١٦٠ رجلا لإنشاء قاعدة فى بوجندا ، بينما ارتد جوردون ليتفقد سير العمل عند الشلالات . فبلغ (دوفيله) فى ٨ فبراير ١٨٦٧ ، بعد أن قطع ٤٠٠ ميل فى أربعين يوماً . وهناك علم أن الباخرة (الخديو) تم تعويمها ، ولكنها كانت بعيداً إلى الشمال ، وأن (نيانزا) كانت تحت التركيب جنوب مساقط (فولا) . أما القاربان الفولاذيان — وكل منهما عشرة أطنان — فكانا

طافيين عند دوفيله ، فقرر جوردون إرسالهما جنوباً لاكتشاف الجزء غير المعروف من النهر ، الذى قد يؤدى إلى بحيرة ألبرت .

وكانت تلك لحظة انتصار عظيم ، إذ تراءى للقوم — مع إبحار القاربين — أن فتح أفريقيا الوسطى بات واضحاً أمامهم. ولم يشأ جوردون أن يسمح لنفسه بمسرة ونشوة تولى الإشراف على هذه الرحلة ، إذ رأى فى ذلك إيثاراً للنفس ، فأسلم القيادة إلى « رومولو جيسى » و « كارلو بيادجيا » ، وكان مكتشفاً إيطاليًّا آخر وصل حديثاً ، وكتب — فى إيجاز أكثر مما ينبغى — خطاباً إلى أحد مراسليه ، قائلاً : « بودى أن أقدم دليلا عمليًّا على رأيى بصدد ما يُبدى لأى مكتشف من مديح مغالى فيه » . وقد أبحر جيسى وبيادجيا — فى ٦ مارس ١٨٧٦ — فى ذلك الجزء الأخضر الجميل من النيل ، الذى يمتد إلى بحيرة ألبرت ، بينما عاد جوردون إلى (لادو) ، على مسافة ١٠٠ ميل ، لينتظر عودتهما .

وعاد « جيسى » فى نهاية أبريل ، وتبعه « بيادجيا » بعد قليل ، محملين بأنباء مثيرة ومزعجة فى آن واحد . فقد اكتشفا أن النيل — جنوب (دوفيله) — يفضى فعلا إلى بحيرة ألبرت ، دون شلالات ولا جنادل ولا أى شىء . وعند مدخل البحيرة ، انحرف «جيسى » ليطوف بشواطئها ، فاكتشف أنها أصغر بكثير مما خالها بيكر ! بينما ضرب « بيادجيا » شرقاً — فى زوارق محلية — حول شلالات ميرشيزون وكاروما ، فبلغ بحيرة (كيوجا) . وكان كل هذا كسباً جغرافياً مؤزراً ، أما الشىء المزعج فهو أن كلا من الرجلين ادعى أنه اكتشف رافداً جديداً للنيل فى رحلته . فقال « جيسى » إنه رأى مجرى يخرج من النهر إلى الغرب ، على بعد بضعة أميال فوق ألبرت . وأعلن « بيادجيا » أن نهراً مشابهاً يخرج من بحيرة (كيوجا) متجهاً نحو الشمال الشرقى . فأيهما إذن المجرى الرئيسى للنيل ؟

هنا قرر « جوردون » أن يتحقق بنفسه ، إذ كان مصمماً على رسم النهر بدقة ، من « جوندوكرو » حتى منبعه . وكانت السفينة (نيانزا) طافية عند (دوفيله) ، فاستقلها فى ٢٠ يوليو ١٨٧٦ ، وأبحرت به جنوباً ، تجر خلفها القاربين الفولاذيين . وسرعان ما تأكد أن النهر الجديد الذى تراءى لخيال « جيسى » — شمال بحيرة ألبرت — كان وهماً . ثم أبحر شرقاً حتى شلالات ميرشيزون . ومن هناك ، هبط وواصل رحلته مشياً على ضفة النهر ، حتى بلغ (فويرا) ، للمرة الثانية فى سنة

أشهر . وكان قد تجلى له ألا أمل هناك فى أن تجتاز السفن شلالات ميرشيزون . وفى رحلة أخرى إلى الجنوب — حتى بحيرة كيوجا — اكتشف أن النهر الذى تراءى أيضاً لخيال « بيادجيا » — والمتجه إلى الشمال الشرقى — لا وجود له كذلك . وكان فى انتظاره نبأ سيىء آخر ، إذ قابله « نوير أغا » عند (فويرا) ، وأطلعه على أن بوجنداً لم تضم لمصر ، بل إن الملك « موتيسا » أسر الحامية المصرية هناك . فأوفد ضابطاً آخر إلى الجنوب لتخليص الحامية من الأسر .

وما كان هذا كل شيء . فقد فشل مشروع آخر من أكثر مشروعات جوردون طموحاً ، لغزو البحيرات الكبرى . وقد أشار إليه فى إحدى رسائله إذ ذاك ، بقوله : « أرى أن الخديو سحب جنوده من (جوبا) بأمر الحكومة البريطانية » . وكان ذلك أمرا غريباً . ففى أوائل سنة ١٨٧٥ ، رأى جوردون — فى غمرة الصعوبات التى صادفته على النيل — أنه ربما كان من الممكن العثور على طريق أفضل إلى أواسط أفريقيا ، بالاتجاه براً من (جوبالاند) ، على الساحل الشرقى للقارة ، وكتب يقول :

« عرضت على الخديو إيفاد ١٥٠ رجلا فى باخرة إلى خليج ممباز (ممباسا) ، على ٢٥٠ ميلا شمال زنجبار ، لإنشاء مركز هناك، ثم التقدم لملاقاة « موتيسا » . ولو تمكنت من ذلك فسأجعل « ممباز » قاعدتى ، وأهجر الخرطوم ومتاعب السفن إلخ . . . وبهذا يغدو وسط أفريقيا مفتح الأبواب فعلا ، إذ أن الأجزاء الوحيدة ذات القيمة فى البلاد هى المرتفعات القريبة من موتيسا . أما جنوب هذه (أى جنوب لادو) فمستنقع شنيع . آمل أن يقبل الخديو » .

وكانت فكرة براقة فى الواقع ، لا تنطوى على أقل من تطويق الحبشة (وكانت مصر فى حرب معها) وغزو ممتلكات « برغش » فى الساحل الشرقى لأفريقيا . وبمجرد شق طريق من ممباسا إلى البحيرات الكبرى ، يصبح الخديو فى وضع يمكنه من السيطرة لا على وادى النيل بأسره فحسب ، وإنما على قطاعات كبيرة من أفريقيا الوسطى والشرقية كذلك . وكان صغر القوة التى اقترحها جوردون ، دليلا على أنه — حتى ذلك الحين — لم يكن يعرف سوى القليل جداً عن جغرافية المناطق التى

كان يغزوها ، وأقل من ذلك عن المسائل السياسية بأفريقيا . وما كان من المحتمل ، مثلا ، أن ينظر « برغش و « كيرك » فى زنجبار إلى هذه المغامرة بتسامح . والواقع أن جوردون توقع متاعب بسيطة من هذه الناحية ، ولكنه أسقطها من حسابه . وقد أشار إلى ذلك فى رسالة كتبها إلى بيرتون ، مستفسراً عن ظروف الساحل الصومالى ، بقوله : « لابد أنك تعلم ألا شىء يسر القنصل البريطانى فى زنجبار أكثر من معارضة مشروع كهذا ، بالقدر الذى يلفت إليه الأنظار ، ويتيح له فرصة الكتابة إلى وزارة الخارجية » . وكان فى قوله هذا قسوة ، وغبن كبير لكيرك .

على أن الخديو مال للفكرة كثيراً ، فى الواقع . وكان فى خدمته ضابط معار من البحرية البريطانية يدعى « الكابتن هـ . ف مكيلوب » ، فعينه قائداً للمشروع ، كما عين « شاييه لون » — عند عودته من مديرية خط الاستواء — ومعه ٥٥٠ جندياً مصرياً ، لتنفيذ العمليات فى البر . . وأبحروا فى سبتمبر ١٨٧٥ من السويس فى أربع بوارج ، وكانت هذه أرعن المغامرات الأفريقية جميعاً . ونزلوا لأول مرة فى (براوه) ، التى كانت مركزاً أمامياً شمالياً لبرغش ، على ساحل ما أصبح الآن يعرف بـ « الصومال » . ولم تصادفهم مقاومة ، فأنزل علم برغش من الحصن ، ورفع العلم المصرى بدلا منه ، وللتحبب إلى الأهالى ، أعلن القائدان الأوربيان للحملة أن تجارة الرقيق (التى كان « برغش » قد جعلها « جريمة » قبل عامين) أصبحت مشروعة مرة أخرى ! . . وتُرك مائة رجل مع ضابط مصرى ، كحامية على الشاطئ ، ثم أبحرت البعثة إلى (كيسمايو) ، حيث هبط « شاييه لون » مع بقية القوة . ومرة أخرى ، لم ترق دماء ، واستسلم ٤٠٠ من جنود برغش ، وسقطت المدينة . وهبطت الحملة مرة ثالثة فى (لامو) جنوباً .

ومن العسير أن نحدس ما خطر لشاييه لون و « مكيلوب » أن يفعلاه بعد ذلك . كانا قد أفلحا فى إثارة ضجة على طول الساحل ، وطارت أغرب الشائعات من بلدة إلى أخرى ، حتى بلغت (ممباسا) جنوباً ، لتقول إن حكم سلاطنة زنجبار قد تحطم أخيراً ، وتولت مصر الزعامة ، وبدأ — من جديد — عهد عظم للنخاسة غير المقيدة . ولكن إلى أين كان مقدراً لشاييه لون ورجاله (٥٥٠) أن يذهبوا ؟ لم تكن معهم إبل ولا حيوانات من أى نوع ، وكان جوردون فى وسط أفريقيا ،

على مئات الأميال إلى الغرب . وما كان ثمة أمل فى السيطرة على الساحل بقوة ضئيلة كهذه ، بل ما كان بوسعهم أن يبقوا حيث كانوا ، إذ لم تكن لديهم إمدادات ولا فحم لسفنهم . فضلا عن أن كيرك كان قد أثاره نبأ هبوط الجنود ، فاستقل البارجة البريطانية « ثيتيس » — التى صادف أن كانت فى زنجبار إذ ذاك — وأبحر شمالا إلى (بروه) بسرعة . وعندما حاول الهبوط ، قوبل فى البداية بمصريين مسلحين أجبروه على العودة إلى البارجة ، ولم يدعه الضابط المصرى ينزل إلى الشاطئ إلا حين هدد بضرب البلدة . ولكن كيرك ما لبث أن تبين ألا سبيل لعمل مباشر ، فقد كانت تلك مسألة دولية ولابد من تسويتها فى لندن والقاهرة . وبادر بالعودة إلى زنجبار حيث أرسل احتجاجاً قوياً إلى وزارة الخارجية ، عززته رسالة مشابهة من « برغش » إلى الخديو .

وفى تلك الأثناء ، كان مركز « مكيلوب » و « شاديه لون » يزداد حرجاً . فلما استفحل بسبب نقص الإمدادات ، أرسلا سفينة إلى زنجبار للحصول على فحم . واستطاع كيرك بجهد أن يصرف برغش عن الاستيلاء على السفينة ، وحمله — بدلا من ذلك — على أن يقدم الفحم للمصريين مع رسالة مؤدبة إلى مكيلوب ، قال فيها : « أرسل لك الفحم الذى تنشده وفاكهة . عسى أن تساعد الأخيرة على بقائك بصحة جيدة ، وأن يحملك الأول بعيداً عن بلادى . فاذهب ، وعليك السلام » .

وإذا كان قد توفر للحملة طيف فرصة كى تفرض على برغش « أمراً واقعاً » ، فإن هذه الفرصة ولت ، لذ كانت وزارة الخارجية قد آلت أن تؤيده منذ أقر اتفاقية مكافحة الرقيق فى سنة ١٨٧٣ .

وفوق ذلك ، كان فى انجلترا فريق كبير ذو نفوذ ، لا يرغب فى أن يمد الخديو إسماعيل حكمه الفاسد إلى أواسط أفريقيا . كذلك كانت الجمعيات التبشيرية ضده ، وتولت الصحافة التقدمية مهاجمته ، وضم إليها « جرانت » صوته ، وقد أصبح يعتبر خبيراً فى الشئون الأفريقية .

ورأى الخديو أن الصيد قد ولى — والواقع أنها كانت مهزلة من البداية إلى النهاية — فأمر مكيلوب بأن يعيد جنوده إلى السفن ويرجع . ولم تستغرق المغامرة كلها سوى ثلاثة أشهر أو أربعة . وهكذا اضطر جوردون فى أواسط أفريقيا —

حيث تناهت أنباء هذه الأحداث أخيراً ، فى سنة ١٨٧٦ — إلى الإقرار بأنه أخطأ ، فكتب إلى « اللورد ديربى ، رئيس الوزراء فى إنجلترا ، قائلا إنه شخصياً الملوم فى المسألة كلها . وأبدى ، فى رسالة إلى كيرك ، نوعاً من الاعتذار ، وأكد له أنه لم تعد له غايات فى (بوجندا) ، وأن حاميته أخذت تنسحب من عاصمة الملك « موتيسا » .

وكان جوردون قد قضى عامين ونصف العام فى أواسط أفريقيا ، وقد أخفق فى غايته الكبرى ، وهى ضم النيل من (جوندوكرو) إلى منبعه ، وإرسال سفنه فى بحيرة فيكتوريا . فشل فى ذلك فقط ، ولكن النهر كان قد اكتشف ورُسمت خريطته بدقة — لأول مرة — لمسافة ستين ميلا من منبعه ، وكانت الباخرة (نيانزا) على سطح بحيرة ألبرت ، وزميلتها (الخديو) توشك أن تنضم إليها . وطرد النخاسون من مديرية خط الاستواء ، وبسطت الحصون العسكرية رقابتها على المديرية من أولها إلى آخرها . ولعل الأهم من هذا كله ، أن جوردون كان قد منع جنوده من نهب الأهالى ، وحوّل هؤلاء — على طول النهر — من أعداء إلى أصدقاء . وأصبح من الميسور للمسافر أن يجوس خلال البلاد وحيداً ، غير مسلح بأكثر من عصا يتوكأ عليها . وكانت هذه شبه أعجوبة فى أفريقيا الوسطى .

وكانت الحصون — فى حد ذاتها — عملا جديراً بالإعجاب ، وقد بدأت تتخذ مظهر المدن المستقرة . كانت هناك حوالى اثنتى عشرة منها ، ألّفت سلسلة تمتد ٦٠٠ ميل ، من (فاشودة) — على خط عرض ١٠ شمالا — إلى خط الاستواء جنوباً . وكانت الحلقات الرئيسية فيها هى (لادو) — العاصمة الجديدة للمديرية — (ودوفيله) ثم (واديلاى) فى أعالى النيل ، شمال بحيرة ألبرت . وكانت هذه الأماكن شديدة التشابه ، تضم كل منها منطقة مساحتها حوالى ستة أفدنة ، فى بقعة مناسبة على ضفة النهر ، يسهل عندها عبوره ، وتخلو من نبات البردى ، وينفسح عندها الأفق شمالاً وجنوباً . وكانت الناحية المطلة على النهر مفتوحة ، وعندها رصيف لرسو السفن ، و « ورشة » نهرية لتجميع وإصلاح البواخر . أما الجوانب الثلاثة الأخرى للموقع ، فكانت تتألف من سياج عال سميك من التراب ، محوط بخندق . ومن حافة الماء ، تمتد إلى الداخل شوارع نظيفة تحف بها أكواخ من القش .

وكانت تقوم فى وسط الحصن بنايات من الطوب للضباط الرئيسيين ، ومخازن ، ومستودع للذخيرة . ونصبت حول السور مدافع ، بينما رفرف علم الخديو الأحمر على المكان . وكان النخيل الأفريقى وشجر السنط المسطح القمم يلقى ظلا ضئيلا ، ولكن الحصون كانت عادة أماكن حارة فى جوها الرطوبة ، ويغزوها البعوض وتعيث فيها الملاريا . وكانت الحشائش والأعشاب البرية — على الضفاف — تقطع لتفسح مجال الرؤية للمدافع ، ولتفسح فراغاً لحدائق الخضر والقطن .

ولقد فرض جوردون آراءه الصارمة فى النظام على الحاميات ، فكان بوق الاستيقاظ يدوى فى الخامسة والنصف صباحاً ، مع مطلع النهار . وكان دويه غريباً وسط هذه البطاح (وقد ظل رجال القبائل يذكرونه فى السنوات التالية ، ولا يزال فى متنزه (ميرشيزون) العام للوحوش — فى أوجندا — مكان يدعى (البوقلى) ، يقوم على النهر ، فى مواجهة أطلال حصن جوردون القديم فى (ماجونجو) ، وقد أطلق عليه الأهالى هذا الاسم لأنه كان بوسع من يقف هناك أن يسمع دوى أبواق الحامية ، فيتنبه إلى أنه قد اقترب أكثر مما يكفل له السلامة) . وكانت الشوارع تكنس — بعد ذلك — ويسرح الجنود زوجاتهم للعمل فى الحقول أثناء النهار . وفى الثامنة مساء ، كانت أبواب الحصن تغلق وتطهى وجبة العشاء وتؤكل .

كان وجوداً رتيباً بطبيعة الأمر . إذ كانت البواخر وما تجلبه من الإمدادات والبريد هى نبع الحياة للحاميات . وكثيراً ما كانت الأسابيع والأشهر تمر قبل أن يسمع على البعد صفير يجعل كل امرئ يهرع إلى ضفة النهر . ومع ذلك فلأواسط أفريقيا — كما لكل مكان آخر فى المنطقة الحارة — أساليبها التى تبعث فى الحياة فتنة برغم خمولها . كان من المحتمل دائماً أن يشن رجال القبائل هجوماً . وكانت الطيور الزاهية ، والحيوانات الوحشية تحوم حول تلك الأماكن ، وأفراس النهر والتماسيح فى النهر ، والفيلة والخراتيت (النوع الأبيض النادر فى تلك المناطق) فى الأدغال المحيطة . وكان الجنود يصيدون السمك من النيل ، ويعدون البيرة المحلية ، وقد اتخذوا من بنات القبائل المحلية زوجات ، واعتادوا أن يرقصوا عندما يكتمل البدر ، وأن يولوا وجوههم شطر مكة ليصلوا . وإذا تأخرت البواخر ، كان هناك رسل ينطلقون فى دروب الأدغال التى تصل الحامية بالتى تليها . وكان للقوم — فى

عزلتهم فى دنيا النهر الخضراء — أقاويلهم وشائعاتهم وجرائمهم الخاصة . كانت حياة أليفة ، منظمة ، توفر السلامة على الأقل ، فى بطاح لم يكن فيها — من قبل — سوى عدم الاطمئنان والهمجية .

ولكن جوردون كان قد سئم . فهو لم ينعم بيوم واحد — كعطلة — خلال العامين ونصف العام ، وقد أرهق نفسه إلى أقصى احتماله . ومع أنه لم يصب قط بمرض شديد ، فقد كان محوطاً منذ البداية بالمرض والموت يفتكان برجاله ، وقد هدم طقس النيل — الذى لا يلين — قواه لفترة . وكثيراً ما كان يتعرض للخطر . ومن إمارات الإرهاق أن تشاجر ، حوالى تلك الفترة ، مع « جيسى » ، وكان شجار رجلين أنهكت أعصابهما أكثر مما ينبغى !

وقد كتب ابن « جيسى » قصة ما جرى ، بعد ذلك بسنوات كثيرة . ووفقاً لروايته كان جيسى متكدرا لأن كل الضباط العاملين مع جوردون نالوا مكافآت أكثر مما نال . وبلغت الأمور ذروتها حين عاد جيسى من طوافه حول بحيرة ألبرت ، واغتبط جوردون بعمله إلى درجة أن قال فى غير حذر : « من المؤسف أنك لست إنجليزياً » . وإذ ذاك تناول جيسى قبعته العسكرية ورماها أرضاً ، وقدم استقالته .

ومن الواضح أن هذه ليست كل القصة ، ولكن ما من شك فى أن شجاراً ما حدث ، انصرف على أثره جيسى . على أنهما ولابد قد تصالحا بعد ذلك ، لأن جوردون — هو الآخر — كان معتزماً الاستقالة ، فاتجه الرجلان إلى القاهرة معاً فى أواخر سنة ١٨٧٦ .

ولعل نجاح جوردون هو الذى فت من روحه المعنوية ، لأن عمله فى مديرية خط الاستواء كشف عن ضخامة مشكلة السودان بأسره كان جوردون — باختصار — أشبه بجراح اكتشف وهو يؤدى جراحة صغيرة أن الداء مستشر فى جسم مريضه .

وفى القاهرة ، أخبر الخديو بأنه غير راغب فى العودة . ومع أن إسماعيل أغراه بأن يعيد دراسة الأمر ، فإنه رحل إلى إنجلترا — فى إجازة — وهو مفعم بالهواجس . ومن إنجلترا أرسل استقالة قاطعة . كانت أكثر من مجرد تصرف من رجل مضنى صدم فى أوهامه ، إذ كان يجثم عليه شعور طاغ بعدم صلاحيته ، حتى إنه كتب لشقيقته بعد ذلك يقول : « تساورنى رغبة فى أن أتمكن من التخلص من الكولونيل جوردون » !

الفصل العاشر

راكب الجمل

« أنا الزميل الذى يقطع الخشب، والنجار يوجهه »
الجنرال جوردون

يشغل السودان حوالى مليون ميل مربع . ولم تكن فيه ، فى السبعينات من القرن التاسع عشر ، مدن من أى حجم — اللهم إلا (الخرطوم) و (الأبيض) ، عاصمة كردفان — كما لم تكن به سكك حديدية ، ولا طرق ، ولا وسائل للنقل سوى المراكب فى النيل وقوافل البغال والإبل فى الصحراء . وكانت الرابطة الوحيدة بينه وبين العالم الخارجى تكاد تقتصر على الخط البرقى الذى كان قد أقيم حديثاً بين الخرطوم والقاهرة . وكان عدد السكان فى هذه المساحة الشاسعة يقدر بتسعة ملايين ، قد تزيد مليوناً أو تنقص ، إذ كان من المستحيل إحصاؤهم ، ولم يكن أحد قد عين حدود البلاد بعد : فإلى الشرق يعتبر البحر الأحمر وجبال الحبشة بمثابة حدود لها . وكان المسلم به عامة أن الحدود الشمالية مع مصر تقع عند وادى حلفا ، جنوب مدار السرطان مباشرة . أما إلى الغرب فكانت السهول — التى لم ترسم على الخريطة — تمتد إلى البطاح التى عرفت باسم (أفريقيا الاستوائية الفرنسية) . وفى الجنوب ، أقامت حصون جوردون حداً أولياً على النيل ، جنوب أوجندا .

وكان السودانيون عنصراً خليطاً ، نشأ عن تزاوج العرب وقبائل السود المحلية . وفيما عدا الزنوج « الوثنيين » الذين يعيشون على ضفتى النيل ، كان معظم القوم مسلمين . وقد أقيمت فى البلاد شبكة من الحاميات العسكرية المصرية ، تفصل بين معظمها مئات عديدة من الأميال ، فكان الجنود — فى الاضطرابات — يصبحون أقرب إلى السجناء فى حصونهم . كانت البلاد أشبه بالبحر ، فالصحراء تضطر الأهالى باستمرار إلى الحركة بحثاً عن المرعى والماء لحيواناتهم ، وكل مركز للتجارة أشبه بميناء تستريح عنده القوافل فترة ، ثم تواصل سيرها .

ولم يكن للحكومة المصرية سلطان حقيقى خارج الخرطوم . إذ كان للقبائل وتجار العبيد والعاج قانونهم الخاص : قانون القوة ! . . وكانت مديرية خط الاستواء قد أصبحت فى وضع مختلف ، ولكنها لم تكن أكثر من ركن ضئيل من السودان ، وكان ثمة أمل ضئيل جداً فى بقاء السلطة التى أقامها جوردون هناك ، طالما بقى فى الخرطوم حاكم مصرى . ولم يكن ثمة أمل فى السودان كله ، ما لم يبدل ذلك الحاكم برجل أمين كفء ، ويُجتثّ النظام المصرى من جذوره . ولقد رأى جوردون هذا بجلاء ، فاستقال .

ومرة أخرى ، كان الموضوع الحقيقى هو : الرق . فقد كان بيكر متفائلاً أكثر مما ينبغى — إن لم نقل مخدوعاً — حين أعلن أنه قد ألغى تجارة الرقيق من وادى النيل . فكل ما استطاعه هو إبعاد التجارة عن النهر ، فاشتد ازدهارها — أكثر من قبل — فى الصحراء الفسيحة ! . . ولم يجد النخاسون عناء يذكر فى اتخاذ طرق جديدة بالبر إلى مصر والبحر الأحمر ، واستمر صيد الآدميين فى مديريات بحر الغزال ودارفور وكردفان . ولم يكن عدد النخاسين هناك يقل عن ٥٠٠٠ ، بينما قدر « جيسى » أن أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ امرأة وطفل أُخذوا من هذه المنطقة — منذ بدأت التجارة هناك سنة ١٨٦٠ — ليباعوا فى مصر وتركيا ، وأن عدة آلاف غيرهم قد ماتوا . وقد رأى أن بيكر لم يفعل إلا القليل جداً لتحسين الموقف ، وأن حملته الثانية قد تكلفت نصف مليون جنيه ولم تحقق « نتيجة هامة واحدة » . وكذلك أكد « جيسى » أن أساليب بيكر كانت قاسية ، دون ما داع .

وكانت هذه الصيحة قد انطلقت قبل ذلك . فما إن عاد بيكر إلى هناك سنة ١٨٧٣ ، حتى هوجم كمطية « استغفلها » إسماعيل ، وحفلت أعمدة صحيفة (التايمز) برسائل حامية . فإذا « مكويليم » — مهندس الحملة — يتهم قائده بالقسوة فى معاملة القبائل فى أعالى النيل . وإذا « جوليان » — ابن أخى بيكر — يكتب رداً شديداً . ولم تكن الاتهامات التى وجهت لبيكر منصفة فى مجموعها ، ولكن « جوليان بيكر » لم يكن أفضل رجل للدفاع عن عمه ، لأنه لم يضمر للأفريقيين حباً يذكر ، وقد كتب فى يومياته عن « خيانة هؤلاء الزنوج البهائم » !

ولعل الدكتور شواينفورث — المكتشف والعالم الطبيعى البلطيقى — كان أكفأ شاهد لما جرى ، لأنه قضى سنينَ متجولا فى مديرية بحر الغزال النائية ، ولم يكن

يحمل غلا ولا ضغينة لأحد . وكانت الصورة التى رسمها للرق هناك مذهلة . فقد قال إن النخاسين الذين طردوا من حوض النيل انتشروا فى تلك المنطقة ، بين تاجر صغير يجوب البلاد على زوج من الحمير ، ويبتاع — فى الجولة — ثلاثة أو أربعة من العبيد ، إلى كبار أمراء التجار الذين يتداولون عشرات الآلاف ! .. وكان « شواينفورث » يرى أن الموظفين المصريين زادوا الأمور سوءاً ، إذ أنموا تجارة الرقيق بدلا من أن يكبحوها ، وقد تنمحى القبائل الأفريقية بأسرها ما لم يتخذ أمر لتفادى ذلك : « إن أرحم ما يفعله حاكم مصر المتنَوِّر لهذه البلاد، هو أن يتركها وشأنها » .

كان موقفاً معقداً ، إذ كان من العسير التفرقة بين التاجر « الرسمى » والتاجر الخاص . وكانت حالة « الزبير باشا » مثالاً بارزاً لذلك ، فهو « تيبوتيب » السودان ، وقد عاش على مستوى أفخم من كبار أعيان زنجبار . كان مثل « تيبوتيب »[1] ، ذا مظهر ممتاز ، وطباع شبيهة بقطاع رجال البلاط . وعندما قابله « وينستون تشيرشل » — وهو فى طريقه إلى معركة (أم درمان) ، فى شبابه — وجده يرتدى سترة « فراك » ، وحذاءين لامعين ، وعليه مظهر الثراء الفاحش والسلطان السياسى ! وكانت بطاح (بحر الغزال) و (دارفور) الشاسعة هى مجال نشاطه ، ففى هواء الصحراء وجبال (مَرَّا) ، الهواء الجاف المطهر ، اقتنى جيشاً خاصًّا من فرسان عرب تتسم وجوههم بالجمال وقسوة الصقور . وكانوا يغيرون كالمغول ، وينفذون مئات الأميال فى الداخل ، وينشرون الرعب دون ما رحمة . وكان بوسع الزبير أن يدعى بحق — سنة ١٨٧٤ — أنه قد غزا دارفور بأسرها ، فما كان أحد ليحلم بمنافسته فى سلطانه ، لا سيما الموظفون المصريون . وقد زاره « شواينفورث » فى مقره ، فكتب يصف ما رآه خلال تلك الزيارة :

« أحاط الزبير نفسه بحاشية لا تقل فى مظهرها عن حاشيات الأمراء . وكان مقره الخاص مؤلف من مجموعة من الأكواخ المربعة الكبيرة المتينة البنيان ، يحيط بها سياج من نباتات عالية ، وتضم فى نطاقها إدارات الحكم المتباينة ، التى يقوم الحرس المسلحون أمامها ليل نهار . وثمة أجنحة

---

(١) إشارة إلى أكبر تجار النخاسة المدعو « محمد بن سيد » الذى أطلق عليه لقب « تيبوتيب » كناية إلى عيب فى عينيه كان يضطره إلى أن يهز أجفانه باستمرار ، كما سلفت الإشارة .

(المترجم)

خاصة ملحقة بها ، ومفروشة بأرائك مكسوة بالسجاد ، يقود إليها الضيوف جميعاً عبيد فى ثياب ثمينة ، يقدمون لهم القهوة والشربات والشبك . وكان يضاعف من أبهة هذه القاعات الرسمية وجود بعض أسود مغلولة — كما هو متوقع — بسلاسل ضخمة ومتينة للغاية . . . »

وكان « السيد » نفسه يضطجع على أريكة وراء ستار ، فى كوخ يقوم فى الوسط تماماً من هذه الأكواخ ، ويترنم خارجه الدراويش بالأدعيات ، كما يقف العبيد المستأنسون ليلبوا أى نداء .

وكان الزبير — حوالى الفترة التى استقال فيها جوردون — قد ترك ابنه « سليمان » مشرفاً على إمبراطورية العبيد ، وذهب إلى القاهرة يطلب من الخديو « فرماناً » بإقراره حاكماً شرعياً لدارفور . وكان إسماعيل — كعهده — فى ضائقة ، إذ أنفق الأموال على السودان ، ولكن الأمور سارت على غير هواه ، اللهم إلا فى مديرية خط الاستواء . وكانت حملة « مكيلوب » الفاشلة قد أردِفت بحملتين ضد نجاشى الحبشة ، فى السهل الساحلى للبحر الأحمر . كما كان الحاكم العام المصرى فى الخرطوم « إسماعيل باشا أيوب » قد ابتكر نظاماً للرشوة والنهب بلغ درجة الكمال ! وها هو الزبير يرغب فى إقامة نفسه على دارفور حاكماً مستقلا بالفعل ، ومعنى هذا أنه سيحرص على ألا ينقل إلى القاهرة سوى النزر اليسير من ثروته .

وكانت فرصة إسماعيل للتراجع قد ضاعت ، فإن ما أنفق على السودان ، وما للموضوع من ارتباط بهيبته ، كانا أكثر من أن يسمحا له بأن ينفض يديه من السودان كله . كان أشبه برجل توسع فى تجارته فوق موارده بكثير ، فأصبح مهدداً بالإفلاس وسط الثراء الظاهرى ، ومن ثم فهو مضطر للمضى فى طريقه ، آملا أن تتحسن الظروف يوماً . فإذا قدر لأرباح تجارة العبيد أن تفلت من يديه ، فقد كانت فى السودان موارد طبيعية أخرى يستطيع استدرارها ، من ذلك أنه كان يحتكر تجارة العاج بالذات . ومع أن عشرات الآلاف من الفيلة كانت قد ذبحت ، فقد بقيت ميادين أخرى للصيد لم تُستَغَل ، كما ازداد إقبال العالم الخارجى — ازدياداً لا تفسير له — على كرات البلياردو ، وأصابع البيانو ، والتماثيل العاجية ، ولم يكن أحد يحفل بعدد الفيلة التى تعدم[1] . كذلك كان ريش النعام والصمغ العربى

---

(١) كانت تستثنى من ذلك الفيلة الهندية ، التى يمكن تدريبها ، (خلافاً للفصائل الأفريقية) . وقد استورد الخديو من الهند ستة منها ، وأرسلها إلى السودان ، فقطعت ألفى ميل سيراً من القاهرة ، وعبرت النيل سباحة ست مرات . . لكنها لم تحقق بعد ذلك نفعاً ما ! (المؤلف)

يدران دخلا ، وكانت ثمة حاصلات تجارية أخرى فى السودان .

ولكن كيف تدبر كل هذه الأمور ؟ كيف يجمع الدخل ، وتسوى الأمور مع الحبشة ، وتطهر الخرطوم ، وتستبقى مديرية خط الاستواء ، ويوقف الزبير عند حده ، فى الوقت ذاته ؟ لم يكن يلوح لإسماعيل سوى رجل واحد قدير على إنجاز كل هذا ، ألا وهو « جوردون » !

كان إسماعيل قد تبين فى جوردون طراز الحاكم الذى يحكم فعلا ، ويمتاز بالحصانة ضد الفساد . ولقد توقع أن يثير جوردون الصعاب بشأن تجارة الرق ، ولكنه كان أهلا للموقف ، ولو قضى على تجارة ثمينة أو على جزء كبير منها . كان العسكرى الأوحد الذى يستطيع إخضاع السودان ووضعه تحت السيطرة المباشرة لقصر عابدين . وكان أقدر من أى رجل آخر على منع الرشوة والتبديد بين الموظفين المصريين فى أعالى النيل ، وأن يعيد الضرائب سالمة إلى خزانة الوالى . ولكن ، هل يقبل جوردون العودة ؟

وكان إسماعيل خبيراً به ، فأبرق إليه — فى لندن — فى ١٧ يناير ١٨٧٧ : « لا أريد أن أصدق أن أى شىء يغرى جوردون بالرجوع فى كلمته ، بعد أن يعطيها كسيد مهذب » . والتوقيع « المحب إسماعيل » .

وكانت الصحف الإنجليزية قد أفاضت فى وصف مغامرات جوردون فى النيل بحماسة إعادته مرموقاً لدى الرأى العام . واقترحت « التايمز » تعيينه حاكماً لبلغاريا ، التى كانت فى غمرة كفاحها من أجل الاستقلال . وكان ثمة مشروع آخر يؤثره جوردون نفسه ، هو أن يقود حملة من زنجبار ضد النخاسة فى جوف أفريقيا . ولكن برقية إسماعيل كانت غلابة ، فعاد جوردون إلى القاهرة ولما يتم شهراً فى إنجلترا . ووصل فى فبراير ١٨٧٧ ، فأملى شروطه : أن يعين حاكماً عامًّا للسودان بأسره — بكل أمياله المربعة المليون — وأن تكون له السلطات الكاملة للتفاوض مع نجاشى الحبشة وللقضاء على الرق . ووافق إسماعيل فوراً . وكان مرتب الحاكم العام للسودان ٦٠٠٠ جنيه سنويًّا ، فخفضه جوردون إلى ٣٠٠٠ جنيه . ولكنه قبل كهدية سترة أنيقة موشاة بالقصب ، تساوى ١٥٠ جنيهاً ، أثبتت نفعها فى التأثير على رجال القبائل فى السودان .

أما سير « إفلين بارينج » (لورد ، ثم أيرل كرومر » فيما بعد) الذى كان قد تولى منصبه كمندوب بريطانى فى القاهرة — حوالى تلك الفترة — فيقول فى ذلك ، بجفاء : « لا شيء أكثر يقيناً من أن إسماعيل باشا عاجز عن القضاء على تجارة العبيد ، وعن حكم السودان كذلك ، حتى لو سلمنا بأنه صادق فى رغبته » . ومع ذلك ، فقد كان فى معاملات إسماعيل وجوردون — على الأقل — جو من الإخلاص فقد يسر له الأمور فى دارفور بأن حدد إقامة الزبير فى القاهرة ، وأعطى جوردون كل ما أراد من أسلحة ورجال ، بل إنه كتب إليه وهو يسافر لتولى منصبه : « استخدم كل السلطات التى منحتك . واتخذ كل خطوة تراها لازمة : عاقب ، وانقل ، وافصل كل الموظفين ، كما يحلو لك » .

وكان هذا عين ما اعتزمه جوردون . فسافر — أولا — بالبحر الأحمر إلى (سواكن) ، حيث اتفق مع الزعماء الأحباش المحليين على إيقاف الأعمال العدائية . وسعى إلى النيل بالإبل ، خلال مديريات السودان الواقعة على البحر الأحمر ، ثم دخل الخرطوم فى ٤ مايو ١٨٧٧ [١] . وكانت ثمة هواجس بشأن مجيئه ، فخرجت المدينة بأسرها إلى النهر لاستقباله . ولم يتركهم ينتظرون طويلاً . وقال لهم : « بمعونة الله سأقر التوازن » .

وتبع ذلك سيل من التشريعات والمراسيم الجديدة ، الهادفة إلى تحطيم سلطان الموظفين ، وتهوين أعباء الحياة على الفقراء : فألغى الجلد فى السجون ، وخُفضت الضرائب على الفلاحين أو ألغيت ، ووُضع على باب القصر صندوق للشكاوى ، وأوقفت امتيازات العلماء (المسلمين) ، وأرْسل إلى القاهرة أسوأ ضباط الجيش والموظفين المدنيين .

ويظهر جوردون — فى تلك الأيام — فى أحسن صوره . . ولم يكن قد تخلص بعد من المزاج الذى جعله يكتب يوماً : « ستتوقف تجارة الرق فى هذه البلاد ، متى أمكن إزالة بقع الحبر التى امتصها النشاف » . فقد أصبح موقناً من أن بوسعه أن يفعل شيئاً . وتبدد الاكتئاب ، وتلاشت الهنات والتقلبات الطفيفة التى كانت تشوب شخصيته ، ولم تثبط همته قط تلك الإدارة المفسودة الخاملة التى ورثها عمن

---

(١) غادر إسماعيل باشا أيوب الخرطوم قبل وصول جوردون ، وقد هشمت أخته نوافذ القصر جميعاً (١٣٠ نافذة !) ، ومزقت حشيات الأرائك ، فى سورة غضبها لفصل أخيها ، وتعيين جوردون مكانه ! (المؤلف)

سبقوه . وأصبح شديد الحزم ، كثير الصبر ، وكان محصوله من العربية قليلا جداً ، ولكنه لم يأبه لهذا ، فقد كان المترجمون والسكرتيرون موفورين ، والأوامر تصدر ، وسرعان ما بدأت الخرطوم تتعلم شيئاً من العمل المباشر ، والسلطة التي تمارس باطراد ودأب من مصدر مركزي لا سبيل لرشوته !

وكان الحاكم العام يقيم وحيداً في قصره على النيل ، لا يبرحه طوال ساعات اليوم ، ويستقبل فيه الزائرين : شخص أنيق ، في حلته الرسمية البيضاء وطربوشه الأحمر ، وإلى جواره سكرتيره ، ووعاء التبغ في متناوله . ويصفه أحد معاصريه بأنه كان « شخصاً غريباً ، غير متكلف بعض الشيء ، ذا عينين كالماستين الزرقاوين » . كما يتحدث آخرون عن « طاقته الخارقة » ، ومقاومته الرائعة للطقس المرهق .

وكان جوردون دائماً سخياً ، لا يستبقي لنفسه شيئاً . ولقد عرضت عليه الأسرة الإمبراطورية في الصين مبلغاً كبيراً من المال فرفضه . وفرّط في « الميدالية » الذهبية الكبيرة التي منحوه إياها ، ليوفر نقوداً للخير في إنجلترا ، وكذلك كان مصير معظم مرتبه من الجيش . فلما أصبح الحاكم العام للسودان ، أجزل مكافأة أعوانه وترقيتهم ، وتحدث كل مسافر زار الخرطوم بكرم ضيافته . فكان الرحالة الألماني « الدكتور يونكر » يُدْعى لتناول كل وجباته في « السراى» ، واهتم جوردون بإمداده بدواء للحمى قبل أن يذهب إلى المناطق الموبوءة بالملاريا في الجنوب . ووفر لفريق من المبشرين البريطانيين وسائل النقل والمهمات في رحيلهم إلى أوجندا ، ودفع كافة نفقاتهم. وكان الموظفون الأوربيون يفدون لشغل المناصب الشاغرة فيَـفْـتَنون بالحاكم العام الجديد . وصحيح أن المآدب في « السراى » كانت اقتصادية وسريعة — فلا يستغرق الغداء عشر دقائق — ولكن جوردون كان مضيفاً حلو الحديث مسلياً ، ولم يكن الزائر الطارئ يلمح أثراً لهمومه وشواغله الخاصة .

على أنه لم يكن يلازم الخرطوم كثيراً . والصورة الحقيقية لجوردون — في تلك الفترة — لا تمثله إدارياً ممن يلازمون مكاتبهم ، وإنما جندياً يركب الجمل . وكانت رحلاته مهولة . كان يقطع على الجمل مسافات تعتبر رحلات طويلة للسيارة الحديثة . كان يواصل الانطلاق على الجمل أسابيع ، بل أشهراً ، في الرحلة الواحدة ،

حتى يصبح اعتلاء السنام الجامد جزءاً من كيانه ، ولا شيء حوله سوى الصحراء الخالية ، ترصع سماءها النجوم بالليل ، وتعلوها شمس لا ترحم بالنهار . (ولا شك فى أن ذلك الجو كان إطاراً رائعاً لخلواته مع التوراة ، التى كانت هوايته الملحة طيلة حياته) .

وهكذا ، ما إن كانت تصادفه أزمة ، حتى يدفعه حافزه الأول إلى أن يمتطى جملا سريعاً ، وينطلق إلى موقع الاضطرابات لفوره ، فيذهل الجميع بظهوره المفاجئ . وكان فى مظهره ما يوحى بالثقة المطلقة ، ويمكنه من فرض إرادته ، فى المواقف التى يكون من المحتمل أن يتلقى فيها رصاصة تخترق رأسه . وكان ينطلق إلى (دارفور) ، لا يصحبه سوى مترجم ، ليخمد نزاعاً يغلى مع سليمان بن الزبير ، وإذا به فى اللحظة التالية ، فى مديرية (بربر) أو مديرية (دنقلا) — بالسودان الشمالى — ثم إذا به فى الحبشة ، يسعى إلى (هرر) ليتفاوض مع النجاشى . . ثم يعود إلى القاهرة ليرأس مؤتمراً مالياً ، وبعد أشهر قلائل يكون فى دارفور ثانية . كانت رحلاته مثيرة للدهشة ، إلى حد الحيرة ، وكذلك كانت نتائجها .

وعادت التجارة إلى مجراها ، وبدأت الخرطوم تتخذ مظهر المدينة الحديثة ، بحوانيتها وبناياتها الجديدة ، حتى أنها كانت تذكر جيسى الإيطالى بمدينة (ميلانو) وشقت قناة خلال السدود ، ونقلت باخرة بيكر (الخديو) مفككة إلى رأس مساقط (فولا) ، حيث جعلت سفينة « القيادة » فى أسطول صغير فى أعالى النهر . وساد الهدوء الحبشة ، وبقيت دارفور المركز الوحيد للقلاقل الخطيرة . ومع ذلك فقد حالف الحظ جوردون ، فوجد الرجل الوحيد الذى كان يصلح أسمى صلاحية لقيادة حملة إليها . . إذ عاد « جيسى » سنة ١٨٧٨ .

وكان جيسى ما يزال غاضباً ، وقد عاد إلى السودان على رأس بعثة خاصة لارتياد نهر (السوباط) إلى منبعه فى جبال الحبشة . ولا نلبث أن نسمعه يشكو من أن الحاكم العام الجديد يرفض مساعدة الحملات الخاصة . وكان جيسى مخطئاً فى هذا ، فقد تلقاه جوردون فى كثير من الرعاية ، وأباح له الذهاب حيثما شاء ، وسرعان ما استدرجه بسحره للعودة ثانية بين موظفيه . ولم يكن جيسى متحمساً للذهاب لمقاتلة النخاسين العرب ، ولكن جوردون وُفق إلى إقناعه . ولعل ضخامة

المهمة هى التى اجتذبته ، إذ كانت خطورة المرقف فى دارفور وبحر الغزال قد اشتدت ، حوالى صيف سنة ١٨٧٨ . كان سليمان بن الزبير يراسل أباه فى القاهرة سراً ، وقد أثار قوة من الزعماء العرب ضد الحكومة ، وانسحب جنوباً – خلال دارفور – إلى بحر الغزال ، بعيداً عن متناول الجنود المصريين ، الذين آثروا البقاء فى حامياتهم ، والانتظار السلبى حتى تصل النجدة . وأبحر « جيسى » من الخرطوم إلى الجنوب بالباخرة (بوردين) ، ومعه تجريدة من جنود الحكومة ، فخاضوا سلسلة من المعارك الحامية ضد « سليمان » فى بحر الغزال . واستطاع أخيراً أن يوقع الشاب فى كمين ويقضى عليه وعلى كل من كان معه من شيوخ ، وتم إطلاق عشرة آلاف عبد . كانت عملية سريعة وبارعة ، تمثل أول حرب عصابات كبيرة فى السودان ، كما كانت أول عملية أبدى فيها قائد غربى فهماً حقيقياً لطبيعة الحرب مع العرب . وكان أثرها رائعاً . فلأول مرة من خمس وعشرين سنة ، تحرر غرب السودان من طغيان الزبير وأسرته ، وتم كبح تجارة الجملة للرقيق ، ولو إلى حين . وكان جوردون يتبع مؤخرة جيش « جيسى » ويطهر جيوب المقاومة المعزولة . ولاح أنه أوشك – أخيراً – على وضع السودان بأسره تحت سيطرته .

وكان جوردون – فى تلك الأثناء – قد ألف جهازاً جديداً من الموظفين ، وزع بينهم المديريات : فعين « جيسى » حاكماً لمديرية بحر الغزال – برتبة باشا – وأوفد إلى دارفور ضابطاً شاباً من فيينا يدعى « رودلف كارل فون سلاتين »[١] . وفى الخرطوم ، كان يدرب « فرانك لتون » ، وهو إنجليزى كان يعمل ضابطاً أول على سفينة لنقل البضائع فى البحر الأحمر ، ورشحه المبشرون لرصانته وعدم تعاطيه الخمر . كما كان لديه موظفون آخرون ، بينهم مصريون وعرب ، انتقاهم جوردون عرضا فى أسفاره ، وارتاح إليهم ، ووثق فيهم . وكان قد تولى حكم مديرية خط الاستواء – بعد رحيل جوردون عنها – الأمريكيان « براوت » ، ثم « ميسرن » ، ولكن صحة كل منهما انهارت . وخلفهما طبيب ألمانى يدعى « إدوارد شنيتزر » كان قد قضى سنوات فى خدمة الأتراك ، وجاس خلال الشرق الأوسط طولاً وعرضاً ، وشغف به حتى إنه اعتنق الإسلام وبدّل اسمه إلى « أمين » . وكل هؤلاء الرجال

---

(١) عرض جوردون (دارفور) – قبل ذلك – على « بيرتون » ، فأجابه بقوله : « لا أستطيع أن أخدم تحت إمرتك ، ولا أن تخدم أنت تحت إمرتى » (المؤلف)

يبدون أوفياء — بدون استثناء — لجوردون .

وهكذا استتبت الأمور على طول النهر ، إلى ما بعد مساقط (فولا) حتى جوندوكرو ، وعبر « السدود » وصحراء الخرطوم إلى حدود مصر . وفى شرق النيل — إلى البحر الأحمر — وغربه حتى دارفور ، أقيمت شبكة أخرى من المراكز ، وأخذت طرق التجارة تمتد ، وراح الحكام الجدد ييسرون للأهالى الحياة بدون حرب . ولعل جوردون كان على حق إذ كتب فيما بعد : « لم يكن بوسع أى إنسان أن يرفع يده أو قدمه فى بلاد السودان بدون إذنى » . فقد حظيت البلاد بحكم لم تحظ — من قبل — بخير منه .

ومع ذلك ، فى وسط كل هذا النجاح ، كانت تدور فى فكر جوردون تطورات غريبة ، لم تلبث أن جعلت الاستمرار مستحيلا عليه . فقد كان فى طبيعته ما يدفعه إلى أن يجد فى صميم كل أعماله المرفقة ما يخيب أحلامه ويشعره بالفشل . كان كل وصول — بالنسبة إليه — بداية رحيل جديد ، وكانت آماله تسبق قبضته على الدوام ، ولا شىء فى الدنيا يشبع جوعه إلى الكمال . ويبدو أنه لم يكن — كلفينجستون — راضياً عن نفسه فى دخيلته ، وما كان يقعد عن مساءلة نفسه دون نهاية ، إلا حين يحاط بالصعاب والمحن . كذلك كان يستولى عليه شعور بالذنب ، يعبر عنه بقوله : « لا شىء يصدمنى ، سوى نفسى ! » . فإذا تحمسه يتبخر ، وإذا به يكره الغاية التى كان يكافح مستميتاً من أجلها . وتتراءى له وجهة نظر أخرى فإذا به يندفع إلى أدعى الارتباكات والمتناقضات للدهشة . وهذا ما دهاه فى السودان ، فى هذه الفترة . إذ يتضح من رسائله ويومياته أنه بدأ يكره جنوده المصريين ، لأنهم كانوا قساة على الزنوج ، وشعر أنه باستخدامهم كان يجلب التعاسة التامة — وليس الرق — على أعالى النيل . وقد كتب بلنت يقول : « كان بيكر ضارى القسوة على هؤلاء السود المساكين ، أما جوردون فقد مال قلبه إليهم » . ومع ذلك فقد كان مضطراً لأن « يهدئ » من جموح السود ، وإلا أغار

---

(١) ويلفريد سكاوين بلنت (١٨٤٠ — ١٩٢٢) : شاعر إنجليزى ، عمل بالسلك الديبلوماسى ثم تزوج من إنجليزية مستشرقة تجيد العربية ، هى « ليدى آن نويل » ، وقام معها برحلات فى الشرق الأوسط والهند ، وكان شديد المعارضة للاستعمار البريطانى . وقد دافع عن قضية مصر — أيام الثورة العرابية وبعدها — كما دافع عن قضية إيرلندا ، وكتب مؤلفين هامين ، هما : « مستقبل الإسلام » و « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر » . (المترجم)

بعضهم على بعض طلباً للعبيد والماشية ، وكان له — على أية حال — أن يتعلل بأن أساليبه كانت أكثر إنسانية من أساليب الحاكم العام المصرى الذى سبقه .

ولقد جاء يوم قُدِّر فيه لجوردون أن يجود بحياته من أجل أولئك الجنود المصريين بالذات ، ولكنه فى هذه الفترة — سنة ١٨٧٩ ، بعد أن قضى خمس سنوات فى السودان — أخذ يكتشف أشياء كثيرة عن تلك البلاد ، زادته ارتباكاً فوق ما كان يتصور . من ذلك أن النخاسين العرب لم يكونوا بالشناعة التى صُوروا بها ، بل لقد تبين جوردون حسنات فى الإسلام ، فكتب : « يبدو لى أن المسلم يعبد الله كما أعبده ، وأنه جدير برضاء الله — إذا كان صادقاً — كأى مسيحى » . كما كتب : « إننى أحب المسلم ، فهو لا يخجل من ربه ، وحياته نقية طاهرة إلى حد كبير . صحيح أنه يوسع على نفسه فى الزوجات ، ولكنه — على أية حال — لا يسطو على زوجات سواه » . ويستطرد متسائلا : « أيستطيع « مسيحيونا » أن يقولوا هذا عن أنفسهم ؟ » . كذلك راح يتساءل عما إذا كان من الممكن حقاً إلغاء الرق فى أى بلد إسلامى ، وهو من الضرورات الأساسية فى الحياة الإسلامية[١] ، كما أنه — بعد التعرف الوثيق عليه — لم يكن عملا بهيمياً خسيساً ، بل كان كثير من العبيد راضين بوضعهم ولا يقبلون أن يتحرروا ويتركوا سادتهم . فلا يمكن أن يؤدى تقويض النظام فجأة إلا إلى فوضى . ولعل أمثال الزبير كانوا أوغاداً ، ولكنهم كانوا يعرفون كيف يحكمون أقاليمهم خيراً مما يحكمها الأتراك والمصريون الذين جاءوا إلى السودان من مصر والذين ارتكبوا فظاعاتهم باسم المدنية[٢] . ومع ذلك ، فقد كان جوردون — بموجب شروط تعيينه ذاتها — مضطراً للقضاء على أمثال الزبير . وهكذا كان يقلب هذه الأمور فى ذهنه ، وهى عملية خطرة ، لأن جوردون — على نقيض سواه — لم يكن يقبل حلا وسطاً ، بل كان لابد لأفعاله وأقواله من أن تطابق أفكاره تماماً .

ولقد واجه جوردون صدمة أخرى لأوهامه فى القاهرة . **إذ كانت تصرفات**

---

(١) لا داعى للقول بأن هذه الفكرة كانت راسخة عند الغربيين نتيجة انتشار الرق فى البلاد الإسلامية بتأثير الترف والانحلال وتسرب حضارات غريبة ، فى حين أن الإسلام منه براء . (المترجم)

(٢) مرة أخرى ، لم يكن لمصر ذنب فى الفظائع التى جرت فى السودان ، لأن مصر ذاتها كانت تعانى المثل من الأتراك وأسرة محمد على . وهل كانت أعمال « بيكر » وغيره من المدنية ؟ (المترجم)

إسماعيل المالية تجتاز الدرك الأسفل إلى الخراب ، وكانت قروضه من الدائنين الأوربيين قد بلغت ٨٠ مليوناً من الجنيهات ، وأقيمت لجنة تحقيق لاكتشاف الوسائل التى تمكنه من دفع القسط التالى من الفوائد ، بسعر سبعة فى المائة . وكان « دى ليسبس » و « بارينج » من أعضاء هذه اللجنة .

وفى مارس سنة ١٨٧٨ ، تولت إسماعيل نزوة غريبة لاستقدام جوردون إلى القاهرة ليرأس اجتماعات اللجنة . فقد كان يدرك أن بوسعه أن يثق بولاء جوردون ، كما كان يأمل فى الوقت ذاته أن تساعد سمعة جوردون فى العالم على تسوية الأمور . ولكن جوردون لم يكن يعرف عن الأمور المالية إلا النزر اليسير ، وما كان من مذهبه معالجة الأمور باللجان!

ولم تكن أمام الخديو سوى طريقة واحدة لتحصيل مزيد من الأموال ، تلك هى أن يغتصبها من الفلاحين بالسوط ، وكان الفلاحون قد انحدروا إلى درك التسول لفداحة الضرائب .

ولاح لجوردون (وللخديو طبعاً) أن الحل المعقول الوحيد ، هو أن يؤجل الدائنون الأوربيون تقاضى فوائدهم لبضعة الأشهر التالية . كذلك أراد أن يُقصى عن لجنة التحقيق ممثلى الدائنين الأوربيين ، لأنهم كانوا ذوى مصلحة . وقد صادف معارضة عاتية فى الأمرين ، إذ كان الماليون الأوربيون متعنتين ، ولم يكن يعنيهم كيف تحصل الأموال ما داموا يظفرون بها . كذلك كان « بارينج » و « دى ليسبس » والآخرون مصرين على أن يحضر مندوبو الدائنين الأوربيين التحقيق ، حتى يراقبوا الإجراءات ، وربما ليراقبوا جوردون نفسه كذلك .

ولم يكن ثمة مناص من أن يتشاجر جوردون معهم جميعاً . فلقد كره « بارينج » ، من أول وهلة ، ووصفه بأنه أوتى مظهراً ينم عن تكلف مصطنع ، وتعاظم ، وحب للسيطرة : « ولقد تبادلنا بضع كلمات . فقلت : « إننى أوثر أن أنفذ ما كلفنى به صاحب السمو » ، فقال : « هذا غبن للدائنين » . وانتهى كل شىء فى لحظات ، فلن ننسجم إلا إذا قدر للماء أن يمتزج بالزيت ! »

المداد فى النشاف ، والزيت والماء ، والرق فى السودان ، وجشع أوربا للمال . . أين الأمل للجنس البشرى فى كل هذا ؟ لقد كان الأوربيون — بطريقتهم — لا يقلون قسوة عن الجنود المصريين وعن النخاسين فى أفريقيا . لذلك استقال جوردون من اللجنة وعاد إلى الخرطوم .

وكان جوردون – فى تلك الأثناء – قد بدأ يعانى الإرهاق العصبى المتزايد ، وقد استنفدت الحملة ضد « سليمان » ، عقب عودته من القاهرة ، ما تبقى من طاقته . ولابد أن أشهر صيف سنة ١٨٧٩ القائظ فى الخرطوم كانت شديدة الوطأة عليه ، ويلمح المرء فى كل هذا بوادر المأساة التى كانت تتجمع . كان يشعر بعداء متزايد أثاره ضده الموظفون الذين سرحهم ، والنخاسون الذين قضى على تجارتهم . وبات « الباشوات » المصريون – فى القاهرة والخرطوم على السواء – أعداء له ، وما كان الزبير لينسى مصرع ابنه . ثم اجتاب على نفسه عداوة « بارينج »[1] كذلك . وما كان بارينج – فى الواقع – عدواً ، ولكن جوردون وجد فى لقائهما الأول الوجيز فى القاهرة ، تذكرة حادة وأليمة ، بأن سلطة الوظيفة هى التى تحكم العالم حقاً ، حين تتبدد الأزمات . وقد كان بارينج مثالا للموظف الرسمى . ومع أنه كان يصغر جوردون بسبع سنوات ، ولم تكن له شهرته لدى الرأى العام . إلا أنه كان يمثل قوة أدركها جوردون لفوره وتوجس منها لتوه .

وقد نقول اليوم أن « بارينج » كان عضواً فى النظام الحكومى الأصلى (وهو ما لم يكن جوردون على شىء منه بالتأكيد) . كان يمثل النظام الحكومى بصرامته ، ويدافع عنه – بحكم النشأة والغريزة – فى ثبات وتجرد عن العاطفة . فما كان من المحتمل لنزوات رجل مثل جوردون وتصرفاته الشاذة أن تثبطه . ولم يكن بارينج يميل لعبادة البطل ، ولا للغيرة ، كما كان مثالا للدقة والاعتدال فى عالم تسوده إرهاقات مدنسة ومراهقة ، فكان يبث حوله جواً من الحزم المتعالى الناضج ، بطريقة جافة ، وغير متأثر بآراء سواه . ولقد كان « ويلفريد بلنت » – كشاعر ومحب متحمس للعرب – أشد كرهاً لهذا الرجل المتزمت ، الدقيق ، من جوردون ، وهو يذكرنا بأن سير « إيفلين يارينج » كان من أسرة تمارس أعمال المصارف ، وكان من أصل « هولندى » ، ويقال بوجه عام إنه من عنصر « يهودى » . ومن ثم فهو « ينتمى من بداية حياته إلى صميم طبقة الماليين العليا فى أوربا » .

على أنه كان قد تعلم فى الجيش أولا ، ولم يرفد إلى الهند إلا حين بلغ الحادية والثلاثين من عمره ، كسكرتير خاص لابن عمه « لورد نورثبروك » ، نائب الملكة .

---

(١) لورد « كرومر » ، فيما بعد . (المترجم)

وسرعان ما تبددت مقدرته ، فأصبح – بعد ثمانى سنوات – على أعتاب دوره الضخم كحاكم حقيقى لمصر ، ولم يكن يعيبه سوى اشتهاره بالفظاظة . ويقول « بلنت » إنه لم يكن قد أوتى من المعرفة الحقيقية بالشرق سوى القليل ، إذ كان يقضى نهاره فى مكتبه عاكفاً على الأوراق الرسمية ، وأمسياته فى المجتمع الأوربى بالقاهرة . ومن الطبيعى أنه كان هدفاً لزملائه الذين كانوا أقل منه تزمتاً فى الاستقامة ، حتى لقد نظم فيه أحدهم :

فضائل الصبر معروفة ولكنى أظن
أنها إذا وضعت موضع الاختبار ،
فإن أهل مصر سيقولون فى أنين ،
إن بارينج يحرز من الشرفوق ما ينبغى .

ولقد كان فى كل هذا حسد وتحامل . إذ كان بارينج أكثر من مجرد رجل رسمى ، وبوسع أى قاض متزن يستعرض علاقاته مع جوردون ، أن يقر بأنه – وليس جوردون – الذى كان منصفاً ، وصبوراً ، ووفياً ، وعاقلا فى سنوات الاضطراب التى توالت فيما بعد . على أن بارينج كان يفتقر إلى التحرر فى تصرفاته من قيود الرسميات ، ولعله كان يفتقر كذلك إلى بصيرة جوردون التى كانت تمكنه من النفاذ إلى الحقيقة المجردة للأمور ، إذ كان يتشبث بالحرص والسلبية اللذين يسودان عالم الرسميات . ولكنه كان إدارياً رائعاً لا يهاب .. وتقتضى الأمانة ألا ينحاز المرء إلى جوردون فى هذا النزاع . ولكن المرء لا يملك سوى أن ينحاز إليه .

وكان جناحا جوردون قد قُصّا من قبل ، بتصرف رجل مثل بارينج (هوكيرك) – أثناء حملة « مكيلوب » – لذلك كان من المؤلم أن نراه فى سنة ١٨٧٩ يصدم مرة أخرى ، فى القاهرة . ولم تكن له – وهو الوحيد فى الخرطوم – فرصة بين « كيرك » فى زنجبار « وبارينج » فى القاهرة ، وكلاهما من غلاة الموظفين المدنيين البريطانيين فى ذلك العصر . ومن ثم أخذت وحدته تستبد به ، إذ كان الحكام الشبان الذين أقامهم بعيدين فى مقار مناصبهم ، وليس فى الخرطوم من يبثه همه . ولربما كان فى وسع « جيسى » أن يعينه ، لولا أنه كان شديد التهور ، بالغ الجهل بالشئون السياسية . وكان – على أية حال – غارقاً فى مشاكله فى (بحر الغزال) .

وفى مراسلات جوردون — فى تلك الفترة — رغبة طاغية إلى التفاهم والاتصال الفكرى . فهو يسخط على « مآدب العشاء الرسمية » فى المجتمع اللندنى ، ويراها مملة ، مضيعة للوقت ، ويعلن المرة تلو المرة أنه « ميت بالنسبة لمظاهر المجد والتشريف والثراء » . وهو يستبعد الزواج قائلا : « يا لها من نعمة إننى لم أتزوج قط ، فالزواج يفسد المخلوقات الآدمية فيما أرى : فإن ما تريده الزوجة لا يريده الزوج ، والعكس صحيح » . وفيما عدا اهتمامه العظيم بتعليم الصبيان وألوان نشاطهم (وقد كان اهتماماً بريئاً ولا شك) فإننا لا نجد دليلا يقطع بأية ميول جنسية شاذة لديه ، بل الأرجح أنه كان معادلا ، لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى . ومع ذلك فقد كان بحاجة إلى الاتصال الفكرى ، ولهذا اتجه إلى الدين . ولعله وجد ما يخفف وحدته فى شمول الألم الإنسانى . فكان — على النقيض من بارينج — لا يستطيع علاج محن العالم خلال الأوراق الرسمية والأحكام المسندة إلى حيثيات ، وإنما كان يهاجمها بكل ما فى طبيعته الدافئة الكريمة من حمية . كان يراها مسئوليته الشخصية . ومن الطبيعى أنه بذلك كان يبدد قواه ، ويثير ضروب الغيرة ، ويخلق لنفسه أعداء ، ثم ينطوى فى النهاية على نفسه . ومن هنا كانت نوبات الاكتئاب ، والفورات المفاجئة ، واللجوء إلى « البراندى والصودا » من آن لآخر ، والضيق بنفسه . وكل هذه الأمور عادت تجثم عليه حين رجع إلى الخرطوم ، وقد بات أقل مقدرة على التصدى لها مما كان حين وفد على السودان لأول مرة ، سنة ١٨٧٤ . فإن خمس سنوات فى ذلك المناخ غيرته أعظم تغيير . فلم يكن ينقصه سوى عقبة أو نكسة واحدة لينفد معينه . وهذا ما حدث ، فقد بلغه فى يونيو سنة ١٨٧٩ أن إسماعيل — الصديق الذى تمكن من أن « يصارحه بكل شىء ، والرجل الذى « أعطاه السودان » — قد خُلِعَ عن عرشه !

كانت قد بقيت لإسماعيل — بعد ست عشرة سنة من البذخ والإسراف — حيلة أخيرة . فبعد فشل لجنة التحقيق ، دبر تمرداً عسكرياً ضد تدخل الأوربيين فى شؤونه ، وأقام حكومة استبدادية . وسارت سفينته مترنحة لبضعة أشهر ، ثم هاجمتها أمواج الديون ، وأشرف بارينج وزميلاه — بتعضيد حكوماتهم الأوربية — على إغراق الخديو نهائياً ، ببراعة ديبلوماسية. فاستدرج السلطان فى القسطنطينية — وكان

بعد العاهل الأسمى لمصر – إلى إرسال برقية لإسماعيل ، خاطبه فيها بـ « الخديو السابق » ، وأخبره بأن ابنه الأكبر « توفيق » قد خلفه فى الحكم .

وكان رحيل إسماعيل أشبه بمقدمة فى البداية ، فقد أفرغ خزانة الدولة من النقود ، وجمع كل نفائسه ، واستقل يخته المحروسة مصطحباً ثلاثة ملايين من الجنيهات . وقدر له أن ينشد السلوى فى قصر على ضفاف البسفور ، ما بقى له من عمر . ومن غير المحتمل أن سقوطه أحزنه كثيراً . ولكن ذهابه كان صدعاً عميقاً قاضياً فى نظر جوردون . فإن السودان الوحيد الذى عرفه هو ذلك الذى « أعطاه إياه » إسماعيل ، فلم يشأ أن يستمر فيه تحت سيد آخر . ولم يكن يحب توفيقا ، وقد جهر بهذا . وما كان ليحفل بطبقة الباشوات الحاكمة فى القاهرة ولا بالرسميين الأوربيين الذين لم يعد ثمة مناص من أن يقبضوا على أزمة السلطان . بل إن أحلامه صُدمت فى إسماعيل ذاته ، فقد كتب فى إحدى رسائله إلى صديق : « لا تقلق على إسماعيل باشا . . فهو فيلسوف وعنده مال وفير . لقد قامر على أهداف عالية وخسر . . وأنا من أولئك الذين غرر بهم ، ولكنى لا أحمل له ضغينة . وإن ذهابه لنعمة لمصر » .

وفاض به الضيق للمرة الأخيرة ، فكتب : « من حقى أن أقول إننى فقدت كل رغبة فى أمور هذه الحياة ، من ناحية مادية . . فلم أعد راغباً فى أكل ، ولا شرب ، ولا مرفهات . وإذا كانت لى رغبة ، فإنما أرغب فى نوم لا حلم فيه ! »

وفى يوليو سنة ١٨٧٩ ، قرر الاستقالة . وكان آخر عمل له قبل عودته إلى وطنه ، أن رأى القيام بإحدى رحلاته العجيبة إلى الحبشة – وكان مجموع أسفاره على الجمل قد بلغ ٨٠٠٠ أو ٩٠٠٠ ميل ! – ليحاول الوصول إلى تسوية نهائية بين مصر والنجاشى . ولكن الأحباش اعتقلوه ، وطردوه طرداً مشيناً . وبعد رحلة فظيعة أجبر عليها ، ناضل ليتخذ طريقه إلى القاهرة ، فى ٢ يناير سنة ١٨٨٠ . ولم يكد أحد من ذوى السلطان يأسف على ذهابه ! . . ويقول بلنت : « لقد رآه البعض مجنوناً ، وظنه البعض سكيراً ، واعتبره بعض ثالث متهوساً دينياً » . ولم يكن لمثل هذا الرجل مكان فى أوربا أو أفريقيا لفترة من الوقت . فقد كان الجنرال جوردون مسرفاً فى الصلابة ، وفى التحرر من القيود .

كذلك كان من المآخذ التى أخذت على هذا الرجل الصعب المراس ، أنه اثار على نفسه ، باختياره – عداوة شخص قوى ، وهو فى طريقه إلى إنجلترا . ففى مروره بباريس ، أخبر السفير « لورد ليونز » – الذى كان مسموع الكلمة لدى الحكومة البريطانية – بأنه كان يعتزم أن يقترح على الفرنسيين أن يملأوا منصب الحاكم العام للسودان بفرنسى ، إذا لم يبادر البريطانيون بالبحث عن بريطانى يخلفه . وقد بهت اللورد ليونز واستاء. وكتب له جوردون بعد ذلك : « إننى أجد عزاء فى التفكير فى أن كلانا لن يحفل بشىء ، بعد عشر أو خمس عشرة سنة . فسوف يضم صندوق أسود – طوله ست أقدام وست بوصات ، وعرضه ثلاث أقدام – كل ما يتبقى من السفير ، أو الوزير ، أو . . خادمك المتواضع المطيع . . »

ولم يعجب اللورد ليونز لهذا القول ، بل ازداد يقيناً بأن الرجل كان مخبولاً .

وما لبثت أن تهشمت رابطة أخرى بين السودان وجوردون ، بموت « جيسى » . كان قد بقى فى « بحر الغزال » عاماً أو يزيد بعد رحيل جوردون ، ولكن النيل أورده حتفه فى النهاية . . . وقد كان من أحسن من خدموا المصريين يوماً ، ولكنهم استدعوه فى سنة ١٨٨١ ، وأنزلوه من منصب المحافظ إلى مرتبة أدنى . وفى طريقه إلى الخرطوم بالنهر – من بحر الغزال – عاقته السدود ثلاثة أشهر رهيبة ، فمات جوعاً معظم الرجال الأربعمائة الذين رافقوه ، وانحط بعضهم إلى أكل لحوم بعض ، قبل أن ترافيهم النجدة .

أما جيسى نفسه ، فقد قدر له البقاء على قيد الحياة حتى بلغ مصر .

وكتب جوردون إلى شقيقته : « واجيسى ! جيسى ! لقد نبهته إلى الرحيل معى ! وكم قلت له ونحن فى (ترشيا) : « شئت أو لم تشأ ، وشئت أنا أو لم أشأ ، فإن حياتك مرتبطة بحياتى » . لقد كان يبصر أعماق نفسى ، الأمر الذى أوشكت أن أخشاه أحياناً . ولكن جيسى قد ارتاح . وهذه إرادة الله » .

وما كان جيسى أكثر مقدرة من جوردون على أن ينتزع نفسه من أفريقيا . لقد عانيا من العذاب ما جعلهما عاجزين عن أن يقتطعا تلك البلاد من حياتيهما . بل كانا مثل لفينجستون ، مسوقين إلى أن يستمرا فيها إلى النهاية . على أن عودة

جوردون إليها كانت تتطلب نكبة كبرى ، وما كانت النكبات لتغيب طويلا عن النيل فى أى وقت .

وكانت النكبة التى ألمت بالنهر — فى الثمانينات من القرن التاسع عشر — جوهرية، ومتطرفة فى عنفها .

الجزء الثالث

ثورة المسلمين

الفصل الحادى عشر

السويس ١٨٨٢

هناك تشابه محزن بين الغزو البريطانى لمصر ، سنة ١٨٨٢ ، وبين الحملة الإنجليزية الفرنسية الفاشلة على قناة السويس سنة ١٩٥٦ ، اللهم إلا فى أن المغامرة الأولى نفذت بكثير من الكفاءة ، وتحققت بنجاح إلى النهاية . فى سنة ١٨٨٢ — كما فى سنة ١٩٥٦ — ارتفعت صيحة « مصر للمصريين » ، وبرز « البكباشى » عرابى من غمرة الجيش المصرى — كما برز « البكباشى » عبد الناصر — ليصبح زعيم الأمة ضد الغزو الغربى . ولقد انقسمت بريطانيا على نفسها عندما نشب القتال إذ ذاك ، كما انقسمت فيما بعد ، ولكن لفترة أقصر ، إذ كان فى إنجلترا كثيرون أبغضوا المسألة برمتها . وفى مثل هذه الظروف أيضاً ، سرعان ما تتدخل الكرامة ، وتجرى الأمور على النمط المألوف : تفور الدماء القومية لدى الفريقين فى الحال ، ويتدخل الشرف الوطنى ، ويُكشف ألف سبب للتحرك العسكرى . وفى مصر يصبح البريطانيون وحوشاً كاسرة مفترية . وفى إنجلترا يوصف المصريون بأنهم « إرهابيون » يخرقون كل العهود ، ويقتلون المدنيين الأوربيين الأبرياء ، فمن الضرورة اللازمة إيفاد الجنود ليعيدوا استتباب القانون والنظام . وهكذا تستفحل الأزمة ، من الشغب إلى الإنذارات ، ثم إلى الحرب فى النهاية !

ولقد قدم سير « إيفلين بارينج » سرداً هادئاً ، معقولا ، للأحداث السياسية التى أدت إلى غزو سنة ١٨٨٢ . وهو ينتهى إلى أن الغزو كان له ما يبرره ، ولم يكن ثمة مفر منه . ويقول إنه لو لم يقع ، لارتمت مصر فى الفوضى (١) . . ولو أننا لم نفعل أكثر من متابعة الحقائق كما يوردها — من التبادل الدبلوماسى ، والتوترات السياسية بين فرنسا وإنجلترا وتركيا ، إلى دسائس الجيش والقصر فى القاهرة ذاتها — لما كان هناك بدّ من الانتهاء إلى أنه على صواب . ولكن الحكمة القائلة بأن « الحرب تعنى فشل الدبلوماسية » لا تزال قائمة ، ويبدو أنه كان من المحتمل جداً تفادى الحرب

---

(١) كان هذا منطق الاستعمار أزاء رغبة المصريين فى أن يتحرروا من حكم كان الغرب يعترف بفساده وبأنه أوشك أن يورد البلاد موارد التلف . . وبهذا المنطق تسترت بريطانيا على رغبة كانت تلح عليها فى الاستيلاء على مصر . (المترجم)

فى هذه الحالة ، لو أن الدبلوماسية استخدمت على وجه أفضل . ويكاد « بارينج » يقر بهذه النقطة — وإن لم يسلم بها تماماً — حين يقول : « لقد ارتكبت أخطاء بلا شك ، فقد أسيء فهم حقيقة كنه ثورة عرابى ، إذ أنها كانت أكثر من مجرد عصيان سياسى ، فقد كان فيها شيء من طبيعة الحركة الوطنية الحقيقية » .

وهذه هى النقطة الأساسية . فإن المظالم التى ضج منها المصريون كانت حقيقية فعلا ، ولم تكن كلها من صنعهم . وما كان ينبغى للبريطانيين والفرنسيين أن يتعنتوا فى أن يتيحوا للبلاد متنفساً ، بعد إقصاء إسماعيل ، لكى يتيسر لها أن تفيق من إفلاسها . ولكن الدائنين الأوربيين ظلوا يطالبون بفوائدهم ، ولم تبذل سوى جهود بسيطة لتخفيف عبء الضرائب عن الفلاحين . وظل الأتراك والشراكسة محتفظين بمركز ممتاز فى الحكومة والجيش ، ولم تقم محاولة ما لإصلاح برلمانى حقيقى ، لأنه كان من المعتقد أن المصريين لا يصلحون لحكم أنفسهم . ولم يكن توفيق يتحرك إلا بإشراف وإرشاد « بارينج » و « بلينجيير » (المندوب الفرنسى فى القاهرة) . فقد تولى هذان الرجلان السيطرة على الإيرادات والمصروفات . ومع أنهما نجحا — لفترة قصيرة — فى تحسين الإدارة ، فإنهما ظلا يلقيان نفوراً كأجنبيين . . ولعله كان بوسعهما تفادى الأزمة ، لو أنهما أوتيا جنوداً أوربيين لفرض مرسوماتهما ، أو لو أنهما كانا واثقين من تأييد حكومتيهما ، ولكنهما كانا يفتقران إلى هذين العاملين . وهكذا أعطيا المسئولية دون ما سلطة ، والطريق مفتوح للعداوة القديمة فى الشرق ضد الغرب كى تتأجج من جديد .

ولم يك بوسع مصر أن ترى — بعد الغزو النابليونى فى نهاية القرن السابق — سوى الهزيمة والهوان اللذين أصاباها على أيدى المسيحيين [1] . وكان من المؤكد ظهور البوارج البريطانية والفرنسية فى الإسكندرية عند أول بادرة للاضطرابات ، كما كان يخيم على الجو دائماً احتمال قيام غزو مباشر . وفى مايو ١٨٨١ ، استولى الفرنسيون على تونس ، فانهار معقل آخر من معاقل الإسلام فى أفريقيا . وكان هذا الزحف المطرد كفيلا بأن يثير العداوة . بل إن « شواينفورت » لاحظ أن « الإفرنج » كانوا

---

(١) مرة أخرى يكتب المؤلف بأسلوب الاستعمارى الذى يخلط — عن عمد أو عن جهل — بين السياسة والدين . . وبدلا من أن يحرص على تمحيص الحقائق كمؤرخ ، نراه ينساق مع التيار الاستعمارى الذى عمد منذ البداية إلى تصوير الحركات فى الشرق على أنها صراع بين الإسلام والمسيحية ، تمهيداً لاتخاذ الدين كستار تتوارى خلفه مطامع الدول الاستعمارية . (المترجم)

ممقوتين فى كل مكان — حتى فى أعماق السودان — من زمن يعود إلى سنة ١٨٦٨ ، وقد ازدادت الكراهية للأجانب فى السنوات التى تلت ذلك . ومع أنها ظلت خفية ، إذ وهنت بسبب الخمول الطبيعى فى الشرق الأوسط ، إلا أنها استمرت فى الاتساع .

وكان السياسيون فى باريس ولندن قد شرعوا يتحدثون عن خطر مؤامرة إسلامية شاملة ، وتجدد التعصب الإسلامى المتطرف . أما فى القاهرة ، فإن الأمور بدت للمصريين من وجهها الآخر : بدا أن حركة مسيحية شاملة تطرقهم وتزداد كل يوم نذر شرها . ولم يكن هناك من هو مرتاح إلى الموقف . كان « باشوات » القاهرة يكرهون من توفيق خضوعه لمستشاريه الأوربيين ، وكان العلماء فى المساجد يثيرون الكراهية ضد نفوذ الدين المسيحى ، والجنود المصريون كارهين لضباطهم الأتراك ، والنخاسون يكرهونَ التدخل الغربى فى أعمالهم . أما الفلاحون ، فكانوا بؤساء وحسب .

وبدأت الأزمة كما تبدأ كثير من أزمات الشرق الأوسط : فى أوج الصيف ، عندما يتدفق فيضان النيل ، ويصبح الهواء الراكد المثقل بالرطوبة عاملا عجيباً فى إذكاء الضيق والغضب ، كان فريق من ضباط الجيش المصرى الشبان قد أخذ يزداد تذمراً وتحدياً للنظام . وفى ٨ سبتمبر ١٨٨١ ، أُمروا بأن يصطحبوا كتائبهم إلى خارج القاهرة ، فإذا بهم يقودون جنودهم إلى قصر عابدين . فسلم توفيق لفوره تسليماً كاملا ، ووافق على تأليف وزارة وطنية ، وسرعان ما عُيِّن أحمد عرابى — قائد الضباط الثائرين — وزيراً للحربية . ولا يشبه عرابى صورته التى تجسدتَ فى « البكباشى » ناصر — بعد سبعين عاماً — شبهاً تماماً ، لأنه كان أبطأ منه ، وأقل صقلا ، ولم يكن جندياً شديد العدوان ، كما بينت الأحداث . ومع ذلك فقد كان خطيباً بارعاً ، وكان — دون ما شك — صادق الإخلاص . والأهم من هذا أن عامة الشعب كانوا مستعدين أبعد استعداد لتأييده . كانوا يبتغون بطلا ، يكون رمزاً لكراهيتهم للأجانب وتعبيراً عنها ، وقد وجدوا بغيتهم فى هذا الجندى الطويل ذى المنظر المهيب ، الذى ولد لشيخ من مركز الزقازيق قبل اثنين وأربعين عاماً .

وبرغم أن عرابى لم يكن يدرى — فى البداية — إلى أين كان ذاهباً ، فإن الأحداث سرعان ما حسمت الأمر له . إذ احتج البريطانيون والفرنسيون على تعيينه ، وكان هذا كفيلا بأن يزيده شعبية عن ذى قبل ، وسرعان ما أذيع أن مؤامرة لاغتياله قد اكتشفت ، وقيل — ولعل فى هذا شيئاً من الصدق — أن حوالى أربعين

ضابطاً تركياً وشركسياً كانوا وراء ذلك ، وقد حوكموا سرا وقضى بنفيهم إلى السودان وعندما رفض الخديوى توفيق إقرار الحكم ، كانت ظروف الثورة قد اكتملت فى كل مكان تقريباً : فالجيش فى شبه عصيان ، والأوربيون يتلقون البصقات والإهانات فى شوارع القاهرة والإسكندرية ، ونودى بعرابى فى الدلتا بأسرها زعيما وطنيا . وكان فريق ممن يعطفون على المصريين فى انجلترا قد قاموا — فى تلك الأثناء — يؤيدون المتمردين ، ولم يفعلوا ما يهدئ التوتر ، بل أبرقوا إلى عرابى يحذرونه وينصحونه باستبقاء الحكومة والجيش معاً ، وإلا « فإن أوربا على استعداد لضم مصر » .

ولجأ البريطانيون إلى النهج الذى نجحوا فيه فى الماضى : فصدرت الأوامر لأسطول البحر الأبيض المتوسط — بقيادة سير « بوشامب سيمور » — بالتوجه للإسكندرية ، وقدمت إلى توفيق مذكرة إنجليزية فرنسية مشتركة ، تطالب باستقالة الحكومة الوطنية وإبعاد عرابى . فاستقالت الحكومة فى ٢٧ مايو ١٨٨٢ ، لتجد نفسها ثانية على رأس فورة شعبية فى القاهرة . وأصبح لعرابى مركز الديكتاتور فى دولة تحللت فيها كل الأشكال المعتادة للحكومة . واستولى الذعر على الجالية الأوربية . وحزم كل من كانوا يستطيعون السفر أمتعتهم واتجهوا إلى الإسكندرية ، حيث كانت فى انتظارهم حوالى خمس وعشرين سفينة حربية تابعة للدول الغربية . فلم يحن شهر يونيو حتى كان على السفن ١٤،٠٠٠ من الأجانب ، كما كان ٦،٠٠٠ آخرون يتأهبون ليتبعوهم !

وأخذت الأمور تزداد سوءاً على البر خلال الأسبوع الأول من يونيو . فقد انطلق مثيرو الخواطر فى الشوارع يصيحون : « أيها المسلمون ، عليكم بالمسيحيين » . وراحت الصحف الوطنية تنادى بتجديد مجد الإسلام ومصر المستقلة . وشرع عرابى — الذى أحيط بضجيج عنيف دائب أينما ذهب — يستعد للحرب . وبدأت جماعات العمال تقيم قواعد المدافع حول ميناء الإسكندرية . ثم انفجر شغب هائج فى المدينة يوم ١١ يونيو ، فلم تحن نهاية اليوم حتى كان عدة مئات من الناس بين قتلى وجرحى ، ومنهم حوالى خمسين أوربيًّا . وأصيب القنصل البريطانى سير « تشارلز كوكسون » بجرح بالغ ، وراح الغوغاء يجرون فى الطرقات ، ينهبون المتاجر ويشعلون الحرائق فى بيوت الأوربيين . ووقع مزيد من حوادث الشغب فى الأيام التالية فى بنها ومركز أو اثنين آخرين فى الدلتا . ومع أن بعض الجهود بذلت

فى أواخر يونيو لتحقيق تسوية سلمية ، فلم يك قد اتضح بعد ما إذا كانت ثمة حرب أو لن تكون .

وكان « جلادستون » قد بذل ما فى وسعه — فى إنجلترا — لإرجاء اليوم المشئوم فراح يعدّل ويبدل ويرجىء . كان قد رأى أنه ما إن تقوم الحرب حتى ترتطم مصالح البريطانيين والفرنسيين فى أفريقيا ، وجاهر بأن « فى اعتقادى أن اليوم الذى يشهد احتلالنا مصر سيودع لأمد طويل الروابط السياسية الودية بين فرنسا وإنجلترا » . ولم يكن راغباً فى حمل المسئولية بالنسبة لمصر ، ولا فى دخول السودان ، ولا التعهد بأية التزامات كانت فى أفريقيا الشرقية . ولو أن « جلادستون » استطاع أن يجفف مياه النيل ، لتمكن من أن يُبْقى إنجلترا بمنأى عن أفريقيا . إذ كان الرحالة والمبشرون البريطانيون قد ورطوه هناك بصياحهم وصراخهم ضد تجارة الرقيق . كما زاده دزرائيلى تورطاً بشرائه أسهم قناة السويس ، وكذلك فعل الذين كانوا يستثمرون أموالا فى مصر ويصممون على ألا يفقدوها . ومع قيام الشغب وقتل الرعايا البريطانيين وصل جلادستون إلى نقطة لا رجوع عندها ، وفى أسرأ الظرف ، فقد أبى الفرنسيون أن يشتركوا معه ، وأبى الإيطاليون ، ولكن الجمهور البريطانى راح يضغط عليه[1] .

وفى ١٠ يوليو ، وجه الأميرال سيمور رسالة إلى قائد الحامية المصرية بالإسكندرية قائلا إنه سيصب نيرانه فى اليوم التالى، ما لم تُرْفع مدفعية الشاطئ من قواعدها . ورد المصريون بأنهم مستعدون لهدم بعض القواعد ، ولكن رسولهم لم يوفق للعثور على الأميرال إلا فى ساعة متأخرة من الليل . ولم يرض الأميرال سيمور بالرد ، فأصدر الأمر — فى الساعة السابعة من صباح ١١ يوليو — ببدء إطلاق القنابل ، واستمر الضرب حتى الخامسة مساء . وفى هذه الساعات تم إسكات جميع البطاريات المصرية (وإن تمكنت من إصابة الأسطول البريطانى بخمس وسبعين طلقة) ، وتدفق جميع سكان المدينة على الصحراء فى ارتباك . وفى اليوم التالى ، سيطر الغوغاء الذين بقوا على المدينة ، فنهبوا وأحرقوا شطراً كبيراً منها . وفى ساعة متأخرة من يوم ١٣ يوليو ، هبطت جماعة صغيرة من مشاة البحرية ليشرعوا فى إعادة النظام

---

(١) تكاد هذه الحجج تطابق تلك التى ساقتها الولايات المتحدة ذريعة للتدخل فى الكونجو ، حين حملت طائراتها جنود المظلات البلجيكيين ليرتكبوا فظائعهم ضد الثوار فى الأسبوع الثالث من نوفمبر سنة ١٩٦٤ . . إنها دائماً ذرائع الاستعمار مهما تتغير الدولة الطامعة . (المترجم)

ثانية [1] .

وفى تلك الأثناء ، تراجع عرابى بجيشه نحو القاهرة ، معلناً أنه يعتزم نسف قناة السويس وإلغاء الديون الأجنبية على مصر .

ويمكن وصف الأحداث التى تلت ذلك فى عجالة . ففى أواسط أغسطس ، هبط الجنرال « سير جارنيت ولسيلى » مصر بقوة تضم ٢٠,٠٠٠ رجل ، وزحف فوراً لاحتلال قناة السويس ، ثم انطلق من الإسماعيلية إلى داخل البلاد . وبعد سلسلة من الاشتباكات اضطر الجيش المصرى إلى منازلته فى « التل الكبير » ، على حوالى خمسة وستين ميلا من القاهرة ، فى ١٣ سبتمبر . وانتهت المعركة فى ساعة أو اثنتين ، وتشتت المصريون فى الصحراء ، تاركين بضعة آلاف بين قتلى وجرحى فى الميدان . أما عرابى — الذى لم يقد جنوده بنفسه — فوصل إلى القاهرة على صهوة جواده ، ولكنه أُسِر فيها حين دخلها البريطانيون فى اليوم التالى [2] . وفى ٢٥ سبتمبر ، عاد الخديو توفيق إلى العاصمة ، وكان معتصما بأحد قصوره بالإسكندرية [3] .

ولقد كانت العملية — من الناحية العسكرية — ذات نجاح مدوٍّ ، وقد زجت ببريطانيا فى موقف سياسى لم يكن أحد قد بدأ يرى له نهاية بعد . فقد أصبحت سيدة قناة السويس ، وهى التى كانت قد عارضت فى حفرها . وبعد أن استخدمت كل حيلة للسيطرة على مصر دون استخدام القوة . أصبحت مضطرة إلى احتلال البلاد بجيش ، وإلى حكمها بحكومة من اختيارها . وتحولت فرنسا — كما توقع جلادستون — من شريكة إلى عدوة ، إذ اشتدت غيرتها من هذا التوسع المفاجئ فى سلطان بريطانيا فى الشرق الأدنى . وقد كتب بارينج : « من تلك اللحظة (معركة التل الكبير) حتى توقيع الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية لسنة ١٩٠٤، كان تصرف فرنسا فى مصر ممعناً فى العداء لإنجلترا » . و « بارينج » حجة فى الكلام

---

(١) إن المؤلف الذى حرص على تمحيص أتفه الأمور عن شخص مثل « جوردون » ، يقتصر فى سرد هذه الأحداث على الرواية الإنجيزية التقليدية ، فلم يحاول أن يعرف كيف روى الطرف الآخر هذه الأحداث سعياً وراء الحقيقة . (المترجم)

(٢) حكم على عرابى بعد ذلك بالإعدام ، ثم استبدل الحكم بالنفى إلى جزيرة سيلان . (المؤلف)

(٣) يلاحظ أن المؤلف لم يذكر شيئاً عن الرشاوى التى دفعها الإنجليز والدسائس التى دبروها بالاستعانة مع بعض شيوخ الصحراء لإغراء نفر من ضباط عرابى بخيانة وطنهم والغدر بجيشه ! (المترجم)

فى هذه المسألة ، لأنه كان الرجل الذى انتقى لحكم مصر .

وبقيت مشكلة أخرى ، تلك هى وادى النيل ذاته . فهل كان غزو مصر يعنى غزو ممتلكات مصر كذلك ؟ أو لا بد من احتلال السودان أيضاً ؟

كان سؤالا أجاب عنه السودانيون أنفسهم ، إذ نهضوا باسم الإسلام ، فألقوا بالأجانب خارج بلادهم .

ولابد للمسافر فى النيل أن يدهش — إلى اليوم — لسلطان الإسلام فى شمال السودان ووسطه . وقد لا يبدو فى هذه البيداء الفظيعة ما يدعو لشكر الله ، ومع ذلك فإن أفقر السكان البائسين يشاهد فى أثناء النهار ساجداً على الرمال فى حرارة واستغراق ساذج لا يكاد يكون معروفاً فى دلتا مصر الخضراء . ولا توجد قرية واحدة تخلو من مئذنة ولو كانت لا تزيد عن هيكل من الأعمدة ، يعتليها المؤذن ليدعو إلى الصلاة ، فإذا كل حركة وصوت يتوقفان على الأرض . فهنا يبدو أن كل سُنَّة أُثرت عن الرسول ، وكل أمر خاص بالصوم والمآدب والأعياد يُنَفَّذ بحذافيره .

ولعل شظف الحياة بالذات — فى هذه الفيافى المقفرة — هو الذى يدفع الناس إلى العبادة . فلم تكن مكة تبعد كثيراً عبر البحر الأحمر ، وكان النبى محمد بالذات يعيش فى مثل هذه البيئة ، وفيها تلقى الوحى . ويسيطر على الصحراء المحيطة صمت هائل . والحرارة قاسية إلى درجة تَكْبت الشهية وتحمل المرء على التفرد أو الانفصال عما حوله فى شبه غيبوبة تذوب فيها الرتابة فى انعدام طبيعى للزمن ، وتتخذ فيه الرؤى الوهمية شكل الحقائق الواقعة ، ويصبح الزهد غاية دينية قائمة بذاتها . وهذه ظروف مثالية للتعصب ، ويستطيع أى زعيم دينى أن يثير أتباعه بقوة جائحة ، فإذا كل الحواجز تكتسح فى الحال ، وتصبح الثورة واجباً دينيًّا ، وهياجاً مزلزلا جائحاً ، لأنه خروج مفاجئ شديد على الخمول الذى كان مسيطراً من قبل . ويتبدد الصمت الطويل ، وتتحول الرؤيا بغتة إلى عمل ، ويستبدل التفرد بتركيز هائج عنيف .

لهذا كان لابد للثورة فى السودان — بحكم طبيعة الأمور — أن تكون قاسية وجذرية بدرجة تفوق ما كانت عليه الثورة فى مصر . فقد كانت حركة دينية أكثر منها سياسية ، وكانت انفجاراً منبثقاً من داخل السودان ذاته ، وإن كانت أحداث مصر قد أثرت عليه ولا شك . ولعل القصة كانت تتغير لو قُدِّر لجوردون أن يستمر

حاكماً عامًّا للسودان ، ولكن سلطة الحكومة تفككت بمجرد رحيله ، وباتت الثورة أمراً لا سبيل لتفاديه . وكان « أمين » قد استمر فى مديرية خط الاستواء ، و« سلاتين » فى دارفور ، و« فرانك لبْتون » — البحار البريطانى — فى بحر الغزال ، بدلا من جيسى . غير أنه لم يكن فى وسع هؤلاء البيض أن يقوموا بعمل فعال ليحفظوا تماسك السودان ، طالما كان فى الخرطوم حاكم عام مصرى . . وقد كان « رؤوف باشا » — الذى خلف جوردون — أسوأ من اختيروا لهذا المنصب . والواقع أن « جوردون » كان قد أبعده عن السودان لمعاملته غير الإنسانية للأفريقيين . فلما عاد ، لم يضيع وقتاً فى رد صنائعه القدامى إلى العمل ، من أمثال أبى السعود ، الذى خدع كلا من بيكر وجوردون فى يوم من الأيام . وفى أقل وقت ، عادت الرشوة — أكثر من ذى قبل — كوسيلة لتصريف الأعمال فى الخرطوم ، ورجع الجلد والتعذيب فى السجون ، وتشجع تجار الرقيق من جديد ، فى كل مكان . وفى سنة ١٨٨٢ ، خلَف « عبد القادر » — العسكرى الذى كان يرأس « حرامية » بيكر الأربعين — « رؤوف » كحاكم عام ، وكان أفضل منه . ولكن الفرصة كانت كانت قد فاتت ، وأصبح السودان مهيأ للفوضى .

وكانت كراهية المصريين أول حافز للتمرد . فقد كان هناك حوالى ٢٨,٠٠٠ منهم موزّعين على الحاميات العديدة فى طول السودان وعرضه ، وقد بات مسلكهم نحو السودانيين غير محتمل . كانت الضرائب تجمع بأقصى فظاظة ، وقد دب الفساد فى كل موظف مصرى[١] . وأوفد ضابط بريطانى من القاهرة ليتفقد الحاميات بعد رحيل جوردون ، فكتب : « أن سيرهم العام ومسلكهم الجائر يكادان يكفيان لإثارة تمرد . . فإذا أضيف الجبن إلى هذا المسلك ، تعذر على أن تجنب التعبير عن احتقارى واشمئزازى . » . .[٢] بل أن جوردون توقع المتاعب منذ سنة ١٨٧٩ ، حين كتب : « إذا استمر نظام الحكومة الحالى ، فلن يستبعد قيام ثورة فى البلاد بأسرها » .

وفى أوائل سنة ١٨٨١ ، بدأ جو القلاقل يتبلور فى السودان حول اسم شخصية

---

(١) ما أحوجنا إلى تعاون الباحثين المؤرخين على إجلاء هذه الاتهامات بدراسة فترة الحكم الذى كان ظاهره « مصرياً » وباطنه « تركيا » فى السودان .

(٢) كذا ! !

(المترجم)

غريبة ظهرت فى جزيرة « أبا » فى النيل ، على حوالى ١٥٠ ميلا جنوب الخرطوم . وتواترت الأنباء بأن الرجل أقام نفسه زعيما دينيًّا جديداً ، واتخذ لقب « المهدى » ، وأعلن أنه لابد من تطهير السودان من فساد المصريين ، وأن يعود أهله إلى حدود العقيدة الحنيفة . ولم يكن ثمة ما يثير اهتماماً بالغاً فى بادئ الأمر ، فأرفد أبو السعود على رأس ٢٠٠ رجل إلى جزيرة « أبا » ، لإحضار المتمرد إلى الخرطوم ليتلقى عقابه . ولكن سرعان ما تجلى أن المهدى كان أكثر من مجرد « فقيه » إقليمى يصبو إلى المجد . فقد كان أتباعه فى الجزيرة يطيعونه فى تقديس أعمى ، ومن ثم ذبحوا جنود أبى السعود بسهولة رهيبة ، وسرعان ما ذاعت الأنباء بأن المهدى قد لاذ بصحارى كردفان ، وأخذ يدعو إلى الجهاد .

وراح محمد أحمد بن السيد عبد الله المهدى يتبع التقاليد الحقيقية للحرب الدينية فى الإسلام . فهو يظهر فجأة كالعاصفة فى الصحراء ، دون أن يدرى أحد من أين ظهر ، ويكسب قوة متزايدة فى تجواله ، بجاذبية عجيبة . وتتعدد الروايات عن أصله ، فقد قال البعض إنه جاء من أسرة من صنَّاع القوارب على النيل ، وقال آخرون إنه ابن فقيه فقير ، وقال غيرهم إنه من سلالة شيوخ دينيين . على أن ثمة اتفاقاً على أنه ولد فى مديرية (دنقلا) — فى شمال السودان — فى سنة ١٨٤٤ (أى أنه كان فى السابعة والثلاثين إذ ذاك) ، وأنه اكتسب من سن مبكرة شهرة بين قومه بالتقوى العظيمة ، وأنه أوتى موهبة فذة للخطابة . ويبدو أن تأثيره كان ناشئاً عن جاذبية شخصية خارقة ، عبر عنها ستراتشى بقوله : « كان فى محضره مهابة عجيبة ، وفى حديثه حرارة دافقة مذهلة » . كان رجلا تستولى عليه قوى غيبية . ولقد بشر النبى محمد بأن رجلا من سلالته سيظهر يوماً ليعيد للدين ازدهاره ، وقد أعلن « ابن عبد الله » — عن يقين لا يتزعزع — أنه هذا الرجل . وكانت كراهيته للمصريين عارمة .

ولدينا عدة مصادر لوصفه ، لعل أحسنها ذلك الذى ذكره الأب « جوزيف أورفالدر » ، وهو القس النمسوى الذى ظل أخيراً لديه سبع سنوات : « كان مظهره الخارجى عجيب الفتنة . كان قوى البنيان ، شديد السمرة ، تعلو وجهه دائماً ابتسامة عذبة » ؛ وكانت له « أسنان فذة البياض ، ويتوسط السِّنَّيْن الأوسطين من الفك

الأعلى فلجة بشكل رقم ٧ ، كانت تعتبر فى السودان بشيراً بالسعد لصاحبها . كذلك كان أسلوبه فى الحديث قد أصبح بالمران عذباً حلواً بدرجة غير عادية » .

ويكمل « سلاتين » ، حاكم دارفور — الذى ظل فى أسر المهدى مدة أطول — هذا الوصف ، فيقول إن المهدى كان متين البنيان ، عريض المنكبين ، كبير الرأس ، ذا عينين عسليتين متألقتين ، ولحية سوداء ، وثلاث ندب على خده تشير إلى قبيلته . وكان لا يكف عن الابتسام ، حتى وهو يصف أفظع ألوان العذاب لتعس جدّف على الله أو تعاطى الخمر . كان يبتسم وخنجره مشهراً . وقد انتهى « وينجيت » — الذى قدر له أن يحكم السودان فيما بعد ، فقام بدراسة واسعة للموضوع — إلى هذه النتيجة: « لا شك فى أن هذا الرجل أوتى أقوى رأس ، وأصفى بصيرة ذهنية فى مليونى الميل المربع التى فرض سيادته عليها — بدرجات متفاوتة — قبل موته ، إلى أن أودت به شهوانية جامحة » .

وفى تقدم هذا الرجل الموهوب الملهم عنصر من الخيال ، فمن الصعب تقدير شخصيته . . حتى الآن ، بعد انقضاء ثمانين عاماً ! . . فهو ، يقيناً ، لم يكن مغامراً بالمعنى العادى . وحتى إذا افترض أنه لم يكن صادقاً ، وأن حملاته الدينية كانت مجرد قناع زائف لطموحه الشخصى ، فلا مفر من الإقرار بأن أتباعه كانوا يقدسونه ، فهم — سواء يومئذ ، أو بعد ذلك — لم يرتابوا فى سلطته ، وكانوا يظنونه قديساً ، وعلى استعداد لأن يموتوا فى سبيله ، يستوى فى هذا الشعور أقوى الأمراء سلطاناً ، وأقل حامل ماء (سقاء) ! كان « المهدى » يطفو على موجة من الاستهواء الدينى ، وكان قادراً على أن يخضع أتباعه لشعور بالواجب والنظام ، وهو ما كان يعوز ذوى الأمر فى مصر . وقد كان نجاحه مذهلا . بدأ فى (كردفان) عندما أباد رجاله — وهم لا يكادون يحملون سلاحاً سوى الحراب والعصى — فصيلة من الجنود المصريين أُرسلت لتأديبهم . . وفى أغسطس سنة ١٨٨٢ (عين الشهر الذى هبط فيه الجنود البريطانيين فى قناة السويس) ضربوا حصاراً حول (الأُبيِّض) ، وكانت مدينة تأوى ١٠٠,٠٠٠ ، وتحميها حامية مصرية قوية . وعرف المصريون أنه لم يكن لهم أن يتوقعوا سوى الموت من هؤلاء المخبولين ، فصمدوا ستة أشهر ، ثم هزمتهم المجاعة ، التى استشرت حتى لقد أكلت الحامية كل فأر وكلب ، وبلغ

ثمن الجمل الواحد ٢٠٠٠ ريال ! . . وفى يناير سنة ١٨٨٣ سقطت المدينة ، وعندما هدأت المذبحة تبين أن مخزناً كبيراً للأسلحة ، وأموالا بلغت حوالى ١٠٠,٠٠٠ جنيه ، قد وقعت فى أيدى المهدى . وعند هذه النقطة أصبحت الثورة حرباً أهلية .

وكان طغيان المهدى فى الصحراء — فى الثمانيات من القرن التاسع عشر — يسير على هدى نظام يكاد لا يختلف عن الديكتاتورية فى أوربا فى الثلاثينات من القرن العشرين . كل ما هنالك أنه كان أخشن وأعنف ، ولم تكن الفظائع ترتكب باسم الوطنية ، وإنما باسم الله . وكان « المهدى » يتوسط هذا النظام — وكأنه صورة جديدة للنبي — يحيط به صفوة حوارييه : الخلفاء الثلاثة الذين كانوا معاونيه الرئيسيين ، ويليهم الأمراء ، والمقدمون ، وزعماء القبائل ، ثم رجال القبائل المهجيرن ، وأتباعهم وقطعان ماشيتهم . وكان لهم زيهم الرسمى : جبة تتناثر فيها الرقع ، إشارة لفقرهم إلى الله ، وعمامة . . وألويتهم المؤلفة من أعلام الأمراء المزدانة بآيات من القرآن ، والعلم الأخضر الخاص بالمهدى نفسه . واستعراضاتهم الحربية ، وتتمثل فى الفرسان وقد انطلقوا فى عرض الصحراء .

وفيما يلى بيان نشره المهدى من مقره الجديد، فى دار الحكومة بالأُبَيِّض [١] :

« توبوا جميعاً إلى الله ، وأقلعوا عن كل عادات سيئة مرذولة ، كأعمال الجسد المزرية ، وتعاطى الخمر والتبغ ، والكذب ، وشهادة الزور ، وعدم إطاعة الوالدين ، والسرقة ، وأكل حقوق الغير ، والتصفيق والرقص ، والتغامز ، والبكاء والنواح على رأس الميت ، وفاحش القول ، والغيبة والنميمة ، وصحبة النساء الغريبات . وأكسوا نساءكم بثياب الحشمة ، وأْمروهن باجتناب محادثة من لا يعرفن . وكل من لا يطيع هذه المبادئ خارج على طاعة الله ورسوله ، وسيعاقب وفقاً للشريعة .

« أدوا الصلاة فى أوقاتها ، وزكوا عن أموالكم ، وأعطوا الزكاة لأميرنا الشيخ منصور (حاكم الأبيض الجديد) ليؤديها إلى بيت المال .

« اعبدوا الله ، ولا تباغضوا . وتعاونوا على البر والتقوى . »

وكانت أحكام الشريعة تنفذ بقسوة ، فكان الجلد حتى الموت ، وبتر اليدين ،

---

(١) البيان منقول عن الترجمة الإنجليزية التى أوردها المؤلف . لذلك فقد يختلف عن النص الأصلى فى بعض الكلمات ، وإن لم يختلف فى الغاية والمعنى . (المترجم)

جزاء لأتفه الذنوب . وألغيت كافة أنواع مآدب الزواج والأعياد . ولم يكن لامرئ أن يحلف أو يسب أو يعاقر الخمر أو يدخن ، وإلا واجه ألم الموت فى الحال . ولم تكن ثمة طريقة كريمة للموت اللهم إلا فى ساحة القتال ، وفى خدمة المهدى .

ويقول الأب « أورفالدر » إن المهدى – بعد سقوط (الأبيض) – أصبح يلقى ما كان للنبى نفسه من تقديس ، فكان الماء الذى يغتسل به يوزع على أتباعه الذين كانوا يأملون فى أن يبرأوا بشربه من عللهم . ولم يعد أحد يشك فى نجاح رسالته ، وباتت أحلامه ورؤاه تعتبر وحياً من الله . وعندما سقط السودان بأسره أعلن المهدى أنه اعتزم الاستيلاء على مصر ، ثم المضى إلى أشد المعارك دموية خارج مكة . ويلى ذلك الزحف على بيت المقدس ، حيث يهبط المسيح من السماء فيلقاه ، ومن ثم يسود الإسلام الدنيا بأسرها .

وكانت أفكار المهدى عن الدنيا غير دقيقة للغاية ، إلا أنه لم يكن لهذا اعتبار فى تلك الأيام الأولى من حربه الدينية . كانت الصحراء هى الدنيا الوحيدة التى عرفها أولئك القوم . وكان المهدى يبتسم فيشع وجهه بثقة روحية . ولم يستأ كثيراً عندما سمع – فى أشهر صيف سنة ١٨٨٣ – أن جيشاً مصرياً يقوده بريطانى كان يزحف نحوه من مصب النيل . .

ولقد استغرقت مصر عاماً لتتحرك . إذ كان الأمل يراودها – شهراً بعد آخر – بأن يتمكن الحاكم العام فى الخرطوم من السيطرة على الموقف بالجنود الذين كانوا تحت إمرته . ولكن سقوط كردفان – أغنى مديريات السودان – كشف بجلاء عن أنه لابد من إيفاد حملة حربية من القاهرة ، إذا أريد إخماد الثورة . ولكن من الذى كان يوفد الحملة ؟ . . كان البريطانيون يأبون أن يكون لهم دور فيها . فقد حدث فى إنجلترا – بعد معركة التل الكبير – رد فعل ، فإذا جلادستون عزوف عن أى فتح جديد فى أفريقيا ، ولو أن « بارينج » استطاع حكم مصر بدون الجنود البريطانيين لسحبهم منها . لذلك بات على الحكومة المصرية أن تدبر السلاح والرجال ، وقد وفقت لذلك بمعجزة[١] . ووكلت القيادة إلى الكولونيل « وليم هيكس » ، وكان من ضباط جيش بومباى الذين انضووا فى خدمة مصر . ورافقه أركان حرب من أكثر من اثنى عشر أوربى ، بينهم مراسل لصحيفة « التايمز » ، وآخر لصحيفة

---

(١) الواقع أن إنجلترا أرادت فتح السودان بجنود مصر ، فتوفر أرواح جنودها ، وتظفر بخيرات السودان ، وتوغر صدور السودانيين على المصريين . (المترجم)

« جرافيك » اللندنية . وعندما تم حشد القوة أخيراً وأرسلت بطريق النيل إلى الخرطوم، كانت تضم حوالى ٧٠٠٠ من المشاة ، و ١٠٠٠ من الفرسان ، والأتباع الذين يصحبونهم عادة . وتطلب نقل الإمدادات عبر الصحراء أكثر من ٥٠٠٠ جمل ، وضمت المهمات مدافع جبلية ومدافع رشاشة وعشرات الملايين من الطلقات . كانت حملة قوية — على الورق — ولكن كانت ثمة نواحى ضعف تؤذن بالشر . فإن كثيراً من الجنود كانوا ممن سجنوا لاشتراكهم فى ثورة عرابى ، وقد أرسلوا إلى الخرطوم مكبلين بالأغلال فعلا. كما كان الكولونيل « هيكس » بعيداً عن أن يشبه « جيمى ». كان ضابطاً بريطانياً قحاً ، لا تعوزه الشجاعة إطلاقاً ، ولعله كان خليقاً بأن يبلى بلاء حسناً لو أن حملته كانت فى أوربا . ولكنه الآن فى أفريقيا . وقد كتب مراسل « التايمز » من الخرطوم : « بعد ثلاثة أيام نسير فى حملة يرمقها أشد المتعطشين لسفك الدماء بأعظم وجوم » .

ولا داعى للإطالة فى التفصيلات الأليمة . فبعد سلسلة من المناوشات الأولية ، وصلت الحملة فى النيل حتى (الدويم) ، على بعد حوالى مائة ميل جنوب الخرطوم ، ثم زحفت غرباً — عبر السهول الجافة — نحو (الأبيض) . وضل الأدلاء الطريق ، إما تعمداً أو إهمالا . وكانت إدارة المهمات الحربية غير صالحة ، والجنود غير راغبين ، والماء غير موجود . كانت موكباً أعجف عجيباً . وبرغم الحر الفظيع ، كان بعض الجنود البائسين يرتدون دروعاً وخوذات أثرية كأنها ترجع إلى أيام الحروب الصليبية . وكانت الأوامر أن يشكلوا — عند الاشتباك — مربعاً ، ومدافعهم مصوبة إلى الخارج من كل ركن ، بينما تجمع الإبل والأمتعة فى الوسط . وقد زود كل جندى بجهاز غريب مؤلف من أربعة أوتاد حديدية ، كان عليه أن يلقيه أمامه على الرمل ليكون متراساً أو عائقاً ضد انقضاض العدو .

واغتبط المهدى وخلفاؤه مقدماً وهم يرقبون — من (الأبيض) — تقدم هذه الحملة المنهوكة العاجزة . وقبل النهاية المحتومة بوقت طويل ، كانت ثمة رنة قنوط فى الرسائل التى أرسلها « هيكس » إلى الخرطوم : فرغ الماء ، والرجال يموتون، والإبل تنفق بأعداد متزايدة كل يوم ، وقد قطع فرسان المهدى خط الإمدادات بينهم وبين النيل، ولم يكونوا يملكون تحديد موقعهم . وكانت الحملة تهيم فى أعماق غابة جافة على ثلاثين ميلا جنوب (الأبيض) — فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ — حين طلع

عليهم ٥٠,٠٠٠ عربى . ولا يعرف أحد تفصيلات المعركة ، لأن العرب لم يحتفظوا بسجلات مكتوبة ، وكان عدد الذين أخذوا أسرى ضئيلا. ولعل الذين بقوا على قيد الحياة كانوا ٢٠٠ أو ٣٠٠ من ١٠,٠٠٠ جندى . ولم يكن بينهم « هيكس » وأركان حربه . وانقضى أسبوعان قبل أن تتسرب أنباء النكبة عن طريق الخرطوم إلى العالم الخارجى . وانقضت أشهر قبل أن تتجلى حقيقة عواقبها كاملة .

وكأنما انفجر سد فى السودان ، فإذا موجة من المذهب المهدوى تتدفق ، ولم يبق ركن فى الدولة الكبيرة لم يحط به . وبدأ الذعر يستشرى فى الخرطوم ، فهربت كثير من العائلات المثرية بطريق النيل إلى مصر . وانقطعت كل صلة لسلاتين بالخارج فى (دارفور) ، فخاض مع العرب عدداً من المعارك الميئوس منها ، ثم استسلم . وصمد « فرانك لبتون » مستبسلا — فى بحر الغزال — حتى بداية العام الجديد ، ثم انهار هو الآخر . وتراجع « أمين » — فى مديرية خط الاستواء — إلى جنوب النيل . وبعيداً إلى الشرق ، انحاز للمهدى تاجر رقيق تركى سودانى يدعى « عثمان دنجة » ، على ساحل البحر الأحمر . وفى معاقل متناثرة — مثل (سنار) و (كسلا) — بقيت حاميات مصرية كالجزر الطافية على سطح السيل ، ولكنها كانت جزراً من رمال وليست من صخور .

وفى نهاية سنة ١٨٨٣ ، بات من الممكن المكابرة بأن الكفتين كانتا متعادلتين فى الصراع بين الإسلام والمسيحية . فقد فاز البريطانيون بمصر ، ولكنهم خسروا السودان [١] ولا شك فى أن جلادستون كان يسره أن يبقى الأمر هكذا . . والواقع أنه عقد عزمه على ألا يبدى مزيداً ، وأعلن إن على الخرطوم إن ترعى نفسها ، وإن على المصريين فى الحاميات السودانية أن يدافعوا عن أنفسهم قدر استطاعتهم . على أنه كان فى إنجلترا من كانوا يعتقدون أن الأمر لم يستقر بعد ، وأن كل ما حدث كان مجرد تمهيد لصراع أشد على النيل . وكان هؤلاء يعتقدون أنه لا سبيل لانجلترا للتراجع وقد ذهبت إلى هذا المدى فى أفريقيا ، فشرعوا — فى شتاء سنة ١٨٨٣ — يتلفتون بحثاً عن رجل يغصب الحكومة على التحرك . ووجدوا بغيتهم فى : « الجنرال جوردون » !

---

١) هذه خير شهادة من المؤلف تدعم ما ورد بهامش صفحة ٢١٨ . (المترجم)

الفصل الثانى عشر

« سَرْوَكَة » السودان[1]

« إذا شئت لعمل غير مألوف أن يؤدى ، فى بلاد مجهولة همجية ، فعليك بجوردون »

سير « ك . ريفرز ويلسون »
(فى حديث له مع لورد سالسبيرى)

لم يصادف جوردون شيئاً يبعث على الرضى ، منذ استعفائه من الخرطوم فى سنة ۱۸۷۹ . فقد عاد إلى إنجلترا مريضاً ، مرهقاً ، لينغمس — كما يقول أحد معاصريه — فى « سلسلة من الأعمال العقيمة ، قبلها فى تسرع ، ثم ندم عليها حين انفسح له الوقت » . . فلقد شغل بضعة أشهر بالمسألة السودانية ، وكتب لجمعية مكافحة الرق مقالات وتقارير ، لم ينسبها لنفسه ، بل إنه رفض أن يظهر بمظهر البطل ، حتى لقد أعرض عن دعوة للعشاء مع ولى عهد بريطانيا ، فلما جاءه أحد رؤساء الركائب بالقصر الملكى إلى بيته ليسأله السبب ، قيل إن الحوار التالى دار بينهما :

رئيس الركائب : ولكنك لا تملك رفض دعوة من أمير ويلز .

جوردون : ولم لا ؟ لقد رفضت دعوة الملك يوحنا (الحبشى) للذهاب معه إلى منتجع المياه المعدنية فى الجبال ، وكان بوسعه أن يقطع رأسى . وأنا مطمئن إلى أن صاحب السمو الملكى لن يفعل ذلك !

رئيس الركائب : إذن ، فلأقل إنك مريض .

جوردون : ولكنى لست مريضاً .

رئيس الركائب : إذن أعطنى سبباً أقدمه للأمير .

---

(۱) « سروكة » مشتقة من « ساراواك » فى شمال غربى (بورنيو) ، وكانت مستعمرة للتاج البريطانى ، منذ أوفدت بريطانيا سير « جيمس بروك » لاحتلالها سنة ۱۸٤۲ ، وأطلقت يده فيها ، فظل يحكمها ، وخلفه أفراد من أسرته . وقد بقيت من عام ۱۸۸۸ حتى ۱۹٤٦ تحت الحماية البريطانية ، ثم احتلتها اليابان أثناء الحرب العالمية الثانية ، إلى أن حررها الجنود الأستراليون ، وأصبحت من مستعمرات التاج البريطانى . (المترجم)

جوردون : إذن فقل له أننى آوى إلى فراشى فى التاسعة والنصف .

ثم لم يلبث أن قبل دعوة الأمير إلى الغداء .

وقام جوردون — فى ربيع سنة ١٨٨٠ — بزيارة قصيرة لملك البلجيك فى بروكسل . وكان « ستانلى » قد فكر فى أن يتشاطر و « جوردون » حكم الكونجو — الذى كان قد اكتشف حديثاً — تحت رعاية ليوبولد ، فقال جوردون للملك إنه كان مستعداً للاشتراك فى المشروع إذا ما نضج . ثم رغب اللورد ريبون — وكان فى مركز « نائب الملك » الجديد فى الهند (وقد سميت باسمه الشلالات القريبة من منبع النيل) — فى أن يجعله سكرتيراً خاصاً له ، فأبحر إلى بومباى ، ليستقيل بعد ثلاثة أيام ، لأنه لم يطق عادة اللورد فى أن يزعم أنه قرأ رسائله ، وهو لم يقرأها فعلا ! . . ويشعر المرء أن جوردون ما كان ليصلح كسكرتير خاص ناجح ، ولكن الصين كانت قد عادت تتصدر مجال الأنباء العالمية — إذ تواترت الأقوال عن أنها كانت مقبلة على حرب مع روسيا — فلم ينقض يومان ، حتى كان جوردون فى بكين . ثم عاد إلى إنجلترا عارضاً مساعدته لحكومة جنوب أفريقيا فى حرب مع قبائل « الباسوتو » . وما لبث أن رحل إلى « موريتيوس »[1] ، قائداً لسلاح المهندسين الملكى لمدة عام ، وقبل أن يعود إلى إنجلترا كان قد تخاصم مع جنوب أفريقيا .

وبات فى سنة ١٨٨٢ فى موقف عجيب ، إذ رقى إلى رتبة « ميجر جنرال » وليس له مركز فى الجيش ، فطلب إجازة أو إذناً بالغياب لمدة عام ، ليذهب إلى فلسطين فيتبحر فى دراسة التوراة . وما كانت فلسطين منتهى مطافه فى الواقع ، فقد كتب من (يافا) إلى أخته فى أول يوليو ١٨٨٣ يقول : « انتقلت إلى هنا (من القدس) ، واستأجرت بيتاً جميلا لستة أشهر . إن هذا المكان فى موقع يؤدى إلى جميع الاتجاهات » . وكان جديراً به أن يضيف « لا سيما أفريقيا » . فهو لم ينفك طيلة هذه السنين يفكر فى السودان . وكان يعود إلى الموضوع المرة تلو الأخرى فى رسائله .

---

(١) موريتيوس : جزيرة من الممتلكات البريطانية فى المحيط الهندى ، اكتشفتها البرتغال سنة ١٥٠٥ ، ثم استعمرتها هولندا وأطلقت عليها اسم « موريتيوس » . وفى سنة ١٧١٠ آلت لفرنسا وسميت (ايل دى فرانس) — أى جزيرة فرنسا — واستخدمت خلال حروب نابليون كقاعدة ضد السفن التجارية البريطانية ، فاستولت عليها بريطانيا سنة ١٨١٠ ، وردت إليها أسمها الأول ، وإن ظلت اللغة والقوانين والعادات الفرنسية تسودها إلى اليوم . (المترجم)

ولكن الملك ليوبولد عرض عليه — فى سنة ١٨٨٣ — منصباً محدداً فى الكونجو تحت رئاسة « ستانلى » ، فقرر أن يقبله . وفى طريق عودته لأوربا ، هبط فى (جنوا) وذهب إلى بروكسل . وسرعان ما تمت الإجراءات مع ليوبولد . وفى ٧ يناير ١٨٨٤ ، وصل إلى بيت أخته فى (ساوثهامبتن) معتزماً الاستقالة من الجيش البريطانى . ولكنه اكتشف إذ ذاك أن عاصفة سياسية تتصل بالسودان قد انفجرت فى « هوايتهول »[1] ، وأنه بالذات كان فى غمرة هذه العاصمة ، فأدرك أنه قد وصل فى أنسب وقت للاشتراك فى المعمعة . ذلك أن « جلادستون » كان قد بدأ يتبين أن نكبة « هيكس » لم تكن حادثاً يحسن تناسيه ، ولا كان من الممكن ترك الخرطوم والحاميات المصرية وشأنها . وانقسمت وزارته على نفسها فى هذا الصدد ، فكان اللورد هارتينجتون وزير الحربية ، واللورد جرانفيل وزير الخارجية ، يحبذان نوعاً من التدخل . وكذلك كان صمويل بيكر ، الذى كان معتكفاً فى الريف ولكنه ظل يعتبر حجة فى شئون النيل . وكان بيكر قد كتب إلى « التايمز » — فى أول يناير ١٨٨٤ — رسالة قوية اقترح فيها إرسال الجنود البريطانيين أو الهنود إلى السودان لمحاربة المهدى ، وأن يعهد بالقيادة لجوردون . وأيدت « التايمز » هذا فى مقال افتتاحى ، فإن هو إلا يوم أو اثنان حتى طلعت « بال مال جازيت » (التى كانت حتى ذلك الحين تحبذ الجلاء) تدعو إلى مزيد من الحزم فى السودان !

وكان « وليم توماس ستيد » — رئيس تحرير « بال مال جازيت » — أقوى صحفى سياسى فى يومه ، ولم يكن من طبعه أن يدع أى انشقاق فى وزارة يمر دون ما نتيجة . وكان هو الذى أدخل « الأحاديث » فى الصحافة البريطانية ، فرأى الفرصة سانحة لحديث من أقوى الأحاديث ، واستقل قطاراً إلى (ساوثهامبتن) حيث اتصل بجوردون فى بيت أخته . وكان سؤاله له : « هل فكر الجنرال فى أمر السودان ؟ » وكان الجنرال يفكر فيه كل التفكير ، ولا مفر من ذلك . « ومن كان ذلك المهدى ؟ » . لم يكن أكثر من مجرد متمرد عربى آخر من الممكن معاملته كما عومل « الزبير » وابنه سليمان فى حينهما ، ولكنه خليق بأن يصبح شديد الخطر إذا ترك وشأنه . ويجب الاحتفاظ بالخرطوم مهما تكلف ذلك ، ولعل من المفيد إنفاق

---

(١) (هوايتهول) هى منطقة الطريق الرئيسى بين مبنى البرلمان البريطانى ومقر الحكومة البريطانية ، ويرمز بها إلى المنطقة التى تشكل فيها سياسة بريطانيا . (المترجم)

مليونى جنيه ، لتدعيم وضع الجيش المصرى فى السودان . وكل ما كان يتطلبه الأمر ، وجود قائد قوى فى الميدان .

وأدلى جوردون بآراء قوية الأثر بصدد الموضوع الرئيسى : الصراع بين المسيحية والإسلام فى الشرق الأدنى (١) . وقد جاء فيها قوله :

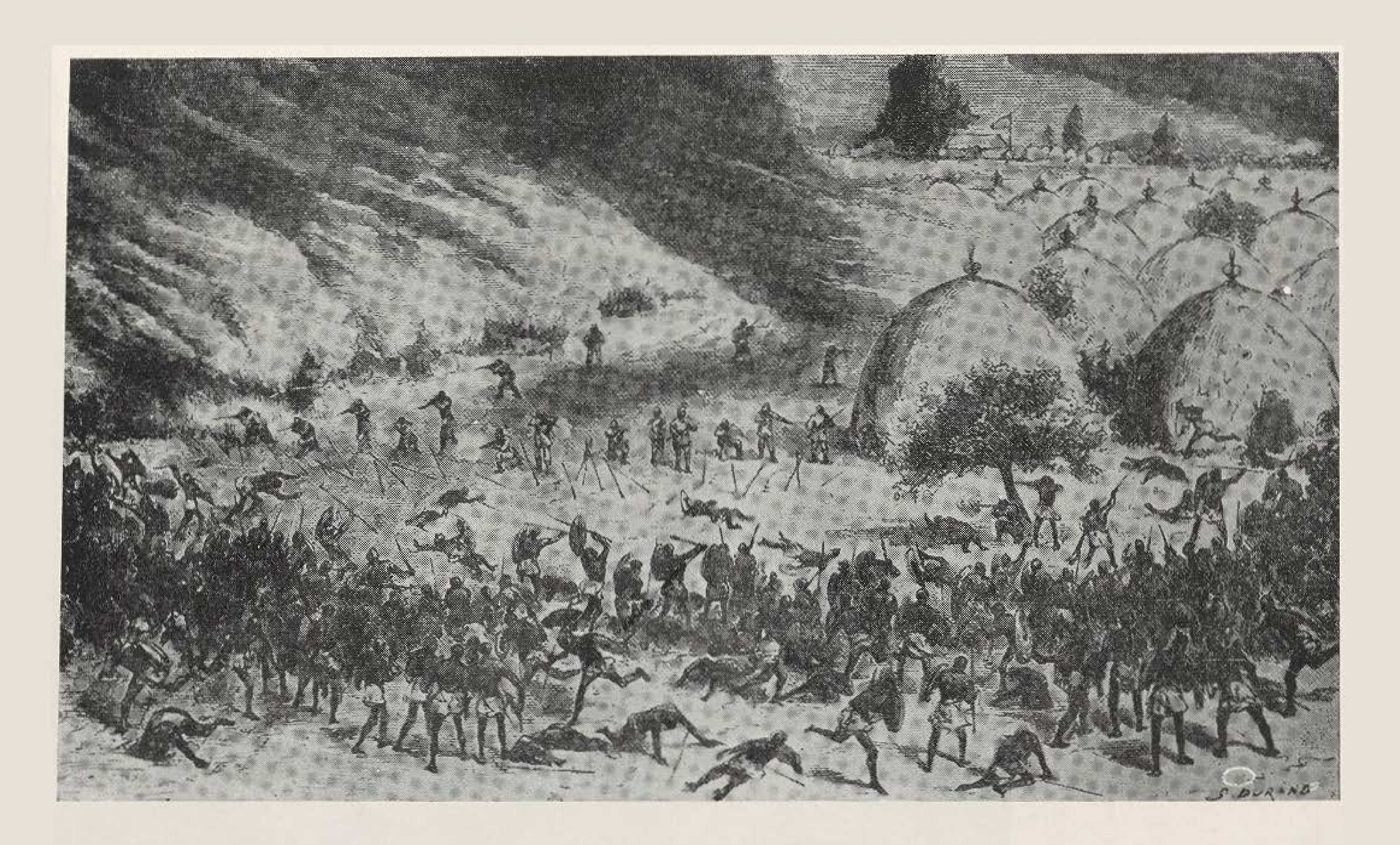
« ليس زحف المهدى عبر وادى حلفا هو الخطر الذى يخشى ، بل إن من غير المحتمل أن يتوغل إلى الشمال أصلا . ولكن الخطر نوع آخر تماماً ، فهو ناشئ عن تأثير قيام دولة إسلامية مظفرة — ملاصقة لحدودكم مباشرة — على القوم الذين تحكمونهم . سيسود المدن المصرية جميعاً شعور بأن فى وسعهم أن يفعلوا ما فعله المهدى ، وأن يطردوا الدخلاء والخونة كما طردهم . وليست إنجلترا وحدها هى التى تواجه هذا الخطر . فإن نجاح المهدى أهاج فعلا غلياناً خطيراً فى بلاد العرب وسوريا ، وأقيمت لوحات فى دمشق تدعو لطرد الأتراك . ولو أُسْلِم السودان الشرقى بأسره للمهدى ، فستذكو حمية القبائل العربية على جانبى البحر الأحمر . والأتراك مضطرون — دفاعاً عن النفس — إلى عمل ما يصد خطراً شديداً كهذا ، إذ من الممكن أن تتفتح المسألة الشرقية بأسرها من جديد ، بفضل انتصار المهدى ، ما لم يتخذ إجراء بهذا الصدد » .

ونشر « ستيد » هذه الآراء مع مقال افتتاحى جاء فيه : « لماذا لا نوفد الجنرال جوردون إلى الخرطوم مزوداً بكل السلطات ، ليفرض إشرافاً مطلقاً على الإقليم ، وينجد الحاميات ، ويفعل ما يمكن فعله لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحطام ؟ .. لقد أطلقت يد « جيمس بروك » فى ظروف مشابهة ، فى « ساراواك » — على الساحل الشمالى لبورنيو — أفلا يمكن اتخاذ الإجراء ذاته مع جوردون فى النيل ؟ » واتخذ « ستيد » لمقاله عنوان : « سرْوَكة السودان » .

وحتى تلك المرحلة ، كان من العسير تبين ما إذا كان الانفعال بشأن السودان

---

(١) يلاحظ أصرار الاستعمار — ممثلا فى المؤلف ، و « ستيد » و « جوردون » — على تصوير انتفاضة السودان على أنها جزء من صراع بين الإسلام والمسيحية . ولكن ستار الدين الذى استغله الإنجليز — برغم تباعد الزمن بين عهد جوردون وعهد المؤلف — لم يصمد طويلا ، فأطلت الأغراض الاستعمارية خلال ثقوبه ، مثل إنذار « جوردون » بأن انتصار المهدى فى السودان ، كان كفيلا بأن يحرض مصر — بل والجزيرة العربية وسوريا — على الانتقاض على الاستعمار . (المترجم)



معركة ماسيندى

نقلا عن رسم فى كتاب « الاسماعيلية » تأليف « بيكر » – سنة ١٨٧٤ .



الخديو إسماعيل

باع نصيب مصر من أسهم قناة السويس
وأدت تصرفاته لإشراف إنجلترا وفرنسا
على مالية مصر واقتصادياتها .

صادراً عن (فليت ستريت» ذاته – حى الصحافة – أو كان موحى به من الفريق « الاستعمارى » فى الوزارة ، وكان يضم أنصار جرانفيل وهارتينجتون وكل من حبذوا – من قبل – أتباع سياسة الشدة مع مصر . غير أنه لم يبق أى شك فى اتجاه الرأى العام ، بعد نشر حديث « ستيد » مع جوردون . فقد كان يطالب بعمل ما . . بحركة تعوض على الأقل هوان هزيمة « هيكس » !

ومن العسير اتهام جوردون بأنه كان ينشد الدعاية لنفسه . فهو فى حديثه مع « ستيد » قد رأى أن « بيكر » – وليس هو – خير رجل لـ « سروكة » السودان ، ولكن تجلى أن التقاء الرجلين كان مرغوباً . وتم اللقاء بهدوء فى (ديفون) . . . ولم يضيعا وقتاً دون عمل . وبينما كانت مركبة بيكر تقلهما إلى داره ، أخذ بيكر يهيب بجوردون أن ينسى الكونجو وملك البلجيك وأن يعود إلى السودان . وقيل إن جوردون كان صامتاً ، ولكن عينيه الزرقاوين كانتا تومضان تحفزاً . وكتب فى تلك الليلة رسالة إلى بيكر عرض فيها – مرة أخرى – آراءه بشأن التدخل ، فأرسل بيكر الخطاب إلى « التايمز » التى نشرته فى ١٤ يناير . وبنشره لم يعد من الممكن سياسيًّا لجلادستون تجاهل الأمر . وكان « جرانفيل » – وزير الخارجية – يهيب به أن يغير رأيه ، كما كان هارتينجتون ولسيلى – فى وزارة الحربية – يريان ألاّ بدّ من عمل ما ، وراحت معظم صحف لندن تنادى بذلك . غير أن رجلا واحداً ظل محتفظاً بجموده ، وهو « بارينج » فى القاهرة . فعندما استشاره جرانفيل بصدد إمكانية استخدام جوردون فى السودان ، رد بأن « الجنرال » لم يكن يصلح البتة . وقال إنه تحدث إلى الخديو توفيق ، وإلى رئيس الوزراء المصرى ، ولم يبد أحدهما رغبة فى جوردون . وتشبث « بارينج » بموقفه عندما ألح عليه جرانفيل ثانية .

ولكن الرأى العام فى لندن أصبح فوق « جلادستون » ووزيره فى القاهرة . وبات اسم جوردون فى كل مكان . . . وتجلى فجأة لكل من اهتم بالمسألة أن جوردون كان أفضل من يصلح للمهمة . وكانوا يعجبون : كيف لم يفكروا فيه من قبل ؟ لقد كان يعرف السودان معرفة وثيقة ، وكان نفوذه هناك عظيماً جداً ، فقد أوتى الإقدام اللازم ، وكان رهن الإشارة ويعرف ما كان مطلوباً ، وبوسعه خرق «الروتين» ووضع نهاية للتذبذب السخيف . ولكن ، كيف السبيل إلى إقناع جلادستون؟

كان لورد جرانفيل وصديقاه بوزارة الحربية على بيِّنة بالطريقة ؛ ليذهب

جوردون إلى السودان لا كقائد حربى ، ولا كحاكم ، وإنما كمجرد « مستطلع » للأحداث . فما إن يصبح هناك ، حتى يغدو فى مركز يتيح له إبداء المشورة بشأن إخراج الحاميات ، ولعله بنفوذه الشخصى يتمكن من تدبير تسوية سلمية للمسألة كلها . وهكذا يتسنى بدون نفقات ، وبدون توريط الحكومة البريطانية ، وضع نهاية لضجيج الرأى العام ، وإرضاء الجميع .

وكانت فكرة ركيكة ، إذ بنيت على تجاهل لكل من جوردون والمهدى . فإن الذين خطر لهم أن جوردون — بمجرد ابتعاده عن (هوايتهول) — يقنع بالبقاء ساكناً مقتصراً على « الاستطلاع » ،لم يكونوا يعرفونه . وما كان فى ماضيه ما يوحى للحكومة بأتفه اطمئنان إلى اعتناق هذا الرأى . وكان الأخطر من ذلك ، الاستهانة فى لندن بخطر المهدى . كان جوردون نفسه مخدوعاً كسواه ، لم يستطع أن يرى أن الموقف فى السودان قد تغير تماماً ، فى السنوات الأربع التى غابها عنه . فإن المهدى لم يكن مجرد مثير للاضطرابات ، يسانده غوغاء من أبناء القبائل ، وإنما كان زعيما لنهضة دينية ، وكان خطراً جداً . ولم تكن ثمة سوى طريقة واحدة لمعاملته ، هى عين الطريقة التى عومل بها « عرابى » فى مصر . أى إرسال حملة حربية منظمة من إنجلترا . ولكن فكرة إيفاد جوردون إلى السودان ليعمل المعجزات كانت شديدة الجاذبية فى لندن إذ ذاك ، حتى إن جلادستون نفسه انساق أخيراً ، أو بالأحرى انخدع بالوهم العام ، فوافق على استدعاء جوردون إلى لندن وسؤاله عن استعداده للذهاب ، ولكن كـ « مستطلع » بالطبع ، لا أكثر .

ويرى بعض المراقبين المعاصرين أن جرانفيل والفريق الاستعمارى فى الحكومة ، لم يكونوا منساقين لسوء إدراك لتبعات إرسال جوردون ، بل إنهم رأوا أن بريطانيا ستتورط بمجرد وصوله فى السودان ، فإن وجوده فى الخرطوم كان كفيلا بأن يجبر البريطانيين — بطريقة ما — على إرسال بعثة حربية ، فلا يلبث السودان أن ينهزم كما انهزمت مصر . ولكن هذا يبدو مبتسرا ، فما من أحد كان يريد الحرب فى تلك المرحلة ، إنما كان المراد سلامة قناة السويس وتسوية المسألة سلمياً . ولا مراء فى أن تجربة جوردون كانت تستحق المحاولة ، ولو كانت فرص نجاحها ضئيلة . فإذا فشل جوردون . . . أمكن إثارة المسألة مرة أخرى ، بشكل أقوى .

وكان « ولسيلى » هو الذى قابل جوردون فى وزارة الحربية — فى ١٥ يناير — فقال جوردون لفوره إنه كان مستعداً للذهاب . وشعر جرانفيل إذ ذاك أن برسعه أن يضغط على القاهرة قليلا ، فأرسل برقية ثالثة ، يهيب ببارينج أن يعيد النظر فى تعيين جوردون ، ورأى بارينج ألا سبيل للمضى فى المقاومة . ويقول فى كتابه « مصر الحديثة » أنه لم ينفك — بعد ذلك — يشعر بالندم على موافقته على إيفاد جوردون للخرطوم ، وأنه لم يلن إلا لأن الجميع كانوا ضده . وحتى عند ذاك ، فإنه ضمن الرد الذى أرسله لجرانفيل شروطاً محددة : فكان على جوردون أن يتلقى أوامره من القاهرة (أى منه هو) ، وأن يفهم تمام الفهم أن واجباته هى « استطلاع » أحوال السودان ، وإخراج الحاميات إذا أمكن ، ولا شىء أكثر . فإن « بارينج » — بإيجاز — لم يكن يثق فى جوردون . وقدر جرانفيل وجهة نظره ، فأقرها .

ولا يفتأ المرء يدهش للبطء الذى كان يصحب اتخاذ أى تصرف سياسى فى إنجلترا ، فى العهد الفيكتورى . فقد تحدث تأخيرات هائلة — وكثيراً ما تكون خطيرة — بينما يدور الجدال أشهراً ، بل أعواماً بأكملها ! . . وفجأة ، يتخذ قرار بعد ذلك ، فتخصص قطارات وسفن ، ويجتمع مجلس الوزراء ، وفى ساعات يُشَيَّع مسافر إلى قدره المحتوم مصطحباً حقيبة نصف مملوءة بحاجياته ، وحافظة أوراق تضم تعليمات كتبت على عجل . ففى ١٦ يناير ، سافر جوردون إلى بروكسل ليحصل على موافقة ليوبولد بإرجاء تعيينه فى الكونجو . وفى ١٧ يناير عاد . وفى اليوم التالى قابل مجلس الوزراء لأول وآخر مرة . ولم يحضر الاجتماع — فى الواقع — سوى جرانفيل وهارتينجتون وواحد أو اثنين غيرهما ممن كانوا يحضّون على سياسة فعالة . وفيما يلى رواية جوردون لما حدث :

« جاءنى ولسيلى فى الظهر وأخذنى إلى الوزراء . ودخل فتحدث إليهم ، ثم عاد وقال : « إن حكومة صاحبة الجلالة تريدك أن تفهم هذا . الحكومة مصرة على الجلاء عن السودان ، لأنها لن تضمن حكمه فى المستقبل . فهل ستذهب وتفعل هذا ؟ » قلت : « نعم » . فقال : « ادخل » . ودخلت فقابلتهم . وقالوا : « هل أخبرك ولسيلى بآرائنا ؟ » فقلت : « نعم . لقد قال إنكم لن تكفلوا حكم السودان فى المستقبل ، وأنكم تريدون أن

أذهب وأخليه » . قالوا : « نعم » . وانتهت المقابله ، ورحلت فى الساعة الثامنة مساء إلى (كاليه) » .

وهكذا تقرر كل شىء ، واغتبط كل امرئ ، وأعلنت الصحافة القرار فى اليوم التالى ، فرضيت دوائر (هوايتهول) ، واستسلم جلادستون . ويقول « بلنت » أن رئيس الوزراء أصبح — بعد ذلك — عاجزاً عن التراجع ، واشترك فى المقامرة مع الآخرين . ولقد رحل جوردون بعد سويعات من لقائه للوزراء ، وكان ولسيلى وجرانفيل ودوق كمبريدج فى توديعه فى محطة (تشارينج كروس) ، فى قطار الثامنة مساء . ولحق بهم على رصيف المحطة الكولونيل « ج. د . ه . ستيوارت » الذى كان مسافراً هو الآخر ، كمساعد للقائد . وتبين فى اللحظة الأخيرة أن جوردون لم يكن يحمل سوى بضعة شلنات ، فدفع إليه « ولسيلى » بما كان فى جيبه ، وبساعته ، وسلسلتها . ثم انطلق القطار يحمله من شتاء لندن إلى شمس البحر الأبيض المتوسط المشرقة . وحملته السفينة إلى جنوب إيطاليا ، ومنها على الباخرة (تانجور) إلى مصر .

وكان من العسير على جوردون أن يسيطر — فى رحلته البحرية — على شلاّل الأفكار والخطط الذى تدفق فى عقله . وما من مسافر أثقله التوجس بشأن نهاية رحلته مثله . فقد قفزت إلى ذهنه فجأة ذكرى عدوه القديم « الزبير » . كان الزبير خطراً ، وربما كان على اتصال بالمهدى ، لذلك أرسل جوردون إلى جرانفيل يقترح فرض رقابة على الزبير ، ونقله — إن أمكن — إلى قبرص . ثم كانت مسألة اجتيازه الصحراء إلى الخرطوم . وقرر أن يمر بالقاهرة ، ويتجه مباشرة عن طريق البحر الأحمر إلى (سواكن) ، ثم يسعى على الإبل إلى النيل . . ولكن ماذا بشأن السودان ؟ ما هى خير طريقة لتهدئة البلاد بمجرد إخراج الحاميات ؟ لماذا لا يقامُ شيوخ السودان حكّاماً ذوى استقلال إسمى ، بعد ذهاب المصريين ؟ لقد اتُّبع هذا النظام مع مهراجات الهند . وكتب جوردون مذكرة فى هذا . ولكن لابد من معالجة أمر المهدى أولا . لقد كانت لجوردون طريقة فى معاملة المتمردين فى الماضى ، فلماذا لا يمارسها ثانية ؟ لينطلق لمقابلة المهدى فى معقله فى الصحراء ، ويتفاهم معه بالعقل والحجة ، ويقنعه بتسريح أتباعه من أبناء القبائل . . ومستقبله ؟

أنه لم يكن يعتزم أن يعود إلى أوربا ، بمجرد استكمال مهمته ، ولا أن يبقى بالجيش البريطانى . فهل يبحر بالباخرة النيلية من الخرطوم إلى مديرية خط الاستواء ، حيث كان « أمين » بعد صامدا ، ويتولى شئون المديرية ؟ إذا لم تكن إنجلترا راغبة فى هذا ، فلعله يروق لملك البلجيك ، وتضم مديرية خط الاستواء إلى الكونجو . بقيت فكرة أخيرة : إذا كان عليه أن يؤدى مهمته فى الخرطوم بنجاح ، فلابد له من مركز رسمى . لابد أن يعينه الخديو توفيق حاكماً عاماً مرة أخرى . ولكنه كان قد تشاجر مع توفيق . فكان هذا أدعى لأن يتحاشى القاهرة . . وبوسع « بارينج » تدبير الأمر .

ولم تستغرق السفينة « تانجور » أكثر من ثلاثة أيام فى اجتياز البحر الأبيض المتوسط بالمسافر المتعجل ، ولكن هذا الوقت كان كافياً ليشعر بارينج ببعض — إن لم نقل كل — الخطط التى كانت تدور فى ذهن جوردون . ولم يكن يرتاح لأى منها . كان على استعداد لفرض رقابة على الزبير ، ولم يكن لديه مانع من استعادة جوردون لقب الحاكم العام ، ولكنه لم يكن راغباً بالذات فى انطلاقه عبر الصحراء لمقابلة المهدى ، فقد لا يقدر لأحد أن يسمع عنه شيئاً البتة لو فعل . كذلك لم تكن خطة جوردون للإبحار إلى مديرية خط الاستواء أقل خطراً ، فالأفضل أن يبقى بالخرطوم ، ليتسنى كبح جماحه بالبرقيات ، على الأقل . أما اعتزامه الانطلاق رأساً إلى الخرطوم بطريق البحر الأحمر ، فكان مستحيلا ، لأن المهديين — بقيادة عثمان دِ نْجة — اجتاحوا الإقليم الذى بين الساحل والنيل ، فلم يعد بوسع أحد اجتيازه . وكانت الطريق الوحيدة لبلوغ الخرطوم ، هى طريق النيل ، من القاهرة . وقرر « بارينج » أن يتحدث إلى جوردون ، فلم يكن ثمة مندوحة من ذلك .

وعند وصول السفينة إلى بورسعيد ، صعد إليها رسول بخطاب إلى الجنرال جوردون ، يدعوه إلى القاهرة فوراً . ولم يكن بوسعه أن يرفض ، إذ كان يتلقى أوامره من « بارينج » ، لذلك انتقل إلى قطار خاص : شخص صغير الجسم ، وحيد ، فى معطف أسود ، لا يرافقه خدم ولا أمتعة تذكر . وبعد سويعات ، كان مع القنصل العام . وكانت قد انقضت سبع سنوات على آخر لقاء بينهما ، وكل منهما على استعداد لبدء علاقة جديدة . وما كان لديهما وقت للحديث عن عدم الثقة

المتبادلة بينهما ، حتى لو شاءا أن يمحصاه ، سيما أن بارينج – الذى كان حلقه ملتهباً فلم يكد يقوى على الكلام – لم يكن تواقاً لغير المساعدة . وكانت الساعات الثمانى والأربعون التالية حافلة : كان لزاماً أداء زيارة رسمية لتوفيق أولا ، وقد مرت بخير ، إذ اعتذر جوردون عن الانتقادات التى أبداها فى الماضى ، وتلقى تأكيداً بشأن تعيينه حاكماً عاماً . وكان ضرورياً – بعد ذلك – أن يضع جوردون وبارينج تحديداً دقيقاً لمهمة الأول ، فقد وقعت أحداث كثيرة فى الفترة التى لم تكد تبلغ أسبوعاً ، مذ غادر جوردون لندن . . فمن مجرد « مستطلع » أصبح « حاكماً عاماً » ، وبدأ يتجلى تدريجاً – فى لندن والقاهرة – أن مجرد عملية « الاستطلاع » لا تتكافأ مع القضية ، فقد تجمعت فى هذه الأثناء معلومات كافية ، وحان الوقت لاستخلاص الحاميات المصرية من السودان ، وإلا فلن يقدر لها أن تبرحه ! . . وكان جوردون هو الرجل الذى يستطيع تدبير الإجلاء ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يترك السودان بعد ذلك للمهدى ، بل لابد من أن يترك جهازاً للحكم . وكانت إعادة نظام الشيوخ وزعماء القبائل القديم لا تكاد تحل الموقف ، فلابد من سلطة تربطهم معاً فى نوع من الاتحاد . وهنا عرض جوردون اقتراحاً أذهل الجميع لفورة : لماذا لا يعهد بهذه السلطة للزبير ؟

ولكن ، ألم يكن الزبير عدو جوردون اللدود ؟ ألم يصفه بأنه « أكبر تاجر للرقيق ظهر فى الوجود » ؟ ألم يرغب فى إقصائه إلى قبرص ؟ لقد نبذ الجنرال كل هذه النقاط ، مبيناً أن ظاهرة خارقة قد حدثت فبدلت كل شىء . ذلك أن المصادفة جمعته وجهاً لوجه بالزبير فى إحدى زياراته الرسمية للقاهرة ، فإذا بشعور خفى يتملكه بأن بوسعه أن يركن إليه . وكتب جوردون لبارينج يقول : « لا أستطيع أن أفسر بدقة سر شعورى هذا نحوه ، ولا لماذا أوقن أن ذهابه « معى » كفيل بتسوية مسألة السودان لمصلحة حكومتى صاحبة الجلالة ومصر . وأنا على استعداد لتحمل مسئولية هذه التوصية » . . ثم اقترح جوردون أن ينضم « بارينج » و « نوبار باشا » – رئيس الوزارة المصرية – إليه فى اجتماع آخر بالزبير ، ليتبينا ما إذا كان يساورهما بدورهما ذلك الشعور الخفى ؟ !

وكتب بارينج عن هذا اللقاء : « لست أركن إلى آراء تقوم على مشاعر خفية » .

ومع ذلك فلم تكن معارضته مطلقة فى تعيين الزبير ، الذى كان — باستثناء جوردون — أقدر الإداريين الذين تولوا السودان بلا منازع . وقد تم الاجتماع فى ٢٦ يناير ١٨٨٤ ، ولابد أن المناسبة كانت أليمة للجميع ، فقد رفض الزبير أن يصافح جوردون لأنه كان مسئولا عن إعدام ابن الزبير . وتأثر بارينج بهذا حتى إنه كتب : « كان المنظر محزناً وطريفاً . كان كل من الجنرال جوردون والزبير يعانى انفعالا عظيما ويتكلم بحرارة » . وأنكر الزبير كل الإنكار أنه حرض ابنه على التمرد ، فقرر جوردون أن الدليل على صحة معلوماته هو رسالة عثر عليها مع جثة سليمان ! . . وما لبث الزبير أن بارح الحجرة ، وتقرر إرجاء مسألة تعيينه إلى حين ، وعُين فى مكانه من أعوان جوردون شيخ آخر كان يعيش لاجئاً فى القاهرة ، هو الأمير عبد الشكور . وكان أبعد الناس عن أن يكون « زبيرا » آخر ، إذ كان ليناً غير مستنير الذهن ، يقبل على الخمر إلى حد ما ، ولكن سيرته السياسية كانت نظيفة . وكان سليل سلاطين (دارفور) الأصليين ، فرؤى تعيينه فى تلك المديرية كأول الحكام المستقلين ، وزود بألفى جنيه ، وسترة موشاة بالقصب ، وأكبر وسام وُجد فى القاهرة .

وكان الكولونيل ستيوارت — وكيل جوردون فى القيادة — عسكريًّا اسكتلنديًّا ، خدم فى السودان من قبل . ويقر « بلنت » بأنه كان نشيطاً وقادراً . ولكنه يصفه بأنه أوتى « كل ما للضابط الإنجليزى من ازدراء للأهالى » . بينما وجده بارينج رجلا هادئاً ، وصبوراً ، جديراً بالإعجاب ، ذا فهم واضح للسياسة لدى المسلمين ، فكان خير قرين لجوردون . واتفق على أن يكون له اتصال مباشر ببارينج فى القاهرة .

واستكملت الإجراءات الباقية بسرعة . فمنح جوردون قرضاً بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ جنيه ، وَوْعداً بمزيد إذا دعت الحاجة . وأُعِد « فرمانان » ، أعلن أحدهما تعيينه حاكماً عاماً ، وصرح الآخر باعتزام الخديو الجلاء عن السودان . وقد جاء فيه : « قررنا أن نعيد لعائلات ملوك السودان استقلالها السابق » . وترك لجوردون تحديد موعد إذاعة هذين الفرمانين إذا رأى نشرهما على السودانيين . وأخيراً ، كرر جوردون تأكيده بإقراره سياسة الجلاء وتعهده بتنفيذ ما قد يصدر إليه من تعليمات من بارينج

والحكومة المصرية . وعدل عن السفر بطريق البحر الأحمر ، ليغادر القاهرة بقطار خاص إلى الجنوب . ثم واصل السفر بالنهر ثم بالإبل إلى الخرطوم .

وكان سفره فى مساء ٢٨ يناير ، بعد أن قضى ثلاثة أيام بالقاهرة . وكان ثمة منظر مضحك فى اللحظة الأخيرة . كان الجو بارداً ، ومصابيح المحطة خافتة . وقد أضيفت للقطار مركبات لتحمل زوجات الأمير عبد الشكور الثلاث والعشرين ، وأمتعتهن . وتأخر القطار فترة أخرى إذ اختفت السترة الموشاة بالقصب (التى منحت للأمير) ، ثم وجدت فى النهاية ، وتحرك القطار بهذا الخليط العجيب من الركاب .

وما إن غاب « جوردون » عن بصر « بارينج » ، حتى تبين هذا أنه لم يغب عن ذهنه . فقد كانت البرقيات سلاحاً ذا حدين ، يمكن استعماله لإصدار التعليمات للحاكم العام ، ولكنه يحمل كذلك ردود الحاكم العام . وكانت هذه الردود متضاربة . فقد كان جوردون يستخدم البرق كما يستخدم معظم الناس التخاطب ، فلا تكاد تمر بخاطره فكرة حتى يبادر إلى الإبراق بها لبارينج : فهو يعتزم هذا ، وهو يعتزم ذاك ، وهو يعتزم أمراً ثالثاً، ثم هو لن يفعل شيئاً من هذا ، ولتُدْرج برقياته السابقة فى أدراج النسيان . وما إن غادرت الجماعة القاهرة ، حتى بدأت أولى هذه البرقيات تصل، وسرعان ما أصبحت بين عشرين وثلاثين برقية يومياً . وكان بارينج يتركها تتراكم من الصباح الباكر إلى ما بعد الظهر — وهو مرهق — حتى إذا فرغ من أعماله ، فضها معاً ، وأزاح جانباً تلك التى تتعارض مع بعضها البعض بجلاء ، واقتصر على الرد على ما كان يراه بحاجة إلى رد ، ولم يبعث إلى لندن إلا بالنتف التى كان يراها جديرة بالإرسال من بين هذا السيل . وقد أبرق إلى جوردون ذات مرة ، بعد محصول يوم متعب :

> **« إننى أشد ما أكون رغبة فى مساعدتك ومساندتك فى كل شىء ، ولكنى أرى من العسير جداً إدراك ما تبغى . أرى أن خير ما تفعله هو أن تعيد التفكير ثانية فى المسألة برمتها ، ثم تبين لى فى برقية واحدة ما توصى به ، حتى يتيسر لى — إذا دعت الضرورة — أن أطلب تعليمات من حكومة صاحبة الجلالة » .**

ولقد بذل « ستيوارت » قصارى وسعه لكبح هذا السيل من البرقيات ، وكتب

لبارينج يقول : « قلت لجوردون بالأمس أن برقياته العديدة قد تربكك ، ولكنه أجاب بأنه إنما يعطيك مختلف نواحى المسألة الواحدة » . ومع ذلك ، فإن بارينج يعترف بأنه كثيراً ما كان يختلط بفيضان كلمات جوردون قدر كبير من الحقيقة وبعد النظر ، وكثيراً — أيضاً — ما كان يبعث بمعلومات مذهلة .

وبلغت الجماعة (كوروسكو) القريبة من حدود السودان ، فى أول فبراير سنة ١٨٨٤ ، ثم (بربر) — جنوب الانحناء الأكبر فى النيل — فى ١١ فبراير ، ثم الخرطوم بعد أسبوع . وكانت فى كل محطة أزمات ، بل إن جوردون كان قد تشاجر مع ستيوارت ومع الأمير عبد الشكور قبل بلوغهم السودان. وكان ستيوارت مضطراً إلى البقاء ، أما الأمير فقد غادر القطار مع زوجاته فى أسوان وهو غاضب. وقد يمم — بعد قليل — إلى مديرية (دنقلا) ، لكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة ولم يسمع له ذكر بعد ذلك .

أما الأزمة التى قامت فى (بربر) فكانت أكثر خطورة . كانت بربر صامدة ضد المهدى ، كما كانت نقطة حيوية للمواصلات النيلية . وكان من أول الاعتبارات الجديرة بالاهتمام استبقاء ولائها ، سيما أن القبائل المحيطة بها عرفت بتذبذبها فى موالاة مصر ، فكانت بحاجة إلى تشجيع ، وإلى بيان من جوردون يؤكد اعتزامه مقاومة المهدى . ولكن جوردون آثر — بدلا من ذلك — أن يجمع كبار الشيوخ ، وأن يبدى لهم ثقته ، فيصارحهم بأن مصر قررت الجلاء عن السودان . كما أذاع أنه لن يمضى فى التدخل فى أمر الرق « فكل من يمتلك عبيداً ، سيكون له كل الحق فى خدماتهم ، وكل السيطرة عليهم . وهذا الإعلان دلبل على تسامحى نحوكم » .

ويقول ستيوارت إن جوردون ظل طيلة الليل يقلب الفكر قبل الإقدام على هذه الخطوة الجريئة ، وكان يعتقد أن الشيوخ يغتبطون باستقلالهم ، فيتصلبون فى عزمهم على مقاتلة المهدى . أما الإشارة إلى الرق ، فقد اعتبرها « مجرد كلام » ، لأنها لم تكن تكلفه شيئاً . ذلك أنه كان — إذ ذاك — أعجز ما يكون عن أن يفعل شيئاً لإيقاف تجارة الرقيق . كما كان يأمل أن يزداد استمالة للشيوخ بتسامحه . ولكن النتائج كانت على النقيض فى الواقع . إذ لم تكن القبائل راغبة فى التعرض لنقمة

المهدى إذا ما رحل المصريون . فقد كانوا يعرفون قوة المهدى (ولم يكن جوردون قد عرفها بعد) فشرعوا يتقربون إليه والفرصة بعد سانحة .

وواصل جوردون سفره إلى الخرطوم ، فدخلها فى ١٨ فبراير ، واستقبل بحرارة . فإن السنوات الخمس التى غابها لم تمح من ذاكرة الشعب حزمه ، وكرمه ، وجاذبية اسمه . وكانت الحكومة البريطانية على حق – من هذه الناحية – فى إيفاده إلى الخرطوم ، فما كان لرجل على الأرض مثل نفوذه على المدينة . واستقر فى « السراى » فوراً ، وكأنما انطوت السنوات الخمس فجأة . وأبرق « باور » – القنصل البريطانى فى الخرطوم – إلى بارينج :

« وصل جوردون صباح اليوم فقوبل بمظاهر ترحيب رائعة من الأهالى . والأحوال هنا – منذ سُمع بمجىء جوردون – تبشر كل البشرى بقرب عودة السلام لهذا الجزء من السودان . وقد قوبل خطابه فى الشعب بأعظم تحمس » .

ولقد فتحت أبواب المدينة على سعتها ، وأبيح الخروج لكل من كانوا يرغبون فى مغادرتها والانضمام للمهدى . وكانت التدابير قد اتخذت مقدماً لإجلاء أول دفعة من الجنود المصريين ، وأوفد رسول إلى المهدى يعرض الصلح . وحملت برقية ثانية من « باور » مزيداً من الأنباء الطيبة إلى بارينج . فقد أنشأ جوردون فى الخرطوم مجلساً من اثنى عشر من الأعيان العرب ، ليعاونه . وأحرقت كل سجلات ما كان على الناس من ديون ، وكل أدوات التعذيب فى دار الحكومة . وحطم الكولونيل ستيوارت أغلال كافة أسرى الحروب ، والمدنيين ، والذين أوفوا عقوباتهم من زمن . .

« أصبح كل شىء هنا مأموناً للجنود والأوربيين . فإن « جوردون » يمنح الأهالى أكثر مما كان يرتقب من المهدى » .

وكان جوردون نفسه قد أبرق قبل أيام قلائل قائلا : « أعتقد ألاّ داعى لأن تتجشموا مزيداً من القلق بشأن هذا الجزء من السودان . فالناس ، كبيرهم وصغيرهم ، مسرورون من أعماقهم بالتحرر من اتحاد (مع مصر) لم يسبب لهم سوى

الأسى [١] » . وهكذا كان الموقف فى الخرطوم مليئاً بالأمل ، فى شهر فبراير ، والجو لم تشتد بعد حرارته . وقد بث جوردون الثقة فى كل مكان منذ أولى لحظات وصوله ، ولم يتحرك المهدى ! . . ولا شك أن هذه كانت بشرى فى حد ذاتها ، بل لعلها كانت إشارة إلى أن المهدى قد تبين أنه لقى نده أخيراً ، وقد يرتضى الصلح . ولكن فبراير لم يكد ينتهى ، ويحل مارس ، حتى فترت لهجة التشجيع فى البرقيات التى تراكمت على مكتب « بارينج » بالقاهرة . وبدأت تراود جوردون أفكار أخرى بصدد سياسة الجلاء . أفمن الممكن ترك هؤلاء القوم للفوضى التى لابد أن تتفشى إذا ما تركوا بلا حاكم ؟ أفهذا عمل إنسانى ؟ أهو من الحكمة فى شىء ؟ ما إن يبرح جوردون السودان حتى ينقض المهدى على الخرطوم ، ثم يغدو قادراً على تهديد مصر . ولم تعد فرص الوصول إلى اتفاق مع المهدى تبدو لامعة كما كانت من قبل . وأصبح جوردون يكتب فى تقاريره :

« إذا أريد لمصر أن تبقى فى هدوء ، فلا بد من سحق المهدى . والمهدى أبعد ما يكون عن الشعبية ، ومن الممكن سحقه بالحرص ، والوقت . وتذكروا أنه إذا ما وقعت الخرطوم فى يد المهدى ، فستزداد المهمة صعوبة بمراحل ، ولكنكم ستكونون مضطرين لتنفيذها من أجل سلامة مصر . فإذا قررتم القضاء على المهدى ، فارسلوا ١٠٠,٠٠٠ جنيه أخرى ، وأوفدوا ٢٠٠ جندى هندى إلى وادى حلفا ، وضابطاً إلى دنقلا بزعم البحث عن مقر للجنود . . وأكرر أن الجلاء ممكن ، ولكنكم ستتأثرون فى مصر ، وستضطرون للدخول فى إجراءات أكثر خطورة بكثير ، لحراسة مصر . أما الآن ، فمن السهل نسبياً القضاء على المهدى » .

وكان مقدراً أن تنقضى أربع عشرة سنة قبل أن تتحقق النبوءة التى تضمنتها هذه الكلمات . على أن كل شىء كان يتوقف — فى ذلك الحين — على كيفية اجتياز الأزمة القائمة ، دون ترك فراغ (أو فوضى) فى السودان . وعاد جوردون

---

(١) غير خاف أن مثل هذا الشعور العدائى — لو صح — لم يكن موجهاً إلى الشعب المصرى المغلوب على أمره ، بل كان موجهاً إلى حكامه « الأجانب » المسئولين عن تلك الحملات الحربية التى أرسلت إلى السودان ، سواء أكانوا : إسماعيل ، أم بيكر أم سواهما ممن رسموا أو نفذوا السياسة المصرية فى السودان فى تلك الأيام . (المترجم)

ثانية إلى خطة استخدام « الزبير » . أو لم يكن « الزبير » هو الرجل الأمثل لمنصب الحاكم العام ؟ لابد أن سنوات النفى العشر — فى مصر — قد أصلحته كثيراً . وكان بعد ذا نفوذ كبير فى السودان يفوق ما كان لأى رجل فى مصر . ولم لا يُمَكَّن من حكم السودان ، أوجزء كبير منه — على الأقل — باسم الخديو؟

وكان « بارينج » ميالا للموافقة . وقد عرض الأمر على جرانفيل فى لندن ، لكنه تلقى رداً مقتضباً بأن « الرأى العام فى هذه الدولة لن يطيق تعيين الزبير باشا » . ولعل هذا كان ينهى الأمر ، لو كان بارينج موظفاً عادياً ، ولكنه كان بعيداً عن هذا كل البعد ، ولا يصور مدى صلابة واستقامة شخصيته قدر الصراع الذى شرع يخوضه مع الوزارة البريطانية من أجل جوردون ! . . كان صراعاً يدعو إلى الإعجاب ، فقد كان موقف بارينج نفسه ضعيفاً جداً . فهو قد عارض استخدام الزبير فى البداية ، ثم اضطر للاعتراف بأنه أصبح مقتنعاً بوجهة نظر جوردون . وكان الاقتراح ينطوى على أعظم خطر ، فمن الذى كان يضمن ألا ينحاز الزبير لجانب المهدى ، أو ألا يسعى لإيذاء جوردون — الذى كان يكرهه — بمجرد وصوله إلى الخرطوم ؟ ولم يكن بارينج بالذى يهوى المجازفات ولكنه كان مستعداً لهذه المجازفة ، لأنه رأى — بأجلى مما كان أى امرئ فى إنجلترا يرى — أن الموقف كان يزداد استفحالا . ولم يكن ثمة غنى البتة عن الاحتفاظ بولاء القبائل فى شمال الخرطوم ، وإلا انعزلت المدينة ، وكان الزبير هو الأوحد الذى أوتى نفوذاً بين شيوخ تلك المناطق . ولقد أحسن « ونستون تشيرشل » تلخيص المسألة — بعد ذلك بكثير — حين كتب : « كان الباشا (الزبير) وغداً ، ولكن لم يكن ثمة غنى عنه » . ولم يكن لبارينج ما يدعوه للانحياز لجوردون لأسباب شخصية ، فقد ظل ينظر إلى جوردون بعدم انسجام عقلى ، دون تحامل . ولم يكن يلقى من جوردون — فى تلك اللحظة الحرجة — أية معاونة ، إذ أصبحت برقياته أكثر انفعالا من ذى قبل . وكانت عبارات مثل « سحق المهدى » كفيلة بإثارة نفور الوزارة البريطانية ، ولكنها — مع ذلك — ظلت تتدفق من الخرطوم . وما لبث جوردون أن أعلن أنه يؤثر الاستقالة ، ما لم يظفر بما كان يبغى . وراح « بارينج » يمحص الحجج بصبر ، ثم عرض

القضية على مجلس الوزراء مرة أخرى ، فسفهها المجلس من جديد . وإذا ذاك عاد بارينج إلى الهجوم ، فأبرق لجرانفيل : « أجرؤ على القول بأن أية محاولة لتسوية المسائل المصرية على ضوء الشعور الشعبى الإنجليزى سينجم عنها ضرر مؤكد » . . .

ولعل بارينج كان قميناً بأن يكسب الجولة فى النهاية . فقد قال جلادستون أنه بات مستعداً لأن يجرب « الزبير » ، ولو اضطر إلى مواجهة التصويت على الثقة فى مجلس العموم . واستشيرت الملكة فيكتوريا فوافقت . ولكن أعضاء الوزارة الآخرين انزعجوا كثيراً ، إذ كان الرأى العام قد دُعى من قبل إلى « ابتلاع » بيان جوردون الذى أجاز فيه الرق فى السودان ، فكان من الكثير — بعد ذلك — توقع أن يقبل استخدام « أعظم صائد للعبيد ، ظهر فى الوجود » . كان هذا خليقاً بأن يثير ضجة لا تأمل أية حكومة فى أن تتغلب عليها . ولو أن جلادستون دعى لتبنى سياسة لإجازة البغاء فى إنجلترا ، لما كان موقفه أكثر حرجاً !

ومع ذلك ، فلم يكن من المستحيل أن يرتضى الرأى العام التعيين إذا ما وضحت له الأسباب . وكانت الرسائل المتبادلة بشأن الزبير قد كتمت حتى ذلك الحين ، ولم يكن من العسير جداً عرض الاقتراح بحذر وعناية ، عن طريق مجلس العموم والصحافة .

واختار « جوردون » هذه اللحظة بالذات ليهدم كل ما عمله بارينج بدهائه ودأبه . ففى حنقه من جراء التأخر ، استدعى « باور » — وكان مراسلاً لصحيفة « التايمز » إلى جانب أنه قنصل لبريطانيا فى الخرطوم — وعرض عليه قصة المفاوضات الخاصة بالزبير بأكملها . وإن هى إلا ساعات ، حتى هبت العاصفة فى إنجلترا . وأجمعت جمعية مكافحة الرق على أن استخدام الحكومة البريطانية للزبير « مهانة لإنجلترا وفضيحة لأوربا » . ولم يبطىء المحافظون المعارضون فى انتهاز الفرصة الرائعة لمهاجمة الحكومة . وتجلى للزبير فى القاهرة أن بوسعه أن يتشدد فى مساومة بارينج ، وقد بات بهذه الأهمية للعالم . وأصبحت محاولات بارينج مع مجلس الوزراء غير ذات نفع ، فقد رد عليه المجلس — فى ١٦ مارس — برفض نهائى وحاسم . وران على الخرطوم أول ظل حقيقى للمأساة التى كانت مقبلة .

وكان ثمة سبب آخر للضجة فى لندن . فقد نشب القتال بسيط — ولكنه عنيف — بين جنود بريطانيين وبين أبناء القبائل بقيادة « عثمان دِ نْجة » ، على ساحل البحر الأحمر فى السودان . وكانت مسألة مبهمة ولا تبعث على الارتياح إطلاقاً . فإلى الداخل ، عند سواكن ، كانت ثمة حامية مصرية عزلتها قوات عثمان دنجة ، فأوفدت من القاهرة — فى ديسمبر سنة ١٨٨٣ — فصيلة صغيرة من حوالى ٣٠٠٠ جندى مصرى غير مدرب ولا مجرب لتحريرها . وكان قائد هذه القوة هو الجنرال « فالنتين بيكر ، أحد الأخوة الصغار للمكتشف « بيكر » . وكان من ذلك الطراز الذى لا يمكن ظهوره فى غير « إنجلترا العهد الفيكتورى » . وقد اكتسب إلى جوار مواهب أخيه وولعه بالمغامرة ، صفة أخرى ، هى الإقدام إلى درجة التهور . وقد حارب — كضابط قدير فى سلاح الفرسان — فى جنوب أفريقيا والقرم . وفى سن السابعة والأربعين ، وقد أوشك أن يبلغ الذروة فى الجيش ، انهار مستقبله فجأة ، وبشكل أليم . فقد أدين بعدوان فاضح على شابة ، فى إحدى مركبات السكة الحديدية . ولم ينبس بكلمة للدفاع عن نفسه فى المحاكمة ، ولا يبدو ثمة داع لقسوة العقاب الذى تلقاه : الغرامة والسجن عاماً ؛ وقد فصل من الجيش . حتى إذا بارح السجن ، رحل إلى تركيا حيث عمل جندياً مرتزقاً ، فأبلى فى الحرب ضد روسيا بلاء رفعه إلى منصب حاكم أرمينيا ! . . وفى سنة ١٨٨٢ ، وصل إلى القاهرة ليتولى قيادة شرطة « بلوكات النظام » التى كانت حديثة التكوين . ومن هذه القوة كان الجنود الذين قادهم إلى البحر الأحمر .

وكان من الطبيعى أن بارينج اشتم خطراً فى هذه البعثة ، إذ أدرك أن بيكر خرج ليعيد نفسه إلى الجيش البريطانى ، وذلك بالاستماتة الرعناء فى القتال . ومن ثم دعاه إليه قبل مبارحته القاهرة ، وتشدد فى توصيته بألا يزج بهم جميعاً فى نكبة كالتى حاقت بهيكس . ولكن تعليماته طارت فى الهواء بمجرد وصول بيكر إلى (سواكن) ، فسيقت القوة الصغيرة من المصريين إلى معركة مع أبناء القبائل ، ألقوا فيها السلاح عند أول صدمة تلقوها من العرب ، فذبحوا عن آخرهم فى بضع دقائق ، واستطاع بيكر وحده — تقريباً — أن ينجو بنفسه .. وكان ذلك فى

٤ فبراير ١٨٨٤ ، قبل وصول جوردون إلى الخرطوم بأسبوعين ، فإذا انتباه الرأى العام — الذى كان مركزاً على السودان — يتحول فجأة إلى المشتركين فى القتال . كان قيام ثورة فى السودان أمراً سيئاً ، ولكن تعرض طريق البحر الأحمر إلى الهند للخطر ، كان أسوأ مغبة. فصدرت الأوامر للأميرال « هيويت » بأن يقود أسطوله إلى سواكن ، فيهبط هناك ، على أن تتبعه سريعاً قوة بريطانية من ٤٠٠٠ رجل بقيادة الجنرال « جيرالد جراهام » . وأوقعت معركتا جراهام بالبدو انتقاماً رهيباً . فجرح عثمان دنجة ، وقتل عدة آلاف من رجاله . ولكن جذوة العزم خبت فى لندن بعد ذلك . وتحامل جلادستون ، فأعلن أنه لم يكن راغباً فى معارك أخرى بالسودان . فلقد هُزِم العدو على الساحل ، وفى هذا الكفاية ، وعلى الجنرال جراهام أن يقيم حامية مصرية فى سواكن ثم ينسحب .

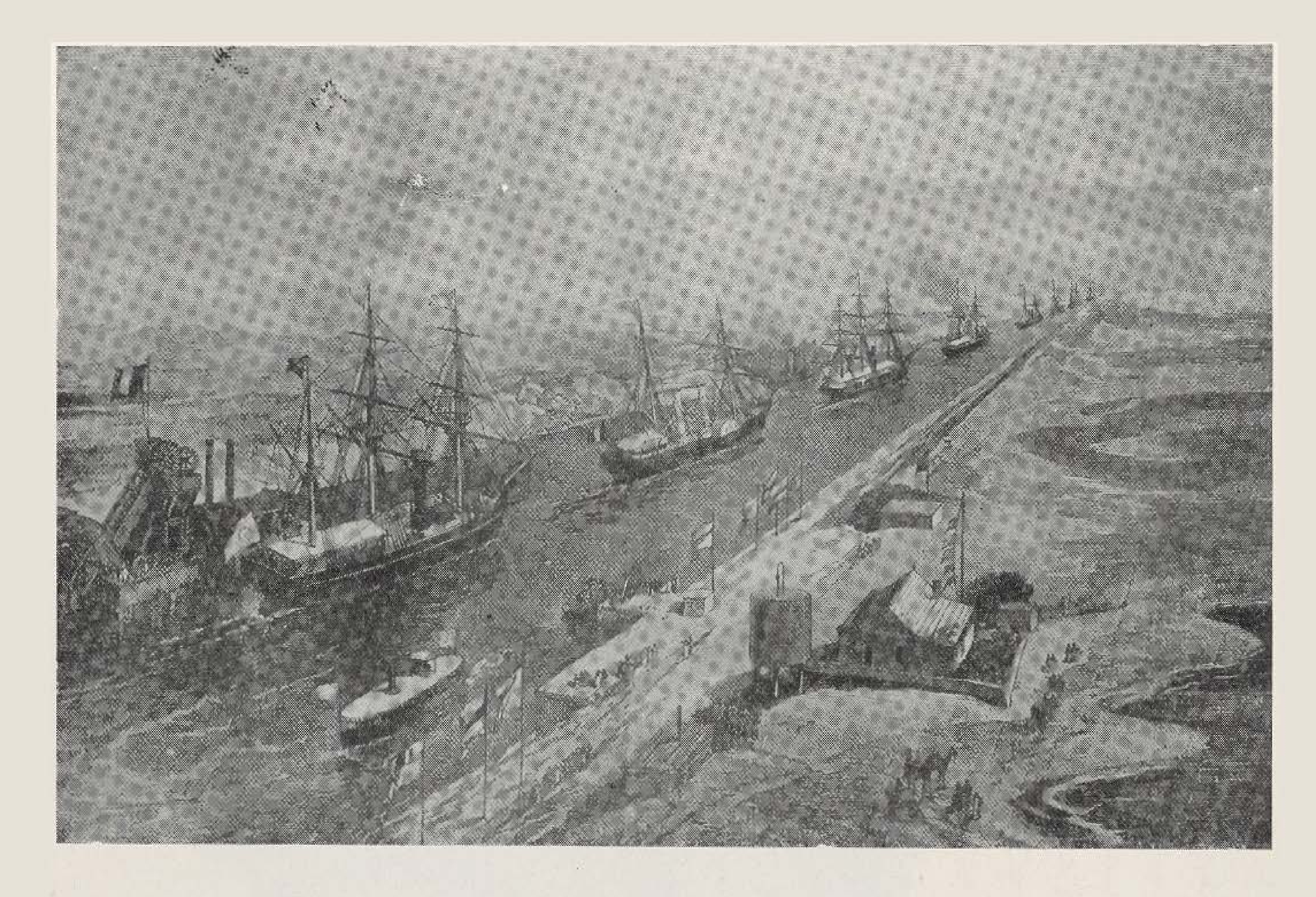
ولم ينزعج جوردون كثيراً — فى الخرطوم — بهذه الأحداث . فلقد كان بطبيعة الحال يرجو أن يتسنى فتح طريق بين سواكن والنيل ، عند بربر . ولكن الخرطوم لم تكن لتتأثر تأثراً يذكر — بوجه عام — بما حدث على ساحل البحر الأحمر ، كما كتب جوردون إلى بارينج . وكانت مسألة الزبير تشغل ذهنه ، وفى غمرة ضيقه شرع يرسم خطة لإخلاء الخرطوم وإجلاء قوته إلى (بربر) . ولم يكن — فى دخيلته — ينتوى تنفيذ هذه الخطة ، ولكنها كانت مجرد حيلة أخرى لتخدير بارينج ، والتغرير بالسياسيين فى إنجلترا . ولكن تطوراً حدث فى ١٣ مارس ، جعل من غير الضرورى لأى منهم أن يشغل بالزبير ، بل إن مسألة احتلال بربر حفظت مؤقتاً ، إذ ثارت القبائل فى شمال الخرطوم ، موالية للمهدى ، وسدت طريق التجارة المصرية على النهر . وقطع الخط البرقى ، وأصبحت الخرطوم فى عزلة !

الفصل الثالث عشر

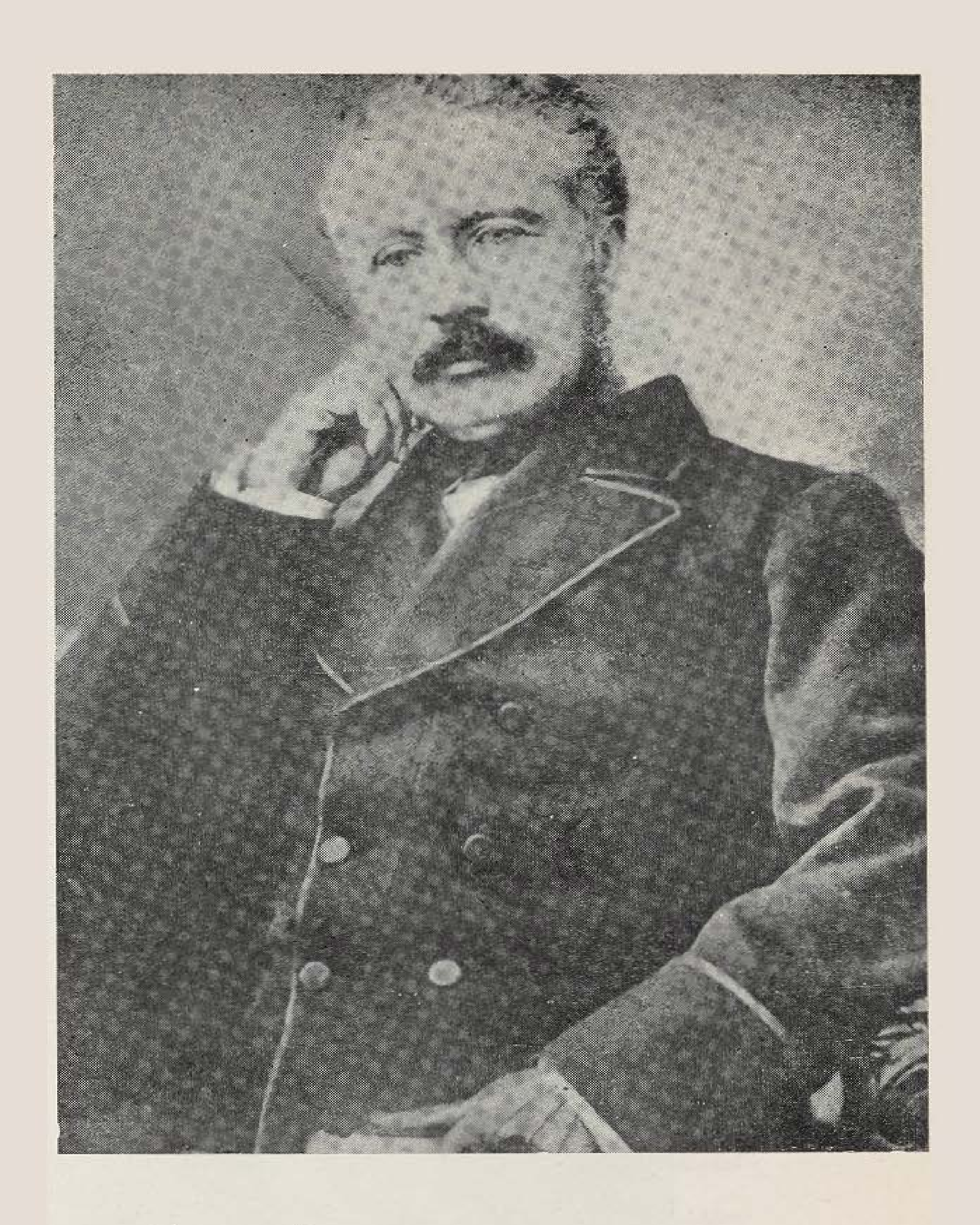
سطح يطل على منظر

سادت السودان سكينة مطردة العمق ، من مارس سنة ١٨٨٤ ، حتى يناير من العام التالى . وكان المعروف أن جوردون ظل بالخرطوم ، وأن المدينة لم تكن قد سقطت فى أيدى الأعداء ، لأنه كان يُوفَّق إلى إيفاد عدّائين من الأهالى يحملون أنباءه من آن إلى آخر . ولكن الرسائل التى حملوها كانت مكتوبة على قصاصات صغيرة من الورق ، ولم تكن تحوى سوى أوجز المعلومات . وما لبث أن عُلم نبأ استسلام كل من « سلاتين » فى دارفور ، و « لبتون » فى بحر الغزال ، إلى المهدى ، ولم ينجوا من الإعدام إلا باعتناق الإسلام . كذلك كان المعتقد أن الأب « أورفالدر » وفريقاً من القساوسة والراهبات الذين كانوا ملحقين بالإرسالية النمسوية فى دارفور ، قد وقعوا أيضاً فى أسر المهدى ، مع عدد من التجار اليونانيين الذين هوجموا فى المراكز النائية . أما « أمين » فظل معتصما بمديرية خط الاستواء ، وكذلك صمدت الحاميتان المصريتان فى (كسلا) و (سنار) ، بالقرب من الحدود الحبشية . ولكن (بربر) سقطت فى شهر مايو ، وأصبح سلطان المهدى يشمل منطقة تعادل مساحة فرنسا وإسبانيا وألمانيا معاً !

ولم يكن مأزق جوردون فى الخرطوم مدعاة لليأس المطلق ، فقد كان معه فى المدينة حوالى ٣٤,٠٠٠ شخص ، بينهم ٨,٠٠٠ جندى ، لعلهم لم يكونوا أهلاً لأن يعتمد عليهم اعتماداً مطلقاً ، ولكنهم كانوا مسلحين ببنادق ، كما كان لديهم اثنا عشر مدفعاً ، وتسع سفن (رفاصات) ، تمكنهم من القتال على النهر . وكان مليونا « مشط » من الذخيرة قد اختُزِنت فى المدينة قبل انعزالها ، كما كانت « الترسانة » قادرة على إنتاج ٤٠,٠٠٠ « مشط » أخرى كل أسبوع . وكان جوردون يرى — فى شهر مارس — أن لديه أغذية تكفى لستة أشهر ، ولم تكن ثمة مشكلة بصدد الماء ، نظراً لوجود النيل . ولقد انخفض ما فى الخزانة من أموال إلى بضعة آلاف من الجنيهات ، ولكن جوردون طبع عملة ورقية جديدة .



موكب السفن فى الاحتفال بافتتاح قناة السويس .



آخر صورة للجنرال جوردون
وقد التقطت فى سنة ١٨٨٤ .

ولم تكن الخرطوم مكاناً يستحيل الدفاع عنه ، فقد كان يحميها النيل الأزرق شمالا ، والنيل الأبيض غرباً . وكان اتساع النيل الأبيض – حتى فى انخفاضه – يبلغ نصف الميل ، فإذا حرصت « الرفاصات » على البقاء فى منتصف مجراه ، هان خطر حملة البنادق من البدو عليها من الشاطئ ، سيما وأنها كانت مكسوة بطبقة فولاذية خفيفة . وعُينت حامية مصرية قوية فى قلعة (أم درمان) ، على الضفة الغربية للنيل الأبيض . أما الريف المحيط ، فكان فى أيدي قبيلة « الشايقية » التى ظلت معادية للمهدى . وكانت نقطة الضعف فى الدفاع هى الجنوب ، حيث كانت المدينة معرضة للصحراء المكشوفة ، فحُفِر خندق عميق نصف دائرى طوله أربعة أميال ، بين النيلين الأبيض والأزرق . وركز جوردون انتباهه – منذ البداية – على هذا الجناح الجنوبى ، فبث فى الرمال ألغاماً بدائية ، مع آلاف المعوقات الحديدية والزجاجات المكسورة – إذ كان البدو حفاة – واستعمل قطناً مصبوغاً لتمويه الاستحكامات المصنوعة من التراب ، بينما أقيمت خنادق جديدة واستحكامات على مسافة أبعد .

وحاصر حوالى ٣٠,٠٠٠ من البدو المدينة بعد شهر مارس ، ولكن الشطر الأكبر من قوات المهدى ظل متناثراً فى السودان . ولم تحدث فى أشهر الصيف القائظة أية محاولات خطيرة لخرق الاستحكامات . وقنع أبناء القبائل بمجرد طلقات طائشة متنافرة من بنادقهم ، بينما كان جوردون يرسل فرقاً للإغارة ، كثيراً ما كانت تعود للمدينة بماشية وأذرة . وكانت سفنه تمضى شمالا إلى بربر ، وحاملو رسائله يمرقون خلال صفوف العدو باستمرار . فلم تكن هناك حرب بمعنى الكلمة ، ولا سلام . وكانت روح من العصور الوسطى تشيع فى الرسائل المتبادلة بين الفريقين . ففى ٢٢ مارس رفض المهدى عرض جوردون للصلح . وعندما سيق مبعوثوه إلى « السراى » فى الخرطوم ، قدموا إلى الجنرال جبة ، ودعوه إلى اتّباع المهدى . فرمى جوردون الثياب أرضاً ، وأعلن أنه لن يستسلم قط . ونحن نجده بعد ذلك يرسل إلى الأمراء المعسكرين خارج الخرطوم هدايا من الصابون والكماليات الأخرى . ولم تكن المجاعة قد دبت بعد ، فلم يفكر فى الهرب للانضمام إلى البدو سوى قلة ضئيلة من الناس . واستمرت الحياة اليومية فى المدينة فى وجوم وانصياع

للقدر، ولكن دون توتر أو ذعر حقيقى . وما تصور جوردون أو سواه أن يستمر هذا الموقف دون نهاية ، فإما أن تنجدهم حملة توفد من مصر ، أو يضطروا للاستسلام . ولكن توقع النجدة كان قويّاً حتى تلك الفترة ، فكان جوردون — الذى لم يكف عن التجول فى المدينة — يتألق بثقة كانت توحى بالأمل للجميع : من أشد التجار استياء ، إلى أتعس الجنود . وأخذ يرقى الضباط ، ويقرر حصصاً خاصة من المؤن فى الأعياد ، ويكافئ أكثر الجنود جرأة بمضاعفة مرتبه ، ويسجن المجرمين ، ويفض المنازعات ، فى جو من السلطة المطلقة التى لم يكن أحد ينكرها عليه . فقد أصبح « جو ردون باشا » أكثر من حاكم للخرطوم . . أصبح إرادة الخرطوم ذاتها وعزمها . وعندما كان يقرأ على مجلس الأعيان دعوة المهدى إليهم للتسليم ، كانوا يرفضونها بالإجماع ، وبتحمس . وهكذا مرت أيام شهور أبريل ومايو ويونيو دون أن يفقد أحد الأمل فى تحسن الموقف .

وفى لندن ، كانت الحكومة تزداد قلقاً — وربما سخطاً — فى تلك الأثناء ، وهى تشعر بأنها تعرضت لنوع من التهديد من الحاكم العام ، لكى يفرض خططه . وكان من الممكن ، حتى فى تلك المرحلة ، ترك الحاميات المصرية للمهدى ، أما ترك جوردون فكان أمراً آخر ، إذ أنه كان شخصية عامة ، وقد ذهب إلى السودان تحيط به هالة كالتى كانت تحيط بفرسان المسيحية فى الحروب الدينية ، فكان من المؤكد أن تثير الصحافة ضجة ، ما لم يبذل جهدٌ لإنقاذه . وقد رأى « بارينج » ذلك ، فأبرق للورد جرانفيل فى ٢٤ مارس : « المهم الآن هو كيف نُخْرِج الجنرال جوردون والكولونيل ستيوارت من الخرطوم » . وأبرقت الملكة فيكتوريا — التى كانت أكثر فهماً لمشاعر رعاياها من أى وزير من وزرائها — تقول للورد هارتينجتون : « الجنرال جوردون فى خطر ، فعليك إنقاذه . . إنك تضطلع بمسئولية رهيبة » .

ولم يطل الوقت حتى تولى الجمهور إثارة الضجة ، فبدأت الاجتماعات الشعبية تعقد للاحتجاج ضد « الغدر بالجنرال جوردون » ، وجمعت الأموال لنجدته ، وأقيمت الصلوات لأجله فى الكنائس ، ولكن أيّاً من جلادستون وجرانفيل — وزير الخارجية — لم يكن بعد مستعدا للاعتراف بأن مغامرتهما أخفقت ، فإن

جوردون كان — برغم كل شيء — فى أمان تام بالخرطوم ، وكان من الممكن أن يبرحها ، إن شاء .

وفى البرقيات التى بدأ جرانفيل يرسلها إلى القاهرة ، فى تلك الفترة ، رنة قلق زائد ، فهو يسأل مراراً عن المعلومات : ماذا يفعل الجنرال جوردون ؟ وهل الخرطوم معرضة لأى خطر حقيقى ؟ يجب إخبار الجنرال جوردون بذلك . « . . . لسنا نقترح إمداده بقوة تركية أو غير تركية بغية الاضطلاع بحملة حربية ، فهذا بعيد عن نطاق المهمة المنوطة به ، ويتباين مع السياسة المعينة التى كانت غرض بعثته إلى السودان . فإذا استمر فى الخرطوم — وهو على علم بهذا — فعليه أن يصرح لنا بسبب استمراره والغرض منه » .

وبمعنى آخر ، كان جوردون مدعواً لأن يعود إلى العالم المتمدين قدر استطاعته ، وأن يدع الحاميات تدافع عن نفسها .

وانقضت أشهر قبل أن يصل رد الجنرال ، وكان لاذعاً : « تسألوننى أن أصرح بسبب بقائى فى الخرطوم والغرض منه ، وأنا أعلم أن الحكومة تصر على ترك السودان ؟ ورداً على هذا أقول إننى أبقى فى الخرطوم لأن البدو قد أغلقوا سبل الخروج ، ولن يدعونا نخرج » !

ولم يكن هذا صحيحاً فى الواقع ، فقد كان بوسع جوردون نفسه — حتى شهر سبتمبر — أن ينجو ، ولكنه كان غير راغب البتة فى أن يترك جنوده وراءه ، فإما أن تصحبه الحامية أو يبقى . وكان هذا بالذات ما تأبى الحكومة أن تقبله ، وكان جلادستون مصراً على الإباء . فقد أعلن أنه لن يرسل حملة حربية ، ورفض اقتراحاً من بارينج بقيام القوات البريطانية التى كانت على ساحل البحر الأحمر باندفاع سريع إلى (بربر) . وعندما عُرض على مجلس العموم — فى مايو — اقتراح بلوم الحكومة ، رد بهدوء قائلا إنه لم يكن مستعداً للإقرار بأن الجنرال جوردون معزول أو أنه فى خطر حقيقى . كل ما هنالك أنه ربما كان « فى الحَشِيَّة »[1] إلى حين ، ولا شىء سوى ذلك ، فلا داعى للجزع .

---

(١) الاصطلاح الذى استعمله جلادستون « Hemmed in » ، أى أنه شبه مدينة الخرطوم بطرف ثوب ثنى وكفكف وجوردون بداخله . (المترجم)

ولكن هذا لم يكن سوى كسب للوقت . وبمرور الأسابيع بدأت رسائل جوردون تقل باطراد ، كصوت يزداد خفوتاً بالبعد . ولم يحن شهر يوليو حتى بدأ الشعور بالسخط يشتد فى إنجلترا . وكان اللورد هارتينجتون هو الذى تعجل الأزمة إذ أخبر جلادستون — فى نهاية يوليو — بأنه موشك أن يستقيل ما لم توفد حملة إلى الخرطوم ، وقال إنها : « مسألة شرف وثقة شخصيين ، ولا أدرى كيف أتهاون فيهما » . وكانت استقالة هارتيجنتون كافية لإسقاط الوزارة ، فانصاع جلادستون أخيراً . وأعلن فى ٨ أغسطس أن حملة سترسل إلى السودان ، وأقر البرلمان رصد ٣٠٠,٠٠٠ جنيه للنفقات ، وعين اللورد ولسيلى — صاحب انتصار التل الكبير — للقيادة .

وتتسم أحداث الأشهر الستة التالية بتحكم القدر فيها . . تتسم بجو مأساة كاملة ومؤكدة ، ترفع القصة فوق الزمان والمكان لتصبح جزءاً من المأثورات الدائمة عن الشجاعة الآدمية ، والعجز البشرى . فمن الممكن أن تعاد وتُكرَّر كما تُكرر إحدى « تراجيديات شكسبير » ، دون أن يصيبها أدنى تغيير ، لأن القيم تبقى على حالها فى كل عصر . وتتجلى الشخصيات الرئيسية لأول وهلة ، فلا يمكن أن نتصور لأدوارها شخصيات سوى الشخصيات التى قامت بها فعلا ، اللهم إلا إذا حلمنا بحجب الموت عن « الملك لير » ، أو بإنقاذ « هاملت » من تردده ! . .

وكان أبطال التراجيديا الرئيسيون الثلاثة هم : ولسيلى وهو قادم مع جنوده بطريق النيل ، وجوردون وهو ينتظر ويتطلع من فوق سطح « السراى » بالخرطوم ، والمهدى بمحاربيه المعسكرين فى الصحراء خارج المدينة . وكان كل منهم يتصرف كما رسم له القدر . ومن المصادفات الدرامية العجيبة أن يلتقى بهؤلاء الثلاثة معاً — وكل منهم عاجز تماماً عن فهم الآخر — فى مثل هذه الظروف الميئوس منها ، وفى مثل هذا الركن النائى من العالم . فكل رجل ضحية قوى تفوقه : المهدى — وقد أشعل نيران حرب دينية — مسوق إلى أن يهاجم الخرطوم .. وجوردون — وقد عاهد أهل المدينة — مسوق إلى أن يبقى هناك إلى النهاية .. وولسيلى العسكرى — وقد تلقى الأوامر — مسوق إلى أن يحاول إنقاذه ! . . وما من واحد منهم يسيطر على الأحداث حقاً ، أو يملك التنبؤ بما سيحدث .. وإنما ينتابهم — بين وقت وآخر — الأمل واليأس ، واليقين والتوجس ، ولكنهم بوجه عام يثابرون فى طرقهم التى خطها لهم القدر ، فهم أشبه بربابنة السفن التى تتجه فى الضباب إلى تصادم محتوم ، لا مفر منه !

ووصل ولسيلى إلى القاهرة فى ٩ سبتمبر ، ثم غادر وأركان حربه فندق « شبرد » إلى وادى حلفا فى ٢٧ سبتمبر ، واشتبكوا – أخيراً – مع قوات المهدى شمال الخرطوم، فى يناير سنة ١٨٨٥ . ولم يكن تقدمه سريعاً، ولكنه كان مقبولا ، بالقياس إلى زحف البريطانيين على السودان بعد ذلك باثنى عشر عاماً ، سيما وقد كان على ولسيلى أن ينقل ٧٠٠٠ رجل ومهماتهم مسافة ١٥٠٠ ميل داخل الصحراء، بينما ذكرى نكبة هيكس لم تبرح الأذهان بعد . ولم تكن الأنباء التى تلقاها ولسيلى من الخرطوم تدل على أن جوردون كان فى مأزق يؤثر فيه تأخر الحملة أسبوعاً أو اثنين .ولا مراء فى أن الأنباء كانت متباعدة ، ولم تلبث أن انقطعت تماماً ، ولكن مخابرات ولسيلى لم تكن فاقدة الأمل . فلقد تقدم الحملة إلى جوف الصحراء ضابط شاب موفور النشاط ، يدعى الميجر « هربرت كيتشنر » ، واستقر خلال شهر أغسطس فى (الدبة) ، عند انحناء النيل ، على ٢٠٠ ميل من الخرطوم . ومن هذا المركز الأمامى ، تمكن كيتشنر من إيفاد رسل على الأقدام إلى الخرطوم، حاملين نبأ اقتراب البعثة ، وتلقى الرسائل التى كان جوردون يبعث بها .

كذلك لم يكن المهدى ليُلام على تأخيره الهجوم على الخرطوم . فإن (الأبيّض) لم تقع فى يده إلا لأنه حاصرها حتى فتك الجوع بأهلها ، فكان له الحق فى أن يعتقد أن الخرطوم ستتبع نفس المصير . ولو أنه أطلق محاربيه على استحكامات المدينة قبل العام الجديد لكان هذا أقصى تهوّر ، لأن جوردون كان متفوقاً عليه فى المدافع والبنادق . ولم تكن المجاعة قد فتكت بالحامية المصرية بعد .

أما جوردون ، فلم يكن له خيار ، إذ كان بطبيعة شخصيته مضطرا للبقاء ، واستخدام كل حيلة ممكنة لاستبقاء الروح المعنوية لدى القوم . ولم يكن هناك مسلك آخر سوى الاستسلام . وهو ما لم يفكر فيه ، إذ كان معنى الاستسلام أن يذبحوا جميعاً . فإن رجال المهدى لم يعتادوا أن يأخذوا فى معاركهم أسرى سوى النساء وصغار الأولاد والبنات ، الذين كانوا يساقون للرق .

ومع ذلك تبقى الخرطوم – ويبقى جوردون بوجه خاص – البؤرة الحقيقية للمأساة . وهو طيلة الوقت يحتل وسط المسرح ، ثم يسوده تماماً فى المشاهد الأخيرة. لذلك فمن حسن الحظ أن يومياته تعرفنا – بدقة – بأفكاره وشعوره ، فإذا نحن

نلمّ بكل آماله ومخاوفه يوماً بيوم ، ونلم بحالة الخرطوم فى نزعها الأخير ، تتبدى لنا فى واقعية وكأنها نكبة وقعت فى حياتنا نحن . فاليوميات وثيقة مدهشة . وما من عسكرى إنجليزى كشف قلبه بالروعة ، ولا بالبساطة ، ولا بالتأثير الذى أبداه جوردون فى كتابته السريعة المهوشة ، التى كان يخطها فى عجلة على أوراق البرق المطبوعة أحياناً ، وعلى قصاصات رثة أحياناً أخرى ، راسماً تحت بعض كلماتها خطوطاً عريضة ، أو ضارباً عليها بطمس ثقيل . وكان يزينها — مرات — بخرائط صغيرة عجيبة فى الدقة ، وبرسوم كاريكاتورية مقذعة . . وكان أسلوبه — فى بعض الأوقات ، مؤثراً أو ساخراً ، وفى أوقات أخرى ظالماً فى غير ما رحمة . ولكنه كان يصدر دائماً عن شعور صادق .

ولم يحن شهر سبتمبر (وقد بدأت حملة النجدة تتألف فى مصر دون أن يدرى جوردون) حتى كان الموقف قد ازداد حرجاً فى الخرطوم . كانت المؤن ما تزال كافية ، بل إن الفرق المغيرة كانت تستولى على ماشية كثيرة ، حتى لقد هبط ثمن رطل اللحم من عشرة شلنات إلى شلنين . . . ولكن نكسة خطيرة وقعت فى ٤ سبتمبر ، إذ قُتِل أكثر من ٨٠٠ جندى مصرى فى مناوشات خارج المدينة ، وبات من الواضح أن الحامية ينبغى أن تلزم جانب الدفاع فقط بعد ذلك . ولكن العامل المدمر حقاً ، كان احتجاب الأنباء ، وشعور القوم بأنهم قد تركوا لمصيرهم ، فلم يكن ثمة أمل محدد يتطلعون إليه . وكان كل يوم يزداد وطأة عن سابقه ، واضطر جوردون نفسه إلى الاعتراف بأن المدينة مسوقة إلى السقوط ما لم تصل النجدة خلال شهر أو اثنين . لذلك قرر إرسال الباخرة (عباس) شمالا ، بقيادة ربان عربى حمّله رسائل تدعو إلى المبادرة بالنجدة . وكان اجتياز الباخرة منطقة العدوّ عملية خطرة ، ولكنها لم تكن مستحيلة . فما إن تتجاوز الباخرة معقل المهدى فى (بربر) حتى يجد رجالها أنفسهم بين قبائل صديقة توافق — دون شك — على نقل الرسائل بالإبل إلى كيتشنر ، فالقاهرة .

ولم يكن قد بقى مع جوردون فى الخرطوم سوى ثلة صغيرة من الأوربيين : ستيوارت ، نائبه فى القيادة ، وثلاثة قناصل هم : باور الإنجليزى ، وإيربان الفرنسى ، وهانسال النمسوى ، وعدد من اليونانيين ، وآخرون من دم أوربى . وما إن عُلِم أن (عباس) ستبحر ، حتى انهالت على « السراى » طلبات للإذن

بمرافقتها . وكان « إيريان » أول المتقدمين . ويقول جوردون أنه انقضّ على الفرصة ، لعل إيريان يتمكن من حمل الحكومة الفرنسية على أن تتحرك . ثم عرض ستيوارت أن يذهب بشرط أن يبرئه جوردون من تهمة التخلى عن الواجب . فأخبره جوردون بأنه ما كان ليأمره بالذهاب على سبيل الأمر ، إذ كانت الرحلة تنطوى على كثير من الأخطار ، ولكنه على استعداد دون شك لأن يعطيه خطاباً رسمياً يوضح أنه لم يكن فى رحيله أى تخل عن واجبه ، إذ كان بوسع ستيوارت أن يؤدى خدمة قيمة . كان بوسعه شرح الموقف فى الخرطوم على حقيقته ، وتوجيه نداء شخصى إلى الدول الأوربية طلباً للمعونة . فقد خطر لجوردون أنه إذا لم يكن بوسع إنجلترا أن تساعد ، فلعل غيرها كانت تستطيع . وكتب نداء إلى البابا فى روما ، وآخر للسلطان فى القسطنطينية .

وما لبث « باور » — القنصل البريطانى — أن رغب فى الانضمام للراحلين . أما « هانسال » النمسوى ، فاختار أن يبقى . وهناك بعض أمور عجيبة لم تلق قط تفسيراً مرضياً . فقد كان بين الأوراق التى رؤى أن تحملها الجماعة ، « الشفرة » التى كانت تستخدم فى فك الرسائل الرسمية القادمة من مصر . وقد قال جوردون إنه أرسل الشفرة لأنه خشى أن تقع فى أيدى المهدي، إذا بقيت فى الخرطوم . ويؤخذ من هذا أنه والجميع كانوا يتوقعون سقوط الخرطوم ، ومن ثم لا يكون لستيوارت والقنصلين منجاة من تهمة التخلى عن الواجب . كذلك يتعذر — إلى حد ما — فهم السبب الحقيقى الذى جعل جوردون يأبى أن يأمر ستيوارت بالرحيل . فلقد دار حديث طويل بين جوردون وستيوارت قبل رحيله، ألح فيه هذا على جوردون بأن يصدر إليه الأمر بالرحيل . ولا يبدو تعليل جوردون بأنه خشى ما كانت عليه الرحلة من خطورة تعليلا صادقاً كل الصدق . فهو — ولابد — قد أدرك أن ستيوارت خليق بأن يلقى عناء فى تنقية اسمه بدون أمر الرحيل . كذلك لم يكن حقيقياً — كما ذكر جوردون فى يومياته فيما بعد — أن ستيوارت لم يكن يخدم غاية نافعة بوجوده فى الخرطوم . بل الواقع أن جوردون كان فى أمس الحاجة إلى معونة ضابط أبيض آخر ، سيما إذا كانت له خبرة ستيوارت . إذ كان مستحيلا على رجل واحد أن يشرف على حامية كبيرة ومتقاعسة ، دون مساعد واحد — على الأقل —

— يركن إليه . ومع ذلك فهو قد استبعد خدمات ستيوارت إذ ذاك ، كما رفض خدمات « سلاتين » فيما بعد لأسباب أخرى .

والاستنتاج الوحيد الذى يستخلصه المرء من كل هذا ، هو أن جوردون أراد أن يكون وحيداً . أراد أن يفارقه الجميع ، وكان يود لو رحل « هانسال » كذلك ، إذ لم يكن يحبه . وقد كان القنصل النمسوى نفس الرجل الذى أثار اشمئزاز جوردون عند وصوله إلى الخرطوم لأول مرة ، إذ ألقى بنفسه وسط الراقصات العاريات ، فى مأدبة رسمية ، (إذا أخذنا برواية ستراتشى) . وكتب جوردون فيما بعد : « علمت أن هانسال — القنصل النمسوى — يعتزم الذهاب مع وصيفاته السبع إلى البدو . ليته يفعل » ! . . ويبدو من المستبعد أن هانسال أراد ذلك ، فقد كانت له ممتلكات ومصالح تجارية كثيرة فى الخرطوم ، وقد عاش فيها سنوات عديدة وارتبط بها . . ولعل هذه كانت الأسباب الحقيقية لبقائه . ولا شك فى أنه بهذا البقاء عكر رغبة جوردون الباطنة فى الاستشهاد الانفرادى . وليس فى يوميات جوردون ما يوحى بأن الرجلين كانا وثيقى الود فى أشهر الحصار الأخيرة ، بل إنه ليقول إنه لم يؤتَ فى المدينة أصدقاء ، ولا أحداً يمكن الوثوق فيه

وأعِد كل شىء لرحيل الآخرين فى ١٠ سبتمبر . فصعدوا إلى الباخرة (عباس) مع ثلة من اليونانيين وعدد قليل من الجنود للحراسة . وأقلعوا ترافقهم باخرتان أخريان تحرسانهم إلى ما بعد (بربر) . وكان ربان (عباس) من أكثر الرجال خبرة بالملاحة النيلية ، وقد أُوصى بألا يجمع الخشب لوقود آلات السفينة إلا من الأماكن المهجورة ، خارج أراضى القبائل المعادية . وراقبهم جوردون وهم يخترقون طلقات بنادق البدو المتحدية خارج حدود المدينة ، ثم عاد وحيداً إلى سهره اللانهائى على الخطوط ، وإلى خلواته فى « السراى » . وقد كتب فى يومياته ، فى نفس اليوم : « لا يزال المهدى فى (رَحاض) ، بقرب الأبيِّض ، على ٢٠٠ ميل من الخرطوم » . ومرة أخرى ، سرح ذهنه إلى مسألة سلاتين التى كانت تضايقه . فهو الذى عين سلاتين فى خدمة السودان ، ودربه ، ورقاه ، وأرسله إلى دارفور . وها قد استسلم سلاتين للمهدى وأشهر إسلامه !

« ليس بالهيِّن على أوربى أن ينبذ عقيدتنا ، خوفاً من الموت

. . . فإذا كانت العقيدة المسيحية خرافة ، فلينبذها البشر ، ولكن من الخسة والعار أن تنبذ إنقاذاً لحياة المرء ، إذا كان يؤمن بأنها عقيدة صادقة . . . إن الخيانة لا تفلح ، ومهما يحتمل أن تنتهى إليه الأمور ، فمن الأفضل للمرء أن يقع وهو نظيف اليدين ، من أن يزج بنفسه فى أعمال مشبوهة ، مع أناس مشبوهين . . »

ولكن ، منذا الذى كان شجاعاً حقًّا ؟

« كثيراً ما ناقشنا — أثناء الحصار — مسألة الخوف ، الذى لا ينبغى — فى نظر الدنيا — أن يصيب الإنسان . وأنا من ناحيتى فى حالة خوف دائم ، وشديد . . ولكنه ليس خوف الموت — فقد انقضى هذا ، والحمد لله — ولكنه خوف الهزيمة ونتائجها . إننى لا أومن قط بالرجل الثابت الذى لا يهتز ، وأرى أنه إنما يحجب الخوف ولا يبديه . ومن ثم أخلص إلى أنه لا ينبغى لأى قائد لقوات ، أن يعيش على علاقة وثيقة بمساعديه ، الذين يرقبونه بانتباه، فما من مرض يعادل الخوف فى عدواه . ولكم كان يغيظنى ألا أستطيع الأكل لفرط القلق ، إذ كنت أجد الذين حول مائدتى يتأثرون بنفس الحال » .

ولكنه فى هذه الفترة ، لم يعد معرضاً لأن تكون حياته الشخصية مراقبة عن كثب ، إذ أصبح يعيش فى « السراى » وحيداً إلا من خدمه ، ويتناول وجباته وحيداً ، ويتأمل غرائب ديكه الرومى فى الفناء ، والصقور وهى تحلق على النيل. وكان يسير بنشاط فى الصباح ، وهو يطوف بالحصون ، والترسانة وحوض صناعة السفن ، والثكنات ، والمخازن ، ويقضى الساعات على سطح « السراى » مع منظاره المقرب . . . فمن فوق السطح كان بوسع المرء أن يرى الكثير : مجرى النهر الواسع المنساب إلى الشمال ، الذى يجب أن تأتى منه النجدة ذات يوم ، (فلا بد أن ستيوارت قد اجتاز (بربر) فى هذه الأثناء ، كما كان يحلو له أن يتخيل) ، ومحيط الرمال الشاسع المحدق بالمدينة وعليه فرسان البدو ، والخيام والأكواخ ، والعدو ساجد على الأرض دائماً يصلى .

وكانت هناك مسألة راهبات البعثة النمسوية فى « دارفور » ، فقد ذكرت الشائعات أنهن تزوجن من التجار اليونانيين الذين كانوا فى أسر المهدى كذلك :

« أية ضجة سيثيرها البابا بشأن زواج الراهبات من يونانيين . إنه اتحاد بين الكنيستين اليونانية واللاتينية » ! وكان غريباً أن يكتب عن هذه الأمور جميعاً فى رسالة — مفروض أنها رسمية — إلى وزارة الحربية فى لندن ، ولكنه لم يكن يملك كبح ذهنه عن الشرود . . . كانت كلها جزءاً من هذا العالم الصغير المنسى على النيل ، ولكنها كانت جديرة بالتسجيل ، لأن البشر ينسون كل شىء عادة . وقد كتب فى ١٤ سبتمبر :

« ما أعجب سرعة نسيان الناس لمصائبهم وخسائرهم . فمنذ عشرة أيام فقط ، فقدنا حوالى ألف رجل قتلوا ، ومع ذلك فما من أحد يتكلم اليوم عن هذا . إن محو مرارة أية نكبة يتطلب ما بين أربعة أيام وستة ! »

وفى الأسبوع الأخير من سبتمبر ، كان لدى « جوردون » نبأ مؤكد بأن الحملة كانت فى طريقها إليه . إذ جاءه رسول من الأهالى ، أوفده كيتشنر من (الدبة) ، برسالة قال فيها إن اللورد ولسيلى قد غادر لندن ، وأن طلائع الحملة كانت تزحف من وادى حلفا ، متجهة إلى مديرية دنقلا فى شهر أغسطس (وقد استغرقت الرسالة حوالى شهر للوصول إلى جوردون) . واحتفل جوردون بهذه الأنباء ، احتفالا هائلا ، فأمرت الحصون بإطلاق المدافع ، وألصقت صور فى الشوارع للجنود البريطانيين والهنود فى استعراضاتهم ، وعلى وجوههم إمارات الظفر والنجاح . واستؤجرت بيوت على النيل الأزرق للضباط الإنجليز القادمين ، وأثيرت ضجة لاستئجار الخدم وشراء الأثاث وجرار الماء ، ووُقِّعت عقود مع قصابى الخرطوم وخبازيها للتوريد للجنود حين يصلون .

كذلك علم جوردون من رسالة كيتشنر أن « بارينج » ذهب إلى لندن لفترة ، وأن شخصاً يدعى « مستر أدوين إيجرتون » قد شغل مكانه فى القاهرة . وأرفق كيتشنر رسالة من إيجرتون قال فيها : « أنبئ جوردون بأن البواخر تجتاز الشلال الثانى ، وإننا نرجو أن ينبئنا — عن طريق دنقلا — بالوقت الذى يتوقع فيه أزمات فى المؤن والذخيرة » .

وكان من المريح طبعاً أن يعرف أن هناك شيئاً يجرى عمله ولكن ، واها للموظفين ذوى العقول الجامدة ! ! وقد كتب فى يومياته :

« أعتقد أننى يجب أن أرتاح لذلك » الإيجرتون » . إن فى رسائله

فكاهة مرحة ، تحملنى على الظن بأن هموم الحياة لا تثقله . . وأرى أن إيجرتون لو نبش « الأرشيف » (ويا لها من كلمة لذيذة !) فى مكتبه ، لتبين أننا فى أزمات منذ أشهر . وما أشبه الموقف برجل على الضفة ، رأى صديقه يغوص فى النهر مرتين أو ثلاثاً ، فإذا به يصيح : « اسمع يا أخى ، أنبئنا حين ينبغى أن نطوّح إليك بطوق النجاة . فأنا أعرف أنك غطست مرتين أو ثلاثاً ، ومن من الحرام أن نلقى إليك طوق النجاة ما لم تبلغ أقصى المحنة ، وهذا ما أريده بدقة ، فقد نشأت فى مدرسة الدقة . . » !

كذلك وصلت برقيات أخرى ، ولكنها كانت بالشفرة . ولم يكن لدى جوردون وسيلة لفك رموزها ، فلم يملك سوى التكهن بمحتوياتها . وأصبحت التكهنات تملأ نصف يومه . أين كان ستيوارت ؟ لابد أن يكون قد تجاوز انحناء النيل ، ولعله اتصل بكيتشنر . وأين كان المهدى ؟ ومتى سيهجم بالشطر الأكبر من جيشه على الخرطوم ؟ وكان ميالا إلى الظن بأن المهدى يؤثر الانتظار حتى يشرع النيل فى الانخفاض ، حوالى نهاية العام . فهل يقدر للحملة أن تصل إلى الخرطوم قبل ذلك ؟ كان هذا يتوقف على مدى فهم « ولسيلى » لأساليب القتال فى الصحراء . وكانت أفكار جوردون — فى هذا الصدد — دقيقة :

« لا أستطيع أن أطمئنكم كثيراً إلى أن هذه الحملة لن تصادف أى عدوّ جدير بأن يسمى عدواً بمعنى الكلمة لدى الأوربيين ، الصراع الحقيقى صراع مع المناخ والإقفار . صراع يعتمد على الوقت والصبر ، وعلى جماعات صغيرة من رجال ذوى عزم ، يساندهم حلفاء من الأهالى ، يُكْتَسبون بالسياسة والمال ... إن جماعات من أربعين أو ستين رجلا ، تتحرك بسرعة وخفة ، تفعل أكثر مما تفعله أية كتيبة . فإذا فقدت جماعتين ، أو ثلاثاً ، فلا بأس .. إنها الحرب . ولكن الحلفاء من الأهالى قبل كل شىء ، وبأى ثمن . إنها بلاد الشذوذ واللاقياس . فإذا تحركتَ فى جموع فستصادف ما لا نهاية له من صعاب ، فى حين أنك إذا أطلقت شراذمَ منفصلة ، تندفع هنا

وهناك ، فستوقع الفوضى فى صفوف البدو . والفجر – أو قبله – هو وقت الهجوم ، (وهذا نبأ قديم) ، ولكن ستين رجلا يدفعون البدو إلى الفرار إذا هاجموهم قبيل الفجر ، وهو ما لا يستطيعه ألف رجل فى النهار . كانت هذه أساليب الزبير دائماً ، وذلك لأن قوة البدو فى فرسانهم الذين لا يجرأون على الهجوم فى الظلام . وآمل أن لا تجروا معكم المدفعية ، فهى لن تؤدى إلا إلى تأخير ، ونفعها قليل » .

فليتذكروا « هيكس » . . بل يحسن أن يتذكروا قمبيز وجيشه ، الذين ابتلعتهم الصحراء . وبحث جوردون عن الفقرة التى وصف بها « هيرودوت » ذلك ، فألصقها بيومياته . ولقد كان فى هذه اليوميات حزم وأمل ، ولكن مزاجه بدأ يتغير بانتهاء سبتمبر وقدوم أكتوبر . وكان لا يفتأ يتساءل عما أصاب ستيوارت ، ويشعر بالقلق على بواخره المسلحة ، الشرايين الوحيدة التى كانت تربطه بالعالم الخارجى . ويعلل نفسه بأنه قد يبحر على إحداها جنوباً فى النيل الأبيض ، إلى جوف أفريقيا الوسطى ، وينفض يديه من لندن وسياستها القائمة على الرياء ، ومنتدياتها وحفلات عشائها البشعة . وقال إنه كان يؤثر أن يعيش كأبناء القبائل مع المهدى ، على أن يخرج إلى مأدبة عشاء فى لندن ، كل ليلة . . « من بواعث اغتباطى أننى غير ملزم البتة بأن أرى بريطانيا العظمى ثانية . إننى آمل أن أخرج من هذه المحنة فأذهب إلى الكونجو عن طريق مديرية خط الاستواء أو بروكسل » ، بشرط أن يسمح للحامية بالعودة إلى مصر دون أذى . ومن ناحية أخرى ، لم يكن يعتزم التسليم إطلاقاً ، فقد كانت هذه مسألة تتعلق بـ « الشرف القومى » .

وينتقل بأفكاره مرة أخرى إلى الصقور المحوّمة خارج نافذته ، وإلى فأرة – إذ يبدو « من مظهرها المنتفخ » أنها أنثى – تشاركه وجباته الانفرادية : « لقد شغلت فأرة مكان ستيوارت إلى المائدة . . تصعد إليها وتأكل من طبقى بدون خوف » . وهناك الديك الرومى الذى أصبح مزعجاً « حتى إننى كنت أضطر لأن أضع رأسه تحت جناحه وأؤرجحه حتى ينام » . ثم يعود للتساؤل : « متى تصل الفرقة البريطانية؟ »

وفى أواسط أكتوبر ، دب النشاط فجأة . إذ علمت « السراى » أن فريقاً من ستة عشر رجلا من كبار المدينة كانوا يتأهبون للقيام بثورة والانحياز للمهدى .

وقبض جوردون عليهم وهو حائر . وكتب : « إننى أشد حيرة مما أود ، بصدد هذه الاعتقالات . أتراها عملا صائباً ؟ لو قدر لى أن أتأكد من أن الأغلبية تود الذهاب إلى المهدى ، لدبرت فى ذهنى ما ينبغى فى الحال ، فإن ذهابهم يتيح لى ارتياحاً هائلا ، ولكن هل عامة الشعب يريدون ذلك ؟ » ولم يكن بوسع أحد أن يجيب بعد . كان الجوع قد بدأ يشتد بعاة القوم فى المدينة ، فلم يعودوا يفكرون فى غير القوت ، وقد هدم الحصار الطويل مقدرتهم على أن يبتوا فى شىء . وكان جوردون نفسه عاملا متيناً فى حياتهم ، يريدون ما يريد ، وما بقوا على صمودهم إلا لثباته .

أما بصدد « سلاتين » ، فلم يكن يخالج جوردون أى تردد . فقد كتب فى ١٦ أكتوبر يقول : « وصلت خطابات سلاتين ، وليس لى تعليق عليها ، ولا أفهم لماذا كتبها » . كان سلاتين يقول فى هذه الرسائل — التى جاءت إلى الخرطوم من معسكر المهدى — أنه سمع بأن لجوردون نظرة قاسية بالنسبة لاستسلامه ، وأنه يرجو الحاكم العام أن يصغى لتفسيره . فما أعلن إسلامه ، بينما كان ماضياً فى قتال المهدى ، إلا ليكسب ثقة جنوده . . « ولعل مما سهل الأمر علىّ ، أنى — لسوء الحظ — لم أتلق تعليما دينيًّا قويًّا فى وطنى » . أما استسلامه ، فلم يكن له فيه خيار ، إذ كان مضطرًّا إلى أن يحذو حذو جنوده حين ألقوا سلاحهم . « أفتعتقد سعادتك أن التسليم كان سهلا علىّ ، وأنا ضابط نمسوى ؟ لقد كان من أقسى أيام عمرى » . ويمضى قائلا :

« بالانصياع والطاعة اكتسبت درجة من الثقة بين الزعماء المحليين ، فأذنوا لى بالكتابة إليك ، لأنهم يعتقدون أننى بهذه السطور أسأل سعادتك أن تسلم . فإذا لم تزدر سعادتك خدماتى التافهة ومعرفتى البسيطة بفنون الحرب ، فإنى أرجو أن أعرض عليك مساعدتى ، دون ما طمع فى أى تكريم ، وإنما أصدر عن وفاء وصداقة لسعادتك وللقضية الصالحة . إننى على استعداد للسير معك — أو تحت إمرتك — إلى النصر أو الموت . . ولسوف أهجر يومئذ — بسرور — أتباعى القلائل المخلصين ، وثروتى إلخ . . كى أموت — إذا أراد الله — ميتة مشرفة » .

ولما لم يتلق رداً ، كتب سلاطين مرة أخرى :

« يا صاحب السعادة ، لقد قاتلت سبعاً وعشرين مرة فى جانب الحكومة ضد العدو الذى هزمنى مرتين ، ولكنى لم أفعل شيئاً غير مشرف ، فليس هناك ما يعوق كتابتك رداً إلىّ ، لتطلعنى على ما ينبغى أن أفعل . . . إذا كانت ثمة رسائل لى من أوربا فى البريد ، فألتمس أن ترسلها إلىّ ، فقد انقضى زهاء ثلاث سنوات دون أن أتلقى أية أنباء من أسرتى . إننى أتوسل إلى سعادتك أن تشرفنى برد .

خادمك الوفى المطيع : سلاتين »

« **حاشية** : إننى والسيد « جمعة » — مدير (الفاشر) — نسعى إلى فرصة لدخول (أم درمان) ، لنبقى معك . فنرجو سعادتك أن تحمل نفسك على الأذن لنا ، لأننا فى خوف دائم من الجواسيس . وأدعو الله أن يهبك التوفيق فى الحصار .

« **حاشية** : إذا احتمل أن سعادتك فهمت أننى فعلت ما يخالف شرف الضابط ، وإذا كان هذا يمنعك من الكتابة إلىّ ، فأرجو أن تمنحنى فرصة الدفاع ، ثم أحكم بالحق » .

وكان جوردون أكثر من عنيد . . كان يزدريه . . « إنه ليس على شىء من بسالة محاربى (أسبرطة) ، وإذا أفلتُ ، فسآخذه معى إلى الكونجو ، إذ أنه سيكون بحاجة إلى نوع من الحجر الصحى . إن المرء ليأسف من أجله » . ولكنه فى اليوم التالى يعود للموضوع ، فيقول : « لن يكون لى شأن بمجىء سلاتين إلى هنا للإقامة ، ما لم يحصل على إذن من المهدى ، وهو أمر مستبعد . وهو بمجيئه يخرق كلمته للمهدى . . . وقد يسىء بذلك لسلامة كل أولئك الأوربيين الأسرى لدى المهدى » !

على أنه عرض مع ذلك أن يفتدى « سلاتين » والأوربيين الآخرين من المهدى بمبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه ذهبى إنجليزى . ولكنه لم يتلق رداً . بيد أن « سلاتين » لم يستأثر باهتمام جوردون فى هذه الفترة ، فقد ظهرت مسألة أكثر إزعاجاً . إذ ذكر « سلاتين » فى رسالته الثانية إن الباخرة (عباس) لم تنج ، بل أسِرت عند (بربر) ، وأعدم « ستيوارت » ! وكان جوردون قد سمع بنبأ كهذا من مصدر آخر ، قبل ذلك بأيام قلائل ، ولكنه رفض أن يصدقه ، وراح

يطمئن نفسه بأن مثل هذه الشائعات تنتشر عادة ، ولكنها ليست مما يعول عليه . ومع ذلك ، فإنه يعترف فى ٢١ أكتوبر : « أننى جد قلق على (عباس) . فلو صدق أنها أسرت لكان ذلك فظيعاً » . ثم وصلت رسالة من المهدى نفسه فى ٢٢ أكتوبر ، وقد كتب على صفحة كبيرة واحدة من الورق ، تحمل خاتم المهدى المربع ، وقد جاء فيها[١] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله الحاكم الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد .

« من العبد المتوكل على الله ، محمد بن عبد الله .

« إلى جوردون باشا حاكم الخرطوم ، هداه الله إلى طريق الصواب . آمين .

« اعلم أن سفينتكم الصغيرة المسماة (عباس) ، التى أرسلتها بنية إيصال أنبائكم إلى القاهرة عن طريق دنقلا ، والأشخاص الذين عليها — وهم مندوبكم ستيوارت باشا والقنصلان الفرنسى والإنجليزى ، والأشخاص الآخرون — قد أسِروا بإذن الله .

« فالذين آمنوا بأننا المهدى واستسلموا ، سلموا ، والذين أبوا أعدموا . وهم مندوبكم المذكور آنفاً ، والقنصلان وغيرهم ممن قضى الله على أرواحهم بالنار والشقاء الأبدى » .

وتبع ذلك قائمة طويلة — ووصف دقيق — لكافة الأوراق والوثائق التى أخذت ممن ماتوا : يوميات ستيوارت ، والشفرة ، والنداءان الموجهان إلى البابا والسلطان ، والتقارير المشتملة على تفصيل كميات الأغذية والذخائر الباقية فى الخرطوم ، ونسخ البرقيات التى تبودلت بين جوردون والقاهرة ، وإحصاء للجنود الباقين فى الحامية وأسلحتهم ، والرسائل التى تكرر فيها طلب جوردون للنجدة .

وأضاف المهدى : « ولقد فهمنا هذه الرسائل جميعاً » . ثم دعا جوردون — مرة أخرى — إلى التسليم قبل فوات الأوان ، « لأنك إذا سلمت بعد بدء المعركة ، فلن يكون ذلك إلا عن خوف لا عن رغبة ، ولن نقبل » . كذلك أرفِقت بالرسالة

---

(١) ترجمت هذه الرسالة عن الترجمة الإنجليزية التى أوردها المؤلف . (المترجم)

رسالة أخرى من قائد المهدى فى الجنوب ، تكشف عن سقوط مديرية (بحر الغزال) .

إذن فقد مات ستيوارت حقاً ، واستسلم لبتون . ولكن هذا غير ممكن . لابد أن الوثائق التى رآها المهدى كانت نسخاً أرسلها جاسوس قبل إبحار (عباس) . لعل أحد اليونانيين الذين رحلوا قد اطلع على أوراق ستيوارت ثم خانه . . ربما ! وردّ جوردون على المهدى : « . . سواء عندى إن استسلم لبتون بك أو لم يستسلم، وإن استولى (المهدى) على عشرين ألف باخرة مثل (عباس) ، أو أسر عشرين ألف « ستيوارت باشا » . فأنا هنا كالحديد،وآمل أن أرى الإنجليز القادمين » . ثم أضاف أنه بات مستحيلا عليه تبادل أية رسائل مع المهدى ، « إذ يحسن أن تكون الرصاصات هى لغة التخاطب » .

ومع ذلك فإن الأنباء كانت صحيحة ، وقد هرّب كيتشنر — بعد أيام — رسالة تؤكدها . وراح جوردون يتساءل المرة بعد الأخرى ، كيف حدث ذلك؟ كانت الباخرة (عباس) من المتانة بحيث تصد أى هجوم للبدو ، طالما لازمت منتصف مجرى النهر . وكان من العسير أن ترتطم بصخرة وتغرق ، إذ كانت مزودة بعوامات . لم يكن من تفسير إذن سوى الخيانة . فلابد أن شيخاً خائناً قادهم إلى فخ وهم يسعون لجمع خشب للوقود من الشاطئ . . .

وكان الذى حدث فعلاً هو أن (عباس) ارتطمت — يوم ١٨ سبتمبر — بصخرة وتعطلت ، وهى على ستين ميلا جنوب (أبو حامد) ، ومائة ميل من مركز كيتشنر . وهبط ستيوارت إلى الشاطىء ، مطمئناً إلى أنهم قد تجاوزوا أراضى العدو ، فقابل « سليمان واد جمر » رئيس قبيلة « المناصر » وغيره من الشيوخ . وبادره البدو بالود ،وعرضوا عليه توفير إبل لتحمل الجماعة براً ، فقدم إليهم سيفين وعباءة موشاة بالقصب . ثم ألح الشيوخ على الأوربيين أن يقضوا الليل على الشاطئ فقبلت الدعوة . وبعد أن إذبح الشيوخ ستيوارت وإيريان وباور ، صعدوا إلى (عباس) وقتلوا كل المسافرين والملاحين ، عدا أربعة عشر .

وزحف المهدى — فى ٢١ أكتوبر — على الخرطوم بكل قواته ، وقد شجعته المعلومات التى تلقاها من أوراق (عباس) . واستقر فى معسكرين ملاصقين

لأم درمان ، على الضفة الغربية للنيل . وأعلن عزمه على مهاجمة الخرطوم فى رسالة لجوردون ، قال فيها : « . . . لقدأشفقت على بعض رجالى ، وسمحت لهم بأن يستشهدوا لينالوا الجنة » . وبدأت المرحلة النهائية للحصار . وأحصى جوردون فُرَصه ، فلم يكن قلقاً بشأن الذخيرة ، إذ ظلت ترسانته تنتج حوالى ٤٠,٠٠٠ « مشط » فى الأسبوع ، ولكن مشكلة الأطعمة كانت ملحة ، « إذا لم يصلوا (الجنود البريطانيون) قبل ٣٠ نوفمبر ، فسينتهى الأمر ! . . . لقد عرضت فى هذا التقدير كل مجال لمصاعب النقل وإنشاء الحصون إلخ » . وينبغى أن أرى فى ١٥ نوفمبر لابسى الزى العسكرى للقوات صاحبة الجلالة » . وكان تكهنه بتقدم الحملة قريباً من الدقة ، فما إن تبلغ (الدبة) أو (مروى) ، حتى يوفد ولسيلى — ولابد — كتيبة لتهاجم (بوبر) ، بينما تتجه أخرى — عبر الصحراء — إلى (متمه) على ما يزيد قليلا على مائة ميل شمال الخرطوم . وهنا كان من الممكن لجوردون أن يساعد منقذيه ، إذ كانت له السيطرة على النيل حتى هذا الحد . وأوفد خمساً من بواخره إلى (متمه) آمراً الربابنة بأن يبقوا هناك حتى تظهر طلائع الكتيبة البريطانية ، ثم يحضروها إلى الخرطوم .

وفى أوائل نوفمبر ، وصلت طائفة من الرسائل ، كان بينها رسالة من صمويل بيكر ، وأخرى (يرجع تاريخها إلى ستة أشهر) من ستانلى بالكونجو . . . وكان كيتشنر قد لف الرسائل فى صحيفة « ستاندارد » اللندنية الصادرة فى ١٥ سبتمبر ، وقد ألقاها خدم جوردون فى فناء « السراى » ، ولم يعثر عليها إلا مصادفة ، فقرأها فى لهفة ، إذ كانت أول أنباء يطلع عليها منذ أسابيع عديدة . ولكن نبأ فيها أثار حنقه ، فكتب :

> « توديع اللورد ولسيلى فى محطة فيكتوريا ، ليقود « حملة إغاثة جوردون » ! ! ! كلا ! بل إغاثة حاميات السودان . . . إننى أعلن جازما وللمرة الأخيرة ، إننى لن أغادر السودان حتى يتاح لكل راغب فى مغادرته أن يبرحه ، وما لم تقم حكومة تعفينى من الأعباء ، ولهذا فإذا جاء أى رسول أو رسالة بالأمر بالرحيل ، فلن أطيع وإنما ، سأمكث هنا ، وأسقط مع المدينة ، وأخوض كل المخاطر » .

لماذا لم يكن بوسعهم أن يفهموا هذا ؟ كان بارينج هو الملوم ، فقد تقاعس عن موافاته بالجنود حين طلبهم . كان بارينج مسئولاً عن كل نكبة حاقت بهم . وقد كتب جوردون صفحات عنه ، ثم مزقها من يومياته ، ثم عاد يحمل عليه فى يوم آخر . كانت ثمة إشارة من الخديو توفيق يقول فيها إن « بارينج » كان يعتزم مرافقه اللورد « ولسيلى » — بالإبل على الأرجح — فعلق جوردون عليها بقوله : « كانت ثمة ضحكة خفيفة حين سمعت الخرطوم أن « بارينج » كان يتأرجح قادماً ، فهكذا فهمنا برقية توفيق . . إله النقمة النظامى قادم » !

ولم تكن حملات جوردون على جرانفيل ، وزير الخارجية ، أقل مرارة . وقد كتب على لسانه : « هل سنضطر للذهاب إلى الخرطوم ؟ لماذا ؟ سيكبدنا هذا الملايين ، فيالها من عملية تعسة ! ماذا ، أنرسل الزبير ؟ إن ضميرنا ينكمش من هذا ، إنه (الضمير) مطاط ، ولكنه لم يصل فى مرونته إلى هذا الحد . فهو « الزبير » متعاقد مع الشيطان . . أفتظنون أن ثمة طريقة للإمساك به (جوردون) فى هدوء ؟ » وفى مكان آخر ، يصور جرانفيل وقد فتح نسخة من « التايمز » ، فاكتشف باستياء أن الخرطوم كانت بعد صامدة ، فيهتف . « لماذا قال بوضوح إنه لم يكن يملك الصمود لأكثر من ستة أشهر ، وكان هذا فى شهر مارس (ويحصى الشهور حتى أغسطس) ! عجباً ، كان كان ينبغى أن يسلم ما الذى ينبغى عمله ؟ سيصرخون طلباً لحملة . . إنها ليست مادة للضحك . يا لهذا المهدى البغيض » !

كانت تعليقات صبيانية ، مؤسفة ، غير منصفة . . ومع ذلك ، كان فى كل شىء مما كتبه جوردون أو تخيله ، قدر من الحقيقة . وكانت هذه الفورات — على كل حال — تساعد على تخفيف وطأة تلك الأيام الساحقة المملة ، التى لم يكن فيها ثمة ما يشغل باله المضنى عن قلقه الذى لم يكن ينتهى !

ولو أن جوردون علم بنصوص الأوامر التى صدرت لولسيلى ، لكان قد ازداد سخطاً على بارينج وجرانفيل . فقد وضعت هذه الأوامر فى القاهرة ، وكانت كما يلى : « الهدف الأول للحملة فى جنوب وادى النيل ، هو إخراج الجنرال جوردون والكولونيل ستيوارت من الخرطوم . فإذا حقق هذا الهدف ، فلا تمارس أية عملية هجومية أخرى من أى نوع » . وهكذا كانت الكتيبة تسعى ببطء إلى

جنوب مديرية دنقلا ، لإنقاذ رجل كان قد مات ، وآخر لم يكن يبغى النجدة .. لم يكن يبتغيها بهذه الشروط على أية حال ، اللهم إلا إذا أخرجت الحاميات ، وأقيمت فى السودان حكومة مناسبة .

وشرع جوردون يولى مسألة الحكومة المقبلة مزيداً مطرداً من اهتمامه . كان الزبير بعد خير حل . فليعين حاكماً عامـاً وليعهد إلى جوردون بمديرية خط الاستواء ، وإلا فليدخل الأتراك السودان ويحكموه ، أو فليبحثوا عن رجل كفء آخر يقبل حكم السودان بمعونة مالية من مصر . وخطرت لجوردون فكرة جديدة . لماذا لا يعين ذلك الشاب كيتشنر ؟ .. صحيح أن عمليات مخابراته كانت مرتبكة — فما من واحد تقريباً من حملة رسائله وصل إلى الخرطوم — إلا أن بيكر أطنب فى مدحه فى رسالته .. إذن، فليعينوا هذا الضابط الشاب حاكماً عامـاً . وقد أرسل جوردون إلى كيتشنر نفسه رسالة اقترح فيها هذا التعيين .

تلك كانت لمحة إلهام عجيبة ، لأن كيتشنر كان — بطريقة ما — أكثر العسكريين جدارة بمستقبل زاهر ، لا فى حملة ولسيلى فحسب ، وإنما فى الجيش البريطانى كله . كان — إذ ذاك — فى الرابعة والثلاثين ، طويلا (ست أقدام وبوصتان) ، ذا عينين زرقاوين ثاقبتين ، وقد اكتسب سمعة لهدوء أعصابه ، وعزمه ، ودقته . وكان فارساً ماهراً ، وقد ألّف قوة من ١٥٠٠ من المحاربين غير النظاميين على حدود السودان ، فى أوائل الحملة . وكانت فيه لمحة من جرأة لم تكد تبين فى شخص الجنرال المهيب الذى صاره فيما بعد . ولما كان صديقاً لستيوارت ، فقد ألحّ فى أن يؤذن له بأن يندفع خلال أراضى البدو ليقابل السفينة (عباس) فى بربر ، وثار غضبه حين كبحه ولسيلى . وقد عرف كضابط مجتهد ، يهوى التنقيب عن الآثار ، ويتكلم الفرنسية والعربية والتركية — إلى حد ما — ولا يحفل بالنساء . وما كان ذنب كيتشنر أن رسائل جوردون التى خرجت من الخرطوم ، فاقت فى عددها الرسائل التى دخلت إلى الخرطوم ، فمن الممكن دائماً العثور على راغبين فى مغادرة المدينة المحاصرة ، ولكن ما أقل الراغبين فى الدخول إليها ! وقد خاض كيتشنر أخطاراً غير عادية فى محاولة استمرار المراسلات ، حتى لقد جرؤ على التوغل فى أراضى العدو ، متنكراً أحياناً كبدوى ، حاملا معه زجاجة

سم لينتحر إذا ما أسر . وعندما كشفت الصحف مغامراته حوالى ذلك الوقت (نوفمبر ١٨٨٤) ، أحاطت باسمه هالة من المجد الرومانتيكى وحظى بسمعة كتلك التى أصابت لورنس فى بلاد العرب !

ومن ثم ، فقد كتب جوردون فى يومياته ، وهو يقدر أهمية هذا العسكرى الشاب الذى لم يقابله قط : « يحسن بمن يأتى إلى هنا أن يعين ميجر كيتشنر حاكماً عاماً ، فمن المؤكد — بعد الذى حدث — أن بقائى بات مستحيلا . (ويالها من راحة) ! . . ثم يرتد ذهنه إلى بارينج ، فيكتب :

« إذا تأرجح بارينج قادماً إلى هنا كمفوض بريطانى ، فسأعتبره قد كفر عن أخطائه ، وسأصفح عنه . فنحن نادراً ما نتبين مركزنا . وبعد عشر سنوات أو اثنتى عشرة ، لن يكون لبارينج ، ولا للورد ولسيلى ، ولا لى ، ولا لايفلين وود (القنصل العام بالقاهرة) ، آسنان ، وسنفقد السمع ، وسيكون بعضنا قد أصبح فى عداد الماضى ، فلن يأتى أحد ليتزلف إلينا ، وسيقدر لأكثر من بارينج جديد وولسيلى جديد أن يبرزوا ، من بين من يسموننا « الأراذل » و « المخرفين » . . وهذا جدّ مهين ، لأننا — كل واحد منا — نظن أننا مخلدون . ذلك الجنرال الهرم المسكين ، الذى ظل سنوات بأكملها يعيش عاطلا خاملا . . على مقربة من منتدياته ، لا يعنى أحد بزيارته . . إن رصاصة فى المخ خير من أن يذوى ضوءه دون أن يكترث له أحد ! »

أفيحسن به أن ينتحر إذن؟ لقد خامرته الفكرة . بل إنه بث متفجرات تحت « السراى » ، لينسفها فى لحظة وهو بداخلها . ولكنه نبذ الفكرة لأنها « عمل من خصائص الله » .

وأصبح جوردون يطيل فترة بقائه على سطح « السراى » يوماً بعد يوم ، حيث كان بوسعه أن يرى كل ركن من قلعته ، حتى حصن (أم درمان) على الضفة المقابلة من النهر ، وحيث كان بوسع جنوده أن يروه ، وكان لهذا أهميته . وكان يقول لنفسه إنه لم يكن من سبيل لإصلاح هؤلاء الجنود . . . وما لم يتبينوا أن عينيه عليهم ، فإن الحراس كانوا ينامون فى مراكزهم ، والأوامر تنسى ، وكل امرئ يكذب !

أما خدمه فى « السراى » فلم يكونوا خيراً من جنوده تقريباً : « إنك

لا تملك أن تفيد منهم وهم فى هذه الثكنات يأكلون ، أو يُصَلون ، أو ينامون ، أو يرقدون مرضى ، وإنهم ليدركون ذلك . ولابد لك أن تكون فظًّا إذا أردت الإفادة منهم (وأخشى أننى هكذا كثيراً) . فقد ترغب فى إرسال أمر عاجل ، وإذا خادمك « يـَقـِبّ ويغطس »[1] ، ولا تملك أن تزعجه . ما أجملها من بلاد لامتحان صبرك ! والعجيب حقًّا ، أن خدمى يكونون دائماً فى الصلاة ، عندما أكون سيء المزاج ، وهى حالتى فى كثير من الأوقات . وهكذا تتبع الصلاة تطوّر مزاجى ، ولو كان رائقاً لصاروا وثنيين ! »

ولم يحن يوم ١٢ نوفمبر ، حتى كان المهدى قد نصب مدافعه ، المدافع التى كان قد أخذها من « هيكس » ، وبدأ فى قصف الخرطوم ! . . وكانت قذائفه طائشة فلم تكد تحدث أى ضرر ، ولكنها كانت ذات مفعول فى تثبيط القوم الذين أصبحوا يعانون من سوء التغذية . وسرعان ما بدأت الأحداث تأخذ تطوراً ينذر بالشر : فإن واحدة من خير البواخر التى كانت قد بقيت فى الخرطوم ، جنحت تحت نيران العدو ، ولم يعد بد من تركها . وفى الوقت ذاته أحاطت قوات المهدى بحصن (أم درمان) ، وعزلته عن الخرطوم والنهر . وظل جوردون قادراً على التخاطب مع قائد الحصن المصرى بصيحات البوق ، ولكن المهدى أوتى — هو الآخر — نافخ بوق على معرفة بالإشارات ، فلما كان بوق جوردون ينطلق بالنداء : « تعالوا إلينا » ، من سطح « السراى » ، كان الراد يوافيه من معسكر البدو هازئاً : « تعالوا إلينا » . ولم يكن ثمة أمل لحصن (أم درمان) — على أية حال — ما لم تصل الحملة فى موعد مناسب . وفى أوائل نوفمبر ، تسنى استرداد شحنة كبيرة من الغلال كانت قد سرقت وهرّبها تجار الخرطوم ، مما أتاح للحامية نجدة مؤقتة . ولكن جوردون لم يلبث — فى ٣١ ديسمبر — أن قدر أنهم لم يعودوا قادرين على الصمود لغير عشرة أيام أخرى !

وأصبح كلما خرج من « السراى » التف حوله حشد من النساء صائحات يطلبن الغذاء . وأخذت قذائف مدافع العدو وبنادقه تشتد وطأة ، يوماً بعد

---

(١) هكذا عبر « جوردون » عن الصلاة . . الركوع والسجود . (المترجم)

يوم . وكان لدى البدو مدفع مصوب إلى « السراى » ، فكانت القذائف ترتطم بعنف بأحجار الجدران السميكة، ولكن دون ما ضرر كالمعتاد . وكتب جوردون :

« يتعثر المرء فى الساعة الثالثة صباحاً فى نعاس قلق . وإذا دقات الطبل « طب ، طب ، طب » ! وتسرى كالحلم ، ولكن المرء لا يلبث أن يزداد يقظة ، ويتكشف للعقل أن المرء ما يزال فى الخرطوم . والسؤال التالى ، أين ذلك الطبل المتواصل ؟ ويذكو الأمل فى أنه سيصمت . كلا ، بل إنه يستمر ، ويزداد شدة . وتخطر للمرء فكرة : « أترى لديهم ذخيرة كافة ؟ » (عذر الجنود السيئين) . ويجهد المرء نفسه بالتفكير . أخيراً ، لا جدوى ، لابد أن ينهض المرء ، وأن يصعد إلى سطح السراى ، ثم : برقيات ، وأوامر ، وإيمان ، وسباب ، حتى حوالى التاسعة صباحاً » .

واستطاع استبقاء مصنع السفن ماضياً فى العمل بطريقة ما ، وفعلا صنع مهندسوه باخرة جديدة تحل محل تلك التى فقدت . « وأرادت المدينة أن تطلق عليها اسمى ، ولكنى قلت : « لقد سجنت معظمكم ، أو غبنتكم ، فلست أخشى أن تنسونى ! » . وأطلق على السفينة اسم « الزبير » . فلقد ظل بوسع جوردون — من آن إلى آخر — أن يمزح ، فكان يطلق على المهدى « صاحب القداسة » . ولكن وطأة القلق الرهيب لا تلبث أن تعاوده : « . . لا يوجد شخص أستطيع أن أركن إليه . . لقد سئمت حياتى ، فهى قلق مستمر ، نهاراً وليلا ، وليلا ونهاراً » .

وكان النهر قد بدأ ينخفض ، فإذا الضفاف الموحلة التى بدأت تجف ، تقرب العدو . وكتب جوردون فى ١٣ ديسمبر :

« الآن ، افهموا هذا . إذا لم تأت الحملة العسكرية — ولست أطلب أكثر من مائتى رجل — فى عشرة أيام، فإن المدينة قد تسقط . ولقد بذلت أقصى وسعى من أجل شرف بلادى . وداعاً —

سى . جى . جوردون »

« . . لم ترسلوا لى أية معلومات ، بالرغم من أن لديكم كثيراً من الأموال»

وكانت هذه آخر مذكرة – تقريباً – وصلت من الجنرال جوردون . وحزم أوراق يومياته : أوراق البرقيات ، وقصاصات الورق المشمع ، والخرائط الصغيرة التى كان قد خططها ، والرسوم التى رسمها بالريشة والمداد . . وخاطها جميعاً فى قطعة من القماش ، وكتب على الغلاف :

« أحداث فى الخرطوم : يوميات الجنرال جوردون . لا أسرار فيها تتعلق بى . تفتح إذا قدر لها النشر – سى جى . جوردون »

وأسْلِمَت الطرود إلى ربان الباخرة (بوردين) . وفى ١٥ ديسمبر ، أقلعت السفينة – تحت نيران العدو الكثيفة – إلى (متمه) .

الفصل الرابع عشر

سقوط النيل

لم تحن نهاية ديسمبر سنة ١٨٨٤ ، حتى كانت طليعة الحملة قد بلغت النيل عند (كورتى) ، بين (الدبة) و (مروى) ، وأصبحت فى موقف يمكنها من الشروع فى زحف نهائى على الخرطوم . وتقرر انتهاج خطة جوردون : فتمضى كتيبة فى النيل ، عبر انحنائه إلى الشرق ، مجتازة (أبا حامد) و (بربر) ، بينما تسير كتيبة أخرى — بقيادة سير هربرت ستيوارت [1] — عبر الصحراء مباشرة إلى (متمه) ، حيث كان معروفاً أن بواخر جوردون فى الانتظار . ولقد منعت الحكومة البريطانية « ولسيلى » من أن يقود الطليعة ، فبقى فى دنقلا ليجمع قواته . ولم يكن يبدو ما يدعو إلى العجلة المستيئسة . وفى ٣٠ ديسمبر ، وفد على المعسكر — فى (كورتى) — أحد رسل جوردون ، يحمل رسالة على قصاصة بحجم طابع البريد ، جاء فيها : « الخرطوم بخير — ١٢ / ١٢ / ٨٤ — سى . جى . جوردون » . على أن الرسول قال إنه أمر بأن يذكر شفهياً إن المؤن فى الخرطوم كانت تتناقص بسرعة ، وإن على الحملة أن تصل بأسرع ما يمكن . وجدير بنا أن نتذكر أن أحداً لم يكن قد قرأ آخر دفعة من اليوميات التى كانت على الباخرة (بوردين) فى (متمه) ، على بعد ١٦٠ ميلا .

وبدأ سير هربرت ستيوارت زحفه — صباح ٣٠ ديسمبر — مع مائة جندى بريطانى ، و ٢٢٠٠ جمل ، فوصلوا (آبار جقدول) بعد ثمانية وتسعين ميلا . وهناك أمر بإقامة مركز ، ثم عاد إلى (كورتى) وحده لإحضار دفعة أخرى من ١٦٠٠ رجل و ٢٤٠٠ جمل . وفى ١٣ يناير التأم شمل الكتيبة كلها ، واستؤنف الزحف إلى مساء ١٦ يناير ، حينما أبلغوا أن قوة شديدة من الأعداء تكمن أمامهم ، فضربوا خيامهم حول (آبار أبى كليه) وتجلى أنهم متأهبون للمعركة . أما سير هربرت ستيوارت ، فقد أقام معسكره فى الخلاء على ثلاثة أميال ونصف الميل .

---

(١) لا يمت بصلة إلى الكولونيل ستيوارت الذى قتله البدو . (المؤلف)

وفى صباح ١٧ يناير ، تقدم للهجوم . وانقض الفرسان البدو بكل ضراوة فنجحوا فى أن ينفذوا خلال الصفوف البريطانية ، حيث دار القتال يداً بيد بين الإبل ، وانتهت المعركة فى خمس دقائق، فانسحب البدو مخلفين ١١٠٠ قتيل على الأرض، بينما كانت خسائر البريطانيين أقل من ٢٠٠ .

وفى نفس الليلة ، استولى البريطانيون على آبار أبى كليه . ثم استأنفت الكتيبة سيرها – فى الساعة الرابعة من مساء اليوم التالى – نحو (متمه) ، على ثلاثة وعشرين ميلا . وواصلوا السير طيلة الليل ، فما إن انبثق فجر ١٩ يناير ، حتى لاح النيل لأبصارهم . ولكن العدو كان يسد طريقهم إلى النهر . ومرة أخرى ، شن البدو هجومهم خلال الأشجار والأعشاب الكثيفة . وكان الجنود البريطانيون قد قضوا ٤٨ ساعة بدون نوم ، ولكنهم استطاعوا صد الهجوم ، وفقدوا ١١١ رجلا بين قتيل وجريح ، وبلغوا ضفة النهر إلى الشمال قليلا من (متمه) . وأصيب سير هربرت ستيوارت بجرح قاتل، وكان نائبه « بيرنابى » قد قتل فى « أبى كليه» فآلت قيادة الكتيبة إلى سير تشارلز ويلسون ، وكان من ضباط المخابرات ، ولم يسبق أن قاد جنوداً فى معركة .

وفى صباح ٢١ يناير ، ظهرت أربع من بواخر جوردون، وفضت اليوميات مع خطاب بتاريخ ١٤ ديسمبر ، أعلن فيه جوردون أنه كان يتوقع سقوط الخرطوم بعد عشرة أيام . ثم وصل نبأ مع رسول حمل رسالة أخرى على قصاصة جاء فيها : « الخرطوم بخير . تستطيع الصمود أعواماً – سى . جى . جوردون – ٢٩ / ١٢ / ٨٤ » . ولكن جوردون – فيما اتضح – بعث بهذه الرسالة كمظهر للثقة قد يخدع الأعداء إذا وقعت فى أيديهم . لهذا بات جلياً أن الخرطوم كانت فى أقسى الظروف طيلة أسابيع ثلاثة على الأقل، مما يتطلب من ويلسون الاندفاع دون تلكؤ . ومع ذلك . فقد انقضت ثلاثة أيام فى إصلاح محركات البواخر، وإجراء عملية استطلاع على طول النهر . ولم يتهيأ ويلسون للانطلاق قبل ٢٤ يناير، حين تقدم جنوده على الباخرة « بوردين » مع عشرة من الجنود البريطانيين و١١٠ من السودانيين ، وتبعتهم الباخرة «تل هوين» ، وعليها عشرة آخرون من البريطانيين ، وثمانون من السودانيين ، وهى تجر مقطورة عليها حمولة ثقيلة من الأذرة، وخمسون من الجنود السودانيين . وكان الملاحون من قبيلة «الشايقية» ، أوفدها جوردون من الخرطوم.

وكان النيل قد هبط كثيراً ، فلاقت القافلة الصغيرة المتاعب لفورها . ففى اليوم الثانى لإبحارها ، ارتطمت (بوردين) بصخرة عند الشلال السادس ، فلم يقدر للباخرتين أن يستأنفا سيرهما قبل صباح ٢٧ يناير . وتعطلت الباخرتان مرة أخرى عندما نفد الحشب لوقود الغلايات ، فبات لزاماً جمع غيره من الشاطئ . وإذ اقتربت الباخرتان من الخرطوم ، اضطرتا إلى مواجهة رصاص البنادق المتزايد من الشاطئ ، ولاح لبرهة أنهما لن تجتازاه . وأراد أبناء « الشايقية » الذين كانوا على الباخرتين — وعائلاتهم فى المدينة — أن يبرحوهما لينضموا إلى المهدى فى هذه المرحلة ، ولم يوافق ربانا الباخرتين على البقاء إلا حين وُعدا بعلاوة قدرها ١٠٠ جنيه لكل منهما . ونادى البدو البريطانيين من الشاطئ — فى ثلاث مناسبات متفرقة — ليخبروهم بأنهم وصلوا متأخرين ، وأن الخرطوم سقطت ، وجوردون مات . ولكن أحداً لم يحفل بكلامهم . وأخيراً ، انطلقت (بوردين) — صباح ٢٨ يناير — تحت نيران مدفعية لا تنقطع ، إلى نقطة اتصال النيلين الأزرق والأبيض ، وأصبحت على مرمى البصر من المدينة . ووصلت النجدة التى كان جوردون يطلبها منذ مارس من العام السابق .

وهنا ، نعود القهقرى إلى الخرطوم ، لنرى ما جرى منذ بعث جوردون بآخر رسائله فى ديسمبر : ففى أواخر هذا الشهر ، أوشكت مؤونة الأذرة أن تنفذ تماماً ، وسرعان ما أكل القوم كل حيوان حى : من حمير وكلاب وقرود ، بل وفيران ! . . وكانت معظم النساء قد بعن حليهن فى سبيل الطعام . . ولم يبق للعسكريين والمدنيين — على السواء — سوى ألياف النخيل ونوع من الصمغ يحتوى على قدر ضئيل من المواد الغذائية ، ويسبب مغصاً عنيفاً لبضع ساعات بعد أكله . وأرسل إلى المهدى خمسة آلاف من أبعد المدنيين عن أن يضارّوا ، مع رسالة من جوردون يرجوه فيها أن يرحمهم .

ومع ذلك ظل الجوع يتزايد . وصرح الأب « أورفالدر » فيما بعد ، بأن المجاعة فى الخرطوم — فى الأيام الأخيرة للحصار — لم تبلغ مبلغها فى (الأبيض) قبيل استسلامها . ومع ذلك فلابد أن نقص الأغذية كان شديداً ، فإذا الموتى مستلقون بالمئات فى الشوارع ، بينما كان الأحياء أضعف أبداناً وأوهن عزيمة

من أن يدفنوهم. وكان الجنود يقفون على الاستحكامات — كما ذكر أحد الشهود « أشبه بقطع من الخشب » ، يؤدون أعمالهم فى شرود ذاهل ، لا يكادون يعرفون ما كانوا يفعلون . وفى ٥ يناير ، أطلق قائد أم درمان رسالة بالإشارات بأنه لم يعد قادراً على الصمود ، فاضطر جوردون للموافقة على استسلامه . وأصبح البدو يطبقون على المدينة من كل جانب !

على أن جوردون ظل يجد وسائل لاستمرار قومه فى المقاومة . وانتشرت الشائعات فى المدينة بأن رسلا وصلوا من البعثة ، وأنها توشك أن تصل فى اليوم التالى ، أو اليوم الذى يليه . ووعد الجنود بمرتب عام لقاء كل يوم يصمدونه . وشغل عمال الأحواض بإعداد مراسى للباخرتين القادمتين .

وكانت هذه الإجراءات كفيلة باستبقاء جذوة من الأمل ، ولكن المدينة أصبحت تحت قصف مستمر ، ليل نهار . ولم ينتصف يناير حتى أخذ الجنود المصريون والسودانيون يفرون إلى المهدى . وكان جوردون يقترب من عيد ميلاده الثانى والخمسين . ويتصف الشخص الذى كأنه — كما يبرز خلال أيام الحصار الأخيرة — بأنه كان أقرب إلى أن ينتمى لتراجيدية أسطورية فى حادث تاريخى سجله فنان برسم أو حفر ، منه إلى الحياة ذاتها . فإذا الضابط اليقظ يتلاشى ، وإذا التجوال الدائب يتبخر ، وحسمت الهواجس الداخلية جميعاً ، إذ أدرك جوردون ما كان ينبغى أن يفعل تماماً ، ولو أن الأحداث كانت تقربه من نقطة الانهيار . ولا شك فى أن شعوره بالذنب بقى ، ولكنه كان خبيئاً فى نفسه ، ولابد أنه تضاءل تحت المشاق . ولم يكن الجنود وأهل المدينة يرون منه سوى العزم ، والتقبل الكامل للمسئولية . كان يبدو لهم كشخص مرهوب ، بعيد عن نوعهم . لم يكن ظالماً ولا متزمتاً — فقد كان مسرفاً فى عطفه — وإنما كان غير مكترث البتة بالضعف العادى . ولعله كان موضع احترام — وربما تقديس — لدى أولئك الآلاف من المسلمين الذين كانوا موشكين على الموت فى تلك اللحظة التى سادها اليأس ، ولكنه كان مرهوباً كذلك . وكان المسئولون إذا زاروه ، يشاهدون وهم يرتجفون حين يدخل عليهم الحجرة ، حتى كان بعضهم يعجزون عن إشعال سيجارة لفرط ارتعاش أيديهم .

وقد سجل «البرديني بك» ــ أحد تجار الخرطوم الذين عاشوا بعد الحصار ــ صورة حية عن قرب ، لجوردون فى قصره إذ ذاك ، فقال :

« برغم كل الخطر الذى كان يحدق به ، فقد ظل بمنأى عن الخوف. وأذكر أن بعض أعيان الخرطوم جاءونى فى بيتى ذات مساء ، ورجونى أن أسأل جوردون باشا ألا يضىء حجرات السراى ، لأنها تغدو هدفاً جلياً لرصاصات العدو . فلما ذكرت هذا لجوردون باشا استشاط غضباً ، وقال : « من قال إن جوردون خاف يوماً ؟» وبعد ليال ، كنت معه فى السراى . ولما كانت الأضواء تملأ الحجرات ، فقد اقترحت أن يضع صناديق مليئة بالرمل أمام النوافذ لصد الرصاصات . وإذا به يزداد حنقاً عن ذى قبل ، ودعا الحرس وأمرهم أن يقتلونى إذا تحركت ، ثم أحضر « فانوساً» كبيراً يتسع لأربع وعشرين شمعة . ووضعت معه الشموع فى قواعدها ، ثم رفعنا الفانوس على منضدة أمام النافذة ، وأشعلنا الشموع وجلسنا إلى المنضدة . وإذ ذاك قال الباشا :«عندما قسم الله الخوف على أهل الدنيا جميعاً ، جاء دورى فى النهاية ، ولما يبق خوف يبثه فىّ . فاذهب وأنبئ أهل الخرطوم أن جوردون لا يخاف شيئاً ، لأن الله خلقه بلا خوف » .

وفى ٢٠ يناير ، فزعت الحامية لصوت ١٠١ طلقة من معسكر المهدى ، واتجه الظن إلى أنهم كانوا يحتفلون بانتصار على الحملة القادمة . ولكن التحية كانت ــ فى الواقع ــ حيلة لتغطية هزيمتهم فى (أبى كليه) ، وقد حدس جوردن شيئاً كهذا ، حين أبصر ــ خلال منظاره المقرب ــ النسوة البدويات يبكين على ضفة النهر المقابلة . وضاعف من تبشيره للحامية بأن النجدة كانت فى الطريق بينما أودع ــ فى السر ــ لغماً فى «الترسانة» لتنسف إذا سقطت المدينة . وأمرت الباخرة « الإسماعيلية » ــ التى كانت ترسو أسفل « السراى » ــ بأن تتأهب لتحمل أكبر عدد أكبر ممكن من الركاب ، وعند إشارة معينة ، تنطلق بهم نحو الجنوب فى النيل الأبيض .

ثم استُدْعِىَ فريق من كبار المسئولين فى المدينة إلى اجتماع لم يحضره جوردون

وإنما أخبرهم سكرتيره « قرياقص بك » بأن يرتدوا كامل ثيابهم الرسمية — إذا ما اقتربت أولى سفينتى الحملة من الخرطوم — ويفدوا إلى « السراى »، قال إن جوردون ذكر أنه كان من المحتمل أنّ يدْعى وحده إلى ظهر السفينة ، فعلى المسئولين أن يحتجوا بشدة على القائد البريطانى ، ويصروا على أنهم لن يدعوه يبرح الخرطوم. وأضاف جوردون أنه لم يكن يعتزم الرحيل، سواء وصلت الحملة فى موعدها أو لم تصل .

ولم يعد جوردون يحاول استبقاء الحامية صامدة ، فقد فشلت المحاولة . ثم زايل المدينة كل أمل فى ٢٤ يناير. ويصور « البرديني بك »جوردون ، إذ ذاك قائلا :

« أخيراً طلع صبح يوم الأحد ، فلاحظ جوردون باشا — الذى اعتاد المثابرة على مراقبة حركات العدو من سطح « السراى » — حركة كبيرة فى الجنوب ، وكأنما كان الأعداء يحتشدون فى (كلاكلا) ، أحد الحصون المشرفة على الخندق جنوب المدينة . وبادر باستدعاء كل من حضروا الاجتماع السابق ، وعدد قليل سواهم . فحضرنا جميعاً ، ولكن جوردون باشا لم يقابلنا . ومرة أخرى خاطبنا فرياقص بك قائلا إن جوردون باشا عهد إليه بإخبارنا بأنه لاحظ حركة شديدة فى خطوط العدو ، ويعتقد أن هجوماً يوشك أن يشن على المدينة ، ولذلك أمرنا بأن نجمع كل ذكر فى المدينة من سن الثامنة حتى الشيخوخة ، ونصطف بمحاذاة جميع الاستحكامات ، فإذا لقينا صعوبة فى تنفيذ هذا الأمر ، فلنستخدم القوة . وقال قرياقص إن جوردون باشا يهيب بنا للمرة الأخيرة أن نصمد ، لأنه لم يكن يشك فى أن الإنجليز يصلون خلال أربع وعشرين ساعة . أما إذا آثرنا الخضوع ، فقد أباح للقائد أن يفتح أبواب المدينة ويدع الجميع وطوّح به بعيداً ، وهو يقول : « ماذا أقول بعد ذلك . لم يعد لدىّ ما يقال ، فلن يعود الأهالى يصدقوننى . لقد أخبرتهم مراراً وتكراراً أن النجدة فى الطريق ، ولكنها لم تأت ، ولابد أنهم الآن يظنوننى

أكذب. فإذا أخفق وعدى الأخير هذا، فلن أعود أملك شيئاً. اذهبوا واجمعوا كل من تستطيعون لحماية الخطوط، واستبسلوا فى الصمود. والآن، دعنى أدخن هذه السجاير » (وكانت ثمة علبتان ممتلئتان على المنضدة). وتبينت أنه كان قانطاً، وقد تكلم بلهجة لم أسمعها من قبل. وأدركت إذ ذاك أنه لم يشأ أن يتكلم فى الجمع لفرط انفعاله، وقد ظن أن منظر قنوطه يثبط عزائمنا. وكان كل القلق الذى تعرض له قد شيب شعره تدريجاً. وتركته، فكانت هذه آخر مرة رأيته فيها على قيد الحياة».

وكان المهدى وأمراؤه يدركون تماماً ما يجرى فى الخرطوم. فبسقوط حصن جوردون فى أم درمان، انقطعت كل الإمدادات عن المدينة، وأخذ الهاربون يحملون إليهم آخر أنباء محنتها كل يوم. ومع ذلك فقد كان المهدى متردداً. كان لديه خوف بالغ من الجنود البريطانيين. ويؤكد الأب « أورفالدر » أن ظهور عشرين جندياً إنجليزياً فى الخرطوم كان كافياً لنسف عزمه. وعندما بلغت هزيمة (أبى كليه) أم درمان، ساد معسكر البدو شىء يشبه الذعر. ويقول « أورفالدر » إن المهدى نفسه كان يحبذ التراجع فوراً إلى كردفان، وأعلن فعلا أنه رأى مناما أوعز إليه فيه بالهجرة، كما حدث لمحمد (النبى) نفسه. على أن امراءه الأكثر عدواناً، أشاروا عليه بأن خير لحظة للهجوم قد حانت، فإن الطمى المتخلف عن النيل — الذى كان ينخفض — قد سد جزءاً من الخندق، عند الجانب الجنوبى للمدينة، وكان جنود جوردون أضعف من أن يقيموا متاريس جديدة هناك. فليعبر رجال القبائل النيل الأبيض ثم يجتازوا هذه الثغرة تحت جنح الظلام. فإذا أخفقوا فى هذا الهجوم، كان بوسعهم التراجع إلى كردفان، وإذا نجحوا وسقطت المدينة فستضطر الحملة البريطانية إلى التراجع.

وظل مجلس الحرب منعقداً فى معسكر المهدى طيلة الأسبوع الثالث من يناير. وفى ٢٥ من الشهر — عين اليوم الذى حثّ فيه جوردون الحامية لآخر مرة، والذى كان فيه ويلسون يكافح لاجتياز الشلال السادس على ظهر السفينة (بوردين) — تغلب المهدى على وساوسه، فصدرت الأوامر بشن الهجوم فى الساعات الأولى من الصباح التالى. وسرعان ما بدأت شراذم كبيرة من المحاربين

تعبر النيل . وكان البدو يمضون للهجوم دون خوف من الموت . وقد ذكرهم المهدى — فى خطاب أخير — بأن الجنة أمامهم إذا ماتوا ، وما من شك فى أن أمل نهب أغنى مدينة فى السودان كان يراودهم .

وغرب القمر مبكراً فى تلك الليلة . وفى سكون زحف حوالى ٥٠,٠٠٠ بدوى على الاستحكامات ، مركزين ضغطهم على البقعة التى ملأ فيها الطمى الخندق ، وكوّن حافة من اليابسة تمهد طريقاً إلى المدينة . وتبين أنها من المتانة بحيث تحتمل ثقلهم . وفى الساعة الثالثة من صباح ٢٦ يناير ، استيقظت المدينة على صراخ أهوج عند خطوط الدفاع ، وضجيج طلقات البنادق والمدفعية . ويتذكر الذين قدر لهم البقاء — ممن كانوا على الاستحكامات — اندفاع البدو نحوهم صائحين : « إلى الكنيسة ! إلى السراى ! » ، ثم ساد الهرج كل شىء . ويبدو أنه لم تتح للجنود أية فرصة للدفاع عن أنفسهم ، فقبل تنظيم أية مقاومة ، كانت الشوارع قد امتلأت بسيل من المتحمسين الصارخين المنقضين بحرابهم على كل مخلوق فى طريقهم ... وراحوا يقتلون فرائسهم دون مراعاة لما إذا كانوا مستسلمين أو غير مستسلمين ، ودون تمييز بين رجال ونساء وأطفال . ومن الطبيعى أن معظم الأهالى احتموا بمنازلهم ، ولكن الأبواب سرعان ما اقتحمت ، واندلعت النيران فى كل مكان فاضطرتهم للعودة إلى الشوارع .

ولم تكن بين « السراى » والثغرة التى فتحت فى صفوف الدفاع ثلاثة أميال ، وكان الظلام بعدُ مخيما عندما اندفع أوائل أبناء القبائل إلى فناء « السراى » . وكان جوردون — كما روى البرديني بك — قد جلس يكتب حتى منتصف الليلة السابقة ، ولم ينم أكثر من ساعتين أو ثلاث ، ثم استيقظ على أصوات المعركة عند خطوطه ، فبادر إلى السطح بثياب النوم ليحاول استجلاء ما كان يحدث . وكان على السطح مدفع ، فشرع — فى ضوء الفجر — يطلقه على آلاف البدو المتدافعين إلى « السراى » . حتى إذا لم يعد بوسعه إمالة المدفع إلى زاوية تمكنه من صد «الغوغاء» عن المبنى ، هبط إلى حجرته ، وارتدى بزته الرسمية البيضاء ، وتناول مسدساً وسيفاً ، وذهب إلى رأس السلم ، « فوقف فى أنفة ورباطة جأش ، ويسراه على مقبض سيفه » . وفى تلك الأثناء كان البدو مترددين ، خشية أن

تكون الألغام منبثة حول « السراى » .

ولكن أربعة من أجرأهم لم يلبثوا أن اندفعوا ، فإذا مئات غيرهم يتبعونهم . وانطلق بعضهم إلى السطح حيث كان حرس « السراى » يقفون ، فذبحوهم عن آخرهم . وأسرع بعض آخر يصعدون السلم إلى جوردون ، وهتف أحدهم : « حانت منيتك يا ملعون ! » . ويقال إن جوردون أشار باحتقار ، وتحول معرضاً ، فإن هى إلا لحظات حتى كان قد طعن بالحراب حتى مات ، ولما تشرق الشمس بعد !

واجتُثَّ رأسه – بعد ذلك – وحمل فى منديل إلى أم درمان ليعرض على المهدى أما الجثة ، فبقيت فى فناء القصر طيلة النهار ، يغمد فيها كل مار من أبناء القبائل حربته . ثم طوحت من فوق السور .

وهناك عدة قصص أخرى عن نهاية جوردون . . فيؤكد بعض الشهود أنه دافع عن نفسه ، وشق طريقه إلى الحديقة قبل أن يتكاثروا عليه . ولكن المؤكد على الأقل – أن وفاته حدثت فى نطاق القصر ، فى الساعات الأولى من الصباح وقد رأى سلاتين وهو مكبل بالأغلال فى أم درمان – حيث كان سجيناً عندما افتضح تراسله مع الخرطوم – رأى الرأس حين حمل إلى خيمة المهدى فى ذلك اليوم . وأقيم الرأس بعد ذلك ، على إحدى الأشجار ، فكان كل من مر به يرجمه بالحجر ويلعنه .

ولقد استاء المهدى لوفاة الجنرال ، إذ كان يأمل أن يأسره ، ويكبله بالأغلال مثل سلاتين ، حتى يعتنق الإسلام . كذلك كان بين البدو من أعجبوا بجوردون . فكان من الأقوال الشائعة بينهم – كما يذكر « أورفالدر » – أنه كان جديراً بأن يعتبر رجلا كاملا ، لو أنه كان على دينهم .

واستمر النهب والتذبيح ست ساعات رهيبة ، حتى بلغ عدد الموتى ٤٠٠٠ شخص تقريباً . واغتيل « هانسال » – القنصل النمسوى – فى داره . وأسرت نسوة كثيرات كن قد حلقن شعورهن وارتدين ثياب الرجال ، فمزقت ثيابهن واغتصبت أعراضهن . وجُلد التجار وأصحاب البيوت حتى كشفوا عن مخابئ حليهم وأموالهم ، وافتدى كثير من الخدم أنفسهم بالوشاية بمخدوميهم . وكان هياج البدو للتدمير يعادل شهوتهم للنهب ، وهشمت المرايا والأدوات الخزفية فى كل

دار ، وُبعثرت قطع الأثاث ، وانتزعت الستائر عن الجدران . . وكان الآدميون أهم بغية ، فأعدم منهم الكثيرون فى البداية ، ثم انتزعت ثياب الرجال والنساء، وسيقوا عرايا عبر النهر إلى « أم درمان »، حيث حشروا فى حظائر مكشوفة ، فمات منهم كثيرون من العطش تحت الشمس اللاهبة . وحظيت أملح النساء والفتيات بمعاملة أفضل ، فأودعن ثلاث حظائر مسقوفة ، إحداهن لغير المتزوجات من ذوات الشباب والحسن ، وأخرى للمتزوجات المحتفظات بقسط من الملاحة ، وثالثة للجوارى السوداوات . وكانت الغنائم — سواء من العبيد أو الثروات — تودع « بيت المال » ، وفقاً لحكم المهدى ، لتقسم على الرجال حسب أوضاعهم الاجتماعية وبلائهم فى القتال . ومن ثم أقبل المهدى على حظائر النساء فاختار لنفسه أصغرهن وأحلاهن ، من سن الخامسة فصاعداً ، ثم تبعه الخلفاء الثلاثة والأمراء .

وفى تلك الأثناء، كان فى الخرطوم تسابق أهوج بين كبار البدو، على امتلاك أحسن المساكن القائمة على النهر . واستولى « عبد الله » — كبير الخلفاء — على حديقة جوردون . ولم يمض وقت طويل ، حتى كانت كل البنايات على تباين أحجامها ، مقارًّا للأمراء وحاشياتهم وزوجاتهم وأتباعهم . وتنوسيت كل فكرة عن الزهد — إلى حين — وأقيمت مآدب النصر والحفلات طيلة الليل، وسط أنقاض الخرطوم . واستمر السلب فى المدينة يومين ، ولم تكن حركة السفن تنقطع وهى تنقل الأسلاب والأسرى إلى أم درمان ، ولكن المهدى لم يلبث أن فرض سلطانه ، فأعيد فتح « الورش » ، وبذلت محاولات لإخلاء الشوارع ، وبدأت الخرطوم تشبه — من جديد — معسكراً مسلحاً ، وقد حل البدو محل جنود الحكومة على الخنادق والمدافع . وظلت الحرائق مندلعة هنا وهناك، والدخان ينعقد فوقها ، بينما كانت البنايات المخربة خاوية على طول ضفة النهر ، ولم تعد لها سقوف تحميها من الشمس .

هكذا كان الموقف فى الخرطوم بعد ظهر ٢٨ يناير ، يوم عيد الميلاد الثانى والخمسين لجوردون ، حين ظهر « سير تشارلز ويلسون » وأسطوله الصغير أمام المدينة ، وقوبلوا بطلقات كثيفة من المدفعية البرية والمدافع الرشاشة من الضفتين ،

حتى إذا أصبحوا على مرمى البصر من دار الحكومة ، لم يروا علماً يرفرف عليها . وكانت البنايات المهدمة وطلقات العدو أجلى أدلة تؤكد سقوط الخرطوم ، ولكن ويلسون — زيادة فى التأكد — أمر بأن تقترب السفينة (بوردين) من الشاطئ ، حيث سمع أن كل دفاع فى المدينة قد انهار . وكانت السفينتان قد ظلتا تحت النيران أربع ساعات ، وخطر الغرق يتهددهما ، فأمر ويلسون بالابتعاد عن الشاطئ ، وانطلقتا فى عصر اليوم شمالا ، تحت قذائف كثيفة هوجاء من الشاطئين .. وكما هى الحال فى مثل هذا الانسحاب ، أُغفلت كثير من تفصيلات رجوع السفينتين ، ولكنها كانت رحلة أشبه بالمعجزة . فقد ظلت بين السفينتين وقاعدتهما فى (متمه)، كثير من أخطار الملاحة ، بعد أن تجاوزتا حدود المدينة بمائة ميل . ولم يعد البدو — وهم يرونهما متقهقرتين — يخشون الجنود البريطانيين وبنادقهم ، فأخذت طلقات البنادق تطاردهم من البر ، وانحرفت (بوردين) فى إحدى المراحل فأقامتها الروافع فى الاتجاه الصحيح فى جزء ضيق من المجرى . وما لبثت الباخرتان أن جنحتا ، فغادرهما راكبوهما . وبينما كان البريطانيون يحاولون الخروج من هذا المأزق ، أرسل المهدى إلى ويلسون رسالة جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وبحمده الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله . من العبد المستعين بالله المتوكل عليه ، محمد المهدى ابن عبد الله ، إلى الضباط البريطانيين والشايقية وأتباعهما ، هداهم الله إلى الحق . سلموا تسلموا . . فقد أصبحتم بقية ضئيلة ، كالقشة فى قبضتنا ، ونخيركم بين أمرين . . . »

إما أن يرسلوا مندوباً ليتبينوا أن الخرطوم قد دمرت وأن جوردون قد مات ، ثم يستسلموا . . وإما أن يحاولوا القتال فيكون نصيبهم موتاً لا مفر منه ، وعذاباً فى العالم الآخر .

وقرروا أن يواصلوا انسحابهم ، فاستطاعوا أخيراً أن يصلوا إلى (متمه) بمعونة السفن التى كان جوردون قد أرسلها . ولقد بدا لولسيلى — حين سمع بالأنباء المفجعة — أن السبيل الوحيدة الممكنة ، هى السعى إلى (بربر) ، وإعداد قواته

---

(١) الرسالة منقولة عن الترجمة الإنجليزية التى أوردها المؤلف . (المترجم)

لهجوم مضاد فى الخريف . ولكنه حين طلب الإذن من لندن لتنفيذ خطته ، تلقى أمراً بالعودة . ورجعت الحملة فى شىء من الارتباك .

وقبل سقوط الخرطوم ببضعة أشهر ، كان اسم جوردون قد بات يتردد فى كل بيت — لا فى إنجلترا وحدها ، بل فى بقية الدنيا — فيثير أقصى إشفاق وإعجاب فى كل مكان تقريباً . وراح الرأى العام — فى طول بريطانيا وعرضها — يتتبع زحف ولسيلى فى لهفة وتحمس ، ويناقش فرص جوردون للصمود . وكانت الآمال قد تأججت فى أواخر يناير ، واستبقت مجلة (بانش) الحملة ، إذ نشرت فى أوائل فبراير رسماً كاريكاتوريا ملء صفحة ، يبين الجنرال عند أبواب الخرطوم يرحب بالحملة ، وكتبت تحته : « أخيراً ! » . ولكنها فى الأسبوع التالى ، اضطرت إلى نكسة أليمة ، مهينة ، فنشرت رسماً كاريكاتوريا آخر يبين « بريتانيا » (رمز بريطانيا) ملتاعة ، وذراعها على عينيها ، والمهدى — فى المؤخرة — يدخل المدينة راكباً والأسرى بين يديه ، وكتبت تحته « بعد فوات الأوان ! »

أما مشاعر الملكة فيكتوريا ، فقد وصفها سير هنرى بونسونبى ، سكرتيرها الخاص :

« كانت الملكة فى حالة فظيعة بصدد سقوط الخرطوم ، والواقع أن لهذا نصيباً كبيراً فى مرضها . كانت تهم بالخروج حين تلقت البرقية فأرسلت تستدعينى . ثم خرجت إلى مسكنى ، على مسافة ربع ميل ، وسارت إلى حجرتى شاحبة ترتجف ، وقالت لزوجتى ، التى جزعت لمرآها : فات الأوان ! »

وتلقت أخت جوردون فى (ساوثهامبتن) ، الرسالة التالية بخط الملكة :

« كيف أكتب إليك ، أو كيف أحاول التعبير عما أشعر ، إذ أفكر فى عدم نجاة أخيك العزيز ، النبيل ، البطل ، الذى خدم بلاده وملكته بكل هذا التفانى ، وكل هذه البطولة ، وبتضحية للذات تعلى شأنه فى العالم . وإن حزنى ليجل عن الوصف لعدم الوفاء بوعود المساعدة وما أكثر ما كنت أتعجل دون انقطاع أولئك الذين سألوه أن يذهب ! الحق إن الفاجعة أسقمتنى . . فهلا أعربت لشقيقتيك

الأخريين وأخياك الأكبر عن عطفى الصادق ، وشعورى البالغ اللوعة ، والوصمة التى لحقت بإنجلترا ، من جراء المصير القاسى ، برغم بطوليّته ، الذى لقيه أخوك العزيز » !!

وكان رد الآنسة جوردون أن أرسلت للملكة إحدى نسخ التوراة التى كان جوردون يمتلكها ، فوضعت فى صندوق زجاجى بقلعة وندسور .

على أنه كانت ثمة أصوات ناشزة . كان « ويلفريد سكاوين بلنت » فى وسط هذا الفريق الصغير ، الذى كان — برغم عطفه على جوردون نفسه — يكره فكرة العدوان البريطانى فى السودان برمتها . كان هؤلاء يؤمنون بأن المهدى — كعرابى فى مصر ، من قبله — كان زعيما لانتفاضة شعبية ، وأن السودان يجب أن يترك ليبنى مصيره بنفسه . فكان خطأ — من البداية — أن أوفد جوردون ، وكان خطأ من جوردون أن بقى فى الخرطوم ، وكان خطأ إجراميا من الحكومة إرسال بعثة حربية . وقد كان « بلنت » وأصدقاؤه — حتى ديسمبر ١٨٨٤ — يصفون « واسيلى » ورجاله بـ « الجزارين » ، وكانوا يهيجون الخواطر للمطالبة بمفاوضات صلح مع المهدى . ولقد وصل نبأ سقوط الخرطوم إلى لندن فى ٥ فبراير ١٨٨٥ ، فسجل « بلنت » الحدث بهذه العبارات : « نبأ سقوط الخرطوم المجيد ، غير المتوقع . . لم أتمالك أن رحت أغنى فى القطار طيلة الطريق إلى الريف » .

بيد أن معظم معاصرى « بلنت » كانوا يعارضونه فى هذا الأمر معارضة مطلقة وحارة . كان الرأى العام البريطانى يشعر كمملكته بحزن عميق . ويتحدث سير « فيليب ماجنس » — فى دراسة حديثة عن كيتشنر — عن « نوبة هستيرية دامت حوالى ثلاثة أسابيع ، وكانت تجتذب الجموع — كل يوم — إلى (داوينج ستريت) بأمل أن تتاح لهم فرصة الصفير والسخرية من رئيس الوزراء » . ورؤى أنه من المجافاة للشعور أن ذهب جلادستون إلى المسرح ، فى مساء اليوم الذى تلقى فيه نبأ موت جوردون بالذات ، فسفهته الجموع فى شارع « سانت جيمس » .

وكان جميلاً من مجلس العموم أن أقر منح أسرة جوردون ٢٠,٠٠٠ جنيه ، وإن بدا للرأى العام أن موت الجنرال لا يعوّضه مال . كانت وصمة إنجلترا لطخة

لا تمحى ، ومن غير رئيس الوزراء كان يلام على التردد والتلكؤ ؟ أين راح كل حديث جلادستون المطمئن عن جوردون وأنه « فى الحشية » ولا داعى للإنزعاج ؟

وكان هناك أشخاص أقل شأناً، اتخذوا هم الآخرون هدفاً لغضب الشعب : هل كان جنود« كتيبة النجدة » صادقى العزم حقاً ؟ أما كان بوسعهم أن ينطلقوا بمزيد من السرعة ؟ وعندما وصلت تفصيلات الحملة ، وأذيع أنه كان بوسعها إنقاذ جوردون بالتأكيد لو أنها تعجلت وصول السفينتين إلى المدينة يومين ، فار شعور السخط نحو سير تشارلز ويلسون . فلماذا تلكأ ثلاثة أيام فى (متمه) وقد كان بوسعه أن ينطلق إلى الخرطوم فى الباخرة « بوردين » يوم ٢١ يناير . . أى قبل سقوط الحامية بخمسة أيام .

وكان رد « ويلسون » على هذا أنه سأل الضباط المصريين — الذين كانوا قد وصلوا إلى (متمه) من الخرطوم — فلم يكن بينهم من اعتقد أن المدينة كانت وشيكة السقوط ، ولا من رأى أن ثمة حاجة ملحة للعجلة . ومن ثم فقد اتبع المبادئ الحربية الصحيحة ، إذ اتخذ قاعدته بقرب « متمه » ، واستطلع النهر قبل أن يتقدم . كذلك كانت هناك عوامل تأخير كثيرة، غير مرتقبة ، فى الرحلة بالنهر. إذ كانت ثمة حاجة مستمرة لجمع الوقود من الشاطئين . وكثيراً ما أخطأت السفينتان الممرات الصالحة فى المجرى ، فكانتا تحتكان بالقاع . كما كان من الجدير تذكر أن القوة كانت مؤلفة من « أورطة » واحدة ، وأن الأوامر لم تكن تنص على « إنقاذ الخرطوم » ، بل على « الاتصال بجوردون » ، ريثما تصل الحملة كلها فى مارس .

وقبل أن ينتهى العام ، كانت يوميات جوردون قد سلمت إلى أخيه « سير هنرى جوردون » ، ونشرت فى مجلدين لقيا رواجاً كبيراً بين يوم وليلة . ولقد حذفت بعض عبارات من أقذع سباب جوردون لجرانفيل ، ولكن معظم ما أشار به إلى « بارينج » بقى . ولم يتمكن بارينج من الرد إلا بعد أن أحيل إلى المعاش سنة ١٩٠٧ — وقد أصبح « إيرل كرومر » — وأصدر كتابه « مصر الحديثة » . وكان رده كريماً ، فقد ذكر أن موجة « تقديس » لجوردون « استولت على إنجلترا — ١٨٨٥ — فأخرست كل انتقاد له » . ومع ذلك فقد كان ثمة أوجه كثيرة للنقد

فى الواقع . إذ تناسى جوردون – فى الخرطوم – كل التعليمات ، وأجبر – ببقائه هناك – الحكومة البريطانية على إيفاد حملة لنجدته . وقال بارينج أن جوردون :

« . . . كان متطرف العناد ، مندفعاً ، متهوراً ، منساقاً لانفعالاته . . عرضة لنوبات من السورات الجامحة التى كثيراً ما كانت غير معقولة . كان يتخذ آراء سريعة دون تعمد، ونادراً ما يصمد طويلا على رأى . . . ويبدو أنه كان خلواً من موهبة عظيمة القيمة للموظف العام فى دولة نائية ، تلك هى أن يكون بروحه فى مكان آخر . كان خياله يجمح فعلا . ومع ذلك ، فكلما حاول أن يصور لنفسه ما كان يجرى فى القاهرة أو لندن ، وصل إلى استنتاجات لم تكن غير جديرة به فحسب، بل كانت مضحكة ، كما يتجلى من تشبيهه نفسه بـ « أوريا الحثى »[1] ، موعزاً بذلك إلى أن الحكومة البريطانية كانت تأمل أن يقتل وزملاؤه أو يأسرهم المهدى. والواقع أنه لا يبدو أن الجنرال جوردون أوتى أية صفة من الصفات التى كانت تؤهله للاضطلاع بالمهمة الصعبة التى تولاها ، عدا شجاعة شخصية، وخصب وافر فى الحيل الحربية ، ونفور محتدم – كان يسىء توجيهه أحياناً – من الغبن والظلم والخسة بكل أوصافها ، ومقدرة على اكتساب النفوذ على أولئك الذين كان يتصل بهم شخصيا ، وكان عددهم محدوداً بحكم الصرورة . . ولكن – بعد كل هذا – كم تتجلى شخصية الرجل عظيمة فى المنظر الأخير من مأساة السودان . . . »

ويخلص باربنج إلى أن ثمة غلطتين كبريين ارتكبتها : غلطته هو، إذ وافق على ذهاب جوردون إلى الخرطوم . . وغلطة «جلادستون» بعدم إيفاد الحملة مبكراً .

هذه كانت حجج وإقرارات رجل إدارى محنك . ومع ذلك ، فقد بدا لمعظم

---

(١) ورد ذكر « أوريا » فى التوراة فى عدة مواضع ، منها سفر « صموئيل الثانى » إصحاح ١١ ، وسفر « الملوك الثانى » إصحاح ١٦ ، و « أشعيا » الإصحاح ٨ ، و « عزرا » إصحاح ٨ ، و « نحميا » إصحاحات ٣ ، ٤ ، ٢١ . ومن العسير الحكم على ما كان يقصده جوردون من تشبيه نفسه بأوريا .
(المترجم)

الناس فى إنجلترا ــ بطريقة مبهمة ، غير واضحة ، ولكنها مؤثرة ــ أن الحقيقة ظلت كامنة فى أطواء الجنرال جوردون . وظل هناك السؤال قائماً بصدد ما إذا كان جدال بارينج قد قربه من الحكمة بأكثر مما قربت تقلبات السياسة ــ نتيجة الانفعالات والإيحاءات الغريزية ــ جوردون منها . ولقد كان مسلك بارينج نفسه كتلة من المتناقضات ، فهو قد عارض تعيين جوردون ثم أيده ، وهو قد تأخر فى تأييد الزبير إلى أن فاتت الفرصة ، وهو قد أشار على الحكومة بنفض يديها من السودان وعاش ليرى اليوم الذى أصبح فيه من أشد المنادين بفتحه .

وشيئاً فشيئاً ، اتضح مع مر الأعوام أن حملة « ولسيلى » قامت ــ من البداية إلى النهاية ــ على سوء إدراك وفهم ، وأن جوردون كان أكثر من أى امرىء استجلاء لهذا . فما كانت المسألة قط مجرد إخراج جوردون من الخرطوم . ولو أن ولسيلى وصل إلى الحامية فى الوقت المناسب ، لتبين ولابد أنه لم يكن من الميسور إخلاء السودان فجأة ، بل كان من الضرورى إقامة نوع ما من الحكم أولا ، ولوجد نفسه مضطراً إما إلى إيقاع الهزيمة بالمهدى أو السعى للصلح معه . ولم تكن سياسة ترك السودان وشأنه ــ ليرتد ويغرق فى الفوضى ــ سياسة مشرفة أو صحيحة .

وكان ثمة رجل آخر فى أفريقيا ــ فى سنة ١٨٨٥ ــ أبصر هذا من البداية ، بمثل الجلاء الذى أبصره به جوردون . ذلك هو المبشر الإنجليكى « ألكسندر ماكاى » ، الذى سنتعرف عليه فيما بعد ، والذى كتب من (بوجندا) يقول :

> « لقد ذبح (المهدى) الجنرال جوردون بوصفه رئيس الأتراك ، وعلق رأس البطل الإنجليزى . . بينما جرى الجيش الإنجليزى راجعاً ، وقد نسى أنه جاء ليفعل ما كان جوردون قد جاء ليفعله ، ألا وهو إنقاذ حاميات السودان . تأملوا المنطق ! لأن الجنرال لم يستطع أن يفعل ذلك بدون جيش ، فإن الجيش لم يستطع هو الآخر أن يفعله ، بالرغم من أنه أوتى قائداً آخر » !

وكان لبتون الإنجليزى فى قبضة المهدى ، ولكن الحملة لم تتخذ أية خطوة لتتبين ما إذا كان حيا أو أنه مات ، فضلا عن إنقاذه . كما أهملوا سلاتين ، وكذلك « أمين » الذى ظل صامداً فى مديرية خط الاستواء ، إلى جانب الحاميتين

المصريتين اللتين أصبحتا تنتظران مصيرهما المحتوم ـ الذبح ـ فى (كسلا) و (سنار) . . ويمضى ماكاى قائلا :

« ولكن الإنجليز ولوا الأدبار ، دون أن يعرف أحد لذلك سبباً ، لدهشة البدو جميعاً ، ولخيبة رجاء كافة الأوربيين والمصريين المريرة . وعادوا مهرعين تاركين الحاميتين تحت رحمة السفاكين . وأصبحت مديريتا بحر الغزال وخط الاستواء الكبيرتان ، مجرد فريستين لإغارات طلاب الرقيق من دراويش حزب المهدى. وهذا التخلى عن بلاد الزنوج الشاسعة ، والتى حكمها جوردون يوماً بأعظم أسلوب إنسانى ، وُصف فى إنجلترا بأنه « ترك شعب شجاع ليستمتع بحريته » . حقا ، إن الدراويش قد تركوا وشأنهم ليعيثوا فساداً فى أجمل جزء من أفريقيا الوسطى . وفوق هذا ، فإن الذين تركوهم هم الإنجليز الذين قالوا يوماً أنهم مصممون على القضاء على تجارة الرق هناك »[1].

وبدا أن موت جوردون قد ختم فصلا لم يكن قد انتهى . ولكن رغبة إنجلترا فى الانتقام لم تستمر طويلا . فما إن حل أبريل ١٨٨٥ ، حتى كان استنكار الرأى العام قد بدأ يخبو ، وشرعت أنباء أزمة جديدة على الحدود الشمالية الغربية للهند تملأ أعمدة الصحف . وواصل لورد ساليسبورى ـ الذى هزم جلادستون فى يونيو وأعاد حزب المحافظين إلى الحكم ـ سياسة الجلاء عن السودان . وبدا أن « النيل الأبيض » كان أشبه بمرض متردد وراجع ، فهو يشتد ، ثم يزول من تلقاء ذاته . . وكذلك اختفى « النيل الأبيض » من السياسة البريطانية فى تلك الآونة . ولكن جوردون كان قد أثار فى إنجلترا مسائل أساسية ، ومشاعر كانت جد عميقة . . فلم يكن الصراع بين الإسلام والمسيحية قد انتهى ، ولم يكن ممكناً أن تظل أفريقيا الوسطى منطقة فراغ سياسى . إذ بقيت شرذمة قليلة من الأوربيين معتصمة عند منبع النهر ، مصممة على ألا تبوء بالفشل .

---

(١) يبدو من خلال السطور ، أن حمية « ماكاى » لم تكن إشفاقاً على السودان ، بقدر ما كانت إشفاقاً على « حرمان » السودان من « الاستعمار » البريطانى . وسنلمس فى فصول مقبلة حقيقة المهمة التى كان « ماكاى » يؤديها فى أفريقيا . (المترجم)

الفصل الخامس عشر

طيف المهدى

استقر « المهدى » فى فبراير ١٨٨٥ - ولما يكتمل شهر على سقوط الخرطوم - فى (أم درمان) ، عبر النهر ، وهو لم يزل يردد اعتزامه فتح مصر والعالم ! . . . وكخطوة أولى فى هذا الاتجاه ، أوفد قوة كبيرة من الفرسان تتعجل انسحاب « ولسيلى » شمالا إلى وادى حلفا . . على أن شخصية المهدى كانت تطوى حبا جامحاً للمتعة الحسية ، فما إن رفع الحصار ، حتى أسلم نفسه إليها تماماً على ما يظهر . وإذا جاز لنا أن نصدق الأوربيين الذين كانوا أسرى لديه فى تلك الفترة ، فإن الحياة التى شرع يمارسها فى (أم درمان) تبدو أشبه بفكرة المسلمين عن « النعيم » . وقد ازداد بدانة بدرجة هائلة فى أواخر العقد الرابع من عمره ، وكان فى خلوته - فى حريمه - يحاط بالجواري لخدمته ، فكأنه ملكة نحل ضخمة منعمة وسط خلية تنبض بالنشاط . وكان جسده يدلك كل يوم بزيت الصندل ، وتُستبدل بالجبة المرقعة سراويل سابغة ، وأقمصة من منسوجات رقيقة ، كانت تعطر قبل أن يلبسها . وكانت عيناه « تكحلان » ، ليزداد تألقهما !

وفى شهر رمضان - الذى كان التقشف التام يُفْرض خلاله على أتباعه - كانت حشود هائلة تجتمع فى (أم درمان) ، لانتظار ظهور « السيد » فى أوقات الصلاة . ولم تكن لدى الجماهير فكرة ما عما كان يجرى داخل بيت المهدى ، حيث كان يضطجع على وسائد من الحرير الموشى بالقصب ، وحوالى ثلاثين من حريمه يتناوبن خدمته : « عائشة » أولى زوجاته الأربع الشرعيات ، وزنجيات من قبائل النيل ، لونهن فى سواد القارة ، وحبشيات فى لون النحاس ، وفتيات تركيات صغيرات أصفى لوناً ، ولا تتجاوز أعمارهن الثامنة أو التاسعة ! . . ويقول الأب أورفالدر : « كل قبيلة من قبائل السودان تقريباً كانت تقدم إليه من تمثلها » . وكن يجلسن القرفصاء على السجاجيد العجمية المبسوطة على الرمل ، بعضهن يستجلبن النسائم للمهدى ، بمراوح من ريش النعام ، وغيرهن يدّلكن

قدميه ويديه . وهكذا كانت ساعات النهار القائظة تنقضى فى غيبوبة من المتعة لا تقطعها عليه سوى المشاورات الحربية القصيرة .

وعندما يشتد الضجر بالجموع المحتشدة فى الخارج ، لطول تأخره ، كان المهدى ينتزع نفسه ، فتسارع الجوارى لمساعدته على النهوض ، ويغيّبن قدميه فى نعليه الأحمرين ، ويبدلن بالسراويل والأقمصة جبته المرقعة وقفطانه وعمامته . وبهذا الزى يسير — وسط الجموع الهاتفة المعجبة — إلى المسجد . وفى مروره ، كانت النسوة يرتمين على الأرض خلفه ، ويقبلن مواطئ قدميه ، معتقدات أن هذا يشفى أمراضهن ويكفل للحوامل سهولة الوضع !

وكان يجتاز النهر مع جزء من حريمه أحياناً ، فيقضى يوماً أو اثنين فى قصر جوردون . وفيما عدا ذلك ، كان نادراً ما يبرح أم درمان . ويبدو أن « عائشة » الزوجة الأولى — كانت العبقرية التى تسيطر على أهل هذا البيت البشع . وكان لها جهاز تجسس يمكّنها من كبح الدسائس الوافرة فى أرجاء المدينة، كما كان نفوذها كبيراً جدًّا . وقد اعتادت زوجات كبار الأمراء أن يزرنها عندما يغيب المهدى عن جناح « الحريم » .

وفى تلك الأثناء، بدأ شىء من النظام يسود الخرطوم . فبعد أن انجلت فورة التدمير ، وُجِدت « الترسانة » النهرية غير مصابة بضرر بالغ ، فسرعان ما أعيدت للعمل ثانية . وانتشلت السفن الباقية من أسطول جوردون الصغير وأصلحت ، كما عاودت « ترسانة » الأسلحة صنع الخرطوش والرصاص . . وأصْلحت مطبعة الحجر ، وأخذت دار سك النقود تطبع صورة المهدي على قطع جديدة من الذهب والفضة[1] ، وأنشئت على ضفة النهر مخازن هائلة للبضائع التى أخذت من الأهالى ، وأقيمت الأسواق لبيع الغلال والماشية التى أصبحت تجتلب ثانية من المناطق الريفية المحيطة . وكان من الممكن أن تبدو المدينة بمظهر الرخاء فعلا ، لولا البؤس المدقع الذى حاق بالمهزومين . فقد وقع كثيرون منهم فرائس وباء « الجدرى » الذى استشرى بعد الحصار بقليل ، ومات آخرون فى

---

(١) طرحت للتداول كذلك القروش المصرية ، وريالات « ماريا تيريزا » ، والجنيهات الذهبية الإنجليزية ، وهى جزء من ٥٥٠٠٠ جنيه نهبت من مدينة(بربر) . وعلى مر الوقت ، كان ثمة كثير من التزييف فى أم درمان ، لم تستطع عقوبة الإعدام ذاتها أن توقفه ! (المؤلف)

السجون من وطأة الجوع وسوء التغذية . وأخذ كل يوم يشهد ضحايا جدداً يساقون للمحاكمة أمام محاكم المهدى . كان يكفى للمرء أن يتهم بأنه « تركى » ، أو كافر ، أو تنسب إليه أية فرية ملفقة ، ليُقْضَى بسجنه وجلده . وكانت جحافل الجواسيس والمخبرين تجعل أى نوع من الحياة — ما عدا الطاعة العمياء — مستحيلا ! .

ومع ذلك ، فقد ظل كثير من أبناء القبائل وعائلاتهم يصلون إلى الخرطوم وأم درمان من المناطق المتاخمة على النيلين الأبيض والأزرق . واستمرت نشوة الانتصار عالقة بالجو طيلة شهور القيظ : مارس وأبريل ومايو ويونيو . وظل الرسل يأتون بأنباء التراجع البريطانى ، وأنباء الضعف المتزايد الذى حل بآخر معقلين للمصريين فى (كسلا) و (سنار) . ولم تعد الجبة رمزاً للإيمان الروحى وحده ، بل أصبحت رمزاً للقوة الحربية كذلك . وبات الشيوخ البدائيون الذين كانوا يحصون ثرواتهم — قبل عام — بقطعان الماعز ، يحلمون بقيادة الجيوش إلى حومة الوغى وفرض سلطانهم على مديريات بأكملها !

ووسط هذه المثيرات ، مات المهدى ! . . ولقد تعددت الروايات وتباينت عن نهايته : فتقول إحداها إن امرأة — كان قد اغتصبها — دست له السم . وقيل إنه ظل يعانى آلام الاحتضار أسبوعاً قبل أن يموت . ولا شك فى أن أشهر الانغماس فى الغواية لم تدع له قوة يقاوم بها المرض ، سيما فى مكان غير صحى كأم درمان . ومهما يكن السبب ، فالمؤكد أنه مات هناك فى ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥ . . أى أنه لم يعش بعد جوردون سوى خمسة أشهر [١] .

وكان الخليفة « عبد الله » قد اختير — قبل ذلك بزمن — خليفة له ، دون أعضاء أسرة المهدى ذاته . وكان عبد الله من عشيرة « التعايشى » ، من قبيلة « البقارة » ، وهى من أفقر القبائل الرحالة ، وأشدها ضراوة ، فى غرب السودان . وكان طويلا ، مهيب المنظر ، ذا بشرة بلون « الشيكولاتة » الداكنة ، تتناثر فيها آثار الجدرى بكثرة ، وذا أنف طويل أشم ، ولحية قصيرة دب فيها الشيب . وقد يسرت له الارتقاء إلى مركز الخليفة سيطرته على فريق قوى من فرسان « البقارة » ،

---

(١) يبدو أن المؤلف لم يستطع أن يغالب روح « الشماتة » غير الكريمة ، فى هذه المقارنة ! (المترجم)

وكان يحجل قليلا ، متأثراً بجرح خلفته رصاصة فى فخذه . وقد أضاف الأوربيون القلائل — الذين كانوا فى أسره وأسعفهم الحظ بالنجاة إلى شمال النيل ، حيث العمران — كل نعت ونقيصة إلى اسمه : فهو ماكر ، كثير الشك ، مغرور ، سريع الغضب ، قاس ، مستبد إلى درجة لا يصدقها العقل . ومع ذلك ، فالكل يجمعون على أنه أوتى قدراً من سحر الشخصية المقترن بالقسوة . وما من شك فى أنه — كيفما كان — اتسم بالدهاء والطاقة المتفجرة . ويقال إنه لم يكن يقرأ أو يكتب ، ولا كان يعرف شيئاً يذكر عن العالم الخارجى — وقد سأل « سلاتين » مرة عما إذا كانت فرنسا « قبيلة » ! — على أنه كان من ذلك النوع الذى يشق طريقه فى السياسة بالفراهة والإدراك الفطرى ، ولم يكن به بأس كجندى فى حرب العصابات بالسودان . أما أنه كان شجاعاً ، فأمر لا يحتاج لقول ، إذ كان المهديون جميعاً شجعاناً ، ولكنه لم يغرق قط فى الرفاهية كما فعل المهدى . كان يقنع من الأبهة بالإقامة فى بيت من طابقين فى أم درمان ، يحف به حرس خاص وحاشية من « الطواشى » . وكان مدمناً معاشرة النساء إلى حد كبير ، ولكنه ظل يرتدى الجبة المرقعة الملطخة ، ويحرص على الذهاب إلى المسجد فى مواعيد الفرائض الخمس تماماً ليؤم العشائر فى الصلاة . وقد انضم إلى المهدى وهو فى الخامسة والثلاثين تقريباً ، وأثبت — من البداية — أنه من أشد الأنصار إخلاصاً . فعزز مكانته بالزواج من إحدى بنات المهدى الذى رشحه ليخلفه منذ حصار الخرطوم . ويقال إنه فى أشهر التداعى الأخيرة — فى حياة المهدى — سيطر تماماً على أزمة الأمور .

وسار « عبد الله » فى أوائل عهده بحكمة ، فلم يحاول أن يحط من اسم المهدى ، بل سعى — على العكس — إلى إعلائه واتخاذه ستاراً ليشدد قبضته على أبناء القبائل ، فكان يردد أنه يرى أحلاماً يظهر فيها المهدى بنفسه ليحضه على المضى فى الحرب المقدسة ، وكانت هذه الأحلام تُروَى على الأمراء وأتباعهم مجتمعين فى المسجد ، كما لو كانت وحياً إلهيًّا ، أو أوامر مباشرة من النبى نفسه ، حتى إن الشهرة التى أقامها المهدى لنفسه فى حياته لم تكن تقاس بتلك التى استطاع خليفته أن يقيمها لـ « طيفه » . وقد أنشأ للمهدى ضريحاً فى أم درمان ، بمواد

أجتلبت من الخرطوم عبر النهر ، وكانت قبة الضريح – التى بلغ ارتفاعها ثمانين قدماً – ترى من مسيرة ثلاثة أيام . وقد ثوى فيه جثمان المهدى ، يعطره البخور وتحيط به شموع ذات ضوء خافت هادئ . واعتبر هذا الضريح أقدس مزار للمسلمين ، تُؤْثَـر زيارته على زيارة مكة . ولم يمض طويل وقت حتى شرع المسلمون يتوافدون على أم درمان من أماكن نائية مثل (سمرقند) و (بخارى) – فى آسيا الوسطى – بل من مكة ذاتها . . .

ويبدو أن عبد الله قد ابتكر بالسليقة المبادئ الأولى لإقامة حكم غاشم ، فقمع بسرعة بوادر انتقاض من الخليفتين المزاحمين له ، وأنزل بأسرة المهدى هواناً مطرداً . وأوفد جنوداً جدداً إلى أطراف البلاد بقيادة أولئك الذين كانوا ينازعونه مكانته ، لا سيما أقوى الأمراء ، مثل « واد النجومى » – الذى هزم « هيكس » فى سنة ١٨٨٣ ، والذى قاد الهجوم على الخرطوم – و « أبو] عنقه » الذى ارتقى من عبد إلى قائد جيش . وركز الخليفة موارد قواه فى أم درمان ذاتها ، فجعل من « البقارة » – وكانوا حوالى ٧٠٠٠ – صفوة حاكمة ، وأقام أخاه غير الشقيق « يعقوب » على جهاز للحكم غير مصقول ولكنه كامل العدة . وسرعان ما أصبح كل منصب مهم فى يد فرد من أسرة عبد الله أو من قبيلته . ولقد كانوا مكروهين ، لكنهم كانوا كذلك مرهوبين ، وكان افتقادهم حب الشعب داعياً لأن يزدادوا التفافاً حول الخليفة .

وكانت ثروة الدولة كلها تجمع فى « بيت المال » ، الذى أصبح أشبه بمخزن شامل لكافة الأنواع ، من أسلحة وذخائر وأسلاب من الحرب ، إلى غلال وحيوان ، إلى عبيد كانوا يُكَبَّلون بالسلاسل فى صف طويل على ضفة النهر ، كالخيل فى انتظار البيع ! . والواقع أن الرق بُعِث من جديد فى حياة المهدى ، واتسع فأصبح تجارة رئيسية ، فكان يُعْرَض فى سوق أم درمان – فى أى يوم – حوالى خمسين أو ستين امرأة وبضعة رجال . وكانت أجسامهم النحيلة تدلك كالعادة بالزيت لتكتسب نعومة فى المظهر ، ويروح أصحابهم ينادون بأنساب ضحاياهم ،كما يفعل الوسطاء فى مزايدات بيع الماشية ؛ فهذا الرجل من قبيلة « الدنكة » ، عمره ثمانية عشر أو تسعة عشر عاماً ، ابن زعيم ، وهكذا .

وكان الطلب على النساء أكثر منه على الرجال ، وعلى السوداوات أكثر منه على النحاسيات اللون . وتراوح ثمن الجارية الصغيرة الجميلة — التى كانت تخلع ثيابها وتتقبل الفحص المعتاد قبل شرائها — بين ٥٠ و ١٠٠ ريال (ما بين ١٠ و ٢٠ جنيهاً) . ولاح للأوربيين الأسرى — فى أم درمان — أن معظم العبيد كانوا يقبلون الانصياع والقيود كما يقبلها الحيوان الأليف . فقد كانوا يتوقعون أن يقضوا أعمارهم فى الأسر ، ولم يعد لهم من أفق آخر ، بعد أن انحسر نفوذ العالم الخارجى عن السودان . وقد لاحظ الأب « أورفالد » أن النساء كن أقسى على عبيدهن من الرجال ، ولم يكن من المستبعد أن ترى عبداً مجرّحاً بسكين جزاء عدم الطاعة . وكثيراً ما كان الجرح يمسح بالملح ، كما كان العبد يتعرض لأنواع من البتر أسوأ . كذلك كانت المحاكم توقع على العرب أنفسهم عقوبات وحشية كهذه ، إذ خرجوا على شريعة المهدى . ولم يكن من ملاذ من هذه الأحكام إلا بالالتجاء إلى الخليفة ، الذى كثيراً ما كان يأبى التدخل ، فإن قسطاً كبيراً من ثروته الشخصية كان يأتى من مصادرة ممتلكات المسجونين . وكان الخليفة نفسه هو الذى يقرر العقوبة فى كافة القضايا المهمة — كالعصيان والتمرد — قبل أن تعرض القضية على المحكمة . وكانت العقوبة عادة ، الإطاحة برأس المتهم !

وقدر « أورفالدر » أنه كان فى أم درمان حوالى ثمانين من الأوربيين ومن على شاكلتهم — عداه هو والراهبات الأربع اللائى نجون من بعثته التبشيرية — وكثير منهم من اليونانيين الذين أسروا على الباخرة (عباس) عندما اغتيل ستيوارت . وكان بعضهم — مثل « مارتن هانسال » ، نجل القنصل النمسوى — قد أسروا فى الخرطوم ، بينما كان غيرهم — كالألمانى « تشارلس نيوفيلد » — من التجار الذين جاءوا بأمل الاتجار فى السودان ، فأحاط بهم السيل المهدوى . ولقد تظاهر كثير منهم باعتناق الإسلام إنقاذاً لحياتهم ، فسمح لهم بأن يكسبوا عيشهم بصناعة سلع تجارية صغيرة وبيعها فى السوق . وكان من العجيب أن يبقى واحد منهم على قيد الحياة . أما « سلاتين » و « لبتون » ، فكانا يكبلان بالأغلال لأشهر كاملة ، وكانا دائماً مهددين بالموت . وما لبث « لبتون » أن استخدم فى ترسانة السفن فى الخرطوم ، حيث مات بعد أن أضناه الجوع والمرض ،

فى سنة ١٨٨٨ ، ولم يكد يبلغ الثلاثين من عمره . وقد خلف وراءه زوجة حبشية وابنتين ، اختفين على الفور فى غمرة حياة الحريم فى أم درمان .

أما « سلاتين » فكان أسعد حظـًا ، إذ كان نافعاً للخليفة كمترجم ، وكنوع من « الياو ران » . وكان « عبد الله » يحب أن يعابثه كما يعابث القط الفأر ، فيلقيه أحياناً فى السجن ، ويعامله أحياناً كمقرب ذى حظوة . وكانت الحظوة لا تقل سوءاً عن السجن ، لأن سلاتين كان يضطر إلى أن ينام خارج خيمة الخليفة ، وأن يجرى بجانب حصانه فى الاستعراضات العسكرية ، وأن يجلس أمامه معقود الساقين فى المسجد ، خلال الاجتماعات الدينية التى لم تكن تنقطع . وعند ما قدر له أن يهرب ، ظل يذكر تصلب عضلات ساقيه كمحنة من أقسى ما تعرض له .

أما راهبات بعثة الأب « أورفالدر » التبشيرية ، فقد وُزِّعن فى البداية على الأمراء ، وعُذِّبن عذاباً نكراً حين رفضن اعتناق الإسلام . ثم سمح لهن — فيما بعد — بأن يعشن مع الجالية اليونانية ، وأن يكسبن عيشهن بحياكة الجبب لرجال القبائل . ومن الطبيعى أن كل أوربى كان يحلم بالهرب يوماً ، ولكن مئات من الأميال فى الصحراء كانت تفصلهم عن المراكز المصرية . ولم يكن بوسعهم أن يفعلوا شيئاً بدون إبل وأدلاء كان من المستحيل توفرهم لهم .

ولقد اتسعت أم درمان — عقب سقوط الخرطوم — فأصبحت مدينة كبيرة ، تمتد ستة أميال على ضفة النيل ، وتتألف من عدد كبير من أكواخ سمراء ذات أسطح مستوية ، وشوارع ضيقة قذرة تفضى فى تعرج والتواء إلى ساحة الاجتماعات بجانب ضريح المهدى ، ويسكنها ١٥٠,٠٠٠ نسمة أو أكثر . وكانت الحركة دائبة فى المدينة ، ففى شوارعها يختلط النساء والرجال من أبناء حوالى خمسين قبيلة ، والقوافل لا تنفك تصل على الطريقين التجاريين المفضيين من (كردفان) فى الغرب ، و (بربر) فى الشمال . كذلك كانت ثمة تجارة غير منتظمة لنقل السلع عبر الصحراء إلى البحر الأحمر والحدود الجنوبية لمصر . ولقد أتلفت الخطوط البرقية عدا خط كان ممتداً — تحت النهر — من الخرطوم إلى أم درمان . وكانت الرسائل تفد من الأقاليم النائية على ظهور الإبل . وبجوار ضريح المهدى ، أعدت أرض فضاء يقدر طولها بألف ياردة وعرضها بثمانمائة ، لتكون مسجداً

للصلاة ، وجعل لها سقف من حصر كبيرة أقيمت على أغصان متشعبة الأطراف ، فبدا المكان كالغابة . وهناك ، كان الأتباع يجتمعون كل يوم بالآلاف ، فيجلسون على الأرض معقودى السيقان ، منكسى الأبصار ، لينصتوا إلى الخليفة وهو يصف أحلامه والإلهامات التى كان يتلقاها . ولم يكن أى أمير أو شيخ ذى مكانة يجسر على التغيب عن هذه الاجتماعات ، إذ كان الخليفة يحب أن يكونوا جميعاً تحت بصره ، وكان حضور الصلاة دليلا على الولاء .

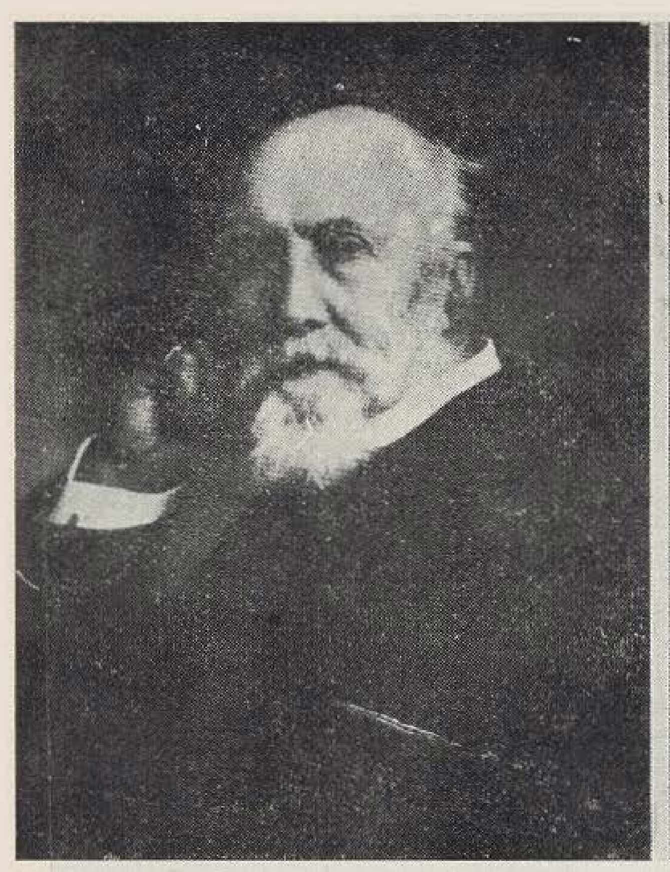
ولم تترك الخرطوم لتنافس أم درمان طويلا . . فبعد ما كانت عليه من حال ، وجد « أورفالدر » حين زارها ، فى أبريل ١٨٨٦ أن معظم البنايات المهدمة قد أصلحت ، وأن بعض الأمراء وكبار الأغنياء من التجار أقاموا فيها فى رفاهية نسبية . . ولم يلبث الخليفة أن أصدر أوامره بعد بضعة أشهر بإخلاء المدينة ، وأمهل الأهالى ثلاثة أيام فقط لمغادرتها ! . . ثم انقضت شراذم العبيد على البيوت الخالية فسووها بالأرض ، ولم يترك قائماً من البنايات الكبيرة سوى قصر جوردون وكنيسة الإرسالية النمسوية . كما لم يُسْمَح لصناعة بالبقاء فيها عدا الترسانة النهرية وترسانة الذخيرة . وأصبحت الخرطوم — بعد ذلك — مكاناً مخيفاً منفرداً ، تنبت خلال جدرانه النباتات البرية الكثيفة ، وغمرت رمال الصحراء الشوارع المقفرة .

ومرة أخرى ، عادت السيطرة للتقشف ، فأعلن الخليفة أن المال قد ألهى العقول عن مراعاة التعاليم السماوية ، وفى ذلك خروج على شريعة النبى . على أن هذا المبدأ لم يطبق على الخليفة ذاته ، إذ سرعان ما ازداد ثراء بدرجة فاحشة ، وكان يستخدم حوالى ١٠٠٠ عبد فى ضياعه الخاصة ، التى كانت تأوى مجموعات من أصائل الإبل والجياد ، وقطعاناً من الماشية . وكان حرسه خمسمائة رجل يركبون خلفه . وبنفس طريقة التضخم الاستبدادى ، ضُمت إلى حريمه حوالى ٤٠٠ امرأة . وكانت الزوجات الشرعيات يقمن فى منشآت منفصلة ، كل منهن مع حاشيتها من الجوارى و « الطواشى » . ومع ازدياد سلطانه ، لم يعد سوى الملق والإطراء ، فكان على الذين يقابلونه أن يقتربوا على أربع ، وأبصارهم إلى الأرض . وكان من الحكمة أن يولوه من الإجلال والتوقير ما كانوا يولون المهدى !



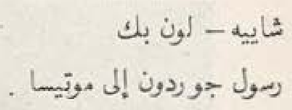
السيد برغش

سلطان زنجبار .



سير جون كيرك

عزز نفوذ الإنجليز فى زنجبار .



شابيه – لون بك

رسول جوردون إلى موتيسا .

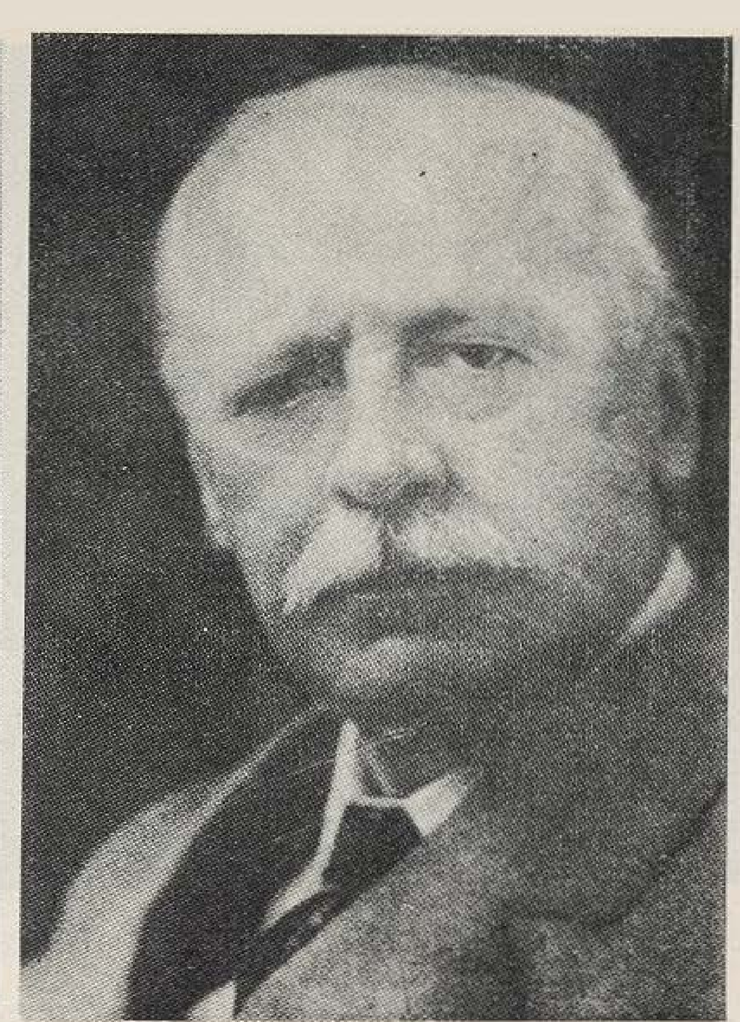
تيبو تيب

محمد بن السيد – أكبر تجار الرقيق .









فوق – إلى اليمين

سير إيفلين بيكر

الذى أصبح « إيرل كرومر » رأس الاستعمار البريطانى .



فوق – إلى اليسار

رومولو جيسى

ساهم فى ارتياد النيل بين عامى ٧٣ – ١٨٧٦ .

أحمد عرابى باشا

تعاونت الرشوة والخيانة والخديو على تمكين الانجليز منه .

ولم يكن « عبد الله » يفارق أم درمان ، بل كان يجلس هناك وسط نسيجه[1] السياسى ، وأمراؤه يحفون به . وكانت له شبكة من الجواسيس منتشرة من المدينة إلى أقصى المديريات ، تمده بالأنباء . وباتت أيامه متشابهة : يستيقظ فى الفجر فيسعى إلى المسجد للصلاة ، ثم يعود إلى داره لينام ساعتين . وبعد أن يجتمع بأمرائه ، كان ينطلق فى موكب ليتفقد جنوده فى أطراف المدينة ، وعلمه الأسود الكبير يتقدمه ، وحاشيته تتبعه . وأخذ يزداد بدانة كالمهدى من قبله ، حتى بات لزاماً أن يرفعه إلى سرج جواده زنجى ضخم . وكان يوم الجمعة ذا نظام خاص ، ينطلق فيه فرسان يصل عددهم إلى ٥٠,٠٠٠ راكضين نحو العلم الأسود وهم يشهرون سيوفهم ، ويطلقون بنادقهم فى الهواء . ويتلو ذلك الإفطار . وبعد صلاة الجمعة ، كان الخليفة يعقد مجلسه الدينى ؛ حتى إذا كانت الساعة الثانية ، عاد إلى داره ، أو جلس يُصَرِّف الأمور فى « بيت المال » . وبعد صلاة المغرب ، كان يدلى بمزيد من الأحاديث والتصريحات . وبعد تناول العشاء ، كان القوم يجتمعون للصلاة الخامسة والأخيرة ، ثم يأوى الخليفة إلى حريمه ، فلا يُشاهد إلا فى فجر اليوم التالى .

كان حكماً دينيًّا من أقسى الأنواع وأغشمها ، لا يمكن أن يقال إنه مما يستهان به . فقد كان فى وسع العرب أن يفخروا بأنهم قتلوا خمسة من الضباط البريطانيين ، وهزموا حملتين كاملتين ، وقد عجزت أحدث الأسلحة الأوربية عن صدهم ، فشعروا بأنهم منيعون . وما كانوا ليلاموا على اعتقادهم بأن العناية الإلهية كانت وراء كل هذا . وإذا كان الخليفة قد شجع كل لون من الإغراق الجنسى — بما فى ذلك اللواطة ، كما يقول « سلاتين » — فإنه ظل يفرض الشريعة الإسلامية ، ويبدو — ولو ظاهريًّا على الأقل — فى أقصى مظاهر التقوى . ولقد أمضى فى طريق الطغيان المألوف ، ومع ذلك فقد ظل من العسير القول بأنه كان يملك أن يفعل غير ذلك ليستبقى قبضته على مثل أولئك الأتباع الهمجيين الجامحين . .

ثم إن عزلته أعانته كذلك إلى حد كبير . فبعد تراجع ولسيلى إلى الحدود

---

(١) يقصد المؤلف من هذا التعبير تشبيهه بالعنكبوت ! (المترجم)

المصرية (حيث حلّ جيشه واستبدلته به قوة داعية للحدود) لم يعد يتسرب إلى العالم الخارجى سوى النزر اليسير من أنباء ما كان يجرى فى أم درمان ومديريات النيل الأبيض. ولم يقدر لغير فئة قليلة من جنود الحاميات المصرية – وكان عددهم ٣٠,٠٠٠ – أن تعود إلى الدلتا. وراح الميجر «ف. ز. وينجيت» – الذى كان نجمه فى ارتفاع كضابط شاب لامع على رأس مخابرات الجيش فى مصر – يجمع خيوط المعلومات بقدر ما كان يتيسر له من تصريحات الأسرى الهاربين، ومن الرسائل والمستندات التى كانت تصادر. على أنه لم يكن قد قدر بعد لأوربى ممن يعتدّ بشهادتهم أن يسلك طريقه إلى (وادى حلفا). وظلت المراكز الأمامية المصرية تقف كحرس على حافة بحر عدائى لا تمخر عبابه سفينة، ولا تلقى أمواجه على الشاطئ سوى القليل جداً من الحطام. وكانت الشائعات تأتى – من وقت لآخر – بقيام ثورات وانتقاضات فى أم درمان والمديريات النائية، ولكن ما من شىء كان مؤكداً، إذ كان داخل السودان أشبه بالتبت، نائياً معزولا!

وفى تلك الفترة، كان الاتجاه العام فى أوربا – لا سيما فى إنجلترا – هو اعتبار الدولة المهدوية شرا لا سبيل للتخلص منه.. (تماماً كما كانت بلشفية «لينين» تعتبر، فى العشرينات من القرن العشرين. أو نازية «هتلر» أو فاشية «موسولينى» فى الثلاثينات والأربعينات من القرن ذاته). والواقع أن المهدوية كانت أقل خطراً بكثير، ولم تكد تؤثر فى المجرى العام للأحداث خارج السودان. ومع ذلك فإن كراهيتها كانت تزداد عمقاً فى أوربا. ولم تكن المسألة مجرد هزيمة لم يثأر لها، جرحت الشعور بالقوة والاعتداد الذاتى لدى البريطانيين فى ذلك العصر الفيكتورى، وإنما كان الشعور العام أن العقيدة المسيحية ذاتها قد تعرضت للتحدى من متعصبين سفاكين فى السودان، فلم تضيع جمعية مكافحة الرق فى إنجلترا فرصة لنشر كل نبأ جديد عن فظائع الخليفة، وسط جو الحرب الذى تتعرض فيه كل الأمور للمغالاة والمبالغة وروح الدعاية. فلم يكن بوسع أى إنسان تقريباً – لا سيما إذا كان شخصية عامة – أن يتخذ رأياً منفصلا عن رأى الجماعة، أو أن يجادل فى القضية لصالح العرب، إذ كان معنى ذلك أن

يدمغ ، لا بأنه تقدمى أو واقعى ، وإنما بأنه خائن ! . . وكما يحدث فى زمن الحرب ، انقطعت المواصلات ، وحال ضباب كثيف من الرقابة دون أن تنفذ الحقائق المحايدة إلى أى من الجانبين ، وبات الجهل مباءة رائعة لتفريخ الخيال والتصور . والحق أن رجالا مثل سلاتين وأورفالدر حاولوا أن يقدموا روايات صحيحة عن تجاربهم ، عندما فروا من السودان ، ولكن لعله كان من العسير عليهم — كأسرى حرب — أن يكتشفوا فى معتقليهم أية فضائل ، أو يعرفوا كل ما كان يجرى . وعندما قدر لهم أن يؤلفوا كتبهم ، كانت ذكرى آلامهم حية كل الحيوية فى رؤوسهم . بل إنه لم يكن ثمة مفر للمطلعين من المسئولين ، أمثال « وينجيت » ، من أن يتأثروا بمشاعرهم ، كما أن المؤلفات الخيالية التى صدرت فى السنوات التالية — مثل « الريشات الأربع » للروائى المؤرخ « ا . و . ميسون » — استمرت تروّج الإيحاء بأن المهدوية كانت محض همجية وحشية جامحة . وكانت هذه الدعاية قوية جداً ، لم تخفف منها كثيراً — إلى اليوم — بحوث العلماء الأوربيين الذين أتيح لهم فى السنوات الأخيرة أن يطلعوا ، للمرة الأولى ، على السجلات المحفوظة عن الحركة المهدوية . وقد يجد المرء شبهاً لذلك فى وقتنا الراهن . إذ كان لابد من مرور بعض السنين على الحربين العالميتين الأخيرتين ، قبل أن يحمل البريطانيين أنفسهم على أن يروا فى الألمان مجرد ألمان ، وليسوا « هون »[١] أونازيين .

ولا سبيل إلى إنكار أن المهديين كانوا — بمعاييرنا — بدائيين ، وقساة ، ومتعصبين إلى حد يكاد يفوق التصور . ولكن من الواجب الإقرار بأن « الخليفة » نجح فى إقامة دولة أكثر تماسكاً بكثير مما كان معاصروه المسيحيون مستعدين للاعتراف به . فلو أن دولته كانت تحكم بالجشع ، وعدم الإنسانية ، والمشاعر الفجة فقط ، لما استطاعت أن تبقى المدة الطويلة التى استمرتها . لقد كانت فى أم درمان انشقاقات حزبية ، ومناورات فى سبيل السلطة ، كما يحدث فى أى حكم ديكتاتورى ، ولكن الشعب فى مجموعه لم يكن يصرخ طالباً التحرر كما كان يحلو للأوربيين أن يتصوروا . وفى أواخر عهد الخليفة ، لم تكن ثمة هجرة

---

(١) الهون (HUNS) قبائل همجية من أصل أسيوى ، غزت أوربا وسيطرت على ألمانيا (جرمانيا) فى أواسط القرن الخامس الميلادى . (المترجم)

جماعية من السودان ، بل كان الاتجاه العام للشعب هو أنه كان يحظى بوجود « محتمل » لا يفوق فى السوء ما كانت عليه الحياة تحت حكم المصريين . ولو لم يتدخل الأوربيون فى السودان ، لكان من المؤكد تقريباً أن يستمر فى تقبل حكم الخليفة .

ولقد كان بوسع الخليفة ، حتى فى سنة ١٨٨٧ — أى بعد سقوط الخرطوم بعامين — أن يطمئن إلى استقراره . فإن الحاميتين المصريتين ، فى (كسلا) و (سنار) ، باتتا فى حكم العدم ، من جراء الجوع والموت . وكان البريطانيون بعدُ محتفظين بقبضة قوية على ميناء (سواكن) ، ولكن بقية الساحل السودانى بأكمله — حتى (مُصَوَّع) تقريباً — أصبحت فى قبضة « عثمان دنجه » ، بينما كان « النجومى » ، فى الشمال ، ينفذ مع جيش من ١٠,٠٠٠ رجل إلى داخل مصر ، عند تخوم وادى حلفا . وأصبح الخليفة يسيطر على دولة أكبر من تلك التى كانت فى عهد المهدى ، وتعادل نصف حجم أوربا ! .. وقد أرسل إلى الملكة فيكتوريا خطاباً يدعوها فيها إلى أم درمان كى تقدم فروض الطاعة وتعتنق الإسلام . وقد بدأ الخطاب بقوله : « اعلمى أن الله قادر عظيم » وذكرها بمصير هيكس وجوردون وغيرهما من القادة البريطانيين فى السودان ، ثم قال[١] :

« ... لم يفكر جنودك إلا فى الانسحاب من السودان فى هزيمة وخزى ، برغم أنهم كانوا مجهزين بأكثر مما يلزم .. وهكذا فإنك أخطأت فى نواح كثيرة ، وأصبحت تعانين خسارة فادحة ، فليس لك من ملاذ سوى الرجوع إلى الله الملك ، والدخول فى أمة الإسلام ، واتباع المهدى عليه الرحمة . فإذا رغبت فى ذلك ، وأسلمت الأمر كله إلينا ، حصلت على رغبتك فى السعادة الكاملة والراحة الحقيقية ، مما ينجيك أمام الله فى دار البقاء ، التى لم تر مثلها عين ، ولا سمعت أذن ، ولا اشتهت نفس ، أما إذا لم ترجعى عن ضلالك والانسياق لنفسك ، فواصلى الحرب ضد عباد الله ، أنت وكل جيوشك وعتادك . وسترين عاقبة عملك. فستستحقين

---

(١) النص التالى مترجم عن ترجمة إنجليزية أوردها المؤلف . (المترجم

بقوة الله وجبروته، أو تمنين بموت كثير من قومك الذين دخلوا حرباً مع أهل الله . بسبب غرورك الشيطانى».

. . . كما أرسل خطابين مشابهين إلى سلطان تركيا وخديو مصر . وقد حمل هذه الرسائل أربعة مبعوثين من العرب ، توجهوا إلى الخطوط الإنجليزية المصرية — عند وادى حلفا — فأرسلوا إلى القاهرة ، حيث استقبلهم الخديو . وبعد إمهالهم فترة، رُدّت إليهم الرسائل مع جواب شفهى بأن أحداً من العواهل الثلاثة ما كان ليتنازل بالرد ، وعادوا إلى السودان .

ولعل مطالب الخليفة كانت مضحكة ، ومع ذلك ، فإن بريطانيا وتركيا ومصر لم تظهر — خلال ذانك العامين — أية بوادر أو رغبة فى غزو السودان ثانية . بل لقد كان فى القاهرة خوف حقيقى من أن المهديين قد يجتاحون الدلتا ! . . فإن « النجومى » استطاع فعلا أن يتقدم ثمانين ميلا داخل الأراضى المصرية حتى سنة ١٨٨٨ . ليس هذا فحسب ، بل إن الخليفة كان يعد العدة للزحف جنوباً كذلك . وكان قد أخضع قبائل « الشلوك » و « الدنكة » جنوب الخرطوم ، وغزا مديرية بحر الغزال ، فتقهقر « أمين » — آخر من صمدوا من الحكام الذين أقامهم جوردون — فى جنوب النيل الأبيض حتى بحيرة ألبرت . وقرر الخليفة — فى يونيو ١٨٨٨ — أن يسحقه ، فأوفد الباخرة (بوردين) ، وباخرتين أخريين ، وصفًّا من المقطورات تحمل ٤٠٠٠ عربى من الخرطوم ، ليجتازوا الشلالات حتى (دوفيله) ، ثم يستمروا إلى (بوجندا) عند منبع النهر .

وبدأت بذلك آخر مراحل معاودة الغزو الإسلامى للنيل .

الفصل السادس عشر

جنة بحاجة للإصلاح

كانت الأمور تتخذ مجرى غريباً فى (بوجندا) طيلة تلك السينوات . فإن ثورة المهدى قطعت كل اتصال مع الشمال ، وكانت نتف الأخبار التى تناهت إلى الساحل الشرقى — المواجه لزنجبار — مستمدة فى أغلبها من البعثات التبشيرية المسيحية التى وصلت إلى بوجندا فى نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر ، استجابة لخطاب كتبه ستانلى إلى صحيفة (الديلى تليجراف) فى سنة ١٨٧٥ ، كما ذكرنا من قبل . وقد وجدت هذه البعثات الملك « موتيسا » متربعاً على عرشه .

وكان الملك — والسن تتقدم به — قد أصبح غاية فى الطرافة : فقد ظل هجيا فى أعماقه ، قادراً — فى أية لحظة — على مقارفة أرذل النزوات الصبيانية المتطرفة ، إذ بقيت أفريقيا الوسطى على كل بداوتها التى تفوق التصور ، ولم يكن بوسع أى زعيم أن يفلت من حدودها الضيقة . ومع ذلك ، فإن « موتيسا » كان قد قضى عشرين عاماً على العرش — عندما وصلت البعثات سنة ١٨٧٧ — وتعلم الكثير من التجار العرب ، واعتنق دينهم ، وأجاد اللغة السواحيلية وقسطاً من العربية ، واتخذ اللباس العربى ، واستخدم سكرتيراً نصف متعلم يكتب له رسائله .

وأصبح كبار الزائرين يقادون إلى قاعة العرش بين حرس يرتدون سترات عسكرية حمراء ، وسراويل (بنطلونات) بيضاء ، فإذا « موتيسا » — فى هذه المناسبات — مضطجع بين الوسائد على بساط فارسى ، وبجانبه سيف مرصع بالأحجار الكريمة ، وقد تمنطق على قفطانه العربى بحزام من الفضة والذهب المجدولين . وكان قد ازداد هدوءاً عن ذى قبل ، فإن الإسراف فى الشهوات دمر صحته ، فلم يعد يكثر من الجعة ، ولم يكن يدخن ألبتة أو يسمح لأحد بالتدخين أمامه .

وكان العرب قد أنذروه بالمعنى الحقيقى للغزو المسيحى ، وقالوا إن المبشرين قد يبدون شديدى التواضع فى البداية ، ولكنهم لا يلبثون أن يطالبوه بالاقتصار على زوجة واحدة ، وبأن يعتق عبيده ويؤتيهم أجوراً ، وبأن يكف عن اغتصاب النساء والماشية . فإذا رفض، فلن يلبثوا أن يستدعوا إلى (بوجندا) بيضاً غيرهم ، سياسيين وإداريين . فإذا تحدى هؤلاء ، فسرعان ما يصل جنود يقسرون الملك على الطاعة ، وقد يخلعونه عن عرشه ! . . ولم يكن قولهم فى مجموعه تحذيراً سيئاً بالنسبة للمستقبل ، وقد وعاه « موتيسا » الذكى . ولكنه كان بحاجة إلى مساعدة المسيحيين . كان بحاجة إلى الأسلحة وكافة المخترعات الحديثة التى يملكون اجتلابها له . ورأى — فى الوقت ذاته — أن المبشرين يصلحون رهائن فى بلاطه ، ضماناً من الغزو المسلح ، سواء من السودان شمالا أو من زنجبار شرقاً . لذلك كانت خير خطة فى نظره ، هى التظاهر بالصداقة للجانبين ، وإيغار العرب ضد المسيحيين ، وبذلك كان يأمل فى الاحتفاظ باستقلاله !

ولقد اغتبط المبشرون باستقباله إياهم ، وقدموا هداياهم (وبينها رسالتان من الملكة « فيكتوريا» و « ستانلى ») ، فأعرب موتيسا عن أشد الاهتمام بالمسيحية. وسرعان ما أصبحت تُعقد جلسات منتظمة لقراءة التوراة فى البلاط ، وأخذت كل البوادر توحى بأن الملك وشيك التحوّل عن الإسلام . وما كان موتيسا قد وافق على تحرير عبيده ، أو تخفيض عدد زوجاته (وكن قد أصبحن يحصين بالآلاف) ، ولكنه أعلن استعداده لمراعاة يوم الأحد ، ولم يعترض حين بدأ المبشرون يعقدون قُدّاسات يومية فى بيت البعثة الصغير ، ذى الطابقين ، الذى شيدوه لأنفسهم فى أطراف العاصمة . وأقبل الأهالى على هذه الملهاة الجديدة ، وأبدوا سرعة فى التعلم . وأقيمت آلة لطبع التعاليم الدينية باللغة السواحيلية ، وسرعان ما أحرز بعض الشباب من الحاشية تقدماً فى القراءة . وفى الوقت ذاته ، قبل « موتيسا » إقصاء أطبائه السحرة ، وارتضى علاج المبشرين لمرضه (ومن المحتمل أنه كان الزهرى) . وكان مريضاً مطيعاً ، فسرعان ما استعاد قدرته على المشى بعد أن كان الضعف قد حرمه منها شهوراً عديدة . كذلك ألمح للمبشرين — عقب وصولهم بقليل — بأنه ما كان يرجو فى الدنيا أكثر من زوجة بيضاء تحل

محل زوجاته جميعاً ، وأنه كان على استعداد لإيفاد رسول إلى الملكة فيكتوريا — فى إنجلترا — إذ كان يراها كفءاً له فى المكانة[١] !

وكانت هذه كلها بوادر مشجعة .

وجدير بالمرء أن يتوقف هنا لحظة ليتبين ضخامة العمل الذى كان المبشرون يضطلعون به . لم يكونوا يحاولون إحلال دينهم محل الوثنية وحدها ، بل محل الإسلام أيضاً[٢] . وكان الإسلام قد تغلغل فى أفريقيا الوسطى إذ ذاك ، واجتذب أبناء القبائل البدائية . فقد كان بوسع أبسط العقول فهمه وأداء فرائضه بسهولة . ولم تكن تعاليمه عسيرة ، ولا طقوسه متسمة بالتكلف والمظاهر ، بل إنها لم تكن تتطلب قساوسة وكنائس ، وإنما كان بوسع الفرد أن يتعبد أينما شاء ، فى كوخ أو فى العراء ، وحيداً أو مع بقية القبيلة . وكان العرب قد أدركوا قبل الإسلام — بشىء من الإبهام — فكرة الله ، ولم يطلب الإسلام منهم سوى الاعتراف بوحدانية الله وبنبيه محمد . فكان يكفى للوثنى الأمىّ أن يشهد بأن « لا إله إلا الله ، ومحمد رسوله » حتى يقبل فى الدين الذى كان يقدم له كل أنواع الامتيازات : فيصبح رفيع المكانة فى القبيلة ، ويحظى بحماية التجار العراب ، وينعم بنمط جديد من المعيشة لا يتعارض كثيراً مع عاداته ويهيىء له من المتع بعد الموت ما لا عين رأت . ومن الصحيح أن الرجال كانوا مضطرين لمعاناة عملية الختان ، إلا أنهم لم يروها أليمة ، بل الواقع أنها راقت لهم . ولعله كان من البغيض قليلا للأفريقى أن يقلع عن الخمر ، ولكن أحداً لم يوسعه إرهاقاً بهذا الصدد ، ولم تكد أوامر الإسلام الأخرى — الامتناع عن بعض أنواع اللحوم ، والصوم ، والصلاة — تثقل عليه . ومن السهل تصور أنه كان يغتبط بالركوع على الأرض فى اتجاه

---

(١) صحب ثلاثة مبعوثين من أبناء (بوجندا) بعض المبشرين عند عودتهم إلى إنجلترا ، فأخذوا إلى قصر (بكنجهام) ، وحديقة حيوان لندن ، ثم عادوا إلى بوجندا بقصص ملؤها الدهشة ، عن حجم العاصمة البريطانية ، والمركبات التى تجرها الجياد فى الشوارع ، على أن هذا لم يمنع أحد المبعوثين من أن يصبح من أعنف المعادين لبريطانيا ، فيما بعد . (المؤلف)

(٢) لسنا فى حاجة هنا إلى أن نلفت النظر إلى أن طريقة المؤلف فى علاج هذا الجزء من الكتاب تشبه تماماً طريقة التسلل الاستعمارى وراء ستار الدين ! . . فقد أثبت التاريخ أن البعثات التبشيرية كانت دائماً رأس حربة الزحف الاستعمارى ، وهو فى عرضه للإسلام فى الفقرات التالية ، يحاول اتخاذ مظهر الحياد ، ولكنه يدس بين العبارات ما يشى بالتحامل . وقد آثرنا ترجمة عرضه كاملا ، كنموذج للمنطق الغربى ، ولا حاجة بنا إلى التعليق أو إبراز نواحى النقص والتحريف ، اطمئناناً إلى أن القارىء سيكشفها بنفسه . (المترجم)

مكة ، كما أن التقشف الشديد فى شهر رمضان ، لم يكن أمراً جديداً على أبناء القبائل الذين كانوا يعيشون فى عالم ملىء بالمحرمات والمحظورات .

كذلك راق للأفريقيين الوضع الذى سنه الإسلام للمرأة ، إذ كانوا يألفون تعدد الزوجات ، وقد أباح الإسلام للرجل أربع زوجات ، له عليهن القوامة ، كما كان الطلاق سهلا . ولعل جنّة المسلمين كانت أفضل الأشياء جميعاً ، إذ تحتوى على المتع الحسيّة التى يشغل بها الأفريقيون على الأرض ، جنة تجرى فيها المياه العليلة ، وتسكنها نساء جميلات . . أما المرأة المسلمة فإنها وإن لم تظفر من الإسلام بنصيب كبير ، إلا أن النساء — على أية حال — لم يكنّ أعلا مقاماً من الرقيق فى أفريقيا الوسطى ، وقد ارتضين أن يكنّ أدنى من الرجل ، بحكم التعود ، الذى فرض عليهن طويلا .

أما الرق (الذى كان الأفريقيون يمارسونه دائماً) فقد تساهل الإسلام إزاءه ، ولو أنه دعا إلى عتق العبيد ، وحرم على المسلم أن يتخذ من غيره من المسلمين عبيداً ، ولكنه لم يفرض تحريماً شاملا .

وكانت المسيحية — بالقياس إلى هذه التعاليم السهلة — تمثل جبهة قاسية غير مقبولة . فإن تشددها بصدد الخطيئة الكبرى ، وفلسفتها ، أصعب من أن يستوعبها عقل بطىء الفهم . كما أن تحريمها الرق وتعدد الزوجات لاح لرجال القبائل أشبه بخروج على الطبيعة . . حتى الثياب الغربية (وبالتالى ، المسيحية) التى كان المبشرون يرتدونها — السترة والسروال الضيقين — تراءت ولا بد سخيفة فى نظر الأفريقيين بالقياس إلى ما ألفوه من شبه عرى ، أو إلى القفطان العربى الفضفاض المريح .

وكانت ثمة عقبة أخرى أمام المسيحيين فى أفريقيا ، وهى عقبة جوهرية : كانوا منقسمين على أنفسهم ، بعكس المسلمين الذين كانوا جميعاً سنّيّين . فليس أغرب فى التاريخ الكنسى من الصراع المرير الذى استفحل بين الرومان الكاثوليك والبروتستانت فى (بوجندا) ، خلال تلك السنوات ، مع أن النظرة السريعة إلى أعمال ممثل « جمعية التبشير الكنسية » — ألكسندر ماكاى — ومزاحمة مندوب « الآباء البيض الفرنسيين » — الأب لوردل — تكشف للمرء بشكل

مذهل مدى التحمس الديني العارم الذى أوتيه المبشرون فى ذلك العهد ، وشجاعتهم ، وتعصبهم ، وعزيمتهم التى لا تنثنى . وكان « ماكاى » أسكتلنديا ، قلة فى الجسم ، أزرق العينين ، نابغة فى الارتجال وفى الميكانيكيات التطبيقية ، وكان إيمانه بربه يستولى عليه تماماً . . أما الأب « لوردل » — الذى وصل إلى بوجندا بعد البروتستانتيين بوقت وجيز — فلم يكن على هذا القدر من التقوى ، ولكنه كان بدوره ذا دأب عجيب ، وكان شديد التحمس مثل « ماكاى » .

ولقد قدر « موتيسا » بسرعة ميزات هذا الموقف ، ويبدو أنه استمتع به كثيراً ، فأولع بدعوة « ماكاى » و « لوردل » معاً إلى بلاطه ، ليثير بينهما الجدل . وكانت موسيقى الطبول والعود تصمت ، والزوجات وأفراد الحاشية يتجمعون حولهما ، وينصت الجميع بإصغاء ، ولو لم يكونوا يفهمون . وفيما يلى مقتبسات من يوميات « ماكاى » ، تصور هذه الاجتماعات :

« ما إن انتهت الصلاة ، حتى دُعيت القراءة الكتاب المقدس كالمعتاد . وفتحت الكتاب ، وبدأت . وأذهلتهم الجملة الأولى — « تعلمون أنه بعد يومين يُسلم ابنى الإنسان ليصلب » — لدقة نبوءتها ، ولإثباتها ربوبية « ابن الله » . ولم يقدر لى أن أتجاوزها ، فإن « موتيسا » قال فجأة لرجل من رجال حاشيته يدعى « تولى » : « سل الفرنسى ، إذا كانوا يؤمنون بالمسيح ، فلماذا لا يركعون معنا حين نتعبد له كل أحد ؟ . . أليسوا يعبدونه ؟ »

« وكان مسيو لوردل طلق اللسان ، فاشتد انفعاله فجأة ، وقال : « إننا لا نعتنق هذا الدين ، لأنه ليس حقاً ، ولسنا نعرف ذلك الكتاب لأنه كذب محض . ولو اعتنقناه فلن نعود كاثوليك ، وإنما سنصبح من البروتستانت الذين نبذوا الحقيقة . لقد كانوا معنا مئات السنين ، ولكنهم الآن لا يؤمنون ولا يعلمون إلا أكاذيب » . هكذا كان تهور حديثه المنفعل ، فى خليط من العربية الركيكة والسواحيلية واللوجنداو الفرنسية » .

وكان العرب يدْعون بعد ذلك ، ليعرضوا أمر الإسلام ، فكانوا يزيدون « ماكاى » استياء ، فيكتب : « اصطدام فظيع مع المسلمين مرة أخرى ، إنهم يجدفون بشناعة ضد التأكيد بأن مخلصنا ربانى » .

وهكذا أخذت تتكوّن فى (بوجندا) ، منذ سنة ١٨٧٩ — وفى هذه الظروف العجيبة — ثلاثة معسكرات متزاحمة : العرب وكانوا — بوجه خاص — يحبذون استمرار الأمور على ما كانت عليه ، فقد كانوا يحصلون على حوالى ١٠٠٠ عبد من البلاد كل عام ، ولم تكن فظائع « موتيسا » تفجعهم فى شىء . وقد استمروا يحذرونه سراً من أنه لم تكن للغزو المسيحى سوى نهاية واحدة ، فالأوربيون « آكلوا الأرض » ، ولن يلبثوا أن يبتلعوا بلاده عاجلاً أو آجلا . وفى الجانب الآخر ، كان « ماكاى » و « لوردل » ماضيين فى إضعاف نفسيهما بالعمل منفصلين ، كل منهما ينشئ إرساليته بأسرع ما كان بوسعه ، وكل منهما يشجع أتباعه على أن يعتبروا المذهب المسيحى المنافس زندقة وشرًا. وكانت هذه عملية خطرة بين قوم بدائيين ، معرضين لأن يترجموا كراهيتهم إلى عمل .

وإذ ذهبت جِدّتهما ، شعر « موتيسا » أن ميله إلى ضيفيه المسيحيين أخذ يتناقص ، فقد كانا يحاولان باستمرار — كما تنبأ العرب — أن « يصلحاه » ويمنعاه من الاستمتاع بممارسة غرائزه الطبيعية . . لا سيما غريزة قتل الإنسان . كذلك كان من الذكاء بحيث رأى — فى تلك الآونة — أن خطر غزو البيض لبلاده أخذ يتضاءل ، فلم يعد — لذلك — مضطرًا لمعاملة المبشرين بلطف ورفق .

وفجأة ، صدرت الأوامر بالكف عن قراءة التوراة وإقامة القدّاسات المسيحية فى القصر ، وبمطالبة المبشرين بأن ينصرفوا إلى عمل أكثر نفعاً ، مثل إصلاح مدافع الملك وبنادقه . وأعيد الأطباء السحرة إلى البلاط ، ولم يمض وقت طويل حتى تجلى نفوذهم الوحشى . فأقيم منفذو أحكام الإعدام على الطرق البرية المؤدية إلى العاصمة يتربصون لأى إنسان يمرّ دون أن يحدس شراً ، فيتصيدونه بعصا متشعبة الطرف ، ويقتلونه مع مطلع الفجر . وفى ذات يوم رهيب ، عُذب ٢٠٠٠ من الضحايا ثم أحرقوا أحياء ، قرباناً لروح « سونا » والد « موتيسا » ٥ وسحقت هذه الأعمال روح « ماكاى » وبددت أحلامه ، فكتب فى يومياته :

« فى كل يوم يُغتال الأبرياء إرضاء لشهوة القتل. فالظلام يتكاثف حوالى الساعة العاشرة مساء ، والسكون يسيطر ، ، وآخر طبل يسمع هو طبل منفذ الإعدام يدوى فى الوادى الصغير ، إيذاناً بأنه قد اقتنص

ضحاياه لذلك اليوم ، وسيريق دماءهم فى الصباح . وفجأة تنطلق صرخة حادة فى الطريق ، خارج سياجنا ، ثم أصوات مختلطة ، وصرخة ملتاعة أخرى ، تعقبها ضحكات بغيضة من عدة رجال ، ثم يسود السكون ثانية .

« ويقول أحد خدمنا : « هل سمعت ؟ . . لقد قطعوا عنق ذاك الرجل . . هى ! هى ! هى ! » . . ويضحك هو الآخر ، ضحكة أبناء بوجندا الرهيبة ، استعذاباً للقسوة » .

أمن الممكن أن يكون هذا الرجل نفس « موتيسا » الذى أعجب به ستانلى ، والذى كان وادعاً فى أول أيام وصول المبشرين ؟ لقد كان « وحشاً » و « سفاكاً مجنوناً » !

ووجد « ماكاى » — والمبشرون الذين انضموا إليه — أنفسهم نصف جائعين فى (روباجا) ، عاصمة موتيسا ، ولم يكن القساوسة الكاثوليك أحسن حالا . وفى المحنة المشتركة اتصل الود بين الإرساليتين ، ولكنهما أصبحتا تقصيان عن القصر خلال أعنف فورات موتيسا ، التى كان تعطشه للدم يشتد خلالها . وأخذت الشهور تمضى ، والجو يزداد كآبة وتشبعاً بالشعوذة والخرافات . وزاد الأمور سوءاً أن استؤنفت الحرب مع الملك « كاباريجا » — الذى كان باقياً فى حكم (بنيورو) — أشد ضراوة مما كانت .

وفى سنة ١٨٨٤ ، قام الرحالة الإسكتلندى الشاب « جوزيف طومسون » برحلته الجريئة خلال أرض قبائل (الماساى) حتى بلغ الساحل الشمالى الشرقى لبحيرة فيكتوريا . وفى أكتوبر من ذلك العام ، ترفى « موتيسا » . وكان للإرساليتين المحصورتين فى بوجندا الحق فى أن تستبشرا بالحدثين ، فإن « طومسون » فتح طريقاً مباشرة من الساحل الزنجبارى ، فأصبح من الممكن بلوغ (بوجندا) فى نصف المدة التى كان يستغرقها اللف والدوران حول الساحلين الجنوبى والغربى للبحيرة ، كما أن أى خليفة لموتيسا كان على الأرجح أحسن منه . على أن الإرساليتين لم يتحقق لهما — فى الواقع — سوى السوء ، فقد كانت لموتيسا — على الأقل — لحظات من التَنَوُّرِ والإشراق ، وقد حظيت بوجندا فى أعوام حكمه

الثمانية والعشرين بنوع من الاستقرار . أما « موانجا » — ابن الثامنة عشرة ، الذى خلفه ملكاً — فكان محض همجى ، أضاف إلى الرذائل الأخرى ، اللواط ، وتدخين الحشيش . وقد شبهه « ماكاى » بنيرون !

ومن الطريف مقارنة صورتى « موتيسا » و « موانجا » اللتين تريان حتى الآن فى المقبرة الملكية فى (كمبالا) . كان لموتيسا وجه نحيل عصبى ، تبرز خلال ملامحه عيناه الواسعتان ، الرقراقتان ، المرهفتا الحساسية . أما « موانجا » فلم يكن فيه ما ينم عن حساسية ، بل كان يتسم بشىء من سلطان وسرعة انفعال الجندى المتعجرف ، مما يذكر المرء بالأباطرة الرومانيين فى أسوأ عهودهم ! . ولقد عرف « ت. ب . فليتشر » — من جمعية التبشير الكنسية — « موانجا » فى أواخر سنى عمره ، فوصفه بأنه كان ذا « عقل ضعيف أرعن » ، وكان عصبياً ، كثير الريب ، مشبوب الانفعال ، مذبذبا » . ويستدرك « فليتشر » قائلا إنه من الإنصاف تذكر أن الملك كان محاطاً بعدد من المنافسات الحزبية المحيرة فى بلاطه ، وكانت القوات الأجنبية تسعى للإطباق عليه من كل جانب ، فالمهديون من الشمال ، والأوربيون من الشرق ، والعرب من كل مكان . وكان من الطبيعى أن يعتبر المبشرين وتجار الرقيق عملاء لتلك القوات ، وأن عليه أن ينزل بهم نقمته !

وكان الأسقف « هانينجتون » أول ضحاياه . وكانت جمعية التبشير الكنسى قد أوفدته للإشراف على سلسلة محطاتها التبشيرية التى كانت فى اتساع مطرد فى أفريقيا الشرقية ، فقرر أن يسلك طريق طومسون من الساحل . ولقد فشل « ماكاى » فى محاولاته لتحذيره من خطورة الطريق ، إذ كانت فى بوجندا نبوءة متوارثة بأن البلاد سيجتاحها يوماً أغراب يفدون من الشرق . وما إن علم « موانجا » باقتراب الأسقف حتى أمر بإيقافه وقتله . فلم يكد « هانينجتون » يصل إلى الركن الشمالى الشرقى من بحيرة فيكتوريا ، حتى اغتاله رجال القبائل المحلية وأبادوا قافلته . ويقول « فليتشر » إنه يبدو أن موانجا ومستشاريه فقدوا — بعد ذلك — كل سيطرة على أنفسهم ، فشنوا اضطهاداً قاسياً متواصلا لمدة عامين ، لم تقتصر وطأته على معتنقى المسيحية وحدهم ، بل كان للمسلمين أيضاً شهداء كثيرون فيه .

ولكن العرب كانوا هم الذين أثاروا « موانجا » لارتكاب أبشع فظائعه[١] فقد علموه أولا ممارسة اللواطة ، وقد هاجت سورة « موانجا » حين وجد أن الفتيان من أتباع « ماكاى » — ومعظمهم من بلاطه — أخذوا يأبون الانصياع لشذوذه . وقد عُذب ثلاثة من هؤلاء الفتية — فى أوائل سنة ١٨٨٤ — وقتلوا بأمر الملك . وفى سنة ١٨٨٦ ، جمع الوصفاء فى قصره ، وسئل الذين تعلموا القراءة فى إرسالية « ماكاى» أن يتقدموا ، فاعترف ثلاثون أو أكثر بأنهم اعتنقوا المسيحية ، وإذ دعوا إلى التخلى عنها فرفضوا ، أحرقوا أحياء فى محرقة كبيرة واحدة خارج العاصمة .

ومن المدهش أن تمكن ماكاى وزملاؤه المبشرون من إثارة مثل هذا الإيمان البطولى . فقد ظل المبشرون النمسويون فى (جوندوكرو) يعملون أحد عشر عاماً بين قبائل لم تكن تقل حضارة عن هؤلاء بكثير ، ولكنهم أخفقوا فى أن يضموا واحــداً إلى المسيحية . أما فى بوجندا — حيث لم يستقر « ماكاى» و « لوردل » إلا منذ سنة ١٨٧٩ — فقد أصبح المسيحيون يعدّون بالمئات ، وكان الدين لدى كثيرون منهم أهم من الحياة ذاتها . ولم تفلح المحرقة فى زعزعة إيمانهم ، بل ظلوا يترددون سرا — تحت جنح الظلام —على « ماكاى» و« لوردل » ليتعلموا ويُصلوا معهما . ولكن الموقف لم يكن ليُحتمل طويلا ،فقد طُرد المبشرون واحداً بعد الآخر من بوجندا ، فلاذوا مؤقتاً بالساحل الجنوبى لبحيرة فيكتوريا . ولم يحن صيف سنة ١٨٨٨— عندما أوفد الخليفة بواخره من الخرطوم جنوباً — حتى كانت الأحداث فى بوجندا قد تطورت إلى أشد ألوان الارتباك . فما كان موانجا بالذى يستطيع أن يستبقى ثلاث جماعات سياسية — أتباع محمد ، والرومان الكاثوليك ، والبروتستانت — تحت سيطرته . والواقع أنه اتجه فى البداية إلى أن يشجع حزباً رابعاً ، يضم الوثنيين والأطباء والسحرة !

وقصة الحروب الدينية قد تكون ذات جاذبية حزينـــة للمؤرخ الكنسى ، ولكن قليلين غيره يهتمون بتتبعها ، إذ تبدو أشبه « بميلودراما » ركيكة الأسلوب ،

---

(١) القصة التالية من أقذر افتراءات التحامل ، ولكنا نسوقها على علاتها كمثال لمايذهب إليه الغربيون فى محاربة العرب والإسلام فى إفريقيا .

(المترجم)

لا يكاد يخرج منها أحد بشرف أو امتياز [١] . ففي البداية ، اتحد المسلمون مع المسيحيين لينقلبوا عليهم فيما بعد . ثم نرى الرومان الكاثوليك والبروتستانت يحارب بعضهم بعضاً . ويتذبذب « موانجا » بين فريق وآخر ، فقد كان على استعداد — في أية مرحلة — لأن ينقلب مسلماً ، أو كاثوليكيا ، أو بروتستانتيا ، أو أن يرتد إلى وثنيته الأصلية . وهو في هذه المأساة الدموية الرهيبة يذبح مزيداً من البوجنديين ، ويحرق مزيداً من القرى !

هكذا كان الفوضى في أعالي النيل ، عند نهاية الثمانينات من القرن التاسع عشر : فحملة الخليفة من السودان تزحف على النهر جنوباً ، وبوجندا تسير حثيثاً نحو حرب أهلية ، و « أمين » — آخر الحكام الذين أقامهم جوردون — في مديرية خط الاستواء يرتقب قانطاً ما يتمخض عنه المستقبل !

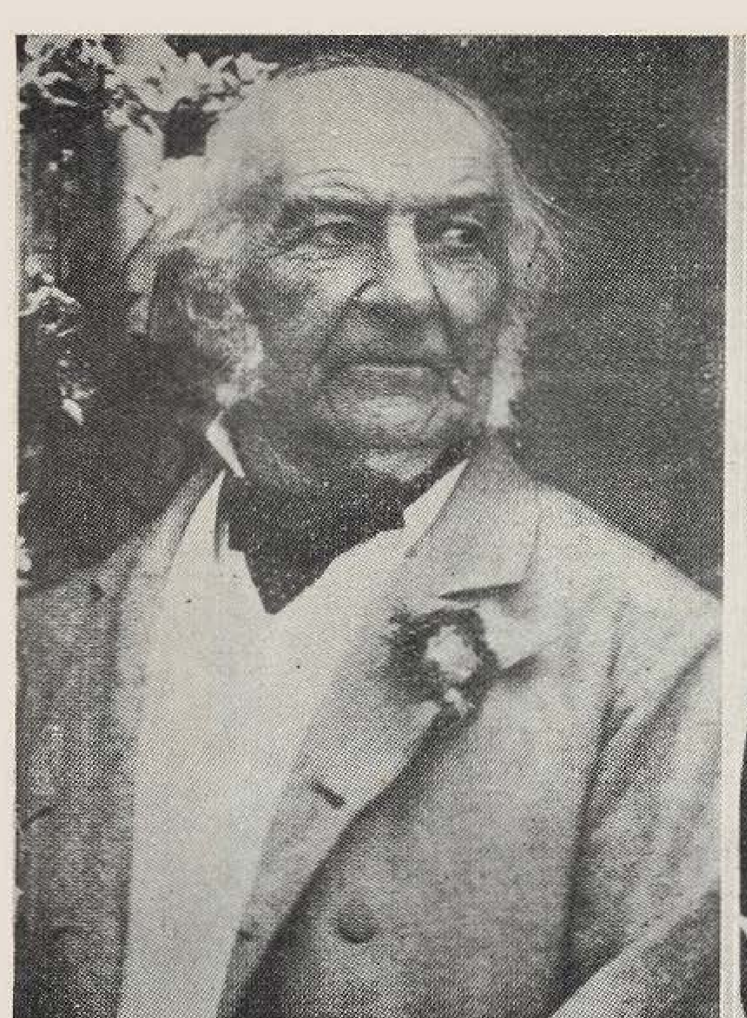
---

(١) ما أجدر المؤرخين العرب بالتنقيب عن الحقائق في تاريخ وسط أفريقيا في القرن التاسع عشر . إن سطور « ألان مورهيد » تنم عن تحامل كبير على العرب والمسلمين ، تشهد به النقائص المزرية التي يحاول إلصاقها بهم . وقد يكون عذره أنه اعتمد في هذا الفصل على مصادر معظمها من وضع المبشرين ، الذين كانت الأغراض السياسية وراء دورهم الديني ، تدفعهم إلى الإسراف في النقمة على نفوذ العرب .
(المترجم)

مياه بابل

كان العرب قد دعوا «أمين» — حتى قبل سقوط الخرطوم — إلى الاستسلام . وفى سنة ١٨٨٤ ، قرر « أمين » أن يرضخ ، على غرار « سلاتين » و « لبتون » . وكان قد انقضى ما يقرب من عامين منذ زارته باخرة من الشمال ، ولم تعد تصله من الخرطوم سوى شائعات مبهمة للغاية ، منها أن « جوردون دخل المدينة ، بجيش كبير ، وفيلة ». ولكنه لم يعرف شيئاً عن التطور الحقيقى للحصار. ولقد ظل الأمل يراوده — فى سنة ١٨٨٤ — فى النجاة عن طريق النيل ، أو الاتصال على الأقل بالحاميات المصرية فى بحر الغزال ودارفور. ولكن جو القنوط أخذ ، مع مرور الأشهر ، يزداد تكاثفاً على مركزه الصغير فى (لادو) . وتضاءلت مراسلاته مع « فرانك لبتون » ، فى بحر الغزال ، ثم توقفت تماماً . وكان « لبتون » قد كتب فى آخر رسائله : « لقد انتهى كل شىء هنا بالنسبة لى » . وسرعان ما أقبل الرسل بأنباء تؤكد وقوع « الإنجليزى » فى الأسر ، وزحف أحد أمراء المهدى نحو مديرية خط الاستواء !

ولم تكن فرص انسحاب « أمين » جنوباً نحو (بوجندا) أفضل من فرصه فى الشمال . فقد كانت لديه حامية كبيرة غير سلسة القياد (تألفت من حوالى ١٠,٠٠٠ مصرى وسودانى ، بينهم كثير من النساء والأطفال) وكانت موزعة بين حوالى عشرين مركزاً فى أعالى النيل . ولم تكن الرسائل القليلة التى تسلمها من المبشرين الإنجليز فى (بوجندا) تبشر بكبير أمل فى أن يتمكن من أن ينفذ إلى الساحل الشرقى ، عند زنجبار ، إذ كان فى عزلة تامة مع جنوده وعائلاتهم . وفى أوائل سنة ١٨٨٤ ، هرب الرحالة الألمانى الروسى الدكتور « يونكر » من العرب إلى الجنوب ، فبلغ (لادو) . وما لبث أن وفد رحالة آخر هو «جايتانى كاساتى» ، ربان السفينة (بيرساجلييرى) الإيطالى . وألف هذان الرجلان مع الضباط المتعلمين





فوق إلى اليمين

الزبير باشا

التمس جوردون معونته برغم العداء الشديد بينهما .

فوق إلى اليسار

ويليام ايوارت جلادستون

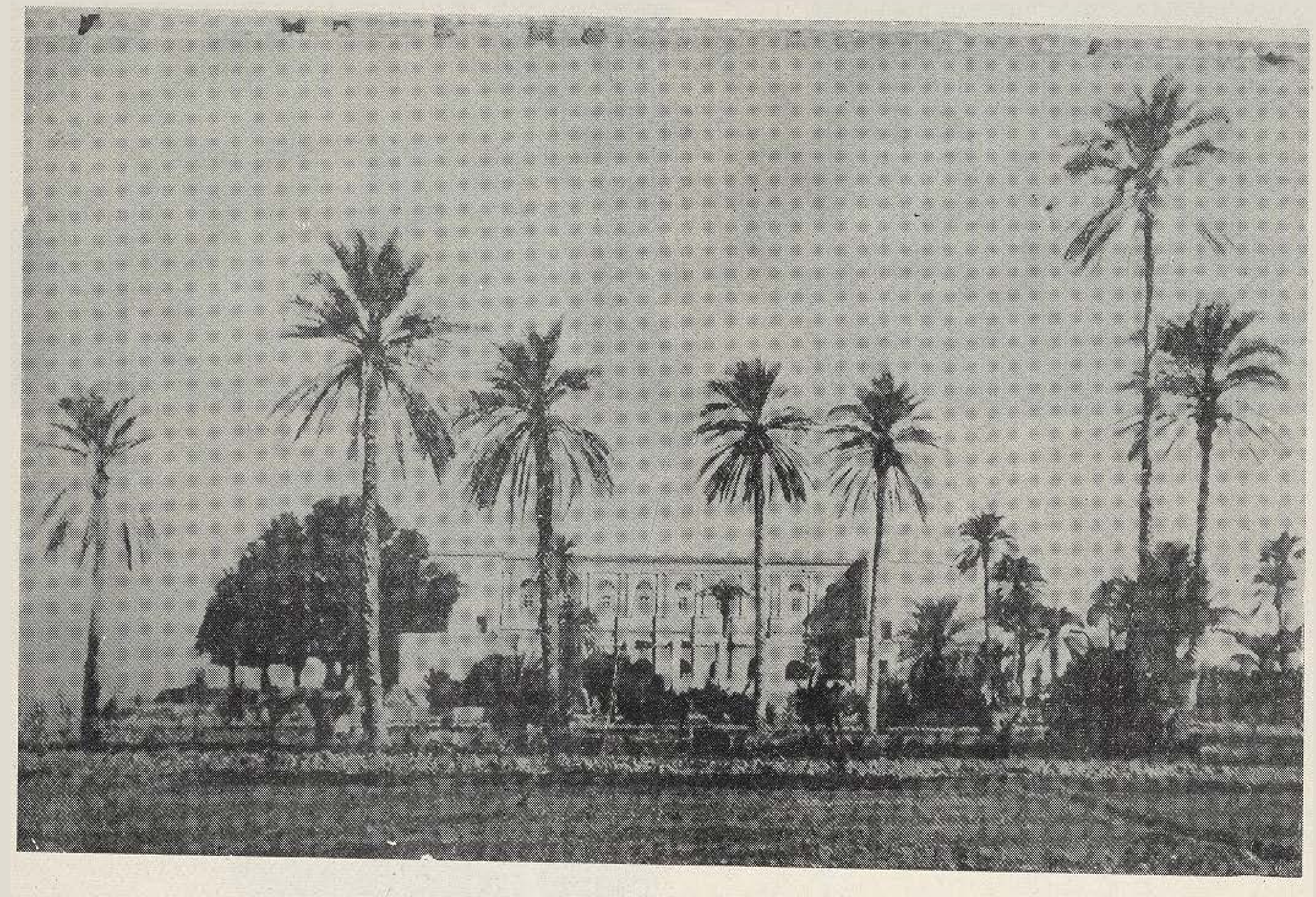
فقد هيبته ومكانته بسبب إخفاقه فى نجدة جوردون .



إلى اليسار :

رودولف سلاتين باشا

وقع فى أسر المهدى وأعلن إسلامه ثم حاول الاتصال بجوردون الذى ازدراه .



قصر جوردون بمدينة الخرطوم .

من رجال « أمين » واحة صغيرة من المعيشة المتحضرة فى (لادو) ، وكانوا أشبه بفريق من الناجين من سفينة مغرقة إلى جزيرة مقفرة .

ولم يكن الموقف شديد الحرج حقا فى البداية . فقد أرجأ العرب زحفهم وبقيت (لادو) — بمبانيها الحجرية وشوارعها النظيفة — هادئة نسبياً . وراح أمين ورجاله بثيابهم العسكرية البيضاء ، يمارسون أعمالهم يوميا وكأن شيئاً لم يجر . ولكن نقص الامدادات من الشمال بدأ يؤثر فى الموقف شيئاً فشيئاً ، وكان ثمة حريق قد شب فى (لادو) فأتى على معظم المهمات التى خلفها جوردون وبيكر هناك ، وأخذت الذخيرة تتناقص باطراد . وكانت تلك هى الظروف التى دعت «أمين» فى سنة ١٨٨٤ — بالاتفاق مع ضباطه المصريين — إلى أن يقرر الإستسلام . ولكنه ما لبث أن عدل . فقد كانت باخرتاه (الخديو) و (نيانزا) تربضان جنوب الشلالات ، عند (دوفيله) ، وكان من العسير أن يأمل العرب — وقد شغلوا بالخرطوم — فى غزو مديريته ، سيما إذا نقل مركزه جنوباً . لذلك بارح لادو ، فى أوائل سنة ١٨٨٥ ، مع « يونكر » و « كاساتى » ، فقطعوا حوالى ٢٠٠ ميل جنوباً إلى (واديلاى)[1] . وكتب أمين يقول : « سيكون هذا مركزنا حتى تتحسن الأحوال » . ثم شرع لفوره فى تحويل الحصن إلى مدينة صالحة للسكنى . وفيها تلقى أخيراً ، سنة ١٨٨٦ — وقد انقضى عام على سقوط الخرطوم — رسالتين من « كيرك » من زنجبار ، ومن نوبار باشا من القاهرة ، ينبئانه فيهما بموت جوردون وإخلاء السودان . وقضت التعليمات بأن ينسحب بحاميته إلى الساحل الشرقى بغاية جهده ، لأن الحكومة المصرية لم تعد قادرة على عمل شىء لهم .

ولكن هذا كان مستحيلا ، إذ أن بوجندا كانت فى حرب مع الملك « كاباريجا » فى (بنيورو) . ولو لم تكن هذه الحرب كافية لسد طريقهم إلى الساحل ، فإنهم لم يؤتوا وسائل لنقل الحامية عبر ١٠٠٠ ميل من أرض غير مستكشفة تماماً ، تفصلهم عن المحيط الهندى . فلم يكن بوسعهم التحرك ما لم يتلقوا معونة فى شكل ذخيرة وحمالين وحيوانات للنقل . ولكن « يونكر » كان تواقاً لأن يقوم بالرحلة ، ونجح — بمعونة « ماكاى » فى بوجندا — فى بلوغ

---

(١) سمى المكان باسم « واديلاى » الذى كان زعيما محلياً ، اشتهر بأنه كان بديناً جداً ، حتى إن بطنه كانت تتسع لأن يقف عليها صبى ، بينما يكون هو جالساً ! (المؤلف)

القاهرة ، عن طريق زنجبار ، فى أواخر سنة ١٨٨٦ . ولأول مرة منذ سقوط الخرطوم — بل منذ انعزال أمين ، قبل ثلاث سنوات — سمع العالم الخارجى أنباء صحيحة عن ذلك المركز الأمامى للمدنية ، المركز الصغير العجيب الذى ظل صامداً فى أواسط أفريقيا . وكان أمين ورجاله قد غابوا عن ذاكرة أوربا حتى ذلك الحين ، فإذا بهزة اهتمام مفاجئة — لعل الشعور بالذنب للتخلى عن جوردون كان من بواعثها! — وإذا بالصحافة والسياسيين والجمعيات الجغرافية والتبشيرية تتلهف فجأة على الأخبار : من كان « أمين » ؟ وكيف تمكن من الصمود، بينما غمر تيار الهمجية كل من عداه ، فى انسيابه بمحاذاة النيل؟ وهل من الممكن نجدته؟ واستطاع الدكتور «فلكين» — وكان مبشراً زار بوجنداً ومديرية خط الاستواء فى السبعينات من القرن التاسع عشر — أن يضيف المزيد إلى بيانات «يونكر» ، كما أن الدكتور «شواينفورث» ورحالتين آخرين قدموا قدراً آخر من التفصيلات ، فإذا القصة تزداد استهواء للرأى العام ، كلما ازدادت تعرضاً للضوء .

ولاح أن أمين كان رجلا غير عادى . كان ألمانياً غريب الأطوار ، نشأ فى ألمانيا بروتستانتياً ، ولكنه بدل اسمه فى الشرق الأوسط واعتنق الإسلام. وما قدر لأحد من الرحالة الأفريقيين — حتى « بيرتون » الذى كان يقضى آخر سنوات عمره فى (تريستا) — أن يجمع كل ما كان « أمين » يتقن من أمور :

فقد كان طبيباً ، وعالماً نباتيا ، وخبيراً بالطيور ، ولغويا — يجيد الفرنسية والألمانية والإنجليزية والإيطالية والتركية والعربية والفارسية واليونانية العامية ، وعدة لغات سلافية ! — ولقد تبين جوردون مواهبه الفذة فى الإدارة فرقاه من ضابط طبى إلى حاكم مديرية خط الاستواء ، بمرتب شهرى قدره خمسون جنيهاً . واستطاع أمين بعنايته بتنمية تجارة العاج والبن والقطن فى مديريته ، أن يحول العجز فى ميزانيتها إلى ربح سنوى قدره ٨٠٠٠ جنيه ! .. ولقد تجلى إبان الأحداث الأخيرة ، أن المتاحف والجمعيات العلمية فى أوربا كانت تعرفه معرفة جيدة ، فقد أرسل إليها — قبل انعزال مديريته — آلافاً من جلود الطيور والحيوان المعدة بعناية ، وآلافاً من العينات النباتية ، وأرفق هذه المجموعات بأدق الملاحظات العلمية. ولقد سجل بخطه الأنيق الدقيق فى خطابات للدكتور شواينفورث (بالألمانية) وللدكتور

فلكين (بالإنجليزية) شتى الحقائق — التى لم تكن معروفة — عن هجرات الطيور فى أعالى النيل وروافده ، وعن لغات القبائل وعاداتها ، وعن الأمطار ، وجيولوجية البلاد ! . .

وتحدث — مثلا — عن « الأصلة الأفريقية الكبيرة » (نوع من الحيات) التى كانت نساء بعض القبائل يكتسبن ودها ، ويستأنسنها فى أكواخهن ، ويدلكنها بالدهن ، ويصببن الدهن فى حلوقها ! . . . وفى أماكن أخرى ، كانت بعض القبائل تصيد الثعابين السامة وتحتفظ بها بأن تثقب ذيولها ، وتسلك فى الثقوب خيوطاً ، وتربط هذه الثعابينَ بقرب الحفُر المائية لتلدغ الظباء التى ترتاد الماء وبذلك تمد القبائل باللحم . كذلك نادى — فى رسائله — بهجرة الصينيين إلى أفريقيا الوسطى ، وكتب عن مناطق « آكلى البشر » حيث « يندر وجود من يعافون لحم الإنسان » ، وعن تعدد الزوجات ، واستخدام العبيد فى البيوت . فما من شىء لم يستهو هذا العقل العلمى الباحث . ولم يكن يكف عن التجوال فى مديريته ، مسجلا رحلاته فى يومياته بدقة ساعة التوقيت :

« الاثنين ١٥ أغسطس — الوقت : الخامسة و ٢١ دقيقة صباحاً — انطلقت . عبرت نهر (لورى) . راحة من التاسعة و ١٨ دقيقة إلى التاسعة و ٤٨ دقيقة صباحاً — وصلت إلى (لادو) فى العاشرة و ٤٨ دقيقة . مشيت ٤ ساعات و ٣٨ دقيقة . (مقابل ٤ ساعات و ٥٨ دقيقة فى العودة) » .

وكان « أمين » — فى سنة ١٨٨٦ — قد قضى اثنى عشر عاماً فى حوض النيل ، وبلغ السادسة والأربعين من العمر . ووصفه يونكر بأنه « نحيل ، يكاد يكون رقيق الجسم ، فوق المتوسط فى الطول ، ذو وجه رفيع تحف به لحية سوداء ، وله عينان غائرتان تتفرسان خلال عدستى نظارته ، ويضطره قصر نظره الى أن يقرب ما بين حدقتيه ويركزهما على الشخص الماثل أمامه ، مما يضفى على نظراته حدة و — فى بعض الأحيان — مظهر استراق النظر » ، وذكر يونكر أن « طابعه الشرقى الذى لا سبيل لإنكاره » كان ذا عون كبير فى الإيحاء لجنوده المصريين بأنه تركى . « وكان يشاهد فى المسجد كل يوم جمعة ، حيث يحضر صلاة الجماعة ...

وفى هذه المناسبة ، وكل المناسبات ، كان يحرص بدقة فائقة على اختيار ثيابه والعناية التامة باتساقها » . ومع ذلك ، فمن المحتمل أنه لم يكن صادقاً فى اسلامه . فقد كتب – قبل هذه الأحداث بزمن طويل – إلى أخته فى ألمانيا : «لا تخشى . كل ما هنالك إننى تخذت اسم « أمين » . ولكنى لم أصبح تركيا » .

وكان يستيقظ فى السادسة صباحاً ، فيقوم بجولة فى مستشفاه ، ثم يقبل على العمل طيلة يومه ، موزعاً بين دراساته و « الروتين » العادى لحاميته . وكان يرسل بواخره فى النيل شمالا وجنوباً ، ويجرى التجارب على غزل القطن ، ويستعمل « الكورى » عملة[1] ، وينشىء السفن فى حوضين صغيرين فى (دوفيله) و (واديلاى) . وكان يواظب على جمع الجلود والعينات وتصنيفها ، وعلى زراعة حقول بالأذرة والخضر ، وعلى تكديس أنياب الفيلة حتى بلغت قيمة ما اختزنه منها ٦٠,٠٠٠ جنيه . وحين بدأت المؤن تتضاءل ، أخذ يبتكر : فإذا العسل النحل يستعمل بدلا من السكر ، وشمع العسل يستخدم لصنع شمع الإضاءة ، واتخذ من خليط من الدهن والبوتاس صابوناً ، وعندما تهلهلت ثياب زوجات الجنود ، عدن إلى زى نساء القبائل ، فاتخذن من الأعشاب وورق الشجر ثياباً . كانت حياة الحامية كلها كحياة « روبنسن كروزو »... عشرة آلاف « روبنسن كروزو » اعتبرهم العالم الخارجى مفقودين ، وتناساهم !

ولم يكن هناك اجماع على حب «أمين» . بل يبدو أن جنوده كانوا يعاملونه باستهزاء ، واحترام « متهكم » ، كذلك الذى يبديه التلاميذ الوقحون لأى مدرس ضعيف متردد ! . . . فهو لم يكن يصدر أوامر ، وإنما كان يتحايل ويتلطف ويدخل فى مجادلات . وكان الجنود يطيعونه بحكم العادة ، ولأنه لم يكن ثمة سواه لتنظيم حياتهم . وإذا لم يكونوا قد حفلوا بدراساته وعقليته المتفوقة ، فإنهم ظلوا يعترفون به رئيساً ، وقد أوتى الروح الشرقية لتقبل المحن دون أن ينهار .

ولقد كان بعض معاصرى « أمين » يرونه صعب المراس . فكتب « كاساتى » فيما بعد أنه كان ذا كبرياء وَخـَّازة ، ولم يكن قط قادراً على اتخاذ قرار واضح ،

---

(١) « الكورى » نوع من الأصداف كان يستعمل بدلا من النقود فى شرق أفريقيا ووسطها . (المترجم)

وكان « جيسى » يرى أنه « ملىء بالغش ، بلا أخلاق ، مدع ، حسود . . . متملق ، مسف فى المجاملة والتواضع لدرجة مضحكة ، وقادر على أن يغش أدهى رجل فى العالم ! » . وهذه الانتقادات تفسر ما كان يوشك أن يقع ، ولو أنها فى تلك الفترة لم تكن تطابق الواقع تقريباً . والمهم أن هذا الرجل الفذ الدؤوب ، كان — بطريقة عجيبة — يبقى على جذوة من المدنية فى وسط أفريقيا . وكان قد أصبح الآن بحاجة إلى المساعدة ، واستطاع «يونكر» أن يرسل إليه — فى سنة ١٨٨٦ — قافلة من الإمدادات من (روباجا) ، كما أن « أمين » ظل قادراً على أن يتراسل مع « ماكاى » — فى بوجندا — فى مناسبات قليلة ، ولكنه فيما عدا ذلك ، كان فى عزلة تفوق العزلة التى تعرض لها جوردون فى الخرطوم . وكانت آخر الأنباء المتسربة تشير إلى أن العرب ظلوا على تهديدهم بغزو خط الاستواء . فلما ذهب « أمين » إلى (واد يلاى) ، ثارت القبائل فى المنطقة التى خلفها ، وحوصرت الحامية المصرية الصغيرة فى (لادو) . . وقد تلقى « فلكين » رسالة من واديلاى — فى ٢٢ يوليو ١٨٨٦ — قال فيها أمين : « لا زلت ارتقب المساعدة ، ومن إنجلترا بالذات » .

وكان من الطبيعى ، بعد إخفاق حملة جوردون ، أن تحجم الحكومة البريطانية عن التورط . وبات من رأى « ساليسبورى » — رئيس الوزراء — أن على الألمان أن يعينوا « أمين » لأنه كان ألمانيا ! . . . ولكن قوى أخرى فى بريطانيا — خارج نطاق الحكومة — أولت المسألة اهتماماً عميقاً . فقد رأى فيها « وليم ماكينون » ، (صانع السفن الإسكتلندى الذى أنشأ شركة الهند للملاحة البخارية) ، فرصة تجمع بين العمل الإنسانى والمصلحة التجارية ، إذ كانت سفنه — طيلة السنوات العشر السابقة — تتجر مع زنجبار ، وقد شجعه « كيرك » على فكرة إنشاء شركة مسجلة رسمية ، لاستغلال ممتلكات السلطان داخل القارة . فكان بوسع أية حملة تذهب لنجدة « أمين » أن تمضى فى هذا المشروع قدماً ، فتوقع معاهدات مع الزعماء المحليين عند منابع النيل ، وتستطلع إمكانيات التجارة فى طريقها . ومن المحتمل أن ماكينون لم يكن قد ارتبط تماماً بهذا المشروع عندما قبل رئاسة « لجنة نجدة أمين » ، ولكن المؤكد أنه وأصدقاءه فى العمل كانوا يفكرون فى المشروع ، وقد راحوا يجمعون الاكتتابات بحمية بالغة ، حتى بلغت حوالى ٢٠,٠٠٠ جنيه (بينها ١٠,٠٠٠ جنيه من الحكومة المصرية) . ولم تحن نهاية سنة ١٨٨٦ ، حتى

كانت اللجنة تتلفت بحثاً عن رجل ملائم للإشراف على الحملة . وكان من المرشحين « جوزيف طومسون » الرحالة الذى كان قد سافر وحيداً من الساحل الشرقى إلى بحيرة فيكتوريا فى سنة ١٨٨٠ ، (إذ كان اسكتلنديا ، وقد جاء القسط الأكبر من العون للحملة من اسكتلندا . وكان شابا ، ورحالة قوى العزم) . ومع ذلك فقد كان لزاماً أن يفكروا فى « ستانلى » ، إذ كان واسع الشهرة ، وله اسم كفيل باجتذاب قدر كبير من التأييد للحملة . ومن ثم تقرر فى النهاية الاتصال به .

وكان ستانلى — فى تلك الفترة — يحاضر فى أمريكا ، ولكنه عاد إلى إنجلترا بمجرد أن تلقى برقية « ماكينون » ، ووافق فوراً على الذهاب . ومن ثم أخذت الخطط تتقدم بسرعة ، وقد ساهم ستانلى نفسه بخمسمائة جنيه فى الاكتتاب ، وعرض أن يجمع مزيداً من الأموال عن طريق مراسلة الصحف الإنجليزية والأمريكية من أفريقيا . ومرة أخرى ، أعد حملته ببذخ ، فطلب المؤن من أفخم شركة ، ومدفعاً رشاشاً من طراز « مكسيم » ، وأحدث الأسلحة ، إلى جانب شحنة ثقيلة من البنادق والذخيرة . وذهل ستانلى لعدد المتطوعين من الشباب الراقى الذين أرادوا مرافقته ، وأبدوا استعداداً لدفع نفقاتهم مقابل هذا الشرف ، فلم يلبث أن اختار منهم تسعة .

وقد رأى يونكر وشواينفورث — حين قابلا تلك الجماعة فى القاهرة ، فى بداية سنة ١٨٨٧ — أنهم كانوا أشبه بجماعة منطلقين لغزوة حربية ، منهم بحملة خاصة تقصد جوف القارة . والواقع أنها كانت أكثر من مجرد نجدة لأمين ، فإن المدى الكامل لمهام ستانلى لم يكشف على أتمه ، ولكن المؤكد أنه كان قد تلقى تعليمات من الملك ليوبولد (البلجيكى) كما تلقى تعليمات أخرى من ماكينون . فهو — من ناحية ماكينون — كان مكلفاً بفتح طريق تجارى إلى بوجندا ، وتمهيد الأرض لشركة شرق أفريقيا البريطانية . وهو — من ناحية ليوبولد — كان مكلفاً بكشف احتمالات ضم مديرية خط الاستواء إلى الكونجو . وكان مكلفاً من الجانبين بعرض منصب على « أمين » : فإما انضم إلى شركة شرق أفريقيا البريطانية وأنشأ محطة تجارية جديدة على بحيرة فيكتوريا ، وإما استمر حاكما لمديرية خط الاستواء باسم ليوبولد . وكانت هناك مسألة العاج الذى بلغت قيمته ٦٠,٠٠٠ جنيه ، والذى قيل أنه كان فى (واديلاى) ، إذ كان من الممكن أن يفيد فى زيادة أموال الحملة .

وأخيراً ، كان ثمة نصيب ستانلى من العملية ، فإلى جانب رسائله للصحف ، كان يعتزم وضع كتاب عن الرحلة ، وقد طلب إلى أعضاء الحملة أن يوقعوا اتفاقية بألا ينشروا شيئاً قبل ستة أشهر من ظهور ما كان قائدهم يعتزم كتابته .

ودخلت التجارة — كما دخلت السياسة — فى الرحلات الأفريقية .

ولا يملك الإنسان أن يلوم ستانلى لأنه بذل غاية وسعه لمصلحته . فقد كان — على أية حال — يجازف بحياته مرة أخرى ، وكان تأليف كتب الرحلات مهنته . ومع ذلك فقد كانت فى كل هذه التقديرات ثغرة هامة تضفى جواً من عدم الواقعية على المغامرة كلها . وكانت الثغرة تتعلق بأمين نفسه . فعندما سمع من « ما ـ اى » — فى بوجندا — أن حملة للنجدة فى طريقها إليه ، كتب إلى « فلكين » :

« إذا كان القوم فى بريطانيا العظمى يظنون أننى سأعود مع ستانلى أو طومسون بمجرد وصوله ، فما أعظم خطأهم . لقد قضيت اثنى عشر عاماً من عمرى هنا ، فهل من الصواب أن أهجر مركزى بمجرد سنوح الفرصة للفرار ؟ سأبقى مع قومى حتى أرى بجلاء تام أن مستقبلهم ومستقبل البلاد فى أمان . سأجاهد لتنفيذ العمل الذى دفع فيه جوردون دمه ، ومع أننى لم أوت طاقته ونشاطه ، فإننى سأنفذ العمل وفقاً لنواياه ، وبروحه . . .

« أأنفض يدى من العمل لأن طريقاً قد يفتح عما قريب إلى الساحل ؟ . . . إذا كانت إنجلترا تبغى مساعدتنا فعلا ، فعليها أن تحاول أولا أن تعقد معاهدة ما مع أوجندا و (بنيورو) [1] . . . ولا بد من فتح طريق مأمون إلى الساحل ، لا يكون تحت رحمة أهواء الملوك الصبيانيين أو العرب سيئى السمعة . . . لذلك فلست أفكر فى الرحيل ، وسأبقى . . . أنجلو عن أراضينا ؟ كلا ، بالتأكيد » .

وبمعنى آخر ، كان « أمين » جوردون جديداً . لم تكن « النجدة » هى ما ننشد وإنما التأييد السياسى والعسكرى ، ليتسنى له البقاء . وقد نشر الخطاب سنة ١٨٨٨ فى كتاب سمى « أمين باشا فى أفريقيا الوسطى » ، وضعه شواينفورث ، ولكن

---

(١) كان ثمة اتجاه إلى إغفال اسم (بوجندا) واستعمال (أوجندا) . وما لبث هذا الأسم أن أصبح يطلق على الأراضى بين الحدود الجنوبية للسودان وبحيرة فيكتوريا . (المؤلف)

ستانلي ورجاله كانوا — في تلك الأثناء — قد غابوا في جوف القارة ، وانقطع كل اتصال بهم .

وكانت هناك نواح غريبة أخرى للحملة ، لم يكن فيها ما يبشر بخير للمستقبل . فقد كان يبدو جلياً لمعظم من تأملوا الخريطة — في ذلك الحين — أن خير طريق إلى مديرية خط الاستواء هو الذي يمتد من ساحل زنجبار إلى داخل القارة مباشرة . ولكن ستانلي أصر على معارضة ذلك ، ولم يستطع ماكينون في لندن ، ولا بارينج (الذي قابله في القاهرة) أن يثنياه ، فلقد أراد أن يدور في طريق طويل ، فيبحر إلى زنجبار من مصر ، وبعد أن ينتقي حماليه ، يستأنف الرحيل معهم بحراً حول رأس الرجاء الصالح ، إلى مصب نهر الكونجو على الساحل الأفريقي الغربي . وكان يعتزم أن يعبر القارة بأسرها — بعد ذلك — من الغرب إلى الشرق ، ويلتقط « أمين » في طريقه . وكانت الأسباب التي أبداها لتفضيل هذا الطريق تبدو على قدر من الصواب — على الورق ، على كل حال — فقد قال أن حمالي زنجبار كانوا خليقين بأن يتخلوا عنه إذا قادهم إلى الداخل مباشرة ، بعيداً عن مواطنهم . أما إذا أنزلهم على الساحل الغربي ، فكانوا خليقين بأن يتبينوا أن أملهم الوحيد في البقاء ، هو في ملازمته حتى يصل إلى زنجبار . وكالخيل — في عودتها إلى حظائرها — كانوا مسوقين إلى أن يسرعوا الخطى . ثم أنه كان بوسعه أن ينقل رجاله بالسفن مسافة ١٠٠٠ ميل على نهر الكونجو ، فيصبحوا على ٣٥٠ ميلا من بحيرة البرت ، حيث كان يأمل أن يتصل بأمين . وبقي اعتبار آخر : كان الألمان — في تلك الاثناء — قد تغلغلوا في أفريقيا الشرقية ، وأصبحت منطقة شاسعة (إلى الجنوب الشرقي من بحيرة فيكتوريا تعتبر مجال نفوذ لهم ، وما كانوا ليرتضوا قط أن تمر حملة بريطانية خلال هذه الأراضي !

والتأمل البسيط يبين أن ليس لهذه الحجج قوة تذكر . فإن تخلي الحمالين لم يقعد برواد آخرين (ومنهم ستانلي نفسه) عن السعي من زنجبار إلى البحيرات ، كما أن الحملة كانت مضطرة إلى المرور خلال المنطقة الألمانية في الحالين . لذلك يرجح أن السبب الحقيقي لرغبة ستانلي في الطريق الدائر كان سبباً سياسياً . فهو بالسعي خلال الكونجو كان يرضي ليوبولد ويعزز بذلك مصالحه الخاصة . إذ

كان الكونجو ميدانه الخاص فى أفريقيا ، وكان عاقد العزم على العودة إليه .

ولم يكن مستغرباً أن يفرض رأيه ، ونجده — فى فبراير ١٨٨٧ — منهمكاً فى زنجبار ، فهو يزور السلطان « برغش » ، مندوباً عن « ماكينون » ، ويظفر بموافقته على الخطط البريطانية فى أفريقيا الشرقية . وباسم ليوبولد يبحث عن « تيبو — تيب » السيىء السمعة[1] ، الذى كان قد أصبح الحاكم الحقيقى لكافة المنطقة بين الكونجو وبحيرة تنجانيقا . وقد عرض عليه ستانلى ما كان جوردون على استعداد لعرضه على الزبير فى السودان : أن يصبح « تيبو — تيب » حاكماً — باسم ليوبولد — على أعالى الكونجو ، مقابل أن يمد ستانلى بحمالين من أفريقيا الوسطى ينقلون الذخيرة إلى أمين ، ويحضرون العاج الذى قدرت قيمته بستين ألف جنيه . ولم يستغرق ستانلى سوى ثلاثة أيام لإتمام هذه التدابير . وفى ٢٥ فبراير ١٨٨٧ ، استقل الباخرة (ماديورا) مع ٦٢٠ زنجبارياً وصوماليا ، وأعوانه البريطانيين ، وشريكه الجديد فى العمل « تيبو — تيب » . وبعد ثلاثة أسابيع ، هبطوا عند مصب الكونجو على الساحل الغربى . وبدأت أبشع رحلات ستانلى جميعاً !

وكان أمين — كما كان جوردون قبله فى الخرطوم — يدرك بوجه عام أن النجدة مقبلة ، ولكنه كان يجهل تماماً أين ومتى تصل . ومثل جوردون . كان منهمكاً كذلك فى شؤونه ، فقد نجح فى رفع الحصار عن (لادو) ، بل وفى أن يعود لاحتلال اثنى عشر حصناً ومحطة كانت قد أخليت للعرب . ولكن لم يكن ثمة ما يجزم باعتزام الخليفة تكرار الهجوم أو عدوله عنه . كذلك كان الملك « كاباريجا » ملك (بنيورو) قد أعلن العداء ، إذ ضرب الإيطالى « كاساتى » — الذى ظل معه وكيلا عن أمين أكثر من ثمانية عشر شهراً — وربطه إلى شجرة . ولكنه نجا ولحق بأمين وهو شبه ميت ، وقد سرقت كل أمتعته ! . . . وكان ثمة مزيد من المصائب فى (واديلاى) ذاتها . فقد شبت النار فى الحصن يوماً . ومع أن الذخيرة أنقذت ، إلا أنه بات لزاماً أن يعاد إنشاء الحصن بأسره . وكانت ابنة أمين — « فريدة » — معه ، ولكن زوجته الحبشية كانت قد توفيت ، بينما بدأت صحته هو تضمحل ، وأخذت إحدى

---

[1] (١) سبقت الإشارة فى كل من الفصلين التاسع والعاشر إلى أن « تيبوتيب » كان لقب الكناية الذى أطلق على تاجر النخاسة المدعو « محمد بن سيد » لأن عيباً فى عينيه كان يضطره إلى أن يهز أجفانه باستمرار (المترجم)

عينيه تزداد ضعفاً باطراد ، فأصبح مضطرا لأن يقرب الكتاب إلى بوصة أو اثنتين من نظارته ليتمكن من القراءة . وقد كتب لصديق له : « لقد علقنا قيثارتنا على أشجار الصفصاف وجلسنا بجانب مياه بابل » .

وبرغم هذا كله ، فإن مركز « أمين » لم يكن ميئوساً منه بقدر ما كان مركز جوردون فى الخرطوم تقريبا ، إذ كان الغذاء وافراً ، والمساحات متسعة للحركات العسكرية ، وجنوده نادراً ما كانوا يشتبكون اشتباكات حامية . ولكن أيام الانتظار الطويل بلا هدف أخذت تهدم النظام فى الحاميات . وكان واضحاً أن الدويلة الصغيرة (مديرية خطِ الاستواء) بدأت تتفكك . وفى فبراير ١٨٨٨ — أى بعد مغادرة ستانلى زنجبار بإثنى عشر شهرا — اتجه أمين جنوبًا إلى بحيرة ألبرت فى إحدى بواخره ، سعيًا وراء أنباء ولكنه لم يسمع شيئ جازمًا. فترك رسالة لستانلى مع « مبيجا » ، أحد زعماء حافة البحيرة :

« سيدى العزيز : تتطاير الأقاويل عن رجال بيض ظهروا إلى الجنوب من البحيرة ، وقد جئت هنا سعيا وراء الأنباء..فإذا وصلك هذا فانعم بالراحة حيث أنت ، وأخبرنى برغباتك بخطاب مع أحد رجالك . ومن السهل أن آتى إلى الزعيم « مبيجا » ، كما أن باخرتى وسفنى تستطيع أن تقلك إلى هنا . . . لنتفق على أية خطط أخرى .

« احترس من رجال « كاباريجا » . لقد طرد الكابتن « كاساتى » .

« تأكد يا سيدى إننى المخلص جداً : الدكتور أمين » .

ورجع أمين إلى (واديلاى) ، وعاد الصمت الطويل إلى البطاح مرة أخرى . . ولكنه تبدد فجأة ، وبمأساة ، فى نهاية أبريل سنة ١٨٨٨ : فقد ظهر « ماونتناى جيفسون » — أحد أعوان ستانلى — فى قارب فولاذى عند أحد مواقع « أمين » ، على بحيرة البرت ، يحمل أنباء هامة . كان ستانلى قد بلغ الطرف الجنوبى من البحيرة فى ديسمبر ، بعد رحيل أمين بقليل ، ثم ضرب معسكره على الشاطىء ، على مسيرة يوم على الأكثر من الموقع ، فأبحر أمين لفوره على السفينة (الخديو) ليقابله .

وتاريخ الرواد الأوربيين فى حوض النيل الأبيض مجال كبير للشخصيات

المتضاربة : معارضة بيرتون لسبيك ، وستانلى لكيرك ، وجوردون لبارينج .. حتى المحالفات التى عقدت — كما حدث بين ستانلى ولفينجستون — كثيراً ما كانت تتسم بأنها عرضية وبنت المصادفة. على أنه لم يكن ثمة ما هو أغرب من اللقاء الذى تم بين « أمين » و « ستانلى » وسط الظلام الزاحف على الشاطىء الغربى للبحيرة التى اكتشفها بيكر.

لم تكن هناك صفة واحدة تقريبًا تجمع بين الرجلين : كان أمين سلبيًا، ماكراً ، دؤوباً ، متردداً ، مراوغاً ، موسوساً ، قدرياً ، ميالا إلى التكيف مع الظروف والمواقف . ووقف أمامه رجل لا صبر له على المعانى المنمقة ، يجاهر باستهجانه لأهل الدراسات وجمع العيِّنات ، ولا يعرف سوى نهج واحد فى الحياة، هو السير نحو الأهداف المحددة دون ما انثناء . ويشعر المرء أن أميناً كان من ذلك النوع من الشخصيات الذى تخصص له أسوأ مائدة إذا دخل مطعماً ، أما ستانلى فكان جديراً بأن يقاد إلى خير مكان فى القاعة ! . . . كانت دنيا ستانلى تحتشد فى خط مستقيم ، كالسهم فى قوس السماء . أما أمين فقد تشعّبه دنياه بدوامات خفيفة من الغبار . وبينما كان أحدهما لا يستجيب إلا لنفسه ، كان الآخر مندمجاً فى الوسط الذى يحيط به . كان لقاؤهما ارتطاماً بين الطموح وقوة بهيمية تقترن بذكاء دقيق حذر ، ومن ثم تضاعف تعقد الموقف بينهما فى تلك اللحظة ، إذ كان دوراهما الأصليان قد انعكسا ، فإذا ستانلى هو الذى يعانى ضائقة ، وإذا أمين هو الذى جاء لنجدته ، فهو أقوى الرجلين !

كان ستانلى قد صادف أياماً رهيبة ، حتى إن أهوال رحلته الأولى فى الكونجو — سنة ١٨٧٦ — لا تكاد تعادل الأهوال التى صادفته هذه المرة منذ غادر الساحل ، إذ تفرق رجاله فى ٧٠٠ ميل من الأدغال المهلكة ، ومات نصفهم . ولم تنج الحملة من الجوع ولا المرض ولا النوائب . وظلت أشهراً عديدة تتخبط كالحشرات المحتضرة فى ظلمات غابة (ايتورى) التى لا ينفذ إليها ضوء النهار إلا لماما . وتقاضى الأقزام ضريبة رهيبة من الحمالين الحفاة ، إذ بثوا فى الأرض أسهماً مسمومة ! ... ورأى ستانلى خططه تنهار واحدة إثر الأخرى ، وأصبح ضباطه يكرهونه . وروى الذين قدر لهم البقاء منهم قصصاً فظيعة عما كان لقائدهم من نوبات هياج عنيفة ، وكيف

سب أحدهم واندفع نحوه قائلا : « سأذيقك لكمة فى أم بطنك » ، (بينما كان تيبو – تيب والأفريقيون يتفرجون) ، وكيف هدد آخر بأنه سيكتب إلى إنجلترا ليقضى على مركزه فى الجيش، وكيف أنه – فى إحدى المراحل – أمر الحمالين الوطنيين بألا يحفلوا بأوامر البيض الآخرين وبأن يوثقوا قيادهم إذا ضايقوهم .وكان عقاب أى منحرف أثناء السير ٣٠٠ جلدة ! . . . وها هو ذا – وقد شاب شعره ، ولم يكد يبرأ من مرض لازمه شهراً – قد جاهد حتى بلغ البحيرة مع من تبقوا من حملته ، وليس معه ما يقدمه لأمين سوى القليل من الذخيرة ، وليس يملك وسيلة ما لنجدته ... بل إنه كان بحاجة ماسة إلى أن يمده أمين بالغذاء واللوازم الأخرى للإبقاء على رجاله أحياء !

كذلك كانت الهواجس السوداء قد بدأت تراود « ستانلى » بصدد الرجل الذى جاء لنجدته : فلماذا لم يكن أمين فى انتظاره عندما وصل إلى البحيرة فى ديسمبر السابق ؟ لقد ساق حملته بسرعة مهلكة ، اعتقاداً بأن لكل يوم قيمة حيوية ، فإذا بحاكم مديرية خط الاستواء – أمين – يبدو منتعشاً ، بلا أثر لأى عناء حقيقى ! . . على أن لقاءهما الأول ، فى ٢٩ أبريل١٨٨٨ ، انقضى على ما يرام . وبصفه ستانلى فى كتابه « فى أظلم بقاع أفريقيا » بقوله :

« فى الساعة الثامنة ، وبين الابتهاج العظيم ، وطلقات التحية المتكررة من البنادق ، سار أمين باشا بنفسه إلى المعسكر ، يرافقه الكابتن كاساتى ، ومستر جيفسون ، وأحد ضباط الباشا . وصافحتهم جميعاً ، وسألت أيهم أمين باشا ، فاسترعى انتباهى واحد منهم – صغير الجسم ، نحيل ، ذو نظارة – إذ قال بإنجليزية متقنة : « ألف شكر لك يا مستر ستانلى ، الحق أننى لا أدرى كيف أعبر عن شكرى لك » .

« – إذن فأنت أمين باشا . لا تذكر الشكر ، ولكن تفضل واجلس . إن الظلام شديد هنا ، ولا يكاد أحدنا يرى الآخر .

« وجلسنا عند باب الخيمة، تضىء لنا المكان شمعة . وكنت أتوقع أن أرى شخصاً طويلاً ، نحيلاً ، عسكرى المظهر ، فى بزة عسكرية مصرية حائلة . ولكنى رأيت – على العكس – شخصاً ضئيل الجسم ، يلبس طربوشاً أنيقاً ، وحلة نظيفة من النسيج العسكرى القطنى الأبيض

مكواة بعناية ، وتطابق قوامه تماماً[1] .

« وكانت له لحية سوداء منسقة ، تحف بوجه ذى طابع مجرى ، وإن كانت تعلوه « نظارة » أضفت عليه مظهراً إيطاليا أو أسبانيا . ولم يبد عليه أثر من الاعتلال أو القلق ، بل نم شكله — فى الواقع — عن عافية الجسم وراحة البال ، وعلى العكس منه كان الكابتن كاساتى — برغم أنه يصغره سنا — يبدو شاحباً ، مهموماً ، قلقاً ، مكتهلا . وكان هو الآخر يرتدى بزة عسكرية نظيفة من القطن ، ويعلو رأسه طربوش مصرى » .

وفُتحت زجاجة من الشمبانيا ، وجلسوا يتحدثون ساعتين. وفى اليوم التالى أسلم ستانلى الصناديق الواحد والثلاثين من ذخيرة « رمينجتون » التى كان قد أحضرها . وفى استعراض أنيق على الشاطىء من الجنود السودانيين، قاد أمين ضيفه إلى سطح الباخرة (الخديو) ، وقاموا برحلة لطيفة على سطح البحيرة . وبدا أن أمينا كان راغباً فى أن يتحدث عن أى شىء عدا المهمة التى كانت بينهما . وقد كتب ستانلى فى يومياته :

« لا أستطيع أن أفقه شيئاً عن نواياه . . . ولكن مسلك الباشا ينذر بالسوء . وعندما اقترح عليه العودة إلى البحر ، يأخذ فى الدق على ركبته ويبتسم ، وكأنه يقول : « سننظر فى الأمر » . ومن الواضح أنه يجد من العسير أن ينبذ منصبه فى بلاد مارس فيها مهام نائب العاهل » .

وكان فى هذا بعض الصدق ، فقد راح أمين يقدر مركزه بعناية . ولاح له أنه ما من مستقبل عظيم يرتقبه إذا عاد للقاهرة ، فى حين أنه كان بعد سيد الموقف فى مديرية خط الاستواء ، ولو إسميا . أفما كان يستطيع — بمعونة ستانلى — تدعيم مركزه فى المديرية كحاكم مستقل ، بطريقة أو أخرى ؟ ولكن حملة ستانلى جاءت مخيبة لأحلامه ، فهى لم تحضر معها سوى إمدادات ضئيلة ، وأتباعاً ضعافاً منهوكى القوى . ثم ، أى أثر كان لوصول ستانلى على جنوده نصف المتمردين ؟ لقد استقروا هناك عشر سنوات أو أكثر ، وأنشأ الكثيرون منهم لأنفسهم حريماً وعائلات ؟ وربما

---

(١) كان طول أمين خمس أقدام وست بوصات . ولقد أحضر له ستانلى بزة «تشريفة» من القاهرة ، فتبين أنها كانت كبيرة إلى درجة استدعت قص ست بوصات من « البنطلون » ! (المؤلف)

كان المصريون مستعدين لأن يتبعوا ستانلى إلى الساحل ، ولكن هل يرغب السودانيون فى الرحيل ، بعد أن أصبح وطنهم فى قبضة المهدى ؟ لو قرروا البقاء فجدير بأمين أن يبقى معهم . وكان راغباً فى البقاء فعلا . فلماذا يترك للخليفة هذه الأراضى الخضراء المزدهرة التى شقى فيها طويلا ؟

وخطر لأمين أن ثمة سبباً رائعاً للتأخير ، بوجه عام . فلم يكشف ضعف مركزه لستانلى ، بل إنه على العكس أثار الريب فى مقدرة ستانلى على سحب الحامية إلى الساحل ، بأفرادها العشرة آلاف ، وبينهم الزوجات والأطفال . ولقد قال ستانلى أنه قادر على ذلك ، ولكن أمينا ظل متردداً . كان من الجلى تماماً أنهم لن يشرعوا فى السير إلى زنجبار ، حتى يقسو ستانلى فى حثهم . فقد كان كل امرىء فى أفريقيا يعرف ما جرى لمن كانوا يتلكأون فى رحلته !

واستمر الجدل طيلة الأسابيع الثلاثة الأولى من مايو . وفى رواية ستانلى للقصة فى كتابه « أظلم بقاع أفريقيا » ، تبدو نبرة ضيق متزايدة . فهو لم يكن يملك أن يحتد على « أمين » فى هذه المرحلة ، إذ كانت الباخرة (الخديو) تجلب إلى معسكره من (واديلاى) الإمدادات والثياب باستمرار . وسعى لإنهاء النقاش بأن طرح اقتراحيه الخاصين بمستقبل « أمين » الشخصى : هل يحب أمين أن يحكم مديرية خط الاستواء باسم ملك البلجيك ، بمرتب سنوى قدره ١٥٠٠ جنيه ، ونفقات إدارية تتراوح بين ١٠,٠٠٠ جنيه و ١٢,٠٠٠ جنيه ؟ أو يؤثر الذهاب مع الحامية إلى الركن الشمالى الشرقى من بحيرة فيكتوريا ، فينشىء هناك مستعمرة لشركة شرق أفريقيا البريطانية ؟ ولكن العرضين أخفقا فى دفع أمين إلى الوصول لاتفاق معه ، فقد رفض رفضاً صريحاً العرض البلجيكى ، قائلا إنه ما كان يستطيع أن يتحول عن المصريين بعد أن خدم معهم كل تلك السنوات العديدة . أما العرض البريطانى فقد وجا ه أكثر إغراء ، ولكنه ظل يتجنب القطع بجواب . وانتهى الأمر إلى أن يقتضب ستانلى الرحلة الرهيبة ، عائداً مسافة ٧٠٠ ميل إلى نهر الكونجو ليجمع أفراد مؤخرته — وقد رحل فعلا يوم ٢٤ مايو — بينما بقى أمين وكاساتى وجيفسون ليستشيروا أفراد الحامية فيما إذا كانوا يودون الرحيل أو البقاء .

ومن العسير – إلى الآن – قراءة ما رواه ستانلى عن هذه الرحلة الفظيعة ، دون أن يقشعر بدن المرء ! . . فهى أشبه بأسطورة ألمانية قاتمة ، تحولت فيها الطبيعة إلى أشكال مخيفة ، وتراكمت فيها الأهوال ، وراح الأقزام – بأجسامهم الدقيقة – يمرقون خلال هذا « الكابوس » . . . ويسيطر شفق دائم على الغابة ، والقرود والببغاوات تصرخ وتهمهم متوارية بين الأشجار الكثيفة . وبين النباتات الأرضية المتشابكة ، وسط الحر القاسى والعتمة ، تنمو أشجار أفقية تمتد خمسين قدماً أو أكثر ، فى كفاح مستميت للوصول إلى الضوء . . وأوكار الزنابير تتوارى بين الفروع الزاحفة من جذوع الأشجار . وكل إنسان عدو فى هذا العالم المغمور ، فما إن يفاجأ الإفريقى الوحشى بأحد ، حتى يرفع سلاحه بدافع غريزى ، ويقف لحظة محملقاً ، ثم يتلاشى كأنه شبح !

أما الصورة التى يرسمها ستانلى لنفسه ، فتمثله – ربما دون أن يفطن – كوحش ضار خطير ، يشق طريقه وسط النباتات . وهذا بلا شك هو الأثر الحقيقى الذى أحدثه فى الأقزام والحيوانات التى كانت تعيش هناك . ولم يكن الحمالون الذين أمده بهم أمين قد عرفوا من قبل غير الطبيعة الفسيحة المضيئة ، حول البحيرات . . فإذا جلودهم تكتسب لوناً أشهب ضاربا إلى الزرقة ، وهو لون ينذر أى زنجى بالشر والموت ، وقد راحوا يموتون فعلا بالعشرات أثناء الرحلة .

وكان إصرار ستانلى فى وجه هذه المصائب هائلا ، ولكنه يعترف بأنه عندما بلغ مؤخرة حملته على نهر (أرويمى) – وهو من روافد الكونجو – شعر بأنه أوشك أن يجن . إذ كان قد غادر فى هذا المكان – قبل عام – عدة مئات من الرجال ، تحت إمرة خمسة من الضباط البيض ، أمرهم بأن يتبعوه إلى بحيرة « البرت » بمجرد أن يوفر « تيبو – تيب » الحمالين الذين وعد بتوفيرهم . ولكن ستانلى وجد الجماعة لم تكد تتحرك ، فقد تخلى « تيبو – تيب » – بطبيعة الحال – عن توفير الحمالين ، بمجرد أن غاب ستانلى عن بصره . وما لبث قائد الجماعة « بارتيلوت » أن اغتيل بيد أحد رجاله ، كما نقل ضابط أبيض آخر إلى إنجلترا ليعالج ، واختفى ثالث فى قاع النهر . أما نائب القائد « جيمسون » فكان فى مكان ما من المؤخرة . وظهر أنه كان

قد أرسل إلى الساحل الغربى مهمات قار أنها غير ضرورية ، وبينها حقيبة ستانلى الخاصة ومجموعاته من الحلوى والمأكولات اللذيذة . وكتب ستانلى إليه رسالة مهتاجة ، وصفه فيها بالغباء، وأمره بأن يوافيه فوراً . ولم يتلق رداً ، فإن « جيمسون » توفى بعد أن برحت به الملاريا ؟

ولم يبق لستانلى سوى « بونى » ، ضابط المؤخرة الباقى ، وفلول حماليه الزنجباريين وكان معظمهم معلولين ونصف موتى من الجوع . ولكنه استطاع أن يجمع منهم ٤٠٠ أو ٥٠٠ قادرين على المشى ، وقد ظل نصف هؤلاء على قيد الحياة ، عندما رجع إلى بحيرة ألبرت — فى ديسمبر ١٨٨٨ — بعد غياب ستة أشهر . وهناك وجد محصولا جديداً من « النحس » فى انتظاره ، إذ لم يعثر على أثر لأمين وكاساتى وجيفسون . وما لبث أن تلقى منهم خطاباً بأنهم الآخرون قد دهموا بنكبة أثناء غيابه . إذ ثار جنود « أمين » المصريون فى (دوفيله) — أقصى الحاميات الباقية فى الشمال — تراودهم فكرة مبهمة بأن يأسروا ستانلى ويستولوا على مؤنه عند رجوعه إلى بحيرة « البرت » ، ثم يقيموا أنفسهم كقوة مستقلة . وقد قبضوا على امين وزميليه وحبسوهم ثلاثة أشهر !

ولكن العرب ردوا العصاة إلى رشدهم . فإن بواخر الخليفة كانت — طيلة تلك المدة — تشق طريقها من الخرطوم إلى الجنوب ، فى النيل الأبيض ، فوصلت إلى (لادو) فى أوائل أكتوبر ١٨٨٨ . وسرعان ما ظهر ثلاثة مبعوثين من العرب فى (دوفيله) ، يحملون أمراً إلى الحامية المصرية بالاستسلام . وإذا الذعر الطاغى يسود . وقتل المبعوثون الثلاثة ، وأطلق سراح أمين وزميليه فى عجلة ، وفر العصاة جنوباً ، وقد نسوا كل شىء عن العصيان ، وهجروا دوفيله واثنى عشر مركزاً آخر . وأخذ البيض الثلاثة يسعون ببطء إلى بحيرة ألبرت، أملا فى الألتقاء بستانلى هناك .وكان أمين غير قادر بعد أن يقطع بما كان جنوده العشرة آلاف وعائلاتهم يعتزمون . كان نصفهم يوالونه ويحبذون النجاة إلى زنجبار مع ستانلى ، بينما بقى النصف الآخر ضده. ولم تكن ثمة سلطة حقيقية يعتد بها فى أى مكان !

ويقول ستانلى أنه بهت وخاب رجاؤه عندما سمع هذه الأنباء . كان أمين قد أوحى إليه بأنه مسيطر تماماً على حاميته وقادر على صد العرب فى الشمال ، فإذا به

يتبين أنه لم يكن قادراً على شيء ، ولم يعد لمديرية خط الاستواء وجود ، كدويلة متماسكة فى أواسط أفريقيا ، ولا كان أمين نفسه فى موقف يسمح له بالمراوغة أو إملاء شروط ما . لم يعد أكثر من لاجىء . . . ذلك اللاجىء الذى كان ستانلى يؤثر أن يجده فى بداية وصوله . فأرسل إلى أمين خطاباً يمهله عشرين يوماً فحسب ليصل إلى الطرف الجنوبى للبحيرة ، كى يسيروا بعد ذلك إلى زنجبار . وكان رد أمين أنه ما دام ستانلى يأبى الانتظار ، ف . . . «مع السلامة» ! . ولكنه — مع ذلك — وفد على معسكر ستانلى فى فبراير ، وتم بين الرجلين نوع من التفاهم ، فوافق ستانلى على الانتظار بضعة أسابيع أخرى ، ريثما ينضم إلى أمين أولئك الذين كانوا راغبين فى مبارحة مديرية خط الاستواء .

وخلال شهر مارس ، راح هؤلاء القوم يتخبطون سعياً إلى الطرف الجنوبى للبحيرة . ولعل هذه كانت أقسى فترة على ستانلى . فقد كان مستعداً لقبول النساء والأطفال ، بل والجوارى ، ولكنه رأى أمتعتهم عبءاً ثقيلا . إذ أنهم أحضروا أحجار الرحى ، والجرار ، وأسرة النوم ، وأتفه منقولاتهم . واضطر حمالو ستانلى الزنجباريون إلى أن يحملوا هذه الأمتعة صاعدين تلالا يبلغ ارتفاعها ٢٠٠٠ قدم ، نفصل بين معسكره وشواطىء البحيرة . وسرعان ما كان المعسكر نفســه يغلى بالتذمر ، ونشبت معارك قاسية بين الزنجباريين والمصريين . ولاح لستانلى أن أمين لم يزد الأمور إلا ارتباكاً ، إذ أنه لم يفعل ما يؤكد سلطته ، وكان يصفح عن كل مشاغب يساق إليه ليعاقبه . وراح يشغل أيامه بـ « نزوة » مجموعات نباتاته وطيوره . وأبدى « جيفسون » بوادر الانسياق لنفوذ أمين المتهاون ، بينما بدا « كاساتى » فى حالة انحلال ، وهو محاط بنسائه الوطنيات .

وليس من العسير تصور رغبة ستانلى المهتاجة فى التخلص من هذه الحلقة التى أخذت تطبق عليه . وقد أتاح له الضباط المصريون الفرصة فى أوائل أبريل . فقد صورت لهم الحماقة أن بوسعهم التغلب على البيض والاستئثار بمقاليد الحملة[1] . . . وقد جمع المتآمرون وجردوا من أسلحتهم ، وهددوا بالموت ، وهى عقوبة كان من المؤكد

---

(١) لسنا فى حاجة إلى تكرار القول بأن أولئك الضباط المصريين كانوا يأتمرون بأوامر قادة ورؤساء «أجانب» ، فلا عجب إذا تمردوا عليهم حين هبت عليهم رياح الحركة التحررية فى السودان . (المترجم)

أن ينفذها ستانلى لو تعرض لأتفه استفزاز . . . وصدرت الأوامر بالبدء فى السير فوراً .

وكان أتباع أمين الذين وصلوا حوالى ٦٠٠٠ ، أضيف إليهم حوالى ١٠٠٠ من رجال ستانلى . وسار الطابور الطويل جنوباً نحو خط الاستواء . وتوقفوا شهراً عندما أصيب كل من ستانلى وجيفسون بحمى الملاريا ، ثم تابعوا السير . وفى هذه المرة ، أبصر ستانلى ما كان قد لمحه لمحاً قبل ذلك باثنى عشر شهراً : الثلوج الدائمة على قمم سلسلة جبال (روينزورى) ، المسماة (جبال القمر) ، فإن حجب السحب التى تحيط دائماً بالسفوح العليا (إذ أن روينزورى من أكثر سلاسل جبال العالم مطراً) انقشعت للحظة مكنته من أن يرى أعلى القمم مشرئبة إلى حوالى ١٧٠٠٠ قدم نحو السماء ، وكان هذا من المعالم التى أضافها إلى خريطة أفريقيا . وعند بحيرة البرت ، تركوا الباخرتين (الخديو) و (نيانزا) وبقية أتباع أمين [1] .

وكانت الألف والخمسمائة الميل إلى الساحل ، أقل نكبات — من كافة الاعتبارات — مما كان مرتقباً . فلم يحن شهر أغسطس حتى كانت الحملة قد دارت حول الساحل الجنوبى الغربى لبحيرة فيكتوريا ، ووجدت المبشر البريطانى « الكسندر ماكاى » فى استقبالها — عند (أوسامبيرو) — مع كمية من المؤن تلقاها من الساحل الشرقى . ومكثوا فى بيوت الإرسالية حوالى ثلاثة أسابيع ، ثم عاودوا السير فى أكتوبر ، ومدفع « مكسيم » يخلى لهم الطريق بين القبائل المشاكسة .

ويتضح من كتاب ستانلى أن علاقته بأمين باتت لا تطاق . فقد كان أمين كارها لفكرة « إنقاذه » ، ولكنه كان عاجزاً عن المقاومة ، فصار كثير التململ والتوجس . ولم يكن يفعل شيئاً — حين يتوقفون عن السير — سوى أن يعكف على عيناته العلمية . أما أثناء السير فلم يكن يتناول سوى قدح من القهوة فى الصباح ، ويصوم طوال يومه حتى المساء . . . وصار يتحاشى ستانلى ما استطاع ، وانصرف إلى « فريدة » — طفلته من زوجته الحبشية — التى كانت تحمل فى مهد أمام حماره مباشرة . ولا شك فى أنه استغل ميزات موقفه ، فقد كان هو الغنيمة الكبرى للحملة

---

(١) غرقت السفينتان بعد ذلك . (المؤلف)

ولم يكن ستانلى ليقوى على تركه .

ولقد كانت مشاعر ستانلى نفسه خليطاً عجيباً . إذ يبدو أنه كان يضيق بأمين وينجذب إليه فى آن واحد ، وهو لا ينفسك يرتد — فى كتابه — إلى الحديث عنه المرة تلو الأخرى ، فيقول : أنه رجل حاد الذكاء ، شرقى الطراز ، فياض بالحفاوة والرضى . ولكن ، ما أضعفه ! إن أعوانه يتطاولون عليه ، وهو يتردد ويسوف . ولقد أهمل — طوال مدة إقامته فى مديرية خط الاستواء — فرصاً رائعة للكشف والارتياد ، ليضيع وقته على مجموعاته المضحكة . . . رجل يستثير الرثاء ، بطربوشه الإسلامى ، وعينيه المعتمتى الإبصار . ثم — فى النهاية — ياله من جاحد !

ومن المؤسف أننا لم نظفر بغير مذكرات قليلة مقتضبة وبعض رسائل حذرة مما كتبه أمين عن هذه الرحلة ، لا سيما فى مراحلها الأخيرة ، إذ كانت خاتمتها خليطاً عجيباً من الغرور والكبرياء الجريحة . فقد قابلت القادمين — بالقرب من الساحل — حملة ألمانية كانت موفدة للبحث عنهم . وبهت أمين — فى البداية — ثم اغتبط إذ اكتشف أنه أصبح « مشهوراً » . وفى ٤ ديسمبر ١٨٨٩ — أى بعد أن غادرت الحملة مصب الكونجو بعامين وعشرة أشهر — تقدم ستانلى وأمين الطابور مع فريق من الضباط الألمان، على الجياد ، إلى (باجامويو) ، ليجدوا المدينة مزدانة تكريماً لهم ، وقد رست فى المرفأ أربع بوارج بريطانية وألمانية . وكانت ثمة حامية ألمانية قد استقرت فى الميناء . وفى السابعة والنصف من مساء ذلك اليوم ، جلس المسافران إلى مأدبة حفلت بالشمبانيا ، ترفه عنهم فرقة موسيقية من طرّاد ألمانى . كانت مناسبة حافلة بالمشاعر والعواطف ، إذ كان ستانلى وأمين قد احتُسبا مفقودين منذ أمد ، فإذا الأنباء البهيجة بوصولهما توشك أن تفاجىء العالم . ويشير ستانلى إلى أنه أسرف يومئذ فى الشراب وفى تناول الحلوى والمشهيات ، ولا ريب فى أن الآخرين حذوا حذوه . أما أمين — الذى اغتبط لوجوده بين ألمان ، وهزّه أن تلقى برقية شخصية من « القيصر » ! — فقد ألقى خطابين ، ثم نهض وغادر القاعة .

وظن الجميع أنه شعر بغثيان، فمرت فترة بسيطة من الوقت قبل أن يبحثوا عنه ، فيكتشفوا أن قدمه زلت فى إحدى الشرفات — لضعف بصره — فسقط إلى الأرض من ارتفاع خمس عشرة قدماً . وهرع الألمان فنثروا عليه الماء ، ولكن جمجمته أصيبت بصدع ، فظل فاقد الرشد طيلة الليل . وانتظر ستانلى يوماً — وأمين يعالج

فى مستشفى (باجامويو) — ثم انتقل إلى زنجبار مع بقية رجاله فى أسطول صغير من البوارج ، فى ٦ ديسمبر . ومن هناك أرسل يستفسر عن المريض . وكان « بارك » — طبيب البعثة — قد بقى فى باجامويو ليعالجه ، ولكن وجوده لم يلق ترحيباً فى المستشفى . ولم يتلق ستانلى نبأ من أمين . . . بل لم يتلق قط بعد ذلك كلمة منه ! .

على أنه لم يكن لدى ستانلى وقت للتفكير فى هذا الفراق المحزن ، إذ كان نبأ وصوله سالماً قد طبق الآفاق ، وأصبح الرأى العام العالمى يتوق للاحتفاء بالمنقذ ، وليس المنقذ . . وبلغ القاهرة فى ١٦ يناير ١٨٩٠ ، ليجد اسمه يتردد فى العالم ، والبرقيات تترى من الملكة فيكتوريا ، والقيصر ، وليوبولد ، والخديو ، ورئيس الولايات المتحدة . . ورسائل حارة من ماكينون ولجنته فى لندن . . ودعوات إلى مآدب لا حصر لها . . ووجد لنفسه معتكفاً فى فندق « فيلا فيكتوريا » بالقاهرة ، فشرع — فى ٢٥ يناير — فى كتابة قصة رحلته ، بمعدل عشرين صفحة مطبوعة فى اليوم ، حتى أتم المجلدين فى خمسين يوماً كاملة . ثم أبحر إلى إنجلترا التى كانت ترتقبه مرحبة . وكان قد بلغ الخمسين من عمره .

ونشر كتاب « فى أظلم بقاع أفريقيا » فى سنة ١٨٩٠ ، فوجد رواجاً سريعاً ، وترجم إلى ست لغات . وأعقب ذلك — فى العام ذاته — زواج ستانلى من الفنانة « دوروثى تينانت » ، والإنعام عليه بالدرجات العلمية الفخرية من جامعات أكسفورد ، وكمبريدج ، وأدنبره ، وشراؤه داراً فى (فيرز هيل) ، بقرب بير برايت (وقد سميت بركة ماء ومرتفع صغير فى حديقتها باسمى : بحيرة ستانلى ، وجبال القمر) . وتلا ذلك رحلاته لإلقاء المحاضرات ، ودخوله البرلمان ، ثم ظفره بوسام الفروسية (ولقب سير) .

ولم يعفه هذا من النقاد ، الذين أبرزوا أن نصف قوته الأصلية — التى تألفت من ٧٠٠ زنجبارى وصومالى — لقيت حتفها . . . ولفتوا الأنظار إلى أن العدد الذى تمكن من بلوغ القاهرة فى النهاية ، من حامية مديرية خط الاستواء التى ضمت ١٠,٠٠٠ شخص ، لم يزد على ٢٦٠ فقط ! . . . وأن « أمين » — الذى كان الهدف الرئيسى للحملة — قد ترك فى (باجامويو) مهشم الجمجمة !.. حتى العاج الذى قدرت قيمته بستين ألف جنيه ، قيل إن تاجراً عربيا أخذه من مديرية خط الاستواء قبل وصول ستانلى . . . ولم يذكره ستانلى على أية حال . وعلى ضوء هذه الحقائق ، لم يكن فى الوسع القول بأن الحملة تعتبر قد وفقت فى مهمتها !

ولقد كتب ثلاثة من الضباط البيض - الذين بقوا على قيد الحياة - كتباً عن تجاربهم ، كما نشرت يوميات ورسائل اثنين ممن توفوا ، هما « بارتيلوت » و « جيمسون » : ولم يرسم المؤلفون - بالإجماع - صوراً ودية لستانلى ، إذ كانت قسوته البالغة ، ولوثة العظمة التى اتسم بها ، أهم ما تذكّروه . ولقد شوهد « كاساتى » - بعد ذلك بسنوات - وهو يضم قبضته متحفزاً ، لمجرد ذكر اسم ستانلى ، أما أمين - الذى كان يتمالك صحته ببطء فى باجامويو - فقد قطع كل صلة ، لا بمنقذه فحسب ، وإنما بالبريطانيين كذلك ! . . يضاف إلى ذلك إن أحداً لم يبد أى إعجاب بمعاملات ستانلى مع النخاس « تيبو - تيب » .

على أن هذه كلها كانت أصواتاً ضئيلة وسط عاصفة التصفيق والتهليل . فقد كانت مخاطر الرحلة كبيرة جداً ، ورؤى أن ستانلى هو الوحيد الذى كان بوسعه أن يتخطاها ويدفع الحملة خلالها . وفى سنة ١٨٩٠ ، اعتبر أعظم المستكشفين - الذين كانوا على قيد الحياة - بلا منازع ، والمكتشف الأول لأفريقيا الوسطى . وبوسع المرء إزاء الأعمال التى أنجزها ، أن يغض الطرف - ولو إلى حين - عن أن النيل الأبيض كان قد ارتد بأكمله - من الخرطوم إلى البحيرات الكبرى - إلى الهمجية التى وجده عليها سبيك وجرانت قبل ذلك بحوالى ثلاثين عاماً ! .

الجزء الرابع

(الانتصار المسيحى)

الفصل الثامن عشر

النهر المفتوح

« أوثر أن أفكر مرتين فى رأى أى إنجليزى عن جاره ، ولكنى أصدق تماماً روايته عن أعالى النيل » .

« وشنطون ايرفينج »

كانت حملة ستانلى آخر الرحلات « الخاصة » الكبرى إلى النيل . فحوالى سنة ١٨٨٩ ، لم تعد السيطرة على الأحداث فى أفريقيا الوسطى والشرقية للأفراد ، وإنما أصبحت للحكومات الأوربية ، وبدا التنافس على المستعمرات الجديدة سافراً ! . . وقد يكون من الممكن تشبيه إمبراطورية « برغش » الموهومة ، التى كانت تمتد — نظريا — من زنجبار إلى النيل الأبيض تقريباً ، بشركة عائلية من النمط القديم ، ظلت قادرة على الاستمرار أعواماً بأرصدة متناقصة القيمة ، وأساليب مطردة القدم ، وعدم تطور مع الزمن . فكان لزاماً — طال الوقت أو قصر — أن يشترى دخلاء مغرضون النصيب الذى يمكنهم من السيطرة على الشركة ، ثم يبعدوا مديريها العاجزين ، فيحيلوهم إلى اعتزال مريح ولكنه مهين . وقد حدث مثل هذا بالفعل عندما قررت ألمانيا ، فى عهد بسمارك ، أن تتغلغل فى أراضى أفريقيا الشرقية ، التى تركها البريطانيون وسلاطين زنجبار مهملة أمداً طويلا .

وفى سنة ١٨٨٤ ، قام « كارل بيترز » — الذى كان من عدة نواح صنوا ألمانيا لستانلى فى أفريقيا — بغارته الشهيرة على ممتلكات « برغش » . وكان أكثر دأباً وإصراراً مما كان كان « مكيلوب » و « شاييه لون » فى سنة ١٨٧٥ . . . ففى سفره من الساحل الزنجبارى إلى داخل القارة — نحو كليمنجارو — أقنع فريقاً من الزعماء المحليين بقبول حماية « جميعة الاستعمار الألمانية » التى كانت حديثة التكوين . وكانت المسألة ، كما بينها البروفيسور كوبلاند ، أبعد من أن يصدقها عقل ، فهى كالقصص الخيالى ، ولكنها قوية المفعول : ذلك أن الزعماء لم يكونوا على إلمام بالقراءة والكتابة ، ولم تكن لديهم أقل فكرة عن كنه المعاهدات التى وقعوها برسم علامة الصليب . ولم يكن بيترز — فى حد ذاته — شيئاً يذكر فى العالم ، ولكن الأمر

اختلف تماماً عندما قرر بسمارك — كأى مالى قوى — أن يؤازره . وكان من المحتمل أن يحتج برغش وكيرك فى زنجبار ، بأن الأمر لم يكن سوى غزو عدوانى لبلاد عاهل مستقل ، ولكنهما كانا عاجزين بدون مناصرة الحكومة البريطانية ، ولم يظفرا بهذه المناصرة ، إذ لم تكن للبريطانيين رغبة فى عرقلة الألمان . فما كان قد انقضى على سقوط الخرطوم وقت يذكر ، ولم تكن مصر قد استقرت ، وكانت إنجلترا محتاجة لتأيد بسمارك فى نزاعها مع فرنسا على أفريقيا . وأعلن جلادستون ، أنه لم ينزعج كثيراً حين بلغته أعمال بيترز الاستغلالية فى « البلاد الجبلية الواقعة خلف زنجبار والتى لا يمكن للذاكرة أن تعى اسمها » ، وأعلن أنه « إذا أصبحت ألمانيا دولة استعمارية ، فكل ما أملك قوله هو : ليوفقها الله » .

وتم التوفيق — فى الواقع — ببوارج بسمارك ! . . ففى أغسطس سنة ١٨٨٥ ، عمد الكومودور « باشين » — قائد البوارج « ستورك » و « جنيسناو » و « برينز أدالبرت » و « اليزابيث » و « اهرينفيلس » — إلى صَفّ بوارجه ، خارج زنجبار ، وصوّب مدافعه . . ثم أخطر برغش بأن على دولته أن تعترف خلال أربع وعشرين ساعة بمعاهدات « بيترز » فى القارة ، وأن تعقد اتفاقية مع ألمانيا . ولم يكن بوسع كيرك — بتعليمات من لندن — أن يتدخل ، بل إنه اضطر أن يعير الألمان خدماته فى تسيير دفة المفاوضات ، فلم ينته العام حتى أبرمت الاتفاقية .

ولم تستغرق بريطانيا وألمانيا طويلا فى الوصول إلى اتفاق ودى لتقطيع أوصال إمبراطورية السلطان . فقد رأى الألمان أنه لم يكن من حق برغش سوى تلك المناطق التى كان معترفاً بسلطته عليها ، وقرروا أن هذه المناطق لا تشمل سوى الجزر الثلاث — زنجبار ، وبيمبا ، ومافيا — وشريط على الساحل الأفريقى عرضه عشرة أميال وطوله ٦٠٠ ميل . أما بقية السهل الأفريقى الشرقى الكبير ، الذى يمتد ١٠٠٠ ميل إلى الداخل ، فقد وصف بأنه « مجال نفوذ » مشروع للدولتين الأوربيتين ، تقتسمانه فيما بينهما .

ولم يكن الكولونيل « كيتشنر » — المندوب البريطانى فى لجنة الحدود الذى أوفد من السودان جنوباً إلى زنجبار — أقل استنكاراً من كيرك لهذا التقدير غير المعقول للموقف . ولكنه كان مأموراً بأن يقبله نيابة عن الحكومة البريطانية .

وتمت تسوية رسمية فى لندن فى سنة ١٨٨٦ ، فسمح لبرغش باستبقاء جزره الثلاث والشريط الساحلى ، أما بقية الأراضى التى كانت تحت سلطته إسميا ، فشطرت إلى قسمين شبه متساويين ، فباتت المنطقة المعروفة الآن باسم (تنجانيقا) من نصيب ألمانيا ، و (كينيا) الحالية من نصيب البريطانيين ، وتركت الحدود الغربية لهذه القسمة الهائلة غير محددة ، وبدا أن (بوجندا) كانت صيداً مباحاً لأى امرىء ، إلى حين .

وكان كيرك — إذ ذاك — قد قضى عشرين عاماً فى زنجبار ، وقد انهارت سياسته تماماً . وكان قد أقنع برغش بأن له — مقابل قمع تجارة الرقيق — أن يركن إلى بريطانيا لصون استقلاله ، وها قد ذهب الاستقلال إلى الأبد . ولكم حاول أن يغرى بريطانيا بأن تعنى بتقدم أفريقيا الشرقية قبل وصول الدول الأوربية الأخرى ، ولكنها لم تفعل شيئاً . وكان قد جاهد لحفظ السلام بين الأفريقيين المسيحين والمسلمين ، فإذا العرب قد أصبحوا يتسلحون فى كل مكان ضد الأوربيين ، وإذا أمثال بيترز — الذى ازدوى بالقياس إليه صيت ستانلى فى القسوة الفظة — يعلمون الأفريقيين أن يكرهوا البيض كما لم يكرهوهم من قبل . بل إن تجارة الرقيق أفادت من الارتباك العام ، فأبدت بوادر انتعاش [١] .

وفى أوائل سنة ١٨٨٦ ، أنعم على « كيرك » بالصليب الأكبر للقديسين ميكل وجورج ، ثم رحل إلى إنجلترا فى شهر يوليو ، فى عطلة ، ولا شك فى أنه كان يشعر فى قرارته بأنه لن يعود إلى زنجبار ، وقد تأكد هذا فى لندن . وإذا كان قد شعر بمرارة فإنه لم يبدها بشكل بارز . ويروى « كوبلاند » أنه كتب فى سنة ١٨٨٧ إلى صديق له يقول : « قد أضطر للعودة إلى زنجبار ، فإن لورد ساليسبورى (الذى خلف جلادستون ، كرئيس للوزارة) يرغب فى هذا ، ولكن عودتى غير مستحبة لدى بسمارك ، وله فى تعييناتنا السياسية من القول مثل ما لحكومتنا » . وكان هذا ينطبق على الواقع تماماً فى تلك الآونة ، فيما يتعلق بأفريقيا الشرقية على أية حال . وقد أدى « هولمود » — خليفة كيرك — إلى استياء بسمارك بدوره ، فسرعان

---

(١) ألقى القبض على آخر مركب للرقيق فى مياه أفريقيا الشرقية سنة ١٨٩٩ ، ولكن تجارة العبيد لم تلغ تماماً فى زنجبار حتى سنة ١٩٠٧ ، وفى تنجانيقا حتى سنة ١٩٢٢ . (المؤلف)

ما سحب . أما كيرك فقد استقر فى إنجلترا كأحد أعضاء مجلس إدارة « شركة أفريقيا الشرقية البريطانية الأمبراطورية » ، التى كان وليم ماكينون وأصدقاؤه قد كونوها — بعد طول تأخر — لمنافسة الشركة الألمانية .

ولم يعش برغش — بعد رحيل كيرك — طويلا . وليس من المستغرب أن تكون هذه الأحداث قد خيبت رجاءه وأثقلت نفسه. فأخذ يعاف باطراد تصريف الأمور العامة ، ثم مات فى مارس سنة ١٨٨٨ ، غير متجاوز الواحد والخمسين عاماً . وخلفه أخوه الأصغر « السيد خليفة » على عرش لم يعد له أثر يذكر فى شؤون أفريقيا ، إذ كان تخاطف الدول الأوربية للأراضى قد بدأ . فقد قام سباق فعلى بين ألمانيا وبريطانيا فى داخل القارة ، وكانت بوجندا (التى أقصيت عن اتفاقية سنة ١٨٨٦) هى جائزة الفوز .

ولسنا بحاجة هنا إلى أن نتتبع بالتفصيل قصة الغزو النهائى للبلاد ، لأنها لا تدخل فى عهد استكشاف النيل الأبيض ، وإنما تمت للمسائل السياسية لأفريقيا الحديثة . على انه لم تحن سنة ١٨٩٠ حتى تم البت فى النقطة الجوهرية ، ففى شهر يوليو من ذلك العام . اجتمع مندوبو الحكومتين الألمانية والبريطانية فى لندن ، واتفقوا على أن تؤول (أوجندا) بأكملها إلى البريطانيين ، كمجال نفوذ .

ولقد قام « أمين » بدور غريب فى هذه الأحداث . إذ بقى أربعة أشهر فى (باجامويو) ، حتى برىء من سقطته ، ويبدو أنه لم يكن للحادث من أثر سوى أن ضاعف من شذوذه وتحوله . فقد انقضت فترة لم يدر أحد فيها ماذا كان يعتزم أن يفعل : أيعود إلى مصر ، أو إلى أوربا — حيث انهالت عليه الشهادات الفخرية من الجامعات والجمعيات العلمية — أو يمكث ويتم أعماله فى أفريقيا . ولقد تفاوض مع كل من الشركتين البريطانية والألمانية ، عارضاً خدماته على أحداهما ، ثم على الأخرى . على أنه لم يك ثمة شك فى النتيجة . فبعد كل السنوات التى قضاها بعيداً عن وطنه ، يمارس حياة المسلمين ، كان من بواعث حيرته أن يتكلم لغة وطنه مرة أخرى ، وأن يلقى تكريماً من مواطنيه . وكان تأثره عميقاً بالبرقية التى تلقاها من القيصر ، فلما تبعها انعام بوسام « الطبقة الثانية من وسام التاج ، مع النجمة » ،

استيقظ فى أعماقه كل الفخر والشعور الوطنى اللذين يداخلان أى موظف فى المستعمرات إذا ما وجد نفسه — بعد سنوات طويلة من الإهمال — مذكوراً فى قائمة الإنعامات . وهكذا لم يعد وحيداً ، آخر الأمر ، وانزاح عنه عبء المسئولية الشخصية الذى أثقله طويلا فى مديرية خط الاستواء ، إذ وجد خلفه حامياً قوياً . ولم يكن قد برىء تماماً من الحادث — إذ أصيب بصمم جزئى فى أذنيه ، وبعناء فى الابتلاع — حين أعلن انضمامه للألمان ليقود حملة جديدة لهم إلى داخل القارة. وسرى بين البريطانيين سخط عارم عندما أعلن هذا النبأ ، فهم لم ينقذوه لمجرد أن يوفر خدماته للألمان . ولكن « أمينا » أصبح قادراً على أن يتجاهل معارضيه . وسرعان ما كان فى معسكر الألمان فى (باجامويو) . وتكشف رسائله عن أنه ساهم فى شعور العداء العام نحو البريطانيين إذ ذاك .

وابتاع « أمين » ضيعة خارج باجاموبو ، وأودع ابنته رعاية وصى فى المدينة ، كلفه بأن يعلمها الألمانية . وحوالى نهاية أبريل ١٨٩٠ ،كان متأهباً ليقود الحملة إلى الداخل ، وقد وضع تحت إمرته عالم حيوان ألمانى — هو الدكتور فرانز ستولمان — وثلاثة ضباط ألمانيين ، وحوالى ٧٠٠ أفريقى ، كما جهز بوافر البنادق والذخائر . وكان عليه « أن يستولى لألمانيا على الأراضى الواقعة جنوب بحيرة فيكتوريا وعلى جانبيها حتى بحيرة ألبرت » ، و «أن يطلع الأهالى هناك على أنهم وُضعوا تحت السيادة والحماية الألمانيتين ، وأن يحطم النفوذ العربى المدمر ما استطاع » . وبمعنى آخر ، كان عليه أن يستولى على « أوجندا» ومنابع النيل قبل أن يصل البريطانيون إلى هناك !

على أنه لم يكد يبرح الساحل ، حتى أنبىء بالاتفاقية الجديدة التى آلت بها « أوجندا » إلى البريطانيين ، وأمر بأن يقصر جهوده على تنجانيقا . ولكنه قرر المضى فى طريقه . ومن يدرى أية رؤى كانت تثير عقله المكدود المحتضر؟ لعل « بيترز » حرضه على العصيان ، إذ التقى به فى طريقه من الساحل ، أو لعله حلم بأن يلم شمله على جنوده — الذين خلفهم ستانلى على النيل ، فى جمهورية خط الاستواء — ويقيم لنفسه مملكة مستقلة هناك . أو لعله — ككثيرين ممن سبقوه— كان مدفوعاً بحنين خفى إلى المناطق الشاسعة غير المستكشفة فى أفريقيا . المهم أنه بعد أن

أنشأ مدينة (بوكوبا) —على الشاطىء الغربى لبحيرة فيكتوريا — اتجه إلى الشمال ، متجاهلاً الأوامر المكررة بالرجوع إلى الساحل ، ونجح فعلا — فى سنة ١٨٩١ — فى الاتصال بجنوده السابقين عند الطرف الجنوبى لبحيرة البرت ، ولكن معظمهم أبوا أن يعترفوا به قائداً لهم مرة أخرى . وكان كثير من الرجال والنساء قد أصبحوا يرتدون جلود الوحوش ، وانحطوا إلى شرذمة من الغوغاء الفوضويين كثيرى الشجار . وبعد أسابيع من المحادثات غير المجدية ، تركهم أمين وواصل سيره إلى الكونجو . وكان الألمان — فى هذه الأثناء — قد تبرأوا منه ، وأصبحت الشهور الأخيرة من عمره ، قصة مثيرة للشجن . إذ يبدو أنه داخلته فكرة وهمية بإمكان اجتيازه عرض أفريقيا — بفلول حملته — إلى الكاميرون ، على الساحل الغربى ، على أن يعكف بعد ذلك على البحث العلمى ، كما فعل لفينجستون من قبله ، اعتقاداً منه بأن هذا كفيل فى النهاية بتبرير كل تصرفاته ، وبأن يعوض كل المحن التى صادفته .

وعندما تفشى الجدرى فى معسكره ، أوفد « ستولمان » — مع من كان بوسعه المشى على قدميه من الرجال — ليعودوا إلى بحيرة فيكتوريا . وكان المفهوم أنه سيتبعهم بمجرد شفاء المرضى . ولكن ثمة شك فى أنه كان يومئذ ينتوى العودة حقاً . وفى أكتوبر سنة ١٨٩٢ — بعد عامين ونصف العام — من مبارحته باجامويو — حان موعده المحتوم مع الموت ، فى أعماق الكونجو ، على بعد حوالى ثمانين ميلا جنوب مساقط ستانلى ، إذ هجم جماعة من النخاسين على خيمته وذبحوه . وكان عمره اثنين وخمسين عاماً . وانقضت سنة أخرى قبل أن يبلغ العالم الخارجى نبأ قاطع عن مصيره ، فطورد قاتلوه وأعدمهم الضباط البلجيكيون فى الكونجو . وتركت ضيعته (وقيمتها ٥٢٠٠ جنيه دفعتها له الحكومة المصرية لقاء عمله فى مديرية خط الاستواء) لابنته التى نقلت إلى رعاية أهله فى ألمانيا .

ولقد كان أمين بالتأكيد أذكى عقل فى أفريقيا الوسطى ، منذ عهد « بيرتون » . وقد وصفه « هارى جونستون » — الذى وصل إلى أوجندا كمدير بريطانى فيما بعد — فى مصاف أعظم مرتادى أفريقيا ، لأنه حاول فهم أفريقيا ، وترويض الحياة التى وجدها ، ولم يعامل البلاد كمجرد فراغ « يستكشف » وتحدد معالمه على خريطة ،

وعلى أية حال ، فهو ينتمى إلى نفر قليل من المغامرين الذين فتحوا النيل الأبيض للمدنية ، وليس بين جموع الرجال الجدد الذين يسلكون النهر الآن من يستطيعون مجاراتهم سوى قلة من أمثال « لوجارد » . فإن هؤلاء الوافدين الجدد يعتبرون عسكريين وإداريين أكثر منهم رواداً . وقد اعتادوا التنقل جماعات وفرقاً ، فى ثياب رسمية لحكومات أوربية ، فلم يعرفوا وطأة الوحدة الساحقة — وإن كانت فاتنة — فى أفريقيا ، بالقدر الذى عرفه سابقوهم ! .

وكان الرواد الأوائل يفنون سراعاً فى تلك الآونة ، فقد دفن المبشران « ماكاى » « ولوردل » فى أفريقيا الوسطى فى سنة ١٨٩٠ ، خلال ستة أشهر بين أحدهما والآخر (ولم يكن أى منهما قد رجع لأوربا قط منذ تركها) . وفى العام ذاته ، مات « بيرتون » فى القنصلية البريطانية فى (تريستا) ، وفوق سريره المتنقل خريطة كبيرة معلقة لأفريقيا ، وعليها بالخط العربى عبارة : « كل من عليها فان » . أما جرانت ، فقد دفن فى اسكتلندا ، سنة ١٨٩٢ . ومات بيكر فى العام التالى ، بين غنائم صيده المحنطة ، فى داره بقرب (نيوتن آبوت) . على أن زوجته عاشت بعده سنوات عديدة ، وكانت عجوزاً رياضية ، شديدة العزم ، لا تسمح بإشعال النار فى دارها بين مايو وأكتوبر من كل عام . أما ابن أخيه « جوليان بيكر » — الذى اشترك فى حملة نجدة جوردون — فلم يلبث أن ترقى لمرتبة أميرال فى البحرية البريطانية . ولم يعش من كبار الرواد حتى القرن الحالى سوى « ستانلى » ، الذى مات فى داره بانجلترا ، سنة ١٩٠٤ .

ويشعر المرء أن كل هؤلاء — فيما عدا « لوردل » — كانوا خليقين بأن يحبذوا انتهاء أمر أوجندا إلى البريطانيين ، فى التسعينات من القرن التاسع عشر . وكان « لوجارد » — المهندس الأول للدولة الحديثة — مصداقاً لما اشتهت قلوب البريطانيين ، فقد تبين أهدافه بأقصى وضوح ، وسعى إليها بطاقة مذهلة . ولكنه كان بعد ضابطاً مغموراً ، فى الثانية والثلاثين من عمره ، حين وصل إلى أوجندا موظفاً فى شركة شرق أفريقيا البريطانية ، فى نهاية عام ١٨٩٠ ، فإن هما إلا عامان حتى كان قد أقام سلسلة من المحطات ، من (ممباسا) حتى النيل (وهو أصلح طريق إلى أوجندا كما تنبأ جوردون قبل زمن) ، ووقع معاهدة قيدت « موانجا » ، وأخمد الحروب

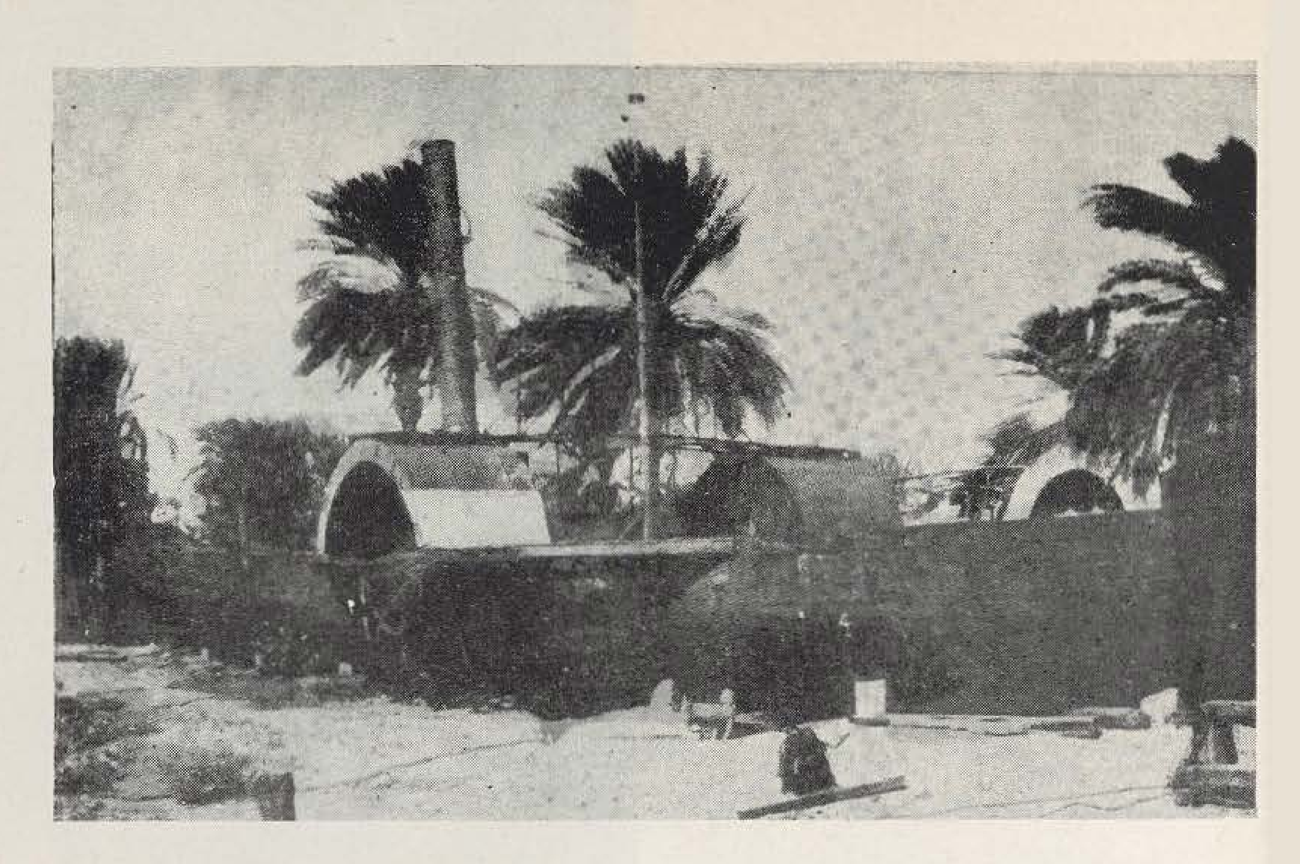
الدينية بين المسلمين والمسيحيين ، وهزم « كاباريجا » فى (بنيورو) إلى الشمال ؛ وحقق ما أخفق « أمين » و « ستانلى » فى عمله ، وهو سحب الحامية من مديرية خط الاستواء .

وكان عملا فذًّا ، لا بد أن « سبيك » رمقه — من قبره — بإعجاب ، ثم أن « لوجارد » كان يفوق جوردون فى الدعاية ، فعندما رغبت الشركة عن الأراضى التى فتحها لها ، بزعم أن نفقات إدارتها كانت فادحة ، عاد « لوجارد » إلى إنجلترا ، وأثار الرأى العام ،[١] وراح يعلن فى رسائل متتابعة لصحيفة (التايمز) ، وفى خطب فى طول البلاد وعرضها ، أنه لا سبيل للتخلى عن الحاميات التى تركت فى أوجندا ، وأنه من غير الممكن ترك وادى النيل الجنوبى ليعود للفوضى ، بل لا بد للحكومة البريطانية أن تتدخل وتتولى الإدارة . وكان جلادستون قد عاد للحكم مرة أخرى ، وذكرى جوردون وحملة « ولسيلى » بعد حية فى ذاكرته ، فأعرض عن الفكرة ، ولكن الجمهور والكنيسة والملكة كانوا ضده مرة أخرى ! . . . وقد كتبت الملكة فيكتوريا إلى وزير خارجيتها « روزبيرى » تقول : « إن أوربا لم تنس ، ولن تنسى ، مصير جوردون ، ولا بد أن نلزم أقصى الحذر فيما نفعل . أن الصعاب كبيرة فى أوجندا — دون ريب — ولكن أخطار التخلى عنها أعظم » . وظفرت فى النهاية بما أرادت ، فأعلنت الحكومة — فى أبريل ١٨٩٤ — قرارها بأن تصبح أوجندا محمية بريطانية . وفى أواخر التسعينات من القرن التاسع عشر ، طرد منها المهديون الذين كانوا قد وصلوا حتى (واديلاى) ، وأخمد تمرد قام به جنود « أمين » السابقون . كما هزم « موانجا » — الذى كان قد انضم للمسلمين — « وكاباريجا » . وكانت هذه نهاية كل معارضة قوية للبريطانيين عند منابع النيل .

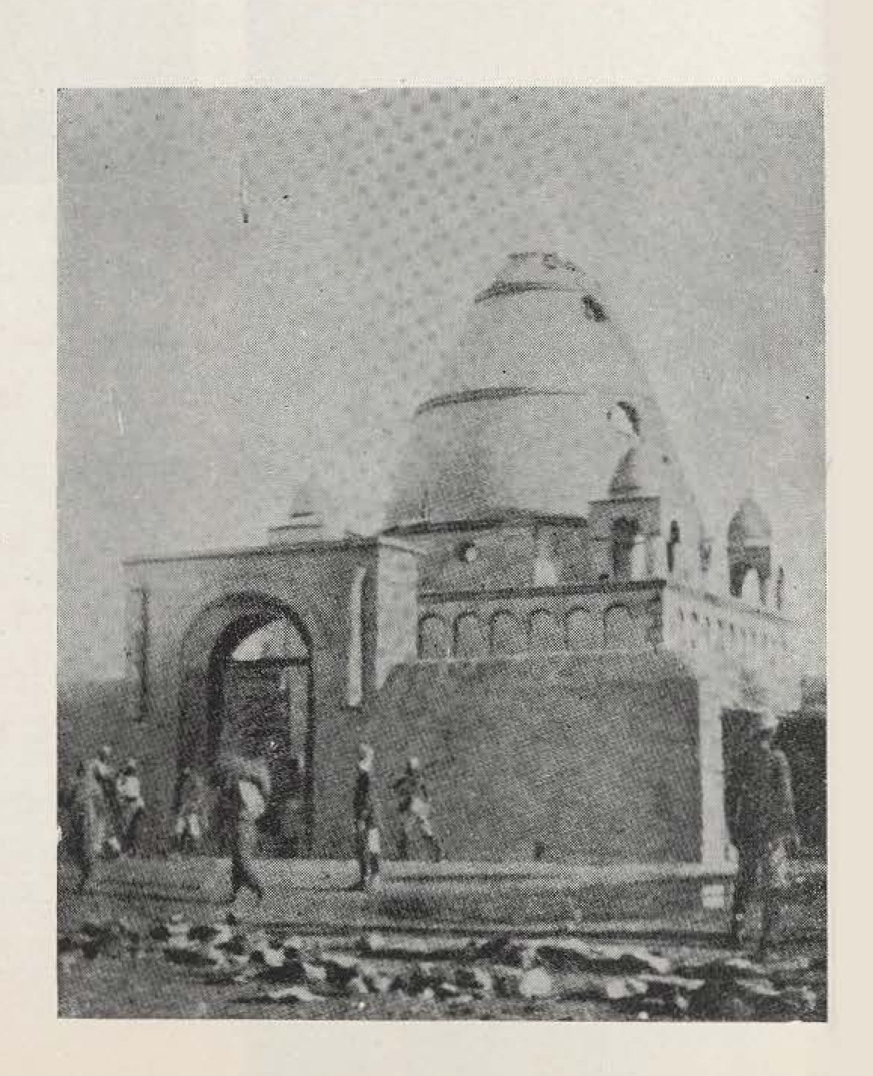
وإذ يلقى المرء نظرة على الأربعين العام التى انقضت ، منذ فتح سبيك وجرانت ثغرة فى استحكامات هذه الممالك البدائية — لأول مرة — لا يتمالك سوى أن يبهر بشخصية « كاباريجا » . وإذا كان « كاباريجا » قد لقى إهمالا فى هذه الصفحات ،

---

(١) لم يكن لإنجلترا ثمة إيراد يذكر — أو بالأحرى لم يكن ثمة إيراد على الإطلاق — من أوجندا فى ذلك العهد ، وكانت كينيا لا تزال معتبرة « برية » لا أمل فيها . وقد سئل « لوجارد » — من أحد مراسليه — عما إذا لم يكن ثمة رجاء البتة فى أن تدر أوجندا « دخلا ولو بسيطاً » . فإن فى كلمة «دخل» لسحراً ! فاضطر إلى الاعتراف بأنه لم يكن للتجارة وجود يذكر هناك ، فى تلك الفترة . (المؤلف)



السفينة البخارية ذات الدولاب « بوردين » كما كانت تبدو فى الخرطوم سنة ١٩٣٠ .



قبر المهدى الذى شيد فى أم درمان عقب وفاته . كانت قبته ترى على مسيرة ثلاثة أيام .

أمين باشا

« إدوارد شنيتزر » النمسوى
الذى جعل نفسه أسطورة .





الملك كاباريجا

أثناء إقامته فى المنفى
ظل أشبه بالأسد حتى فى إنكساره .

فإنما يرجع ذلك إلى أن ما سجله عنه المستكشفون – وهو المصدر الوحيد الميسور تقريباً – قليل ، تسيطر عليه الروح العدائية . فما من مبشر استقر فى معسكر كاباريجا – بل ولا « أمين » ، وهو الوحيد الذى التمس له الأعذار – بقى على صداقته طويلا . ومع ذلك ، فإن « كاباريجا » يتفوق على كل من عداه فى أوجندا لبراعته فى حرب العصابات ، وشجاعته وقوة عزمه فى الدفاع عن الاستقلال الأفريقى. وهو الوحيد الذى استمر على المسرح من البداية إلى النهاية ، فهو – كمحارب شاب – قد رأى سبياك وجرانت يدخلان عاصمة أبيه بالقرب من (ماسيندى) ، وهو قد حارب بيكر وجوردون وستانلى ولوجارد ، كما حارب مونيسا . وكان دائماً على شفا الهزيمة ، ومع ذلك فهو لم يسلم قط ، طالما ظل أمامه طيف فرصة لاستنهاض عزائم رجاله . ولقد كان صراعاً ميئوساً منه – فى الواقع – ولكن هذا لم يكن رأيه . لذلك فمن المحزن بعض الشىء أن البريطانيين تعقبوه ذات يوم أحد من أبريل عام ١٨٩٦ ، إلى آخر معقل له ، فى مستنقع يقع إلى الشمال من بحيرة (كيوجا) ، واعتقلوه . . . كما اعتقلوا « موانجا » – الذى كان قد انضم إليه فى المقاومة – وأبعدوهما إلى (سيشل) . وكانت إقامتهما فى الجزيرة أطول من إقامة الأسقف مكاريوس فى الآونة الأخيرة ، وقد مات « موانجا » هناك ، فى سنة ١٩٠٣ . أما كاباريجا ، فقد ظل على قيد الحياة . وقد التقطت له صورة فى كبره ، تبينه واقفاً ممسكاً بعصاً ، وقد ارتدى سترة « فراك » وياقة بيضاء منشاة ، وبرز من جيبه منديل أنيق . . . كان أسداً حبيساً ، ومع ذلك فقد ظلت نظرته قوية خالية من الخوف ، وظل رأسه مرفوعاً فى شمم ، أشبه برأس تمثال صب من برونز ثقيل .

وعندما بلغ كاباريجا الثمانين ، بات جلياً أنه لم يعد قادراً على إثارة المتاعب للبيض فى أفريقيا ، فسمح له بالعودة إلى وطنه . على أنه لم يوفق إلا للوصول إلى منبع النيل عند (جينجا) ، ثم مات . ونقلت جثته إلى (بونيورو) فدفنت بقرب ميدان قتاله لبيكر فى سنة ١٨٧٢ . ومن السهل على المسافر فى الطريق الرئيسية فى أيامنا هذه ، أن يعثر على قبره : كوخ من الأعشاب والبوص ، محوط بالأشجار وبسياج من النباتات . والمكان معتم نوعاً ما – فى الداخل – ولكن المرء يتبين على

القبر غطاء مغبراً من قماش صنع من لحاء الشجر ، ومن جلود النمور . . . الحيوانات المفترسة التى لا سبيل لترويضها ، والتى اتخذت رمزاً لملوك أوجندا !

كذلك انهارت الأوضاع القديمة فى السودان ، وبدأ عهد جديد ، عهد السيطرة الأوربية ، والثأر الأوربى . ومن الممكن اعتبار عام ١٨٨٩ نقطة تحول التيار ضد الخليفة : ففى أوائل أغسطس ، أبيد « النجومى » مع كبار أمرائه أجمعين فى معركة (توسكى) ، على بعد ستين ميلا داخل حدود مصر . وبهذا تلاشى الخطر المهدوى على القاهرة إلى الأبد . وفى تلك الأثناء كان « عثمان دنجه » يتراجع — عند البحر الأحمر — أمام هجوم بريطانى جديد ، كما وقعت برجال الخليفة خسائر فادحة فى حملة ثالثة ضد الأقباط فى الحبشة . وكان حريا بهذه الهزائم أن تودى بالخليفة ، لولا أنه كان محمِياً بصحارى السودان ، على أنه كانت ثمة أخطار أخرى تهدده ، إذ أخذ عدد سكان البلاد يتضاءل ، وقد قدر « سلاطين » فيما بعد أن حوالى خمسة وسبعين فى المائة من عدد السكان الأصليين — وكانوا تسعة ملايين — قد أُفنوا خلال حكم الخليفة ! .. ذلك أن الحروب المستمرة وتجارة الرق كانت تقضى على آلاف عديدة منهم كل عام ، وباتت الأمراض — كالجدرى والزهرى — متوطنة ، ثم اجتاحت البلاد مجاعة فى سنة ١٨٨٩ . فقد تُركت مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية معطلة ، سواء لذهاب العرب إلى الحرب ، أو إلى العاصمة . وفى مديرية دارفور — حيث كان الخليفة قد قمع انتفاضة بأقسى وحشية — استولت الكواسر على السهول الخالية ، ثم أقبل الجراد فى إحدى غزواته الأفريقية ، فى أسراب كانت تحجب ضوء الشمس ، فأحال الأرض صحراء بين يوم وليلة ! . . . أما الغلال القليلة التى تركها على الأرض ، فالتهمها عدو آخر . . . الجرذان !

وكان أقسى قدر من وطأة النكبة من نصيب أهل (أم درمان) المزدحمة .. فأشاع الجوع اليأس فى القلوب ، وتحول الناس إلى آكلى لحوم البشر ، فراحوا يأكلون أطفالهم ! . . وكانت جثث الهالكين ترى فى الشوارع ، أو طافية على النيل ، بالمئات !

وإذا كان العرب قد استطاعوا البقاء بعد هذه المصائب ، كما استمروا يحكمون

السودان ثمانية أعوام أخرى ، فهذه شهادة بقوة شخصية الخليفة ، وبصلابة العرب ورجولتهم . على أن استمرارهم بعد سنة ١٨٨٩ بات عملية تقهقر واعتصام. ولقد هرب الأب « أورفالدر » إلى مصر سنة ١٨٩١ ، مع راهبتين بقيتا على قيد الحياة، واستطاع « سلاتين » أن يلحق بهم بعد أربع سنوات . وتسنى — من أقوال هؤلاء وغيرهم من الشهود — الإلمام بصورة دقيقة لاستحكامات الخليفة المتداعية. وبدأت الحمية تدب فى الجيش المصرى ثانية، وكان قد أصبح تحت قيادة فريق متحمس من الضباط البريطانيين الذين درسوا فنون الحرب فى الصحراء .

وفى تلك الأثناء ، كان فى إنجلترا هياج متزايد للمطالبة بحملة أخرى إلى السودان ، من أول دوافعها الانتقام لموت جوردون ولهزيمة هيكس ولسيلى . فإن الفريد ميلنر — فى كتابه « انجلترا فى مصر » — « وأورفالدر » و « سلاتين » فى كتابيهما ، كشفوا من قسوة العرب ما أهاج الاستنكار. وفى سنة ١٨٩٥ ، حلت حكومة قوية من المحافظين محل الأحرار ، كما دفعت السياسة الدولية ساسة بريطانيا إلى العمل ؛ إذ أنهم — فى السباق العام على الأراضى الأفريقية — كانوا قد أيدوا مطالب ألمانيا وإيطاليا ضد المطالب الفرنسية ، وبات يخشى أن تتأهب فرنسا لتدخل إلى السودان . وفى أوائل سنة ١٨٩٦ ، منى الإيطاليون بالهزيمة فى (عدوه) ، على يدى أمبراطور الحبشة « منليك» ، وبات من المحتمل أن يطردوا من أفريقيا بأسرها ، ما لم يحدث البريطانيون تحولا فى حوض النيل . وأضيف إلى كل هذا، الخوف (الفارغ) القديم من أن يجدد الخليفة هجومه على مصر وقناة السويس. ومن ثم فإن ظروف قيام حرب استعمارية كانت مهيأة تماماً فى كل مكان تقريباً. ولعل صوت جوردون انبعث من الماضى ثانية : « يجب سحق المهدى ... تذكروا أنه إذا ما وقعت الخرطوم فى يد المهدى ، فستزداد المهمة صعوبة بمراحل، ولكنكم ستكونون مضطرين لتنفيذها من أجل سلامة مصر» و « ستضطرون لخوض مهمة أشد خطورة بكثير » .

ولم تحن سنة ١٨٩٦ ، حتى كان البريطانيون مستعدين لخوض هذه المهمة الأشد خطورة . فاستولوا على أسطول شركة « توماس كوك » للرحلات النيلية، وحُشد حوالى ١٠,٠٠٠ جندى مصرى وضباطهم البريطانيون على الحدود السودانية.. حتى سير « إفلين بارينج » — كرومر — كان بين المتحمسين . وقد عين الضابط

الأثير لديه « الجنرال كيتشنر » — الذى بلغ الثامنة والأربعين — قائداً للحملة، ومعه فريق من الشباب الذين بدأوا يبنون لأنفسهم مجداً : و « ينجيت » ، بمخابراته السرية الرائعة ، و « سلاتين » ، الذى أصبح من كبار ضباط الجيش المصرى ، و « ديفيد بيتى » رجل البحرية الشاب ، ثم العسكرى الشاب « وينستون تشيرشل » .

وكان الانطلاق فى النيل من مصر مهمة لم تستغرق « بضعة أشهر » كما تنبأ ولسيلى، وإنما استنفدت عامين كاملين . فلم يكن ثمة داع للعجلة وللخطأ فى هذه المرة ، ولم تدر سوى معركة واحدة قبل (أم درمان) . فى أبريل ١٨٩٨ ، سار « الأمير محمود » على النيل — وهو من أشد قادة الخليفة الباقين على قيد الحياة ضراوة — حتى بلغ (عطبرة) ، ليلتقى بالحملة القادمة . وفى يوم الجمعة اليتيمة ، انقض عليه كيتشنر بكل قوة مدفعيته الحديثة . وعلى عزف موسيقى القرب الإسكتلندية ، والمزامير الإنجليزية ، والطبول والموسيقى النحاسية ، اجتاح الجنود المصريون والبريطانيون متاريس العرب . ولم يتح للعدو منفذ ، فسرعان ما بلغ عدد القتلى حوالى ٢٠٠٠ .
ويروى تشيرشل عن كيتشنر بعد المعركة :

« . . . مر بجواده على طول صفوفه ، فإذا جنود اللواءات البريطانية يرفعون خوذاتهم على السونكيات القائمة الملطخة ، يحيونه بكل تحمس وحرارة الحرب المظفرة . وللبرهة الوحيدة تقريباً ، فى سياق هذه القصة ، كشف عن « عاطفة » ، إذ كان — كما قال ضابط راقبه عن كثب — « إنساناً » لمدة ربع الساعة . والحق أنه إذا كان ثمة شىء يمزق ما لهذا الرجل من تحفظ صارم ، فقد كان هذا الشىء هو هتافات الجنود الذين اجتاحوا « زريبة » عطبرة[١] ، إذ كان هذا أول يوم من الأيام المجيدة فى حياته » .

وأقيم عرض للنصر فى مدينة (بربر) المجاورة ، وامتطى كيتشنر جواده الأبيض ليتلقى التحية ، وكان على رأس العرض القائد المهزوم « محمود » . . . شاب مليح ، بادى الشمم والكبرياء ، فى أوائل العقد الرابع من عمره ، والأغلال تحيط بكاحلى

---

(١) Zerliba : « الزريبة » نوع من الاستحكامات الدفاعية البدائية ، كان المقاتلون يقيمونه من النباتات الشوكية وفروع الأشجار . (المترجم)

ساقيه ، وحبل الشنق يحيط بعنقه ، ويداه مغلولتان خلف ظهره . وبهذه القيود كان يساق إلى المشى آنا ، وإلى الجرى آنا آخر ، فإذا تعثر دفعه حراسه[1]. وراح سكان (بربر) والعاملون مع جيش كيتشنر يسخرون من الأسير ، ويرجمونه بالأوساخ !

كان حادثاً وحشياً ، وقد تبعه ما هو أسوأ ! . . . ولكن الإنصاف يقتضى أن نذكر أن معاملة أخشن كانت ترتقب البريطانيين والمصريين لو أنهم وقعوا فى أسر أعراب الخليفة . . . بل إن تلك الحرب الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ، بكل ضراوتها ، لم تبلغ ما كان يمارس من « قسوة مهذبة » على كثير من الأسرى خلال الحرب العالمية الثانية !

وكان مسلك كيتشنر إزاء هذه المسائل مسلكاً معقداً ، أطال فى محاولة إيضاحه سير « فيليب مانجس » ، بأن أشار إلى أن كيتشنر كان فى ذلك الوقت متطرفاً فى تحفظه ، وغير محبوب . . بالقدر الذى يسببه الطموح الشخصى الجارف ! . . . ولم يكن متزوجاً . وكانت مارى بيكر — ابنة « فالنتين » ، شقيق بيكر ، التى كانت فى السادسة عشرة من عمرها — قد وقعت فى هواه فى القاهرة ، سنة ١٨٨٣ ، ولكن أحداً لا يدرى هل كان ينوى أن يتزوجها أو لم يكن ، إذ أنها ماتت فى العام التالى ، وهو متغيب فى السودان مع حملة ولسيلى .

وكان قد عرف ، خلال إقامته بالقاهرة ، بالترفع . . كما عرف أنه كان يتردد على دور العائلات الكبيرة فى أسفاره إلى إنجلترا (وقد اسرع إلى هناك أكثر من مرة خلال حملة السودان ، لينشد العون السياسى !) ، ولكنه كان يتجنب — فى مصر — زيارة بيوت ضباطه وزوجاتهم ، ويؤثر عليها لقاء أغنياء اليهود والاتراك [2]. ولم يكن ينفع المتزوجين من أعوانه بشىء ، بل كان قاسياً فى الاقتطاع من مرتباتهم وعلاواتهم ! .. وما كان يقبل من مساعديه أى عذر — مهما يكن حقيقياً —

---

(١) هذه هى المعاملة « الإنسانية » التى أبداها « المستعمر » القادم إلى القارة الأفريقية باسم « المسيحية والمدنية » ، ليطهر السودان من « وحشية » العرب !

(٢) المعروف أن الاستعمار البريطانى فى مصر اتخذ من اليهود والأتراك عملاء له .

(المترجم)

عن أنفه تقصير . وكان عادة شرساً نكداً ، ولم يكن يبدى أى اهتمام بخير جنوده ، ونادراً ما كان يكلمهم . وبدافع « الاقتصاد » فى النفقات ، لم يسمح إلا لعدد ضئيل من الأطباء أن يصحبوا الحملة ، وكان مسلكه نحو الجرحى من العرب مسلك عدم الاكتراث — بأخف تعبير — إذ كانوا يتركون فى ساحة القتال ليموتوا . ومع ذلك فمن الواضح أن كيتشنر كان يشمخ على رجاله بدرجة لم يبلغها سوى القلة من قادة الميدان ، فكان موضع خوف وإعجاب بالغين ، كرجل رصين ، كفء ، دقيق دقة الآلة ! . . وكان جاويشيو التدريب العسكرى الذين تحت إمرته يجاملونه بأن يطلقوا شواربهم على غرار شاربيه الطويلين ، الكثيفين ، العسكريين . ولم يجرؤ ضباطه قط على أن يناقشوه فى قراراته . ولا كانت شكوكه وهواجسه الخاصة تكشف إلا لرؤسائه من أمثال بارينج — كرومر — (وقد كان مع بارينج شديد الحذر) .

وهكذا اندفعت الحملة نحو (أم درمان) يحفزها النجاح ، والشوق إلى مزيد من الغنائم ومن أمجاد القتال . وبلغت (متمه) فى أوائل صيف سنة ١٨٩٨ ، حيث وجدت الخنادق والقبور التى كان جنود ولسيلى قد حفروها عندما تلكأوا فى زحفهم على الخرطوم قبل ثلاثة عشر عاماً . ولم يحن أول سبتمبر حتى كان كيتشنر أمام أم درمان ، بقوة أربت على ٢٠,٠٠٠ ، ضمت كثيراً من الجنود البريطانيين ، وقوارب مدفعية الأسطول البريطانى ، ومائة مدفع ، وطابور إمدادات كبير من الإبل والخيل . وكان المطر قد انهمر غزيزاً فى تلك الليلة . وفى الهواء الصافى الذى أعقبه ، شاهد الجنود قبة قبر المهدى الضخمة ، وتحتها — على سطح الصحراء — خط طويل غير واضح ، بدا كأنه « زريبة » .

ويصف تشرشل المنظر بقوله :

« فجأة ، بدأ الخط الأسود — الذى بدا أنه « زريبة » — يتحرك بأكمله فإذا به من رجال ، وليس من أشجار ، وخلفه جموع وصفوف هائلة من الرجال ، عند حافة المرتفع ! . . . وبينما كنا نتفرج مذهولين لغرابة المنظر ، اسودّ وجه السفح بأسره بأسراب من الهمجيين . وتقدم هذا الجيش العرم بسرعة ، بعرض أربعة أميال كاملة ، وفى خمس فرق كبيرة كما بدا لنا ، وكأنما تحرك جانب التل بأسره . وخلف الرجال كان

الخيالة يركضون باستمرار ، بينما تناثرت جماعات الاستطلاع أمامهم فى السهل ، ورفرفت فوقهم مئات الأعلام ، وانعكست أشعة الشمس على آلاف عديدة من سنان الحراب المتحفزة ، ناشرة سحابة براقة » .

ولم يخطر بالبال أن ثمة فرصة تذكر للخليفة ، فإن كثيراً من محاربيه – الخمسين ألفاً – لم يكونوا مسلحين بأكثر من حراب ، وكانت مدافعه قديمة ، كما أن سفينتى « بيكر » القديمتين (بوردين) و (الإسماعيلية) – والأخيرة هى التى نسفت بينما كانت تبث ألغاماً فجة فى النهر بقرب أم درمان – لم تكونا ندين لقوارب المدفعية البريطانية . . . ولو أن الخليفة هجم بالليل ، أو اختار موقفاً فى الصحراء بعيداً عن مرمى قوارب المدفعية ، لتغيرت القصة . ولكنه لم يفعل هذا ولا ذاك ، بل أعلن أن « الله » أمره بأن يقاتل عند « أم درمان » .

وكان العرب بالغى الشجاعة ، فقد هجموا بجمعهم فى فجر يوم ٢ سبتمبر ، مندفعين مباشرة نحو نيران المدفعية البريطانية ، وأتمت بنادق « كيتشنر » المهمة ! . . وكتب « ج. و . ستيفنز » – المراسل الحربى – يقول : « ما من جنود بيض كانوا ليجرأوا على مواجهة هذا الموت المتدفق ، ولو لخمس دقائق . إنها لم تكن معركة ، وإنما كانت مذبحة » ! . ولم يوفق العرب فى الوصول إلى خطوط الغزاة ، فيما عدا الجناح الأيسر ، حيث قام رماحة الفرقة الحادية والعشرين بهجوم جرىء ، مخرب ، لامعنى له . وتراكم الموتى والجرحى أكواماً على أرض الصحراء ، فلم تنقض ساعة أو اثنتان حتى كانت ثمة عشرة آلاف جثة ، بينما انساب نحو مدينة (أم درمان) آلاف غيرهم من الجرحى ، أو الذين انهارت روحهم المعنوية . أما خسائر كيتشنر فكانت حوالى ٤٠٠ قتيل فقط ! . وكان « الجنرال » يراقب المعركة من فوق جواده ، وأركان حربه حوله ، وعلم الجيش المصرى الأحمر الكبير يرفرف فوق رأسه . وكتب تشرشل يقول : « فى الساعة الحادية عشرة والنصف أغلق سير « ه . كيتشنر » منظار الميدان . وذكر أنه رأى أن العدو قد نال « نفضة » طيبة » .

وبعد مهلة للغداء ، ركب كيتشنر – الذى أضاف علم الخليفة الأسود إلى علمه – ليدخل (أم درمان) . وكانت المقاومة ضئيلة . فإن معظم رجال القبائل الذين نجوا من المذبحة كانوا قد فروا . وغمرت المدينة موجة فرح عظيمة ، عندما أعلن أن الأهالى الذين بقوا فيها (ومعظمهم من النساء) سوف يعفون من القتل . وعرف

القوم « سلاتين » ، الذى قضى ولا بد يوماً مليئاً بالفرح المتشفى ، فحيوه . وفى عصر اليوم نفسه ، شق كيتشنر طريقه بين الجثث المتراكمة والحيوانات النافقة — إذ كانت قذائف المدفعية البريطانية شديدة الوطأة للغاية ، وقد استخدم الليديت[1] لأول مرة — فتوجه إلى قبر المهدى فى وسط المدينة . وهناك وقع حادث ، إذ انطلقت أربع قذائف بريطانية — على سبيل الخطأ ! — فهوت عند قدمى الجنرال تقريباً ، ولقى « هيوبرت هوارد » ، مراسل (التايمز) ، حتفه[2] . ووصل كيتشنر أخيراً — وهو يمضى فى الشوارع المتعرجة بحثاً عن الخليفة — إلى السجن ، فأفرج عن « تشارلز نيوفيلد » ، التاجر الألمانى الذى كان قد اعتقل قبل اثنى عشر عاماً ، وحوالى ثلاثين سجيناً آخرين كانوا مكبلين بالأغلال . ثم رجع إلى المسجد ، حيث أقام مركز قيادته . وهناك حمل إليه « سلاتين » — فى المساء — نبأ نجاة الخليفة . فعند عودته (الخليفة) من ساحة القتال ، استراح ساعتين ، وزار قبر المهدى . وفى الساعة الرابعة ، فى نفس لحظة دخول كيتشنر المدينة ، امتطى حماراً وخرج مع إحدى زوجاته — وكانت راهبة يونانية اعتزم استخدامها كرهينة — وعدد قليل من خدمه . وقد خرج معه حوالى ٣٠,٠٠٠ هارب ، بينهم « عثمان دنجة » الذى كان قد أتى من البحر الأحمر ليشترك فى المعركة . وتعقب الفرسان البريطانيون الخليفة — فى الأيام التالية — إلى مسافة مائة ميل جنوب الخرطوم ، ثم عادوا صفر الأيدى ، إذ كان الخليفة — فى تلك الأثناء — يسعى حثيثاً نحو (الأبيض) .

وشرع كيتشنر يوطد أمجاد الانتصار فى (أم درمان) . وكانت القنابل قد أوقعت بضريح المهدى أبلغ الأضرار ، فأخرج جثمان المهدى من جوف الأرض ، وطوح به فى النيل ، ولكن . . . بعد أن اجتُزّ الرأس منه ، فاستولى عليه كيتشنر غنيمة ! . . . ويبدو أنه كان يفكر فى إمكان استعمال الجمجمة كمحبرة ، أو

---

(١) الليديت (نسبة إلى مدينة « ليد » الإنجليزية) : مركب كيماوى شديد التفجر ، يستخدم فى صناعة القنابل . (المترجم)

(٢) كان كيتشنر يحب « هوارد » — الذى كان قد رافق تشرشل فى هجوم رماحة الفرقة الحادية والعشرين — ولكنه لم يكن يحب المراسلين الحربيين عامة . ولقد رفض أن يسمح لهم بالزحف مع مقدمة الحملة ، حتى ألح عليه « ساليسبورى » . وما إن سقطت (أم درمان) ، حتى أعادهم إلى مصر . وقد أبقاهم — قبيل المعركة — خارج خيمته وقتاً طويلا ، وهم يأملون أن يظفروا منه بتصريح . ثم خرج إليهم ، فشق طريقه بينهم قائلا : « ابتعدوا عن طريق أيتها الزنابير السكيرة ! » (المؤلف)

قدح للخمر ، أو أن يقدمه تحفة إلى كلية الجراحين فى لندن . ولذلك أرسله إلى القاهرة[١] .

ولقد ثار الرأى العام عندما علم بهذه المسألة ، ولم تستطع شعبية الجنرال فى إنجلترا (حيث رفعه القوم إلى مصاف الآلهة ، بعد معركة أم درمان) أن تحميه . وقد تأثرت الملكة فيكتوريا أعمق تأثر — إذ رأت أن للمسألة « قدراً كبيراً جداً من رائحة القرون الوسطى » ! — بحيث اضطر كيتشنر إلى أن يكتب إليها خطاباً يهدىء فيه من ثائرتها . وفى الوقت ذاته استولى بارينج — فى القاهرة — على الجمجمة فى سكون ، وأرسلها إلى مقبرة المسلمين فى (وادى حلفا) ، حيث دفنت سراً ، تحت جنح الظلام .

على أن وقع هذه الأحداث لم يظهر إلا فيما بعد ، كجزء من خيبة الأوهام ، ومن الشعور برد الفعل الذى يعقب الانتصار . وكانت أمام كيتشنر — فى أيام الابتهاج الأولى بعد المعركة — مهمة أخرى فى (الخرطوم) ، راقت للرأى العام واسترضته . لم يكن قد بقى الكثير من مخلفات جوردون . فكانت الاستحكامات التى أمر بحفرها لا تزال بادية للعيان ، والباخرة (بوردين) قد استردت ، والمنظار المقرب — الذى كثيراً ما تطلع خلاله من فوق سطح (السراى) — قد عثر عليه فى الترسانة بحالة جيدة . وكانت ذكرى جوردون لا تزال متألقة . وفى ٤ سبتمبر ، وقفت نخبة مختارة من حرس الشرف فى الميدان المواجه لأطلال (السراى) ، وقام أربعة من قساوسة الجيش بطقوس جنائزية . وأُنشدت ترنيمة جوردون المفضلة « كن معى » ، ونُكس العلمان البريطانى والمصرى على ساريتين أقيمتا على حطام السقف ، وبعد أن عُزف السلامان القوميان ، ارتفع الهتاف للملكة ثلاثاً ، وللخديو ثلاثاً أخرى . وأطلقت زوارق المدفعية تحية من النهر . وكان تأثر كيتشنر بالغاً ، وهو يقف وسط الميدان . وقد ذكر شاهد عيان أن كتفيه رؤيتا تهتزان بقوة العبرات ،

---

(١) مرة أخرى ، نلفت النظر إلى النبل « الإنسانى » ! الذى أظهره كيتشنر ، ونتساءل : كيف وصفت أعمال المقاتلين الإفريقيين — خلال الكتاب — بالوحشية ؟ . . و بماذا توصف مثل هذه الأعمال من « أبيض » جاء كى « يروض » الإفريقيين ، ويدخل إليهم المدنية ؟ . . إن ما قيل — فيما بعد — عن استنكار الرأى العام البريطانى لأعمال كيتشنر ، يبدو مجرد « دعاية » للتخفيف من وقع وحشيته ، ولو كان الاستنكار صادقاً ، لما بقى كيتشنر بعد ذلك حاكماً مستبداً على السودان ، ثم « مندوباً سامياً » يمثل أبشع أساليب الاستعمار فى مصر ! (المترجم)

وقد أشاح بوجهه ، واضطر إلى أن يكلف أحد ضباطه بأن يفض العرض . وسار بعد ذلك طويلا فى حديقة القصر ، تحت درجات السلم الذى قتل عليه جوردون . وقد كتبت الملكة فى يومياتها ، حين سمعت بالاحتفال : « لقد ثُؤِر له ، يقينا » . وكان هذا حقًّا . ومع ذلك فلا يملك المرء إلا أن يشعر بأن جوردون نفسه كان آخر من يبتغى الثأر ، وأنه كان خليقاً بأن يحظى بارتياح أكثر لقيام الكلية التى حملت اسمه ، عندما أعيد إنشاء الخرطوم . . .

وبقيت أمام كيتشنر مهمة أخرى على النيل الأبيض ، وكانت عاجلة . إذ تسلم — قبيل المعركة — أوامر من إنجلترا طُلب منه ألاّ يفضها إلا بعد إعادة فتح الخرطوم . فلما آن له أن يقرأها ، تبين أن عليه أن يمضى فوراً على النهر جنوباً ، إذ كان المعتقد أن جماعة من الفرنسيين بقيادة الكابتن « جان بابتيست مارشان » قد اجتازت القارة من الساحل الغربى ، واستقرت على ضفتى النهر ، ولا بد من إزاحتها من الطريق !

وكان قد عرف منذ زمن أن الفرنسيين كانوا يُعِدون لهذه « الضربة » ، وقد فكر البريطانيون فعلا فى إرسال بعثة إلى الشمال من أوجندا لتسبقهم . ولكن أشهراً عديدة انقضت دون سماع شىء عن « مارشان » . على أن كيتشنر كان قد تلقى — قبل أن يفض الأوامر بيوم أو اثنين — دليلا مباشراً على وصول الفرنسيين : ففى يوم ٩ سبتمبر وصلت إلى الخرطوم — من النيل الأبيض — باخرة جوردون القديمة (التوفيقية) ، تحت إمرة عرب مطمئنين ، لم يكونوا قد عرفوا بعد بسقوط أم درمان . واعتقل رجال الباخرة فوراً ، فإذا لديهم قصة مثيرة : فقد ذكروا أنهم ذهبوا إلى الجنوب قبل شهر ، مع باخرة أخرى تدعى (صافية) ، لجمع الغلال . فلما اقتربوا من المركز المصرى القديم عند (فاشودة) — على بعد ٤٠٠ ميل جنوباً — وجهت إليهم طلقات من الشاطئ ، من جنود سود تحت قيادة ضباط بيض ، ولهم علم غريب . ففقد العرب أربعين رجلا بين قتلى وجرحى ، وتراجعوا لفورهم وأوفدوا (التوفيقية) إلى أم درمان لاجتلاب تعزيزات . وأشار العرب — تأييدا لروايتهم — إلى الطلقات التى كانت قد غاصت فى الغشاء الفولاذى للباخرة ، فإذا بها ذات ظروف مطلية بالنيكل ، ومن حجم صغير لم يكن منتشراً إلا فى أوربا !

وكانت الآلاف الثلاثة من الأميال التى قطعها « مارشان » بعرض القارة بمثابة « استعراض للقوة » ! . . . فقد انطلق من (برازافيل) قبل عامين ، مع اثنى عشر ضابطاً فرنسياً ، وما يزيد على مائة سنغالى ، واجتازوا عقبات تفوق التصور – فى جوف القارة – حتى وصلوا إلى (فاشودة) فى يوليو ١٨٩٨ ، قبل معركة أم درمان بستة أسابيع . وكانت غايات « مارشان » سياسية بحتة ، فكان يعتزم أن يستولى على وادى أعالى النيل باسم فرنسا ، ويتحالف مع إمبراطور الحبشة « منليك » لطرد الخليفة أو الاتفاق معه وفوق كل شىء ، كان عليه أن يعرقل حملة كيتشنر الزاحفة فى النهر جنوباً[1]. ولا يكاد الخيال يتصور شيئاً أكثر استفزازاً ، ولا أبعد عن التحقيق ، ولا أمعن فى الجرأة من هذا . ومع ذلك ، فقد سارت الحملة . وكانت الحكومة الفرنسية مستعدة لتأييد المشروع ، ولو اضطرت إلى الحرب ! . . الحرب ضد بريطانيا فى أوربا ، وليست الحرب بين رجال مارشان المائة وجيش كيتشنر على النيل طبعاً ! . . ولم يقدر لأزمة أخطر من هذه أن تقع ، إلى أن نشبت الحرب فى سنة ١٩١٤ ، وكانت فرنسا وبريطانيا – إذ ذاك – متحالفتين ضد ألمانيا .

وكان « ساليسبورى» قد تكهن بالخطر قبل ذلك باثنى عشر شهراً ، إذ أبرق إلى بارينج فى القاهرة يقول :

« . . . إذا انتظرنا عاماً آخر ، فقد نجد أن الفرنسيين سبقونا إلى إقامة مركز فرنسى فى (فاشودة) . وإن الجزم بما يقع فى أعالى النيل ، لفى صعوبة الجزم بما على الوجه الآخر للقمر طبعاً ! . . ولكن ، إذا قدر لنا الوصول إلى فاشودة ، فإن الأزمة الدبلوماسية ستكون شيئاً تبقى ذكراه ، أما « ماذا يحدث بعدها » ، فسيكون سؤالا طريفاً جداً » .

أما لماذا اختار « مارشان » (فاشودة) غاية له ، ووصفها بأنها نقطة حيوية للمواصلات على النيل ، فأمر غامض ، إذ كان هناك حوالى ستة أماكن أخرى – فى شمال النهر وجنوبه – ينطبق عليها الوصف ذاته . ولقد كانت فاشودة

---

(١) كان مارشان يأمل كذلك أن يلتقى بحملة فرنسية أخرى ، كانت قد وصلت بالفعل إلى النيل ، قادمة من البحر الأحمر ، قبل ذلك بأسابيع . فلما لم تجد له أثراً ، عادت من حيث أتت .

(المؤلف)

مجرد مجموعة مزرية من البيوت ذات الأسقف المسطحة على ضفة النهر ، ولعل مبعث شهرتها الأوحد أنها كانت مقر الملوك الدينيين لقبيلة (الشلوك) . وكان الجو فيها حاراً ، تتفشى فيه الملاريا ، وقد استخدمها المصريون زمناً كسجن لذوى العقوبات المؤبدة . وكان كل الرواد الأوائل — من بيكر فصاعداً — يعرفون فاشودة ويبغضونها . وقد كتب « رومولو جيسى »، فى سنة ١٨٧٤ : « يقال إن مَن يُرْسَل إلى فاشودة لا يعود . فالطقس غير صحى ، والهواء موبوء . . . »

ولم يضيع كيتشنر وقتاً : ففى ١٠ سبتمبر أبحر فى النهر جنوباً بخمس سفن ، وكتيبتين من الجنود السودانيين ، ومائة من المحاربين الجبليين من (الكاميرون) ، وبطارية للمدفعية ، وأربعة مدافع « مكسيم » . وإن هى إلا ثلاثة أيام ، حتى التقى بالباخرة (صافية)، فأطلق عليه رجالها العرب النار ، ولكنه أبادهم بسرعة . وفى ١٨ سبتمبر اقترب بالأسطول البريطانى الصغير من فاشودة ، فأوفد كيتشنر رسولا يحمل دعوة إلى « الكابتن مارشان » للقائه على ظهر سفينته فى اليوم التالى .

وإلى هنا ، كنا قد رأينا كيتشنر فى صورة الخشونة والتعنت . ومع ذلك ، فما كان ثمة أروع من الطريقة التى تناول بها الموقف الدقيق المتفجر الذى واجهه إذ ذاك : ومن حسن الطالع حقًّا أنه كان يجيد الفرنسية . وقد ضاعف من حظه أنه دُفِع إلى التعامل مع رجل له طبيعة مارشان وحسن إدراكه ، ومع ذلك ، فقد كانت خطة الجنرال نموذجاً للبراعة الديبلوماسية . إذ أنه لم يستفز « غريمه » الفرنسى بارتداء الثياب العسكرية البريطانية ، وإنما تلقاه بطربوش الجيش المصرى ، وتحت العلم المصرى. وتمت المجاملات الافتتاحية على أكمل وجه . . . إذ هنأ مارشان مضيفه على انتصاره فى أم درمان ، ورحب به فى فاشودة ، باسم الحكومة الفرنسية . وهنأ كيتشنر ضيفه على توفيقه الرائع فى الوصول إلى النيل ، وأضاف أنه مضطر للاحتجاج على وجوده هناك ، وتساءل عما يعتزمه الكابتن مارشان ؟ . . فقال الفرنسى إنه مضطر للقتال إذا هوجم ، وإنه وزملاءه مستعدون للموت فى مراكزهم — وهذا قد يؤدى إلى حرب بين فرنسا وإنجلترا — وإنه لم يكن مستعداً للاتفاق على شىء ما لم يتلق تعليمات من فرنسا ! . . وقد رد كيتشنر بأنه — من ناحيته — قد تلقى تعليماته ، وكانت صريحة

واضحة ، تقضى بأن يستولى على أعالى النيل . بيد أنه كان مستعداً لأن يمهل مارشان حتى يتصل بالحكومة الفرنسية ، وبأن يمنحه كافة التسهيلات لذلك .

وكان العرض معقولا ، فوافق عليه مارشان . وبعد غداء ودى على ظهر مركب كيتشنر ، عاد الفرنسى إلى معسكره ، حيث رد إليه كيتشنر الزيارة . كذلك نزل إلى الشاطئ ضابط يجيد الفرنسية ويدعى « الكولونيل جاكسون » — منح لقب « الحاكم العسكرى والمدنى لمنطقة فاشودة » — مع فرقة من الرجال ، فرفعوا العلم المصرى ، وشرعوا لفورهم يقيمون معسكراً بجوار المعسكر الفرنسى . وقام كيتشنر بجولة استطلاعية قصيرة فى النهر ، حتى مصب نهر (السوباط) ، حيث أقام حامية أخرى ، ثم قفل راجعاً .

وبقى على الحكومتين أن تسويا الأمر ، ولكن فورة الاستنكار التى اجتاحت فرنسا وإنجلترا بمجرد معرفة أنباء فاشودة ، لم تكن تبشر بتسوية . إذ لاح للبريطانيين أن فرنسا حاولت أن تسلبهم نصرهم بحركة مستهجنة ، وقالوا إنه كان من المحتمل أن يبيد المهديون الكابتن مارشان لو لم يكسب كيتشنر معركة أم درمان . وما قيمة تلك الفصيلة من المغامرين الفرنسيين بالقياس إلى جيش كيتشنر ؟ . . وقال ساليسبورى إن مارشان « رحالة أحاطت به الصعاب فى أعالى النيل »(١) .

أما الفرنسيون فرأوا فى الأمر مثالا آخر للجشع والتحرش البريطانيين . إذ كان البريطانيون قد تخلوا عن السودان بعد سقوط الخرطوم سنة ١٨٨٥ ، واستطاع مارشان فى زحفه الباسل أن يستولى على جزء من المنطقة الخالية ، فأصبحت من حق فرنسا بحكم السبق إلى الاحتلال . لقد كان للفرنسيين سبق الوصول ، وإذا كانوا ضعفاء فى أفريقيا — إلى حين — فهم لم يكونوا ضعفاء فى أوربا ، والأمة الفرنسية مستعدة دائماً للقتال فى سبيل حقوقها .

وراحت الصحافتان الفرنسية والبريطانية تتبادلان الهجوم بأقصى حدة ، خلال الأسابيع الأولى من أكتوبر ١٨٩٨ ، وقد أتاح كيتشنر — حين عاد لوطنه فى نهاية

---

(١) لم يكن هذا صدقاً كاملا ، فقد كان « مارشان » مزوداً بالمؤن والمعدات إلى درجة مدهشة . وكان رجاله مزودين بأشياء منها « الناموسيات » التى لم يكن للجيش البريطانى عهد بها . وقد زرعوا بستاناً بالخضر . وعند ما أخلوا فاشودة ، تركوا للبريطانيين كمية من الشمبانيا والخمور الأخرى !

(المؤلف)

ذلك الشهر – منفذاً آخر لتأجج الروح الوطنية العاتية فى إنجلترا : فقد حفل القطار الخاص الذى أقله من دوفر إلى لندن ، ومبنى محطة (تشيرنج كروس) ، بالزينات لتكريمه . ونزل فى ضيافة « ساليسبورى » فى الريف ، ثم زار الملكة فى قصر (بالمورال) . وقد اغتبط الشعب بتكريمه ، إذ رأوا ذلك جزءاً من تحديهم لفرنسا !

واستمرت فاشودة المركز الهادئ لتلك العاصفة زمناً . وبرغم يقظة كل من مارشان والكولونيل جاكسون وتحفزهما ، فإنهما ظلا على وئام ، وأخذ المعسكران يتبادلان المؤن . وفى منتصف أكتوبر سنة ١٨٩٨ ، استدعت الحكومة الفرنسية « مارشان » إلى القاهرة ، فرحب به البريطانيون فى الخرطوم ، وأقاموا له مأدبة ، وأروه ساحة المعركة ، ثم أرسلوه إلى مصر .

وتدهورت الظروف فى فاشودة بعد رحيله ، فإن الكابتن « جرمان » – الذى وُكلت إليه قيادة الحملة فى غيابه – كان أقل رصانة منه ، فتحدى الاتفاقية التى كانت بين الجانبين ، واحتل بلاد قبيلة (الدنكة) ، على الضفة اليمنى للنهر ، ومنع زعماء القبيلة من الاتصال بالبريطانيين ، وأوفدت السفينة الفرنسية (فيديرب) جنوباً فى النهر ، إلى ما بعد الحدود التى اتفق عليها مع كيتشنر . وتروّى « جاكسون » – ومعه قارباً مدفعية وقوة أشد بأساً من القوة الفرنسية – ولكنه احتج مرات. وما إن عاد « مارشان » ، حتى كان الموقف قد تطور فأصبح شبيهاً بما كان بين « ماكاى » و « لوردل » ، وبالتزاحم بين الفرنسيين والبريطانيين فى « بوجندا » ، بحيث غدا القتال على وشك النشوب . ولكن « مارشان » هدأ من حدة الحال ، إذ كان قد علم فى القاهرة – بأسى مرير ، بلغ من عمقه فى نفسه أنه لم يذكر فاشودة قط على لسانه فيما تبقّى من عمره ! – إن الفرنسيين قرروا الانسحاب !

والواقع أنهم لم يكونوا مختارين ، إذ بات من الواضح أن الأحباش لم يكونوا يعتزمون أن يخفّوا لمساعدتهم فى حوض النهر ، لأنهم كانوا يكرهون المستنقعات الحارة المليئة بالأخطار . وبرغم ما كان يجرى فى أوربا ، فإن مركز الفرنسيين فى فاشودة لم يكن متيناً . فضلا عن أن فرنسا ذاتها – لا سيما الجيش الفرنسى – كانت منقسمة على ذاتها ، بصدد قضية « دريفوس » ، انقساماً ينذر بالشر . . فى حين

كان البريطانيون متضامنين متحدين فى موقفهم من فاشودة . . .

وأثناء مأدبة أقيمت لكيتشنر فى لندن — فى ٤ نوفمبر — كان ساليسبورى فى مركز سمح له بأن يعلن انتهاء الأزمة ، واستعداد الفرنسيين للانسحاب . وفى الصباح المبكر من ١١ ديسمبر ١٨٩٨ ، أنزل الفرنسيون علمهم فى فاشودة ، مع دقات الطبول وانطلاق الأبواق . وتوتر الجو لحظة عندما اشتدت بضابط فرنسى وخزات الكرامة الجريحة ، فتقدم وألقى بسارية العلم إلى الأرض ! . . على أن مأدبة فطور مشتركة ضمت الحاميتين بعد ذلك . وعندما أبحر الفرنسيون فى اليوم ذاته ، عائدين إلى وطنهم عن طريق الحبشة (مفضلين عدم سلوك طريق النيل القصير السهل ، لوقوعه فى أراض بريطانية) ، حياهم البريطانيون بطلقات المدافع . ولم يرفع العلم البريطانى إلا بعد أن غابوا عن الأبصار . وزيادة فى المجاملة ، مُحى اسم (فاشودة) — البغيض — من الخريطة . وتسمى القرية التى توجد اليوم بقرب الموقع الأصلى للمركز باسم (كودوك) . ونُظِّم لمارشان عند عودته إلى فرنسا استقبال حافل، ولكنه لم ير أفريقيا بعد ذلك ، إذ أوفد إلى الصين ليقوم بدوره فى ثورة « البوكسر » فى الصين[1] . ومات سنة ١٩٣٤ ، بعد أن أبلى بلاء ممتازاً فى الحرب العالمية الأولى .

وفى ٢١ مارس ١٨٩٩ ، وقع « ساليسبورى » و « كامبون » — السفير الفرنسى فى لندن — اتفاقية احتفظ بمقتضاها بحوض النيل للبريطانيين والمصريين ، بينما أطلقت يد الفرنسيين فى المناطق الواقعة غرب النهر . ثم وقعت اتفاقية أخرى — فى الشهر ذاته — بين بريطانيا ومصر ، تكفلت بمقتضاها الدولتان بحكم السودان معاً . وعين كيتشنر حاكماً عاماً ، كما اقترح جوردون من زمن طويل . وكان الجنرال — فى تلك الأثناء — قد عاد إلى الخرطوم ، ومظاهر التكريم تنهال عليه : فقدم اسمه فى قائمة الترقيات للجيش ، ومنحه البرلمان مكافأة قدرها ٣٠,٠٠٠ جنيه ، وأجمع المجلسان على شكره .

---

(١) « البوكسر » اسم أطلقه الأوربيون على جمعية « أى — هو توان » السرية الصينية . وكانت جمعية دينية سياسية قامت سنة ١٨٩٦ لمقاومة النفوذ الأجنبى ، عند ما استفحلت مطالبة الدول الغربية بأراض وامتيازات فى الصين . ودفعهم الفساد فى البلاط الإمبراطورى ، وتفشى المجاعة ، إلى العنف . . فأخذوا (فى سنة ١٩٠٠) يقتلون المبشرين ، ويدمرون السكك الحديدية والمصالح الأجنبية . وفى تلك المرحلة ناصرتهم إمبراطورة الصين ، فتكاتفت الدول الغربية وأمريكا واليابان وأرسلوا قوات حاربتهم بعنف حتى قضت على الحركة . (المترجم)

وشرع خمسة آلاف عامل فى إعادة إنشاء الخرطوم ، وغرست ٧٠٠٠ شجرة لتخفيف منظر العراء فى المدينة الجديدة . وصمم كيتشنر على أن يكون القصر الجديد - الذى أقيم على أنقاض القديم - لائقاً بمركزه . فأمر العمال بأن ينقبوا فى الخرطوم عن مواد مناسبة . وكتب كيتشنر إلى « وينجت » يقول : « انهبوا كألسنة اللهب الضارية ، فإنى أريد أية كمية من الدرجات الرخامية ، والدروب المرمرية ، والقضبان الحديدية ، والمرايا وما إليها ، والأبواب والنوافذ والأثاث من كافة الأنواع » . كذلك أوحى إلى المدن التى كانت تواقة لتكريمه فى إنجلترا ، بأنه لم يعد بحاجة إلى خوذات تذكارية أو سيوف للزينة ، ولكنه كان يؤثر اللوحات والأثاث والصور لبيت خاص كان يعتزم شراءه . وفى أوائل ١٨٩٩ ، وفد بارينج (كرومر) على الخرطوم لأول مرة ، فأرسى حجر الأساس لكلية جوردون ، التى جمع لها كيتشنر ١٢٠,٠٠٠ جنيه باكتتاب عام فى إنجلترا . وما لبث أن أقيم فى الميدان الرئيسى خلف القصر ، تمثال لجوردون يمتطى صهوة جمل .

أما بارينج وسلاتين - وكم شغلا معاً فكر جوردون فى الأشهر الأخيرة من حياته - فقد عاشا إلى سن جد متأخرة . وقد حمل « بارينج » لقب « أيرل كرومر » وعاد إلى إنجلترا فى سنة ١٩٠٧ ، وأصبح من غلاة المعارضين للحقوق السياسية للمرأة . وكان يرأس اللجنة التى تولت التحقيق فى كارثة حملة « جاليبولى »[1] ، عندما مات بالأنفلونزا سنة ١٩١٧ ، وهو فى السادسة والسبعين . أما « سلاتين » فأنعم عليه بلقب « سير » بعد أم درمان ، وأصبح حاكماً عاماً للسودان . وفى الحرب العالمية الأولى ، كان رئيساً للصليب الأحمر فى وطنه - النمسا - وكان موضع تقدير حار لما أبداه من إنسانية نحو أسرى الحلفاء .

ولقد سمح للزبير بالعودة للسودان ، سنة ١٨٩٩ ، حيث عاش إلى أرذل العمر فى ضياعه ، شمال الخرطوم .

---

(١) حملة جاليبولى (غاليبولى) : عمليات بحرية قام بها الأسطولان البريطانى والفرنسى فى أوائل الحرب العالمية الأولى (١٩١٥ - ١٩١٦) لاقتحام الدردنيل وتخفيف الضغط على روسيا ، وإخراج تركيا من الحرب ، وقطع الطريق إلى الشرق على ألمانيا . ولكن سوء تقدير قيادة الدولتين المتحالفتين ، جعل البوارج تحت رحمة الحاميات التركية على جانبى المضيق ، ورحمة الطوربيدات الألمانية ! . . فبلغت خسائر الإنجليز وحدهم فى الرجال ٢٠٠٠ ، وأغرقت بارجتان إنجليزيتان وواحدة فرنسية . . وتكررت المحاولة لإنزال جنود على شاطىء المضيق ، فأغرقت ثلاث بوارج بريطانية . (المترجم)



كيتشنر

(فى سنة ١٨٩٦)

باسم نجدة جوردون وطد الاستعمار
الانجليزى فى السودان .



بعض جثث أتباع المهدى عقب هزيمتهم ، وترى جثة الخليفة عبد الله – خليفة المهدى – فى المقدمة .

على أن أمور السودان لم تستتب بمعركة أم درمان، إذ ظل الخليفة ينعم بالحرية، وقد بذلت محاولات عديدة لاستدراجه إلى البرارى فى جنوب (الأبيض) ، ولكن الجواسيس لم يظفروا بأخبار أكيدة عنه قبل أكتوبر ١٨٩٩ ، أى بعد المعركة بسنة . فأعلنوا أن « عبد الله » وكبار أمرائه جميعاً كانوا يعسكرون بقرب (جبل غدير) ، على بعد حوالى ٤٠٠ ميل جنوب الخرطوم ،و ٨٠ ميلاً غرب النيل الأبيض حيث موطن قبيلته « البقارة » . . . وهى منطقة غابات وتلال لا تهبط عليها أمطار ، وإلى الشمال منها تقع جزيرة (أبا) ، حيث أعلن المهدى رسالته الدينية لأول مرة .

وأوفد كيتشنر ٨٠٠٠ رجل إلى (كاكا) ، أقرب بقعة على النهر . وفى نوفمبر ، وصل « وينجيت » ليتولى القيادة . وفى مساء ٢١ نوفمبر — والقمر متألق — سار وينجت إلى الغرب من النيل ، مع طابور خفيف من ٣٧٠٠ رجل مختارين ، فصادفوا فى اليوم التالى قافلة كانت تحمل غلالاً إلى معسكر الخليفة ، وقضوا عليها فى سويعات . ثم انطلقوا مسرعين خلال غابة كثيفة . وفى ٢٣ نوفمبر ، أخبره كشافوه بأنهم وجدوا معسكر العدو ، فى مكان يسمى (أم الدويكرات) على مسيرة حوالى ستة أميال . ولاح أن الخليفة قد يضطر للصمود للقتال ، سيما وقد استولى أعداؤه على غلاله ، وسدوا منفذه إلى الشمال ، ولم يكن إلى الجنوب والغرب سوى أراض وعرة جرداء . وقرر « وينجيت » أن يهجم عند الفجر . وتحرك الطابور بأقل جلبة ممكنة بعيد منتصف الليل ، وراكبو الجمال يحفون به ، والفرسان أمامه . وكان على الرجال أن يحطموا الأشجار ليشقوا طريقهم فى الغابة ، فى أماكن كثيرة . ومع ذلك ، لم تحن الساعة الثالثة صباحاً ،حتى كان الخيالة على مسافة ميل من هدفهم . فصدرت الأوامر للمشاة بالسير فى تشكيلة قتال . وسمعوا على البعد طبولا وأبواقاً تستنفر من فى معسكر الخليفة . ولكن هذه الأصوات ما لبثت أن سكتت ، وبرز الجنود إلى منطقة الأعشاب — على مرتفع من الأرض — دون أن يعترضهم أحد .

وكتب « وينجيت » فى تقرير إلى كيتشنر : « فى الخامسة والعشر دقائق صباحاً ، وضوء الفجر لم يتضح ، توغلت طليعة مشاتنا ، وتراءت تشكيلات غير واضحة

للدراويش » . وصبت المدافع البريطانية نيرانها ، فكانت (أم درمان) أخرى على نطاق أصغر . وعندما توقف إطلاق النيران بعد ساعة ، تبين وينجيت أنه ظفر بجزاء كبير ، فى مقابل ثلاثة من الموتى وثلاثة وعشرين جريحاً ، خسر العرب ألفاً ، بين قتلى وجرحى ، وبلغ الأسرى ١٠,٠٠٠ ، بينهم ٢٩ من كبار الأمراء ، والابن الأكبر للخليفة ، وكثير من النساء والأطفال . ولكن المنظر الرهيب حقًّا ، هو الذى رآه وينجيت فى ساحة القتال ذاتها :

« . . . على مسيرة بضع مئات فقط من الياردات ، من موقفنا الأصلى على المرتفع ، رؤى عدد كبير من جثث أعدائنا ، وقد تراكمت معاً فى مساحة صغيرة نسبيًّا . وبالفحص تبين أنها جثث الخليفة « عبد الله » ، والخليفة « على واد حلو » (وهو خليفة آخر من خلفاء المهدى الثلاثة) وأحمد الفضيل ، وشقيقى الخليفة : السنوسى أحمد وحامد محمد ، وابن المهدى « الصادق » ، وعدد من الزعماء المعروفين .

« وعلى مسافة قصيرة خلفهم ، كانت خيلهم مترامية ميتة . ومن الأحياء القلائل الذين بقوا على قيد الحياة — وبينهم الأمير « يونس الدقن » — علمنا أن الخليفة إذ فشل فى الوصول إلى المرتفع ، حاول القيام بحركة التفاف سحقناها بنيراننا . فلما رأى رجاله يتراجعون ، قام بمحاولة عقيمة لاستنهاضهم ، ولكنه أدرك أنه خسر المعركة . فدعا الأمراء إلى الترجل عن خيلهم ، وجلس على فروته (فراء غنم) — على عادة زعماء العرب الذين يستهجنون التسليم — والخليفة « على واد حلو » إلى يمينه ، وأحمد الفضيل إلى يساره ، بينما حف بهم الأمراء الباقون ، واصطف حراسهم على حوالى عشرين خطوة أمامهم ، ولقوا مصرعهم بهذا الوضع غير مجفلين . وقد دفنهم من بقى من رجالهم ، دفناً لائقاً ، تحت إشرافنا » [١] .

وأضاف كيتشنر هذه الكلمات إلى تقرير « وينجيت » :

« أخيراً تخلصت البلاد نهائياً من الطغيان العسكرى ، الذى بدأ بحركة انتفاضة دينية تعصبية منذ تسع عشرة عاماً . وأصبحت المهدوية فى عداد

---

(١) اعتقل « عثمان دنجة » — آخر زعيم عربى بقى حراً — فى شهر يناير التالى .
(المؤلف)

الماضى ، وآمل أن يتفتح الآن للسودان عهد أكثر إشراقاً » .

ومع انصرام الأسابيع الأخيرة من القرن ، بدا فعلاً أن مستقبلاً أفضل قد تفتح ، لا للسودان وحده ، وإنما لوادى النيل بأكمله ، بعد أن انقضى أربعون عاماً تقريباً مذ كانت أعالى النهر حتى منبعه بطاحاً غير معروفة ، تشيع فيها الحروب القبلية والرق . أما فى مطلع القرن الجديد ، فكان العالم المتمدين يسعى من كل بقعة إلى وسط القارة . وكانت تجارة الرق تحتضر حثيثاً ، إن لم تكن ماتت تماماً ، وأعيد الخط البرقى ، وأنشئت خلال السدود قناة دائمة . وأصبح فى وسع المسافر — بفضل شبكة جديدة من الخطوط الحديدية — أن يشق طريقه دون ما مشقة ، على طول النهر بأسره. كما أن خطاً حديدياً آخر كان يجرى مده من الساحل الأفريقى الشرقى إلى بحيرة فيكتوريا .

ومن الطبيعى أن ألواناً رهيبة من الخراب كانت قد حلت ، فإذا سكان السودان قد هبطوا إلى ما لا يزيد على مليونين ، ولم يبق فى بوجندا سوى مليون ، بعد أن كان سكانها ثلاثة ملايين أو أربعة ، فى أيام سبيك وجرانت . وكان الطاعون البقرى قد أفنى قطعاناً كاملة من الماشية فى بعض مناطق ، وقدر لأوبئة أبشع أن تعقبه . وكانت ضفاف النيل الأبيض جرداء مقفرة لمئات الأميال . وعلى هذا الضوء ، كان من حق المرء أن يتساءل : ألم يكن الثمن الذى دفع من أجل المدنية باهظاً لدرجة فاحشة ؟ لقد كتب هارى جونستون ، فى نهاية القرن : « إن الكثرة من أراضى النيل اليوم ، فى حال محزنة بالقياس إلى حالها أيام حكم سير صمويل بيكر للسودان ، بل وأيام عهد « أمين » الفضى . . . ومن المحزن أن نفكر فى أن من المحتمل أن القوم كانوا (إذ ذاك) أسعد حالاً » .

على أن النحس كان قد بلغ منتهاه حوالى سنة ١٨٩٩ ، وبدأت فتوة أفريقيا — التى تفوق ما يتصوره العقل — تؤكد وجودها ثانية . ولعل جلادستون — الذى مات قبيل معركة أم درمان — راح يتململ فى قبره إزاء كثير مما فعله البريطانيون على طول النهر . ولكن الملكة فيكتوريا كانت — على أعتاب القرن الجديد — تستعرض المنظر بارتياح ، فقد باتت تحكم النهر من البحر الأبيض المتوسط حتى (جبال القمر) . كانت مصر والسودان وأوجندا جميعاً تحت سلطانها بالفعل ، إن لم يكن بالاسم . وأصبح النيل — لأول مرة فى تاريخه — طريقاً مفتوحاً من أفريقيا الوسطى حتى البحر .

خاتمة

أصبح شهود العيان الرئيسيون للأحداث التى ضمتها هذه الصفحة ، جميعاً فى عداد الأموات ، باستثناء « ونستون تشيرتشل » الذى يتحدى كل القواعد [١] .

وأمام كل هذه الشخصيات القوية ، يحس الإنسان بدافع يغريه بعقد بعض المقارنات والتصنيفات : فقد يتراءى للمرء مثلا ، أن بعض هؤلاء — مثل لفينجستون وجوردون — ولدوا عظماء . . . وأن بعضاً — مثل ستانلى ، وكيتشنر — أحرزوا لأنفسهم العظمة ، بمجهوداتهم . . . وبعضاً — مثل الخديو إسماعيل — أقحمت عليهم العظمة إقحاماً . ومع ذلك ، يبقى فريق آخر — ومنه بيرتون ، وأمين — لا يمت لأى من هذه الطبقات . على أن المؤكد أن تعطشاً مشتركاً للمغامرات كان يشدهم جميعاً إلى أفريقيا . ويلاحظ المرء أن كثيرين منهم كانوا أسكتلنديين ، وكانوا أبناء رجال دين ، وكانوا متأثرين بالأحداث الحربية الكبرى الثلاث فى زمنهم ، أو اشتركوا فيها : حرب القرم ، والعصيان الهندى ، والحرب الأهلية الأمريكية . وكانت الرغبة فى كبح تجارة الرق وتنصير القبائل الأفريقية ، والأرباح المرجوة من العاج ، والأمل فى اكتشاف الذهب، ومعادن أخرى ، وغريزة جامعى العينات العلمية وهواة الصيد ، ومجرد التطلع للسبق إلى التغلغل فى القارة الجديدة . . . كل هذه كانت تجتذب الرواد باستمرار ، ولا بد من الإقرار بأن قدراً كبيراً من الجهد بدد فى حملات لنجدة رجال لم يكونوا بحاجة ماسة إلى النجدة !

كذلك كان للإسلام فى أفريقيا تأثير قوى على المستكشفين ، فقد وجدوا جميعاً — بدرجات متفاوتة — أن عليهم أن يهادنوا العرب ، ومعظمهم اضطر ، كما كانت الحقيقة ، إلى أن يتخذ صبغة الإسلام وقاء ليظل حياً . فقد كان النخاسون العرب أول من نفذ إلى جوف القارة ، ولولا مساعداتهم لما قدر لغير قلة من الرحالين المسيحيين أى يتوغلوا فيه . فإن بيرتون كان قد شغف بطريقة العرب فى الحياة عندما وصل إلى أفريقيا ، كما كان أمين يحوم فى شفق إسلامى مسيحى

---

(١) وقد لحق بهم « ونستون تشيرتشل » بدوره ، فى يناير ١٩٦٥ . (المترجم)

عجيب . ولقد قامت رحلات « سبيك » على معلومات أمده بها العرب ، كما عقد ستانلى مشاركة بينه وبين « تيبو — تيب » ، وكان من المحتمل أن يموت لفينجستون مبكراً لو لم يخف النخاسون لمساعدته أكثر من مرة ، ولفترات طويلة . ولقد رأى بيكر أن يقضى عاماً فى تعلم العربية قبل أن ينطلق جنوباً إلى منابع النيل، ولم يجد غرابة — فيما بعد — فى العمل تحت رئاسة عاهل مسلم . أما جوردون ، فقد قام بكثير من التقارب مع الإسلام قبيل منيته ، وأباح الرق ، وكان ميالا لتنصيب « الزبير » حاكماً عامّاً على السودان . كذلك تضم رسائله ويومياته قرائن كثيرة على أنه كان يحترم العرب لقوة إيمانهم ، ويشعر المرء أنه كره من « سلاتين » ارتداده المزعوم عن دينه ، لا لأسباب دينية ، وإنما لأنه رأى الردة خسة وضعفاً . ولعل كيرك وبارينج كانا أقدر الجميع على صون استقلالهما — وأوربيتهما — ولكن هذا نشأ عن أنهما اعتادا قضاء معظم وقتهما فى قنصليتيهما ، وعن أنهما كانا حريصين ، يتشبثان بصلتهما الرسمية بوزارة الخارجية فى لندن .

ومن ثم ، فإن المسيحية نفذت إلى أفريقيا الوسطى تحت حماية الإسلام . ومما يجدر ملاحظته أن المسلمين استغرقوا وقتاً طويلا ليتبينوا ما كان يجرى، فكانوا فى الأيام الأولى لا يكادون يحجمون عن مساعدة المبشرين والرحالين ، وكانوا يرحبون بهم كرفاق متمدينين ، فى بوادى الهمجية الأفريقية الشاسعة . ولم يتحولوا إلى السلوك العدائى إلا أخيراً — فى نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر — حين تبينوا أنهم كانوا يواجهون الهلاك ، أو الخضوع على الأقل ، على أيدى المسيحيين ، وكانت النتيجة ثورة عرابى فى مصر ، وتمرد المهدى فى السودان ، واضطهاد المبشرين المسيحيين ومن تبعهم فى بوجندا[1] . وقد انتهت هذه القلاقل — كما رأينا — بانهزام الإسلام على طول النيل ، ولكنها كانت مجرد هزيمة مؤقتة . فمنذ سنة ١٩٠٠ أخذ الإسلام ينهض باطراد فى الشرق وأفريقيا الوسطى ، وأصبح المسلمون — فى الوقت الحاضر — أكثر حظوة

(١) بالرغم مما حاول المؤلف — فى ختام كتابه — أن يبديه من إنصاف ، فإنه يصر على أن يعزو الحركات الوطنية إلى أسباب دينية . أما الاضطهاد الذى لقيه المسيحيون فى بوجندا ، فلم يكن للإسلام يد فيه . كان زعيم بوجندا « موتيسا » قد أسلم ، فحاول لفينجستون وستانلى اجتذابه إلى المسيحية . فالمبشرون هم الذين بدأوا العدوان الدينى . ومع ذلك فلم يجتلب عليهم الاضطهاد سوى تنافسهم وتزاحمهم ، لأن إحدى بعثيتهم كانت فرنسية والأخرى إنجليزية . وفى هذا الدليل الضمنى على الحافز السياسى وراء جهودهم الدينية . (المترجم)

بالاتباع من المسيحيين ، فهم ، كما يبين « رولاند أوليفر » ، الفائزون فى « التسابق على أكثر شعوب العالم إيماناً بالروح ». ومن المسلم به أن الأغلبية اليوم فى « أوجندا » مسيحيون ، ولكنها سرعان ما ستصبح دولة مستقلة[١] ، كما أن مصر والسودان تحت حكم إسلامى فعلا . ولكن ما من عاقل يجرؤ على القول بأن هذه هى الخاتمة النهائية للمسألة . فالنزاع بين الديانتين — بين الشرق والغرب — يبدو جزءاً دائماً من المشهد الأفريقى ، ينساب أحياناً فى الخفاء ، وينساب أحياناً أخرى فى العلن ، وهو مستمر لا سبيل لتفاديه ، كالنيل ذاته .

على أن كل هذا لا ينبغى أن ينال من جلال ما حققه الرواد ، إذ ظفروا — فى عشرين عاماً تقريباً — بحل اللغز الجغرافى الذى حير العالم منذ بداية المدنية . ولنذكر أنهم ساروا على الأقدام إلى منابع النيل ، والبلاد بعد بدائية ومعادية ، كما كان شأنها فى عصور ما قبل التاريخ ، ولم يكن مناخها قد تغير ، ولا الأمراض قد تضاءلت ، ولا درايتهم بالمنطقة قد تجاوزت ما كانت عليه دراية الإغريق والرومان القدامى تقريباً . والواقع أن نجاح أولئك الرواد إنما كان نتيجة لتفجر الشجاعة والخيال اللذين عرف بهما العصر الفيكتورى .

إن أفريقيا الوسطى ، بضخامة عواصفها الممطرة ، وحرائق غاباتها ، وزلازلها ، وأوبئتها ، تدمر — بقوة عاتية — مخلفات الماضى ، ولكن ما بقى من هذه المخلفات لم تحجبه المدنيات الحديثة كثيراً . ولا يزال سلوك طريق الرواد من زنجبار إلى داخل القارة ، ثم الهبوط فى النيل الأبيض من منبعه حتى الخرطوم، تجربة لها ثمارها المجزية . ففى كل خطوة من الطريق ، يجد المرء ما يذكره بعبارة سجلوها فى يومياتهم ، أو برسم محفور ، أو مخطط بالريشة والمداد ، قدر له البقاء ، أو بلحظة انتصار أو نكبة صادفتهم فى تجوالهم . . فإذا بمائة عام تتلاشى فى لحظة !

ولقد أدت الأعاصير ، وقصف المدافع البحرية ، وعوامل التعرية فى جو المنطقة الحارة ، إلى إتلاف الواجهة المطلة على البحر من زنجبار ، وكم أعيد تشييدها

---

[١] نشر الكتاب فى سنة ١٩٦٠ ، قبل أن تحظى أوجندا باستقلالها . إنما الذى يستلفت النظر هو قول المؤلف : « إن الأغلبية اليوم فى أوجندا مسيحيون ، ولكنها سرعان ما ستصبح دولة مستقلة » . فماذا يفهم المرء من هذا ؟ أهو إيعاز جديد — مألوف دائماً من الاستعمار — بإثارة الشقاق بين الدينين فى الدول الحديثة الاستقلال ؟ . إن الذى يضاعف من هذا التوجس ، قوله بعد ذلك : « ما من عاقل يجرؤ على القول بأن هذه هى الخاتمة النهائية للمسألة » . (المترجم)

ولكنها، تحتفظ دائماً بشكلها العام الأول . ولا يزال بوسع المرء أن يرى — بعينى « بيرتون » — مراكب العرب التى كانت الرياح الموسمية تحملها إلى الميناء ، من الخليج الفارسى . . . وقصر السلطان ، وجدران الحصن الملحق به ، المشيدة من المرجان الأشهب . وعلى حدة — إلى اليسار — يقوم بيت مربع مرتفع ، لعل مبناه جدِّد ، ولكن المهم أن لفينجستون أقام فيه ، قبل أن ينطلق فى رحلته الأخيرة . وأثناء السعى إلى الشاطئ ، يشق المرء طريقه — خلال شوارع ضيقة — إلى القنصلية البريطانية القديمة ، التى أصبحت مركزاً لشركة تعنى بتجارة شرق أفريقيا . وقد يتاح له — إذا أسعده الحظ — أن يشاهد الطابق الأعلى، الذى كان « همرتون » يتخذه مسكناً استضاف فيه سبيك وبيرتون ، والذى اكتشف فيه كيرك وستانلى كراهيتهما المتبادلة ، والذى بقى جثمان لفينجستون فيه وقتاً قبل نقله إلى إنجلترا . وعلى مسافة قصيرة ، يقع بيت « تيبو — تيب » ذو الأبواب المزخرفة بنقوش محفورة . وفى بستان لأشجار المانجو — خارج المدينة — يجد الزائر أطلال قصر « الحريم » الذى أنشأه « برغش » لزوجاته قبيل موته . ولا بد أنه كان مبنى فخماً ، أما الآن فيجثم عليه صمت كصمت الأديرة . وإنه ليوحى بفارق مريح بالقياس إلى الدروب الحارة فى المدينة ، حيث لا تزال عربات « الريكشا » تشق طريقها بين الجموع ، وحيث لا تزال منتجات الجزيرة الغريبة تعرض للبيع — تماماً كما كانت تعرض منذ قرن — وسط أفواج من روائح العطور والبهارات ؟ .

ويجاور قصر « حريم » برغش المهدم ، بحر دافئ شفاف ، يغسل شاطئاً من فتات المرجان الناعم فى بياض الثلج . وتمتد خلفه مزارع الجزيرة الخضراء . ويلف زنجبار — فى معظم العام — هواء حار رطب ، كما يسودها دائماً ذلك الضيق الجاثم الذى يوحيه اقتراب عاصفة مطيرة ، مهما يكن صفاء السماء . وفى الأمسيات ، عند ما تخرج الجموع إلى حافة الماء ينشدون نسمة من الهواء ، تتذبذب أشعة الشمس الغاربة على سطح المحيط ، ولا يلبث صليب الجنوب (مجموعة من النجوم) أن يتبدى منخفضاً عند حافة الأفق . وفى الظلمة الزاحفة ، تخلف السفن فى المرفأ وراءها خطوطاً فسفورية لامعة . وما أشبه كل هذا بما وصفه بيرتون .

وفى المدينة متحف صغير ، يرى المرء فيه لوحات للسلاطين ، وملفاً لخطابات كتبها سبيك ، وجرانت ، ولفينجستون ، فضلا عن المعروضات المألوفة للفنون

والحرف المحلية . والمتحف منسق تنسيقاً بديعاً ، ومع ذلك فإن المرء يشعر — وهو يمر بنوافذ العرض — أن ثمة ما ينقصه : مخلفات تجارة الرق ! . . . وصحيح أن هناك أكثر من صورة لتيبو — تيب على الجدران — وفى أحد الأركان عمودان خشبيان ثقيلان ، أبلتهما الأطراف البشرية التى طالما احتبساها . ولكن زنجبار تريد أن تمحو الرق من ذكرياتها القومية . ولقد نمت الأدغال الآن وكست الكهوف التى كان العبيد يساقون إليها ، فى انتظار تصديرهم ، ولا يكاد يرى أثراً لسوق الرقيق القديمة ، التى وصفها جرانت بأنها « فضاء مثلث تحوطه أكواخ متداعية مسقوفة بأوراق نخيل جوز الهند ، يجلس فيها العبيد عرايا ، فى صمت الموتى » . ولا يزال الميدان الفسيح موجوداً ، ولكنه تغير تغيراً شاملا . وفى أحد جوانبه تقوم الكاتدرائية الإنجليكانية ، وبرج أجراسها — بساعته البريطانية الظاهرة — يقف حاجزاً منيعاً دون ذكرى الماضى الرهيب البغيض .

ولقد قضى المؤلف وقتاً فى الاطلاع على محفوظات « أرشيف » إرسالية الجامعات البريطانية إلى أفريقيا الوسطى ، التى اتخذت مركزها هنا منذ سنة ١٨٦٤ ، فإذا الأسقف « ستير » ومن خلفوه قد احتفظوا بسجل لحياتهم اليومية بخط جميل أنيق ، ومنه نعلم أن رفيق لفينجستون الرفى « سوسى » قد عمِّد باسم « ديفيد » ، بعد وفاة الرحالة ، وأن « مستر ستانلى وصل ليلة أمس » ، وأن بارجة بريطانية أخرى رفدت بثلة جديدة من الأطفال الأرقاء المحررين ، الذين عهد بهم لرعاية الإرسالية . . . ثم أنباء أخرى عن العبيد ، وتحريرهم ، وتعميدهم ، وزيجاتهم ، ووفياتهم . وتستمر البيانات صفحة بعد صفحة ، على مر الأعوام ، موحية بطابع البطء ، وانتقال حياة الجزيرة تدريجاً من عهد قوافل العبيد المجىء إلى الأيام الحاضرة . . . أيام بواخر السياح فى الميناء ، ومباريات « الكريكيت » فى المتنزه العام فى الأمسيات . . . جو عجيب . إن الصبغة المسرحية لزنجبار باقية ، ولكنها الآن مسرح بدون دراما !

والجهود أكثر بروزاً فى (باجامويو) ، على ساحل القارة . فهنا يريك القوم النافذة التى يُظن أن أمين سقط منها ، حين وصل مع ستانلى فى سنة ١٨٨٩ . وعلى النهر القريب ، يشاطر المرء اليوم بيرتون متعة « السكون الشامل العميق فى ليل المنطقة

الحارة ، لا ينتهكه سوى زئير ذكر التمساح العجوز فى وقت راحته ، ووقوقة « مالك الحزين » ، وصيحات وطلقات الحراس الذين يدركون من زمجرة فرس البحر — الذى يجاهد لبلوغ الضفة — أنه يغادر مقره المائى ليزور حقولهم » . ولقد هجرت طرق القوافل القديمة المفضية إلى جوف القارة ، ولكن المرء يصادف هنا أو هناك شيخاً مسناً يذكر بوضوح أيام الرق . وفى (مبوابوا) — التى كانت محطة مهمة للقوافل — يقوم قبر رجل تعس من رفاق ستانلى ، ويعيش فى المنطقة أفريقيون من حوالى عشرين أو ثلاثين قبيلة مختلفة ، من سلالة العبيد أو الحمالين الذين هجروا القوافل — فى طريقها إلى الساحل — أو تخلت هى عنهم لمرضهم . وكالبذور التى تذروها الريح ، استقروا وتأصلت جذورهم واستطاعوا أن يعيشوا .

ويستطيع المرء أن يتجه شمالا من (مبوابوا) نحو بحيرة فيكتوريا ، عبر سهول مراعى (وُمبير) — وهى الطريق التى سلكها أمين وستانلى — أو أن يسلك الطريق الأكثر شيوعاً ، وهى المفضية إلى (تابوره) . وما من شىء قد هذب تماماً فى هذه البلاد حتى الآن ، فلا يزال المرء يسمع بالسطو على الماشية ، وبالاشتباكات القبلية ، وبالقتل بالسهام المسممة ، وبـ « الأسد — الإنسان » ، وهو المعتوه الذى يسير على أربع فى جلد عاثت فيه العثة ، وقد تدرب على الزئير والوثب — أمام جماعة من السحرة — لينقض على طفل تعس ، ثم يذبحه بسكين ! . . ولا يزال الإسراف فى الخمور — الذى تحدث عنه كافة الرواد — منتشراً فى القرى ، مما يدل على أن الحياة فى هذه البلاد الجميلة لا تزال تفتقد شيئاً ، ففيها شعور جوهرى بعدم الرضى يؤدى إلى القنوط والتكاسل العاجز . وفى هذه البلاد كتب « بيرتون » أن الكآبة والرتابة تخيمان عادة على البشر فى البقاع الجميلة ، بينما يندر وجودهما فى الصحارى . وهذه الملاحظة تتراءى للمسافر أقوى ما تكون فيما بعد ، عند ما يبلغ بطاح السودان القاسية الجرداء . وهو قد يفتقد بعض الراحة فى انحداره على النهر نحو الخرطوم ، ولكنه لن يلبث أن يتبين أن فى الهواء شيئاً يثير النشاط ، على نقيض الطراوة والملل اللذين يستوليان على الوجود فى البحيرات الاستوائية .

ولقد أعيد بناء البيت الذى نزل فيه لفينجستون وستانلى — فى (تابوره) — بشكله الأصلى ، وجعل متحفاً تزين جدرانه طبنجات العرب وغيرها من التحف

المغتنمة : وتخامر المرء فكرة نسخ الرسائل التى كتبها « ستانلى » إلى « النيويورك هيرالد » بعد أن عاد الرجلان من (أوجيجى) إلى بحيرة تنجانيقا . وستشعر بغرابة وأنت تقرأ فى هذه البيئة المحيطة بك عناوين مثل : « العثور على الدكتور لفينجستون » ، و « الرحالة الشهير بصحة جيدة » ، فكأن الكلمات تستوقف الزمن لحظة . وليس من العسير أن تتمثل لفينجستون جالساً تحت شجرة « المانجو » القائمة أمام واجهة البيت ، يخطط للرحلة التى قدر أنها سوف تحمله إلى منابع النيل ، غير مدرك — لرحمة القدر — أنه لم يكن مكتوباً له أن يصل قط إليها ، إذ قدر له أن يموت بعد تسعة أشهر !

وهنا أيضاً — أو بالأحرى على مقربة من تلك المرحلة — بدأ بيرتون وسبيك شقاقهما ، فسار سبيك وحده ليتحقق من أنباء وجود بحيرة كبيرة فى الشمال . وقد أصبحت (موانزا) — التى لمح عندها بحيرة فيكتوريا لأول مرة — ميناء حديثاً تقوم على شاطئه بنايات أوربية ، بينما تتناثر « فيلات » وكنائس حول التلال الصخرية ، وتجرى فى المياه خطوط بواخر منتظمة إلى أوجندا وكينيا . ومع ذلك ، فلم تتغير القرى المجاورة عما كانت عليه فى سنة ١٨٥٨ ، وقد نمت أشجار « المانجو » — التى غرسها النخاسون فى الماضى — فبلغت ارتفاعاً كبيراً . ولا يزال العرب يتفيأونها وقد تربعوا على أرض شرفات أكواخهم المشيدة من طوب أسود . . . أولئك الرجال النحيلون ، الكرماء ، المضيافون ، ذوو العيون العسلية الرقراقة ، واللحى الخفيفة المتهدلة حول وجوههم ، الذين أحبهم « بيرتون » . ولكن الدراما انتهت ، ولم يعودوا يتجرون فى الرقيق والعاج ، وإنما تجارتهم اليوم فى الأقمشة القطنية ، والأزرار اللدائنية (البلاستيك) وما إليها ، وربما غافلوا القانون — فى أويقات عارضة — ليعرضوا قرناً صغيراً من قرون الخرتيت ، الذى لا يزال القوم فى الشرق يربطون بينه وبين خرافات التقوية الجنسية !

وتمتد من (موانزا) طرق مرصوفة بالحصباء ، تتبع طريق سبيك وجرانت تقريباً ، وتدور حول الشاطئ الغربى للبحيرة إلى (كاراجوه) . أما (بويرانيانجه) — عاصمة الملك « رومانيكا — » فلم يبق منها شيء يذكر . وإذ يبلغ المسافر قمة التل ، يرى صفحة الماء التى أسماها جرانت (ويندرمير) — لشدة شبهها بمنطقة البحيرات فى

إنجلترا — والمنطقة الجبلية خلفها تمتد إلى (رواندا أورواندى)[١] . أما السفوح التى تحت قدميه ، فسيراها خالية ، وسيجد حفرة سوداء تحف بها أشجار نامية ، فى مكان بلاط الملك « رومانيكا » . وتجاورها حلقة من أشياء حديدية صدئة ، غرست فى الأرض ، إذا تفرس فيها وجدها طبولا معدنية ، ورؤوس حراب عريضة وسهاماً ، وأوتاداً ذات فروع كأصابع اليد المبسوطة . . . وأدوات سحرية من الحديد على أشكال الماشية ، وقروناً حديدية . هذه هى رموز القبيلة المتوارثة ، ويقال إنها من عهد رومانيكا . ولكن القصر المشيد من أعواد البوص ، والذى كان الملك يستقبل فيه سبيك وجرانت — ثم ستانلى فيما بعد — والساحة التى كانوا يشاهدون فيها رقصات الحرب تحت ضوء القمر ، ودار الزوجات البدينات ، لم يبق منها أى أثر . فهى أشبه بالمناظر الخيالية فى رواية ، واقعيتها فى سجلات الرواد فقط ، وما اكتشفت إلا لتضيع معالمها من جديد !

أما (بوكوبا) — التى أنشأها « أمين » على الشاطئ الغربى للبحيرة — فمدينة تشيع فيها الخضرة والبهجة ، وتشتهر بالفسق . ويقال إن نساءها ذوات رقة وعواطف عارمة بدرجة غير عادية ، وإن الطلب عليهن كبير فى المواخير الأهلية فى أفريقيا الشرقية . وسواء صح هذا أو لم يصح ، فإن المسافر يلاحظ فيها جواً من الإشراق ، فالرجال والنساء — على السواء — يبتسمون له ملوحين بأيديهم أثناء مرور سيارته ، كما أنهم يرتدون ثياباً قطنية فضفاضة زاهية . ولقد حلت محل منطقة الأعشاب المهملة فى تنجانيقا حقول خضراء شاسعة ومزارع حافلة بالموز . والجو حار رطب ، ويقال إن هذا الطرف من البحيرة يشهد ٢٠٠ عاصفة ممطرة فى السنة ! . . وبعد المطر ، تؤلف فراشات المنطقة الحارة غطاء متعدد الألوان على البرك المائية فى الطريق ، ولا تلبث الأدغال أن تظهر ، تتخللها الزهور القرمزية لأشجار « الجهنمية » ، ويتبين المرء أنه يجتاز طريقاً من أعظم طرق الهجرة للطيور الأفريقية ، وقد شوهد منها أكثر من ألف نوع ، وهى تظهر فى أسراب هائلة فى المساء . ويجد المرء نفسه على أعتاب (أوجندا) .

ولم يبق من (روباجا) — عاصمة الملك « موتيسا » — الكثير ، وتؤلف تلالها

---

(١) كانت (رواندا أورواندى) آخر إقليم إفريقى تحت وصاية بلجيكا ، وقد استقل فى ١٤ يوليو ١٩٦٢ ، وأصبح دولتين هما جمهوريتا (رواندا) و (بورندى) . (المترجم)

السبعة الآن مدينة كمبالا ، وقد أصبح سليل موتيسا (المدعو « كاباكا موتيسا الثانى ») يحكم – تحت سيادة بريطانيا[١] – دنيا من حوانيت الهنود ، ودور السينما ، ومحطات السكك الحديدية ، والحافلات (الأوتوبيس) ، والكنائس المسيحية ، ومحصولات تجارية من الشاى والبن والموز . وقد تتيح الطائرات النفاثة القادمة من أوربا لركابها لمحة خاطفة من منبع النيل فى (جينجا) ، وإن كانت جينجا قد أصبحت حافلة بالبيوت الحجرية « البنجالو » الزاهية الألوان ، على نمط المدن التى أنشأها الاستعمار فى أفريقيا ، فأصبح المسقط الطبيعى للنهر من البحيرة حبيس جدران من « الخرسانة » المسلحة .

ولا بد للمرء من أن يمضى شمال المنبع – فى أعقاب سبيك ، وجرانت ، وشابيه لون ، ولينان دى بيلفون ، وأمين ، وجوردون – ليدخل (بوبنيورو) ، فيرى النهر كما رأوه . وكان من العسير – حتى سنة ١٩٥٩ – أن تنطلق أية سيارة فى الطرق الوعرة إلى مساقط (كاروما) ، حيث يبدأ النيل سيره الصاخب غرباً إلى بحيرة (البرت) . ولا بد أن الارتياح غمر صمويل بيكر وزوجته ، حين لمحا النهر أثناء نضالهما للعودة إلى هذا المكان بعد نكبة معركة « ماسيندى » . فهو منظر بديع . . . مياه دافقة تندفع مارة بجزر خضراء ، والزبد الأبيض يكللها بغزارة . وتبدو أفراس البحر وهى تصعد فى دوامات إلى السطح ، كبيادق الأفراس على رقعة شطرنج غير منسقة ، لم تزعجها كثيراً محطة توليد الكهرباء التى أقيمت على الشاطىء .

ولا يكاد النيل يصلح للملاحة لخمسين ميلا بعد هذه البقعة ، ولكنه – تحت مساقط (ميرشيزون) – ينبسط فى مجرى هادئ يتحرك فى دعة ، وعلى سطحه ملايين من ثمار الكرنب الأخضر الصغيرة . وهذه هى منطقة حصون « جوردون » و « أمين » ، التى كان أولها فى (ماجونجو) ، على الضفة اليسرى ، فوق ملتقى النهر

---

(١) حصلت (أوجندا) على استقلالها فى ٩ أكتوبر ١٩٦٢ ، وعاصمتها الرسمية (عنتبة) . أما (بوجندا) التى تردد أسمها كثيراً فى الكتاب فتؤلف أكبر إقليم من أقاليم أوجندا الأربعة . وقد حرص الاستعمار البريطانى على أن يسلم التجارة والأعمال الحرفية فى أوجندا – كما فعل فى كينيا – إلى الهنود وبعض العناصر الأسيوية التى شجعها على الهجرة إلى أواسط أفريقيا ، بدلا من أن يعلم العناصر القومية ويؤهلها للسيطرة على اقتصاد بلادها ، وهو ما كانت تفرضه عليه رسالة « التمدين » التى تعلل بها ليحتل البلاد . ويلاحظ أن فكرة الأستعانة بالعناصر الآسيوية قديمة فى تفكير الاستعمار ، سبقت احتلاله الفعلى للبلاد . وقد ذكر المؤلف – فى صفحات سابقة – أن « أمين باشا » كان يدعو الدول الأوربية إلى الاستعانة بالصينيين فى وسط افريقيا . (المترجم)

ببحيرة البرت مباشرة ، وقد اقتطعت من مساحته دروب أفراس البحر والفيلة القادمة إلى النهر لترتوى . ولكن (واديلاى) — عاصمة مديرية خط الاستواء أيام « أمين » — هى المدينة التى يتوق المرء لرؤيتها . وما من طريق برى معبد إليها ، بل يتعين على المرء أن يستقل إليها « اللنش » (متجهاً إلى الجنوب من بحيرة البرت ، حوالى خمسة وأربعين ميلا مع المجرى) ، أو يستقل سيارة نقل تشق طريقها مهتزة ، متأرجحة . ولقد اختار المؤلف طريق البر ، فى شهر ديسمبر ، فوجد نفسه وقد عزله عن النهر سياج سميك من الأعشاب الخشنة ، ارتفاعه حوالى ثمانين قدماً . ولم يكن ثمة أثر لطريق واضحة ، وبعدت الشقة عن آخر قرية . وصادفتنا — مرة أو اثنتين — نساء من الأهالى يحملن جرار الماء إلى أكواخهن المنعزلة ، وعند سؤالهن عن الطريق كن ينكرن وجود مكان يدعى (واديلاى) ، أو يهرعن متواريات بين الأعشاب . لذلك كان من المذهل أن يقفز فجأة رجل أفريقى طويل شبه عار ، وأن يشير بأصبعه السوداء إلى الأمام ، مطلقاً صيحة واحدة ، مبتهجة : « أمين باشا » . ولا شك أن أسرة هذا الرجل كانت هنا منذ عهد أمين ، وقد احتفظت فى ذاكرتها بالاسم حوالى ثلاثة أرباع القرن . كذلك كان من الواضح أنه حدس — ولا شك — أنه ما كان لرجل أبيض أن يأتى إلى هذه البقعة المنعزلة ، إلا لأمر يتعلق بأمين أو شبحه . وعلى كل حال ، فقد أدهشنا وبعث السرور إلى نفوسنا أن نلقى ما يذكرنا باستمرار الأشياء . ومالبث النهر أن عاد للظهور أخضر لامعاً ، كست ضفتيه حقول من البردى الشبيه بالريش . ولكن أين (واديلاى) ؟

هناك هرم من الأحجار يحدد موقع المدينة ، ويحمل لوحة كتب عليها :

واديلاى .

محطة مصرية (١٨٧٩ — ١٨٨٩) .

مركز مديرية خط الاستواء .

تحت حكم أمين باشا .

أما المدينة ذاتها ، فتحولت كلها — تقريباً — إلى أدغال . ولم يبق من الشوارع المنسقة ، وبيوت الموظفين الحجرية ، وأرصفة الميناء النهرى ، وقواعد المدفع ، سوى مجرد كومة من الأطلال الضارب لونها للحمرة ، متوارية تحت الأعشاب . بل إن

جدران الخندق الذى أحاط بالحامية يوماً — وكانت مرتفعة — تهدمت ولم تعد أكثر من ركامات خفيفة متموجة على سطح الأرض . وكذلك صارت حال كافة المحطات الأخرى على النهر ، ما عدا (دوفيله) — إلى الشمال قليلا — حيث تولى « جوردون » و « جيسى » تركيب أجزاء باخرتيهما جنوب الشلالات ، إذ تبدو بين أشجار النخيل التى نبتت ، آثار الحدود الخارجية للحصن .

وهنا أيضاً ، يطرأ على النهر تغير آخر ، فإن مياه شلالاته تندفع إلى بطاح جافة من أرض السودان ، ويبدأ أثر العرب فى التجلى . ومن الممكن أن تعتبر منطقة السدود عقبة هينة للمسافر — حتى الآن — بالرغم من أنه يجتازها على « رفاص » ، تحيط به الشباك السلكية ، لتصد البعوض . وما إن تحين نهاية اليوم — والرحلة من (جوبا) إلى المياه الصافية بعد (ملكال) تستغرق ثلاثة أيام — حتى يدرك تماماً ما دعا « بيكر » لأن يكتب : « خلال الهدوء الشامل فى هذه المستنقعات الشاسعة، يفوق الشعور بالاكتئاب كل وصف . إن النيل الأبيض من أنهار الجحيم حقاً » .

والواقع أن تعطل السفن عن السير وسط هذه البرارى الخضراء المشبعة بالرطوبة ، أمر يسحق الروح المعنوية . أما احتمال اقتراب الموت بالجوع والحمى هناك — كما حدث لجيسى — فأمر أبشع من أن يتصوره المرء . وحين ترى أعواد البردى لأول مرة رأى العين ، أو ترى رسمها محفوراً على أثر مصرى ، فإنها تبدو لك جميلة ذات براعم رقيقة ، تؤلف منظراً مألوفاً متوارثاً . أما حين تتضاعف بدرجة جنونية ، فى مئات الأميال المربعة المترامية ، كأنها بحر أخضر يحيط بالمرء من كل جانب ، فإن تأثيرها يغدو موحشاً ، يثير فى النفس التوجس والتشاؤم . والقنوات التى تسلكها الباخرة ، كثيراً مالا يتجاوز عرضها أربعين أو خمسين ياردة ، فلا يطل المسافر إلا على جدران لانهاية لها من الأعواد المتشابكة ، يخيل إليه أنها تطبق عليه كأنها جدران سجن أو متاهة مغلقة ! . . . بل إن المياه فى القناة ذاتها غير صافية ، فإن أشد النباتات المائية تكاثراً — وهى الأصلة المائية — تستشرى فى النيل . وهى تمتد من الضفتين فى خيوط طافية من الزهور القرمزية الجميلة . ومع أن « الرفاصات » تقتحم صفوفها وتقطعها ، فإنها لا تموت أبداً ، بل إنها تزداد استيلاء على النهر من سنة لأخرى ، وكان من الممكن أن تسد المجرى من جديد — كما كانت الحال أيام

« جيسى » — لولم يكبح جماحها .

وجنوب السودان — برماله السافية وحرارته القاسية — أشد بطشاً بمخلفات الماضى من أوجندا . وعندما قام « وينستون تشيرشل » — كوزير للمستعمرات — برحلته إلى جنوب النيل ، فى سنة ١٩٠٧ ، كانت (جوندوكرو) لا تزال معروفة للعالم ، وقد وجد هناك ستة بيوت ، وأكواخاً للأهالى ، ومكتباً للبرق ، وسجناً ، ومحكمة ، وشركة بنادق « كينجز » الأفريقية . أما الآن ، فلم يبق من هذا سوى القليل ، وقد تلاشى حصن بيكر تماماً . كذلك تحولت كل آثار معسكر الكابتن « مارشان » — فى (فاشودة) — إلى تراب ، وليس فى جزيرة (أبا) ما يوحى بأنها كانت يوماً مهد دولة المهدى !

على أن فى الخرطوم مزيداً من معالم الماضى . وقد أعيد إنشاء ضريح المهدى فى أم درمان ، وحولت دار الخليفة إلى متحف . وتفصل المكان عن ميدان المعركة — الذى لا يزال صحراء جافة صخرية مترامية ، كما كان سنة ١٨٩٨ — رحلة قصيرة . ولا تكاد مدينة الخرطوم الجديدة ، على الضفة المقابلة ، تشبه فى شىء الحصن الذى عرفه جوردون . بل إن تمثال الجنرال قد أزيل فى السنوات الأخيرة . ولا يستطيع المرء أن يطمئن إلى عثوره على الموقع الدقيق لسلم القصر الذى وقف عليه جوردون عند ما طعن بالحراب حتى مات . ومع ذلك ، فلا يزال المنظر الذى يتراءى من فوق سطح كما رآه جوردون تقريباً : معالم الأكواخ الطينية المنخفضة فى أم درمان ، والصحراء المترامية على الجانبين حتى تتوه فى أطياف السراب على صفحة الأفق ، والنيل الأزرق وهو ينساب ليلتقى بالنيل الأبيض .

وهنا يكشف النهر — أكثر مما يكشف فى أى مكان آخر — قوته العارمة ، الهادئة ، البطيئة . فإلى هنا يكون الرافد الرئيسى — النيل الأبيض — قد قطع ٢٠٠٠ ميل ، قادماً من وسط أفريقيا . وهو جد واسع ، أشبه بالبحيرة ، حافل بالنقالات النهرية والمراكب الشراعية ، ويشق على المرء أن يصدق أن أمامه ٢٠٠٠ ميل أخرى يقطعها قبل أن يصل إلى البحر !

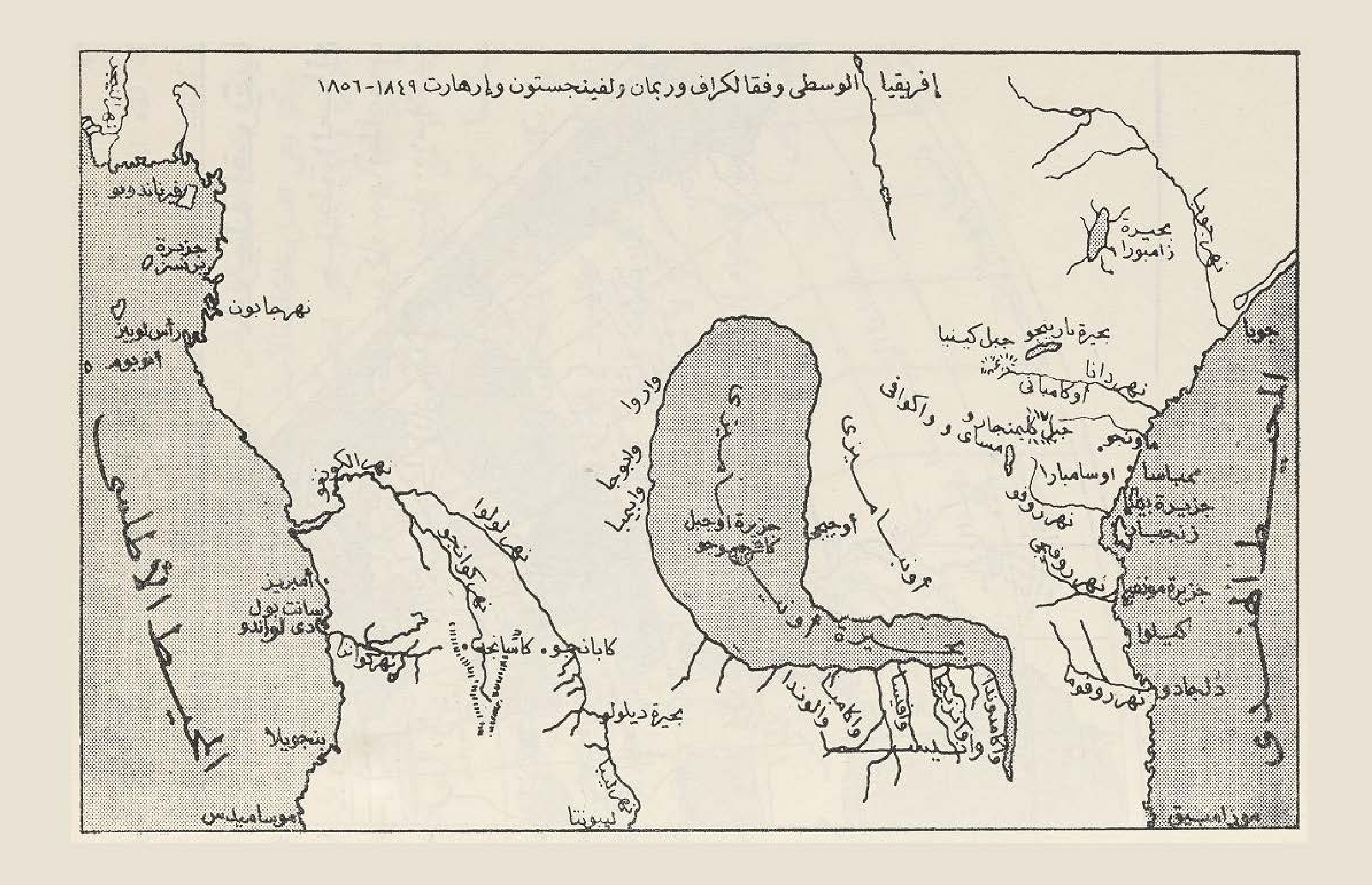
ولكن النيل — فى الخرطوم — أكثر من مجرد شريان عظيم ، يدفع الحياة فى الرمال المجدبة ، فهو يتسم بطابع من صفات الزمن كذلك ، يتسم بشىء لعله يتصل

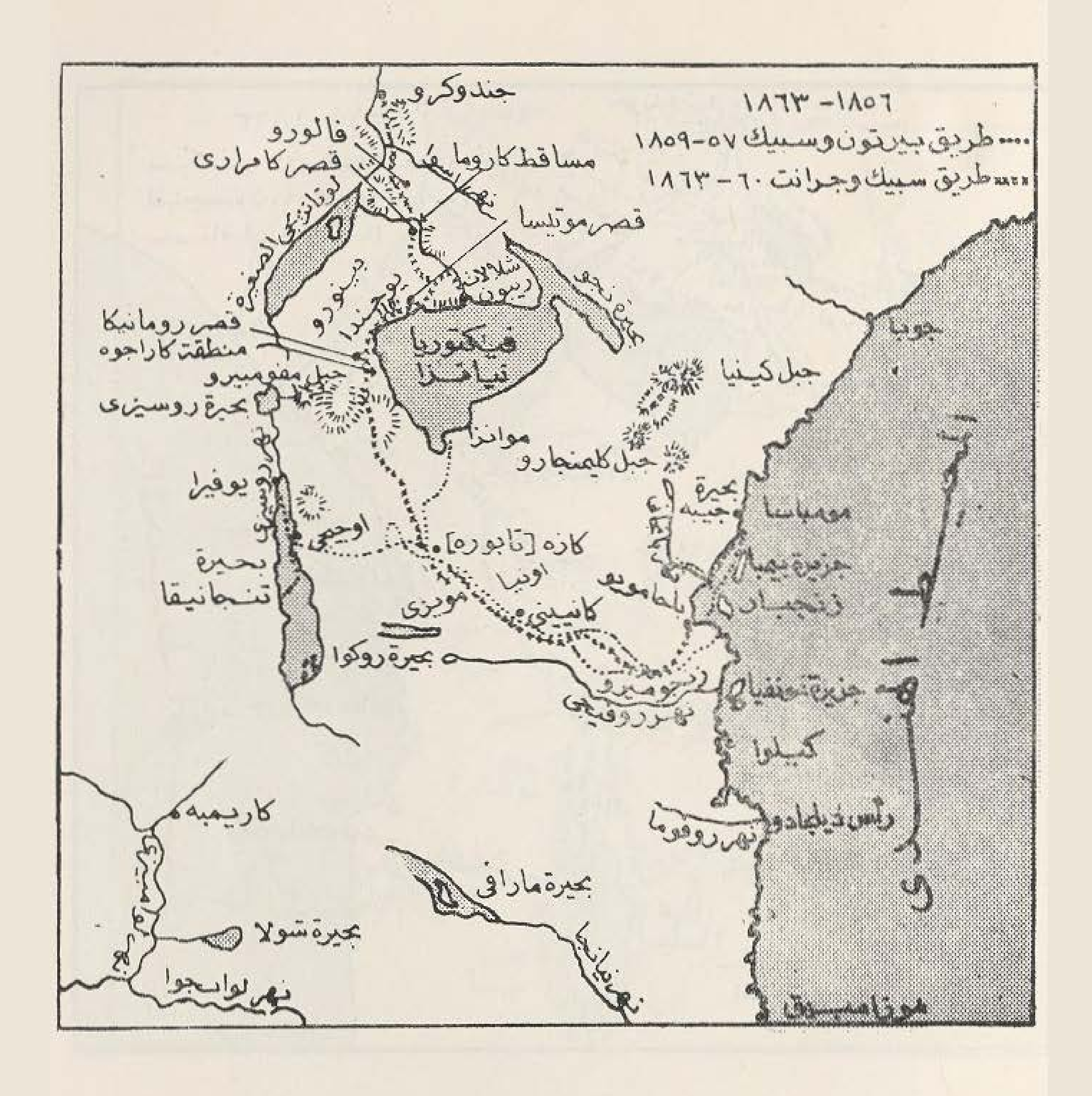
بحركة الماء المستمرة . فلا يشعر المرء هنا بأنه بعيد جداً عن جنود « ولسيلى » و « كيتشنر » وهم يشقون طريقهم من مصر ، أو عن محاربى الخليفة ، أو عن « سبيك » وهو يحاول إصابة أفراس البحر برصاصه من خلال أعواد البوص ، أو عن مسز بيكر وهى تغسل شعرها الأصفر بنفس هذا الماء ، أو عن المهدى وهو يصلى فى جزيرة (أبا) ، أو عن لفينجستون وجوردون وجيسى ، أو عن كثيرين غيرهم وهبوا النهر حياتهم ، بطرقهم المختلفة ، أو عن بيرتون وستانلى اللذين قامرا بسمعتهما عليه ، أو عن هيرودوت نفسه وقائدى « نيرون » الرومانيين! . . . إن النهر يربطهم جميعاً معاً ، كل منهم كان مشدوداً إليه بقوة لا قبل له بمقاومتها .

ولا يكاد يوجد فارق يذكر بين أن نفكر فى المجرى كما هو فى القرن الحالى ، أو كما كان فى عهد بطليموس . فالنيل يبدو مستعصياً على التغير . وهو ينساب اليوم ، كما اعتاد أن ينساب دائماً ، مجدداً ذاته باستمرار ، من عام إلى عام ، ومن قرن إلى قرن . . سيل لا نهاية له من الماء الدافئ ، المانح للحياة ، يشق نصف أفريقيا من خط الاستواء إلى البحر الأبيض المتوسط . وهو لا يزال أعظم نهر على سطح الأرض !

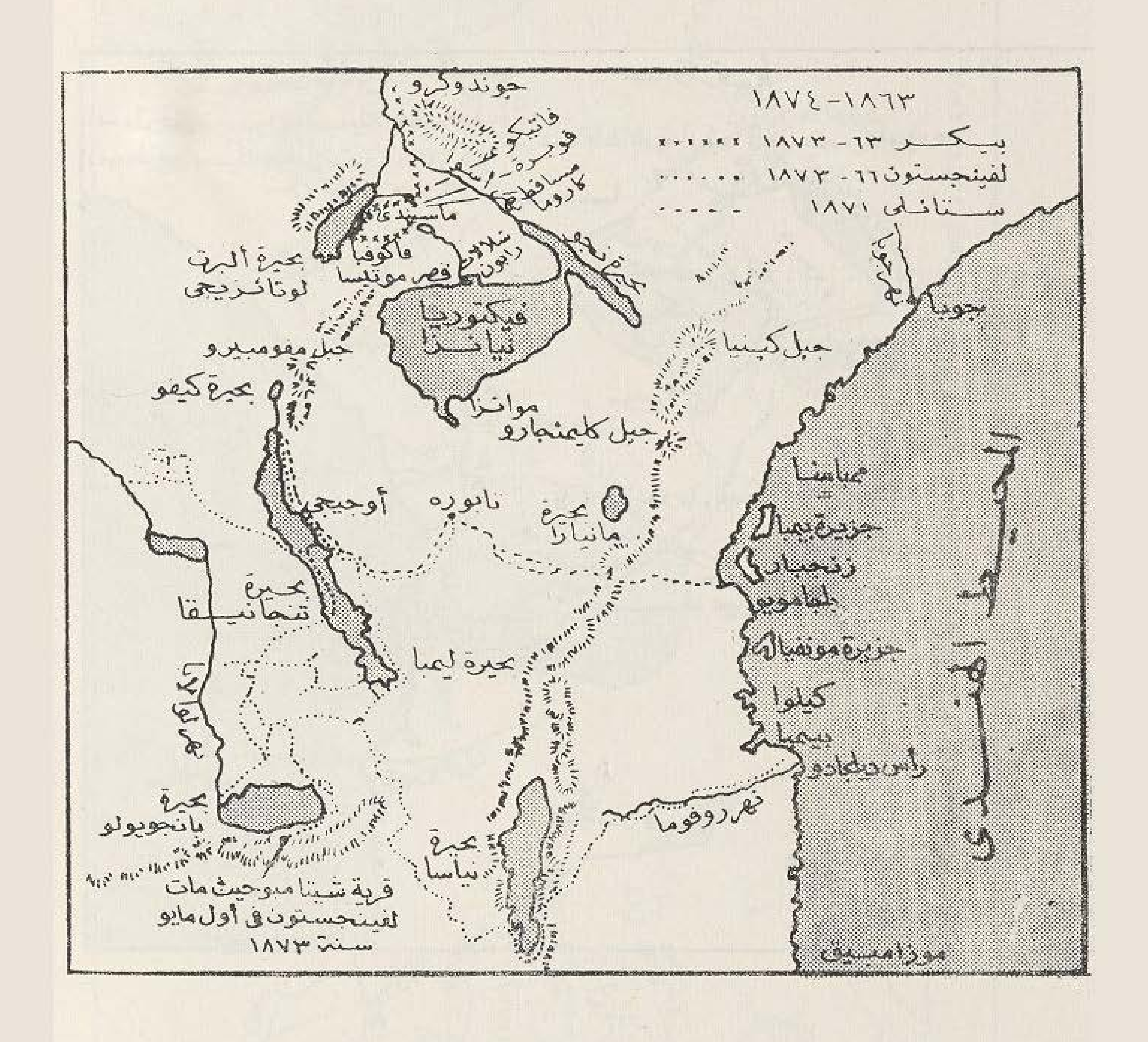


خريطة افريقيا
نقلا عن:
خريطة العالم
كما رسمها "بطليموس"
سنة ١٥٠ ميلادية
سارماتيا
جبل القوقاز
آسيا الصغرى
آمون
ليبيا
جرامانتيس
النوبة
بحيرة كولوي
النيل
منابع النيل
جبال القمر
رابتا
اثيوبيا الداخلية
أراضى مجهولة

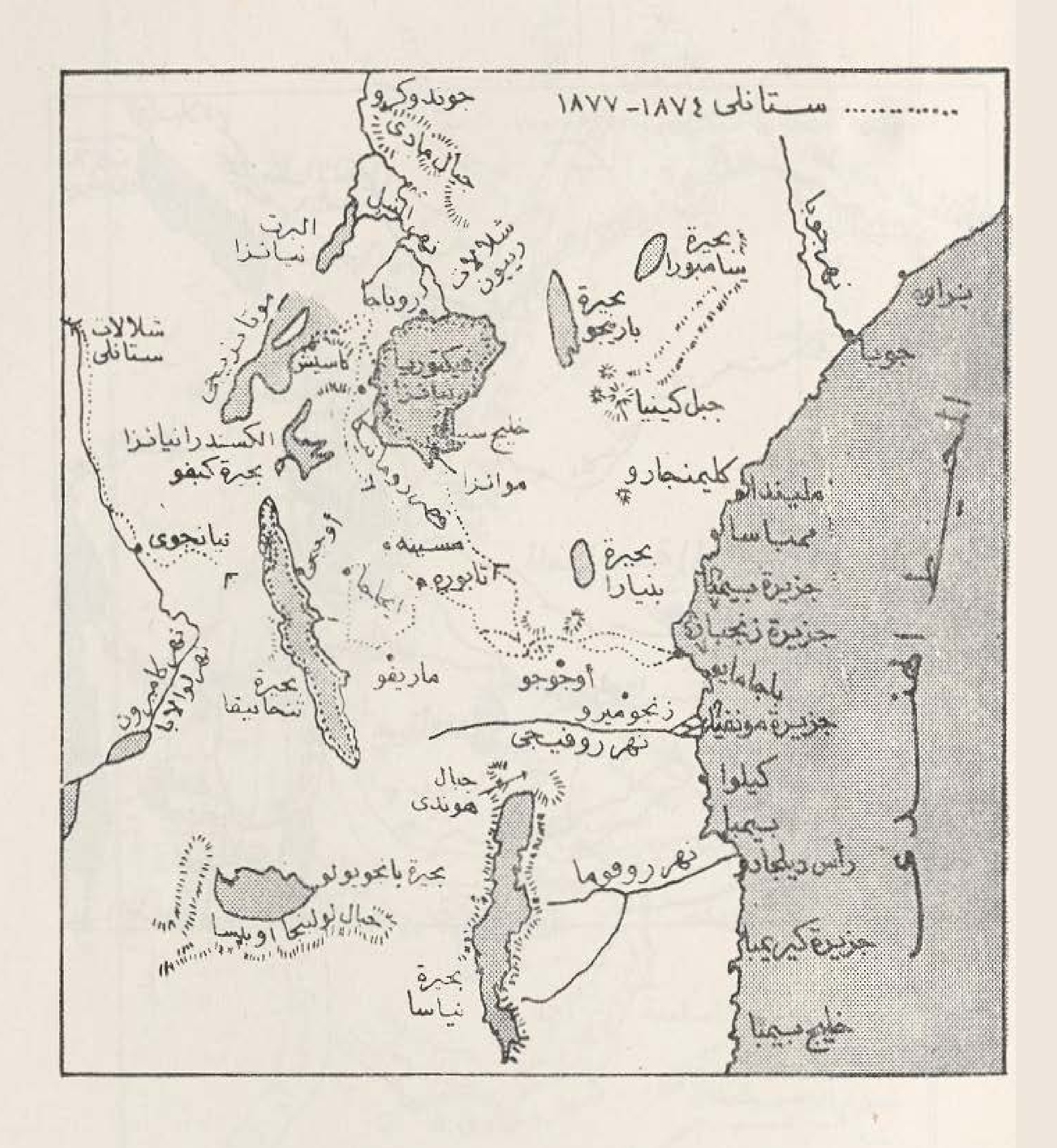

إفريقيا الوسطى وفقا لكراف وربمان ولفينجستون وإرهارت ١٨٤٩-١٨٥٦
المحيط الهندي
بحيرة زامبورا
جوبا
بحيرة باربنجو
جبل كينيا
نهر دانا
أوكامباني
جبل كلمنجارو
مساي و واكوافي
ممباسا
أوسامبارا
جزيرة بمبا
زنجبار
نهر روفو
نهر روفجي
جزيرة مونفيا
كيلوا
دلجادو
نهر روفوما
موزامبيق
أوجيجي
جزيرة أوجبل
واروا
والبوجا
وابيبا
كابانجو
كاسانجي
نهر الكونغو
نهر كوانجو
نهر لولوا
بحيرة ديلولو
ليبونتا
سانت بول
دي لواندو
أمبريز
بنجويلا
موساميدس
نهر جابون
نهر رأس لوبيز
جزيرة برنسس
فرناندو بو
نهر الكونغو



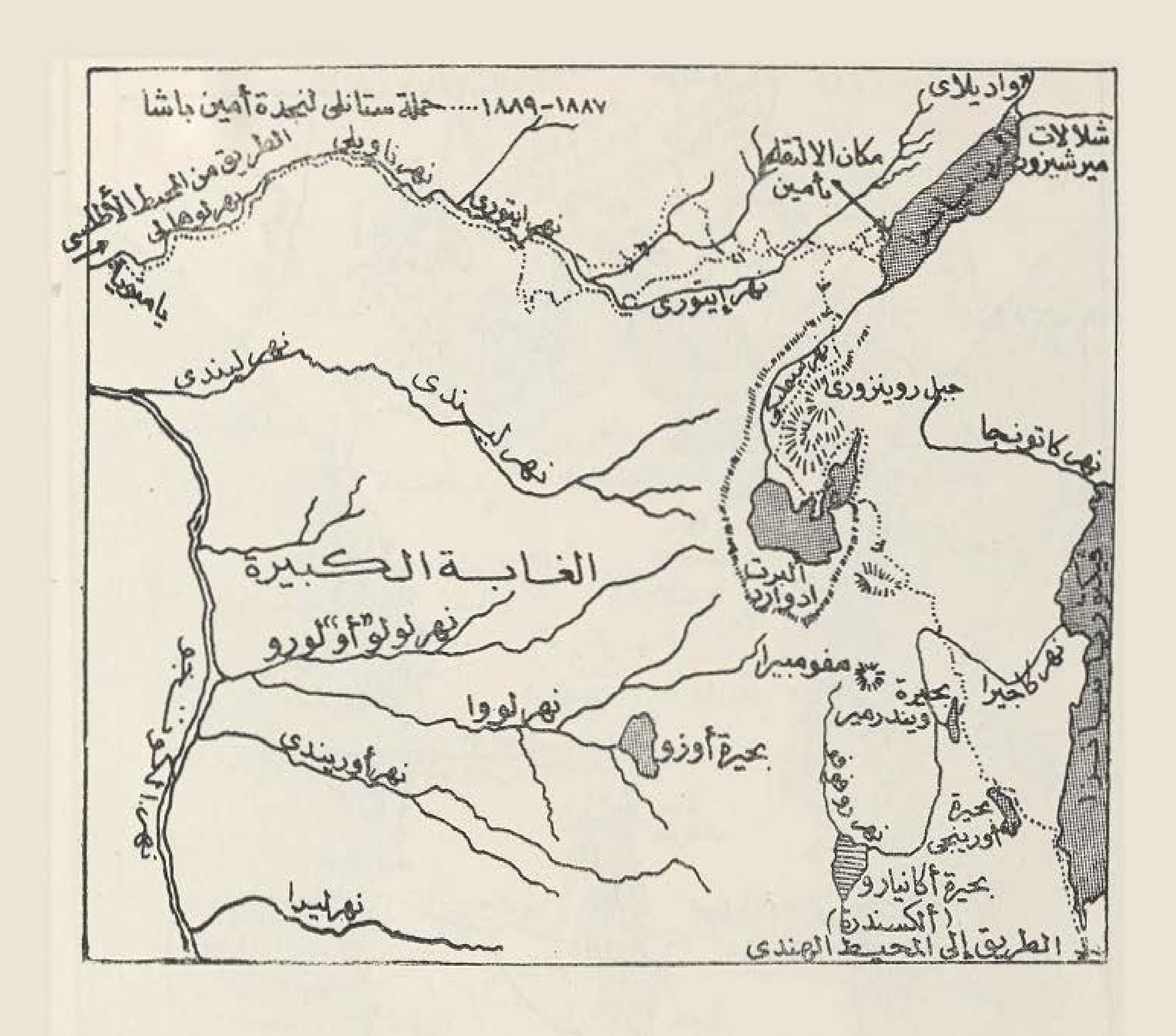
١٨٥٦ - ١٨٦٣
..... طريق بيرتون وسبيك ٥٧-١٨٥٩
..... طريق سبيك وجرانت ٦٠ - ١٨٦٣
جندوكرو
فالورو
مساقط كاروما
قصر كامرارى
قصر موتيسا
لوتانزيجى الصغيرة
قصر رومانيكا
منطقة كاراجوه
فيكتوريا
نيانزا
جبل مفومبيرو
بحيرة روسيزى
موانزا
جبل كينيا
جوبا
جبل كليمنجارو
يوفيرا
اوجيجى
كازه [تابوره]
اونيا
بحيرة
تنجانيقا
موبزى
كاسيني
بحيرة روكوا
ممباسا
جزيرة بمبا
زنجبار
جزيرة مافيا
كيلوا
رأس ديلجادو
نهر روفوما
كاريمبه
بحيرة مارافى
بحيرة شولا
نهر لوانجوا
موزامبيق



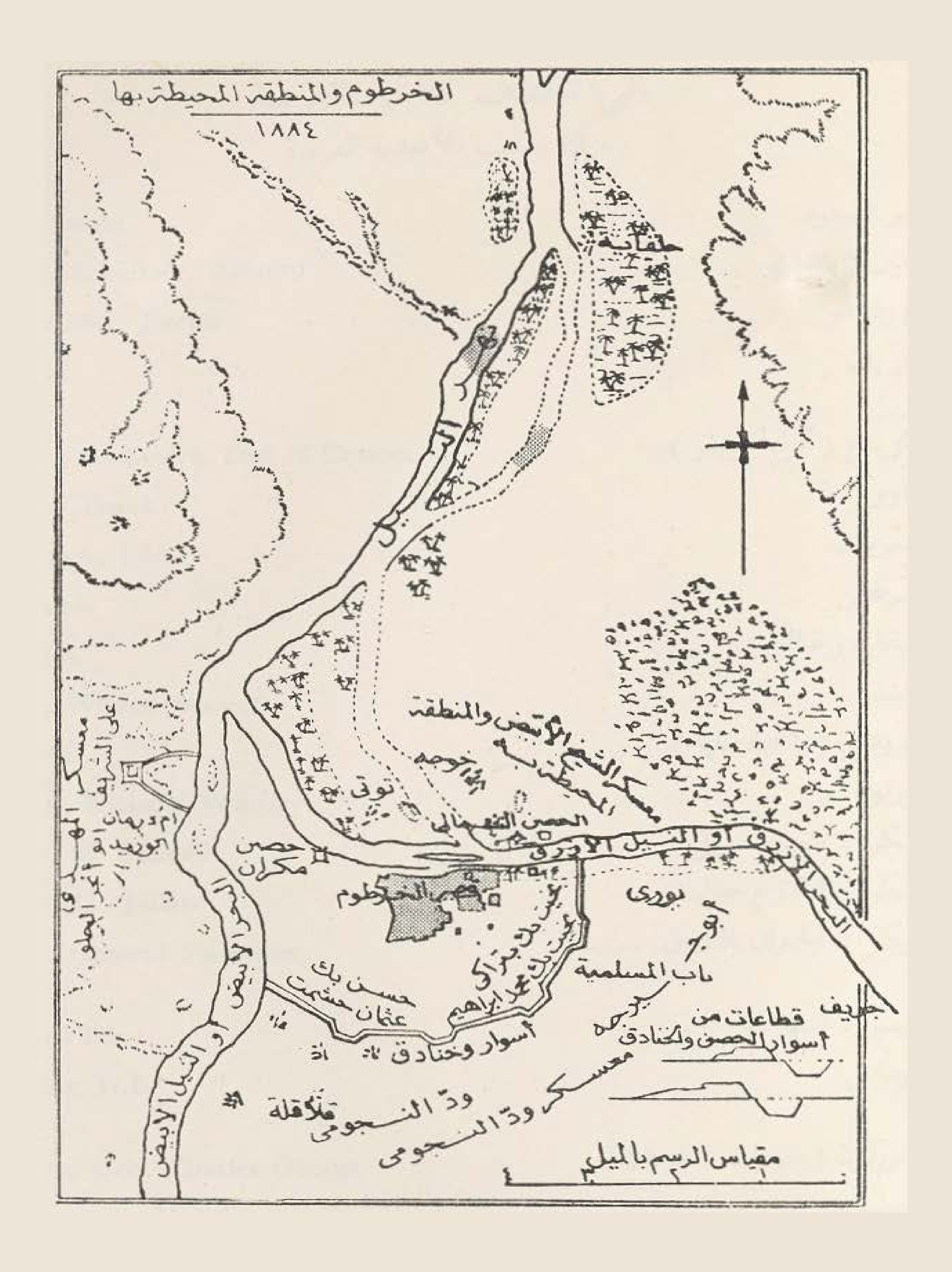
١٨٦٣-١٨٧٤
بيكر ٦٣ - ١٨٧٣
لفينجستون ٦٦ - ١٨٧٣
ستانلي ١٨٧١
جوندوكرو
فاتيكو
ماسيندي
فاكوفيا
بحيرة ألبرت
لوتانزيجي
قصر موتيسا
فيكتوريا نيانزا
جبل مفومبيرو
بحيرة كيفو
موانزا
جبل كليمنجارو
جبل كينيا
جوبا
ممباسا
جزيرة بمبا
زنجبار
باجامويو
جزيرة مونفيا
كيلوا
رأس دلجادو
نهر روفوما
بحيرة نياسا
موزامبيق
أوجيجي
تابوره
بحيرة مانيارا
بحيرة تنجانيقا
بحيرة بانجويولو
قرية شيتامبو حيث مات
لفينجستون في أول مايو
سنة ١٨٧٣



ستانلى ١٨٧٤-١٨٧٧
جوندوكرو
جبال مادى
نهر النيل
البرت نيانزا
شلالات ريبون
روباجا
شلالات ستانلى
فكتوريا نيانزا
الكسندرا نيانزا
بحيرة كيفو
موانزا
تابوره
نيانجوى
أوجيجى
بحيرة تنجانيقا
ماريفو
أوجوجو
بحيرة سامبورا
بحيرة بارنجو
جبل كينيا
كليمنجارو
بحيرة بنيارا
نهر جوبا
براوة
جوبا
مليندا
ممباسا
جزيرة بيمبا
جزيرة زنجبار
باجامايو
جزيرة مونفيا
زنجوميرو
نهر روفيجى
كيلوا
جبال هوندى
رأس دلجادو
نهر روفوما
جزيرة كيريمبا
خليج بيمبا
بحيرة بانجويولو
بحيرة نياسا



١٨٨٧-١٨٨٩ ..... حملة ستانلي لنجدة أمين باشا
الطريق من المحيط الأطلسي
نهر ناويلي
نهر أيتوري
نهر إيتوري
مكان الالتقاء بأمين
واديلاي
شلالات ميرشيزون
جبل روينزوري
نهر كاتونجا
نهر ليندي
نهر ليندي
الغابة الكبيرة
البرت ادوارد
نهر لولو أو لورو
مفومبيرا
نهر لووا
بحيرة أوزو
نهر أوريندي
نهر ليرا
بحيرة ويندرمير
نهر كاجيرا
بحيرة أوريجي
بحيرة أكانيارو
(ألكسندرا)
الطريق إلى المحيط الهندي



الخرطوم والمنطقة المحيطة بها
١٨٨٤
حلفاية
معسكر الشيخ الأبيض والمنطقة المحيطة به
توتى
الحصن
حصن
مكران
البحر الأزرق أو النيل الأزرق
قصر الخرطوم
بورى
باب المسلمية
حسن بك
عثمان حشمت
أسوار وخنادق
جريف
قطاعات من
أسوار الحصن والخنادق
معسكر ود النجومى
ود النجومى
ملاقلة
مقياس الرسم بالميل
البحر الأبيض أو النيل الأبيض
أم درمان

الحروف اللاتينية لأسماء بعض «الشخصيات» الهامة التى تختلف كتابتها بالعربية

مرتبة حسب الأبجدية العربية

أبو السعود	Abu Saoud
أمين (باشا)	Emin, Schnitzer, Eduard
أورفالدر	Ohrwalder, Joseph
أيربان	Herbin
بارينج (أيرل كرومر)	Baring, Sir Evelyn, Earl of Cromer
باور	Power, Frank
بِثريك	Petherick, John
برغش	Barghash
البقارة (قبائل)	Baggara
بلنت	Blunt, Wilfred Scawen
بوردين (باخرة نيلية)	Bordein
بيرتون	Burton, Richard Francis
بيكر ، سير صمويل	Baker, Sir Samuel
بيكر ، الملازم جوليان	Baker, Lt. Julian
بيكر ، الجنرال فالنتين	Baker, General Valentine
تيبّو ، تيب	Tippo - Tib
توماس	Thomas, H.B.
جوردون (غوردن ، غردون)	Gordon, Gen. Charles George
جونستون	Johnston, Sir Harry
جيسى	Gesi, Romolo
جيفسون	Jephson, Mounteney

الدنكة — (قبائل)	Dinka
ريبمان	Rebmann, Johann
سبيك	Speke, John Hanning
ستانلى	Stanley, Henry Morton
ستراتشى	Strachey, Lytton
ستيوارت ، كولونيل	Stewart, Col. J.D.H.
ستيورت ، سير هربرت	Stewart, Sir Herbert
سلاتين (سلاطين باشا)	Slatin, Rudolf C.
سمى	Smee, Thomas
سواحيلى (لغة)	Swahilih
سيدى بومبى	Sidi Bombay
الشايقية — (قبائل)	Shaiquiya
شاييه — لون	Chaillé - Long, Col. C.
الشلوك (قبائل)	Shilluk
شواينفورث ، دكتور	Schweinfurth, Dr. George
طومسون	Thomson, Joseph
فلكين ، دكتور	Felkin, Dr. R.W.
كاباريجا	Kabarega
كاساتى	Casati, Gaetani
كامرازى	Kamrasi
كراف	Krapf, Johann Ludwig
كوبلاند ، بروفيسور	Coupland, Professor
كولى ، ديسبوروه	Cooley, Desborough
كيتشنر ، لورد	Kitchner, Herbert (Lord)
كيرك	Kirk, John

Lupton, Frank	لبتون
Livingston, Dr. David	لفينجستون ، دكتور
Lugard, F.D.	لوجارد
Père Lourdel	لوردل ، الأب
Linant de Bellefond	لينان دى بيلفون
Magnus, Sir Philip	ماجنس
Marinus of Tyre	مارينوس الصورى
Masai	ماساى — (قبائل)
Mackay, Alexander	ماكاى
Mackinon, William	ماكينون
Mpiga	مبيجا
McKillop, Capt. H.F.	مكيلوب
Mwanga	موانجا
Mutisa	موتيسا ، الملك
Murchison, Sir Roderick	ميرشيزون
Neufeld, Charles	نيوفيلد
Hansal	هانسال
Hamerton, Lt. - Col. Atkins	همرتون ، ليفتننت كولونيل
Hicks, Col. William	هيكس ، كولونيل
Wolseley, Sir Grant (Lord)	ولسيلى ، سير جرانت (لورد)
Wilson, Sir C. Rivers	ويلسون ، سير سى . ريفرز
Wilson, Sir Charles	ويلسون ، سير تشارلز
Junker, Dr. Wilhelm	يونكر ، دكتور

الأسماء اللاتينية لبعض « الأماكن » التى قد تختلف كتابتها بالعربية

مرتبة حسب الأبجدية العربية

Abba Island	آبا — جزيرة
Abu klea Wells	أبو كلية — آبار
Asua River	اسوا — نهر
Albert lake	ألبرت — بحيرة
Albert N'yanza	ألبرت نيانزا — بحيرة
Uganda	أوجندا (أوغندا)
Ujiji	أوجيجى
Urondogani	أوروندوجانى
Oldovai Gorge	أولدوفاى — ممر
Patooan Island	باتوان — جزيرة
Bagamoyo	باجامويو
Paganini	باجانينى
Baringo Lake	بارينجو — بحيرة
Bangweolo Lake	بانجويولو — بحيرة
Barawa	براوه
Berber	بربر
Berbera	بربره
Bumbire	بمبيرى
Bunyoro	بنيورو
Buhuka	بهوكا
Buganda	بوجندا (بوغنده)
Bukoba	بوكوبا
Bweranyange	بويرانيانجه
Pemba Island	بيمبا — جزيرة

Tabora	تابوره
Chuma	تشوما
Tumbuktu	تمبكتو
Tanganika	تنجانيقا
Jakdul Wells	جقدول — آبار
Juba	جوبا
Gondokoro	جوندوكرو (غوندوكرو)
Darfur	دارفور
Debba	الدبة
Dongola	دنقلا
Dufile	دوفيله
Rubaga	روباجا
Rusizi	روسيزى
Rovuma	روفوما
Ruenzori	روينزورى
Rionga	ريونجا
Zambezi	زمبيزى
Zanzibar	زنجبار (زنزبار)
Zungomero	زنجوميرو
Salem, U.S.A.	ساليم—(بلدةمن بلدان الولايات المتحدة)
Sudd	السدود
Sarawak, N.E. Borneo	سرواك (شمال شرق ساحل بورنيو)
Sennar	سنار
Sobat	السوباط -- نهر
Serengeti	سيرينجيتى — سهول

Chitambo	شيتامبو
Adowa	عدوة
Atbara	عطبرة
Fatiko	فاتيكو
Fashoda	فاشودة
Vacovia	فاكوفيا
Faloro	فالورو — حامية
Foweira	فويره
Fola Falls	فولا — مساقط
Kagera	كاجيرا — نهر
Karagwe	كاراجوه
Karuma Falls	كاروما — مساقط
Kazeh	كازه
Kafu	كافو — نهر
Kaole	كاول
Kassala	كسلا
Kalahari	كلهارى — صحراء
Kampala	كمبالا
Congo	الكونجو (الكونغو)
Kondoa	كوندوا
Kismayo	كيسمايو
Kilwa	كيلوا
Kenya	كينيا
Kioga	كيوجا — بحيرة
Lado	لادو
Lambaréné	لامباريني

Lamu	لامو
Lualaba	لوالابا — نهر
Lüta Nzigé	لوتا نزيجى
Magungo	ماجونجو
Masailand	ماساى — أراضى عشائر الماساى
Masindi	ماسيندى
Mpwapwa	مبوابوا
Metemma	متمه
Equatoria	مديرية خط الاستواء
Massawa	مصوع
Marra	مرّا
Merowe	مروى
Merooli	مرولى
Malakal	ملاكال
Mombassa	ممباسا
Mwanza	موانزا
Murchison Falls	ميرشيزون — شلالات
Lake No	نو — بحيرة
Nyasa Lake	نياسا — بحيرة
Nyangwe	نيانجوى
Nyanza lake	نيانزا — بحيرة
Nimule	نيمولى
Harar	هرر
Wadelai	واديلاى

محتويات الكتاب

الصفحة

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر



دار المعارف بمصر

٩٥ قرشاً ج . ع . م	٩٥٠ فلساً فى العراق والأردن	١٣٣٠ فرنكاً فى المغرب	
٧٦٠ ق . ل	٩٥٠ فلساً فى الكويت	١١,٨ ريالا سعوديا	
٩٥٠ ق . س	١١٤٠ مليماً فى تونس	١٩ شلناً	فى البلاد
٩٥٠ مليماً فى ليبيا والسودان	١٣٣٠ فرنكاً فى الجزائر	٢,٦٧ دولار	الأخرى

